

تفسير القرآن الحكيم

المشهور بتفسير المنار

هذا هو التفسير الوحيد الذى فسر به القرآن من حيث هو هداية عامة للبشر ورحمة للعالمين وجامع لأصول العمران وسنن الاجتماع وموافق لمصلحة الناس فى كل زمان ومكان بانطباق عقائده على العقل وآدابه على الفطرة وأحكامه على درء المفساد وحفظ المصالح . وهذه هى الطريقة التى جرى عليها فى دروسه فى الازهر الحكيم الاسلام ، وعلم الأعلام

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

الجزء الثانى

أوله (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) وقد بدى بنشره فى أول المجلد ٢٥ من المنار (سنة ١٣٤٢)

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

منشئ المنار

رحمه الله ورضى عنه

﴿ حقوق الطبع والترجمة محفوظة لورثته ﴾

(الطبعة الثانية — أصدرتها دار المنار بمصر ١٣٦٧ هـ)

الجزء التاسع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ
يَاشُعِيبُ وَالَّذِينَ مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ
أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا . رَبَّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ

هذه الآيات وما بعدها تامة قصة شعيب عليه السلام . مبدوءة بجواب قومه
له عما أمرهم به من البر ونهاهم عنه من المنكرات والآثام ، وأنذرهم إياه من
الانتقام ، بقوله (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) ورد بأسلوب الاستئناف البياني
كأمثاله من مراجعة الكلام وتولاه الملاء منهم أى كبار رجالهم كدأب الجماعات
والأقوام ، وهو :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى قال أشراف قومه وأكابرهم الذين
استكبروا عن الإيمان له وعثوا عما أمرهم به ونهاهم عنه اتباعا لأهوائهم —
وقد استضعفوه — تقسم لنخرجنك ياشعيب انت والذين آمنوا معك من
قريتنا الجماعة أومن بلادنا كلها — فلفظ القرية والبلد يطلق أحيانا على القطر
أو المملكة — أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وما ندين به من تقاليدنا الموروثة

عن آباءنا فتكون ملة السكم ومحيطه بكم معنا. ضمن العود معنى الظرفية ، وهو يتعدى باللام والى وفى ومنه (١٧ : ٦٩ أم أنتم أن بعيدكم فيه تارة أخرى) يعنى البحر إذ الخطاب قبله لمن مسهم الضر فيه وليس فيه من معنى الظرفية ما فى قوله (٢٠ : ٥٤) منها خلقناكم وفيها نعيدكم) يعنى الأرض والمعنى نقسم ليكون أحد هذين الأمرين : إخراجكم أو عودتكم فى الملة . فاختاروا لأنفسكم ، قيل إن التعبير بالعود يقتضى أنهم كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها وهو يصدق بالجمع فلا يناقى القول بعصمة الأنبياء من الكفر حتى قبل النبوة ، على أن شعبياً عليه السلام لم يكن قبل النبوة على ملة أخرى غير ملة قومه فيمنعهم ذلك من التعبير فى شأنه بالعودة ، وكونه لم يشاركهم فى شركهم ولا فى بخش الناس أشياءهم وهضم حقوقهم أمه سلبى لا يلتفت إليه جمهورهم ، ولا يعدونه به خارجاً عنهم ، وقال الراغب : العود الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه إما انصرافاً بالذات أو بالقول والعزيمة أه ومنه ذمه والدعوة إلى غيره ولا يقتضى هذا المعنى سبق الكون فيه ولا عدمه ، فلا حاجة إذن إلى تصحيح التعبير بما قيل من تفسير العود بالمصير ، وفيه من التكلف ما ليس فى القول بالتغليب ، ولا سيما فى جوابه عليه السلام .

﴿ قال أو لو كنا كارهين ؟ ﴾ يعنى أنعود فى ملتكم على كل حال من الأحوال حتى حال الكراهة لها الناشئة عن اعتقاد بطلانها وقبحها وما يترتب عليها من الفساد فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ؟ فلا استفهام للإنكار و «لوه للفاية» ، أو تأمرونا أن نعود فيها وتهودونا بالنفى من وطننا وإخراج من ديارنا إن لم نفعل ولو كنا كارهين لكل من الأمرين ؟ - على الأصل فيما يحذف متعلقه ، وهو أن يتناول كل ما يصلح له ، فلا استفهام للتعجب من صنيعهم واستنكار طلبهم ورفضه بدون مبالاة ، ووجه كل من الإنكار والتعجب جهل هؤلاء الملائكة بكنه الدين والملة ، وكونه عقيدة يدان الله بها ، وأعمالاً يتقرب اليه بأدائها وإن كان غنيا عنها ، وإتمام شرعها لتكمل الفطرة البشرية بالتزامها وجهلهم بكون حب الوطن ، وإلف السكن ، لا يبلغ هذه المنزلة ، وجهلهم هذا ظنوا أن شعبياً عليه السلام قد يؤثره ومن آمن معه التمتع بالأقامة فى وطنه ومجاراة أهله فى كفرهم ورذائلهم على مرضاة الله تعالى بالتوحيد المطهر للنفس من أدران الخرافات ، وبالفاضل المرقية للنفس فى معارج الكمال ذلك بأن الملة عند أولئك الملائكة امرين رابطة تقليدية . وعصبية قومية ، يجرى أصحابها فيها على قول الشاعر :

وهل أنا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد
وملة الرسل عليهم السلام ليست كذلك بل هي دين مالك للنفس ، حاكم على الوجدان
والعقل ، يقصد به الكمال البشري الأعلى ، معرفة الله تعالى والقرب منه ، وما يتبع ذلك
من صلاح الدنيا وسعادة الآخرة ، فان تمكن صاحبه من إقامته في وطنه واصلح أهله به فهم
أحق به بدءاً ودواماً ، وان منع فيه حريته ففتن في دينه كان تركه واجباً ، فان لم يخرج منه
شعيب ومن آمن معه إخراجهم كارهون كما أخرج خاتم النبيين مع السابقين الأولين
إلى الإسلام ، خرجوا مهاجرين كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، (٢٩ : ٢٥) وقال
إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم (وقد أوجب الله تعالى الهجرة على من
يستضعف في أرض وطنه فيمنع من إقامة دينه فيها ، ويوجب المتعصبون للأوطان
في هذا العصر الهجرة منها إذا منعوا حرية الشخصية فيها ودون الدين والوجدان ،
بل يعز على بعضهم أن يقيم في وطنه إذا منع فيه حرية الفسق والآثام ، ورب أناس
عز عليهم ترك وطنهم ، فأثروا البقاء فيه مفتونين في دينهم ، فأظهروا الكفر ليأمنوا
على حياتهم ، وظلوا يسرون المحافظة على الإسلام في خاصة أنفسهم ، ولكنهم لم
يتمكنوا من تلقينه لأولادهم وتربيتهم عليه فارتدت ذريتهم عنه في زمنهم أو من
بعدهم ، كما وقع لبعض مسلمي الأندلس بعد فل الأسبانيين لعرش دولتهم العربية
وإكراههم على التنصر أو الخروج من البلاد فخرج بعض وبقى آخرون تحت وعيد
قوله تعالى (٤ : ٩٦) إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا
كنا مستضعفين في الأرض - قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم
جهنم وساءت مصيراً (٩٧) إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون
حيلة ولا يهتدون سبيلاً (٩٨) فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً)
وقد قدر بعض المفسرين الفعل المحذوف من الجملة ومتعلق الكراهة هكذا :
قال أخرجونا من وطننا بغير ذنب يقتضي الإخراج ولو كنا كارهين لمفارقة
حرية نصين على الإقامة فيه ؟ وهو تخصيص لا وجه له ، فاللفظ يقتضي تقدير كراهة
كل من الأمرين لحذف متعلق الكراهة والمقام يجوز تخصيصه بالعود في ملتزمهم
لأنه الأهم عند الأنبياء ، والمناسب لبقية جوابه عليه السلام :

﴿ قد افترينا على الله كذباً ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾

هذا كلام مستأنف لبيان أهم الأمور وأولاهما بالرفض والكراهة وهو إنشاء في لفظ الخبر فاما أن يكون تأكيداً قسمياً لرفض دعوة الملائكة إلى المود في ملتهم كما يقول القائل : برئت من الذمة أو من ديني أو من رحمة الله تعالى ان فعلت كذا فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه في التوكيد - وإما أن يكون تمجيهاً خرج لاعلى مقتضى الظاهر وأكد بقدر الفعل الماضي ، والمعنى ما أعظم افتراءنا على الله تعالى ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهذا الصراط المستقيم ، بالحنيفية ملة إبراهيم ، وإذا كان من يتبع ملتكم بعد مفترياً على الله تعالى بقوله عليه ما لا يعلم ، لا بهداية من الوحي ولا برهان من العقل ؟ فكيف يكون حال من افتري عليه وضل عن صراطه على علم ؟ وان كفر الجحود وهو إنكار الحق وغطه بعد العلم به هو شر أنواع الكفر ، والافتراء على الله تعالى فيه أظفر ضرر الافتراء التي لا يقبل فيها أدنى عذر ؟ وأنت ترى أن التنجية أدل من العود على إثبات أنهم كانوا على ملة قومهم حقيقة . وقد علمت أن المفسرين يجعلونه تعليلاً لاستثنائه عليه السلام . وتقول بناء على ما قررناه من أن عدتهم إياه من أهل ملتهم لا يقتضى أنه كان يعبد ما يعبدون ، ويفعل من التطفيف ويخس الناس أشياءهم ما كانوا يفعلون : إنه يصح أن يشمل إيجاه الله تعالى إياه منها بمعنى انجائه من الانتماء إلى ملة ما كان يؤمن بمعتقدتها ، ولا يعمل عمل أهلها ، ولا كان يهتدى بعقله ورأيه إلى ملة خير منها ، فكان موقفه موقف الخيرة في شأنها ، كما يؤخذ من قوله تعالى في خطاب النبي الخاتم الأعظم ، ﷺ (ووجدك ضالاً فهدى) وتفسيره بقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) الآية

(وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) هذا رفض آخر للعود في ملتهم مؤكداً ببلغ التأكيده معطوف على مناسبة ، والتعبير يدل على نفى الشأن ، وهو أبلغ من نفى الفعل ، لأنه نفى له بالدليل وهو كونه غير مستطاع ، ولا جار على سنن الله في الاجتماع ، والمعنى ليس من شأننا أن نعود فيها في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله ربنا ، المتصرف في جميع شؤوننا ، فهو وحده القادر على ذلك لا يقدر عليه غيره لأنهم ولا نحن أيضاً ، لأننا موقنون بأن ملتكم

باطلة ضارة مفسدة ، وملتنا هي الحق ، التي بها صلاح الناس وعمران الأرض ، والموقن
لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره ، وإنما ذلك بيد مقلب القلوب سيحانه ورهن
مشيئته ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ فعنده من العلم بأسباب الإيمان والكفر
والهدى والضلال والصلاح والفساد ما ليس عندكم ولا عند أحد من الخلق ، ومشيئته
تجزي بحسب علمه وحكمته في خلقه وبما كان يعلمه عليه السلام من حكمته تعالى وسفنه
في خلقه أنه يقيم حجته بأهل الحق على أهل الباطل وينصرهم عليهم بالقول والفعل
ماداموا ناصرين له وقائمين بما هداهم اليه منه ، فكأنه يقول لهم : إذا كان الأمر
كذلك فلا تنظموا إذاً أن يشاء ربنا الحق بنا عودتنا في ملتكم بعد إذ نجأنا بفضل
منها وأقام الحجة عليكم بنا ، وما كان تعالى ليدحض حجته ، ويبطل سفنه

فهذا الاستثناء مؤسس للملا من قوم شعيب من عودته عليه السلام مع من
آمن معه في ملتهم ، لأنه بعد أن نفى وقوع العود منهم باختيارهم نفيًا ، وكذا بأنه ليس
من شأنهم ولا مما يحى من قبلهم في حال ما من الأحوال التي تطرأ عليهم كالترغيب
والترهيب والرجاء في المنافع والخوف من المضار ، ومنها الإخراج من الديار واستثنى
حالا واحدة وهي مشيئة الله تعالى وحده ، فدل على عموم النفي فيما عدا المستثنى وقد
يستعمل لتوكيده من غير ملاحظة لمتعلق المشيئة هل هو ممكن يجوز أن يقع أم لا ،
كقوله تعالى (سفرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) أو للتنبيه على النفي بكرم الله وفضله
لألا يوجب عليه وهو الوجه الذي اختاره شيخنا رحمه الله تعالى في تفسير سورة الأعلى . ولا
يخل بتوكيد عموم النفي جواز تعلق المشيئة بالنفي في كلام شعيب عليه السلام والقرائن
اللفظية والمعنوية تدل على عدم وقوع هذا الجائر وهو أنه تعالى لا يشاء عودته مع من
آمن معه في ملة قومهم . فهو قد قرر أن هذا شيء لا يقدر عليه إلا الله تعالى فطلبه
من غيره عبث ، يؤكد ذكر الرب مضافا إلى ضمير المتكلم ومن معه فأفاد بدلالة
الالتزام أو الاقتضاء أنه لا يشاء لهم إلا ما عودهم بحسن تربيته إليهم ولطفه وعنايته بهم
إذ أنجاهم من تلك الملة الباطلة ، وهو تأييد عصمة رسولهم وحفظ جماعتهم من
العود فيها ، فكان هذا بمعنى قول عبد أمين أراد أن يغويه بعض اللغوين
ويغريه بخيانة سيده الخفي به وصرف بعض ماله فيما يضره هو ويقسد
عليه نفسه . ليس هذا من شأنى ولا مما يدخل في تصرفي إلا أن يشاء سيدي
الصالح المصلح المعنى بشأنى . وهو أعلم منى بأمرى . فالتعبير ليس مسوقا

لتقرير حجة الأشاعرة على جواز مشيئة الله لكفرهم بالفعل ، ولا حجة المعتزلة على وجوب رعاية الصلاح والأصلح لهم ولنغيرهم بالعقل ، ولكنه يدل بطريق الالتزام على ما ذكرنا من عناية الرب سبحانه وتعالى برسله وأتباعهم المستقيمين على دينهم . ومضى سنته ووعد بتأييدهم ، المصريح به في آيات أخرى كقوله تعالى (إنا لننصر كفرهم بالفعل ، بل نختار لهم الأصلح بحكمته وفضله لا بإيجاب العقل .

وقد روى ابن جرير وغيره عن السدي أنه قال في الآية : وما كان ينبغي لنا أن نعود في شرككم بعد إذ نجانا الله إلا أن يشاء الله ربنا والله لا يشاء الشرك ولكن يقول إلا أن يكون الله قد علم شيئا فانه وسع كل شيء ، علما اه ولعله يريد أنه لا يشاء ذلك لأنه مخالف لسنته الحكيمة وفضله العظيم على رسله ومن آمن بهم . وإن كان لا يقع من أهل الشقاء بسوء اختيارهم إلا بإرادته ومقتضى سنته ، وسنته في الفريقين مختلفة كما شرحناه مرارا .

وقد سبق مثل هذا الاستثناء في سورة الانعام ، حكاية عن ابراهيم الخليل عليه السلام إذ قال لقومه (٦ : ٨١) ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء . علما أفلا تتذكرون) وقد اخترنا هنالك أنه استثناء من عموم الأوقات وأنه منقطع معناه . لكن إن شاء ربى أن يصيبنى فى وقت من الأوقات مكروه من قبل ما تشركون به كوقوع صنم على يشجنى ، فانه يقع بقدرته تنفيذاً لمشيئته ، لا بقدره شركائكم . ولا بمشيئتهم لأنهم لا قدرة لهم ولا مشيئة ، ثم علل ذلك بمثل ما علمه به بعده شعيب عليهما الصلاة والسلام وعلى نبينا وآله فقال (وسع ربى كل شيء . علما) أى ومعبوداتكم لا تعلم شيئا . الخ واخترنا هنا جعل الاستثناء من أعم الأحوال لا الأوقات وإن جاز الجمع بينهما ، لأن الوقت لا شأن له هنا ، على أن عموم الأحوال يستلزم عموم الأوقات .

ثم أكد عليه السلام ذلك كله بقوله ﴿ على الله توكلنا ﴾ أى اليه وحده وكلنا أمرنا مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من المحافظة على الدين الذى شرعه لنا ، فهو يكفيننا أمر تهديدكم ، وكل ما لم يجعله فى استطاعتنا من جهادكم . وذلك أن من أصول المعرفة بالله عز وجل التى يعرفها جميع رسله أن من توكل عليه كفاه (ومن يتوكل على الله

فهو حسبه) وإن من شروط التوكل الصحيح في الأمر القيام بكل ما أوجبه الله تعالى فيه من الأحكام الشرعية، ومراعاة ما اقتضته حكمته فيه من الأسباب والسنن الكونية والاجتماعية. فمن يترك العمل بالأسباب فهو جاهل مغرور، لا متوكل منصور ولا مأجور. وقال النبي ﷺ لمن سأله أيترك ناقته سائبة ويتوكل على الله تعالى «اعقلها وتوكل». رواه الترمذي وقال تعالى لرسوله بعد أمره بمشاورة أصحابه في غزوة أحد (فإذا عزمته فتوكل على الله) وإنما يكون العزم بعد الأخذ بالأسباب ومنها مظاهرتة ﷺ يومئذ بلبس درعين. وقد بينا ذلك مفصلاً في مواضع من هذا التفسير^(١)

وإخلاصة أنه ﷺ بدأ جوابه للعالم من قومه بالتعجب من تهديدهم وإنذارهم وإقامة الأدلة الدينية والعقلية على امتناع عودهم إلى ملة الكفر باختيارهم. وعدم استطاعة أحد على إجبارهم عليه غير الله تعالى الفعال لما يريد والاستدلال على أن هذا مما لا يريد. وثني ببيان توكلهم على الله تعالى الذي يكفي من توكل عليه ما أهمه وهو فوق كسبه واختياره، فتجتمع له العناية الكسبية والوهمية. ثم ثلث بالدعاء الذي لا يكون شرعياً مرجو الإجابة إلا بعد القيام بما في الطاقة من العمل الكسبي. والتوكل القلبى فقال

﴿ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ المعنى لمادة (الفتح) كما حققه الراغب إزالة الإغلاق والاشكال، وهو ضربان (أحدهما) ما يدرك بالبصر كفتح العين والقفل والغلق والمتاع من صندوق وغرارة وخرج وعلية و (الثاني) هو ما يدرك بالبصيرة كفتح أبواب الرزق، والمغلق من مسائل العلم، والمبهم من قضايا الحكم والنصر في وقائع الحرب، وفي آيات القرآن استعمالات من الضر بين كليهما ولك أن تقسمه إلى حسي ومعنوي. ومن الأول الفتح الذي يكون بالكلام كحكم القاضي وفتح المأموم على الإمام في الصلاة وهو أن يقرأ الآية التي أخطأ فيها أو وقف عن القراءة ناسياً لما بقي منها. وإلى حقيقى ومجازى ومن مجاز الأساس: فتح على فلان إذا جد وأقبلت عليه الدنيا، وفتح الله عليه. نصره. وفتح الحاكم بينهم، وما أحسن فتاحته أى حكمه، قال

(١) راجع كلمة التوكل في فهارس أجزاءه ومن أوسعها ما في ص ٢٠٧-٢١٤ ج ٤

ألا أبلغ بنى وهب رسولا بأنى عن فتاحتهم غنى
 وبينهم فتاحات أى خصوصيات . وفلان ولى الفتاحة بالكسر وهى ولاية
 القضاء وفتحها حاكمه . وعن ابن عباس : ما كنت أدرى ما قوله تعالى (ربنا افتح
 بيننا وبين قومنا) حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفتحك .
 وقالت إعرابية لزوجها بينى وبينك الفتح اه وأثر ابن عباس أخرجه قدما التفسير
 المأثور وابن الانبارى فى الوقف والابتداء واليهيق فى الأسماء والصفات وفسر
 المفتاحة فيه بالمقاضاة . وهو يدل لغة على أنها ليست قرشية بهذا المعنى ويؤيد
 ما روى عن السدى من أنها يمانية وخصها بعضهم بالخيرية وذو يزن من أسماهم .
 والمناسب أن كل فتح بين فريقين فهو بمعنى الحكم والفضل بينهما إما بالقول
 والفعل أو بأحدهما ومنه النصر ، ومن الآيات فيه (٢٦ : ٣٤) قل يجمع بيننا ربنا ثم
 يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم) ومنها حكاية عن نوح عليه السلام (١١٩ : ٢٦)
 فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجى ومن معى من المؤمنين) وهذا عين مراد شعيب
 عليه السلام فى دعائه الملاقى لإنداره قبله بقوله (حتى يحكم الله) الخ
 والمعنى : ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق الذى مضت به سنتك
 فى التنازع بين المسلمين والكافرين ، وبين سائر المحققين المصلحين ، والمبطلين
 المفسدين فى الأرض ، وأنت خير الحاكمين ، لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم
 وتنزهك عن الظلم ، واتباع الهوى فى الحكم

(٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ
 إِذَا تَخَمَّرُونَ (٩٠) فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ (٩١)
 الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ
 الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
 وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ

لما يؤس الملا من قوم شعيب من عودته فى ملتهم ، وعلموا أنه ثابت على مقارعهم ،
 خافوا أن يكثر المهتدون به من قومهم ، فحذروهم ذلك بما حكاه الله تعالى عنهم بقوله :

﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتن شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾

هذا عطف على (قال الملأ الذين استكبروا) وليس جواباً لشعيب عليه السلام ولا دخلاً في هذه المراجعة بيته وبينهم إذ لو كان كذلك لفصل ولم يعطف ، بل ذلك ما قالوه له والمناسب فيه وصفهم بالاستكبار فهو الذي جرأهم على تهديده وإنذاره الإخراج من قريتهم المشعر بأنهم هم أصحاب السلطان فيها ، وهذا ما قالوه لقومهم اغواء لهم بصددهم عن الإيمان له ، والأخذ بما جاء به ، والمناسب فيه وصفهم بالكفر . فهو الحامل لهم عليه ، سواء كان سببه الاستكبار عن اتباعه أو غيره ، بل لو علم أولوا الرأي من قومهم أن سبب صدمه عنه هو الاستكبار والعنوا أطيعوهم ، ولذلك عللوا لهم صدمه عنه بما يؤمهم أنه هو المصلحة لهم إذ قالوا لهم بصيغة القسم لئن اتبعتن شعيباً إنكم في هذه الحالة لخاسرون ، وحذف متعلق الخسار ليعمم كل ما يصلح له ، أي خاسرون لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملتته على ملة آبائكم وأجدادكم ، ومناط عزكم وفخركم ، واعترافكم بأنهم كانوا كافرين ضالين وأنهم معذبون عند الله تعالى . وخاسرون لثروتكم وربحكم من الناس بما حذقتموه من تطفيف الكيل والميزان وبخس الغرباء أشياءهم لا يتراز أموالهم وأي خسارة أكبر من خسارة الشرف والثروة ؟ فمعلوم أن اللام في قولهم « لئن » . موطئة للقسم وهي أقوى مؤكدة للكلام ، والجملة الاسمية وتصديرها بيان وقرن خبرها باللام وتوسيط « إذا » التي هي جواب وجزاء بين طرفيها . كل ذلك من المؤكدات لمضمونها الخادعة لسماعيتها ، وإن مثلها مما يروج بين أمثالهم في كل زمان ، ولا سيما من التفاخر بالآباء ، والتعصب للأقوام والأوطان ، فإننا ابتلينا في دعوتنا إلى الإصلاح عن كانوا يصدون الناس عنا وعن نصيحتنا لأهل ملتنا بأننا لم نولد في بلادهم ، ولا ننتمى إلى أحد من أجدادهم ، على أننا ننتمى بفضل الله تعالى إلى آل بيت نبيهم ﷺ ، وأن منهم من لا يعرف له نسب ، ومنهم من ليس من القبط ولا العرب ، وإننا نرى أشد الشعوب عصية للأوطان لا يجعلونها سبباً للصد عن العلوم والفنون ولا الدين ومذاهبه وإنما التنافس بينهم في جعل كل واحد منهم وطنه أعز وأقوى وأغنى وأقنى ولو باقتباس العلم من الآخر . نرى رجال الدين الكاثوليك من الألمان والفرنسيين أعواناً على نصر الكتلكة ونشرها في بلادهم وغيرها ، كما نرى مثل هذا بين رجال البروتستانتية من الألمان والانكليز ، كدأهم وسيرتهم في العلم ، فعلماء كل شعب

يتسابقون الى اقتباس ما يظهر عند الآخر من اختراع أو كشف عن حقيقة علمية أو اهتمام لسنة كونية أو منفعة للخلق . ويعززون كل أمر الى صاحبه ، ويقولون إن العلم لا وطن له . وانما يقع التغير والتفرق بين البشر في مثل هذا في إبان ضعفهم وغلبة الجهل عليهم ، وفشو التجاسد وسائر الأخلاق الرديئة فيهم . واعتبر ذلك في الأمة الإسلامية في إبان ارتقائها العلمي حتى القرن الخامس والسادس إذ كان مثل أبي حامد الغزالي يجيء ببغداد عاصمة العلم والملك الكبرى في الأرض فيكون رئيساً لأعظم مدرسة فيها بل في العالم (وهي النظامية) ولا يحول دون تلك كونه من فريضة طوس في بلاد الفرس — وفيما بعده إذ تغيرت الحال ، كما بيناه في مواضع من المسار ، ونحمد الله أن تلك النزعة الشيطانية تكاد تنزل من مصر بارتقاء العلم والعمران على كون النزعة الوطيفية العصرية تزداد قوة وانتشاراً

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ تقدمت هذه الجملة بنصها في بيان عذاب قوم صالح عليه السلام من هذه السورة (الآية ٧٧) فبراجع تفسيرها (في ص ٥٠٧ و ٥٠٨ من المجلد الثامن) وفيه أنه عبر عن عذابهم في سورة هود بالصيحة بدل الرجفة . وكذلك قوم شعيب — والرجفة المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب . ويصدق برجفان الأرض وهو الزلزلة ومنه (يوم ترجف الأرض والجبال) وبرجفان القلوب من الهول والخوف ومنه قول عائشة (رض) في حديث بدء الوحي « فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤده » والراجع هنا الأول والمعنى فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا في دارهم جاثمين على ركبهم أو منكبين على وجوههم ميتين . فهذا عذاب أهل مدين عبر عنه هنا بالرجفة وفي سورة هود بالصيحة ، كعذاب ثمود في السورتين ، وقد بينا وجه الجمع بينهما .

وفي سورة الشعراء أن الله تعالى أرسل شعبياً إلى أصحاب الأيكة وهم غير مدين فإنه وصفه في سورة الاعراف بأنه أخو مدين أى في النسب كما تقدم ولم يصفه في سورة الشعراء بذلك كما وصف من ذكر قبله : نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً (ع . م) وقد أخرج اسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس في قوله تعالى — من سورة الشعراء (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) قالوا: كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر إلى مدين الخ فأفاد هذا أن الله تعالى أرسله إلى قومه أهل مدين وإلى من

اتصل بهم إلى ساحل البحر الأحمر، وأن حال الفريقين في الكفر والمعاصي كانت واحدة وكان يذرمهم متنقلاً بينهم في زمن واحد، فلا يبعد حينئذ أن يكون العذاب قد أخذ الفريقين في وقت واحد أو وقتين متقاربين، فكان عذاب مدين بالرجمة والصيحة المصاحبة لها. وعذاب أصحاب الأيكة بالسموم وشدة الحر الذي انتهى بظلة من السحاب، فزعوا إليها يبتعدون بظلماء فأطبقت عليهم فاحتقوا بها أجمعون وذهب بعض المفسرين إلى أن عقاب الفريقين واحد، وسيأتي بيان ذلك في تفسير سورة الشعراء إن شاء الله تعالى

﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ — الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴿يقال غنى بالمسكان يغني بوزن «رضي يرضى» إذا نزل به وأقام فيه. هكذا أطلقوه وقيدوا بعضهم بقيد أو قيديين، قال الراغب: وغنى في مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره، واكتفى بعضهم بقيد طول الإقامة وبعضهم بالإقامة في رغد عيش

والآية بيان مستأنف من قبل الله عز وجل ناقض لقول الملائكة من قوم شعيب لقومهم (لئن اتبعتم شعيباً أنكم إذاً للخاسرون) وقولهم قبله (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) كأن سائلاً يسأل عنهم باعتبار كل من الحالين كيف انتهى الأمر فيها وكيف كان عاقبة أهلها؟ فأجيب عن الأول بقوله: الذين كذبوا شعيباً وهددوه وأنذروه الإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم فخرموها كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها مطلقاً أو في ذلك العيش الرغيد، والأمد المديد، فحق انقضى الشيء صار كأنه لم يكن

وأجيب عن الثاني بقوله: الذين كذبوا شعيباً وزعموا أن من يتبعه يكون خاسراً وأكدوا زعمهم بأقوى المؤكدات كانوا هم الخاسرين لما يعتزون به من تقاليد ملتهم، ومن ملهم ووطنهم، ولما كانوا موعودين به من معادة الدنيا والآخرة لو آمنوا دون الذين اتبعوه، فانهم كانوا هم الفائزين المفلحين، فالجملية تفيد حصر الخاسر في المكذبين له بالنص، وتقضي نفيه عن المتبعين له بالأولى، ومناسبة الجزاء للعذاب بجعل الحرص على التمتع بالوطن والاستعداد فيه على أهل الحق سبباً للحرمان الأبدي منه، وجعل الحرص على الربح يأكل أموال الناس بالباطل سبباً للخسران بالحرمان منه ومن غيره واختار بعضهم في نكتة الفصل والتكرار وجهاً آخر وهو أنه إيمان

مستأنف من الله تعالى جاء بأسلوب الخطابة العربية المؤثرة في الوعظ والتوبيخ وما في معناها نحو : أنت الذي جنيت علينا ، أنت الذي سلطت علينا اعداءنا ، أنت الذي فرقت كلمتنا ، أنت الذي أوقعت الشقاق بيننا .

وقال الزمخشري في الكشف : ان في هذا الاستئناف وتكرير الموصول والصلة مبالغة في رد مقالة الملائكة لاشياعهم وتسفيهاً لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم ، واستعظاما لما جرى عليهم ا . هـ . وقد خفيت على بعض العلماء الأذكياء دلالة العبارة على هذه المعاني كلها لعدم تأملها ، فأما المبالغة في الرد فظاهرة لما يدركه كل من الفرق في نفسه بين ما مثلنا به أنفسنا لأسلوب الخطابة وبين ذكر تلك المسندات بالعطف ، وسببه أن تكرار ذكر المسند إليه بصيغة الموصول والصلة المؤذن بعلّة الجزاء يعيد صورة كل منهما في الذهن ، ويكون حكماً جديداً بعد حكم ، وللحكيم من التأخير في النفس ما ليس للحكم الواحد . واما تسفيه الرأي ، والاستهزاء بذلك النصيح ، فهو تابع لهذا التأخير ، المتضمن لما ذكر من التصوير والتثليل .

﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾
تقدم تفسير مثله في قصة صالح (ص ٩٠ ج ٨ تفسير) وفيه بحث دقيق في ذكر التولى عن القوم ومخاطبتهم بعد هلاكهم . وقد اتحد إغزار الرسولين لاتحاد حال القومين وعذابهما ، ولكن تنمة الآية هناك (ولكن لا تحبون الناصحين) وتنمة الآية هنا ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ؟ ﴾ ولا يبعد عندي أن يكونا قد قالا هذا وذاك ، فغير عنهما بأسلوب الاحتباك . والمعنى : اننى يا قوم قد ابلغتكم رسالات ربي - أى ما أرساني به إليكم من العقائد والمواعظ والاحكام والآداب - فجمع الرسالة هنا بحسب متعلقاتها وأفرادها في قصة صالح بحسب معناها المصدرى - ونصحت لكم بما بينته من معانيها والترغيب فيها وانذار عاقبة الكفر بها « فكيف آسى » أى أحزن الحزن الشديد على قوم كافرين اعذرت إليهم ، وبذلت جهدى في سبيل هدايتهم ونجاتهم ، فاخثاروا ما فيه هلاكهم ، وإنما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصيح والانذار .

(٩٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ

سَلْبًا . نَصَّ عَنْ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ

مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

﴿سنن الله وحكمه في هذه القصص وأمثالها ، والاعتبار بها ﴾

من سنة القرآن الحكيم أنه يبين العقائد بدلائلها ، والأحكام مؤيدة بحكمها وعلاها ، والقصص مقرونة بوجوه العبرة والموعظة بها وسنن الاجتماع فيها ، كما ترى في هذه الآيات التسع التي قفي بها على قصص القوم المهلكين .

﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾
الواو في أول الآية لعطف الجملة وما بعدها إلى آخر السياق الذي وضعنا له العنوان على مجموع ما قبلها من القصص لمشاركته إياه ^(١) في كونه حكماً له وعبراً مستفادة منه — فعطف الجمل يشمل الكثير منها ، كالسياق برمته — ولا وجه للفصل هنا .
والقرية المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها في عرف هذا العصر بالعاصمة كما تقدم مراراً ، وكان الأنبياء يبعثون في القرى الجامعة لأن سائر البلاد تتبع أهلها إذا آمنوا . والبأساء الشدة والمشقة كالحرب والجذب وشدة الفقر والضراء ما يضر الإنسان في بدنه أو نفسه أو معيشته ، والأخذ بها جعلها عقاباً ، وقد تكون تجربة وتربية نافعة . وتقدم مثل هذا في قوله تعالى من سورة الأنعام (٦ : ٤٢)
ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (في ص ٤١٢ ج ٧ تفسير) فإنه بمعنى ما هنا ، ولكن السياق مختلف ، فلما كان ما هنا قد ورد عقب قصص طائفة من الرسل جعل هذا المعنى قاعدة كلية وسنة مطردة في الرسل مع أقوامهم ليعتبر به كل من سمعه أو قرأه في عصر التنزيل وما بعده . ولما كان ما هنالك قد ورد في سياق تبليغ خاتم الرسل للدعوة ومحاجة قومه جعل خطاباً خبرياً له لتسليته وتثبيت قلبه من جهة ولتخويف كفار قريش وإنذارهم من جهة أخرى — وهذا ملاحظ هنا أيضاً ولكن بالتبع للاعتبار بالسنة العامة لا بالقصد الأول .

والمعنى : ذلك شأن الرسل مع أقوامهم المهلكين ، وما أرسلنا نبياً في

قوم إلا وقد انزلنا بهم الشدائد والمصائب ^(١) بعد إرساله أو قبيله، لنعدم ونؤهلهم بها لتضرع، وهو إظهار الضراعة أى الضعف والخضوع لنا، والاخلاص فى دعائنا بكشفها، فلعل تنفيذ الاعداد للشيء وجعله مرجوا. وبما ثبت بالتجارب وتقرر عند علماء النفس والاخلاق ان الشدائد وملاحج الأمور مما يربى الناس ويصلح من فسادهم، فالؤمن قد يشغله الرخاء وهناء العيش فينسيه ضعفه وحاجته إلى ربه، والشدائد تذكره به، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها بفقدائها، فينقلب شاكرًا بعد عودها، بل الكافر بالله عز وجل قد تنبه الشدائد والأحوال مركز الشعور بوجود الرب الخالق المدبر لأمور الخلق فى دماغه، وتذكره بما أودع فى فطرته من وجود مصدر لنظام الكون وأقداره، كما وقع كثيرا، والآيات فى هذا كثيرة تقدم بعضها، وقد روى لنا أن الحرب العظمى قد كان لها هذا التأثير حتى فى أقل الناس تدبناهم أهل مدينة باريس، فكانت المعابد ترى مكتظة بالمصلين فى أثناء شدائد الحرب. ومن مباحث البلاغة أن نكتة خلوجملة «أخذنا أهلها» الحالية من الواو وقد هى أن الأصل فى المقترنة بهما أن يكون مضمونها مقدما على العامل فيها كالجملة الاسمية. فإذا قلت: مافعل زيد كذا الا وقد عد له عدته — كان المتبادر أنه أعدها قبل الشروع فى فعله لأجله كقوله تعالى فى الجملة الاسمية (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) أى متلبسون بالظلم من قبل لآحال الاهلاك فقط، وإذا قيل مافعله إلا أعد له عدته — شمل إعدادها قبله لأجله وهى الحال السابقة، وإعدادها عند الشروع فيه وهى الحال المقارنة، بل هذه المتبادرة إلى الذهن هنا. كقولك ما سألتك إلا أجابنى، أى عند السؤال، ولا يصح أن تقول إلا وقد أجابنى، ويصح أن تقول: ما سألتك الا وقد أذن لى، أى قيل السؤال. فان قلنا إنه يتعين أن تكون الحال مقارنة فى الآية اقتضى ذلك أن يكون ما فادته هى وما بعدها من الابتلاء بالسيئة ثم بالحسنة ثم بما يترتب عليها من الكثرة وكفر النعمة واقعا كله بعد ارسال الأنبياء وفى عهدهم، وهو قد يصدق فى قوم نوح دون من بعدهم فلذلك قلنا انها تشمل الحال السابقة والمقارنة، فليتأمل فاننا لم نر لأحد بحثا فى هذه المسألة ولكن الامام عبد القاهر الجرجاني حقق أن الحال المفردة تفيد المقارنة والجملة الحالية

(١) قالوا: ان جملة أخذنا الحالية ولم تقرر بالواو وقد، لوقوعها بعد (إلا).

وهو جائز بالثلاثة الالوجه: الواو وحدها، والواو مع قد، وحذفها معا

تفيد سبق مضمونها وفرق بعض الفقهاء بين قولك على أن اعتكف صائما وقولك على أن اعتكف وأنا صائم وقد بينا هذا في تفسير (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا) الآية (فراجع في ص ١١٥ ج ٥ تفسير) .

﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ أى ثم بلوناهم بضد ذلك فجعلنا الحالة الحسنة في مكان الحالة السيئة كاليسر بعد العسر ، والغنى في مكان الفقر ، والنصر عقب الكسر ﴿ حتى عفوا ﴾ أى كثروا ونعوا ، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما وهو من عفا النبات والشجر والشجر ونحوه إذا كثر ، وله شواهد عن العرب ، وذلك أن اليسر والرخاء سبب لكثرة النسل وبه تتم نعم الدنيا على المومنين .

ومن الشواهد على هذا الابتلاء في القصص التي قفي عليها بهذه العبر : قول هود عليه السلام لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تتلحون) وقول صالح « ع م » لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتمتعون بالجمال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين)

وقول شعيب « ع م » لقومه (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) ولكن لم تزد الآلاء هؤلاء الكافرين إلا بقيا وبطارا وفسادا

في الأرض ﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ أى وقالوا مع ذلك قولنا يدل على فساد فطرته ، وانطلاس بصيرتهم ، وفقدت الاستعدادات لاعتبار الأحداث الزمان ، وتغير أحوال الإنسان ، وتقلب شؤون العمران ، قالوا قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما ييسر ، وتناوبهم ما ينفع وما يضر ، ونحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم ، فتلك عادة الزمان في أبنائه ، فلا الضراء عقاب من الخالق الحكيم على معاصي تقترف ورذائل ترتكب ، ولا السراء جزاء منه على صالحات تعمل ، وفضائل تلتزم . والمراد أنهم جهلوا سننه تعالى في أسباب الصلاح والفساد في البشر وما يترتب عليهما من السعادة والشقاء ، المعبر عنها بقوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فلما ذكرهم رسلهم بها لم يتذكروا ولم يعتبروا ، بل نسوا وأعرضوا وأنكروا .

﴿ فآخذناهم بفتنة وهم لا يشعرون ﴾ أى فكان عاقبة ذلك أن اخذناهم

بالعذاب فجأة وهم فاقدون للشعور بما سيحل بهم ، لأنهم كانوا يجهلون سنن الله تعالى في الاجتماع البشري فلام عرقوها بعقولهم ولام صدقوا الرسل في نذرهم ، وهذا معنى قوله تعالى في سياق سورة الأنعام الذي ذكرناه آنفا (٦ : ٤٤) فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) وذلك شأن الكافرين والجاهلين : إذا مسهم الشر يئسوا وابتأسوا ، وإذا مسهم الخير أشروا و بطروا ، فإذا كان ذلك الخير قوة وسلطة بغوا في الأرض ، وأهلكوا الحرث والنسل

أصاب أهل بيت في إحدى المدن السورية نفة من جاء الشيخ محمد أبي الهدى الصيادي أحد المقرئين من السلطان عبد الحميد في عصره ، فذهبوا بجواهره الأموال واتهموا الأعراض ، و بغوا في الأرض الفساد ، فكنا نتحدث مرة في أمرهم فقلنا : ألم يكن خيراً هؤلاء لو اغتنموا هذه الفرصة باصطناع الناس بالمعروف ، وعمل البر النافع للوطن ، فإن جاء أبي الهدى ليس له دوام ، ونحواً من هذا الكلام ، فقال السيد الوالد رحمه الله تعالى : إن أمثال هؤلاء لا يفهمون هذه الحكمة ولا يعقلونها ، ولقد أصاب والدم من قبلهم رياسة إدارية صغيرة كواحد منهم فبغى و بطر وتكبر وتجبى وأدى الناس ، فنصحت له إذ كان يوادنى ويحترمني وذكرته بتغير الأحوال ، فقال لي ياسيد : إن لكل أحد يوماً يرقص له فيه الزمان فينبغي له أن يستمتع فيه ولا يضيع الفرصة على نفسه

وقد قال الله تعالى في هذا المعنى (١٧ ، ٨٣) وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً (٨٤) قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً) وقال (٤٢ : ٤٥) وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن نصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) المراد بالفرح ما كان عن بطر وغرور ، وقال (١٠ : ٢٢) هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجينتنا من هذه لنتكونن من الشاكرين * فلما أنجى إلههم إلههم في الأرض بغير الحق) اقرأ تنمة الآية وما بعدها

وأما المؤمنون بالله وما جاء به رسوله حقانهم الذين تكون الشدائد والمصائب

تربية لهم ونحیصا ، كما تكون للكافرين عقابا وإبلاسا ، وقد بين الله تعالى ذلك في مواضع من كتابه أظهرها بيانه إياه بالتفصيل في قصة أحد من سورة آل عمران إذ قضت حكمته بأن يقصر المسلمون في سبب من أسباب النصر في الحرب فيظهر عليهم المشركون فينزل تلك الآيات الحكيمة المبينة للحقائق وسنن الاجتماع في الحروب والشدائد التي أولها (١٣٧: ٣) قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا — إلى قوله — ١٤١ — وليحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) ومنها قوله (١٤٠) وتلك الأيام نداؤها بين الناس (ولكن شأن المؤمن أن يعرف هذه المدارات بأسبابها وحكمها ويتحرى الاتعاظ وتربية نفسه بها ، لا كما يراها الكافرون والجاهلون بظواهرها وصورها ، والآيات التي بعد ما أشرنا إليه منها تمة وإيضاح لها فیراجع تفسيرها في الجزء الرابع من التفسير . وفي معناها أحاديث كقوله صلى الله عليه وآله وسلم «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سمراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » رواه أحمد ومسلم من حديث صهيب الروعي رضى الله عنه

(فإن قيل) إنا نرى غير المسلمين يعلمون في هذا العصر ما لا يعلم المسلمون من هذه السنن الاجتماعية التي أرشد إليها القرآن ويستفيدون منها عبرا وتقوى المضار يظهر أثرها باستعدادهم للصائب قبل وقوعها ، حتى لا تأخذهم بغتة ، وحتى يتلافوا ضرورها بعد وقوعها بقدر الطاقة . ونرى أكثر المسلمين جاهلين وغافلين عن ذلك ، وقد فتن بعضهم هؤلاء الأفرنج وحسبوا أنهم لا يكونون ، شلمهم في استمتاعهم واستعدادهم لدفع الشدائد ، والاستفادة من الأحداث والوقائع ، إلا بذات تركوا الاسلام ، ونبذوا هداية القرآن ! ! كما فتنوا هم بالمسلمين باحتقارهم لدينهم تبعاً لاحتقارهم لهم ، وطعناً فيه بما يظنون من تأثيره في إذلالم وإضعافهم ، فما قولك في ظلم الفريقين له ، وفي انتهاء الحرب العامة الأخيرة باستيلاء غير المؤمنين ، على أقطار عظيمة من بلاد المسلمين ؟ وكون أشد أهل هذه الأقطار استسلاماً للذل وخضوعاً للقهر ، هم الذين يدعون أنهم أصح إيماناً ، وأحسن إسلاماً ؟ حتى كان ذلك فتنة لبعض زعماء شعب سلم من الهلاك بعد أن كان يحاط به ، فظنوا أن التقليد بالاسلام سبب الهلكة ، والالقاء بالأيدي إلى التهلكة ، وإن في الانسلاخ منها المنجاة وارتقاء المملكة ؟

(قلنا) اننا كشفنا أمثال هذه الشبهات ، في تفسير كثير من الآيات ، وفي غير التفسير من المنار ، وبيننا مراراً أن المسلمين قد تركوا هداية القرآن في حكوماتهم ومصالحهم العامة ، وفوضوا أمورهم إلى حكامهم الذين يندر أن يوجد منهم من له إلمام بتفسيره أو علم السنة ، حتى من سلموا لهم بمنصب خلافة النبوة -- كما تركوا هداية الكتاب والسنة في أعمال الافراد ، فأكثرهم لا يعرف من دينه إلا ما يسمعه ويراه ممن يعيش معهم من قومه وفيه الحق والباطل والسنة والبدعة ، وأقلمهم بملقى عن بعض الشيوخ بعض كتب الكلام الجدلية التي ألغت الرد على فلسفة نسخت وبدع باد أهلها ، وكتب الفقه التقليدية الخالية من جل هداية القرآن والسنة في مثل موضوع الآيات التي نحن بصدد تفسيرها ، وما أشرنا إليه في هذا التفسير من آيات الشواهد ، حتى بلغ الجهل من المسلمين في أم المسائل الخاصة بحياتهم السياسية التي هي مناط دولتهم وبقاء ملكهم أو زواله (وهي مسألة الامامة العظمى) أن يكتب الافراد والجماعات من علمائهم فيها ما هو مخالف لجميع أئمتهم ومذاهبهم ولإجماع سلفهم ، على تهافت ظاهر ، واختلاف فاضح . على أن العلماء المتقدمين قد قصرُوا في هذه المسألة وعم الذين كان العلم صفة من صفاتهم وملكة من ملكاتهم ، لا ورقة شهادة يحملونها ممن سبق الاجماع على أن مثلهم من المقلدين لا يمد علماً في خاصة نفسه ، حتى يعتد بشهادته لغيره ، بله ما عرف عن بعضهم من شهادة الزور وقول الكذب وأكل السحت ، وقد استسفر بعض مجاوري الأزهر المتقدمين لامتحان شهادة العالمية واحداً منهم لعرض الرشوة على الأستاذ الامام رحمه الله تعالى ليساعدهم في الامتحان فضربه الأستاذ رحمه الله بيديه ، ورفسه برجليه ، وقال له : يا عدو الله أتريد أن أغش المسلمين بك وبأمثالك من الجاهلين بعد هذه الشبهة وانتظار لقاء الله ، فأكون ممن يشقرون بآيات الله نمنا قليلاً ؟ ولو كنت ممن يطيبهم المال ، ويحفلون بجمعه ولو من الحلال ، لكنت من أغنى الأغنياء ؟

ولما كان القرآن هو الذي هدى المسلمين إلى أنواع العلم ، وأعطاهم الحكمة والحكم كان تركهم لهديته هو الذي سلبهم ذلك حتى انقلب الأمر ، والعكس الوضع ، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع -- كما صح في الحديث -- فالسواد الأعظم الجاهل اتبع سنن أهل الكتاب في شر ما كانوا عليه في طور جهلهم من الخرافات وابتداع الاحتفالات ، وتقليد الآباء والأجداد ، واتخاذ الأرباب والأنناد ، فأعطاه

حق التحريم والتحليل للأخبار والرهبان ، وطلب النفع ودفع الضر من دجالى الأحياء وقبور الأموات ، فغشهم ماغشى أولئك من ظلمات الجهل ، وجعل الدين عدوا للعلم والعقل ، والنايبة العصرية المتفرجة اتبعت سنن المرئدين وانفاسقين منهم فى شر ما صاروا إليه فى طور فساد حضارتهم ، وقلدوهم حتى فيما لاينطبق على أحوالهم ومصالحهم ، كذلك ضل الفريقان عن هداية القرآن ، واشتركا فى إضاعة مابقى من ملك الاسلام

لا عالم الشرق بدينه ولا مقتبس العلم من الغرب هدى

وأما الافرنج فهم وإن كانوا على علم واسع بسنن الله فى أحوال البشر وسائر امور الكون ؛ قد نالوا به ملكا عظيما فى الأرض ، فأكثرهم يجهل مصدر هذه السنن وحكم الله تعالى فيها ولا يعتبرون حق الاعتبار بما تعقب الشرور والمعاصى من الفساد فى الأرض ، فهم كأقوام أولئك الرسل الذين لم تقدم النعم شكر الرب المنعم ، ولم تقدم النقم تقوى الرب المنتقم ، فقد استعملوا نعمه بالعلوم والفنون وتسخير قوى العالم لاستعباد الضعفاء ، والسرف فى فجور الأغنياء ، والتقاتل على السلطان والثراء ، ولذلك سلط الله بعضهم على بعض ، وصدق عليهم قوله عز وجل : (٦ : ٦٥ قل هو القادر على ان يبعث عليكم عداءا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعضهم * انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم بيقهون) كما بيناه فى تفسيرها (ص ٤٩٢ ج ٧ تفسير)

فعلم بما ذكر وبغيره أن العلم بسنن الاجتماع وال عمران لا يغنى عن هداية الدين التى توقف أهواء البشر ومطامعهم أن تجميع إلى ما لا غاية له من الشر ، ولولا أن عند بعض أمم أوربة بقية قليلة منها تتفاوت فى أفرادهم قوة وضعفا لحشرتهم المطامع والاحقاد صفا صفا ، فدكوا معالم أرضهم التى بلغت منتهى العمران دكا دكا ، فجعلوها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، بل جعلوها بعد ذلك صروحها وهادا عميقة ، ومهاوى سحيقة ، بقائف المدافع الضخمة التى تشق الأرض شقا ، وتسحق ما فيها سحقا ، على أنهم قد شرعوا ، فلما أن يجهزوا وأما أن ينزعوا .

قال تعالى فى سورة هود (١١ : ١١٦) فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن انجينا منهم واتبع

الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين (١١٧) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم
وأهلها مصلحون (القرون هي الأجيال والشعوب، وأولو بقية: أصحاب بقية من دين
وتقوى وعقل وحكمة، وروى ابن مردويه عن أبي ابن كعب قال: أقرأني رسول الله ﷺ
(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية - وأحلام - يهون عن الفساد في الأرض)
والأحلام العقول الراجحة^(١) والمراد من التحضيض في الآية الأولى النفي أي أنه كان
يلبغى أن يكون في القرون الذين كانوا قبل ظهور الإسلام بالإصلاح العام أصحاب بقية
من دين موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء أو حكماء العقلاء الذين فسر بهم الامرون
بالعدل في قوله تعالى (ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من
الناس) ولكن لم يكن ذلك إلا قليلا ممن أنجبنا منهم، واتبع الأكثرون ما أترفوا فيه من
الشهوات واللذات، وكانوا ظالمين لأنفسهم وللناس، أي أزال الله ملكهم بظلمهم وبطرم
وتركهم للإصلاح في الأرض قال مجاهد في اتباع هذا الاتراف في ملكهم وتجبيرهم وتركهم الحق
ومعنى الآية الثانية أنه لم يكن من شأن ربك أيها الرسول المصلح ولا من سنته في
خلقه أن يهلك العواصم والمداين بظلم منه أو بشرك من أهلها والحال أنهم مصلحون في
أحكامهم وأعمالهم. وفي تفسير المرفوع إلى النبي ﷺ أنه مثل عن قوله تعالى (وأهلها
مصلحون) فقال «وأهلها ينصف بعضهم بعضا» رواه الطبراني وأبو الشيخ وابن
مردويه والديلمي عن جرير «رض» وروى عنه موقوفا أيضا

وهؤلاء البقية لا تخلوا منهم أمة فهم حجة الله على الأقوام، ومقولا في أمة غلب
عليها الفساد، وقرب انتقام الله منها. وقد شهد القرآن بوجود أناس منهم كانوا في
أهل الكتاب. وهم يقولون في أوربة عاما بعد عام، وقد كان من أصحاب الأحلام منهم
الفيلسوف هربرت سبنسر الإنجليزى الذى نهى اليابانيين عن الاستعانة بقومه
الإنكليز على إصلاح بلادهم فيها؛ وقال لهم إنهم إذا دخلوها لا يخرجون منها. وقال
للأستاذ الإمام حين تلاقيا بمدينة (بريتن في صيف سنة ١٣٢١ - ١٠ أغسطس سنة
١٩٠٣) ما ترجمته: بحسب الحق من عقول أهل أوربة واستحوذت عليها الأفكار المادية

(١) ما وردت في أحاديث الآحاد مثل هذا مما لا تثبت به قراءة فهو من قبيل التفسير
فإن كان ظاهرا لفظه أنه قراءة حمل على أنه مروي بالمعنى

فذهبت بالفضيلة . وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولا فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم إلى الانكليز فهم الآن يرجعون القهقري بذلك ، وسترى هذه الأمم يختبئ بعضها ببعض وتنتهي إلى حرب طامة ليتبين أيها الأقوى فيكون سلطان العالم

قال له الامام . اني آمل أن يحول دون ذلك هم الحكماء (مثلكم) واجتهادهم في تقرير مبادئ الحق والعدل ونصر الفضيلة

قال الفيلسوف : وأما أنا فلبس عندي مثل هذا الأمل فان هذا التيار المادي لا بد أن يبلغ مده غاية حده

وأقول إنني ذاكرت في هذا المعنى سياسيا أوربيا في جنيف من بلاد سويسرة ف رأيته يعتقد اعتقاد سبنسر بل أخبرني أن كثيرا من عقلاء أوربة يعتقدون أن فساد الأخلاق بالنزف الذي أهلك الأمم الكبرى كاليونان والرومان والفرس والعرب قد أوشك أن يقضى على أوربة وستهلك بالحرب التي تلي هذه الحرب الأخيرة ، وما هي ببعيدة ونصح لنا بأن لا نغفل أوربة في مدينتها المادية ، وأن نحافظ على آداب ديننا وفضائله وأن نجتمع كلمتنا ، ونجمل الزمامة فينا لأهل الرأي والفضيلة منا ، ونتر بص الدوائر بالاوربيين المعتدين علينا^(١)

وجملة القول أن الإنسان حيوان إنسي وحشي بجسده ، وملك روحاني بعقله وروحه ، وأنه إنما يكمل بكامل العقل والروح ويعتدل بالتوازن بينهما ، ولا يكون هذا إلا بهداية الاسلام الجامع لكل ما يحتاج اليه البشر من ذلك ، ولهذا نصحننا لزعماء الترك المنتوين بمدينة الافرنج المادية لجهلهم بما يفتك بها من دود الفساد بأن يقيموا حكم الاسلام وإصلاحه الذي يكفل لهم القوة المادية والعمران و يقيمهم غوائل هذا الفساد كالبليشنية التي ثلث عرش قيصريه الروسية فقلنا في فاتحة الكتاب الذي صنفناه في مسألة (الخلافة) — أو — الامامة العظمى ما نصه :

« أيها الشعب التركي الحى ! إن الاسلام أعظم قوة معنوية في الأرض ، وإنه هو الذى يمكن أن يحوي مدينة الشرق ، وينقذ مدينة الغرب ، فان المدنية لا

(١) راجع التبذة ٦ من رحلتنا الأوربية التي نشرت ج ٨ من المجلد ٢٣ من المنار

تبقى الا بالفضيلة ، والفضيلة لا تتحقق الا بالدين ، ولا يوجد دين يتفق مع العلم والمدنية الا الاسلام ، وانما عاشت المدنية الغربية هذه القرون بما كان فيها من التوازن بين بقايا الفضائل المسيحية مع التنازع بين العلم الاستقلالى والتعاليم الكنسية ، فان الأمم لا تنسل من فضائل دينها ، بمجرد طرؤه الشك فى عقائده على أذهان بعض الأفراد والجماعات منها ، وانما يكون ذلك بالتدريج فى عدة أجيال ، وقد انتهى التنازع ، بفقد ذلك التوازن ، وأصبح الدين والحضرة على خطر الزوال ، واشتدت حاجة البشر إلى إصلاح روحى مدنى ثابت الاركان ، يزول به استعباد الأقوياء للضعفاء ، واستئلال الأغنياء للفقراء ، وخطر البلشفية على الأغنياء ، ويبطل به امتياز الأجناس ، لتحقيق الأخوة العامة بين الناس ، ولن يكون ذلك الا بحكومة الاسلام ، التى بيناها بالاجمال فى هذا الكتاب ، ونحن مستعدون للمساعدة على تفصيلها ، إذا وفق الله للعمل بها

« أيها الشعب التركى الباسل : انك اليوم أقدر الشعوب الاسلامية ، على أن تحقق للبشر هذه الأمنية ، فاغتنم هذه الفرصة لتأسيس مجد إنسانى خالد ، لا يذكر معه مجدك الحربى النال ، ولا يجرمك المتفرجون على تقليد الافرنج فى سيرتهم ، وأنت أهل لأن تكون إماما لهم بمدنية خير من مدنيهم ، وما ثم إلا المدنية الاسلامية ، الثابتة قواعدها المعقولة على أساس العقيدة الدينية ، فلا تزلها النظريات التى تعبت بالمران ، وتفسد نظم الحياة الاجتماعية على الناس » .

فصحنا للشعب التركى بهذا ولكن زعماءه الكماليين اليوم كزعمائه الاتحاديين من قبلهم قد فتنوا بهذه المدنية المادية ، وجعلوا كنه الاسلام والحكومة الاسلامية ، وقد اعذرنا إليهم ببيانها ، وانذرناهم عذاب الله باهلها ، فقاموا بالنذر ، وطفقوا يطمسون ما بقى من الاسلام فى حكومتهم وأمتهم ، وسنرى ما يكون من أمرهم ، وقد ظهر ما كان مستورا من فساد سريرتهم ، ونسأله تعالى لنا ولم هالاح ائثال ، وحسن المآل .

(٩٥) وَلَئِنْ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَبُوا فَاَخَذْنَاھُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

لما بين الله سبحانه أخذه لأهل القرى الذين كذبوا الرسل بما كان من كفرهم

وظلمهم لأنفسهم وللناس بين لأهل أم القرى « مكة » ولسائر الناس ما كان يكون من اغداق نعمة تعالى عليهم لو آمنوا بالرسول ، واعتبروا بالسنن ، فقال :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أى آمنوا بما دعاهم إليه رسلكم من عبادة الله وحده بما شرعه من الأعمال الصالحة واتقوا ما نهوهم عنه من الشرك والفساد في الأرض بالظلم والمعاصي كارتكاب الفواحش ، وأكل أموال الناس بالباطل ،

﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ قرأ الجمهور ففتحنا بالتخفيف من الفتح وقرأها ابن عامر بالتشديد من التفتيح الدال على الكثرة ، والمعنى لفتحنا عليهم أنواعا من بركات السماء والأرض لم يمهدها بحجعة ولا متفرقة ، فاذا أريد ببركات السماء معارف الوحي العقلية ، وأنوار الإيمان الروحانية ، وفتحات الإلهامات الربانية ، فالمعنى أن فائدة الإيمان واتباع الرسل عليهم السلام تكون تكميل الفطرة البشرية روحا وجسدا ، وغايته سعادة الدارين الدنيا والآخرة ، وإذا أريد ببركات السماء المطر وبركات الأرض النبات كما قيل فالمعنى أنها أبواب نعم تكون بركات لهم غير التي عهدوا في صفاتها ونماؤها ونباتها وحالتهم فيها وأثرها فيهم ، وبذلك تكون بركات فان مادة البركة تدل على السعة والزكاة من بركة الماء ، وعلى الثبات والاستقرار من برك البعير ، ألم تقرأ أو تسمع قوله تعالى من سورة هود (١١ : ٤٨)

قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب ألیم) فخص المؤمنين بالبركات وجعل نعمة الدنيا متاعا مؤقتا للكافرين يتلوه العذاب ، ولذلك لم يعطهم على من قبلهم . روى عن محمد بن كعب القرظي أنه دخل في تلك البركات كل مؤمن ومؤمنة - وفي ذلك المتاع والعذاب الآليم كل كافر وكافرة . وعن الضحاك قال (وعلى أمم ممن معك) يعنى ممن لم يولد أوجب لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة - (وأمم سنمتعهم) يعنى متاع الحياة الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب ألیم لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة

فالقاعدة المقررة في القرآن أن الإيمان الصحيح ودين الحق سبب لسعادة الدنيا ونعمتها بالحق والاستحقاق وإن الكفار قد يشاركونهم في المادى منها كما قال تعالى فيهم من سورة الانعام (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) فذلك الفتح ابتلاء واختيار لحالهم كان أثره فيهم فرح البطر والاشربلا من الشكر وترتب عليه العقاب الالهى فكان نعمة لا نعمة ، وفتنة لا بركة ،

وأما المؤمنون فإن ما يفتح عليهم يكون بركة ونعمة ويكون أثره فيهم الشكر لله عليه والرضا منه والاعتباط بفضلِهِ ، واستعماله في سبيل الخير دون الشر ، وفي الإصلاح دون الفساد ، ويكون جزاؤهم عليه من الله تعالى زيادة النعم ونموها في الدنيا وحسن الثواب عليها في الآخرة ، فالفارق بين الفتحيتين يؤخذ من جعل هذا البركات الربانية ، ومن تنكيره الدال على أنواع لم يعهدا الكفار .

ومما ورد في الآيات الأخرى الدالة على أن غاية هداية الايمان الجمع بين سعادة الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى خطا بالبشر موجها لابيهم من قصة آدم في سورة طه (٢٠، ١٢٠) فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى (١٢١) ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وقوله في خطاب بنى آدم من هذه السورة بعد ذكر قصته المبينة لطواص هذا النوع وحكم الله في خلقه والأصول العامة للدين الرسل الذين يبعثهم هدايته ٧: ٣١ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكواواشر بوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (٣٢) قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون) فراجع تفسيرهما فى الجزء الثامن من التفسير فهذا بيان لكون أصل الدين يقتضى سعادة الدنيا قبل الآخرة من أول النشأة البشرية فى عهد آدم وتقدم آفها ما أنزله تعالى على نوح وهو الأب الثانى للبشر وقال تعالى حكاية عن هود فى سورته (١١: ٥٢) ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) وهذه الآيات كلها حجاج على أعداء الاسلام من المنتمين إليه ومن غيرهم الزاعمين أنه - وكذا كل دين الهى - سبب للضعف والفقر !

ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون * من أعمال الشرك الخرافية والمعاصى المفسدة لنظام الاجتماع البشرى ، فكان أخذهم بالعقاب أثرا لازما لكسبهم بحسب سنن الكون ، وعبرة لامثالهم ان كانوا يعقلون .

(٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧)
أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ؟ (٩٨) أَفَأَمِنُوا

مَكَرَ اللَّهُ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْمُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِدُنُورِهِمْ وَتَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ؟

هذه الآيات الأربع إنذار لامة الدعوة المحمدية عربها وعجمها من عصر النور الأعظم إلى يوم القيامة لتعتبر بما نزل بغيرها كما ترشد إليه الرابطة منها. وأهل القرى فيها يراد به الجنس أى الأمم، ويحتمل أن يكون المراد به من ذكر حالهم فيما تقدم وضع المظهر فيه موضع المضمحل ليدل على أن مضمونها ليس خاصا بأقوام بأعيانهم فيذكر ضميرهم بل هو قواعد عامة فى أحوال الأمم، فيراد بالإسم المظهر العنوان العام لها، لا آحاد مذكر منها، ولو ذكرها بضميرها أو اسم الإشارة الذى يعينها لدل على أن العقاب كان خاصا بها لا داخلا فى أفراد سنة عامة، وهذا عين ما كان يصرف الأقوام الجاهلة الكافرة عن الاعتبار بعقاب من كان قبلها، ويحتمل أن يكون المراد به أهل أم القرى عاصمة قوم الرسول الخاتم وعشيرته الأفر بين وسائر قرى الأمم التى بعث ﷺ إلى أهلها من حيث إن بعثته عامة.

﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون﴾ الاستفهام للتذكير والتعجيب من أمر ليس من شأنه أن يقع من العاقل والفاء عطف على محذوف تقديره على الوجه الأول. اغر أهل تلك القرى ما كانوا فيه من نعمة حين كذبوا الرسل فأمنوا أن يأتيهم بأسنا؟ إلخ وعلى الثانى أجل أهل مكة وغيرها من القرى التى بلغت الدعوة - ومثلها من سبقها - ما نزل بمن قبلهم وغرم ما هم فيه من نعمة فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم - أو إتيان بيات - وهو الهجوم على العدو ليلا وهو بائث فقلوه «وهم نائمون» حال مبينة لغاية الغفلة وكون الأخذ على غرة كما قال فيمن عذبوا «فأخذتهم بغتة» وليراجع تفسير الآية ٣ من هذه السورة وكمن قرية أهل سكنها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون

﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم نائمون﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر «أو» بسكون الواو، والمعنى بحسب أهل اللغة أأمنوا ذلك الاتيان أو هذا؟ وهو لا يمنع الجمع بين الأمنين - وقرأ الباقون بفتح

الواو على أن الهمة للإنكار والواو للعطف على محذوف كالذي قبله ، وقد أعيد الاستفهام وما يتعلق به لنكتة وضع المظهر موضع المضمحل التي بينها آفا . والضحي انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت ، أو ضوء الشمس في شباب النهار ، واختاره الامام الإمام ، واللعب بفتح اللام وكسر العين مالا يقصد فاعله بسبب منفعة ولا دفع مضرة بل يفعله لانس له به أولدة له فيه كالعاب الأطفال ، وما يقصد به العقلاء رياضة الجسم قد يخرج عن حقيقة اللعب ويكون إطلاقه عليه مجازيا بحسب صورته ، وكمن عمل صورته لعب أو هزل ، وحقيقته حكمة وجد ، وكمن عمل هو عكس ذلك كالعامل الفاسد الذي يقصد به ما يظن أنه نافع وهو ضار ، وما يتوهم أنه حكمة وهو عبث وخرق ، وقد يكون إطلاق اللعب على أعمال هؤلاء الجاهلين الغافلين من هذا الباب ، أى أو أمن أهل القرى أن يأتبهم عذابنا في وقت الضحى وهم منهمكون في أعمالهم التي تعد من قبيل لعب الأطفال لعدم فائدة تترتب عليها مطلقاً أو بالنسبة إلى ما كان يجب تقديمه عليها من سلوك سبيل السلامة من العذاب ؟

فأما أهل القرى من الغابرين فالظاهر ما حكاه الله تعالى عنهم أنهم كانوا آمنين إتيان هذا العذاب ليلاً ونهاراً فكان إتيانه إياهم فجأة في وقت لا يتسع لتلافيه وتداركه فالاستفهام لا يظهر في شأنهم إلا بتأول لا يحتاج إلى مثله في أهل القرى الحاضرين ، ومن سيكون في حكمهم من الآتين ، والمراد أنه لم يكن لهم أن يأمنوا لو كانوا يعلمون ، فإن وجود النعم ليس دليلاً على دوامها ، فكمن نعمة زالت بكفر أهلها ، وهذا ما كان يجمله الذين قالوا قد مس آباءنا الضراء والسرء ، فأروا صورة الواقع وجهلوا أسبابه ، وأما الحاضرون فلا يمتدرون بالجلل بعد أن بين لهم القرآن كنه الأمر ، وسنن الله في الخلق ، ولكن أذعيا القرآن ، قد صاروا أجهل البشر بما جاء به القرآن ، ويدعى بعضهم أن سبب جهلهم الانتماء إلى دين القرآن !!!

﴿ أَقَامُوا سَكَرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ قال الراغب المسكر صرف الغير عما تقصده بحيلة . وقدمه إلى محمود ومذموم . وأصبح منه وأدق قولنا في تفسير (٣ : ٥٤) ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين : المكرفي

الأصل التدبير الخفي المنفى بالمكور به إلى مالا يحتسب . وفيهنا على هذا التعريف ببيان السيء والحسن من المكر وكون الأ أكثر فيه أن يكون شيئاً كالشأن في غيره من الامور التي يتحرى إخفاؤها ، وفيه أن مكر الله تعالى وهو تدبيره الذي يخفى على الناس إنما يكون باقامة سببته وإتمام حكمه ، وكلها خير في أنفسها وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم والمراد بالجهل ما يتعلق بصفات الله تعالى وسننه اغتراراً بالظواهر ، كأن يغتر القوى بقوته ، والغنى بثروته ، والعالم بعلمه والعابد بعبادته . فيخطيء تقديره ما قدره الله تعالى فيظن أن ماعنده يبقى ، وما يترتب عليه من الآثار في ظنه لا يتخلف ، كما أخطأ الألمان في تقدير قوتهم وقوة من يقاتلهم من الدول فلم يحسبوا أن تكون دولة الولايات المتحدة منهم . والمعنى أ كان سبب أمنهم إتيان بأسنا بيانا أو ضحى وهم غافلون أنهم آمنوا مكر الله بهم باتيانهم من حيث لم يحتسبوا ولم يقدرُوا ؟ ؟ ان كان الأمر كذلك فقد خسروا أنفسهم فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وقد سبق الكلام في خسران النفس في غير هذا الموضع

وإذا كان أمن العالم المدبر والصالح المتعبد من مكر الله تعالى جهلا يورث الخسر ، فكيف حال من يأمن مكر الله وهو مسترسل في معاصيه اتسكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟ قال تعالى (وذللكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) فأعلم الناس بالله وأعبدهم له وأقر بهم اليه هم أبعد خلقه عن الامن من مكروه ، إذ لا يصح أن يأمن منه إلا من أحاط بعلمه ومشيقته ، وليس هذا الملك مقرب ولا لنبي مرسل ، (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) ألم تر إلى الرسل الكرام كيف كانوا يستمنون مشيئته حتى فيما عصمهم منه ؟ كقول شعيب الذي حكاه الله عنه قبيل هذه الآيات (تد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا) وقد كان أصلح البشر وخاتم الرسل ﷺ يكثر من الدعاء بقوله « ياقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك » كما ثبت في الصحيح وقد ذكر تعالى أن الراسخين في العلم يدعون به بقوله (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)

وقال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ويقابل الامن من مكر الله ضده وهو اليأس من رحمة الله . فكل منهما مفسدة تقبعا مفسدة كثيرة .

﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾
يقال هدا السبيل أو الشئ وهدا له وهدا إليه - إذا دله عليه وبينه له ، وأهل الغور من العرب كانوا يقولون هدى له الشئ بمعنى بينه له . نقله في (لسان العرب) وذكر أنه قد فسر به ما في الآية وأمثالها . وهذا التعبير ورد في سياق النفي والاستفهام . ومثله في سورة طه (٢٠: ١٢) أفلم يهد لهم كم أهلكننا من قبلهم من القرن يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولى النهي) وفي سورة (الم - السجدة) (٣٢: ٢٦) أو لم يهد لهم كم أهلكننا من قبلهم من انقرون يمشون في مساكنهم ؟ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون) والسياق الذي وردت فيه آية الأعراف التي نفسرها مثل السياق الذي وردت فيه آيتا طه والسجدة والاستفهام هنا داخل على فعل محذوف عطف عليه ما بعده كما سبق في نظائره وللتقدير وجوه كلها تفيد العبرة فهو مما تذهب النفس فيه مذاهب من أقربها أن يقال : أكان مجحولا ما ذكر آنفا عن أهل القرى وسنة الله تعالى فيهم ولم يبين للذين يرثون الأرض من بعد أهلنا قرنا بعد قرن وجيلا في أثر جيل - أو لم يتبين لهم به - أن شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقهم وهو أنهم خاضعون لمشيئتنا فلو نشاء أن نصيبهم ونعذبهم بسبب ذنوبهم أصبناهم كما أصبنا أمثالهم من قبلهم بمثلها . وقوله تعالى ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ معطوف على «أصبناهم» لأنه بمعنى نصيبهم إذ الكلام في الذين يرثون الأرض في العصر الحالي أو المستقبل على الإطلاق وليس في قوم معينين طبع الله على قلوبهم بالفعل كما ظن الزخشرى وغيره فمنعوا هذا العطف وقالوا المعنى : ونحن نطبع على قلوبهم . والمراد أنه ينبغي لمن يستخلفهم الله في الأرض ، ويرثون ما كان لمن قبلهم من الملك والملك ، أن يتقوا الله ولا يكونوا من المفسدين الظالمين ، ولا من المترفين الفاسقين ، وأن يعلموا أن من الحتم عقاب الأمم على السيئات ، وقد خلت من قبلهم المثلاث فلم يكن ماحل بمن قبلهم من المصادفات ، بل هو من السنن المطردة بالمشيئة والاختيار ، فلا هوادة فيه ولا ظلم ولا محابة . والناس في ذلك فريقان : فريق يصاب بذنبه ، فيتعظ ويتوب إلى ربه ، وفريق يصر عليه حتى يطبع على قلبه ،

وهو مستعار من طبع السكة ونقشها بصورة أو كتابة لا تقبل غيرها أو من الطبع الذي بمعنى الخطم كقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) والطابع والخاتم (بفتح الباء والتاء) واحد . وقيل إنه مأخوذ من الطبع (بالفتح) وهو الصدأ الشديد يعرض للسيف ونحوه فيفسده يقال طبع الطباع السيف والدرهم . أى ضربه ، وطبع الكتاب وعلى الكتاب وختمه إذا ضرب عليه الطابع والخاتم بعد إتمامه ووضع في ظرفه حتى لا يدخل فيه شيء آخر . ومنه الطبع والطبيعة . وهى الصفة الثابتة للشيء أو الشخص ، فالسجية نقش النفس بصورة ثابتة لا تتغير لأن ما يتغير لا يسمى طبيعة . ومنه طبع الكتب فى الآلة المعروفة بالمطبعة سمي بذلك لأنه لا يقبل الحو والتغير كالخط ، على أن الناس قد صنعوا أحباراً لا تمحى أيضاً .

ولا يستعمل الطبع على الفلوب إلا فى الشر والمراد به أنها وصلت من الفساد إلى حالة لا تقبل معها خيراً كالهوى والإيمان والعلم النافع الذى هو فقه الأمور ولبابها ، وإنما يحصل بالإصرار على الشرور والمعاصى استحلالاً واستحساناً لها حتى لا يعود فى النفس موضع لغيرها ، قال تعالى فى اليهود (٤ : ١٥٤) فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وتولم : قلوبنا خلف — بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً) أى إلا قليلاً منهم وهم الذين لم يطبع على قلوبهم . وقال تعالى فى المنافقين (٩ : ٨٨) وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ومثله فى سورتهم . وقال هنا ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أى فهم بهذا الطبع لا يسمعون الحسك والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاظ ، (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون) ما يرادها ، لأن قلوبهم قد ملئت بما يشغلهم عنها ، من آراء وأفكار وشهوات ملكت عليها أمورها ، حتى صرفتهم عن غيرها فجعلتهم من (الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .

قد كان ينبغى للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الامم التى هلك بها من قبلهم وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم ، إذ بين لهم أن ذنوب الأمم لا تنفر كذنوب بعض الأفراد وسنته فيها لا تتبدل ولا تتحول ، ولكنهم قصرُوا

أولا في تفسير أمثال هذه الآيات المبينة لهذه الحقائق ، ثم في وعظ الأمة بها ، وانذارهم عاقبة الإعراض عنها ، وترك الاعتاض بتدبرها ، ومن يقرأ شيئا من تفسيرها فانما يعنى باعراجها ، والبحث في الفاظها ؛ أو جدل المذاهب فيها ، ثم انهم يحملون معانيها خاصة بالكافرين ، ويفسرون الكافرين بمن لا يسمون أنفسهم مسلمين ، وطالما انكر علينا بعض أدعياء العلم والدين ، انما جعلنا الآيات التي نزلت في الكفار ، شاملة لأهل الإسلام والإيمان مأفوكين عن تدبرها المراد منها جاهلين للسنن العامة فيها وكذلك كان يقول أهل الكتاب من قبلهم ، فظنوا كما ظنوا أن الله تعالى يحايل الأقوام لأجل رسولهم ، وأنه يعطيهم سعادة الدنيا والآخرة بجاههم لا باتباعهم ، وقد راجت هذه العقائد الفاسدة في المسلمين ، وكانت تجارة للشيوخ المقلدين الجامدين والدجالين الضالين المضلين (فما رجحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) بل كانوا فتنة للكافرين ، وحجة على الدين ، كما بيناه من قبل وفي هذا السياق آنفا (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ؟ أفلا يعتبرون بقول رسولهم ﷺ « شيمتني هود واخوانها » ^(١) (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات آباءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون)

(١٠٠) تِلْكَ الْقُرْآنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ

وجه الخطاب في هاتين الآيتين إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأجل تسليته وتثبيت فؤاده بما في قصص أولئك الرسل مع أقوامهم من العبر والسنن التي

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر وأبي جحيفة بسند صحيح ، ورواه هو والترمذي والحاكم عن غيرها وفيه زيادة بيان لآخواتها وابن عساكر مرسلًا بزيادة « وما فعل بالأمة قبلي » وهو وجه العبرة بهود

بين فقهها ومافيهما من الحكم في الآيات السبع التي قبلهما . قال تعالى

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ كلام مستأنف تفي به على جملة قصص الرسل عليهم السلام التي تقدمت وما عطف عليها من بيان حكمها وفقهها فكانت كالمذلة لها ، فالقرى هنا هي المعمورة في هذه القصص ، وحكمة تخصيصها بالذكر أنها كانت في بلاد العرب ما جاورها وكان من بعد قوم نوح من العرب ، وكان أهل مكة وغيرهم من العرب الذين هم أول من وجهت اليهم دعوة الإسلام يتناقلون بعض أخبارها مبهمه مجمله ، وكانت على هذا كله قد طبعت على فرار واحد في تكذيب الرسل ، والتفاري فيما جاؤا به من النذر ، إلى أن حل بهم النكال وأخذوا بعذاب الاستقصال ، فلهجرة فيها كلها واحدة . وليس كذلك قوم موسى فانهم آمنوا . وإنما كذب فرعون وملؤه فعدبوا ، ولذلك أخر قصته

والمعنى تلك القرى التي بعد عهدها ، وطال الأمد على تاريخها ، وجعل قومك أيها الرسول حقيقة حالمها ، نقص عليك الآن بعض أنبائها ، وهو مافيه العبر منها ، وإنما قال نقص لاقصصنا لأن هذه الآية نزلت مع تلك القصص لا بعدها .

﴿ ولقد جاءهم رسلم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أي ولقد جاء أهل تلك القرى رسلم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم ، وبالآيات التي اقترحوها عليهم لإقامة حججهم ، بأن جاء كل رسول قومه بما أعذر به اليهم ، فلم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجيء البينات بما كانوا كذبوا به من قبل مجيئها عند بدء الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده بما شرعه وترك الشرك والمعاصي . وقيل ان الباء للسببية والمعنى فما كانوا ليؤمنوا بهد بعثته بسبب تعودهم تكذيب الحق قبلها ، وهو تأويل واه جدا فان قوله فما كانوا نفي للشأن ، وليس من شأن كل من كذب بشيء أن يصبر عليه بعد ظهور البينات على خطئه فيه ، ولكن شأن بعض المكذبين عنادا أو تقليدا أن يصبروا عليه بعد إقامة البينة لأنها لا قيمة لها عندهم ، فهم إما جاحد معاند ضل على علم ، وإما مقلد يأبى النظر والعلم . على أن ما قالوه لا يفهم من الآية إلا بتكلف بخلافه المتبادر من اللفظ . فالعجب ممن اقتصر عليه ولم يفهم غيره . وسيأتى في صورة يونس بعد ذكر خلاصة قصة نوح عليه السلام . ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب

المعتدين) فالمراد بهؤلاء الرسل الذين بعثوا بعد نوح من ذكروا في سورة الاعراف، ولذلك قال هنا وهناك (ثم بعثنا من بعدهم موسى) وحينئذ يحتمل أن يقال في آية الاعراف أن أهل تلك القرى في جملتهم ومجموعهم لم يكن من شأنهم أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم وهم قوم نوح بالنسبة إلى الجميع ثم قوم هود بالنسبة إلى قوم صالح الخ والراجح المختار هو الأول - ويليه هذا - والثاني باطل ألبتة .

﴿ كذلك يطعم الله على قلوب الكافرين ﴾ أى مثل هذا الذى وصف من عناد هؤلاء واصرارهم على ضلالتهم ، وعدم تأثير الدلائل والبيّنات في عقولهم ، يكون الطابع على قلوب الذين صار الكفر صفة لازمة لهم ، بحسب سنة الله تعالى في أخلاق البشر وشؤونهم ، وذلك بأن يأنسوا بالكفر وأعماله حتى تستحوذ أوهامه على أفكارهم ، وبغلاً حب شهواته جوانب قلوبهم ، ويصير وجدانا تقليدياً لهم ، لا يقبلون فيه بحثاً ، ولا يسمعون فيه نقداً ، فيكون كالسكة التى طبعت في أثناء لين معدنها بصهره واذا بته ثم جمدت فلا تقبل نقشا ولا شكلاً آخر .

ومن وجوه تسليية النبي ﷺ بالآية لإعلامه ان من وصلوا بالاصرار على الجحود والعناد أو التقليد إلى هذه الدرجة من فساد الفطرة وإهمال استعمال العقل لا يؤمنون بالبيّنات وإن وضحت ، ولا بالآيات وإن اقترحت ، فقد كان كفار مكة يقترحون عليه الآيات وكان يتمنى أن يؤتبه الله ما اقترحوا منها حرصاً على إيمانهم ، حتى بين الله تعالى له هذه الحقائق من طباع البشر وأخلاقهم ، وتقدم هذا البيان في آيات من أوائل سورة الانعام وأثنائها ، ومما يناسب ما هنا منها قوله تعالى (١٠٨: ٦) وأنتم وما بالله جهد إيمانهم لنن جاءهم آية ليؤمنن بها . قل إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون (١١٩) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون (فقوله تعالى) (كما لم يؤمنوا به أول مرة) بمعنى قوله هنا « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » .

﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ العهد الوصية بمعنى إنشائها وبمعنى متعلقها وهو ما يوصى به الموصى . وعهدت إليه بكذا وصيته بفعله أو حفظه . ويكون بين طرفين وهو المعاهدة كما يكون من طرف واحد وهو من يعهد إليك

بشيء ، ومن تلتزم له شيئاً . والميثاق العهد الموثق بضرب من ضروب التأكيـد .
قال تعالى (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) أى أوفوا بما عهدت به إليكم أوف لكم
بما وعدتكم به من الجزاء على ذلك . وكل منهما يسمى عهد الله . وقال الراغب :
عهد الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا وتارة يكون بما أمرنا به في الكتاب وبالسنة
ورسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلزوم في أصل الشرع كالنذور ومايجرى مجراها .
والمراد من الأول العهد الذى تقتضيه فطرة الله التى فطر الناس عليها فهم عهد
منه يطالب الناس به ويحاسبهم عليه ومنه الخفيفة وأصلها الميل عن جانب الباطل
والشر إلى جانب الحق والخير ، فقد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان
غيبى فوق جميع قوى العالم — وعلى إظهار ما نراه حسنا واجتناب غيره — وعلى
حب الكمال وكراهة النقص . ولكنهم يخطئون في تحديد هذه المعانى ويحتاجون
إلى بيانها بوحى من الله تعالى وهو عهد الله المفصل الذى يرسل به رسله لمساعدة
الفطرة على نزكية النفس وإزالة ما يطرأ عليها من الفساد بالجهل وسوء الاختيار .
ومن الأصول العامة لعهد الله العام ، على السنة الرسل عليهم السلام ، ما بينه
تعالى في أوائل هذه السورة بمد بيان النشأة الآدمية ، والنشأة الشيطانية ، وما
بينهما من التنافر والتعادى ، أعنى تلك المناذرة التى نادى بها بنى آدم في
الآيات العشر من ٢٥ إلى ٣٤ ومنها التحذير من فتنة الشيطان وهو ما عهد
إليهم بقوله (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان ^(١)) (ومنها) الوصايا
العشر التى هى أصول الدين وقواعده الكبرى فى الآيات الثلاث ١٥١ — ١٥٣
من سورة الانعام وفى الثانية منها قوله تعالى (وبعهد الله أوفوا) ^(٢) .

وقد فسر بعض السلف العهد بالميثاق الفطرى العام الذى يأتى بيانه فى
قوله تعالى من هذه السورة (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم
وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) الخ رواه ابن أبى حاتم عن أبى
المالية وابن المنذر عن أبى بن كعب ، وهما وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد

(١) راجع تفسيرها فى ص ٣٥٧ — ٤٠١ ج ٨ تفسير .

(٢) راجع تفسيرها فى ص ١٨٣ — ١٩٩ ج ٨ تفسير .

وروى أبو الشيخ عن قتادة قال : لما ابتلاه بالشدة والجهد والبلاء ثم أتاها بالرخاء والعافية ذم الله أكرهم عند ذلك فقال (وما وجدنا لأكرهم من عهد وإن وجدنا أكرهم لفاسقين) . ويعنى ما تقدم من شأن الفطرة في الرجوع إلى الله عند الشدة وكون هؤلاء لم تؤدبهم البأساء والضراء . وهذا فرع من فروع العهد الفطرى ، وقيل انه أراد به أنهم كانوا يماهدون الله تعالى عند الضيق بأن يشكروا له ويؤحدوه إذا أنجاهم كما حثى عن بعضهم في عدة سور . وروى عن ابن مسعود تفسير العهد بالإيمان أخذنا من قوله تعالى (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) وهو يتفق مع القول الأول وإن لم يصرح به كما قال الحافظ ابن كثير في تفسير الجملة : وما وجدنا لأكرهم أى لا كثر الأمم الماضية من عهد (ثم قال) والعهد الذى أخذه هو الذى جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم فى الاصلاح أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا من شرع ، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك كما جاء فى صحيح مسلم « يقول الله : إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم من دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم » وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » الحديث : اهـ

والصواب أن العهد يعم هنا كل ما يصلح له من عهد فطرى وشرعى وعرفى مما يلتزمه الناس بعضهم مع بعض فى تعاهدهم وتعاقدهم لأنه جاء نكرة فى سياق النفى مع تأكيد النفى بمن ، كأنه قال : وما وجدنا لأكرهم أولئك الأقوام عهداً ما يفون به ﴿ وإن وجدنا أكرهم لفاسقين ﴾ أى وإن الشأن الذى وجدنا عليه أكرهم هو التمسك من الفسوق وهو الخروج عن كل عهد فطرى وشرعى بالنكث والغدر ، وغير ذلك من المعاصى . وإنما حكم على الأكرهم لأن بعضهم قد آمن والترم كل عهد عاهد الله عليه أو عاهده الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس ، ومنهم من كان ينفى ببعض ذلك حتى فى حال الكفر إذ لا تتفق أفراد أمة كبيرة على الشر والباطل فى كل شئ ، وهذا من دقة القرآن فى تحديد الحقائق بالصدق الذى لا تشوبه شبهات المبالغة بما يسلب أحداً حقه أو يعطى أحداً غير حقه ، وقد نوهنا

بهذه الدقة من قبل ، وغفل عنها بعض المفسرين فزعموا هنا أن المراد بالأكثر الكل في الكل

والفسق في الأصل أعم من نكث العهد ويتساوى مفهومهما بما فسرنا به عموم العهد هنا . ففي التعبير من محاسن الكلام الطرد والعكس ، باعتبار مدلول اللفظ ، إذ الأول يقرر بمنطوقه مفهوم الثاني الذي يقرر بمفهومه منطوق الأول . وفيه الجفاس التام بين وجدنا الأولى وهي بمعنى ألفينا والثانية وهي بمعنى علمنا . والمقابلة بين النفي والاثبات في سلب الوجود الأول واثبات الثاني

(١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَطَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ
مُوسَى يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ
لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ
مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ
(١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ
قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ
مِنْ أَرْضِكُمْ فَإِذَا تَمَامُورُونَ؟ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي
الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا ثَوَكُ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ

﴿ قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴾

هو موسى بن عمران - بكسر العين - وأهل الكتاب يضبطون اسم والده
بالميم في آخره (عمرام) وفتح أوله ، وجميع الأمم القديمة والحديثة تنصرف

في نقل الأسماء من لغات غيرها إلى لغتها . ومعنى كلمة « موسى » المتناش من الماء أى الذى أنقذ منه ، وروى أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال : إنما سمى موسى لأنه ألقى بين ماء وشجر ، فلما بالقبطية « مو » والشجر « سى » . وذلك أن أمه وضعت له بعد ولادته في تابوت (صندوق) أقفلته إقفالا محكما وألقته في اليم (بحر النيل) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبحون ذكور بنى إسرائيل عند ولادتهم ويتركون إناثهم — وقالت لأخته قصيه أى تتبعه لتعلم أين ينتهى ومن يلتقطه ، حتى لا يخفى عليها أمره ، فإزالت أخته تراقب التابوت على ضفاف اليم حتى رأت آل فرعون ملك مصر يلتقطونه إلى آخر ما قصه الله تعالى من خبره في سورة القصص .

وقد ذكرت قصته في عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة أولها هذه السورة (الأعراف) فهي أول السور المكية في ترتيب المصحف التي ذكرت فيها قصته، ومثلها في استقصاء قصته طه والشعراء ويلها سائر الطوايسين الثلاثة (النمل والقصص) وقد ذكر بعض العبر من قصته في سور أخرى كيونس وهود والمؤمنين وذكر اسمه في سور كثيرة غيرها بالاختصار ولا سيما المكية وتكرر ذكره في خطاب بنى إسرائيل من سورة البقرة المدنية وذكر في غيرها من الطول والمئين والمفصل حتى زاد ذكر اسمه في القرآن على ١٣٠ مرة فلم يذكر فيه نبى ولا ملك كما ذكر اسمه وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل عليهم السلام بقصة خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من حيث إنه أوتي شريعة دينية دنيوية ، وكون الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية ، وسنمين ما فيها وفي غيرها من حكم التكرار واختلاف التعبير في مواضعها إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى ﴿ ثم بثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ﴾ هذه القصة معطوفة على جملة ما قبلها من القصص من قوله تعالى (لقد أرسلنا نوحا) إلى قوله (و إلى مدين أخاهم شعبا) — القصة ، فهي نوع وهن نوع آخر ، والفرق بين النوعين أن تلك القصص متشابهة في تكذيب الاقوام فيها لرسلهم ومماندتهم إياهم وإيذائهم لهم . وفي عاقبة ذلك باهلاك الله تعالى إياهم بعذاب الاستقصال . ولذلك عطف كل واحدة منهم على الأولى بدون إعادة ذكر الارسال

للابد ان بأنهم نوع واحد فقال (وإلى عاد أخاهم هوداً... وإلى نود أخاهم صالحاً... ولوطاً... وإلى مدين أخاهم شعيباً) وقد أعاد في قصة موسى ذكر الارسل للفرقة ولكن بلفظ البعث وهو أخص وأبلغ من لفظ الارسل لأنه يفيد معنى الاثارة والازعاج إلى الشيء المهم، ولم يذكر في القرآن إلا في بعث الموتى وفي الرسالة العامة أي بعث عدة من الرسل، وفي بعثة نبيينا موسى خاصة، وكذا في بعث نبياء بني اسرائيل وبعث من انتقم منهم وعذبهم وسبهم حين أفسدوا في الأرض. فالتعبير بلفظ البعث هنا يؤكد ما أفادته إعادة العامل من التفرقة بين نوعي الارسل - أعني أن لفظه الخاص مؤكد للمعناه العام - كما يؤكد كدها عطف هذه القصة على أولئك بـم التي تدل على الفصل والتراخي إما في الزمان وإما في النوع أو الرتبة والآخر هو المراد هنا. وبيانه أن هذا الارسل وما ترتب عليه وأعقبه في قوم موسى مخالف للجملة ما قبله مخالفة تضاد فقد أنقذت به أمة من عذاب الدنيا وهو تعبيد فرعون وملئه لها وسومهم إياها أنواع الخزي والذلال، واختدت إلى عبادة الله تعالى وحده وإقامة شرعه فأعطاه في الدنيا ملكاً عظيماً، وجعل منها أنبياء واولاداً، وأعد بذلك المهتدين منها السعادة الآخرة الباقية فأين هذا الارسل من ذلك الارسل، الذي أعقب أقوام أولئك الرسل في الدنيا عذاب الاستئصال، وفي الآخرة ما هو أشد وأبقى من الخزي والذلال، وقد يظهر للتراخي الزماني وجه باعتبار كون العطف على قصة نوح فإن ما عطف عليهما من قصص ومن بعده قد جعل تابعاً ومتمماً لها بعدم إعادة العامل «أرسلنا» كما تقدم آنفاً، وإلا فإن شعيباً وهو آخر أولئك الرسل كان في زمن موسى وهو حموه، وقد أرحى الله تعالى إلى موسى وهو لديه مع زوجته وأولاده في سيناء وأرسله منها إلى فرعون وملئه لانتقاد بني اسرائيل من حكمه وظلمه. ويؤكد ذلك كله أن الله تعالى ذكر إرسال نوح في سورة يونس وقفى عليه بقوله: (ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم) الخ وقال بعد هذا (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه) ومن المعلوم عقلاً واستنباطاً أن التراخي بين بعثة نوح ومن بعده من الرسل زماني إذ كان بعد تناسل الذين نجوا معه في السفينة وتكاثرهم وصيرورتهم شعوباً وقبائل، وهذا الاجمال في سورة يونس في الرسل مبني على التفصيل الذي سبقه في سورة الاعراف التي نزلت قبلها أو هو أعم منه فإن الأمم قد كثرت بين نوح وموسى عليهم السلام وقد قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً) وقال غلام رسوله (منهم من قصصنا

عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وقد بينا حكمة تخصيص من ذكر في هذه السورة منهم بالذكر وكذا من ذكر في سورة الأنعام وغيرها

والمعنى ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى بآياتنا التي تدل على صدقه فيما يبلغه عنا إلى فرعون وملئه . أما فرعون فهو لقب للملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم . وكسرى لملوك الفرس الأولين و « الشاه » لملوك الإيرانيين في هذا العصر ، وكانوا يطلقون على فرعون لقب الملك أيضاً . واختلف في اشتقاق كلمة فرعون ومعناه ، وفي إسم فرعون موسى وزمنه ، وليس في الآثار المصرية ما يبين هذا ، أما ملؤه فهم أشرف قومه ورجال دولته ، ولم يقل إلى فرعون وقومه لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبني إسرائيل ويبدع أمرهم وليس لسائر المصريين من الأمر شيء ولا أنهم كانوا مستعبدين أيضاً ولكن الظلم على بني إسرائيل الغرباء كان أشد ، وإنما بعث الله تعالى موسى لإنقاذ قومه بني إسرائيل من فرعون ورجال دولته وإقامة دين الله تعالى بهم في بلاد أجدادهم ، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر قومه لأنهم كانوا تبعاً لهم بل كان هذا شأن جميع الأقوام مع ملوكهم المستعبدين الجائرين ، وقد علم الله تعالى أن فرعون وملؤه لا يؤمنون بموسى وإن قومه تبعه لا اختيار لهم وأكثروا مقلدون ولذلك قتل السحرة لما آمنوا بموسى ، وإنما آمنوا لأنهم كانوا علماء مستقلى العقل أصحاب فهم ورأى ، وكان السحر من علومهم وفنونهم الصناعية التي تتلقى بالتعليم وليس كآيات التي جاء بها موسى فانها من خوارق العادات التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى

وقد أقام الله تعالى الحجة بآيات موسى على فرعون وملئه ﴿ فظالموا بها ﴾ أى فظالموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبراً وجحوداً فكان عليهم إثم ذلك وإنم قومهم الذين حرموا من الإيمان بالتباعد لهم ، كما كان يكون لهم مثل أجورهم لو آمنوا بالتباعد لهم ، وجسلة القول أن موسى عليه السلام كان مرسل إلى قومه بني إسرائيل بالذات وإلى فرعون وملئه بالتباعد . ولك أن تقول إن الإرسال إلى بني إسرائيل مقصد وإلى فرعون وملئه وسيلة . وقد عدى الظلم في الجملة بالبلاء لتضمينه معنى الكفر فصار جامعاً للمعنيين ولا يصح تفسيره بأحدهما إذ لو أريد أحدهما لم يربطه ولم يسكن للتضمين فائدة . وقيل إن البلاء في قوله « فظالموا بها » للسببية أى فظالموا أنفسهم وقومهم بسبب هذه الآيات ظلاماً جديداً

وهو ما ترتب على الجحود من العذاب بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ثم بالفرق كما سيجيء في محله ، والأول أظهر وأبلغ على أنه لا تنافي بينهما في المعنى ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أى فانظر أيها الرسول — أو أيها السامع والتالى بعين العقل والفكر كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين فى الأرض بالظلم واستعباد البشر حين جمحدوا آيات الله وظلموا بها عملاً بمقتضى فسادهم ، وهذا تشويق لتوجيه النظر لما سيقصه تعالى من عاقبة أمرهم إذ نصر عبده ورسوله موسى عليهم وهو فرد من شعب مستضعف مستعبد لهم ، وهم أعظم أهل الأرض دولة وصولة وقوة ، نصره عليهم أولاً بإبطال سحرهم وإقناع علمائهم وسحرتهم بصحة رسالته وكون آياته من الله تعالى ، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد ثم بانقراض قومه وإغراق فرعون ومن اتبعه من ملئته وجنوده وهذه عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدة الدهر ، على القائلين إنما الغلب للقوة المادية على الحق ، ولا سيما المغرورين بعظمة دول أوربة الظالمة لمن استضعفهم من أهل الشرق ، وعلى أولئك الباغيين بالأولى ، فأولى لهم أولى ، ثم أولى لهم أولى

بعد هذا التشويق والتنبيه قص تعالى علينا ما كان من مبدأ أمر أولئك المفسدين الذى انتهى إلى تلك العاقبة فقال : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول

من رب العالمين ﴾ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ نبدأ بما فى هذه الآية من المباحث اللفظية والقراءات ونسكت البلاغة لتفهم عبارتها كما يجب ويكون سياق القصة بعد ذلك متصلاً ببعضه ببعض ، وفيها بحثان دقيقان . أحدهما بدء القصة بالمطف وكونه بالوار ، والثاني قول موسى (ع م) (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق)

لم أر من تكلم على وجه بدء الآية بالمطف وبيان المعطوف عليه والتفرقة بينها وبين مثلها من سياق القصة فى سورة طه إذ قال بعد أمر موسى بالذهاب مع أخيه هرون إلى فرعون وبليغه الدعوة مبينا كيف كان امتثالهما الأمر (إنا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) فجاء به مفصلاً على وجه الاستئناف البيانى غير موصول بالوار ولا بأو ولا بالفاء ، ومثله فى الفصل قوله تعالى فى القصص التى قبل قصة موسى من هذه السورة (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله) وكذا ما بعده من قصة صالح ولوط وشعيب ، ولم يقل

فقال أو وقال لكنه عطف تبليغ نوح (عم) قبلها بالفاء (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله) الآية وقد بينا الفرق بين هذا الوصل وما بعده من الفصل في قصة هود عليه السلام

والحاصل أن لدينا هنا عطفنا بالفاء في قصة نوح وعطفنا بالواو في قصة موسى وفصلا بينا في القصص التي بينهما يشبهه الفصل في قصة موسى في سور أخرى وله نظائر كثيرة. فأما الأول فعطف التبليغ فيه على الإرسال بالفاء لإفادة التعقيب وعدم جواز تأخير تبليغ الدعوة. وأما الفصل في القصص بعده فلا أنه لما صار هذا معلوما وكان ما جرى من أمر قوم نوح عبرة لقوم هود وكانا معا عبرة لقوم صالح وهلم جرا - حسن في كل قصة من هذه الفصل على أنه جواب لسؤال مقدر، كأن قائلًا يقول في كل منها ماذا كان من أمر هذا النبي مع قومه؟ كما تقدم بيانه. وأما الأخير الذي نحن بصدده فوجه العطف فيه وكونه بالواو وهو أنه قد قفي في قصة موسى هنا على ذكر إرساله إلى فرعون وملئه بذكر نتيجة هذا الإرسال وعاقبته بالاجمال وهو قوله تعالى (فظهوا بها) الخ. وبدأت القصة بعده بتفصيل ذلك الاجمال ومقدمات تلك النتيجة فكان المناسب أن يعطف عليها لأن يستأنف استئنافا بيانيا لما هو ظاهر من الاشتراك بين المقدمات والنتيجة، أو بين التفصيل والاجمال - وأن يكون العطف بالواو لا بالفاء لأن الفاء تدل على التعقيب والترتيب وهو لا يصح هنا لأنه يقتضي أن تكون المقدمات متأخرة عن النتيجة وذلك باطل بالبداية، فتعين أن يكون العطف بالواو، وهذه دقة في البلاغة لا تهتدى إلى مثلها إلا غواصو بحر البيان، ولا يكادون يجدون فرائدها إلا في أسلوب القرآن، وأعجب للامام الزمخشري كيف غفل عنها إذ لم يتعرض للمسألة من أصلها وحكمة بدء القصة بذكر نتيجتها والعبرة المقصودة منها، هي - والله أعلم - أن تكون متصلة بما يناسبها من العبرة في القصص التي قبلها، من حيث إهلاك ما ندى الرسل عليهم السلام جحودا واستكبارا، وقد ذكرت هذه العبرة بعد جملة تلك القصص لتشابهها مبدأ وغاية كما تقدم، وقصة موسى عليه السلام طويلة فهي تساويها في هذا من حيث رسالته إلى فرعون وملئه فقط، وفيها عبر أخرى فيما تشابه به أمر خاتم الرسل عليه السلام من حيث إرساله إلى بنى إسرائيل وإرسال محمد خاتم النبيين إلى العرب وسائر البشر وتوفيق الله قومهما للإيمان ونشر شريعتهما فيمن أرسلنا إليهم - إلى آخر

ما بيناه آنفاً في نكتة عطفها على ما قبلها بـ «و» ونكتة التعبير بـ «بمعنا» ، ولذلك ذكر في
 أواخرها تبشير موسى وكذا عيسى بالنبي الأمي الخاتم محمد صلوات الله عليهم أجمعين
 وأما قوله (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) على قراءة الجمهور فقد جاء
 على غير المشهور عن العرب في هذه الكلمة إذ يقولون: أنت حقيق بكذا - وأنت
 حقيق بأن تفعل كذا، كما يقولون أنت جدير به وخلق به ، ولم ينفل عنهم استعماله على
 ولكن ورد في كلامهم استعمال «على» بمعنى الباء كقولهم: اركب على اسم الله - وهو الذي
 اعتمده ابن هشام في المغني في تخريج الآية عند ذكر المعنى السابع من معاني «على»
 الجارة وأيده بقراءة أبي بن كعب رضي الله عنه (حقيق بأن لا أقول) ومثلهما قراءة عبد الله
 ابن مسعود رضي الله عنه (حقيق أن لا أقول ..) لأن المتبادر أن الجار المحذوف من
 أن هو الباء وحذف الجار من أن الخفيفة وأن المشددة قياسي معروف. وقد سبقته إلى هذا
 الاختيار بعض المفسرين، قال الحافظ ابن كثير في الجملة عن بعضهم: معناه حقيق
 بأن لا أقول على الله إلا الحق ، أي جدير بذلك وحرى به قالوا والباء وعلى يتعاقبان
 يقال رميت بالقوس وعلى القوس وجاء على حال حسنة وبمحال حسنة. وقال بعض
 المفسرين: معناه حرىص على أن لا أقول على الله إلا الحق اه والمراد من القول الثاني
 أن حقيقاً قد ضمن معنى الحرص وهو منقول عن الفراء النحوي المفسر المشهور ، وقد
 بينا مراراً أن التضمن جمع بين المعنى الأصلي للكلمة والمعنى الذي أفادته التعدية
 فيكون المراد من العبارة: إني رسول من رب العالمين حقيق وجدير بأن لا أقول على
 الله إلا الحق وحرىص على ذلك فلن أدخل به، وما قيل من أنه قلب الحقيقة إلى المجاز
 أو من باب الاغراق في وصف موسى نفسه بالصدق حتى جعل قول الحق كأنه يسمى
 ليكون هو قائله والقائم به ولا يرضى أن ينطق به غيره - فلا يخلو من تكلف ، وإن
 قال الزمخشري في الأخير إنه هو الأوجه الأدخل في نكت القرآن

وقرأ نافع (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) أي واجب وحق على أن
 لا أخبر عنه تعالى إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من عز جلاله وعظيم شأنه - كما قال
 الحافظ ابن كثير. إذ علم هذا فنقول في تفسير الآيات :

بلغ موسى عليه السلام فرعون أنه رسول من رب العالمين كلهم - أي سيدهم

ومالكهم ومدير جميع أمورهم - وأنه بمقتضى هذه الرسالة لا يقول على الله إلا الحق إذ لا يمكن أن يبعث الله رسولا يكذب عليه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ، فهو حقيق بالصدق والالتزام الحق فى التبليغ عن ربه ومعصوم من الكذب والخطأ فيه ، وشديد الحرص عليه بحاله من الكسب والاختيار - فاشتمل كلامه على عقيدة الوحداية وهى أن للعالمين كلهم رباً واحداً ، وعقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالمعصية فى التبليغ والهداية ، وقد ناقشه فرعون البحث فى وحدانية الربوبية العامة لله تعالى كما هو مبين فى سورة الشعراء فوصفه موسى بما يليق به تعالى ، ويوضح المعنى المراد فى أجوبة عدة أسئلة أوردها عليه ، وقد سأله هو وهارون عن ربهم ما فى سياق سورة طه ، وجاء فيما حكاه الله تعالى عنهما فيها ذكر البعث والجزاء . وكان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث كما يؤمنون بالرب الاله الغيبى ولكنهم شاؤوا العقيدتين بنزغات الشرك وبعض الخرافات الناشئة عنه .

فعلم من هذا أن موسى قد بلغ فرعون وملأه أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد والرسالة والبعث والجزاء ، وفى كل سياق من قصة موسى المسكورة فى عدة سور فوائد فى ذلك وفى غيره لا توجد فى الأخرى - وأبسطها وأوسمها بياناً هذه السورة (الاعراف) وطه والشعراء والقصاص - وإنما التكرار لجملة القصة لا التفصيل لها كما سيأتى :

ثم ذكر أن الله تعالى أيدته ببينة تدل على صدقه فى دعواه وتبليغه عنه ورتب عليه ما هو مقصود له بالذات أو بالقصد الأول فقال حكاية عنه : ﴿ لقد جئتمكم ببينة من ربكم فآرسل معى بنى إسرائيل ﴾ أى قد جئتمكم ببينة عظيمة الشأن ، ظاهرة الحججة فى بيان الحق ، فتذكير البينة للتفخيم ، والتصريح بكون هذه البينة المعجزة من هند ربهم نص على أنهم مر بوبون ، وأن فرعون ليس رباً ولا إلهاً ، وعلى أنها أى البينة ليست من كسب موسى ولا عما يستقل به عليه السلام - وبنى على هذا قوله (فأرسل معى بنى إسرائيل) أى بأن تطلقهم من أسرك ، وتعتهم من رق قهرك ، ليذهبوا معى إلى دار غير ديارك ، ويمعدوا فيها ربهم وربك . وبم أجاب فرعون ؟

﴿ قال : إن كنت جئف بآية ﴾ أى قال فرعون لموسى عليه السلام : إن

كنت جئت مصحوبا ومؤيدا بآية من عند من أرسلك كما تدعى — والشرط بأن يدل على الشك في مضمون الجملة الشرطية أو الجزم بنفيها — * فأتت بها إن كنت من الصادقين * فأتنى بها بأن تظهرها لى إن كنت من أهل الصدق ، الملتزمين لقول الحق ، وهذا شك آخر في صدقه ، بعد الشك في مجيئه بالآية .

* فالقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * أى فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التى كانت يمينه أمام فرعون فإذا هي ثعبان — وهو الذكر العظيم من الحيات — مبين أى ظاهر بين لاختفاء في كونه ثعباناً حقيقياً يسمى وينتقل من مكان إلى آخر تراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل إليها أنها تسعى كما سيأتى من أعمال سحرة فرعون — ونزع يده أى أخرجها من جيب قيصره بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا فإذا هي بيضاء ناصعة البياض تتلألأ للناظرين إليه وهم فرعون وملؤه أو لسكر من ينظره والنظارة هم الذين يجتمعون عادة لرؤية الأمور الغريبة . وقد وصف الله تعالى بياضها في طه والنحل والقصاص بأنه (من غير سوء) أى من غير علة كالبرص .

وفي التفسير المأثور روايات في صفة الثعبان الذى تحولت إليه عصا موسى (ع . م) وفي تأثيره لدى فرعون ما هي إلا من الإسرائيليات التى لا يصح لها سند ولا يوثق منها بشيء ، ومنها قول وهب بن منبه : إن العصا لما صارت ثعباناً حملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً وقام فرعون منهزماً . قال ابن كثير : رواه ابن جرير والامام احمد وابن أبى حاتم وفيه غرابة في سياقه والله أعلم اهـ وقد اقتصرنا على هذه الرواية لا قول اننى أرجح تضعيف عمرو بن على الفلاس لوهب على توثيق الجمهور له بل أنا أسوأ فيه ظناً على ما روى من كثرة عبادته ، ويغلب على ظنى أنه كان له ضلع مع قومه الفرس الذين كانوا يكيّدون للإسلام وللعرب ويدسون لهم من باب الرواية ومن طريق التشيع فقد ذكر الامام احمد أن والده منها فارسى أخرجه كسرى إلى اليمن فأسلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأن ابنه وهباً كان يختلف من بعده إلى بلاده بعد فتحها وهما موضع لشبهة في الغرائب الرواية عنه وهى كثيرة — ومثله عندى كعب الاحبار الإسرائيلى — كلاهما كان تابعياً كثير الرواية للغرائب التى لا يعرف لها أصل منقول ولا معقول ، وقومهما كانوا يكيّدون

للأمة الإسلامية العربية التي فتحت بلاد الفرس وأجلت اليهود من الحجاز ،
فقاتل الخليفة الثاني فارسي مرسل من جمعية سرية لقومه ، وقتله الخليفة الثالث
كانوا مفتونين بدسائس عبد الله بن سبأ اليهودي . وإلى جمعية السبيئيين وجمعيات
الفرس ترجع جميع الفتن السياسية وأكاذيب الرواية في الصدر الأول

﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾ يريد أن يخرجكم من

أرضكم فماذا تأمرون ﴾

﴿ فصل في حقيقة السحر وأنواعه ﴾

كان السحر فنا من فنون قديما المصريين يتعلمونه في مدارسهم العالية مع
سائر علوم الكون ، وكان كذلك عند أقرانهم من البابليين ، وكذا الهنود وغيرهم ،
ولا يزال يؤثر عن الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة اهتمت علماء الانكبايز وغيرهم
من الافرنج إلى تعليل بعضها أو كشف حقيقته ، ولا يزالون يجهلون تعليل بعض .
والمعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقته على
جماهير الناس لجهلهم بأسبابها فتى عرف سبب شيء منها بطل إطلاق اسم السحر
عليه ، ولذلك كان الأقوام الجاهلون يمدون آيات الرسل الكونية التي يؤيدهم الله
تعالى بها من قبيل السحر ، ويجهلون هذا مانعا من دلتها على صدقهم وتأيد الله
تعالى لهم ، لأن السحر صنعة تتلقى بالتعليم والتمرين فيمكن لكل أحد أن يكون
ساحرا إذا أتيح له من يعلمه السحر . ومن المعلوم في التاريخ القديم والحديث أن
السحر لا يروج إلا بين الجاهلين ، وله المكانة المهمة الخفية بين اعرق القبائل في
الجمعية ، ولا يكاد يوجد في البلاد التي ينتشر فيها العلم والعرفان بل يسمى أهله
بأسماء أخرى كالشعوذين والمختالين والدجالين

وقد سبق لنا بيان حقيقة السحر في قصة هاروت وماروت من جزء التفسير
الأول ، وفي بعض مجلدات المنار و خلاصته أنه ثلاثة أنواع (أحدها) ما يعمل
بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للعامل المجهولة عند من يسحرهم بها
ومنها الزئبق الذي قيل إن سحرة فرعون وضعوه في حبالهم وعصيهم كما سيأتي .

ونو شاء علماء الطبيعة والكيمياء في هذا العصر أن يجعلوا أنفسهم سحرة في بلاد أواسط افريقية الهمجية وأمثالها من البلاد الجاهلة التي يروج فيها السحر العتيق لاروم من عجائب الكهرباء وغيرها ما يخضعونهم به لعبادتهم لو ادعوا الالوهية فيهم ، دع دعوى النبوة أو الولاية . وقد اجتمع السحرة في بعض هذه البلاد على بعض السياح الغربيين ليرهبوهم بسحرهم وكانوا في مكان بارد والفصل شتاء فأخذ بعض هؤلاء السياح قطعة من الجليد وجعلوها بشكل عدسى بقدر ما يرى من قرص الشمس وقال لهم انني أعلم منكم بالسحرو انني أقدر به أن أجعل في يدي قميصا كشمس السماء ثم وجه عدسيته إلى الشمس عند بزوغها واكمل ضوءها فصارت بانعكاس النور فيها كالشمس لم يستطع السحرة أن يشبهوا نظرم إليها فحضموا له ولمن معه ، وكفوا شرهم عنهم خوفا منهم

(النوع الثاني) الشعوذة التي مدار البراعة فيها على خفة اليدين في اخفاء بعض الأشياء و اظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها ، وغير ذلك مما هو معروف في هذه البلاد وغيرها من بلاد الحضارة بكثرة المكتسبين بها من الوطنيين والغرباء ، ولم يبق أحد في هذه البلاد يسميها سحرا

(النوع الثالث) ما مداره على تأثير الألفس ذوات الارادة القوية في الألفس الضعيفة ذات الامزجة العصبية القابلة للاوهام والانفعالات التي تسمى في عرف علماء هذا العصر بالمستيرية ، وهذا النوع هو الذي قيل إن أصحابه يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ، ومنهم الذين يكتبون الأوقاف والطلسمات للحب والبغض وغير ذلك . ومن يقول إن للحروف خواص وتأثيرات ذاتية يخرج عمل الأوقاف والنشرات وما في معناها من السحر . ومن هذا النوع ما استحدث في هذا العصر من التنويم المغناطيسي وأخباره مشهورة

ومما سبق لنا بيانه في هذا الباب مخطئة من قال من المتكلمين إن السحر من خوارق العادات الذي هو الجنس الجامع لمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، وفاتهم أن السحر صناعة تتلقى بالتعليم ، كما ثبت بنص القرآن وبالاختيار الذي لم يبق فيه خلاف بين أحد من علماء الكون في هذا العصر

ولعلمائنا كلام كثير في السحر بعضه صحيح وبعضه أوهام ، وإننا ننقل هنا كلام بعض كبار محققى المفسرين فيه . ومن أخصره وأفيدته قول ابن فارس : هو إخراج الباطل في صورة الحق . وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته لغريب القرآن مانصه : تعريف السحر ومأخذه من اللغة

السحر ^(١) طرف الحلقوم والرئة ، وقيل انتفخ سحره وبعير سحره ، عظيم السحر والسحارة (بالضم) ما ينزع من السحر عند الذبح فيرمى به وجعل بناؤه بناء النفاية والسقاطة ، وقيل منه اشتق السحر وهو إصابة السحر . والسحر يقال على معان .

(الأول) خداع وتخيلات لاحقيقة لها نحو ما يفعله المشعوذ بصرف الابصار عما يفعله خلفه يد ، وما يفعله الخيام بقول مزخرف عائق الأسماع ، وعلى ذلك قوله تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم) وقال (يخيل اليه من سحرهم) وبهذا النظر سموا موسى عليه السلام ساحراً فقالوا (يا أيها الساحر ادع لنا ربك)

(والثاني) استجلاب معاونة الشياطين بضرب من التقرب اليهم كقوله تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفك أثم) وعلى ذلك قوله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)

(والثالث) ما يذهب اليه الأغتنام وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع ، فيجعل الانسان حمارا ولا حقيقة لذلك عند المحصلين . وقد تصور من السحر تارة حسنه ف قيل «إن من البيان لسحراً» وتارة دقة فعمله حتى قالت الأطباء : العالبيعة ساحرة وسموا الغداء سحرا من حيث أنه يدق ويلطف تأثيره . اهـ وقد عقد الشيخ أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالخصاص من

أئمة الحنفية في القرن الرابع بابا خاصا من تفسيره الجليل (أحكام القرآن) لبيان معنى السحر وحكم الساحر عند كلامه على قوله تعالى (واتبعوا ما تنزل الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) قال في أوله «الواجب أن تقدم القول في السحر خلفائه على كثير من أهل العلم فضلا عن العامة ، ثم نعقبه بالكلام في حكمه في مقتضى الآية في المعاني والأحكام فنقول:

(١) ذكره بالفتح ، وفيه ثلاث لغات بأوزان فلس وسبب وقفل .

إن أهل اللغة يذكرون أن أصله في اللغة لما لطف وخفى سببه ، والسحر عندهم بالفتح هو الغذاء الخفائه ولطف مجاريه . قال لبيد :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

« قيل فيه وجهان: نعمل ونخدع كالسحور والمخدوع — والآخر نفذى . وأى الوجهين كان فعليه الخفاء . وقال آخر :

فإن تسألينا : فيم نحن فأننا عصفائر من هذا الأنام المسحر

« وهذا البيت يحتمل من المعنى ما احتمله الأول ، ويحتمل أيضا أنه أراد بالسحر أنه ذو سحر . والسحر : الرئة وما يتعلق بالخلقوم ، وهذا يرجع إلى معنى الخفاء أيضا . ومنه قول عائشة « توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري » وقوله تعالى (إنما أنت من المسحرين) يعنى من المخلوق الذى يطعم ويسقى . ويدل عليه قوله تعالى (وما أنت إلا بشر مثلهما) وكقوله تعالى (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق) ويحتمل أنه ذو سحر مثلهما . وإنما يذكر السحر في مثل هذه المواضع لضعف هذه الأجساد ولطافتها ورقتها وبها مع ذلك قوام الانسان . فمن كان بهذه الصفة فهو ضعيف محتاج . وهذا هو معنى السحر في اللغة ، ثم نقل هذا الاسم إلى كل أمر خفى سببه وتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع . ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ضم فاعله . وقد أجرى مقيدا فيما يمتدح ويحمد ، كما روى « إن من البيان لسحرا »

وهنا ذكر الخصاص روايته لهذا الحديث وهو في الصحيح وأطال الكلام عليه في زهاء ورقة كبيرة ذكر في أثناءه سحر سحرة موسى لأعين الناس وتخيلهم إن حباهم وعصيمهم تسعى ولم تكن تسعى ، وذكر ما قيل من حيلتهم في ذلك بوضع الرئيق فيها وتحريك النار الخفية لارتبى فكان سبب حركتها ، وسأى في نقل ذلك عنه قريبا . ثم ذكر قصة فارسي في أصل السحر ببابل وقفي عليها ببيان أنواعه فقال :

كلام الخصاص في السحر وأنواعه

« وإذا قد بينا أصل السحر في اللغة وحكمه عند الإطلاق والتقييد فلنقل في معناه في التعارف والضروب الذى يشتمل عليها هذا الاسم وما يقصد به كل فريق

من منتهى حيله ، والغرض الذى يجرى اليه مدعوه ، فنقول وبالله التوفيق : إن ذلك ينقسم إلى أنحاء مختلفة .

« فتنها سحر أهل بابل) الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله (يعلون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) وكانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة . ويعتقدون ان حوادث العالم كلها من أفعالها ، وهم معطلة لا يعترفون بالصانع الواحد المبدع للسكواكب وجميع أجرام العالم ، وهم الذين بعث الله تعالى اليهم ابراهيم خليله صلوات الله عليه فدعاهم إلى الله تعالى وحاجهم بالحجاج الذى يهرم به وأقام عليهم به الججة من حيث لم يتكهنهم دفعه ، ثم ألقوه فى النار فجعلها الله بردا وسلاما . ثم أمره الله تعالى بالهجرة إلى الشام . وكان أهل بابل واقليم العراق والشام ومصر والروم على هذه المقالة إلى أيام بيوراسب الذى تسميه العرب الضحاك . وان افريدون وكان من أهل دنباوند استعجاش عليه بلاده وكتب سائر من بطيعة دولة قصص طويلة حتى أزال ملكه وأسره . وجعل العامة والنساء عندنا يزعمون ان افريدون حبس بيوراسب فى جبل دنباوند العالى على الجبال وأنه حتى هناك مقيد ، وان السحرة يأتونه هناك فيأخذون عنه السحر . وأنه سيخرج فيغلب على الأرض وأنه هو الدجال الذى أخبر به النبي ﷺ وحذروا ، وأحسبهم أخذوا ذلك عن الجوس . وصارت مملكة إققيم بابل للفرس ، فانتقل بعض ملوكهم اليها فى بعض الأزمان فاستوطنوها ، ولم يكونوا عبدة أوثان ، بل كانوا وحادين مقرين بالله وحده ، إلا أنهم مع ذلك يعظمون العناصر الأربعة الماء والنار والأرض والهواء لما فيها من منافع الخلق ، وان بها اقوام الحيوان ، وانما حدثت الجوسية فيهم بعد ذلك فى زمان كشتاسب حين دماه زرادشت . فاستجاب له على شرائط يطول شرحها . وانما غرضنا فى هذا الموضع الابانة عما كانت عليه سحرة بابل . ولما ظهر الفرس على هذا الاقليم كانت قديين يقتل السحرة وإيادتها ولم يزل ذلك فيهم ومن دينهم بعد حدوث الجوسية فيهم وقبيلة إلى أن زال عنهم الملك . » وكانت علوم أهل بابل قبل ظهور الفرس عليهم الحيل والذيرنجيات وأحكام النجوم ،

(تفسير القرآن الحكيم) (٥٠) (الجزء التاسع)

وكانوا يعبدون أوثانا قد عملوها على أسماء الكواكب السبعة وجعلوا لكل واحد منها هيكلًا فيه صنمه، ويتقربون إليها بضرب من الأفعال على حسب اعتقاداتهم من موافقة ذلك للكواكب الذي يطلبون منه بزعمهم فعل خير أو شر، فمن أراد شيئًا من الخير والصالح بزعمه يتقرب إليه بما يوافق المشتري من الدخن والرقى والعقد والنفت عليها ومن طلب شيئًا من الشر والحرب والموت والبوار وغيره تقرب بزعمه إلى زحل بما يوافقه من ذلك، ومن أراد البرق والحرق والطاعون تقرب بزعمه إلى المريخ بما يوافقه من ذلك من ذبح بعض الحيوانات، وجميع تلك الرقى بالنبطية تشتمل على تعظيم تلك الكواكب إلى ما يريدون من خير أو شر ومحبة وبغض فيعطيه، ما شاءوا من ذلك فيزعمون أنهم عند ذلك يفعلون ما شاءوا في غيرهم من غير ممانسة ولا ملامسة سوى ما قدموه من القربات للكواكب الذي طلبوا ذلك منه. فمن العامة من يزعم أنه يقلب الإنسان حمارًا أو كلبًا ثم إذا شاء أعاده، ويركب البيضة والمكنسة والحماة ويظهر في الهواء فيمضي من العراق إلى الهند وإلى ما شاء من البلدان ثم يرجع من ليلته « وكانت عوامهم تعتقد ذلك لأنهم كانوا يعبدون الكواكب وكل مادعا إلى تعظيمها اعتقدوه . وكانت السحرة تحتال في خلال ذلك بحيل تمود بها على العامة إلى اعتقاد صحتهم ، بأن يزعم أن ذلك لا ينفذ ولا ينتفع به أحد ولا يبلغ ما يريد إلا من اعتقد صحة قولهم وتصديقهم فيما يقولون

« ولم تكن ملوكهم تعترض عليهم في ذلك بل كانت السحرة عندها بالحيل الأجل لما كان لها في نفوس العامة من محل التعظيم والإجلال ، ولأن الملوك في ذلك الوقت كانت تعتقد ما تدعيه السحرة للكواكب ، إلى أن زالت تلك الممالك . ألا ترى أن الناس في زمن فرعون كانوا يقبضون بالعلم والسحر والحيل والخداع ولذلك بعث إليهم موسى عليه السلام بالعصا والآيات التي علمت السحرة أنها ليست من السحر في شيء ، وأنها لا يقدر عليها غير الله تعالى ، فلما زالت تلك الممالك وكان من ملوكهم بعد ذلك من الموحدين يطلبونهم ويتقربون إلى الله

تعالى بقتلهم كانوا يدعون عوام الناس وجهالهم سرا كما يفعله الساعاة كثير ممن يدعى ذلك مع النساء والاحداث الاغمار والجهال الحشو .

وكانوا يدعون من يعملون له ذلك إلى تصديق قولهم والاعتراف بصحته . والمصدق لم بذلك يكفر من وجوه (أحدها) التصديق بوجوب تعظيم الكواكب وتسميتها آلهة (والثاني) اعترافه بأن الكواكب تقدر على ضره ونفعه (والثالث) ان السحرة تقدر على مثل معجزات الأنبياء عليهم السلام . فبعث الله إليهم ملكين يبينان للناس حقيقة ما يدعون ، وبطلان ما يذكرون ، ويكشفان لهم ما به يوهون ، ويخبرانهم بمآل تلك الرق وانها شرك وكفر ، ويحيلهم التي كانوا يتوصلون بها إلى القوية على العامة ، ويظهران لهم حقائقها ، وينهيانهم عن قبولها والعمل بها ، بقولهمها لهم (إنما نحن فتنه فلا تكفر) فهذا أصل سحر بابل ومع ذلك فقد كانوا يستعملون سائر وجوه السحر والحيل التي تذكرها ويوهون بها على العامة ويعزونها إلى فعل الكواكب لئلا يبحث عنها ويسامها لهم .

« فن ضروب السحر كثير من التخيلات التي مظهرها على خلاف حقائقها (فمنها) ما يعرفه الناس بجريان العادة بها وظهورها ومنها ما يخفى ويلطف ، ولا يعرف حقيقته ومعنى باطنه إلا من تعاطى معرفة ذلك ، لان كل علم لا بد أن يشتمل على جلي وخفي وظاهر وغامض ، فالجلي منه يعرفه كل من رآه وسمعه من العقلاء والغامض الخفي لا يعرفه إلا أهله ومن تعاطى معرفته وتكاف فعله والبحث عنه وذلك نحو ما يتخيل راكب السفينة إذا سارت في النهر فيرى ان الشط بما عليه من النخل والبنيان سائر معه ، وكما يرى القمر في مهب الشمال يسير للغيم في مهب الجنوب ، وكذا دوران الدوامة فيها الشامة فيراها كالطوق المستدير في ارجائها ، وكذلك يرى هذا في الرحي إذا كانت سرية الدوران ، وكالعود في طرفه الحجر إذا أداره مديره رأى تلك النار التي في طرفه كالطوق المستدير ، وكالغنيمة التي يراها في قدح فيه ماء كالخوخة والاجاصة عظام ، وكالشخص الصغير يراه في الضباب عظيما جسيما ، وكبخار الأرض الذي يربك قرص الشمس عند طلوعها عظيما فإذا غارت وارتفعت صغرت ، وكما يرى المرئي في الماء منكسرا أو معوجا ، وكما يرى

الغاتم إذا قربته من عينك في سعة حلقة السوار . ونفاثر ذلك كثيرة من الأشياء التي تتخيل على غير حقائقها فيعرفها عامة الناس .

« ومنها ما يلطف فلا يعرفه إلا من تعاطاه وتأمله كخيطة السحارة الذي يخرج مرة أحمر ومرة أصفر ومرة أسود . ومن لطيف ذلك ودقيقة ما يفعله المشعوذون من جهة الحركات وإظهار التخيلات التي تخرج على غير حقائقها حتى يريك عصفورا معه أنه قد ذبحه ثم يريكه وقد طار بعد ذبحه وإبانة رأسه وذلك لحظة حركته ، والمذبوح غير الذي طار لانه يكون معه اثنان قد خبا أحدهما وأظهر الآخر ويخبا لحظة الحركة المذبوح ويظهر الذي نظيره ، ويظهر أنه قد ذبح انسانا ، وأنه قد بلع سيفا معه وأدخله في جوفه ، وليس شيء منه حقيقة .

« ومن نحو ذلك ما يفعله أصحاب الحركات للصور المعمولة من صغر^(١) أو غيره فيرى فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما الآخر وينصرف بحيل قد أعدت لذلك ، وكفارس من صغر على فارس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبورق من غير أن يمس أحد ولا يتقدم إليه .

« وقد ذكر السكاكي أن رجلا من الجند خرج ببعض نواحي الشام متصيدا ومعه كلب له غلام قرأى نعليا فأغرى به الكلب ، فدخل الثعلب ثوبا في ثل هناك ودخل الكلب خلفه فلم يخرج فأمر الغلام أن يدخل فدخل وانتظره صاحبه فلم يخرج فوقف متبهما للدخول ، فر به رجل فأخبره بشأن الثعلب والكلب والغلام وأن واحدا منهم لم يخرج وأنه متأهب للدخول ، فأخذ الرجل بيده فأدخله إلى هناك فضا إلى سرب طويل حتى أفضى بهما إلى بيت قد فتح له ضوء من موضع ينزل إليه عمقانين فوقف به على المراقبة الأولى حتى أضاء انبيت حينئذ قال له : انظر ، فمظروا إذا الكلب والرجل والثعلب قتلى ، وإذا في صدر البيت رجل واقف مقنع في الحديد وفي يده سيف فقال له الرجل : أترى هذا ؟ لو دخل إليه

هذا اذا دخل ألف رجل لقتلهم كلهم ، فقال : وكيف ؟ قال : لأنه قد رتب وهندم على هيئة متى وضع الانسان رجله على المرقاة الثانية للانزول تقدم الرجل المعمول في الصدر فضر به بالسيف الذي في يده ، فاياك أن تنزل إليه . فقال : فكيف الخيلة في هذا ؟ قال : ينبغي أن تحفر من خلفه سردابا يفضى بك إليه ، فإن وصلت إليه من تلك الناحية لم يتحرك . فاستأجر الجندي أجرا ، وصناعا حتى حفروا سردابا من خلف التل فأفضوا إليه فلم يتحرك ، وإذا رجل بمعمول من صفر أو غيره قد ألبس السلاح وأعطى السيف ، فقلعه ، ورأى بابا آخر في ذلك البيت ففتحه فإذا هو قبر لبعض الملوك مبيت على سريره هناك ، وأمثال ذلك كثيرة جدا ^(١)

« ومنها الصور التي يصورها مصورو الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بين الإنسان وبينها ، ومن لم يتقدم له علم أنها صورة لا يشك في أنها إنسان ، وحتى تصورها ضاحكة أو باكية وحتى يفرق فيها بين الضحك من الخجل والسرور ، وضحك الشامت .

« فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل وخفيها ، وما ذكرناه قبل من جليها وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب على النحو الذي بينا من حيلهم في العصي والخيال . والذي ذكرناه من مذاهب أهل بابل في القديم وسحرو وجوه حيلهم بعضه ممنه من أهل المعرفة بذلك ، وبعضه وجدناه في كتب قد تقلت حديثا من النبطية إلى العربية ، منها كتاب في ذكر سحرو وأصنافه ووجوهه وكلها مبنية على الأصل الذي ذكرناه من قربات السكواكب وتظيمها وخرافات معها لا تساوى ذكرها ولا فائدة فيها .

(وضرب آخر) من السحرو وهو ما يدعونه من حديث الجن والشياطين وطاعتهم لهم بالرق والعزائم ، وينوصلون إلى ما يريدون من ذلك بتقدمة أمور وهو أمانة قوم قد أعدوهم لذلك ، وعلى ذكك كان يجري أمر السكهان من العرب في الجاهلية ، وكانت أكثر مخاريق الحلاج من باب المواطات . ولولا ان هذا الكتاب لا يحتمل

استقصاء ذلك لذكرت منها ما يوقف على كثير من مخاريقه ومخاريق أمثاله^(١) وضرب أصحاب العزائم، وفتنتهم على الناس غير يسير، وذلك أنهم يدخلون على الناس من باب أن الجن إنما تطيعهم بالرق التي هي أسماء الله تعالى فانهم يحيمون بذلك من شاءوا، ويخرجون الجن لمن شاءوا، فتصدقهم العامة على اغترار بما يظهرون من انقياد الجن لهم بأسماء الله تعالى التي كانت تطيع بها سليمان بن داود عليهما السلام، وانهم يخبرونهم بالخبايا وبالسرور.

« وقد كان المعتضد بالله مع جلالته وشهامته ووفور عقله اغتر بقول هؤلاء. وقد ذكره أصحاب التواريخ، وذلك انه كان يظهر في داره التي كان يخلو فيها بنفسائه وأهله شخص في يده سيف في أوقات مختلفة وأكثره وقت الظهور، فإذا طلب لم يوجد ولم يقدر عليه ولم يوقف له على أثر مع كثرة التنفيس، وقد رآه هو بعينه

(١) المواطات: جمع مواطاة وهي الاتفاق بين اثنين أو أكثر على أمر. والمخاريق جمع مخراق وهي في الأصل خرق كانوا يقتلون بها ويلعبون بها بإدارتها بحفة ومهارة. ومواطآت الحلاج هي انه كان يتفق مع أناس من رجاله على ما يلبسون به على الناس بدعوى السكرامات وقد اكتشف ذلك في عصره كما بينه التوخي في جامع التواريخ « نشوار المحاضرة » ومنه أن رجلا جاء بصفة مسترشد وانما هو مختبر، فقال له الحلاج: تشبه على ما شئت، فقال: أريد سسكا طريا وكانوا في بعض بلاد الجبل البعيدة عن الأنهار والبحر فدخل بيتا خاليا من داره وأغلق عليه بابا وعاد بعد ساعة طويلة وقد خاض وحلا إلى ركبتيه وبسده سمكة تضطرب وزعم أنه دعا الله فأمره أن يذهب إلى البطائح قال فمضيت إلى البطائح فحضت الأهواز وهذا الطين منها حتى أخذت هذه. فقال الرجل: تدعني أدخل البيت فان لم يتكشف لي حيلة فيه آمنت بك. فقال شأنك — فدخل وبعد عشاء وتنقيب اهتدى إلى دار كبيرة فيها بستان عظيم فيه صنوف الفاكهة والثمار والتواريخ ومنها ما ليس في وقته. ولسكنه محفوظ بحيلة صناعية ووجد فيها خزان مديحة فيها أنواع الاطعمة الناضجة والحوائج لما يهيا بسرعة، ورأى في الدار بركة ماء مملوءة سمكا فأخذ واحدة منها وخرج... فبقي الحلاج فرمى بالسمكة وجهه وصدره وهرب وأقسم الحلاج ليقنته ان حدث أبدا بذلك ولو في تخوم الأرض ولم يحدث بها الرجل الا بعد قتله لعلمه بأنه لو أمر أحد المفتونين به ان يقتله فإنه يفعل.

مراراً ، فأهمته نفسه ودعا بالمعززين فحضرُوا وأحضروا معهم رجالاً نساء وزعموا أن فيهم مجانين وأصحاء ، فأمر بعض رؤسائهم بالمعززة فعمز على رجل منهم زعم أنه كان صريحاً فجن وتخبط وهو ينظر إليه ، وذكروا له أن هذا غاية الخدق بهذه الصنعة إذ أطاعته الجن في تخبيط الصحيح ، وإنما كان ذلك المعزم بمواطاة منه لذلك الصحيح على أنه متى عمز عليه جنن نفسه وتخبط ، فجاز ذلك على المعتضد فقامت نفسه منه وكرهه ، إلا أنه سألهم عن أمر الشخص الذي يظهر في داره فمخروقا عليه بأشياء علقوا قلبه بها من غير تحصيل لشيء من أمر ماسألهم عنه فأمرهم بالانصراف وأمر لكل واحد منهم من حضر بخمسة دراهم . ثم تفرز المعتضد بغاية ما أمكنه وأمر بالاستئذان من سور الدار حيث لا يمكن فيه حيلة من تسلق ونحوه وبطاحت في أعلى السور خواب مثلاً لا يمكن بالقاء المماثل التي يحتمل بها الخصوص

« ثم لم يوقف لذلك الشخص على خبر إلا ظهوره له الوقت بعد الوقت إلى أن توفي المعتضد وهذه الخواري المبسوحة على السور ، وقد رأيتها على سور الثريا التي بناها المعتضد . فسألت صديقاً لي كان قد حجب المقدر بالله عن أمر ذلك الشخص وهل تبين أمره ؟ فذكر لي أنه لم يوقف على حقيقة هذا الأمر إلا في أيام المقدر ، وإن ذلك الشخص كان خادماً أبيض يسمى (يقق) وكان يعمل إلى بعض الجوارى اللاتي في داخل دور الحرم ، وكان قد اتخذ لحي على ألوان مختلفة ، وكان إذا لبس بعض تلك الحي لا يشك من رآها أنها لحيته ، وكان يلبس في الوقت الذي يريده لحية منها ، ويظهر في ذلك الموضع وفي يده سيف أو غيره من السلاح حيث يقع نظر المعتضد فإذا طلب دخل بين الشجر الذي في البستان أو في بعض تلك الممرات أو العطفات ، فإذا غاب عن أبصار طالبيه نزع اللحية وجعلها في كفه وأحزته ^(١) ويبقى السلاح معه كأنه بعض الخدم الطالبين للشخص ولا يرتابون به ، ويسألونه هل رأيت في هذه الناحية أحداً فانا قد رأينا صار إليها ؟ فيقول مارأيت أحداً . وكان إذا وقع مثل هذا الفزع في الدار خرجت الجوارى من داخل الدور إلى هذا الموضع فيرى هو تلك

(١) الحزة بالضم الحجة وهي من الأزار معتددة ومن السراويل ما تكون فيه الشبكة ، وهي معتددة أيضاً وفي كل منهما مخبأ للدارم ونحوه .

الجارية ويخطبها بما يريد، وإنما كان غرضه مشاهدة الجارية وكلامها فلم يزل هذا دأبه إلى أيام المقتدر، ثم خرج إلى البلدان وصار إلى طرطوس وأقام بها إلى أن مات وتحدثت الجارية بعد ذلك بمحذبه ووقف على احتماله . فهذا خادم قد احتال بمثل هذه الحيلة الخفية التي لم يهتد لها أحد مع شدة عناية المعتضد به وأعيانه معرفتها والوقوف عليها ولم تكن صناعته الحيل والمخاريق فما ظنك بمن قد جعل هذا صناعة ومعاشا ؟

(وضرب آخر من السحر) وهي السعي بالخيمة والوشاية بها ^(١) والبلاغات والافساد والنضريب من وجوه خفية لطيفة ، وذلك عام شائع في كثير من الناس . وقد حكى أن امرأة أرادت إفساد ما بين زوجين ، فسارت إلى الزوجة فقالت لها : إن زوجك مريض عنك وقد سحر وهو مأخوذ عنك وسأ سحر ذلك حتى لا يريد غيرك . ولا ينظر إلى سواك ، ولكن لا بد أن تأخذي من شعر حلقة بالموسى ثلاث شعرات إذا نام وتعطينيها فإن بها يتم الأمر ، فاعترت المرأة بقولها وصدقتها . ثم ذهبت إلى الرجل وقالت له : إن امرأتك قد علقت رجلا ، وقد عزمت على قتلك ، وقد وقفت على ذلك من أمرها فأشعقت عليك ولزمني نصحك فتيقظ ولا تغتر ، فإنها عزمت على ذلك بالموسى وستعرف ذلك منها فما في أمرها شك . فتناول الرجل في بيته فلما ظنت امرأته أنه قد نام عمدت إلى موسى حاد وأهوت به لتحلق من حلقة ثلاث شعرات ، ففتح الرجل عينه فرآها وقد أهوت بالموسى إلى حلقه فلم يشك في أنها أرادت قتله ، فقام إليها فقتلها وقتل ، وهذا كثير لا يحصى

(وضرب آخر من السحر) وهو الاحتيال في إطعامه بعض الأدوية المبلدة المؤثرة في العقل والدخن المسددة المسكرة نحو دماغ الحمار إذا طعمه إنسان قبلد عقله وقلت فطنته مع أدوية كثيرة هي مذكورة في كتب الطب ويتوصلون إلى أن يجمعوه في طعام حتى يأكله فتذهب فطنته ويجوز عليه أشياء مما لو كان تام الفطنة لا نكرها ، فيقول الناس إنه مسحور ^(٢)

(١) بهذا فسر الاستاذ الامام التفائات في العقد من سورة الفلق

(٢) قد كثرت بعد عصر المؤلف العقاقير المفسدة للعقل والمبلدة للذهن ولا سيما في زماننا هذا ، ومنها الحشيشة المشهورة وما يتخذ منها ومن غيرها من المعاجين ، والكوكابين ، ولكنها لاشتهارها لم تعد من اعمال السحر

«وحكمة كافية تبين لك أن هذا كله مخاريق وحيل لاحقيقة لما يدعون لها أن الساحر والمعزم لو قدرنا على ما يدعيانه من النفع والضرر من الوجوه التي يدعون وأمكنهم الطيران والعلم بالغيوب وأخبار البلدان النائية والخبثات والسرقة والاضرار بالناس من غير الوجوه التي ذكرنا لقدروا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز والغلبة على البلدان بقتل الملوك بحيث لا يبدأهم مكروه ، ولما مسهم السوء ولا متنعوا ممن قصدهم بمكروه ، ولا استغنوا عن الطلب لما في أيدي الناس فاذا لم يكن كذلك وكان المدعون لذلك أسوأ الناس حالا وأكثرم طمعا واحتمالا وتوصلا لأخذ دراهم الناس وأظهرهم فقرا وبملافا . علمت أنهم لا يقدرّون على شيء من ذلك .

« ورؤساء الحشو والجهال من العامة من أسرع الناس إلى التصديق لدعاوى السحرة والمعزمين وأشدّهم تكبرا على من جحدّها ، ويروون في ذلك أخبارا مفعلة متخرصة يعتقدهون صحّتها ، كالحديث الذي يروون أن امرأة أتت عائشة فقالت إني ساحرة فهل لي توبة؟ فقالت وما سحرِك؟ قالت سرت إلى الموضع الذي فيه هاروت وماروت ببديل لطلب عيم السحر . فقالا لي يا أمة الله لا تختاري عذاب الآخرة بأمر الدنيا ، فأبيت ، فقالا لي اذهبي فبولي على ذلك الرماد فذهبت لأبول عليه ففكرت في نفسي فقلت : لا فعلت وجئت اليهما فقلت : قد فعلت ، فقالا : ما رأيت؟ فقلت : ما رأيت شيئا ، فقالا : ما فعلت اذهبي فبولي عليه ، فذهبت وفعلت ، فرأيت كأن فارسا قد خرج من فرجي مقنعا بالحديد حتى صعد إلى السماء . ففجتهما فأخبرتهما فقالا ذلك إيمانك خرج عنك ، وقد أحسنت السحر ، فقلت وما هو؟ فقالا لا تريدن شيئا فتصورينه في وهمك إلا كان . فصورتي في نفسي جبا من حنطة فإذا أنا بالحلب ، فقلت له انزع فانزع وخرج من ساعته سنبلا فقلت له انطحن واخبرني إلى آخر الأمر حتى صار خبزا ، وإني كنت لا أصور في نفسي شيئا إلا كان . فقالت لها عائشة ليست لك توبة .

« فيروى القصص وأخذثون الجهال مثل هذا للعامة فنصدقهم وتستعيدهم وتسأله أن يحدثها بحديث ساحرة ابن هبيرة فيقول لها : إن ابن هبيرة أخذ ساحرة فأقرت له بالسحر فدعا الفقهاء فسأهم عن حكمها فقالوا لقتل . فقال ابن هبيرة : لست

أقمتها إلا تغريقا . قال : فأخذ رحي الزبر فشدّها في رجلها وقذفها في الفرات
فقامت فوق الماء مع الحجر تنجس مع الماء فيخافوا أن تغرقهم . فقال ابن هبيرة
من يسكنها وله كذا وكذا ؟ فرغب رجل من السحرة كان حاضرا فيما بقله .
فقال اعطوني قدح زجاج فيه ماء فجاءوه به فعمد على القدح ومضى إلى الحجر
فشق الحجر بالقدح فتنقطع الحجر قطعة قطعة فغرقت الساحرة - فيصدقونه : ومن
صدق هذا فليس يعرف النبوة ولا يأمن أن تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام
من هذا النوع وأنهم كانوا سحرة . وقال الله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى)
وقد أجازوا من فعل الساحر ما هو أطم من هذا وأفظع ، وذلك أنهم زعموا
أن النبي ﷺ سحر ، وأن السحر عمل فيه حتى قال فيه « إنه يُنجّل إلى أنى
أقول الشيء وأفعله ، ولم أقله ولم أفعله » وإن امرأة يهودية سحرت في جف طلعة
ومشط ومشاقة ^(١) حتى أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أنها سحرت في جف طلعة
وهو تحت راعوفة البئر ^(٢) فاستخرج وزال عن النبي ﷺ ذلك العارض . وقد
قال الله تعالى مكذبا للكفار فيما ادعوه من ذلك للنبي ﷺ فقال جل من
قائل (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) ومثل هذه الأخياريات من
وضع الملحدين تلعبا بالحشو والطفام ، واستجرارا لهم إلى القول بابطال معجزات
الأنبياء عليهم السلام ، والقدح فيها ، وإنه لافرق بين معجزات الأنبياء وفعل
السحرة ؛ وإن جميعه من نوع واحد . والعجب ممن يجمع بين تصديق الأنبياء عليهم
السلام وإثبات معجزاتهم ، وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع
قوله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) فصدق هؤلاء من كذبه الله وأخبر
ببطلان دعواه وانتحاله . وجائز أن تكون المرأة اليهودية ببجلها فعلت ذلك ظنا

(١) جف الطالع بضم الجيم هو الوعاء الذي يخرج منه طلع النخل ، والمشاقة من السكتان
معروفة وفي أكثر الروايات مشاطة وهي بالضم الشعر الذي يستقط من الشعر عند تسريحه
بالمشط والمراد أن المشط والمشاطة وضعاف جف طلعة وصفت عند الشيخين بأنها طلعة
ذكر أي من النخل « ٢ » راعوفة البئر الحجر الثابت الذي يقف عليه المستقي من البئر

منها بأن ذلك يعمل في الأجساد وقصدت به النبي عليه السلام فأطلع الله نبيه على موضع سرها ، وأظهر جهلها فيما ارتكبت وظنت ليكون ذلك من دلائل نبوته ، لا أن ذلك ضره ، وخلط عليه أمره ، ولم يقل كل الرواة انه اختلط عليه أمره وإنما هذا اللفظ زيد في الحديث ولا أصل له ^(١)

« والفرق بين معجزات الأنبياء وبين ما ذكرنا من وجوه التخيلات ، أن معجزات الأنبياء عليهم السلام هي على حقائقها ، وبواطنها كظواهرها ، وكلما تأملتها ، ازدادت بصيرة في صحتها ، ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ظهر عجزهم . ومخاريق السحرة وتخيلاتهم إنما هي ضرب من الحيلة والتلطيف لاظهار أمور لاحقيقة لها ، وما يظهر منها على غير حقيقتها ، يعرف ذلك بالتأمل والبحث ، ومتى شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره ، ويأتي بمثل ما أظهره سواء » انه هذا جل ما قاله أبو بكر الجصاص في معنى السحر وحقيقته وعقد بعده بابا في ذكر قول الفقهاء فيه وما تضمنته الآية من حكمه وما يجري على مدعى ذلك من العقوبات . ومنها القتل كفراً في بعض أنواعه المتضمنة للشرك والمستزمنة للريب

« ١ » أنكر الجصاص الحديث لمروى في ذلك . وكذلك الأستاذ الامام لمعارضته للقرآن وما فيه من الشبهة على عصمة النبي ﷺ حتى في أمر التبليغ مع انه مروي في الصحيحين لأن من علامة الحديث الموضوع مخالفته للقطعي من القرآن وغيره ، ومثل هذا انكار النووي لما روى عن ابن مسعود (رض) من انكار كون المعوذتين من القرآن مع صحة سنديه . والجمهور يؤولون هذا وذلك ويغرم ان المقلدين يسلمون لهم كل تأويل ولو متكلفاً ، وينسون ان اعداء الاسلام ومستغلي الفكر من غيرهم لا يقبلون التأويل المتكلف الذي لا يطعن له انقلب ، والظاهر أن الجصاص لم يطلع على روايات الشيخين في مسألة كاطلاع النووي على جميع الروايات في مسأله وفيهما ان الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن الأعصم اليهودي لامرأة ، ومذهب الأشعرية أن للسحر تأثيراً حقيقياً ، وليس كله حيلة ومنه انه أثر في جسم النبي ﷺ وخياله دون عقله وروحه ، فكان يخيل اليه أنه أنثى نساءه ولم يكن اتاهن ولم يتجاوز هذا الحد ، وقال الأستاذ الامام إن هذا تأثير في النفس ومداركها ورسول الله أجل وأعظم من ذلك ، فنفسه أعلى الانفس وأزكاها وأقواها فلا يمكن أن تؤثر فيها نفس خبيثة فاسدة

في معجزات الرسل . وإن كثيراً من العلماء يثبتون ما أنكره من تأثير الجمن واستخدام بعض الناس لهم . ومن العجيب أنه لا يزال في هذا العصر من يتوسل إلى الاستعانة بالجمن على بعض الأعمال السحرية بما هو كفر قاعاً كإبط بعض القرآن على السوأتين كما علمت من بعض الخبيرين لهؤلاء الدجالين الذين يعيشون بكتابة العزائم والحجب للحب والبغض والحيل وغير ذلك والمفاسد في ذلك كبيرة جداً وقد ذكرنا بعضها في تفسير (٧ : ٢٦) إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون (فيراجهم) في ص ٣٦٧ --- ٣٧١ من المجلد الثامن تفسير)

✽ عود إلى تفسير الآيات ✽

لما ظهير موسى عليه السلام آية الله تعالى في مجلس فرعون ✽ قال الملاء من قوم فرعون ✽ أى أشراف قومه وأركان الدولة منهم : ✽ إن هذا لساحر عليه ✽ أى راسخ في العلم - كما تدل عليه صيغة عليه ✽ يريد أن يخرجكم من أرضكم ✽ أى قد وجه إرادته لسلب ملككم منكم وإخراجكم من أرضكم بسحره بأن يستميل به الشعب المصرى فيقتبعه فينتزع منكم الملك ويستبد به دونكم ، وبلى ذلك إخراج الملك وعظماء رجاله من البلاد لئلا يناووه لاستعادة الملك منه ، كما فعل متغلبه الترك في هذه الأيام بعد إسقاط الدولة العثمانية ، فانهم أخرجوا جميع أفراد الاسرة السلطانية من البلاد التركية التى بقيت لهم . وفي معنى هذا القول من فرعون ورجال دولته ما حكى الله تعالى عنهم من مراجعتهم لموسى وأخيه في سورة يونس (٩٠ : ٧٨) قالوا أجبنا لنافثنا عمسا وجدنا عليه آباءنا وتكون لنا الكبرياء في الأرض ؟ وما نحن لسكاة مؤمنين)

وما قال الملاء من قوم فرعون هذا القول إلا تبعاً لقوله هو ، الذى حكاه تعالى عنه في سورة الشعراء (قال الملاء حوله إن هذا لساحر عليه ✽ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فإذا نامرون ؟) أى ردّدوا قوله وصار يلقيه بعضهم إلى بعض ، كدأب الناس في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده إظهاراً للموافقة عليه ، وتغنياً لتبليغه . وإنما لم يصرحوا بكلمة « بسحره » كما صرح هو لأنهم كانوا دونه خوفاً وزعاجاً ، وأقل منه حرصاً على الطعن في دعوة موسى ،

ولكن ذكرها السحرة في تناجيهم مع فرعون وهو أجدر بذكرها فحكاه الله تعالى عنهم بقوله من سورة طه (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرروا النجوى * قالوا إن هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويدعيا بطريقتكم المثلثي * فأجمعوا كيدكم ثم اتفوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى)

والأمر في قول فرعون لهم وقول بعضهم لبعض (فماذا تأمرون) ليس هو المقابل للنهي ، بل هو بمعنى الادلاء بالرأى في الشورى ، قال الزخشرى في الأساس : وتأمروا القوم واتمروا ، مثل تشاوروا واشتوروا . ومرني بمعنى أشر على . قال بعض فتنائهم :

ألم ترأني لا أقول لصاحب إذا قال مرني - أنت ماشئت فافعل
واسكنني أفرى له فأريجه بيزلاء تنجيهم من الشك فيصل
وقال في مادة (ب ز ل) ومن المجاز : بزل الأمر والرأى : استحكم ، وأمر
بازل . وتقول خطب بازل ، لا يكفيه إلا رأى قارح ، وإنه لذو بزلء ، أى ذو
صريحة محكمة ، وهو نهاض بيزلاء أى بخطة عظيمة . قال :

بني إذا شعلت قوما فررجهم رجب المسالك نهاض بيزلاء
(أقول) ومعنى يبقى الفالك أن صاحبه إذا استشاره فقال له : امرني - أى
أشر على - لا يقول له افعل ماشاء إعراضاً عن نصيحه أو عجزاً منه ، بل يفرى
أى يقطع له الرأى المحكم بخطة بزلء أى قويمة محكمة تخرجه من الشك والتردد
وتكون فيصلا أى فاصلة بين الخطأ والصواب . واليزلاء وبزول الأمر والرأى مأخوذ
من بزل نائب البعير وهو أن ينشق ويخرج عند دخوله في السنة التاسعة فهو بازل
ولذلك أطلقوا لقب البازل على الرجل القوي المحكم النجربة

﴿ قالوا أرجه ^(١) وأخاء وأرسل في المدائن حاشرين ﴾ أى قال الملا لفرعون

(١) في هذه الكلمة عدة قراءات لفظية محضة ، سببها اختلاف لهجات العرب في إثبات الهمزة وحذفها تخفيفاً وقد بينها السيد الأوسى في روح البیان مع تعليلاتها فقال وأصل أرجه أرجئه بهمزة ساكنة وهاء مضمومة دون واوهم حذف الهمزة وسكنت الهاء لتشبيه المنفصل بالمنص وجعل أرجه كابل (كذا) في إسكان وسطه وبذلك قرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب على أنه من أرجأت . وكذلك قراءة ابن كثير وهشام وابن عاصم « ارجئوه » بهمزة ساكنة وهاء متصلة بواو الاشباع وقرأ نافع في رواية ورس واسماعيل والكسائي « ارجئى » بهاء مكسورة بعدها ياء من ارجئت =

حين استشارهم بقوله « فماذا تأمرون ؟ » أرجه أى أرجى وأخر أمره وأمر أخيه ولا تفصل فيه بادية الرأى وأرسل فى مدائن ملكك رجلا أو جماعات من الشرطة والجند حاشرين أى جامعين سائقين للسحرة منها - فالخشر الجمع والسوق - وإتما يوجد السحرة فى المدائن الجامعة الآلهة بدور العلم والصناعة ، فان ترسلهم **﴿** يأتوك بكل ساحر عليم **﴾** بفنون السحر ماهر فيها وهم يكشفون لك كنه ما جاء به موسى فلا يفتن به أحد .

قرأ الجمهور (ساحر) بصيغة اسم الفاعل ، وحزمة والكسافى هنا وفى يونس (سحار) بصيغة المبالغة ، له وجاء ذلك بالإمالة وعدمها وبها قرأ الجميع فى الشعراء ورسهمما فى المصحف الامام واحد هكذا (سحر) ليحتمل القراءتين ووجههما أن فرعون لما طلب كل ساحر عليم فى مدائن البلاد خص بالذكر المرة الثمانيين فى السحر المكثرين منه - أو أن بعض ملوك طلب هؤلاء فقط لأنهم أجدر بإتيان موسى بمثل ما جاء به من الأمر العظيم ، كما حكى الله تعالى عن فرعون فى سورة ظه (قال أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله) وطلب آخرون حشر جميع السحرة الراسخين فى العلم لعله يوجد عند بعض المقتصدين أو المقلين من السحر ما لا يوجد عند المكثرين منه - فبينت القراءتان كل ما قيل مع الإيجاز البليغ

== وفى رواية قالون إن أرجه بخذف الياء للاكتفاء عنها بالكسرة وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان أرجه بالهمزة وكسر الهاء وقبذ كبر بعضهم إن ضم الهاء وكبرها والهمز وعدمه لغتان مشهورتان ، وهل هما مدتان ، أو الياء بدل من الهمزة كتوضأت وتوضيت ؟ قولان . وطعن فى القراءة على رواية ابن ذكوان فقال الخوفاي أنها ليست بحيدة وقال الفاروسى إن ضم الهاء مع الهمزة لا يجوز غير . وكسرها غلط لأن الهاء لا تكسر إلا بعد ياء ساكنة أو كسرة . وأجيب كما قال الشهاب عنه بوجهين أحدهما : أن الهمزة ساكنة والحرف الساكن حاجز غير حصين فساكن الهاء وليت الهمز المكسورة فلذا كسرت وانثانى أن الهمزة عرضة للتغيير كثيرا بالحذف وإبدالها ياء إذا سكنت بعد كسرة فكأنها وليت ياء ساكنة فلذا كسرت ، وأورد على ذلك أبو شامة أن الهمزة تعد حاجزا وأن الهمزة لو كانت ياء كان المختار الضم نظرا لأصلها ، وليس بشئ ، بعد أن قالوا إن القراءة متواترة وما ذكر لغته ثابتة عن العرب اه

(١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ
 الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا
 يُمُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ تُتْلِقُ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَنَّ نَحْنُ الْمُتْلَقِينَ (١١٥) قَالَ
 أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا
 بِسِحْرِ عَظِيمٍ

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ أى وجاء
 فرعون السحرة الذين حشرهم له أعوانه وشرطته ولم يذكر الكتاب الحكيم ولا
 الرسول المعصوم عددهم إذ لا فائدة منه وكل ما روى فيهم من أنهم عشرات الألوف
 فهو من الإسرائيليات التى لا أصل لها عندنا ولا فى التوراة التى بين أيديهم . فلما جاءوا
 قالوا لفرعون إن لنا لأجرا وجزاء عظيم . يكافئ ما يطلب منا من العمل العظيم إن
 كنا نحن الغالبين لموسى . ذكر قولهم هنا بأسلوب الاستئناف البياني كأنه جواب سائل
 ماذا قالوا ؟ وجاء فى سورة الشعراء بصيغة الشرط والجزاء (فلما جاء السحرة فرعون
 قالوا) وهو تفنن فى العبارة قرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم (إن لنا لأجرا)
 بهزة واحدة ، قيل إنه على الاخبار الدال على إيجاب الأجر وكونه لا بد منه . وقيل
 إنه على حذف همزة الاستفهام الذى يكثر فى كلام العرب ، وهو المتبادر والمختار
 ليوافق قراءة ابن عامر بإثباتها هنا وهو ما اتفقوا عليه فى سورة الشعراء

﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ أى قال فرعون مجيباً لهم إلى ما طلبوا
 نعم إن لكم لأجراً عظيماً وإنكم مع ذلك الأجر المالى والمادى لمن المقربين من جنابنا
 السامى ، فيجتمع لكم المال والجاه وذلك منتهى نعيم الدنيا ومجدها ، أكد لهم نيل
 ما طلبوه منه وما زادهم عليه تأكيذاً بعد تأكيـد لاهتمامه بهذا الأمر وخوفه من
 عقوبته ، فانه لو قال لهم نعم ولم يزد عليها لأفاد إجابة طلبهم ، ولو قال فى منحة
 القربنى : وتكونون من المقربين ، لكفى ولكنه عبر عنها بالجملة الاسمية المؤكدة
 بأن وتتحلية الخبر باللام وبعطف التلقين أى عطف « وإنكم لمن المقربين » على

الجملة المقدرة التي دل عليها حرف الإيجاب « نعم » وهي « إن لكم لأجراً » فما عطف عليها إلا وقد قدر إعادتها . وفي سورة الشعراء زيادة « إذن » أي وإنكم في هذه الحالة وهي كونكم أنتم الغالبيين دون موسى لمن المقر بين وحذفها من هذه السورة دليل على أنه فالطامة دون أخرى فأفاد أنه كرر لهم الإجابة والوعد وذلك تأكيد آخر

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ امتتناف بياني كنظاره أي قال السحرة لموسى عليه السلام بعد أن وعدهم فرعون ما وعدهم : إما أن تلقى ما عندك أولاً ، وإما أن نكون نحن الملقين الماعدتنا من دونك . أما تخييرهم إياه فلتقتهم بأ أنفسهم ، واعتدادهم بسحرم ، وإرهاؤه ، وإظهاراً لعدم المبالاة به ، مع العلم بأن المتأخر يكون أبصر بما يقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى شوط خصمه ، وما قيل من إن علة التخيير مراعاة الأدب لارحمة الله البتة ، بل مقامهم بحضرة ملكهم الذي يدعى الألوهية والربوبية فيهم وما طلبوه منه وما وعدهم إياه . كما يقتضي أن يحتقروا خصمه لأن يتأدبوا معه كما يتأدب أهل الصناعة الواحدة بعضهم مع بعض إذا تلاقوا للمباراة وهو ما وجه الزخشرى به التعليل ، وما قاله البيضاوي وغيره من أن علته إظهار التجلد فضعيف إذ لم يروا من موسى شيئاً بأ عينتهم يقتضيه وإنما سمعوا أنه أتى عصاه بحضرة فرعون فصارت ثعباناً فاستعبدوا لمقابلته بعضى وجبال كثيرة يخيل إليه وإلى كل ناظر أنها تمايين تسمى فيبطلون سحره بسحر مثله كما قال ملكهم ﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾

وذهب الزخشرى ومن تبعه إلى أن هذا التعبير عن إلقائهم يدل على رغبتهم في البدء بما ينبغي . عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل « نحن » وتوكيد الضمير المستتر به . وفي سورة طه (إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) وفيه من التوكيد ما يدل على الرغبة في الأولوية التي صرحوا بذكرها هنا . فلا فرق بين التعبيرين في المعنى فلا بأس حينئذ بجعل الاختلاف اللفظي في الحكاية عنهم لمراعاة الفواصل ، وقد اختلف فيه على أقوال ، ثالثها وهو الصحيح المعتمد أنه جائز واقع فيما لا يخل بأداء المعنى ، ولا ينافي البلاغة العليا ، فكيف إذا كان مزيد تفنن قد يصل إلى حد الإعجاز فيها ، وذلك أن تأدية دقائق المعنى مكررة بألفاظ مختلفة في منتهى العمى وكثيراً

ما يكون منعدراً ، فلم يؤكد الضمير المتصل ههنا بالضمير المنفصل «نحن» لما أفاد معنى الرغبة في أولية الالقاء المصرح به في سورة طه ، وبذلك علم ان مراعاة الفاصلتين في الموضعين هو الذي وحد بينهما بجعل كل منهما دالاً على رغبة السحرة في التقدم والأولية ، فأى خطيب أو كاتب يقدر على إفادة هذا المعنى بأسلوبين مختلفين في اللفظ من غير تصريح به ، وأى مترجم تركى أو أفريقى يفقه هذا ويؤديه في ترجمته للقرآن ؟

﴿قال ألقوا﴾ وفي سورة طه (قال بل ألقوا) وهو أدل على رغبته عليه السلام في سبقهم للالقاء . ولعله نطق أولاً بما فيه الاضراب فقال بل ألقوا أنتم من دونى ثم أعاد كلمة ألقوا وحدها للتأكيد رغبته والايذان بعدم مبالاته . وفي سورتي يونس والشعراء (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم متقنون) فأظهر اسم موسى الذي أضمره هنا وفي سورة طه لأنه جواب لخطابهم إياه باسمه بالتخيير ، فالقيام بهما مقام الاضرار حتماً . وأما إظهاره في سورتي يونس والشعراء فسببه أنه ليس فيها ذكر لبدء السحرة إياه وتخييرهم له فأول آية يونس (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا) وقبلها ضابط فرعون للسحرة فلم يصرح باسم موسى لكان المتبادر ان الذى أمرهم بالالقاء هو فرعون حسب قاعدة عود الضمير إلى أقرب مذكور ، وكذلك آية الشعراء جاءت بعد ذكر طليب فرعون للسحرة . فحينئذ وسؤالهم إياه الأجدر ان كانوا هم المتألمين وإيجابته إياهم ، فهي أولى من آية يونس بما ذكر . وأما زيادة (ما أنتم متقنون) فانها فائدة نافلة ذات شأن تدل على عدم مبالاته بما يلقون مضاعف أسره وكان مجرولاً عنده ، وهي لا تنافي عدم ذكرها في آية الاعراف فيجيب بينهما

وقد قبل كيف أمرهم موسى عليه السلام بالالقاء ما عندهم وهو من السحر المشد ؟ وأجيب بأنه لم يأمر بفعل السحر ابتداء وإنما أمر بأن يتقدموا فيما جاءوا لأجله ولا يبدؤا لهم منه ، وأراد التوسل به إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته ، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه ، ولم يكن تم وسيلة لإبطاله إلا ذلك ، وقد صرح به فيما حثته تعالى عنه في سورة يونس (قال موسى ما جئتكم به السحر ان الله سيضلنكم ان الله لا يصلح عمل المفسدين) ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وهذا توسل إبراهيم صلى الله عليه وآله وعلى نبيينا وآله إلى إظهار حقيقة التوحيد لعبادة الكواكب من قومه لما رأى كلام الكواكب والقمر والشمس بأزوا فقال « هذا ربي » ثم تعقبه بإيدل

على كونه لا يصح أن يكون رباً واسماعه إياهم بعد إبطال ربوبيتها كلها حقيقة التوحيد بقوله (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) .

﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ أي فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصيمهم كما في سورتي الشعراء وطه سحروا أعين الناس الحاضرين ومنهم موسى عليه السلام ففي سورة طه (فإذا حبالهم وعصيمهم يحيل إليه من سحرهم أنها تسعى) واسترهبوهم أي أوقعوا في قلوبهم الرهب والخوف كما قال تعالى (فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ وأصل الإسترهاب محاولة الإرهاب وطلب وقوعه بأسبابه ، وقد قصدوا ذلك فحصل . وجاءوا بسحر عظيم أي مظهره كبير ، وتأثيره في أعين الناس عظيم ، قال الحافظ ابن كثير : أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال . ثم ذكر عن ابن عباس «رض» أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً » قال « فأقيمت بخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . ثم ذكر عن ابن إسحق أن السحرة كانوا خمسة عشر ألف ساحر وأن الحيات التي أظهروها بخيال سحرهم كانت كأمثال الجبال قد ملأت الوادي — وعن السدي أن السحرة كانوا بضعاً وثلاثين ألفاً ، وعن القاسم بن أبي بزة ٧٠ ألفاً . وذكر غيره ما هو أعظم من ذلك من المباغة والتهويل ولا يصح شيء من ذلك في خبر مرفوع وإنما هي من الإسرائيليات الباطلة المروية عن نبيهم كاتقدم على أنه ليس في توراتهم منها شيء وإنما جاء في الفصل السابع من سفر الخروج منها أن فرعون دعا الحكماء والسحرة « ففعل عرافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك : طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين ولكن عصاهارون ابتاعت عصيمهم » وقد ذكر بعض المفسرين سر صناعتهم في ذلك بما أراه استنباطاً علمياً لا نقلاً تاريخياً . قال الإمام الجصاص في أحكام القرآن : قال الله تعالى (سحروا أعين الناس) يعني موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيمهم تسعى ، وقال (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) فأخبر أن ما ظنوه سمياً منها لم يكن سمياً وإنما كان تخيلاً . وقد قيل إنها كانت عصياً مجوفة قد ملئت زئبقاً ، وكذلك الجبال كانت معمولة من آدم (أي جلد) محشوة زئبقاً ، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسراباً وجعلوا أزواجا ملؤها نارا فلما طرحت عليه وحى الزئبق حركها

لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير ، فأخبر الله أن ذلك كان مموها على غير حقيقته ، والعرب تقول لضرب من الحلى مسحور أى مموه على من رآه مسحور به اه فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية إذا صح خبرها ، ويحتمل أن يكون بحيلة أخرى كاطلاق أبخرة أثرت في الأعين فجعلتها تبصر ذلك أو يجعل المعنى والخيال على صورة الحيات وتحريكها بحركات خفية سرية لا تدرى أبصار الناظرين ، وكانت هذه الأعمال من الصناعات وتسمى السيمياء .

(١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَلَبُوا هَٰؤُلَاءِ فَأَقْبَلُوكَ صَٰغِرِينَ (١١٩) وَالَّتِي السَّحَرَةُ سَجَدْنَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أى أوحينا إليه بأن ألق عصاك فهدجاء وقتها فالقها كما أمر فإذا هي تلتف ما يأتون به من الإفك ذكر هنا وفي سورة طه أمره تعالى موسى باللقاء . وفي سورة الشعراء أنه فعل اللقاء الذى أمر به ولم يذكر الأمر حذف من كل سورة ما أثبت مقابله في الأخرى وهو من قبيل الاحتباك في السور والإيجاز المؤدى للعاني المتعددة بأخضر عبارة . قرأ حفص تلتف بالتخفيف من الثلاثي والباقيون بالتشديد وأصله تلتقف وهو يدل على لقف شيء بعد شيء .
 ما معنى لقف العصا للإفك ؟ الإفك بالكسر اسم لما يؤفك أى يصرف ويحول عن شيء إلى غيره ويستعمل في التلبيس والشر وقلب الحقائق ، وبالفتح مصدر أفك «بالفتح كجلس وضرب» ويقال أفك بالكسر «كتعب» قال في الأساس : أفك عن رأيه صرفه ، وفلان مأفوك عن الخير . وقال الراغب الإفك كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب مؤتمكة قال تعالى (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكت بالظلمة) وقال تعالى (والمؤتمكة أهوى) وقوله تعالى (قاتلهم الله أنى يؤفكون) أى يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل ، وعن الصدق في

المقل إلى الكذب ، وعن الجليل في الفعل إلى التبيح . ومنه قوله تعالى (يؤفك عنه من افك * أني يؤفكون) وقوله (أجبثنا لتأفكننا عن آلهتنا) فاستعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف عن الحق إلى الباطل - فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا أنه يؤفك منه ومن سائر استعمال المادة في القرآن وغيره أن الإفك يكون بالقول ومنه الكذب وما يؤدي المراد من الكذب كالا بهام والتدليس والتحيزات والكتابات والمعاريض التي تقوم السامع أو القارئ لها ما يخالف الحق وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون .

وأما لفظ الشيء وتلقفه بالشديد فهو تناوله بحذق وسرعة ، كما قال الشاعر :

كرة جذفت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

قال الزاغب لففت الشيء ألقفه « أي من باب علم » وتلقفته تناولته بالحذق سواء في ذلك تناوله بالفم أو اليد قال (فاذا هي تلقف ما أفكين) أي من مجازة تلقف العلم أي تلقفه بسرعة وحذق . « ما » في قوله تعالى « ما يؤفكون » إما موصولة وإما مصدرية وعلى الأول يتخرج ما نقل عن ابن عباس وقفاة والحسن والسدي من كون عصا موسى عليه السلام التقت حبال السحرة وعصيمهم واستقرطها أي ابتلعها فهو مما يحتمله اللفظ ، والراجح أنه مأخوذ عن اليهود لما علمت آتفا من نص سفر الخروج فيه ، وينافيه كونها مصدرية إذ المعنى عليه أنها تناولت عملهم هنا فانت عليه ، أظهرت من بطلانه وحقياته الأمر في نفسه بسرعة ، فإن كان إفكهم عسارة عن تأخير أحدثوه في الأسير فلتلقف إياه هبارة عن إزالته وإبطاله ورؤية الحبال والعصى على حقيقتها - وإن كان تحريكها لها بمحركات خفية سريعة فكذلك - وإن كان قد حصل بجعلها بحوفة محشوة بالزئبق وتحريكها إياها بفعل الحرارة سواء كانت ناراً أعدت لها أو الشمس حين أصابتها فلتلقفها لذلك يجوز أن يكون بعمل من الحيلة أخرجت به الزئبق من الحبال والعصى فانكشف به الحيلة . قال الشيخ محي الدين بن عربي ما معناه أو محصله على ما تذكر إن إبطالها لسحر السحرة أنه ترتب على إقامتها أن رأى الناس تلك الحبال والعصى على أصلها ولو ابتلعها لبقى الأمر ملتبسا على الناس إذ قصاره أن كلا من السحرة وموسى قد أظهر أمراً غريباً ولكن أحد الغريبين كان أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم ولا مفهوم ، وهذا لا يتأني كونهما من جنس واحد ، ولكن زوال غشاوة السحر وتخجيله حتى رأى الناس أن الحبال والعصى التي ألقاها

السحرة ليست إلا حيالا بعصيا لا تسعى ولا تتحرك ، وإن عصا موسى لم تنزل حية تسعى - هو الذى مازال الحق من الباطل ، وعرفت به الآية الإلهية ، والحيلة الصناعية . وكل ما فى الأمر أن عصا موسى أزال هذا التخيل بسرعة وهو معنى الالتف ولكن لا نعلم بماذا كان لها هذا التأثير لأنها آية إلهية حقيقة لا أمر صناعي حتى نعرف صفته وحقيقته .

وقوله تعالى ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ اظهر فى هذا المعنى منه فى ابتلاع العصا للحيال والعصى إذا فسرت ألفاظها بمعانيها الحقيقية فالذى بطل كان عملا عملوه ، وكيدا كادوه ، وليس شيئا ماديا أو جذوه ، كما علم من سورة طه وسورة يونس ، أى ثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخيل وذهب تأثيره ﴿ فقلوبوا هنالك واقبلوا صاغرين ﴾ أى فقلب فرعون وملوه فى ذلك الجمع العظيم الذى كان فى عيد لهم ويوم زينة من مواعيدهم ضربه موسى موعدا لهم بسؤالهم كما بين فى سورة طه (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشش الناس ضحى) لتكون الفضيحة ظاهرة مبينة لجهاير الناس ، ولم يقل فقلبهم موسى لأن ذلك لم يكن يكسبه وضده - واقبلوا أى عادوا من ذلك الجمع صاغرين أذلة . بما رزقوا به من الخلالات والخبية ، أو صاروا صاغرين . وإنما خص هذا بفرعون وملكه وكان المتبادر أن يكون للسحرة أولا وبالذات وفرعون بالتبع أو للجميع على سواء . لأنه تعالى بين ما كان من عاقبة السحرة بقوله

﴿ وألقى السحرة ساجدين ﴾ فسرهم فى الكشف بقوله : وخروا سجدا كأما ألقاهم ماق لشدة خروجه ، وقيل لم يتمسكوا بما رأوا فكأنهم ألقوا به والمواد أن ظهور بطلان سحرتهم وإدراكهم بخاتمة حقيقة آية موسى « ع . م » عليهم بأنهم من عند الله تعالى لا صنع فيها لخلق قد ملأت عقولهم يقينا وقلوبهم إيمانا فكان هذا اليقين فى الإيمان البرهاني السكامل . والوجداني الحاكم على الأعضاء والجوارح ، هو الذى ألقاهم على وجوههم سجدا لله رب العالمين الذى بينه ملكوت الخلق أجمعين ، ولم يبق فى أنفسهم أدنى مكان لفرعون وعظمته الدنيوية الزائلة ، ولا سيما وقد ظهر لهم صفاته أمام هذه الآية ، وفى آية سنورة طه ﴿ ألقى السحرة ساجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى ﴾ قاله

تدل على التعقيب ومثلها في سورة الشعراء .

(فان قيل) ولم قال هنا « وألقى » ولم يقل « فألقى » ليدل على التعقيب أيضاً (فالجواب) ان ألقى هنا عطف على قوله تعالى (فقلبوا) فهو يشاركه بما تفيد فاعده من معنى التعقيب وكونه مثله أثراً بإطلاق سحر السحرة ووقوع الحق بثبوت آية موسى (ع . م) ولو عطف عليه بالفاء لدل على كون السجود أثراً للقلب والصغار لا لظهور الحق وبطلان كيد السحر ، وحيث لا يكون منافياً لما في سورتي طه والشعراء

﴿ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ رب موسى وهارون ﴿ الجملة إما بيان مستأنف وإما حال من السحرة أى حال كونهم قائلين في سجودهم آمنا . . . ومثله في سورة الشعراء

(فان قيل) ولم لم يذكر في سورة طه إيمانهم برب العالمين ؟ ولم آخر فيها اسم موسى وقدم اسم هارون (فالجواب) عنهما أن سبب ذلك مراعاة فواصل السور بما لا يعارض غيره مما ورد في غيرها ، ولا سيما وقد نزل قبلها ، فالإيمان برب هارون وموسى هو الإيمان برب العالمين لأنهما قالا لفرعون (إنا رسول رب العالمين) وقد بينا مراراً أن القرآن ليس كتاب تاريخ تدون فيه القصص بحكايتها كلها كما وقعت ويدكر كل ما قيل فيها بنصه أو بترجمته الحرفية — وإنما هو كتاب هداية وموعظة ، فهو يذكر من القصص ما يثبت به الإيمان ، ويتركى الوجعادات ، وتحصل العبرة ، وتؤثر الموعظة ، ولا بد في ذلك من تكرار المعاني مع التفتن في الأسلوب والتنويع في نظم الكلام وفواصل الآي ، وتوزيع الفوائد وتفريقها ، بحيث يوجد في كل قصة مالا يوجد في غيرها

(١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إِنَّ هَذَا

لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافِ مُمَّ

لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُتَقَلِّبُونَ (١٢٥)

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ .

بعد ما كان من إيمان السحرة كان أول ما يحطار في البال ، ويتوجه اليه السؤال ، ما فعل فرعون وما قال ؟ وهاك البيان ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟ ﴾ قرأ حفص آمنتم بصيغة الخبر ويحتمل فيه تقدير همزة الاستفهام فهو قياسى يعتمد في فهمه على صفة الأداء وجرس الصوت فيه . وبذلك يوافق سائر القراء في المعنى فهو عندهم استفهام إنكارى تو يبخى أثبت همزته حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم . وروح عن يعقوب ، وروى في اثباتها تحقيق الحمزتين بالنطاق بهما وتحقيق الأولى . وتسهيل الثانية بين بين ، وقرئ بذلك في أمثالها . والمعنى أآمنتم بموسى أو يرب موسى وهارون قبل أن آذن لكم وأمركم بذلك ؟ وفى سورة طه (قال آمنتم له) والضمير فيه لموسى قطعاً لأن تعدية الإيمان باللام تضمنين يفيد معنى الاتباع والخضوع المعنى ، وأآمنتم به متبعين له إذعانا لرسالته قبل أن آذن لكم ؟ ولذلك يتعين استعمال هذا التضمنين فى الإيعان بالرسول والاتباع لهم كقوله تعالى حكاية عن فرعون (أتؤمن بالبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟) وقد اقتبس المعرى هذا الاستدلال فى قوله أعباد المسيح يخاف محبى ونحن عبيد من خلق المسيح

ومثله قوله تعالى فى سورة الشعراء حكاية عن قوم نوح عليه السلام (أتؤمن لك واتبك الازدولون ؟) وقوله حكاية عن كفار قريش (وقالوا ان تؤمن لك حق تفجر لنا من الأرض ينبوع) وليس منه قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف (وما أنت بمؤمن لنا) بل هذه لام التقوية أى وما أنت بمصدق لنا . وقد بين فرعون علة إيمانهم بما ظنه أو أراد أن يعتقده قومه فيهم فقال مواصلاً تهديده

﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ أى ان هذا الصنيع الذى صنعتوه انتم وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس إلا مكر مكرتموه فى المدينة بما أظهرتم من المعارضة والرغبة فى الغلب عليه مع إصرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته ، زاد فى سورة طه (إنه لكبيركم الذى

عليكم السحر) فاجتمع كيدكم لنا في هذه المدينة لأجل أن تخرجوا منها أهل مصر بين
 بسحركم - وهو ما كان اتهم به موسى وحده - ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل
 ما هو لنا الآن من الملك والكبرياء كما حكاه تعالى عن فرعون وملئه في سورة يونس -
 ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ما يحل بكم من العذاب جزاء على هذا المكر والخداع، وبين ذلك
 بقوله: ﴿ لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ أي أقسم
 لأؤملن كذا وكذا في عقابكم والتنكيل بكم وهو قطع الأيدي والأرجل من خلاف
 كأن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس، ثم لأصلبن كل واحد منكم وهو
 على هذه الحالة المشوهة لتكونوا عبرة لمن يحدثه نفسه بالكيد لنا، أو بالخروج عن
 سلطاننا، والترفيع عن الخضوع لعظمتنا. وقد تقدم الكلام على هذه الألفاظ في
 العقاب الذي حدد به البقرة من سورة المائدة. ومن المعقول ما قاله بعض المفسرين
 من كون اتهم فرعون للسحرة بالمكر والكيد له والمصريين، وببواطئهم مع موسى
 للدلالة منهم لبني إسرائيل - إنما كان تمويهها على قومه المصريين لئلا يقيموا السحرة
 في الإيمان، ويقع ما خافه وقدره واتهم به موسى عليه السلام، فهو على عتوه على
 الخلق، وعلوه في الأرض، قد خاف عاقبة إيمان الشعب، وافتقر على ادعائه الربوبية
 إلى إيمانهم بأنه لا ينقم من السحرة إلا حبا فيهم، ودفاعا عنهم، واستبقاء لاستقلالهم
 في وطنهم، وبمحافظةهم على دينهم، وكذلك يفعل كل ملك وكل رئيس مستبد في شعب
 يخاف أن ينتقص عليه باجتماع كلمته على زعيم آخر بدعوة دينية أو سياسية،
 وما من شعب عرف نفسه وحقوقه وتعارف بعض أفرادهم وتعاونوا على صون هذه
 الحقوق، إلا وتعذر استبداد الأفراد فيهم وإن كانوا ملوكا جبارين
 ﴿ مباحث لغوية بيانية فيما اختلف فيه التعبير من قصة موسى في السور المتعددة ﴾
 ومن مباحث المقابلة والتنظير بين سياق هذه السورة في القصة وسياق
 غيرها أنه زاد في سورة الشعراء اللام في حرف التسويف فقال: (فلسوف
 تعلمون) ولم يذكر هذا التسويف في سورة طه. قال الاسكافي في هذه اللام
 إنها تبدل على تقريب ما خوفهم به حتى كأنه حاضر موجود قال: « واللام
 للحال والجمع بينها وبين سوف التي للاستقبال إنما هو تحقيق العمل وإدناؤه

من الوقوع كما قال تعالى (وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة) فجمع بين اللام وبين يوم القيامة على ما قاله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وقد بينا أن سورة الشعراء أكثر اقتصاصاً لأحوال موسى عليه السلام في بعثه وابتدائه أمره وانتهاء حاله مع عدوه فجمعت لفظ الوعيد المبهم مع اللفظ المقرب له الحق وقوعه -- إلى اللفظ المنفصح بمعناه ، ثم وقع الاقتصار في السورة التي لم يفصلها من اقتصاص الحال ما ذكر في سورة الشعراء على نقص ما في موضع النسخة والشريح وهو التعريض بالوعيد مع الإفصاح به

(قال) « فأما في سورة طه فانه اقتصر فيها على التصريح بما أوعدهم به وترك « فسوف تعلمون » وقال (فلا قطعن أيديكم ...) إلا أنه جاء بدل هذه الكلمة ما يعادلها ، ويقارب ما جاء في سورة الشعراء التي هي مثلها في اقتصاص أحواله من ابتدائها إلى حين انتهائها ، وهو قوله بعده (ولتعلمن أينما أشد عذابا وأبقى) فاللام والنون في « لتعلمن » لإدناء الفعل وتوكيده كما أتى باللام في طه (فسوف تعلمون) لإدناء الفعل وتقريبه ، فقد تجاوز ما في السورتين المقصود فيهما إلى اقتصاص الحالين من إعلاء الحق وإزهاق الباطل » اهـ

أقول: من المعلوم أن هذه اللام لام الابتداء وأن فائدتها الأولى المنفق عليها توكيد مضمون الجملة وقد سكت الاسكافي عن التعليل بها على ظهورها وعدم خفاء شيء من شواهداها واقتصر على توجيه ما ذكروا لهذه اللام من معنى الحال إذ قالوا ان الفائدة الثانية لها تخلص معنى المضارع للحال : نقله ابن هشام في المنفى وقال إن ابن مالك اعترضه بقوله تعالى (وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة) ويقول يعقوب عليه السلام في حكاية الله عنه (إني ليحزنني أن تذهبوا به) فان الذهاب كان مستقبلا فلو كان الحزن حالا لزم تقدم الفعل في الوجود على فاعله مع أنه أثره (قال) والجواب عن الأول أن الحكم في ذلك اليوم واقع لاحتمال فنزل منزلة الحاضر المشاهد -- وأن التقدير في الثاني قصد أن تذهبوا به والقصد حال اهـ

وأنت ترى أن تعبير الاسكافي في هذه الفائدة أوسع من التعبير الذي ذكره ابن هشام وغيره وأبعد عن الاشكال فقد قال هو : إن معنى الحال فيها عبارة عن تحقيق الفعل وإدناؤه من الوقوع ، وهو يصدق بجمل المضارع للحال حقيقة أو بجمل معنى الاستقبال فيه قريبا جدا حتى كأنه حال ، ولا يرد على هذا ما

يرد على قولهم : تخليص معنى المضارع للحال . وجوابهم عن الآيتين لا يظهر في تعبيرهم كما يظهر في تعبيره هو بغير تكلف ما .

ثم إنه لا بد في صدق التعبير بقوله (فلسوف) من كون فرعون ذكر في وعيدهم المستقبل أنه قريب وأنه قطعي لا مرد له ، سواء قاله على سبيل الإيضاح أو على سبيل الاستدراك . ورب جملة أو جمل طويلة تؤدي في القرآن بجملة قصيرة أو كلمة أو حرف في كلمة كاللام هنا ، وهذا من دقائق إيجاز القرآن وهو ضرب من ضروب إيجازه اللفظية في غير الأسلوب والنظم ، وكلها دون إعجازه في بيان حقائق الشرع والعلم ، فكيف يمكن لبشر أن يؤدي هذه الدقائق بالترجمة ؟ ومثله في هذا ما سبق وما يأتي من تنمة هذه المباحث

(ومنها) - أي مباحث المقابلة والتنظير بين السور - أنه قال هنا (ثم لأصلبكم) وقال في طه والشعراء (ولأصلبنكم) ولا تعارض بين العاطفين فان العطف بالواو مطلق يصدق بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء بالتراخي الذي تدل عليه ثم وليس مقيدا بأحدهما ، وغايته أنه أفاد بتم معنى خاصا وهو ما تدل عليه من التراخي في الزمن أو الرتبة وكلاهما جائز هنا فانه بعد أن أفاد بقوله (فلسوف) وقوله (فلا قطعن) إن الوعيد سينفذ حالا في المجلس بقطع الأيدي والأرجل من خلاف - أفاد بقوله (ثم لأصلبنكم) أن التصليب نوع آخر ومرتبة ثانية من التنكيل بهم ، وأوسنا آخر عن التقطيع في الزمن بأن يظالوا بعده مطروحين على الأرض إهانة لهم ثم يملقون على جذوع النخل ويجوز الجمع بينهما . وكون التصليب في جذوع النخل فائدة أخرى زادها في سورة طه وتخصيصها بهم مناسب لنظمها ولعلك تدرك ذلك بالذوق كما تدرك به التفرقة بين محور الشعير أوردنا هذا البحث الفني وأمثاله من هذه القصة على اجتنابنا للاسقاطات الفنية والعلمية في الغالب لثلاثة أسباب

(١) أن هذه المسائل مما يقع فيه الاشتباه ولم نر لها بيانا في التفسير المتداول

حتى التي تتنازع بالناية بعثها

(٢) بيان ما فيها من الدقة في تحديد المعاني ، وغرائب الإيجاز ، والاتفاق في مظنة الاختلاف ، وهو المعهود في كل موضوع طويل يعبر عنه بعبارات مختلفة (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) إذ ليس في استطاعة بشر أن يحكي قصة كقصة موسى بعبارات مختلفة بمثل هذا التحديد المعاني مع

سلامتها كلها من التعارض والتناقض وغيرهما من أنواع الاختلاف وإن كتب ذلك كتابة وقابل بعضه ببعض منقحاله ومصححا ، فكيف إذا كان يرتجل الكلام ارتجالا في أوقات مختلفة كما أن النبي ﷺ يتلو القرآن كالمترجل له ، وإني كان يتلقاه فيؤديه كما تلقاه فيعجل به خائفا أن ينسى منه شيئا حتى لقن فيه نبأ عصمته من نسيان شيء منه ، وأنه تعالى كفل حفظه (سنقرئك فلا تنسى) (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) (ولا تسجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) وتلك ضروب من إعجازه اللفظي ، ولضروب إعجازه المعنوي أكبر

(٣) إثبات عجز البشر عن ترجمة القرآن بلغة أخرى تؤدي معانيه كلها ، وإذا كان من المتعذر أداؤها بمثلها من لغتها ، فترجمتها بلغة أخرى أولى .

وقد تصدى بعض المفسرين في هذه الأيام لترجمته باللغة التركية الفقيرة بالمفظة من عدة لغات لأجل أن يستعين بهذه الترجمة الملاحدة من زعماء الترك على ما يبتغون من سل الشعب التركي من الاسلام بأن يحمله على الاستغناء بهذه الترجمة عن كتاب الله المنزل من عند الله تعالى (بلسان عربي مبين) كما ثبت في عدة آيات

فإن اتخدع هذا الشعب المسلم بهذا سهل على هؤلاء الملاحدة أن يحولوا بينه وبين السنة النبوية العربية أيضا لأنها في المرتبة الثانية ، ثم أن يحولوا بينه وبين آمار الصحابة والتابعين فانها في المرتبة الثالثة — ثم أن يحولوا بينه وبين ما كتبه أئمة العلماء في التفسير وشرح الحديث وما استنبط منهما في أمور الدين من العقائد والآداب وأحكام العبادات والمعاملات . وبعدها يتحكمون في تفسير هذه الترجمة بما شاءوا ، ويوردون الشبهات على الاسلام المشوهة المأخوذة من ترجمتهم القابلة لذلك — وحينئذ يتم لهم ما يريدون من جعل الترك أمة لا دينية . واسكن لن يتم لهم ذلك إن شاء الله تعالى ، فالشعب التركي راسخ في الاسلام ، ومتى عرف كيف هؤلاء الملاحدة المضلين فانه ينفذهم نبد النواة .

تمة تفسير الآيات

وههنا يرد سؤال : ماذا كان من أمر السحرة عند ما سمعوا هذا التهديد

والوعيد ، وهم أجابوا ذلك الجبار العنيد ؟ وجوابه هنا ﴿ قالوا إنا إلى ربنا منتقلون ﴾ يجوز أن يكونوا قد عنوا بقولهم هذا أنفسهم وحدها وأرادوا أنهم

لا يزالون ما يكون من قضائه فيهم وقتله لهم لأنهم راجعون إلى ربهم ، راجعون مغفرة ورحمة بهم ، وحيلته يكون تمجيل قتلهم سبباً لقرب لقائه ، والتمتع بحسن جزائه ، ويجوز أن يكونوا قد عبدوا أنفسهم وفرعون جميعاً وأرادوا أننا وإياك سنقلب إلى ربنا ، فلئن قتلنا فما أنت بخالد بعدنا ، وسيحكم عن وجل بسنة ينكس بيننا ، وفيه تعريض بكذبه في دعوى الربوبية ، وتصريح بإشارة ما عهد الله تعالى على ما عهد من الشهوات النبوية ، وفي سورة الشعراء (قالوا لا خير لنا إلى ربنا نغلبون) إذا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) وهو يؤيد المعنى الأول ولا ينافي الثاني لأنه يشمل الأول

وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ^١ قال الراغب : تنقمت الشيء ونقمته (أي من بابي فرح وضرب) إذا أنكرته إما باللسان ، وإما بالعمالة قال تعالى (وما تقوموا إلا أن أغناهم الله) (وما تقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله) (هل تنقمون منا) الآية والنقمة العقوبة قال (فالتقمنا منهم فأغر قناهم في اليوم) الخ وتفسيره هذا لنقم أدق وأشمل من قول الزحشيري في الأساس : وتنقمت كذا أنكرته وعنته . فانه لم يذكر إلا القول منه وقد استشهد له بقوله تعالى (وما تقوموا منهم إلا أن يؤمنوا) وهو في أصحاب الأخدود وكان النقم منهم بالنعل لا بالقول ، فسبحان من لا ينسى ولا يغفل . وما ذكره السحرة من نقم فرعون منهم كان بالقول وهو الاستنكار التوبيخي لإعناهم والنقمة فيه الوعيد عقوبة . والظاهر أنه عهد الوعيد بالآلة تنقام بالفعل واستنبط بعض المفسرين من قوله تعالى لموسى وهارون (أتأثمنا أتبعكما الغالبون) أن فرعون لم يقدر على تنفيذ الوعيد فيهم . وأجيب عن هذا بأن المراد الغلبة بالحجة والبرهان وفي عاقبة الأمر ونهايته ، وإلا لم يقتل أحد من أتباع الرسل عليهم السلام ، وهو صريح قوله تعالى في أول هذه القصة الذي ذكرنا أنه بيان لنتيجتها ووجه العبرة فيها (فانظر كيف كان طافية المفسدين) يعني فرعون وملائه ، ويؤيد ماورد في معناه من الآيات الكثيرة كقوله تعالى حكاية عن شعيب في قصته التي مرت في هذه السورة أيضاً (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وقوله قبله في قصة لوط منها (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) وقوله تعالى في مكذبي الرسل عامة بعد ذكر تكذيب قوم خاتم الرسل « من »

(كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) ويجوز أن يراد
عن أتبع موسى وهارون قومهما خاصة وهم الذين بشرهم موسى بأن العاقبة لهم بعد
وعيد فرعون لهم عقب خبر السحرة وهو ما تراه في الآية الثانية بهذه الآية التي
نحن بصدد تفسيرها . وهذه العاقبة قد بينها الله تعالى بقوله في سورة القصص
(فأخذناه - يعنى فرعون - وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين)
وقد ختم تعالى ما قصه هنا من كلام السحرة بهذا الدعاء فتذكره تالين داعين

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ أى ربنا هب لنا صبراً واسعاً نفيضه
وتفرغه علينا أفرغاً بتبديتك إيانا على الإيمان وتأبديتنا بروحك فيه كما يفرغ
الماء من القرب ، حتى لا يبقى في قلوبنا شيئاً من خوف غيرك ، ولا من الرجاء
فيما سوى فضلك ونوالك . وتوفنا إليك حال كوننا مسلمين لك مذهبين لا شرك
ونبيك ، مسلمين لقضائك ، غير مفتونين بتبديد فرعون وغير مطمئنين له في
قول ولا فعل . جمعوا بتعاليم هذا كمال الإيمان ، الاسلام

يدل على ما قررناه من المبالغة في طلب كمال الصبر - تنكيهه والتعبير عن
إيمانه بالأفراغ وهو صب الماء الكثير من الدلو ونحوه وأما تصويرنا لحصول ذلك
بقرة الإيمان فأخذنا من السقل والتجارب أن الصبر من صفات النفس وهو عبارة
عن قوة فيها على احتمال الآلام والمساكنة بغير تهرم ولا حرج يحملها على ما لا ينبغي
من ترك الحق أو اجتراح الباطل ، ولا شيء كالإيمان بالله والخوف منه والرجاء فيه
يقوى هذه الصفقة في النفس ، ومأخذنا من النقل آيات كقوله تعالى ، في
بيان المؤمنين الذين عملوا الصالحات فوجبت لهم الجنة (٢٩ : ٢٩) الذين صبروا
وعلى ربهم يتوكلون) وقوله فيهم (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وما يناسب
المقام قوله (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)

ولدينا من نقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك وقد صرح الذين
كتبوا أخبار الحروب الأخيرة بهامها وفلسفتها أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر
من جميع الملل أعظم شجاعة وأشد صبراً على مشاق الحرب من غيرهم ، ولذلك
يحرص أوسع الناس على إسن الخلق ، وأشدهم عناية بفنون الحرب ، كالتشعب
الأسلحى - بالمحافظة على الدين في جيشهم ولا يهرس بغيرك مؤسس وحديثهم

ووزيرهم الأعظم بل أكبر ساسة أوربة في كلمة في هذا المعنى أثبتناها في المجلد الأول من المنار من ترجمة الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى عن كتاب (وقائع بسمارك ومذكراته) التي نشرها كاتم سره مسبو بوش بعد موته نكتفي منها هنا بقوله :
« جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لأصحابه : كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئا فشيئا كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب ، ولو لم يكن هنالك أمل في الجزاء والمكافأة (أي في الدنيا) ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا الإحسان — ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحدا منهمنا يراه وهو يجالده ويموت وإن لم يكن قائده يراه

فقال بعض المرتابين أظن سعادتك أن العساكر يلاحظون في أعمالهم تلك الملاحظة ؟ فأجابه البرنس : ليس هذا من قبيل الملاحظات ، وإنما هو شعور ووجدان ، هو بواذر تسبق الفكر ، هو ميل في النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها ، ولو لاحظوا افقدوا ذلك المبل وأضلوا ذلك الوجدان ، هل تعملون انني لا أفهم كيف يعيش قوم وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات ، أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليه — إن لم يكن لهم إيمان بدين جاء به وحى سماوي ، واعتقاد باله يجب الخير ، وحاكم ينتهي إليه الفصل في الأعمال في حياة بعد هذه حياة ؟ ثم أطل في ذلك بأسلوب آخر صرح فيه بأنه لولا عقيدته الدينية لما خدم سلطانه وعاهله (الإمبراطور) ساعة من الزمان الخ ما قاله فيراجع في محله (١)

(١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْدَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ يَا ذِكْ وَالْهَيْكَلُ قَالَ سَتَقْتُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أَوْفِينَا مِنْ قَبْلِ

أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

خاف ملاً فرعون عاقبة تركه لموسى حراً مطلقاً في مصر فكأمره في ذلك وقد
أخبرنا الله تعالى بما قالوه له، وما أجابهم به وما كان من تأخير جوابه في موسى وقومه
من نصحه لهم وما دار بين موسى وبينهم في ذلك فقال :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : أَتَنْتَرِ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ
وَأَهْلَكُكُمْ ؟ ﴾ أى قالوا له : أنتترك موسى وقومه أحراراً آمنين لتكون عاقبتهم أن
يفسدوا قومك عليك في أرض مصر بإدخالهم في دينهم، أو جعلهم تحت سلطنتهم
ورياستهم، وبتركك مع أهلك كالشيء اللقأ، فيظهر للمصريين عجزك وعجزها، وقد
رأيت ما كان من أمر إيمان السحرة — إذ الظاهر من السياق أن هذا القول كان بعد
قصة السحرة — وسيأتي ما فيه. وجمهور المفسرين على المراد بتركه وأهله عدم عبادته
وعبادتها، وقرأ ابن عباس (وإلهتك) أى عبادتك. ومن المعلوم من التاريخ المستمد
من العاديات المستخرجة من أرض مصر أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس
واسمها في لغتهم (رع) وهو متضمن في لقب فرعون فهو عندهم سليل الشمس وابنها.
وسنقل بعد جوابه لهم أترا يدل على ذلك ويذكر فيه بعض هذه الآلهة .

﴿ قَالَ سَمَنْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أى قال مجيباً للملأ : سمنتل أبناء
قومه تقتيلاً ماتنا سلوا — فتعبيره بالتقتيل يدل على التكثير والتدريج — ونستحي نساءهم
أحياء كما كنا نفعل من قبل ولادته حتى ينقضوا ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ وإنا
مستولون عليهم بالغلبة والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل فلا يستطيعون إفساداً
في أرضنا ، ولا خروجاً من حظيرة تعبيدنا. وفي سورة المؤمن (وقال فرعون ذروني
أقتل موسى وليدع ربه : إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد)
وهو يدل على أنه كان لديه من يدافع عن موسى من آمن به سرا ومن كان يحبه وإن
لم يؤمن به فقد قال تعالى له (وألقيت عليك محبة مني) وفيه تصريح بما كان له في أنفس

المصريين من المحبة والاحترام. وقد حكي الله تعالى لما دفع واحد من آمن به فقال (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم . إن الله لا يهدي من هو مسرف مرتاب)

والمرجح عند المتأخرين من المؤرخين الواقفين على العاديات المصرية أن فرعون موسى هو الملك (منفتاح) وكان يقبب بسليل الآله (رع) وقد جاء في آخر الآثار المصري الوحيد الذي ذكر فيه بنو إسرائيل (وهو المعروف برقم ٣٤٠٢٥ المحفوظ في متحف مصر) أن مصر هي السليمة الوحيدة للعبود (رع) منذ وجود الآلهة وأن « منفتاح » سليله أيضا وهو الجالس على سدة المعبود « شو » وأن الآله « رع » التفت إلى مصر فوله « منفتاح » ملك مصر ورشي « أنه أن يكون مناضلا عنها فتخضع له الولاد قولا يرفع أحد من البدو رأسه فخصمه له القويروانيون والحيتيون والكنعانيون وعسقلان وجزال وبنعهم وفيه : وانفك الإسرائيليون فلا يزرهم ، وأصبحت فلسطين خلية لمصر ^(١)

والأراضي كلها مضمومة في حفظه ، وكل اسم وعنه « اضغفة وأذله » الصيدين القب (منفتاح) سليل الشمس معطى المعيشة كل نهار مثل الشمس اء ^(٢) وما ذكر لا ينافي ادعاه الانفراد بالآلهية والربوبية العليا بعد . وقوله : فلا يزرهم ، هو بمعنى قولنا انقطع دابرهم ، يستعمل في الحقيقة وفي المجاز من باب المبالغة أو بالنظر إلى المال ومن البديهي أن يخاف بنو إسرائيل هذا الوعيد ، وأن يطعنهم موسى عليه السلام ، وهو ما بيننا تعالى بقوله ﴿ قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ أي اطلبوا معونة الله تعالى وتأيدته لكم على ما سمعتم من الوعيد واصبروا ، ولا تجزعوا ، فإن سألتهم لماذا وإلى متى ؟ أقل لكم إن الأرض سجنسها : أو الأرض التي وعدكم ربكم إياها وهي فلسطين - لله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء يورثها من يشاء من عباده لالفرعون ، فهي بحسب سنته تعالى دول والعاقبة الحسنة التي ينتهي

(١) الحية التي لازوج لها ، وهذا كناية عن كون فلسطين تحت كفالة مصر وتصرف فرعونها ويؤيده مايجي بعد فليحفظ

اليها التنازع بين الأمم للمتقين، أى الذين يثقون بالله بمراعاة سننه فى أسباب إرث الأرض كالاتحاد وجمع الكلمة، والاعتصام بالحق، وإقامة العدل، والصبر على المكاره والاستعانة بالله، ولا سيما عند الشدائد، ونحو ذلك مما هدى اليه وحيه وأيدهم التعجارب. ومراذه عليه السلام أن العاقبة ستكون لكم بإرث الأرض ولكن بشرط أن تكونوا من المتقين له تعالى بإقامة شرعه، والسير على سننه فى نظام خلقه، وليس الأمر بكانتم همون ويتوهم فرعون وقومه من بقاء القوى على قوته والضعيف على ضعفه، أو أن الآلهة الباطلة ضمنت لفرعون بقاء ملكه، على عظيمته وجبروته وظلمه.

ماذا كان من تأثير وصية موسى عليه السلام لقومه ؟ وهل فهموها وتدرروها قدرها ؟ وبم أجابه ؟ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ؟ يعنون أنهم لم يستفيدوا من إرساله لإنقاذهم من ظلم فرعون شيئا، فهم يؤذونهم ويظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذونهم من قبله أو أشد. وهذا الإيذاء مبين فى الفصل الخامس من سفر الخروج من التوراة ففيه أن موسى وهارون لما طلبا من فرعون إطلاق بنى إسرائيل لى يعبدوا ربهم ويعبدوا له فى البرية وينبجرا له، قال لهما : لماذا تعطلان الشعب عن أعماله، وأمر فرعون فى ذلك اليوم مسخري الشعب ومدبريه أن يمتنعوا من اعطائه التبن الذى كانوا يعطونه إياه ليعمل به الابن (العاوب النى) الذى كان مفروضا عليهم كل يوم وأن يكافوه جمع التبن من البلاد. ولا ينقصوا من عدد الابن المفروض عليهم شيئا، فنفرق الشعب فى جميع أرض مصر ليجمعوا جذامة (*) عوض التبن فحجزوا عن تمام المقدار المفروض عليهم من الابن والمسخرون يلحون عليهم: أكلوا فريضة كل يوم كما كانت عندما كنتم تعطون التبن، فجاء مدبر بنى اسرائيل الذين ولاهم عليهم المسخرون لهم من قبل فرعون واستغاثوا فرعون نفسه فأتاه (١٥) لماذا تصنع بعبيدك هكذا ؟ (١٦) إنه لا يعطى لعبيدك تبن وهم يقولون لنا اعملوا لبنا، وما أن عبيدك يضربون وشعبك يعاملون ككذابين (١٧) قال إنما أنتم مفرقون ولذلك تقولون نمضى ونبج للرب (١٨) والآن فامضوا اعملوا، وتبن لا يعطى لكم، ومقدار الابن تقدمونه (١٩) فرأى مدبر بنى اسرائيل نفوسهم فى شقاء إذ قيل لا تلتصوا

(*) الجذامة بالضم مابقى من الزرع فى الأرض بعد الحصد

من لبنكم شيئا بل فرضة كل يوم في يومها (٢٠) وصادفوا موسى وهارون وهما واقفان للقائم عند خروجه من عند فرعون (٢١) فقالوا لها ينظر الرب ويحكم عليكم كما أفسدنا أمرنا عند فرعون وعند عبده وجعلنا في أيديهم سيفا ليقتلونا انتهى المراد منه .

﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾
أى قال موسى عليه السلام إن المرجو من فضل ربكم أن يهلك عدوكم الذى سخركم وآذاكم بظلمه ويجعلكم خلفاء في الأرض التى وعدكم إياها ، ويعنكم فرعون من الخروج إليها ، فينظر سبحانه كيف تعملون بعد استخلافه إياكم فيها : هل تشكرون النعمة أم تكفرون ؟ وهل تصلحون في الأرض أم تفسدون ؟ ليجازيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون .

وقد عبر موسى ولم يقطع بالوعد لئلا يتكلموا ويتركوا ما يجب من العمل أو لئلا يكذبوه لضعف أنفسهم بما طال عليهم من الدل والاستخذاء لفرعون وقومه واستعظامهم لملكه وقوته ، وفي التوراة ما يؤيد هذا وما قبله .

جاء في آخر الفصل الخامس من سفر الخروج بعد ما نقلناه آنفا مانصه :

(٢٢) فرجع موسى إلى الرب وقال يارب لماذا ابتليت هؤلاء الشعب لماذا بعثتني ؟

(٢٣) فأني منذ دخلت على فرعون لا تكلم باسمك أساء إلى هؤلاء الشعب وأنت لم تنقذ شعبك »

وفي أول الفصل السادس منه (١) فقال الرب لموسى : الآن ترى ما أصنع

بفرعون إنه بيد قديرة سيطلقهم وبيد قديرة سيضطردهم من أرضه — وأعلمه

بأنه أعطى إبراهيم واسحق عبدا بأن يعطيهم أرض كنعان وأنه سمع أنين

إسرائيل الذين استعبدهم المصريون فذكر عهد ثم قال (٦) لذلك قل لبني إسرائيل

أنا الرب لأخرجكم من تحت أئقال المصريين وأخلصكم من عبوديتهم وأقديكم

بذراع مبسوطة وأحكام عظيمة (٧) وأتخذكم لي شعبا وأكون لكم آلهة وتعملون

أننى أنا الرب أهلكم المخرج لكم من تحت أئقال المصريين (٨) وسأدخلكم

الأرض التى رفعت يدي مقبلا أن أعطيها لإبراهيم واسحق ويعقوب فأعطيها

لكم . يراى أنا الرب (٩) فكلم موسى بذلك بني إسرائيل فلم يسمعوا لموسى

لضيق أرواحهم وعبوديتهم الشاقة اه المراد منه ، وهو من ترجمة اليسوعيين

كالذي قبله . ويليه عودة موسى إلى فرعون ومطالبة باخراج بنى إسرائيل
وامتناعه وإظهار الرب الآيات له واحدة بعد أخرى كما يأتي مجلداً في الآيات التالية
(فان قيل) ظاهر ترتيب الآيات هنا يفيد أن هذه المراجعة بين فرعون ومثله
من جهة وبين موسى وبنى إسرائيل من جهة أخرى وقعت بعد قصة السحرة ،
وسياق التوراة صريح في وقوعها قبلها وبعد تبليغ أصل الدعوة - فهل يجب ان
نقول إن ظاهر السياق هنا غير مراد وهو معطوف بالواو التي لا تدل على الترتيب
- أعنى قوله (وقال الملأ من قوم فرعون أئذير موسى وقومه) الخ ليوافق
التوراة وتم به الحجة على رسالة نبيينا ﷺ من هذا الوجه ، وهو أنه كان أمياً لا
اطلاع له على التوراة ولا غيرها من كتب أهل الكتاب ولا غيرهم ، وأنه لم يعلمه
إلا بوحى الله إليه ؟ كما قال له تعالى عقب قصة نوح (ما كنت تعلمها أنت
ولا قومك من قبل هذا) وما في معناه من قصة موسى في سورة القصص ؟

(قلنا) إنه لا مانع من هذا الجمع ولا تتوقف الحجة عليه ، فان القرآن
مشمول على جميع كثيرة من هذا النوع ومن غيره تدل على كونه وحياً من الله
تعالى لا يقدر على مثله محمد الامى ﷺ ولا غيره من القارئين السكاكين أيضاً
وهو على كونه كما قال مصداقاً ليكون تلك الكتب من عند الله تعالى أى فى الأصل
قد قال أيضاً ان أهل التوراة أدتوا نصيباً منها ونسوا حظاًًًًًً نصيباً آخر وأنهم حرفوا
بعض ما عندهم منها ، وأنه هو أى القرآن مهيمن عليها ، فما أقره منها فهو الذى
لا شك فيه ، وما صححه بإرادته مخالفاً لما عندهم فهو الصحيح سواء كان بإرادته إياه
مخالفاً لما فيها من بعض الوجوه ككون موسى هو الذى ألقى العصا فاذا هى حية وإذا
هى تلقف ما يأفكون لاهارون كما فى التوراة . أو دلت قواعده أن نصوصه على
امتناعه كما جاء فى أول الفصل الثامن من سفر الخروج من أو الرب جعل موسى
إله لفرعون ويكون أخوه هارون نبيه !! فأصول القرآن وكذا التوراة - تمنع أن
يكون إله غير الله عز وجل . وقد ثبت فى توارىخ أهل الكتاب وغيرهم أن التوراة
التي كتبها موسى عليه السلام قد فقدت وأن عزرا الكاتب هو الذى كتب الاسفار
المقدسة بعد السبي البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد وهو الذى استبدل الحروف
السكندانية بالعبرانية ، على أن ما كتبه عزرا قد فقد أيضاً ولكن جميع نسخ
التوراة الموجودة فى العالم مستمدة مما كتبه وفيها تحريف كثير لا يمكن أن يكون

من الأصل و يسمونه مشكلات يشكفون الأجوبة عنها . وقد بينا نموذجاً منها من قبل ، ومنها ان الفصل الأخير من سفر التثنية وهو الأخير من التوراة قد ذكر فيه وفاة موسى عليه السلام وأنه لم يبق بعده نبي مثله ، والمرجح عندهم أن يشوع هو الذي كتبه على أن فيه ذكر يشوع ..

ومما يوضح معجزة القرآن فيما أخبر به عن التوراة ويؤكد خطأ المفسرين الكثيرين من المتقدمين والمتأخرين في تفسير بعضه وتعيين المراد منه لعدم اطلاعهم على ما عند أهل الكتاب منها ومن سائر كتبهم المقدسة وغيرها من التواريخ والعيادات المستخرجة من آثار قدماء المصريين والبابليين ، وإنما كان جل ما يعرفون عن بني إسرائيل ما سمعوه ممن أسلم منهم وما كل من أسلم منهم يحفظ عليهم ، ولا بصادق أمين . ثم ما أخذه عن كتب تاريخية غير موثوق بها ، فكان أكثر ما كتبوه في التفسير منها مشوها له وحجة لأهل الكتاب علينا . فإذا كان هذا حال علمائنا في أخبار أهل الكتاب بعد انتشار العلوم في الاسلام فكيف حال أهل مكة عند ظهوره ولم يكن فيها كتاب يقرأ ولا أحد يكتب ، قيل إلا ستة نفر من التجار كانوا ممن يقال فيهم اليوم « ينكون الخط » فأتى لمن كان أبعدهم عن ذلك وهو محمد بن عبد الله عليه السلام أن يعرف هذه الدقائق المفصلة السائلة من الشوائب التي لا يصدقها العقل أو لا تتفق مع توحيد الأنبياء وفضلهم لولا ما أنزل عليه من الوحي الإلهي ؟

(١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ أَعْلَهُمْ
يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

هذه الآيات تفصيل لمقدمات الهلاك الموعود به فيما قبلها وإنجاز وعد الله تعالى لبني إسرائيل بالاستخلاف في الأرض

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾
صدرت الجملة بالقسم الدالة عليه لانه لنا كيد مضمونها وتظيم شأنه وتيف لا

وهو من أظهر آياته سبحانه على تأييد رسله وقدرته على الإزالة للظلمين المستضعفين من الأقوياء الظالمين . وقد كثر استعمال مادة « الأخذ » في العذاب وما في معناه كقوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) (فأخذناه أخذاً وبيلاً) يعنى فرعون موسى (فأخذهم أخذنة رابية) وآل فرعون قومه كما أطلقه المفسرون ، أو خاصته وأعوانه في أمور الدولة وهم الملأ من قومه الذين كثروا كرههم في قصته ، ووجه أنهم هم المذنبون المعاندون لموسى وإنما وقوع العذاب على غيرهم بالتبع لهم لأنهم كانوا موافقين ومقرين لهم على ظلمهم . وقد قال تعالى (وألقوا قتنة لآنصيبين الذين ظلموا منكم خاصة) وهذه سنة من سنن الاجتماع العامة وسيأتى توجيه القول الأول

وأصل اللغة أن آل الرجل أهل بيته وأقاربه الذين يضافون إلى اسمه ، وهو لا يضاف إلا إلى أعلام شرفاء قومهم وكبرائهم كالأنبياء والملوك والرؤساء ثم أطلق على أهل الاختصاص بهم أو جميع أتباعهم ، ومن هنا قال بعض العلماء أن آل النبي ﷺ يطلق على جميع أتباعه وأن هذا هو المراد بالصلاة على آل النبي في التشهد وغيره . قال الراغب : الآل قيل مقلوب عن الأهل ويصغر على أهيل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والامكنة يقال آل فلان ولا يقال آل رجل ولا آل زمان كذا أو موضع كذا ولا يقال آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف الأفاضل يقال آل الله وآل السلطان ، والأهل يضاف إلى الكل يقال أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا وبلد كذا . وقيل هو في الأصل اسم الشخص ويصغر أو يلا ويستعمل فيمن يختص بالإنسان اختصاصاً ذاتياً إما بقربة قريبة أو بموالة قل عز وجل (وآل إبراهيم وآل عمران) وقال : (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) قيل وآل النبي عليه الصلاة والسلام أقاربه وقيل المختصون به من حيث العلم ، وذلك أن أهل الدين ضربان ضرب متخصص بالعلم الممتن والعمل المحكم ، فيقال لهم آل النبي وأمته ، وضرب يختصون بالعلم^(١) على سبيل التقليد ، ويقال لهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يقل لهم آله ، فكل آل للنبي أمة له وليس كل أمة له آله . وقيل لجمع الصادق رضى الله

(١) كذا في النسخة المطبوعة ولعل الصواب بالعمل فإن التقليد لا يسمى علماً

عنه : الناس يقولون المسلمون كلهم آل النبي ﷺ ، فقال كذبوا وصدقوا ، فقبل ما معنى ذلك ؟ فقال كذبوا في أن الأمة كافة هم آلهم وصدقوا في أنهم إذا قاموا بشرائط شريعته آلهم ، وقوله تعالى (رجل مؤمن من آل فرعون) أي من المختصين به وبشريعته وجعله منهم من حيث النسب أو المسكن أو من حيث تقدير القوم أنه على شريعتهم اه بعد هذا نقول إن « آل فرعون » أطلق في القرآن على أهل بيته خاصة في موضع واحد لا يحتمل غيرهم وفي موضع آخر محتمل لغوهم فالأول قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) والثاني قوله (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) وأطلق كثيراً بمعنى ملته وخاصة أتباعه أو جملتهم كقوله (وأغرقنا آل فرعون) (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) (وإذ نجيناكم من آل فرعون) (وحاق بآل فرعون سوء العذاب) (ولقد جاء آل فرعون النذر) كذلك كثر ذكر آل فرعون في إرسال موسى إليهم وعاداريين فرعون وبينهم أشراف قومه ورجال دولته كما تقدم ولولا أن ورد ذكر قومه في بعض الآيات لحملنا الآل في الآية التي نحن بصدد تفسيرها وفي أمثالها عليهم دون سائر قومه ، فقد قال تعالى في أول قصة موسى من سورة الشعراء (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون) وقال في سورة الدخان (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) الخ ومن الواضح أن عامة قوم فرعون ينالهم من عذاب الأخذ بالسنين ونقص الثمرات ما لا ينال فرعون وأهل بيته وخاصة ملته ، فالمراد بآله قومه وهم أهل مصر في عهده ، وهم مؤخذون بظلمه وطغيانه لأن قوته المالية والجندية منهم ، وقد خلقهم الله أحراراً وكرمهم بالعقل والفضيلة التي تذكره الظلم والطغيان بالفرية فكان حقاً عليهم أن لا يقبلوا استعباده لهم وجعلهم آل لاطفيانه وإرضاء كبريائه وشهواته ولا سيما بعد بعثه موسى ووصول دعوته إليهم ورؤيتهم لما أيده الله به من الآيات

وأما السنون فهي جمع سنة وهي بمعنى الحول والسكن أ كثر ما استعمل في الحول الذي فيه الجذب كما قال الراغب وغيره ، أي إلا إذا ذكرت في مقام العدد والإحصاء ، والأخذ بالسنين صريح في إرادة العقاب بالجذب والضيق ويؤيده نقص الثمرات ، وهل يدخل نقص الثمرات في عموم المراد من السنين أم هي خاصة بنقص الغلال التي عليها مدار الأقوات دون الغائكة التي لا

تكنفى القوت وإن كان منها النخيل والأعناب ؟ وجهان . ونقص الثمرات نص على شدة الضيق فى كل حال ، وهذا إجمال يفسره قوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) وما هو بعيد

وجملة معنى الآية : أنه تعالى أخذ آل فرعون بالجذب وضيق الميشة لعلمهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله وعجز ملكهم الجبار المتغطرس وعجز آلتهم ولعلمهم إذا تذكروا اعتبروا وأمعنوا فرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل وأجابوا دعوة موسى عليه السلام ، فان الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب وتهذب الطباع وتوجه الأنفس إلى مرضاة رب العالمين والتضرع له دون غيره من المعبودات التى اتخذت فى الأصل وسائل إليه وشفعاء عنده ، ثم صار ينسى فى وقت الرخاء لأنه غيب لا يرى وتذكره لأنها مشاهدة بجانسه لعابديها بل هى أوأكثرها دونهم لو كانوا يعلمون ، فاذا بانغ الشرك من الناس أن ينسوا الله تعالى حتى فى أوقات الشدائد فذلك هو الضلال البعيد

كذلك كان دأب آل فرعون بعد إنذار موسى إليهم ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾

من خصب ورخاء وهو الغالب ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ دون غيرنا ونحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس ﴿ وإن نصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ أى وإن اتفق أن أصابتهم سيئة أى حالة تسوءهم كجلب أو جائحة أو مصيبة أخرى فى الأبدان أو الأرزاق تشاءموا بموسى ومن معه من الأنصار كأخيه هارون أو جميع قومه ، ويرون أنهم إنما أصيبوا بشؤمه وشؤمهم ، ويفعلون عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى لأن هذا عندهم من الحقوق ، كما هو شأن الأفرنج فى ظلمهم لمن يستضعفونهم من أهل الشرق

أصل « يطيروا » يطيروا فأدغمت التاء فى الطاء وسبب استعمال التطير بمعنى التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير حتى أنها تزرعها إذا لم تمر من تلقاء نفسها فإذا طارت من جهة اليمين تيمنت أى رجت وقوع اليمين والبركة والخير وإذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت الشر والمصيبة ، ويسمى الطائر الأول السانح والآخر البارح ، ثم إنهم سمو الشؤم طيراً وماتراً ، والتشاؤم تطيراً ، ولذلك قال تعالى فى رد خرافتهم

﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكنزهم لا يعلمون ﴾ ابتداء الرد عليهم

بأداة الافتتاح « ألا » للاهتمام به إذ المراد بها توجيه ذهن القارئ لما يليق بعدها حتى لا يفوته شيء منه ، أى ألا فليعلموا أن الشؤم الذى نسبوه إلى موسى وعدوه من آثار وجوده فيهم هو عند الله تعالى لا عند موسى ومن معه ، فهو تعالى قد جعل لكل شيء قدراً من حسنة وسيئة ، بمعنى أنه وضع لنظام الكون سقناً تكون فيها المسببات على قدر الأسباب ، ولكل منها حكم ، فبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل البلاء عليهم ، وهو امتحان واختبار لهم بما يسوءهم ليشربوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيتهم على بنى إسرائيل وطغيانهم وإسرافهم فى كل أمورهم ، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكم التصرف الرباني فى المخلوق ولا أسباب الخير والشر الصورية ولا المعنوية وكون كل شيء فى هذا الكون بمشيئته تعالى وتدبيره

وفى الآية من نكت البلاغة أنه عبر عن مجيء الحسنة بإذا الدالة على تحقق الوقوع وعرفها ، لإفادة أنها الأصل الثابت الغالب بغلبة رحمة الله وفضله على سخطه وعقابه ، وعبر بإصابة السيئة بأن التى هى أداة الشك — أى إن شرطها إما مشكوك فى وقوعه وإما منزل منزلة المشكوك فيه لندرتة أو لسيب آخر — وذكر السيئة لإفادة أن وقوعها قليل وخلاف الأصل الغالب . وأفاد بالتعبيرين أن القوم لم يترهبوا بالحسنات ولا بالسيئات ، وأن الحسنة على عظمتها وكثرتها ما زادتهم إلا غروراً بجهلهم ، وتمادياً فى ظلمهم ، وإصراراً على بغيتهم ، وأن السيئة لم تفدهم عظة ولا عبرة ولم تحدث لهم توبة ، وهاك تفصيل ذلك

(١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ آيَاتٍ مُتَّصِلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ

قلنا : ان القوم لم يترهبوا بالحسنات ولا بالسيئات . ولم يذعنوا لما أيد الله به تعالى موسى من الآيات ، بل أصرروا بعد إيمان كبار السحرة على عد آيتى موسى من السحر ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

« مهمما » اسم شرط يدل على العموم ، والمعنى : أنك إن قمنا بكل نوع من أنواع الآيات التي تستدل بها على حقيقة دعوتك لأجل أن تسخرنا بها ، أى تصرفنا بها بدقة ولطف في التأثير ، عما نحن عليه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا وضرب الابن لمبايننا — فما نحن لك بمصدقين ، ولا لرسالتك بمتبعين

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ أى فأنزلنا عليهم هذه المصائب والنكبات حال كونها آيات بينات على صدق رسالة عبدنا موسى بأن توعدهم بها قبل وقوع كل واحدة منها تفصيلا لا إجمالا ، لتكون دلائلها على صدقه واضحة لا تحتمل التأويل بأنها وقعت بأسباب لها لا دخل لرسالته فيها — فاستكبروا عن الإيمان به استكبارا ، مع اعتقاد صحة رسالته وصدق دعوته باطنا ، وكانوا قوما راسخين في الاجرام والذنوب مصرين عليها فلا يهون عليهم تركها

جاء في سورة الاسراء — أو بني اسرائيل — أن الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات ، وقد عد هنامنها خمسا وهي المذكورة في التوراة على غير هذا الترتيب وهو غير مراد وعطف بعضها على بعض بالواو لا يقتضيه :

فأما الطوفان فمعناه في اللغة ما طاف بالشئ وغشيه ، وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض وكذا كل ما ينزل من السماء بكثرة تغشى الأرض . قال ابن كثير اختلفوا في معناه ابن عباس في روايات كثيرة : الأمطار المفردة المتلفة للزرع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم ، وعن ابن عباس رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد الطوفان المساء والطاعون على كل حال ، وقال ابن جرير : حدثنا ابن هشام الرقاعي حدثنا يحيى بن هبان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن مينا عن عائشة (رض) قالت قال رسول الله (ص) « الطوفان الموت » وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن هبان به وهو حديث غريب . وقال ابن عباس في رواية أخرى هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) ١٥

أقول : أما حديث عائشة المرفوع فهو ضعيف لا يثبت بمثله قول مخالف للعتبار من اللغة — فيحيى بن هبان الذي انفرد به هو الكوفي المجلي كان

من العباد ضعفه الإمام أحمد، وقال حدث عن الثوري بعجائب وقال غيره: إنه كان صدوقاً لا يعتمد الكذب ولكنه كثير الخطأ والنسيان وقد أصيب بالفالج فتغير حفظه وهذا هو الصواب. والمنهال بن خليفة المعجلي الكوفي الذي روى عنه ضعفه ابن معين وغيرهما، وقال البخاري حديثه منكر. وقال ابن حبان كان ينفرد بالمناكير عن المشاهير فلا يجوز الاحتجاج به. وهذا طعن مبين السبب فهو مقدم على توثيق البزار له، وكذلك الحجاج وهو ابن ارطاة الكوفي القاضي مدلس ضعيف لا يحتاج به، وأولى الآثار بالقبول قول ابن عباس الأول الموافق المتبادر من اللغة أي طوفان المطر، وما عدا ذلك فمن الاسرائيليات وأولاه بالقبول ما لا يخالف القرآن من أسفار التوراة نفسها وهو ما نقله عنها:

جاء في الفصل التاسع من سفر الخروج: (١٣) ثم قال الرب لموسى بكر في العداة وقف بين يدي فرعون وقل له: كذا قال الرب اله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني (١٤) فاني في هذه المرة منزل جميع ضرباتي على قلبك وعلى عبدك وشعبك لكي تعلم أنه ليس مثلي في جميع الأرض (١٥) وأنا الآن أمد يدي وأضربك أنت وشعبك بالوباء فتضمحل من الأرض (١٦) غير اني لهذا أبقيك لكي أريك قوتي ولكي يخبر باسمي في جميع الأرض (١٧) وأنت لم تزل مقاوماً لشعبي (١٨) ها أنا (؟) ممطر في مثل هذا الوقت من غد برداً عظيماً جداً لم يكن مثله في مصر منذ يوم أسست إلى الآن ثم ذكر وقوع البرد مع تار من السماء ووصف عظمته وشموله لجميع بلاد مصر وان فرعون طلب موسى وهارون واعترف لهما بخطئته وطلب منهما أن يشفعا إلى الرب ليكف هذه النكبة عن مصر ووعدهما باطلاق بني اسرائيل وقال في ختام ذلك

(١) هذا نص ترجمة اليسوعيين التي نقلها وصححها الشيخ ابراهيم اليازجي وهي مخالفة في المعنى لترجمة الامريكان ونصها: «١٥ فانه الآن لو كنت أمد يدي وأضربك وشعبك بالوباء لكنت تباد من الأرض» فالأولى جازمة بالضرب وبالوباء والثانية علقته بلو الدالة على عدم وقوعه المتبادر أنها هي الصحيحة المعنى، فتأمل ولا تنظن أن الترجمة التي صححها اليازجي خالية من الخطأ اللغوي كما يظن الغالون فيه، واقرب غلط في هذا السياق أول الجملة ١٨ ها أنا .. فيها التنبيهية تدخل على ضمير الرفع المحرر عنه باسم الإشارة فيقال ها أنا ذا (وقد تكتب هاء نداء اختصاراً) — وها أنتم أولاء، وهذا الغلط قد تكرر فيها كغيرها وله أمثال

(٣٣) فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب فكفّت الرعود والبرد ولم يمد المطر يهطل على الأرض « اه ولم يذكر المطر عند الوعيد بل ذكر هنا عند كف النكبة .

وأما الجراد فهو معروف وقد ذكر في التوراة بعد الطوفان ففيها بعدما تقدم أن فرعون قساقليه فلم يطلق بني إسرائيل فأخبر الرب موسى كما في الفصل العاشر بأنه قسى قلبه وقلوب عبيده ليريه آياته ولكي يقص موسى على ابنه وابن ابنه (كذا) ما فعل بالمصريين وأمره بأن يندره بإرسال الجراد عليهم فيأكل ما سلم من الثبات والشجر فلم يحسه البرد ولا بيوتته وبيوت عبيده وسائر بيوت المصريين ففعل - فرضى فرعون أن يذهب الرجال من بني إسرائيل ليعبدوا ربهم دون النساء والأولاد والمواشي . فد موسى عصاه بأمر الرب على أرض مصر فأرسل الرب رجلاً شرقية ساقط الجراد على أرض مصر (١٥) فغطى جميع وجه الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميع عشبها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر حتى لم يبق شيء من الخضرة في الشجر ولا في عشب الصحراء في جميع أرض مصر وفيه أن فرعون استدعى موسى وهارون واعترف لهما بخطئهما وطلب منهما الصفرح والشفاعة إلى الرب إلههما أن يرفع عنه هذه التهلكة ففعل فأرسل الله رجلاً غربية فحملت الجراد كله فألقته في بحر القلزم . وأما القمل - بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة - فمن ابن عباس هو السوس الذى يخرج من الحنطة وعنه أنه الدبى وهو الجراد الصغير الذى لا أجنحة له . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبير أنه دواب سود صفراء ، وعن ابن جرير أنها دابة تشبه القمل تأكل الإبل ، ونقل عن بعض علماء اللغة البصريين أن القمل عند العرب الحنّان وأحدثها حنّانة وهى صفار القردان - ذكر هذا كله ابن كثير . وجزم الراغب بأن القمل صفار الذباب وهو موافق لما في التوراة ، ففيها أن البعوض والذبان كان من الضربات العشر التى ضرب الرب بها فرعون وقومه ليرسلوا بني إسرائيل مع موسى ففي الفصل الثامن من سفر الخروج أن موسى أنذر فرعون أن الذبان سيدخل بيوته وبيوت عبيده وسائر قومه فيفسدها ولا يدخل في بيوت بني إسرائيل المقيمين في أرض جاسان وإن ذلك وقع وفسدت الأرض من تأثير الذبان .

وأما الضفادع فهي المعروفة لا خلاف فيها وفي أول الفصل الثامن من سفر الخروج (١) وقال الرب لموسى ادخل على فرعون وقل له كذا قال الرب أطلق شعبي ليعبدوني (٢) وإن أبيت أن تطلقهم فما أنا (ذا) ضارب جميع تخومك بالضفادع (٣) فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتمتشر في بيتك وفي مخدع فراشك وعلى سريرك وفي بيوت عبيدك وشعبك وفي تنانيرك ومعاجنك الخ وكذلك كان . ولكن فيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك وأصعدوا الضفادع ، وإن فرعون طلب من موسى أن يشفع له عند ربه برفع الضفادع فأجابته إلى ذلك قال (١٣) ففعل الرب كما قال موسى وماتت الضفادع من البيوت (٤) والآفة والحقول (١٤) فجهدوها كواماً وأتت الأرض منها . وأما الدم ففسره زيد بن أسلم بالرعاف وأكثر أهل التفسير المأثور أنه دم كان في مياه المصريين وهو موافق لما جاء في التوراة وهو فيها أول الضربات العشر التي أنزلها الله على فرعون وقومه بعد انقلاب العصا ثعباناً . ففي الفصل السابع من سفر الخروج : أن الرب أمر موسى أن ينذر فرعون ذلك ففعل (١٩) ثم قال الرب لموسى قل هارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين وأنهارهم وخواجمهم ومناقهم وسائر مجامع مياههم فتصير دماً ويكون دم في جميع أرض مصر وفي الخشب وفي الحجارة وفيه أن موسى وهارون فعلوا ذلك وأن سمك النهر مات وأتت النهر فلم يستطع المصريون أن يشر بوا منه ، وفيه أن سحرة مصر فعلوا مثل ذلك (٢٢) وإن الدم دام سبعة أيام

هذه الخمس جملة ما ذكره القرآن من الآيات التسع التي أيد بها عبده ورسوله موسى عليه السلام وليس فيها شيء من المبالغات التي في التوراة فلا هو ينفها ولا يؤيدها ، ومقتضى أصول الإسلام الوقف فيها إلا ما دلل من القرآن على نفيه كما تقدم . وفيها أن من تلك الآيات أو الضربات (البعوض) وذلك أن هارون ضرب بأمر الرب تراب الأرض « فسكان البعوض على الناس والبهائم ، وكل تراب الأرض (٢) صار بعوضاً في جميع أرض مصر » كسنا في ٨ : ١٧ خر) وفيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك ١١ (ومنها الوباء) وقع على دواب المصريين وأنعامهم فماتت كلها من دون مواشي الإسرائيليين فإنه لم يمت منها شيء (ومنها البثور والقروح المنتفخة) أصابت الناس والبهائم — ومن أين جاءت البهائم بعد

أن ماتت بأسرها؟ (ومنها الظلام) غشى جميع المصريين ثلاثة أيام كان
الامريائيون فيها يستمعون بالنور وحدهم (ومنها إماتة جميع أبكار الناس والبهائم)
وهي الضربة المباشرة ففيها « وقال موسى كذا قال الرب إني نحو نصف الليل
أجتاز في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على
عرشه إلى بكر الأمة التي وراء الرعى وجميع أبكار البهائم (من أين جاءت بعد أن
ماتت منذ أيام؟) ويكون صراخ عظيم في جميع أرض مصر لم يكن مثله (١١: ٤-٦ آخر)

(١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِنْدَكَ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
(١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْسُكُونَ
(١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
عَنْهَا غَافِلِينَ

بعد بيان تلك الآيات ذكر ما كان من تأثيرها وتأويلها معطوفا عليها فقال عز وجل
﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك : لنن كشف
عنا الرجز لنؤمن لك ونرسلن معك بنى اسرائيل ﴾ قال في الأساس : ارنجز
الرعد إذا تداوك صوته كارتجاز الرجز .. والبحر يرتجز بأذيه أى موجه... فمادة الرجز
تدل في أصل اللغة على الاضطراب ، كما قال الراغب وهو يكون في النفس كما يكون
في الأجسام ، ومنه قوله تعالى في وصف الماء الذي أنزله على المسلمين في بدر (ويذهب
عنكم رجز الشيطان) أى وسوسته لهم بأن يأخذهم العتاش فلا يستطيعون الصبر على
القتال ، وقيل غير ذلك . وقد يكون في الصوت ، ومنه الرجز في الشعر سمي بما كان لهم
من اضطراب الصوت في إنشاده ، وقد سمي عذاب قوم لوط رجزا بقوله تعالى في سورة
العنكبوت (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) وفي

سورتي سباً والجائفة انذار للكافرين بمذاب من رجز أليم. وفسر الرجز هنا بالعذاب وروى عن قتادة وفيه حديث مرفوع عن عائشة عند ابن مردويه، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المراد به الطاعون. وكأنهما أخذهما من حديث أسامة بن زيه مرفوعاً «الطاعون رجز أرسل على بني إسرائيل — أو على من كان قبلكم — فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدسوا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» ورواه مسلم عنه بهذا اللفظ وألفاظ أخرى بمعناه منها «الطاعون آية الرجز ابتلى الله به عز وجل أناساً من عباده» الخ وفي رواية له «هو عذاب أو رجز أرسله الله على طائفة من بني إسرائيل أو ناس كانوا قبلكم» الخ وأوله في بعضها «أن هذا الطاعون» الخ ورواه أحمد والنسائي ومصفى التفسير المأثور عنه وعن سعيد بن مالك وخزيمة بن ثابت ووجه في اللغة أن الطاعون من الأوبئة التي تضرب لها القلوب لشدة فتكها وذكر المفسرون تفسير قوله تعالى من سورة البقرة (وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية — إلى قوله — فأنزّلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وهو يصدق بطائفة من بني إسرائيل، وقد نزل الطاعون بهم كغيرهم مراراً

ولا يوجد حديث مرفوع يدل على أن الطاعون هو المراد بالرجز في الآية التي نفصرها، وضربة القروح المذكورة في التوراة يجوز أن تكون هي الطاعون، وروى الأبكار يحتمل أن يكون بالطاعون أيضاً

والمبتدأ من عبارة الآية أن المراد من الرجز جنسه وهو كل عذاب تضرب له القلوب أو يضرب له الناس في شؤونهم ومعاشهم وهو يشمل كل نقمة وجائفة أنزلها الله تعالى على قوم فرعون كالحس المبينة في هذا السياق. وفي التوراة أن فرعون كان يقول لموسى عند نزول كل منها ادع لنا ربك واشفع لنا عنده أن يرفع عنا هذه، ويعد أنه يرسل معه بني إسرائيل ليعبدوا ربهم ويدبحوا له ثم يشكث فإذا أراد بالرجز أفراد وافق التوراة في أن فرعون وملاؤه كانوا يطلبون من موسى عند كل فرد منها أن يدعوه به بكشفها عنهم، ولفظ «لما» لا يمنع من ذلك كما صرح به المفسرون الذين قالوا بهذا، وإن أراد به جملة ومجموع أفراده أو فرد آخر غير ما تقدم فالمبتدأ أن يكون طلب كشفه قد وقع مرة واحدة، والأول أظهر ويرجح التعبير عن نكثهم بصيغة

المضارع (ينكثون) فانه يدل على الاستمرار

ومعنى النظم الكريم : ولما وقع على فرعون وقومه ذلك العذاب المذكور في الآية السابقة فاضطربوا اضطراب الارشية في البئر البعيدة القعر ، وحاصوا حيصة الحجر فوقعوا في حيص بيص - وهو ما يدل عليه تسمية ذلك العذاب بالرجز - قالوا عند نزول كل نوع منه بهم : يا موسى ادع لنا ربك واسأله بما عهد عندك من أمر إرسالك إلينا لإيقاد قومك ليعبدوه وحده - فالنبوة والرسالة عهد من الرب تعالى لمن اختصه بذلك يدل عليه قوله تعالى لا إبراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم (إني جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتي ، قال لا ينزل عهدي الظالمين) أو ادعه بالذي عهد به إليك أن تدعوه به فيعطيك الآيات ويستجيب لك الدعاء - أن يكشف عنا هذا الرجز ونحن نقسم لك لأن كشفته عنا لنؤمنن لك ونرسلن معك بنى إسرائيل قال تعالى :

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بآلههم ينكثون ﴾ أى فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بآلههم ومنتهون اليه في كل مرة منها - وهو عود الحال إلى ما كانت عليه - أو في مجموعها وهو الفرق الذي هلكوا فيه - إذا هم ينكثون عهدهم وينكثون في قسمهم في كل مرة . أى فاجأوا بالنكث ، وبادروا إلى الخلف ، بلا روية ولا ريث . وأصل النكث في اللغة نقض ما غزل أو ما قتل من الحبال ليعود أنكثا ومطاقات من الخيوط كما كان ، والانكاث ما نقض من الغزل ليفزل ثانية (ولا تكونوا كآلتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا)

﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ أى فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لهم بأن أغرقناهم في اليم - وهو البحر في اللغة المصرية الموافقة للعربية في الألوف من مفرداتها ^(١) وهو يطلق على النيل وغيره - والفاء الداخلة على انتقمنا تفسيرية كقوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال) وعلل هذا الانتقام كما علل أمثاله بأنهم كذبوا بآيات الله وتكرر هذا اللفظ في قصص الأنبياء من هذه السورة أكثر من غيرها وإن لم يؤت بمضهم غير آية واحدة فإن

(١) قد اكتشف هذه الموافقة علامة العاديات المصرية صديقنا أحمد باشا كمال الاثرى المصرى صاحب المعجم الكبير للغة الهيروغليفة (رحمه الله تعالى) ومنه يعلم أن أصل اللغتين واحد ، أو أن أصل اللمتين واحد

تكذيب الواحدة كتكذيب الكثير ويقتضيه بالتحاد العلة ، كما أن تكذيب أحد الرسل كتكذيب الجميع إذا كان بعد ظهور آيته ، وقيام الحجة على دعوته . وكذلك تكرر في القرآن كون الغفلة عن الحق ودلائله من صفات الكفار . وأما جمع الآيات هنا فلائها متعددة . وأما عطف الانتقام بالفاء فليس تعليلاً آخر وإنما هو تعقيب على كونه وقع بعد التكذيب بتلك الآيات كلها ، والمعنى أنهم كانوا يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب ثم يكذبون حتى إذا انقضى الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسبب أنهم كذبوا بها كلها وكانوا غافلين عما تقتضيه وتستلزمه من عذاب الدنيا والآخرة . إذ كانت في نظر أكثرهم من قبيل السحر والصناعة ، وكانوا قد بلغوا فيهما الغاية ، ولذلك كانوا يكابرون أنفسهم في كل آية ، ويحاولون أن يأتي سحرهم وعملهم بمنشأ ، ويحملون همزهم على تفوق موسى عليهم فيها ، ويعدون إسناده كل شيء إلى ربه من قبيل إسنادهم الأمور إلى آلهتهم الباطلة بحسب التقاليد التي لم يكن حكماءهم يؤمنون بها ، وإنما يحافظون عليها لأجل خضوع عامة الشعب لها ، وأما من ظهرت لهم دلالة آيات موسى على الحق فمنهم من آمن جبراً ككبار السحرة ومنهم من آمن فكتهم إيمانه كالنبي عارض فرعون وملائه في قتل موسى بالحجة والبرهان - كما في سورة غافر وذكرناه في هذا السياق - ومنهم من جحد بها لحض العلو والكبرياء ، كفرعون وأكابر الوزراء والرؤساء .

ومن العبرة في مجاراة الحكومة الفرعونية للعوام على خرافاتهم أن حكومات هذا العصر توافق العامة على كل ما يعدونه من الدين وإن لم يكن منه كما تفعل الحكومة المضرة في بعض الاختلافات الموسمية المبتدعة في الاسلام كالموالد بالتبع لجمهور الشعب من كبار علمائه إلى أجهل عوامه وهي مشتملة على كثير من المعاصي المجمع عليها المعلومه من الدين بالضرورة التي يعد مستحلبها مرتداً عن الاسلام باتفاق المذاهب ، والجمهور غافلون عن ضرر هذه البدع التي جعلت من قبيل شعائر الاسلام بالاحتفال بها وشد الرحال اليها . وإنفاق الأموال العظيمة في سبيلها ، وتعطيل كبرى شعائر الاسلام وهي الصلاة وإبطال دروس العلوم الدينية من المساجد التي فيها لأجلها ، كالمسجد الاحمدى في طنطا والمسجد الابراهيمي في دسوق . وأن أكبر ضررها تشويه الاسلام في نظر العقلاء من أولى العلوم الاستقلالية حتى كثر فيهم المرتدون عنه ، وصد غير المسلمين عن

الاسلام لأن القاعدة التي يجرى عليها عرف الأمم أن دين كل قوم ما هم عليه من التعبدات والشعائر، وقد تكرر منا اقتناع بعض مستغلي الفكر من غير المسلمين بحقية دين الاسلام المقرر في القرآن الحكيم والسنة السنية وتنزهه عن هذه البدع فاقنعوا بأن ما قرروه لهم حق ولم يقنعوا بأنه دين الاسلام الذي عليه المسلمون، وقد سبق أن نقلت عن رجل من فضلاء الانكليز منهم أنه قال لي إن كان الاسلام ما ذكرت فأنا مسلم. وكان نعوام بك شقير المؤرخ السوري يقول لي اكتب عقيدتك وأنا أمضى عليها بخطي أنها عقيدتي

(١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ
وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ
بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا لِعِزَّتُونِ

لما ذكر تعالى عاقبة تلك الآيات وتأويلها في المصريين عطف عليه ببيان عاقبتها وتأويلها في بنى اسرائيل بهذه الآية الجامعة البليغة فقال عز وجل :

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾
تعدد في القرآن التمييز عن استخلاف الله قوما في أرض قوم بالإيراث أى وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر بما تقدم بيانه جميع الأرض التي باركنا فيها بالخصب والخير الكثير مشارقها من حدود الشام ومغاربها من حدود مصر تحفيقا لوعدنا (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) ويمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون
روى عن الحسن البصري وقتادة أنهما قالوا في تفسير مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها : هي أرض الشام ، وعن زيد بن أسلم قال : هي قرى الشام . وعن عبد الله بن شاذب : فلسطين ، وعن كعب الأحبار : قال إن الله بارك في الشام من الفرات إلى العريش . ويؤيد هذه الروايات قوله تعالى في ابراهيم عليه السلام (ونجيناه لوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) وقوله تعالى (ولسميان الرمح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) وقوله (تفسير القرآن الحكيم)

عز وجل (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله)

وروى عن الليث بن سعد أنها أرض مصر التي كان فيها بنو إسرائيل، وأطلق بعض المفسرين القول بأنها أرض مصر وفلسطين جميعاً. وربما يتراءى أن إرادة أرض مصر هي الظاهر المتبادر من قوله تعالى في قوم فرعون من سورة الشعراء (٥٧: ٢٦) فأخرجناهم من جنات وعيون ٥٨ وكنوز ومقام كريم ٥٩ كذلك وأورثناها بني إسرائيل) وقوله فيهم من سورة الدخان (٢٤: ٤٤) كم تركوا من جنات وعيون ٢٥ وزروع ومقام كريم ٢٦ ونعمة كانوا فيها فاكهين ٢٧ كذلك وأورثناها قوماً آخرين) لأن فرعون خرج عن معه من الملائكة والجن من مصر وتركوا ما كانوا فيه من النعيم، إلى الفرق المؤدى إلى الجحيم، ولكن هذا الوصف أظهر في بلاد الشام ذات الجنات الكثيرة، والعيون الجارية، ومعنى إخراج المصريين منها إزالة سيادتهم وسلطانهم عنها وحرمانهم من الشفكة بنعيمها، فقد كانت بلاد فلسطين إلى الشام تابعة لمصر، وكان من عادة فراعنة مصر كغيرهم من الأمم المستعمرة أن يقيموا في البلاد التي يستولون عليها حكماً وجنوداً لئلا تنقض عليهم، وأن يسكنها كثيرون منهم يتمتعون بخيراتها، وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (عسى ربكم أن يهلك عدوك ويستخلفكم في الأرض) جملة من الآثار المصرية القديمة الوحيد الذي وجد فيه ذكر لبني إسرائيل تنعاق بأن هذه البلاد كانت تابعة لمصر على أنه وجد في بعض التواريخ القديمة ما يدل على صحة ما قاله بعض مفسرينا من أن موسى استولى على مصر وتمتع هو وقومه بالسيادة فيها طائفة من الزمن نذكره للاعتبار به وإن كان صدق الآيات غير مقصور على صحة مضمونه وهو ما جاء في حاشية لأحد مباحث الدكتور محمد توفيق صدقي (رحمه الله تعالى) في كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية، وهذا نصه (كما في ص ٤٤٦ و ٤٤٧ من مجلد المنار السادس عشر)

«جاء في كتاب (الأصول البشرية) صفحة ٨٨ مؤلفه لينج أن يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير نقل عن (مانيثون) هذه الرواية المصرية القديمة التي ملخصها «أن موسى بعد أن هزم فرعون مصر — الذي فر إلى بلاد الحبشة — حكم مصر ١٣ سنة وبعد ذلك عاد إليه فرعون هو وابنه ومعهما جيش عظيم فقهروا وأخرجوه منها إلى بلاد الشام» وجاء في قاموس الكتاب المقدس.

لبوست مجلد ١ ص ٤١٠ أن هيرودوتس المؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد قال « إن ابن سيسوسترس ضرب بالعصى مدة عشر سنين لأنه رمى ربحه في النهر وقد ارتفعت أمواجه وقت فيضه بسبب توء شديد إلى علو غير اعتيادي »
 ١ هـ ويقول المؤرخون إن ابن سيسوسترس هذا (وهو منفتح الثاني) هو فرعون الخروج ويتخذون هذه العبارة إشارة إلى غرقه في زمن موسى . ولكن يرى القارىء منها أنها لو كانت إشارة إلى الفرق لكان الفرق في النيل ^(١) ومن الرواية الأولى يعلم أن موسى حكم بعد فرعون ١٣ سنة في مصر . وهاتان الروايتان هما من أقدم الروايات المصرية وأصحها وربما كانتا الوحيدتين في هذه المسألة ، ولعل المصريين استغاثوا بمملكة الحبشة فأرسلت إليهم جيشاً فأوحى الله إلى موسى بالخروج حينئذ من مصر وتركها لأهلها ، وعليه يجوز أن المصريين كتموا خبر غرق ملكهم واستبدلوا به دعوى تهم قره إلى الحبشة وقالوا إنه هو الذي عاد بعد ذلك وأخرج موسى بالقوة ستماً لخزيهم وخذلانهم وإرضاء لملوكهم وأسر (جمع أسرة بالضم) هؤلاء الملوك ، وربما أنه لولا عظم هذه الحادثة وشهرتها بينهم لاشكروها بالمره
 « ومن ذلك تعلم أن الخروج لم يكن عقب غرق المصريين مباشرة كما يفهم من التوراة ولم يكن السبب فيه هذه الحادثة التي غرق فيها فرعون وجيشه بل كان بعد ذلك ببعض سنين

« ويرى المطلع على القرآن الشريف أن هاتين الروايتين صادقتان في مسألة غرق فرعون في النيل ومسألة حكم موسى في مصر ١٣ سنة . وأما الفرق في النيل فيفهم من قول القرآن مثلاً في سورة طه (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفه في التابوت فاقدفيه في اليم) ثم قوله في آخر هذه القصة (فأتبعهم فرعون يجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم) فالتبادر من ذلك أن فرعون غرق في نفس اليم الذي ألقى فيه موسى وهو النيل ، ومثل ذلك أيضاً ما جاء في سورة القصص وهو قوله (فاذا خفت عليه فألقيه في اليم) ثم قوله فيها بعد (فأخذناه وجنوده فنبدناهم في اليم)

(١) ويجوز أن تكون عبارة هيرودوتس : رمى ربحه في البحر ، ثم ترجمت بالنهر ، لأن النهر الكبير يسمى بحراً ككل ماء كثير مستبحر

« وأما مسألة حكم موسى في مصر والتمتع بها هو وقومه مدة من الزمن بعد الفرق فهو أيضا المتبادر من نحو قوله تعالى (فأراد) أي فرعون (أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه - إلى قوله - وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) وقوله (فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأودرناها بني إسرائيل) ويجوز أن الشريعة أعطيت لموسى في الطور قبل تركه حكم مصر » وفي زمن موسى أعطى الله بني إسرائيل - بدلا عن مصر التي أمرهم بتركها - المالك التي في شرق الأردن كما في كتبهم وفي زمن يشوع أعطاهم كل أرض كنعان إلا بعض أجزاء منها (يش ١٣ : ١) وهذه الأرض التي أعطيت لهم هي من أخصب أراضي العالم وأحسنها وهي المسماة عندهم بأرض الموعد لأنهم كانوا وعدوا بها من قبل .

« فأتى محمد صلى الله عليه وسلم علم ما بيناه من ذلك التاريخ وهو أجنبي عنه وعن قومه ؟ ومغاير للتوراة ومخالف لما يعتقده جميع اليهود والنصارى من قديم الزمان ، ولكنه موافق لأقدم الروايات المصرية وأصحها التي لا يعرفها - حتى الآن - إلا واسمو الاطلاع من محققى المؤرخين ؟

« وأما مانيثو (Manetho) المذكور هنا الذي وافقت روايته ما جاء في القرآن الشريف فكان كاهنا لمعبد من أقدم المعابد وأشهرها ، وقد كتب تاريخ مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس في القرن الثالث قبل المسيح وكان من أدق مؤرخي القدماء وأصدقهم ، وقد أخذ بأوثق المصادر وأصحها في كتابة تاريخه ، إلا أن هذا التاريخ قد مع ما فقد في حريق مكتبة الاسكندرية ولم يبق منه سوى مقتطفات في بعض الكتب القديمة اليونانية . وقد أيد أكثر هذه المقتطفات ما اكتشف حديثا من الآثار المصرية والمكتوبات العتيقة مع أن آباء النصرانية كيوسيبوس حرقوا كماداتهم كثيرا مما نقلوه منها لتطابق نصوص العهد القديم كما ذكره العلامة لينج في كتابه « الأصول البشرية » ص ١١ منه » (١)

« وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا » تمام الشرح وصوله إلى آخر حده ، وكلمة الله وعده لبني إسرائيل باهلاك عدوهم واستخلاصهم في الأرض . وفي مجاز الاساس : وتم على أمر مضى عليه ، وتم على أمرك ، وتم

إلى مقصدك : والمعنى نفذت كلمة الله ومضت على بنى إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشرائد التي كابدوها من فرعون وقومه إذ كان وعد الله تعالى إياهم بما وعدهم مفروفاً يأمرهم بالصبر والاستعانة به والتقوى له كما أمرهم نبيهم عليه السلام بنيلها عنه تعالى (راجع) وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا (الآية ، من هذا السياق) ، وإذا كان قد تم وعد الله تعالى لهم بذلك ثم سلبهم الله تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس ، فلم يبق من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى لأنه قد تم ونفذ صدقاً وعدلاً .

وذكرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعملون في التدمير بإدخال الهلاك على السالم والخراب على العاصم ، والعرش رفع المباني والسقائف للنبات . والشجر المتسلق كمراش العنب ، ومنه عرش الملك ، والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولاً وبالذات ماله تعلق بظلم بنى إسرائيل والكيد لموسى عليه السلام ، فالأول كالمباني التي كانوا ينونها للمصريين أو يصنعون اللبن لها ومنها العرج الذي أمره أن يبنيه ليعبر به إلى السماء فيطلع إلى إله موسى ، والثاني كالكيد السحري والصناعية التي كان يصنعها السحرة لإبطال آياته أو التشكيك فيها كما قال تعالى (إنما صنعوا كيد ساحر) (وقال فرعون يا هامان ابنى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب -- أسباب السموات -- فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تناب) والتباب بمعنى الدمار

وأما أسباب هذا التدمير فذلك الصنع والعروش فأولها الآيات التي أيد الله تعالى بها موسى عليه السلام من الطوفان والجراد وغيرهما -- وتسمى في التوراة الضربات وفيها من المبالغة في ضررها وتخريبها ما أشرفنا إليه وذكرنا بعضه -- ويلها إنجاء بنى إسرائيل وحرمان فرعون وقومه من استمتاعهم في أعمالهم ، وثالثها هلاك من غرق من قوم فرعون وحرمان البلاد وسائر الأمة من ثمرات أعمالهم في العمران -- هذا هو المعروف عنهم ، وما ظلمهم الله تعالى بذلك ولكنهم ظلموا أنفسهم فقد أئذروهم موسى عليه السلام كل ذلك ليتقوا سوء عاقبته فكذبوا بالآيات وأصروا على الجحود والاعتات

والعبرة في هذه الآيات من وجهين (الأول) أن يتفكر تالى القرآن في

تأثير الإيمان والوحي في موسى وهارون عليهما السلام إذ تصديا لأعظم ملك في أعظم دولة في الأرض قاهرة لقومهما ومعبدتهما في خدمتهما منذ قرون كثيرة فدعوا إلى الرجوع عن الكفر والظلم والطغيان وتعميد بني إسرائيل وأنذرا وهداه ، وما زالا يكافحانه بالحجج والآيات البينات حتى أظفرهما الله تعالى به وأنقذا قومه من ظلمه وظلم قومه

فجذب بالمؤمنين بالله تعالى ورسوله من المسلمين أن يقتلوا من النفر في هذا إلى التفكير في وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر كما وعد المسلمين إذا هم قاموا بما أمرهم تعالى به على ألسنتهم - وأن لا يستعظموا في هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم ، فان قوة الحق التي نصرها الله تعالى برجل أورجلين على أعظم الدول لا تغلب ، إذا نصرها الله ونجح مئات الملايين والله تعالى يقول (إن تنصروا الله ينصركم) وبقول (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

(الوجه الثاني) أنه تجدد عندنا في هذا الزمان أعظم شقاق بهذه الأرض المباركة المقدسة وهو محاولة اليهود انتزاعها من أيدي أهلها العرب وتنازع الفرق بين في التعارض والتراجع بين وعد الله لكل منهما بهذه الأرض وما أنجزه لكل منهما ، ومن المستحق لها في هذا العصر ، فليتأمل المعتبر في وعد الله تعالى بها لبني إسرائيل من ذرية إبراهيم ثم وعده بها بغيرها للعرب من ذريته على لسان خاتم الرسل صلوات الله عليه وعليةم أجمعين ، وآلهم الصالحين المصلحين . ولعنته وخزيه على الفاسدين المفسدين المصريين . فقد أنجز الله تعالى وعده للفرقيين عندما كانوا متقين ، وأخطأ كل فريق منهم في عصر رسولهم فأديهم الله تعالى بما هو مبصوح في الكتاب المبين أو أذنبوا إسرائيل الذين أخرجهم موسى من مصر أن تكون لهم تلك الأرض ، بغير عمل منهم ولا سعی ، فامتنعوا من قتال من فيها من الجبارين ، قالوا لموسى (إذ ذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون) فخرمها الله تعالى عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض كما عرض الفرور لبعض بني اسماعيل في عصر الرسول الأعظم بما كان من نصر الله تعالى لهم في غزوة بدر مع قلة العدد والعدد الزاد ، وظنوا أنهم ينصرون كما وعدوا ، وإن تصروا فيما أمروا ، فلما أصيبوا بما أصيبوا به في غزوة أحد تعجبوا واستنهبوا ، فأجابهم الله تعالى بما علموا به أن وعده المطلق في قوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) وقوله

(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) مقيد بما في الآيات الأخرى كقوله (ان تنصروا الله ينصركم) (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أجابهم بقوله (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم) إلى آخر ما فصلنا في تفسيرها مع سياقها من الجزء الرابع .

نعم ان الله تعالى أنجز وعده الاول لابراهيم صلوات الله وسلامه عليه بمجمل هذه الارض لذريته ، فجعلها أولاً للمتقين من آل اسحق ، ثم نزعها منهم بظلمهم وافسادهم في الأرض مرة بعد أخرى . ثم اعطاها للمتقين من آل اسماعيل ، ثم انتزع السلطان عليها منهم أيضاً بظلمهم لانفسهم ، وتجدد التنازع في رقبته بين الفريقين - بنى اسرائيل و بنى اسماعيل - باغراء الانكليز ، الذين استولوا عليها وأوقعوا الشقاق بين الفريقين فيها ، وهم أحق الخلق في ضرب الشعوب بعضها ببعض ، وستكون العاقبة لمتقين ، بحسب سنة الله في البشر أجمعين . فلا يفترون قومنا بالادهام ، ولا يشككون على المنجيين بالاقوام ، ولا ينخدعون بعد بشفاشق الكلام ، ولا ينوطن الزعامة بأصحاب الانساب الفاقدين للعلم والاستقامة ، وسائر الأسباب ، ولا سيما من ثبتت موالاتهم لاعداء البلاد وسالبي استقلالها ، وواضعي الخطة الشيطانية لانتزاع رقبتهما من أهلها ، والقضاء عليهم بالانقراض منها ، بتعذر الحياة عليهم فيها ، لا بالابعاد القسرى عنها ، بأن يكون شأنهم في هذا كسكان امريكا قبل استعمار الانكليز وغيرهم لها .

ولا منجاة لعرب فلسطين من هذا الخطر العظيم الآتي من قبل شعبين إثنين هما أشد شعوب الارض قوة وثروة ودهاء وكيدا وعلماً وصبراً وجلاً إلا بتآحدهم مع سائر الشعوب والقبائل العربية على الاستنبسال والاستقتال في الدفاع الحقيقي عن أمتهم وبلادهم . ومع سائر الشعوب الاسلامية في الدفاع المعنوي عن الأرض المقدسة والحرمين الشريفين اللذين لاستقلال لها ولاأمن عليهما ، مع إحاطة هذه القوة الاجنبية بهما ، ولكنهم لم يخطوا خطوة واحدة في طريق الوحدة العربية ، بل خطوا خطوتين واسعتين في سبيل الشقاق والتفرق بين الامارات المسلحة في الجزيرة العربية ، نفروا بهما أكبر الشعوب الاسلامية منهم

(الاولى) موالاته صاحب الحجاز الذي أعان الانكليز على فتح بلادهم ثم

كان هو واولاده مثبثا لاقدامهم فيها جاورها ، وحائلا بينهم وبين سائرهما ، بأن أقروا على انتحاله لنفسه ملك البلاد العربية وعلى سعيه لاختضاع تلك الامارات لحكمه بالائتكال على قوة الغاصب الاجنبية ، فلولا وجود أحد أولاده (عبد الله) في شرق الاردن من قبل الدولة الانكليزية الغاصبة لفلسطين والمنزعة للسيادة العربية منها لآمكن ان يتحد عربها مع عرب نجد الاقوياء على إقناذها ، وكذا أهل العراق الذين سعى الانكليز ولده (فيصل) ملكا عليهم . بل لولا افتقانه هو بما فتونه به من تسميته ملكا للعرب وخليفة على المسلمين ، لما ثبتت في بلاد العرب قدم المستعمرين .

(والثانية) مبايعة جمهور كبير منهم له بالخلافة التي يترتب عليها - لو صحت كما يدعى ويدعون له - انه يجب على تلك الامارات شرعا أن تخضع لحكمه ، والاوجب قتالها واخضاعها بالقوة ، وهل كان في مقدورهم سعى الى شقاق وتفرق شر من هذا ؟ على أنهم كانوا متحدين فانقسموا وصاروا أحزبا متنازعة ، فمسأله تعالى تغيير الحال بخير منها وحسن العاقبة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(١٣٧) وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفِيهِ وَبِأَنَالٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّاكُمُ عَلَى الْعَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَتَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

﴿ قصة موسى مع بني اسرائيل ﴾

هذه الآيات وما بعدها شروع في قصة موسى عليه السلام مع قومه بني اسرائيل معطوفة على قصته مع فرعون وقومه على أكل وجوه العبرة مع السلام من لغو القصص والتاريخ . قال عز وجل :

﴿ وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾
 قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴿ جاز الشيء وجاوزه وتجاوزته عداه
 وانتقل عنه . والعكوف على الشيء الاقبال عليه وملازمته على سبيل التعظيم ، ومنه
 العكوف والاعتكاف في المسجد وهو ملازمته لأجل العبادة . قرأ حمزة والكسائي
 يعكفون بكسر الكاف من باب جلس يجلس والباقيون بضمها من باب قعد يقعد .
 والأصنام جمع صنم وهو ما يصنع من الخشب أو الحجر أو المعدن مثالا لشيء حقيقي
 أو خيالي أو مذكرا به ليعظم تعظيم العبادة ، واتخذ بعض العرب في الجاهلية صنما من
 عجوة التمر فعبده ثم جاءوا فأكلوه . والفرق بينه وبين التثال أن هذا لا بد أن يكون
 مثالا لشيء . وأنه قد يكون للعبادة وحينئذ يسمى صنما وقد يكون للزينة كالذي تراه
 على جدران بعض القصور المشيدة أو أبوابها أو في حدائقها ، وقد يكون للتعظيم
 والتكريم غير الديني كتمثيل التي تنصب لبعض الملوك وكبار علماء الدنيا أو القواد
 والزعماء للذكور بشاريحهم وأعمالهم الاقتداء بهم ، ويكثر هذا في بلاد الافرنج وقلدهم
 بعض بلاد الشرق كصرى ، فنصبت حكومتها تمثيل لبعض امراء بيت الملك الحاضر
 وغيرهم من رجالهم . والفرق بين هذا التعظيم السياسي أو العلمى وبين تعظيم العبادة
 أن الغرض من الأول إمارعة شأن الدولة وتمكين سلطانها في أنفس الأمة بمشاهدة
 صور ملوكها وكبراء رجالها وتماثيلهم وهو قصد سيادى صحيح عند أهلها - وإما بهت
 شعور حب العلم والاقتداء بالعلماء والأدباء والزعماء الذين انفعوا أممتهم عسى أن
 يوجد في المستعدين من يكون مثلهم أو خيرا منهم ، وهو قصد اجتماعى صحيح
 عند علماء التربية ، وأما تعظيم العبادة فالغرض منه التقرب من المعبود وطلب ثوابه
 بدفع ضرر أو جلب منفعة من طريق الغيب لا الكسب والتعاون عليه من طريق
 الأسباب العامة . فتعظيم الشيء الذى يعتقد أن له ساطعة غيبية أو تعظيم ما يذكر به
 من صورة أو تمثال أو قبر أو ثوب أو غير ذلك من آثاره لأجل التقرب إليه وقصد الانتفاع
 به في الآزور التي لا تتال بالأسباب العامة - وهى ملا يطالب إلا من الله تعالى - أو
 لأجل التقرب إلى الله تعالى بجهاده - كل ذلك عبادة ظاهرة ، فان قصد المظم لذلك
 الشيء أو لما يذكر به الانتفاع به نفسه بما ذكر بما ذكر من التماثيل بالقول كاللغاة الاستغانة
 أو بالفعل كالطواف بتمثاله أو قبره وتقبيله والتبرغ بارضه - كانت العبادة خالصة

له من دون الله ، وأن قصد التقرب به إلى الله تعالى ليحمله بجناحه على إعطائه ما يريد كانت العبادة له والله تعالى بالاشتراك ، وعلمنا من مظاهر الشرك الجلي التي لا يخرجها تغيير التسمية عن كونها كفراً وشركاً

﴿ استعزاد فقهي ﴾

حظر الشرع الإسلامي نصب التماثيل لأنها إما شرك أو ذريعة إليه أو تشبه بأهل وهي على هذا الترتيب في التدلي ، فأغظها أولها وأخفها ثالثها ، ولاتشبه درجات في الحظر أشدها ما كان في أمور الدين فإنه قد يكون كفراً ، وأهونها ما كان في العادات وأمور الدنيا فتجنب منه ما لنا غنى عنه وما كان نافعا غير ضار بنفسه لا نأخذه بقصد التشبه فقط لأن لا يكون إلا من تعظيم المنتسب لغير أهل ملته وهو يتضمن أو يستلزم احتقارها أو احتقارهم والشهور بأنهم دونهم ، وأما اقتباس العلم والحكمة والفنون والصناعات النافعة لأجل منفعتها بقدرها فليس من التشبه ولا من تفضيل المنتسب منهم على أهل ملته لأن هذه الأمور ليست من أمور الدين ولا اقتبست لأجل التعظيم بل لغايتها ، وقد تكون هذه الفائدة مما تعتز به ملّة المنتسب المستفيد وأهلها ، ومن ذلك أخذ النبي (ص) عمل الخندق عن الفرس إذ أخبره سلمان (رض) عنهم بذلك وقد يكون هذا الأخذ واجباً شرعاً ومنه أخذنا لغنون الحرب وصناعاتها وآلاتها عن الأفرنج إذا تقنوها قبلنا ، فهو فرض كفاية بلا نزاع فالأمة الحية تقتبس كل شيء نافع يغذي حياتها يزيد قوتها وعزة ، وتقتفي في ذلك كل ما فيه ضعف لها في قومائها أو مشخذياتها ولا سيما إذا كان فيه تفضيل لخصومها أو غيرهم عليها ، وقد فطن اليابان لهذا القاعده فحفظوا على شؤونهم المالية والقومية عند اقتباسهم لعلوم الفرنجة وفنونها فصاروا مثلهم في ثلث قرن . وغفل عنه الترك والمصريون فأضاعوا من ملكهم وليس في نصب التماثيل فائدة ومنها ذات بال لا تحصل بغيرها تبسح للمسلمين تقليد الوثنيين والنصارى فيها ولو في جعلها لغير رجال الدين بعدا عن شبهة عبادتها ، ومن ذا الذي يأمن هذا وقد عبدت قبور الأولياء وأئمة آل البيت كما عبد غلاة الشيعة من الباطنية أشخاصا منهم أحياء وأمواتا ، ونرى الشيعة المعتدلين الذين استباحوا نصب التماثيل غير الدينية قد أخذ بعضهم في هذه الأيام عملا لأمبر المؤمنين على كرم الله وجهه في بلاد إيران كما نقلت صحف الأخبار عنهم . وأما الصور فلها فوائد في الحرب وحفظ الأمن وتحقيق معاني اللغة وكثير من العلوم ولا سيما

الطب والتشريح ... فلا يحظر منها ما ليس عبادة ولا تشبيها بعبدة الأصنام بدليل ما ثبت في السنة الصحيحة من أمر النبي ﷺ بهتك القرام (الستار) الذي نصبت (عائشة) في حجرتها إذ كان على هيئة الصور والتمائيل المعبودة فلا جعلت منه وسادة كان ﷺ يستعملها وفيها الصور إذ كان الانكاء والنوم عليها أمهانا لا تعظما ولا يشبه التعظيم الوثني وقد حققنا هذا البحث ببيان ماورد فيه من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء في فتاوى المنار . واد

عود إلى تفسير الآية

معنى النظم الكريم « وجاوزنا بني إسرائيل البحر » أنهم تجاوزوه بعنانيه سبحانه وتأييده إياهم بفتح البحر ، وتيسير الأمر ، حتى كأنه كان معهم بذاته فجاوزه مصاحبا لهم ، أو المعنى أننا أيدهم ببعض ملائكتنا ، فجاوز بهم البحر بأمرنا ، فمن اليهود في اللغة أن ينسب إلى الملوك ورؤساء القواد ما يفعله بعض أتباعهم بأمرهم ، وما يقع بجاههم وقوة سلطانهم ، ويجوز الجمع بين المعنيين ، ففرق البحر بهم كان بعناية الله وقدرته . وفي آخر الفصل الثالث عشر من سفر الخروج ذكر خبر ارتحال بني إسرائيل وقال « ٢٠ » وكان الرب يسير أمامهم نهارا في عمود من غمام ليهدئهم الليل بقديلا في عمود من نار ليهضي لهم ليلهم نهارا وليلا (٢١) لم يبرح عمود الغمام نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب » ثم جاء في الفصل الرابع عشر منه بعد ذكر اتباع فرعون ومن معه بني إسرائيل « ١٩ » فانتقل ملاك الله السائر أمامهم إلى بني إسرائيل فصار وراءهم وانتقل عمود الغمام من أمامهم فوقف وراءهم (٢٠) ودخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل فكان من هنا غماما مظلمة ، وكان من هناك بنير الليل ، فلم يقترب أحد من الفريقين طول الليل » هذا بعض ما جاء في التوراة مما يصح أن يكون تفسيرنا لقوله تعالى في القرآن « وجاوزنا بني إسرائيل البحر » قالباء هذا المصاحبة كتبتك سافرت به وجئت به » وإسناد المسير في عمود الغمام إلى الرب مجازي كقوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) « فأنوا » عقب تجاوزهم إياه ودخولهم في بلاد العرب من البر الاسيوى « على قوم يكفون على أصنام لهم » يعبدونها ، فإذا كان من شأنهم إذ رأوهم يعبدون غير الله تعالى كالمصريين الذين أقدمهم الله تعالى منهم ، وأراهم آياته على وحدانيته فيهم ؟ هل استهجنوا شرهم وأنكروه كما هو

الواجب عليهم والمعقول ممن رأى ما رأوا من سوء مصير المشركين ، وحسن عاقبة
 الموحدين ؟ الجواب أنهم لم ينكروه بالاستهزاء بقلوبهم ، بل « قالوا يا موسى اجعل لنا
 إلهاً كما لهم آلله » حينئذ منهم إلى ما ألفوا في مصر من عبادة آلهة المصريين وتمثيلها
 وأنصابها وقبورها ، فعمل بهذا الطلب أنهم لم يكونوا فهموا التوحيد الذي جاء به موسى
 كما فهمه من آمن من سحرة المصريين ، لأن السحرة كانوا من العوام فأمكنهم التمييز
 بين آيات الله تعالى التي لا يقدر عليه غيره وبين السحر الذي هو من صناعات البشر
 وعلومهم ، وأما هؤلاء الإسرائيليون فكانوا من العامة الجاهلين الذين بل الذل أفهامهم
 وإنما اتبعوا موسى لانقاذهم من ظلم فرعون وتعبيده لهم ، لا لفهمهم حقيقة التوحيد
 بالآيات الدالة عليه ، ولذلك قيل إنهم بعض القوم لا جميعهم ، فالنوحيد المحض الخالص
 من شوائب الشرك والوثنية هو غاية ما يرتقى اليه عرفان البشر ، وهو المراد من قوله
 تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) على القول بأن اللام للغاية ، وهو لا يقتضي
 حصوله لكل فرد منهم ، ولو عقل جميع بني إسرائيل كنه التوحيد لما وقع من تبرمه
 بالتكاليف وتوهم على موسى عليه السلام ما قصه الله تعالى علينا في كتابه ، وفي التوراة التي
 لديهم من الزيادة عليه والتفصيل له ما هو من مواطن العجب ، وقد ابتلاه الله تعالى
 ورأى بهم بالحسنات والسيئات ، وحرم الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة يقيمون في
 الأرض ، حتى انقضى ذلك الجيل الذي نشأ في حجر الوثنية ، وشب أو اكتمل أو شاخ
 في ذل العبودية الفرعونية ، وقد رأينا نموذجاً لذلك في طوائف من أممنا ولدوا في عهد
 الظلم وشبوا في حجر النفاق والفسق ، فسنحت لآلهم بشؤون الاحتماء والعمران
 فرص متعددة كان يرجى أن يمرروا فيها أنفسهم من رقها السياسي ويستقلوا بآمرهم
 فأضاعوها واحدة بعد أخرى ، وكان هذا من غير التاريخ التي تثبت أن فلاح الأمم
 بأخلاقها وعقائدها ، وأن العلم الناقص شر من الجهل المطلق وأن العلم الصحيح في
 الرجل أو الشعب الفاسد الأخلاق كالسيف في يد المجنون ربما جنى به على صاحبه
 أو على نفسه ، وربما نصر به عدوه

ولم يبين لنا كتاب الله تعالى ولا رسوله ﷺ شيئاً من أثر القوم الذين
 أتى عليهم بنو إسرائيل عقب خروجهم من مصر إلى أرض العرب ، والظاهر أنهم
 من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر . روى عن قتادة أنهم من عرب
 تخم وعن أبي عمران الجوني تخم وجدام . وعن ابن جرير أن أحسابهم كانت

تمثال بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر فذاك كان أول شأن العجل لتكون لله عليهم حجة فينتقم منهم بعد ذلك (أقول) ولم يكن ابن جريج يعلم أن قدماء المصريين كانوا يعبدون عجلا اسمه (أبيس) وكان بنو اسرائيل يعبدونه معهم كغيره من معبوداتهم ، ويرون تماثيله منصوبة في معابدهم ، وأن السامري لم يصنع لهم العجل بعد ذلك إلا لما كان من إلفهم لعبادته ، وتأثر أعصابهم بما ورثوا من مظاهر روعته ، ولذلك قال تعالى فيهم (وأشر بوا في قلوبهم العجل يكفرهم) والمراد عجل السامري ، وقد علل اشراهم بإياه في قلوبهم بما كان من كفرهم السابق أي بالوراثة المتعاقلة في النفس بطول الزمان وتعاقب الأجيال ، فذلك الذي يطول تأثيره في الأعقاب والانسال . ألم تر إلى ما استحدثه بعض المبتدعة في الاسلام ، وقادهم فيه بعض الملوك من المنسوبين إلى السنة : من تشييد القبور ، وتزيينها بالعمائم والستور ، وبناء القباب فوقها ، واتخاذها مساجد يصلون إليها أولادها ، وإيقاد السرج والشموع عليها ، أنه قد جعل لها مكانة دينية كبيرة في قلوب عامة المسلمين حتى صارت عندهم من شعار الدين ، بحيث يعدون من روى لهم الأحاديث الصحيحة في لعن الله ورسوله لمن يفعل ذلك مبتدعا فيه أو مارقا منه ، وينهزونه في بعض البلاد بقلوب « وهابى » إذ كانت طائفة من الحنابلة في بلاد العرب سميت الوهابية قد عمدوا إلى إزالة هذه المنكرات بأيديهم ، لما لم يؤثر في إزالتها انكار علماء السنة المصلحين لها بالسنتهم وأقلامهم ، عملا بقوله ﷺ « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه » وذلك أضعف الايمان « يعني الانكار بالقلب وحده ، ولو مع العجز عما فوقه . والحديث رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدري إذا علمنا هذا الشأن من شؤون الضمف البشرية فلا نعجب أن روى عن بعض حديثي العهد من الصحابة بالإسلام ، مثل ما طلب بنو اسرائيل من موسى عليه السلام ، بما كان من تأثير مظاهر الوثنية في قلوبهم : روى أحمد والنسائي وأكثر مصنفى التفسير المأثور عن أبي واقد الليثي قال « خرجنا مع النبي ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط ، كما لا تكفار ذات أنواط فقال : الله اكبر ، هذا كما قالت بنو اسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهكما لهم ألهة) لتركون سنن من قبلكم » وروى نحوه ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني

عن كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده مرفوعاً وذكر أن المكان الذي طلبوا فيه ذلك بين حنين والطائف . والعبارة في هذا أن المسلمين الآن ذوات أنواط في بلاد كثيرة كشجرة «الست المنذرة» وشجرة الحنفي بمصر ، ونحو من ذلك ما اتخذوه من القبور والأشجار والأحجار والآبار يكتفون عابها ، ويطوفون حولها ، ويقبلونها ويتمرغون بأعتابها ، ويتمسحون بها خاضعين ضارعين . خاشعين داعين راجين شفاء الأدواء ، والانتقام من الأعداء ، والغنى والثراء ، وحبل العقيم ، ورد الضالة ، وغير ذلك من التمتع وكشف الضر ، خلافاً لنصوص كتاب الله عز وجل . ولكنهم لا يعلمون أنها تسمى في اللغة العربية آكلة ، وأن جل ما يأتونه عندها يسمى عبادة ، وأنه شرك جلي لا يغفر ، ولا فرق بينه وبين شرك عرب الجاهلية وأمثالهم إلا الاختلاف في التسمية ، فأولئك كانوا يسمون الأشياء بأسماء الأنهم أهل اللغة ، وهؤلاء تحاموا إطلاق لفظ الآله والمعبود والعبادة في هذا المقام ، واستباحوا غيرها من الألفاظ كالأولياء ، والشهداء ، والوسيلة ، والتوسل وهي مشتركة أيضاً ولكنها استعملت في الاسلام بغير المعاني التي كانت تستعمل بها في الجاهلية ، كأن الله تعبد الناس بإطلاق الألفاظ دون حقائق المعاني . وحقيقة معنى العبادة وفي اللغة العربية وكذا في غيرها من اللغات يشمل كل قول أو عمل يوجه إلى معظم يرجى نفعه أو يخشى ضرره وحده . وهذا توحيد له أو يرجى ويخاف بالتأثير عند الله تعالى . وهذا هو الشرك . بشرط أن يكون هذا الرجاء أو الخوف منه لامر غيبي خارج عن الأمور الكسبية والأسباب الدنيوية ، وقد سبق شرح هذا آفاقه مراراً ، ويظن أهل العلم يكتب الفقه والكلام الذين لم يطلعوا على ملل الوثنيين أنهم يعبدون الأصنام وغيرها من المخلوقات التي يشيرون بها إلى أنها وأنهم يعتقدون أنها تضر وتنفع بقدرتها وإرادتها ، والصحيح أنهم يتوسلون بها إلى الخالق كما حكى الله تعالى عن مشركي قريش وغيرهم ، وقد سمعت هذا من بعض علمائهم في الهند .

ماذا كان جواب موسى عليه السلام لما قال إنكم قوم تجهلون بخصوصهم بالجهل المطلق غير متعلق بشيء وهو على طريقتنا وطريقة ابن جرير والخصائص يشمل كل ما يصلح له من الجهل الذي هو فقد العلم والجهل الذي هو سفة النفس وطيش العقل ، وأهمه المناسب للام جهل التوحيد وما يجب من أفراد الرب

تعالى بالعبادة من غير واسطة ، ولا التقيد بمظهر من المظاهر يتوجه إليه معه ، ولا سجا مظهر الأصنام والتماثيل لبعض الخلق التي أغتر الجاهلون من قبل ينفعها أو الخوف من ضررها ، فالأول كالكماء كب والنيل والعجل أيس ، والثاني كالشعبان . ثم جهل ما كرم الله تعالى به البشر فجعلهم أهلاً لمعرفة ودعاء بمناجاته كفاحاً بغير واسطة يقربهم إليه فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد ، وهو الاحد الصمد الذي يتوجه اليه ويقصد وحده ، ولذلك قال إماما الموحدين ، ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حقيقاً وما أنا من المشرِكين)

وهذا النوع من الجهل هو الذي قال الله تعالى فيه (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) واسناد الجهل إلى القوم أبلى من إسناده إلى ضمير المخاطبين ، لأنه حكم على جماعتهم بما هو كالتحقق المعروف من حالهم ، الذي هو علة لمقالتهم ، يدخل فيه الذين سألوه ذلك منهم دخولا أولياً .

وبعد أن ذكرهم بسوء حالهم من جهلهم وسفاهة أنفسهم بين لهم فساد ما طلبوه في نفسه عسى أن تستعبد شقوهم لفهمه واستبانة قبحه ، فقال بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل والدليل (إن هؤلاء متبر ما هم فيه باطل ما كانوا يعملون) التبرار والتبر الهلاك والتبدير الاهلاك والتدمير . يقال تبر الشيء من باني تعب ونصر ، وتبره - بالتشديد : أهلكه ودمره . أي أن هؤلاء القوم الذين يكفرون على هذا الأصنام ، يقضى على ما هم فيه بالتبرار بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الأيام ، وباطل ما كانوا يعملون من الأصنام ، وعبادة غير الله ذي الجلال والإكرام ، أي هالك وزائل لا بقاء له ، فإتباعه الباطل في ترك الحق نه أو بعده عنه ، وهذا يتضمن البشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض ، وكذلك كان .

قال البغوي في تفسيره : إن طلب بني إسرائيل للآلهة لم يكن عن شك منهم بوحدانية الله تعالى ، وإنما كان غرضهم إلهاء أعظمونه ويتقربون بتعظيمه إلى الله تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة ، وكان ذلك جهلهم كما آذنت به الآيات .

وقال الرازي : اعلم أن من المستحيل أن يقول الماقل لموسى (اجعل لنا إلهاً كالم آلهة) وخالفاً مدبراً ، لأن الذي يحصل بجعل موسى وتبديره لا يمكن أن يكون خالفاً للعالم ومدبراً له ، ومن شك في ذلك لم يكن كامل العقل .

والأقرب أنهم طلبوا من موسى أن يعين لهم أصناما وتماثيل يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى ، وهذا القول هو الذي حكاه الله تعالى عن عبدة الأوثان حيث قالوا (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) إذا عرفت هذا فلتأمل أن يقول : لم كان هذا القول كفرا ؟ فنقول : أجمع كل الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى ، كفر سواء اعتقدوا في ذلك الغير كونه إلهاً للعالم أو اعتقدوا فيه أن عبادته تقربهم إلى الله تعالى — لأن العبادة نهاية التعظيم ، ونهاية التعظيم لاتليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الانعام والاکرام .

ثم قال بعد أن جزم بأن هذا القول صدر عن بعضهم لا كلهم وأنه كان فيهم من يترفع عنه مانصه : ثم إنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه أجابهم فقال : (إنكم قوم تجهلون) وتقرير هذا الجهل ماذكر من أن العبادة هي غاية التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الانعام ، وهي بخلق الجسم والحياة والشهوة والقدرة والعقل وخلق الأشياء المنتفع بها ، والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن لاتليق العبادة إلا به (فان قالوا) إذا كان مرادهم بعبادة تلك الأصنام التقرب بها إلى تعظيم الله تعالى فما الوجه في قبح هذه العبادة ؟ (قلنا) فعلى هذا الوجه لم يتخذوها آلهة أصلاً وإنما جعلوها كالأقربة ، وذلك ينافي قولهم (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) اهـ

أقول : من المعجب أن يقع امام النظار في علم العقائد على طريقة الفلاسفة والكلام في مثل هذا الخطأ في أسئلته وأجوبته والتناقض في كلامه ، ومنشأ هذا الخطأ الغفلة عن مدلول ألفاظ القرآن في اللغة العربية واستعمالها بلوازم معناها العرفية كلفظ « الاله » فإن معناه في اللغة المعبود مطلقاً لا الخالق ولا المدبر لأمر العالم كله ولا بعضه ، ولم يكن أحد من العرب الذين سموا أصنامهم وغيرها من معبوداتهم آلهة يعتقد أن اللات أو المزي أو هبل خلق شيئاً من العالم أو يدبر أمراً من أموره ، وإنما تدبر أمور العالم يدخل في معنى لفظ الرب .

والشواهد على هذا في القرآن كثيرة ناطقة بأنهم كانوا يمتقدون ويقولون إن خالق السموات والأرض ومدبر أمورها هو الله تعالى وإن آلهتهم ليس لها من أمر الخلق والتدبير شيء ، وإن شركهم لأجل التقرب إليه تعالى وابتغاء الشفاعة عنده بعبادة ما عبدوه ، ولذلك كانوا يقولون في طوافهم : لبيك لا شريك لك ،

إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . ولذلك يحتاج القرآن عليهم في مواضع بأن غير الخالق المدير لا يصح أن يكون إلهاً يعبد مطلقاً ، وهو معنى قول بعض المحققين : إنه يحتاج بما يترفون به من توحيد الربوبية ، على ما ينكرون من توحيد الإلهية ، وإذا كنا بيننا هذا مراراً بالشواهد نكتفي بهذا التذكير هنا .

ثم إن عبادة طلاب الأصنام من بني إسرائيل لم تنقل إلينا بنصها في لغتهم . فنبحث فيها خطأ أم صواب . وإنما حكاهما الله تعالى لتأنيده كتابه فمعاها صحيح قطعاً ، فإن الإله في هذه اللغة هو المعبود بالذات أو بالواسطة وإن كان مصنوعاً وإنما جهلهم موسى بطلب عبادة أحد مع الله لا بتسمية ما طلبوا منه صنعه إلهاً فإنه هو معنى المعبود المصنوع إلهاً أيضاً في قوله للسامري الذي حكاه الله عنه في سورة طه (وانظر إلى إلهك الذي ظلمت عليه عاكفاً لغيره) الآية وإنما كان عجل السامري من صنعه - وإن جميع من عبدوا الأصنام من قبلهم ومن بعدهم كانت أصنامهم مجعولة مصنوعة متخذة من هذه المخلوقات كالخجر والخشب والمعدن . أنسى امام النظر وصاحب التفسير الكبير ما حكاه الله تعالى من تسمية قوم إبراهيم لأصنامهم بالآلهة ؟ أم نسي ما حكاه الله من حجته عليهم بقوله (قال أتعبدون ما تعبدون ، والله خلقتكم وما تعملون ؟) ومن حاجته إليهم بقوله (٢٦ : ٢٤-٢٦) وأنت عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لا يبيد وقومه : ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * وجملة القول أن هذا القول الذي قاله الرازي من أظهر هفواته الكثيرة بطلاناً وسببها متلاءم ما عفا الله عنه بنظريات الكلام وجدل الاصطلاحات الحادثة ، وغفلته عن معنى الآله في أصل اللغة ، ومن آيات القرآن الكثيرة فيه . ومنها قوله : ﴿ قال أغير الله

أبغيتكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾ أي قل لهم موسى أطلب لكم معبوداً غير الله رب العالمين وخالق السموات والأرض وكل شيء والخال أن فضلكم على العالمين ، بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين ، على ملة إبراهيم وسنة المرسلين ، فإذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه ؟ والاستفهام في الآية للإنكار المشرب معنى التعجب ، وإنما هو إنكار ابتغاء إله غير الله المستحق وحده للعبادة ، لا إنكار تسمية المعبود المصنوع إلهاً ، و«أبغى» ينصب مفعولين بنفسه كقوله تعالى (يبغونكم الفتنة)

بدأ موسى عليه السلام جوابه لقومه بأثبات جهلهم برهم وبأنفسهم ، وثنى
ببيان فساد ما طلبوه ، وكونه عرضة للتباز والزوال ، وباطلا في نفسه على كل حال ،
فلا الطالب على علم وعقل فيما طلب ، ولا المطلوب مما يصح أن يطلب (ضعف
الطالب والمطلوب) فهذا ملخص معنى الآية السابقة .

ثم انتقل في هذه الآية إلى المطلوب منه جعل الإله لهم - وهو هو عليه السلام -
والمطلوب لأجله هذا الجمل - وهو الله تعالى - وموسى على الحق ، والله تعالى هو
الحق والذي يحق الحق ، وبين هذين الحقيين وذئك الباطلين غاية المباشرة فلذلك
كان هذا جوابا مستقلا مبينا لما قبله بحيث لا ينبغي أن يعطف عليه عطفا ، ولا
أن يعد معه عدا ، ولهذا أعاد فيه كلمة « قال » كما سنبينه . وقد قدم فيه ذكر
الأهم الأفضل المقصود بالذات من هذين الحقيين ، فقال (أغير الله) فغير الله أعم
الالفاظ الدالة على المحدثات فهو يشمل أخس المخلوقات وأعجزها عن النفع والنضر
كالأصنام ، ويشمل أفضلها وأكملها كالملائكة والنبين عليهم السلام ، ليثبت أنه لا يوجد
مخلوق يستحق العبادة مع الله تعالى وإن علاقده ، وعظم أمر . وأن تجهلهم بما
طلبوا لا لأن المطلوب كالأصنام خسيس وياطل في نفسه ، وعرضة للتباز فلا فائدة
فيه غيره ، - لا لهذا فقط - بل لأن العبادة لا يصح أن تكون لغير الله تعالى البتة ،
مهما يكن غيره مكرما عنده ، ومفضلا على كثير من خلقه ، على أن طلب عبادة
الأخس ، دليل على منتهى الخسة والجهل ، إذ لا شبهة توهم قدرته على الانابة أو
التقريب من الله عز وجل ، كشبهة من عبدوا الملائكة وبعض النبين والصالحين
زاعمين أنهم بكراتهم عند الله يقر بون إليه من قصر به إيمانه وعمله أن يتقرب
إليه بنفسه ، مع إصراره على خبثه ورجسه ، جاهلين أن الله تعالى أمر المشركين
والفاسقين ، أن يتوبوا أي يرجعوا إليه لا إلى غيره من عباده المكرمين ، وأن
يدعوه وحده كدعائهم مخلصين له الدين ، وأن يخصوه مثلهم بالعبادة والاستعانة .
وذلك ما فرضه علينا في صلاتنا بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين)

وبعد أن قدم المقصود بالذات من الانكار وهو جعل غير الله إلها ذكر من
أرادوا أن يكون الواسطة في هذا الجمل ، الذي دعا إليه ذلك الجهل ، وهو
نفسه عليه السلام بقوله (أبغيتكم إلها) ليعلمهم أن طلب هذا الأمر الأمر

والشيء الأدب ، والمنكر القطيع منه عليه السلام جهل بقيمته ، وبعنى رسالته ، وبما رأوه من جهاده لفرعون وقومه ، من غير حول ولا قوة له فى شخص أخيه ولا فى شخصه ، بل بالانكسار على حول الله وقوته ، ولولا إرادة انكار الأمرين معاً : طلب الله مع الله ، وكونه يجعله عليه السلام — لقال : أغير الله تبغون إلهاء كقوله تعالى (أفغير دين الله يبغون ؟)

ثم أيد هذا الإنكار بما يعرفون من آيات الله تعالى فيهم ، وهو تفضيلهم على أهل زمانهم ، فقد كان أرقى الناس فى ذلك العصر فرعون وقومه بما أوتوا من العلم والقوة والحضارة وسعة الملك ومن السيادة على بعض الشعوب ، وقد فضل الله بنى إسرائيل عليهم ، برسالة موسى وهارون منهم ، وتجديد ملة إبراهيم فيهم ، وإيثارهما من الآيات ما تقدم بيانه وأثره فى السياق الذى قبل هذا ، وقيل : إن المراد تفضيلهم على العالمين مطلقاً بكثرة الأنبياء والمرسلين منهم ، والأول أظهر ، لأنه عليه السلام احتج عليهم بما عرفوا فيبعد أن يراد به تفضيلهم على القرون الأولى وأقوام رسلهم وعلى من سبأى بعدهم وحال كل منهما مجهول عنده وعندهم ، فقد سأل فرعون موسى عن القرون الأولى فقال (علمها عند ربى) والقرون الآخرة بذلك أولى . وأنت إذا قلت لغنى أو عالم إنك أغنى أو أعلم الناس ، أو الملك : إنك أقوى الملوك ، أو فى شعب إنه أرقى الشعوب — فإن أحداً لا ينهم من مثل هذا تفضيل من ذكر على غير أهل زمانهم ، ولا سيما من أتى بعدهم ، وأهل الحضارة فى زماننا يعتقدون أن الأجيال الآتية سيكونون خيراً من هذا الجيل ، وكان موسى يعلم أن هداية الدين سترقى إلى أن تكمل برسالة خاتم النبيين ، ولكنه أتى هذا العلم بما أوحاه الله إليه فى التوراة ولم يكن نزل منها شيء عند طلب بنى إسرائيل منه ماذا كر

والدليل على أن المراد بتفضيلهم على العالمين ماذا كر أنه عطف عليه أعظم مظاهره

الحديثة العهد بقوله ﴿ وإذ أنجبناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلك بلاء من ربكم عظيم ﴾ قرأ ابن عامر (وإذ أنجبناكم) على أنه من مقول موسى عليه السلام قطعاً والباقيون (أنجبناكم) ، وذكر رافيه احتمالين (أحدهما) وهو الأظهر والمتبادر أن يكون مستنداً إلى الله تعالى متصلاً بكلام موسى ومبيناً المراد منه على طريقة الالتفات عن الحكاية عنه . ولهذا الالتفات نظائر فى التنزيل وفى كلام بلغاء العرب ، ومنه قوله تعالى فى قصة موسى من سورة طه (الذى حفظ

لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) الخ فأول الآية من قول موسى في جواب فرعون وقوله «فأخرجنا» التفتت عن الحكاية وانتقال إلى كلامه تعالى عن نفسه خاطب به من أنزل إليهم هذا الوحي من خلقه، تنبيههم بتلوين الكلام، وبما في مخاطبة الرب لهم كفاها من التأخير الخاص إلى كونه هو المسدى لهذا الانعام، واقتصر بعض المفسرين على أن المخاطب بهذه القراءة من كان من بني إسرائيل في زمن النبي ﷺ فأطاعت قراءة ابن عمر أن موسى قالها له في ذلك الوقت، وأطاعت قراءة الآخرين أن عمداً ﷺ ذكر بها قوم موسى في زمنه كما تقدم في سورة البقرة وهذه فائدة الجمع بين القراءتين وهي من إعجاز إيجاز القرآن (الثاني) أن قراءة الالتفات من جملة الحكاية عن موسى (ع . م) أسند الانجاء فيها إلى الله تعالى مع حذف القول للعالم به من القرينة أو بدونه أو إلى نفسه وحده أجمع أخيه للاشارة إلى جعله تعالى هذا الانجاء بسبب رسالتهم وتأنيده تعالى لها بتلك الآيات والمعنى واذكروا إذا أنجيناكم من الله تعالى بفضل — أو إذا أنجيناكم بإرساله تعالى إيانا لأجل ذلك وما أيدنا به من الآيات من آل فرعون حال كونهم يسومونكم سوء العذاب يجعلكم عبيداً مسخرين لخدمتهم كالبهائم فلا يعدونكم منهم، وخص بالذكر من هذا العذاب شر أنواعه بقوله: يقتلون ما يولد لكم من الذكور ويستبقون نساءكم بترك الإناث لكم لتزدادوا ضعفاً بكثيرين — وهذا يدل بعض من كل وفي ذلكم العذاب والنجاء منه بفضل الرب الواحد عليكم وتفضيله إيانكم على أولئك الغالين في الأرض وعلى غيركم كسكان البلاد المقدسة التي سترثونها بلاء عظيم أي اختبار لكم من ربكم المنفرد بتربيتكم، وتدبير أموركم ليس وراءه بلاء واختبار، فإن أجدر الناس بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان، من يعطي النعمة بعد النعمة، وأحق الناس بمعرفة وحدانية الله تعالى وإخلاص للعبادة له من يرى من آياته في نفسه وفي الآفاق ما يوقن به أنه لا يمكن أن يكون لغيره شراكة فيه أي فكيف يطلبون بعد هذا كله ممن رأيتهم هذه الآيات على يده وليس له فيها أقل تأثير أن يجعل لكم إلهاً من أخس المخلوقات يجعلونه واسطة بينكم وبين الله تعالى، وهو قد فضلكم عليها وعلى عابديها ومن هم أرقى منهم ؟

وقد غفل الشهاب الخفاف عن كون تفضيلهم على العالمين لم يكن إلا بدعوة

التوحيد المؤيدة بتلك الآيات ، فزعم أن الاحتجاج به خطابي ، لا برهان عقلي ، واعتذر عن عدم احتجاج موسى ببرهان القانع بأنهم من العوام ، وهو لا ينكر أن تلك المعجزات من البراهين القطعية ، وإن اختلف المتكلمون في دلالتها ، هل هي عقلية أو وضعية ، وغفل أيضا عن كون برهان القانع انما يحتاج به على المشركون في الربوبية دون العبادة فقط . وقد تعقبه في هذا الالوسى فقال : وفي إقامة برهان القانع على الوثنيين القائلين (مانعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) والمجيبين إذا سئلوا : من خلق السموات والأرض ؟ يخلقهن الله - خفاء ، والظاهر إقامته على الثنوية كما لا يخفى اهـ ووجه أن الثنوية يقولون بوجود ربين إلهين اشتركا في خلق العالم وتدبير أمره أحدهما رب النور والخير ، والثاني رب الظلمة والشر ، ويحتاج عليهم بأنقلو كان في العالم خالقان مديران أو أكثر لا يمنع أن يوجد فيه نظام يصلح به أمره إذا فرض جواز وجوده ، لأن تعدد المدبرين لأمر الشيء كتعدد الخالقين يقتضى تعدد العلم والإرادة والقدرة التي يكون بها التدبير ، والخلق والتقدير ، وتتمدها يقتضى التغاير والاختلاف فيها وإلا فلا تعدد ، وهذا الاختلاف يقتضى التعارض في متعلقاتها بأن يتعلق بعضها بغير ما يتعلق به الآخر من ضد وقيض ، وأى فساد في النظام وموجب للاختلال أشد من هذا ؟ وإنما قلنا إذا جاز وجوده لأن الإشارة إلى البرهان في قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) قد بنى على أن السموات والأرض موجودتان والنظام فيهما مشاهد بالابصار والبصائر ، وكما يتمتع استقامة النظام وصلاح التدبير الصادر عن علوم وإرادات قدر مختلفة متعارضة ، كذلك يتمتع صدور الكون نفسه عنها بالاولى

وفي الآية التي قبل الأخيرة من نكت البلاغة انه أعيد لفظ « قال » في أولها لما أشرنا إليه من أن هذا جواب مستقل لا يشترك مع ما قبله في عطف عليه ، ولا هو معه من قبيل سرد الصفات أو الأعداد التي يطلب فيها الفصل . أى كقوله تعالى (النائبون العابدون السامعون الراكون الساجدون) الخ وقولهم : الأول كذا - الثاني كذا الخ ، فلم يبق إلا إعادة « قال » لامتناع الفصل والوصل كليهما بدونها ، وأن تكون « قال » مفصولة لامعطوفة لإفادة هذا الاستقلال في الجواب ، إذ لا فرق بين عطف القول وعطف الجملة الاستثنائية بدونها في أن كلا منهما يقتضى الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه كما

حققه عبد القاهر في دلائل الإعجاز

ولما كان كل من له ذوق في أساليب هذه اللغة يشعر بأن البديع بهذا الاستفهام هنا بدون «قال» غير مستعذب ولا مستساغ وإن لم يعرف سبب هذا ونكتته . . . يبحث طالب نكت البلاغة في التفسير عن نكتة هذه الإعادة فلم يجد بعضهم ما قرأناه ولم يثبتينه واضحا ليبينه . قال الألوسي : قيل هذا هو الجواب وما قبله تمهيد له ولعله لذلك أعيد لفظ قال اه فتقل هذه النكتة بصيغة المراض «قيل» إذ كانت أخفى عنده منها عند صاحبها الذي قال : ولعله . . . فلم يحزم . ثم نقل عن أبي السعود قوله في هذا الجواب : هو شروع في بيان شؤون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به سبحانه بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلا ، لكونه هالكا باطلا أصلا ، ولذلك وسط بينهما «قال» مع كون كل منهما كلام موسى عليه السلام اه : ثم نقل تعليلا آخر للشهاب وهو : أعيد لفظ قال مع اتحاد ما بين القائلين (٢) لأن هذا دليل خطابي تفضيلهم على العالمين ولم يستدل بالتامع العقلي لأنهم عوام تتغير

وأقول : إن العبارة الأولى أصح وأسلم من هذين القولين المعترضين على أنهما مبنيان على لمح مالمح صاحبها ، إذ لو سلم للأول أن الآية في بيان شؤون الله الخ والثاني أنها دليل خطابي لا بهائي ، لما كان هذا ولا ذاك مفتضيا لإعادة فعل القول لذاته ، وإنما العبرة بموقعه واستماع كل من قبله بدون القول ووصله بالعطف على ما قبله كما علم مما بيناه والحمد لله الملمهم الصواب ، وقد بينا بطلان قول الشهاب آفا ، وضعف قول أبي السعود لا يحتاج إلى بيان

(١٤١) قَوَاعِدَنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعِشْرِ قَتْمٍ مِيقَتِ

رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي

وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَتِنَا

وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيَّ . قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ

أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي . فَلَمَّا تَبَحَّلَ

رَبُّهُ لِلْحَاجِّ تَجَلَّى لَهُ كَتَافًا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ

تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ

هذه الآيات نزلت في بيان بدء وحى الشريعة لموسى عليه السلام وقد بدء الوحى المطلق إليه في جانب الطور الأيمن من سيناء منصرفه من مدين إلى مصر، وإنما المذكور هنا بدء وحى كتاب التوراة بعد أن أنجى الله قومه بنى إسرائيل من العبودية وجعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشترعه الله لهم من العبادات وأحكام المعاملات، والأمة المستعبدة للأجنبي لا تقدر على ذلك، أم تر أن جميع أحكام المعاملات الدنيوية من شريعتنا المطهرة وأكثر أحكام العبادات لم تشرع إلا بعد الهجرة؟ وأن الصلاة التي هي عبادة بدنية لما شرعت في مكة كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي هو ومن آمن به في البيوت سرّاً اتقاء أذى المشركين الذين كانوا يمنعونهم من الصلاة في المسجد الحرام وقد صلى فيه النبي ﷺ مرة فجاء المشركون بسلا جزور - أى كرش بعير بفرثه - فوضعوه عليه وهو ساجد فلم يستطع رفع رأسه حتى جاءت ابنته السيدة فاطمة عليها السلام فألقته عن ظهره؟ وهم أبو جهل مرة أن يجلس عليه وهو ساجد فكفّه الله عنه؟

قال تعالى ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه

أربعين ليلة﴾ هذا السياق معطوف على السياق الذى قبله المبدوء بقوله تعالى (وجاوزنا بنى إسرائيل البحر) الآيات. قرأ أبو عمرو ويعقوب (واعدنا) من الوعد والبايون (واعدنا) من المواعدة فقليل إنها هنا بمعنى الوعد وقيل إن فيها معنى صيغة المفاعلة باعتبار أن الله تعالى ضرب لموسى عليه السلام موعداً لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة فقبل ذلك تم صعد جبل سيناء في أول الموعد وهبط في آخره، ووفق بين الاتفاق على الشيء وبين اثنين أو أكثر كالطلاق فيمكن

معين أو زمان معين وبين الوعد به من واحد لآخر لا يطلب منه شيء لأجل الوفاء .
كقولك لآخر سأدعو الله لك في البيت الحرام مثلا - فهذا وعد محض وذلك يحتمل
الأمرين باعتبارين كعبارة الآية . والميقات أخص من الوقت فهو الوقت الذي
قرر فيه عمل من الأعمال كواقيت الحج . وفي سورة البقرة (وإذ أوعدنا موسى أربعين
ليلة) وهو إجمال لما فصل هنا من قبل لأن الأعراف مكية والبقرة مدنية فهي متأخرة
عنها في النزول والمراد بالليلة ما يشمل الليل والنهار في عرف العرب عند الاطلاق .

روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في تفسير الآية أن موسى قال
لقومه : ان ربي واعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلف هارون فيكم ، فلما وصل موسى
إلى ربه زاده الله عشرا فكانت فتنهم في العشر التي زاده الله - وذكر قصة عجل
السامري - وروى الثاني عن أبي العالبي في قوله (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها
بعشر) يعني ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة فسكت على الطور أربعين ليلة وأنزل
عليه التوراة في الألواح فقر به الرب نجيا وكله وسمع صريف القلم ، وبلغنا أنه لم
يحدث في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور ، وفي معنى هذا روايات أخرى صريحة
في أن هذا الزمن ضرب لمناجاة موسى ربه في الجبل منقطعا فيه عن بني إسرائيل
وهو الحق الموافق لما ورد في هذه السورة وغيرها من قصة السامري وعبادة العجل
في غيبة موسى ومنه قولهم لهارون (ان نهرج عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) .
وأخرج الديلمي عن ابن عباس رفعه « لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد
الثلاثين يوما وقد صام ليلته ونهاره فكلمه أن يكلم ربه ورجحه فم الصائم
فتناول من نبات الأرض فضغه فقال له ربه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بما كان قال :
أي رب ، كرهت أن أكلك إلا وفي طيب الريح ، قال : أو ما علمت يا موسى
ان فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ؟ اذهب فم عشرة أيام ثم ائتني .
ففعل موسى الذي أمره ربه » وهذا الحديث ضعيف السند ومثله معارض بما أشرفنا
إليه من آيات قصة السامري ومن الروايات التي بمعناها .

ويستدل الصوفية بهذه الرواية على أيام خلوتهم التي يصومون أيامها

(١) استحسّن علماء الرسم ان يكتب هارون بدون ألف واستحسننا نحن وكثير

من الكتاب كتابته بالالف على الأصل كالحاوث لأن أكثر الناس لا يتعلمون الرسم

أولا تلقون مثل هذا الاصطلاح فمخطئون فهم

الأربعين لا يفطرون إلا على حبات الزبيب، لما ورد في الأحاديث الصحيحة من النهي عن الوصال في الصيام . والأولى أن يستأنس بالروايات الصحيحة للتفرغ لذكر الله ومناجاته بالصلاة أربعين يوماً وليلة فيجعل مقصداً لا وسيلة .

وهذا ما ورد في التوراة الحاضرة في المسألة من سفر الخروج (١٢: ٢٤) وقال الرب لموسى اصعد إلى إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشرية والوصية التى كتبتها لتعليمهم ١٣ فقام موسى ويشوع خادماه وصعدا موسى إلى جبل الله ١٤ . وأما الشيوخ فقال لهم : اجلسوا ههنا ، وهوذا هارون وحور معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليقدم اليهما ١٥ فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل ١٦ وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفي اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب ١٧ وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل امام عيون بنى اسرائيل ، ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل ، وكان موسى في الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة) ١٨ وفى الفصل الرابع والثلاثين منه ما نصه أيضاً (٣٤ : ٢٧ وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات قطعت عهداً معك ومع اسرائيل ٢٨ وكان هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر) ١٩

وقال موسى لأخيه هارون : اختلفت في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * يعنى أن موسى لما أراد الذهاب لميقات ربه استخلف عليهم أخاه الكبير هارون عليهم السلام للحكم بينهم والاصلاح فيهم ، إذ كانت الرئاسة فيهم لموسى ، وكان هارون وزيره ونصيره ومساعدته كما سأل ربه بقوله : (واجعل لى وزيراً من أهلى : هارون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى) وأوصاه بالاصلاح فيهم وفيما بينهم ، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين فى الارض . والافساد أنواع بعضها جلى وبعضها خفى ومن كل منهما وسيلة ومقصد ، فنها الحرام البين ومنها الذرائع المشتبهات التى يختلف فيها الاجتهاد ، ويأخذ النقي فيها بالاحتياط ، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم فى أعمالهم ، ومساعدتهم عليها ، ومعاشرتهم والاقامة معهم فى حال اقترافها ، ولو بعد العجز عن إرجاعهم عنها ، ومن ذلك ما يجوز وقوعه من الانبياء عليهم السلام فيصح

نهيهم عنه تحذيرا من وقوعهم فيه بضرب من الاجتهاد كالذى وقع الاختلاف فيه بين موسى وهارون عليهما السلام في قصة عجل السامري الذى حكاه تعالى عنه في سورة طه بقوله (قال يا هارون مامنك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن؟) أفعضيت أمري؟ قال يا ابن أم لا تأخذه بلحيتي ولا برأسي، إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولي) فانسالة كانت لموسى بالاصالة وهارون بالتمع ليكون وزيرا لا رئيسا، وموسى هو الذى أعطى الشريعة (النوراة) وكان هارون مساعدا له على تنفيذها في بنى إسرائيل، كما كان مساعدا له على تبليغ فرعون الدعوة وانقاذ بنى إسرائيل.

وقد روى الشيخان وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص (رض) أن النبي ﷺ قال لعلي كرم الله وجهه «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟» وذلك أنه استخلفه على المدينة في غزوة تبوك قبل خروجه فقال يارسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال له . وفي رواية لأحمد: أن عليا (رض) قال: رضيت رضيت . وإنما قال في النساء والصبيان لأنه لم يستخلف عن الخروج مع النبي ﷺ إلى تبوك غير النساء والصبيان ومن في حكمهم من ضعيف ومريض إلا من استأذن من المنافقين .

قال القاضي عياض في شرحه لمسلم: هذا الحديث مما تعلق به الروافض والامامية وسائر فرق الشيعة في أن الخلافة كانت حقا لعلي وأنه أوصى له بها . قال ثم اختلف هؤلاء فكفرت الروافض سائر الصحابة في تقديمهم غيره وزاد بعضهم قبحا عليا لأنه لم يتم بطالب حقه . وهؤلاء أسخف مذهبا وأفسد عقلا من أن يرد عليهم الخ ما قال . وقد ذكرت هنا من قوله لاذكر القاريء بأن هذين الفريقين لم يقولوا ما قالوا عن اعتقاد ، بل كانوا من جمعيات الجوس والسبائين الذين يبغون الفتنة لابطال الاسلام وإزالة ملك العرب بالشقاق الديني . وأما الاستخلاف فقد كان للنبي ﷺ يستخلف على المدينة بعض الصحابة كما خرج إلى غزوة ، ولم يكن يختار أفضلهم لذلك ، وفي الحديث من المنقبة لعلي ما هو فوق استخلافه وهو جعله أخا للنبي ﷺ ولا يتضمن ذلك استخلافه بعده ﷺ لأن هارون مات قبل موسى عليهما السلام قطعا ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال: رب أرني أنظر إليك﴾ أى ولما جاء موسى للميقات الذى وقتناه له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه

(الاعراف . ص ٧) عدم اطلاق هذا الخلق رؤية الرب ومنع موسى منها ١٢٣
 عز وجل من وراء حجاب بغير واسطة الملك^(١) استشرقت نفسه الزكية العالية
 للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فقال : رب أرني ذاتك المقدسة بأن تجعل
 لي من القوة على حمل تجديك ما أقدر به على النظر اليك ورؤيتك وكل المعرفة بك
 بالقدر الممكن أي دون ما هو فوق امكان المخلوقين من الادراك والاحاطة المنق
 بقوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) فيراجع
 تفسير هذه الآية من سورة الانعام (ص ٦٥١ - ٦٥٧ ج ٧ تفسير)

(قال ابن ترائي ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني) أي
 إني لا تراني الآن ولا فيما تستقبل من الزمان ، ثم استدرك تبارك وتعالى على
 ذلك بما يدل على تعليل النفي ، ويخفف عن موسى شدة وطأة الرد ، بإعلامه ما لم
 يكن يعلم من سنته ، وهو أنه لا يقوى شيء في هذا الكون على رؤيته . كما قال (ص)
 في حديث أبي موسى عند مسلم « حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه
 ما انتهى إليه بصره من خلقه » فقال : ولكن انظر إلى الجبل ، فإني سأجعل له فان
 ثبت لدى الجبل وبقي مستقراً في مكانه فسوف تراني ، لمشاركته له في مادة هذا
 العلم الثاني ، وإذا كان الجبل في قوة ورسوخه لا يثبت ولا يستقر لهذا التعجلى لعدم
 استعداد مادته لقوة تجلي مخالفه وخالق كل شيء فاعلم أنك إن تراني أيضاً وأنت
 تشارك له في كونك مخلوقاً من هذه المادة وخاضعاً للسنين الزمانية في قوته وضعف
 استعدادها (وخلق الانسان ضعيفا) وقبولها للنقاء

روى عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : لما سمع الكلام طمع في الرؤية
 وروى أبو الشيخ عن ابن عباس قال حين قال موسى لربه تبارك وتعالى (أرني) أنظر
 إليك قال له يا موسى إنك (إن تراني) قال يقول ليس تراني لا يكون ذلك أبداً ،
 يا موسى إنه إن يراني أحد فيحيا ، قال موسى رب أن أراك ثم أموت أحب إلي
 من أن لا أراك ثم أحيأ . فقال الله يا موسى (أنظر إلى الجبل) العظيم الطويل
 الشديد (فان استقر مكانه) يقول فان ثبت مكانه لم يتضمض ولم ينهد لبعض
 ما يرى من عظمي (فسوف تراني) أنت اضعفك وذلتك ، وإن الجبل تضعض
 وانهد بقوته وشدة وعظمه فأنت أضعف وأذل اهـ

﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ، وخرب موسى صعباً ﴾ يقال جلا الشيء .

(١) راجع تفسير (منهم من كلم الله) في أول الجزء الثالث من تفسيرنا وتفسير

(وكلهم الله معهم تسليماً) في ص ٧١ - ٦٢ منه

والأمر والتجلى وتجلي نفسه أو بغيره وجلاله فتجلى — إذا انكشف وظهر ووضح بعد خفاء في نفسه ذاتي أو اضافي أو خفاء على مجتليه وطالبه . ويكون ذلك التجلى والظهور بالذات وبغير الذات من صفة أو فعل يزول به اللبس والخفاء ، وفي صيغة التجلى ما ليس في صيغة الجلاء والانجلاء من معنى التدريج والكثرة النوعية أو الشخصية قال تعالى (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى) ذليل يغشى النهار ويستتره ثم يتجلى النهار ويظهر بالتدريج وفي الأحاديث أن للرب تعالى تجليات مختلفة كما سيأتي .

والدك الدق أو ضرب منه . قال في الأساس : دككته دقته ، ودك الركبة كبسها ، وجل أدك وناقة دكاه : لاستنام لها ، واندك السنام : افترش على الظهر ونزلنا بدكداك : رمل متلبدا بالأرض اه وأقول : إن الفرق بين الدق والدك كما يؤخذ من الاستعمال العام الموروث عن العرب أن الدق ما يخطب به الشيء ليتفتت ويكون اجزاء دقيقة ومنه الدقيق . وكان القمح في عصور البداوة الأولى يدق بالحجارة فيكون دقيقا ثم اهتسدا إلى الارحية التي تسحقه وتطحنه . وأما الدك فهو الهدم والخطب الذي يكون به الشيء المدكوك ملبدا ومستويا ، يقال أرض مدكوك وطريق مدكوك ، ودك الحفرة والركبة (أى البئر غير المطوية) دغنها وطمها ، ولا تزال سلائل العرب تستعمل هذه المادة بهذا المعنى ويسمون ما يوضع في الحفرة أو الركبة من الحصى والحصباء لأجل تسويتها « الدكة » . قرأ حمزة والكسائي (جعله دكاه) بالمد والتشديد غير منون أى أرضا مستوية كالناقة التي لاستنام لها والجمهور (جعله دكا) بالمصدر أى مدكوكا دكا . ومثله في السد من سورة الكهف والخرور والخر السقوط من علو والانكباب على الأرض ، ومنه (يخرون للاذقان سجدا) والصعق بكسر العين صفة من الصعق وهو ما يكون من تأثير نزول الصاعقة من موت أو إغواء ثم توسع فيه بإطلاقه على ما يشبه ذلك . قال الفيومي في المصباح : صعق صعقا من باب تعب : مات ، وصعق غشى عليه اصوت سمعه ، والصعقة الأولى النفخة ، والصاعقة النازلة من الرعد ، والجمع صواعق ، ولا تصيب شيئا الا دكته وأخرقته اه

وأحسن ما ورد في التفسير المأثور لهذه الآية مطابقا لما في اللغة ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الرواية عن ابن عباس (فلم تجلى ربه للجهل)

قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر (جعله دكا) قال تريا (وخر موسى صمعا) قال مفسيا عليه اه ومارواه ابن المنذر عن عكرمة أنه - أى الجبل - كان حجرا أصم فلما تجلى له صار تريا تريا دكاً من الدكاوات - أى مستويا بالأرض - ولولا ذلك لجاز أن يقال إن صبروته تريا وان كان بمعنى الدكاء والمدكوك لا ينافي استقرار الجبل مكانه وقد ورد في بعض الآثار والأحاديث المرفوعة أيضا أنه ساخ أى غاص في الأرض ، وهو يتفق مع المعنى الأول ، أى أنه رجع بالتجلى رجا بست بها حجارته بساً ، وساخ في الأرض كله أو بعضه في أثناء ذلك حتى صار كما قال بعضهم ربوة دكاء كالرمل المتلبد والمعنى: فلما تجلى ربه للجبل أقل التجلى وأدناه أنهد وهبط من شدته وعظمته وصار كالأرض المدكوك أو النافة الدكاء - وسقط موسى على وجهه مغشيا عليه كمن أخذته الصاعقة والتجلى إنما كان للجبل دونه فكيف لو كان له ؟

وقد روى في تفسير هذه الآيات من الأخبار والآثار الواهية والموضوعة غرائب وعجائب أكثرها من الأسرأئيليات. أمثل المرفوع منها ما روى من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك (رض) قال «قرأ رسول الله ﷺ (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال :- ووضع الإبهام قريبا من طرف خنصره - فساخ الجبل » وفي نسخة زيادة (وخر موسى صمعا) فقال حميد الطويل لثابت : ما تريد إلى هذا ؟ فضرب صدره أى صدر حميد وقال من أنت يا حميد ؟ فيحدثني أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ وتقول أنت : ما تريد إلى هذا ؟ رواه أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وأبناء جرير والمنذرو وأبي حاتم وعدي في الكامل وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الروية وقد انفرد به عند مصححيه حماد بن سلمة وهو من رجال مسلم إلا أنه قد تغير حفظه في آخر عمره كما هو معلوم وله طريقان آخران عند داود بن الحبر وابن مردويه لا يصحان كما قال الحافظ ابن كثير. والمراد من التمثيل بالإبهام والخنصر أن ذلك أقل التجلى وأدناه ، وسيأتى من الصحيح ما يؤيد معناه

ومن أنكر هذه الروايات وأوهاها ما روى عن أنس مرفوعا « لما تجلى الله للجبل طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة . . . » وذكر أسماء قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث غريب بل منكر . أقول ولا يدخل

من ألفاظ الآية ولا معناها في شيء

﴿ فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ أي (فلما أفاق)
 موسى من غشيه ، والتعبير بالأفاقة يدل على صحة تفسير ابن عباس والجمهور للصق
 بالغشي وبطلان تفسير قتادة له بالموت ، وقال به بعض شذاذ الصوفية وادعوا أنه رأى
 ربه فمات ، أو مات ثم رأى ربه ، ولو مات لقال تعالى « فلما بعث » الخ كما قال في
 السبعين الذين اختارهم من قومه وذهبوا معه إلى الجبل وطلبوا منه أن يرهم الله
 جهرة فأخذتهم الصاعقة فانه قال « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » كافي
 سورة البقرة ، وسيأتي خبرهم في هذه القصة من هذه السورة — (قال سبحانك)
 أي تنزيهاك وتقديساً عما لا ينبغي في شأنك مما سالتك أو من لوازمه — أو كما حكى
 تعالى عن نوح عليه السلام (أن أسألك ما ليس لي به علم) وأكثر مفسري أهل
 السنة يجمعون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى ونفى العلماء
 يصبح عندهم معنى أن مسأله غير ممكن أو غير واقع في هذه الحياة الدنيا ، لأنه غير
 ممكن في نفسه وغير واقع البتة ولا في الآخرة . ومعنى التوبة الرجوع والمراد هنا الرجوع
 عما طلب ، إلى الوقوف مع الرب تعالى عند منتهى حدود الأدب قال مجاهد
 (تبت إليك) أن أسألك الرؤية (وأنا أول المؤمنين) قال ابن عباس ومجاهد : أي
 من بني إسرائيل ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك
 أحد ، ذكرهما الحافظ ابن كثير وقال : وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون
 ولكن يقول أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . قال :
 وهذا قول حسن له النجاشي . وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هنا أثراً طويلاً فيه غرائب
 وعجائب عن محمد بن إسحاق بن يسار وكأنه تلقاه من الأسرار إميليات والله أعلم اهـ
 خلاصة معنى الآية : أن موسى عليه السلام لما نال فضيلة تكليم الله تعالى
 له بدون واسطة فسمع ما لم يكن يسمع قبل ذلك ، وهو من الغيب الذي لا شبه له
 ولا نظير في هذا العالم طلب من الرب تبارك وتعالى أن يمنحه شرف رؤيته
 وهو يعلم حتماً أنه تعالى ليس كمثل شيء في ذاته ولا في صفاته التي منها كلامه
 عز وجل ، فكما أنه سمع كلاماً ليس كمثل كلام بتخصيص رباني — استشرف لرؤية
 ذات ليس كمثلها شيء من الذوات ، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم ، فلم
 يكن عقل موسى — وهو في الذروة العليا من العقول البشرية بدليل العقل

والنقل - مانعاً له من هذا الطلب ، ولم يكن دينه وعلمه بالله تعالى - وهما في الذروة العلمية أيضاً - مانعين له منه . ولكن الله تعالى قال له (لن تراني) وانكى يخفف عليه ألم الرد وهو كلمته الذي قال له في أول العهد بالوحي اليه (واصطفتك لنفسى) أراه بعينه ومجموع إدراكه من تجليه للجبل بما لا يعلمه سواه أن المانع من جهته هو لامن الجود الرباني ، فنزه الله وسبحه وناب اليه من هذا الطلب ، فبشره الله تعالى بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه أى دون رؤيته ، وأمره بأن يأخذ ما أعطاه ، ويكون من الشاكرين له .

✽ قال ياموسى إلى اصطفتك على الناس برسالاتى وبكلامى ✽ الاصطفاء اختيار صفوة الشيء وصفوه أى خالصه الذى لا شائبة فيه ، ومنه الصفى من الغنيمة وهو ما يصطفيه الامام أو القائد الأكبر منها ويختاره لنفسه كاختيار النبي ﷺ السيف المعروف بنزى الفجار من غنم غزوة بدر . وتعدية الاصطفاء هنا على تضمنه معنى التفصيل ، فلتعني إني اصطفتك مفضلاً إليك على الناس من أهل زمانك بالرسالة ، قرأ ابن كثير ونافع « برسالتى » والباقون « برسالاتى » فافرادها بمعنى الاسم من الإرسال وجمعها باعتبار تعدد ما أرسل به من العقائد والعبادات والأحكام السياسية والحربية والمدنية والشخصية ، وقيل بتعدد أسفار التوراة وهو ضعيف لأن التوراة ما أوحاه من الشريعة إلى موسى وهو موضوع رسالته وتسمية الأسفار الخمسة بالتوراة اصطلاحية وقد يطلقونها على جميع كتب أنبياء بنى إسرائيل قبل عيسى ﷺ - واصفتك بكلامى أى بتكليمى لك بعد وحي الإلهام من غير توسط ملك وإن كان من وراء حجاب ، وهو ما طلب رفعه لتحصيل الرؤية مع الكلام ، ووحى الله تعالى ثلاثة أنواع بينها بقوله (٥١: ٤٢) وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء إنه على حكيم) فهذا النوع الأوسط هو الأعلى وقد أعطى لموسى ﷺ بعد النوع الأول وقيل بالعكس ، وقد بينا ما فيه من وجه الخصوصية في تفسير قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليماً) من سورة النساء ٤: ١٦٣

✽ فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ✽ أى فخذ ما أعطيتك من الشريعة « التوراة » وكن من الراسخين في الشكر لنعمتى بها عليك وعلى قومك ، وذلك

بإقامتها بقوة وعزيمة والعمل بها ، وكذا لسائر نعمي ، فان حذف متعلق الشكر يدل على عمومته ، كما أن صيغة الصفة منه تدل على التمكن منه والرسوخ فيه

﴿ فصل ﴾

﴿ في اختلاف المسلمين في الرؤية وكلام الرب تعالى وتحقيق الحق فيهما ﴾

كان جماعة الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون هذه الآيات وأماها ولا يرون فيها اشكالا ، وهم أعلم العرب بلغة القرآن وبمراد الله تعالى من آياته فيه لتلقيهم إياها من الرسول المنزلة عليه الأمور فيها ببيانها للناس ، ثم انتشر الاسلام ودخل فيه من الأعاجم من كانوا على أديان مختلفة وصاروا يتلقون لغته بالتلفين ويتقربون بها بمعاشرة العرب الخالص ثم بالتعليم الفنى ، ثم صارت السلائل العربية كذلك . ثم حدثت في الجميع الاصطلاحات العلمية والفنية لما وضعوا من العلوم الشرعية كأصول العقائد والفقه والحديث ، واللغوية : كالنحو والصرف والبيان . ولما ترجموا من كتب علوم الأوائل وما زادوا فيها من الرياضيات والعقليات والوجدانيات . وسائر سنن الموجودات ، فامتزجت هذه الاصطلاحات بلغة القرآن والحديث . فصارت آلات لفهمهما ، وسببا للخطأ في تعيين بعض المراد منهما .

ثم حدث ما هو أدعى إلى الخطأ في الفهم وهو عصبية المذاهب والشيعة التي فرقت بين المسلمين ، على ما جاء في التفرق والتفريق من الوعيد الشديد ، فصار كل منهم إلى شيعة وحزب لا ينظر في الكتاب والسنة إلا بالمنظار المعبر عنه بمذهب الحزب ، وإن كان من أهل النظر والاستدلال ، ومدعى الاجتهاد والاستقلال . والبداية قاضية بالتضاد بين التقيد بالمذاهب ، والاستقلال الصحيح المسمى عندهم بالاجتهاد المطلق .

وهناك سبب آخر وهو حشر الاسرائيليات والروايات الموضوعة والواهيية في تفسير القرآن وكتب السنة ، وتقاصر الأكثرين عن تمحيصها ، والتمييز بين حقها وباطلها ، حتى إن بعض الاسرائيليات قد اشتبهت بالأحاديث المرفوعة ، كما بينه بعض الحفاظ ، ومنهم ابن كثير في تفسيره .

فهذه الأسباب أبطلوا مزية كتاب الله وخاصيته في رفع الخلاف والتفرق المفسدين لأمر الأمة والأمة اتباعتما أسنن من قبلهم وهم لا يشعرون ، لأنهم جعلوه موضع الخلاف أيضاً ، قال تعالى (٢ : ١٣٦) كان اناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) الآية . وقال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم البينة) وقال تعالى (٤ : ٥٩) فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً)

فأرد إلى كتاب الله وما بينه من سنة رسوله لإزالة التنازع وحسم الخلاف تفادياً من التفريق والتفرق المناق لوحدة الدين بتوقف على جعل الكتاب وبيان الرسول له فوق التنازع واختلاف المذاهب والشيعة ، وإلا كان الدواء عين الدواء فإن قيل : إن القرآن ليس موضوع اختلاف بين الشيعة والأحزاب المختلفين في المذاهب الإسلامية ، فهم مجمعون على أن من رد شيئاً منه كان مرتداً عن الإسلام - إن كان قد عد من أهله - وإنما الاختلاف في فهمه ، وأما السنة فاختلفوا في رواية بعضها وفي فهم بعض ، ومن صح عنده منها شيء يتعلق بأمر الدين وجب الأخذ به في كل مذهب من المذاهب التي يعتد بإسلام أهلها . والاختلاف في فهم ما كان غير قطعي الدلالة ضروري لا يقتضيه مثل قوله تعالى (٣ : ١٠٥) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم)

ونجيب عن هذا - أولاً - بأنهم إنما كانوا كذلك في كل ذلك قبل الفتن وعصبية المذاهب . وأما بعدها فقد صرح بعض كبار فقهاء الحنفية بأن الأصل عندم في كل حكم كلام أصحابهم ، فإن وجدوا آية تخالفه (١١) التمسوا لها ناسخاً ، فإن لم يجدوا أو لوها ، وإن وجدوا حديثاً مخالفاً له (١١) بحثوا في إسناده فإن وجدوا فيه مطمئناً نبذوه وإلا فعلوا في التنصيص منه ما يفعلون في التنصيص من القرآن (١١) وقد جرى على ذلك أهل كل مذهب إلا أفراداً من كبار النظار خالفوا المذهب في بعض المسائل الكلامية والأصولية بالدليل ، وبعض كبار المحدثين رجحوا بعض الأحاديث الصحيحة الصريحة على المذهب ، وإن شئت فراجع بعض الشواهد على رد

لهافي « كتاب اعلام المومنين » للمحقق ابن القيم . و - ثانياً - بأن الله تعالى يكلفهم أن لا يجملوا بما ليس قطعي الدلالة سبباً للفرق والتعادي وتآليف الأحزاب والشيخ التي يلقن أتباع كل منها فهم رجل أو رجال يسمونه مذهبهم . يتعاملون معه الرد على مخالفهم ونفسيتهم أو تكفيرهم ، وبهذا كان الاختلاف ضاراً ومفسداً على المسلمين ومن كان قبلهم من أهل الملل لأموار دينهم ودينام ، وهو المراد بقوله تعالى لرسوله ﷺ (٦ : ١٥٩) إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) الآية ولولاه لما كان أولئك العلماء الاعلام من المعتزلة والاشعرية يتنازرون بالألقاب ، ويقارون بالسياب ، ويتهاجون بالأشعار ، كقول الزمخشري المعتزلي بعد تفسيره لآية الأعراف التي نحن بصدد تفسيرها : ثم تعجب من المتسمين بالإسلام ، المتسمين بأهل السنة والجماعة ، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ؟ ولا يفرقك - تترجم بالبلدكية ، فانه من منصوبات أشياخهم - يعني بالبلدكية قولهم انه تعالى يرى بلا كيف أى ان رؤيته ليست كروية أهل الدنيا بعضهم لبعض فيما يلزمها من كون المرئي جسماً كشيئاً تحيط به أشعة البصر - ثم قال والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

وجماعة صموا هواهم سنة جماعة حمر لعبرى موكفة

قد شهوه بخلفه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلدكية

يعنى بالعدلية جماعته المعتزلة فانهم صموا أنفسهم أهل العدل والنوحيد فانظر إلى جعله اثبات الرؤية الثابتة في الأحاديث المتفق على صحتها منافياً للاتسام بالإسلام والتسمى بأهل السنة ، وهو يعلم أنهم ينفون التشبيه في الرؤية بالنصرح كإني فيه هو ، فلولا تعصب المذهب نأزلمهم إياه بدلالة اللزوم الضعيفة التي قالوا فيها لازم المذهب ليس بمذهب ، قيل مطلقاً وقيل فيما لم يدل الدليل على التزام صاحب المذهب له ، وأما ما صرح بنفيه فلا وجه لاسناده اليه البتة ، ومن نسبه اليه وذهبه به كان ظلوماً جهولاً . ولو أن الزمخشري وشاعر العدلية لم يقولوا ما قالوا من الطعن والهجو في أهل السنة بأن اكتفى الزمخشري في تأويل أحاديث الرؤية بما أولها به من كون الرؤية فيها عبارة عن كمال المعرفة الجلية لما جوزوا على ذلك بمثل ذنبها أو أكثر كما قال أحمد بن المنير الاسكندري في (الانتصاف) حاشيته على الكشف :

وجماعة كفروا بروية ربهم حقاً ووعد الله ما لن يخلفه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهم ، فحسبهم سنة
وتلقبوا الناجين ، كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فعلى شفة
وللشيخ تاج الدين السبكي صاحب جمع الجوامع وغيره مثل هذا الشعر المحزن ،
والباديء بالشعر أعظم ، وهؤلاء الذين هجوا عدلية المعتزلة بمثل ما هجا به شاعرهم
أهل السنة كافة هم من الأشعرية الذين يقولون مثلهم بالتأويل ، ويشنعون على
إخوانهم من الحنابلة وغيرهم من السلفيين في بعض مسائل التفويض كالنصوص
في علو الله تعالى على خلقه ، واستوائه على عرشه ، التي اتبعوا فيها إجماع السلف أو
جمهورهم الأعظم في إمرارها كما جاءت مع تنزيههم الرب تعالى عن مشابهة الخلق
والتحيز والحد والحلول ، لأن أصل عقيدتهم أنه تعالى مبين خلقه بذاته وصفاته
(ليس كمثل شيء) بل أول الامام أحمد بن حنبل نفسه نصوص المعية كقوله
تعالى (وهو معكم أينما كنتم) فخصه بالعلم

فالخلق الواقع أن المختلفين في فهم النصوص من المسلمين الصادقين يؤمنون
بها ويعظمونها ولكن غلب على قوم ترجيح جانب التنزيه حتى انتهى ببعضهم
إلى التعطيل ، وجعل صفات الرب تعالى سلبية بضروب من التأويل ، وغلب
على قوم جانب الأخذ بالظاهر في ذلك حتى وقع بعضهم في التشبيه فعلا ، كأن
الكتاب والسنة خلو من المجاز والكنية في ذلك مع العلم بأن ما عدا اسم الجلالة من
ألفاظ اللغة قد وضع قبل نزول القرآن للتعبير به عن الخلوقات وشؤونها ، فالفرقان
أرادا تعظيم الرب تعالى وسد ذريعة القول في ذاته وصفاته بغير الحق الذي يرضيه ،
هؤلاء خافوا التعطيل برد شيء من النصوص أو تحكيم الاهواء في تأويلها - وأولئك
خافوا الوقوع في تشبيه الرب سبحانه بخلقهم ، وسد ذريعة ما يعد نقصا في حقه ،
فالنية كانت حسنة من الجانبين كما قال شيخنا الشيخ حسين الجسر الطرابلسي
رحمه الله تعالى في درسه عند قراءة شرحي السنوسية والجوهرة

ولكن الذين ضلوا بالتأويل والتعطيل كثيرون حتى خرجت به عدة فرق من
الملة بعضهم باطنا وظاهرا وبعضهم باطنا لا ظاهرا ، كالطائفة الذين تركوا أركان
الإسلام ، من صلاة وزكاة وحج وصيام ، زاعمين أن لها معاني غير ما عمل به
النبي ﷺ وأصحابه وأجمع عليه المسلمون ، وكفلاة الصوفية الذين ذهبوا في التأويل
إلى ما وراء طور العقل والنقل وأساليب اللغة ، فادعوا أنهم يرون الله تعالى عيانا

في جميع الصور ، ويتلقون عنه كالأنباء ، وأن فيهم من هم أفضل من الأنبياء وأعلم بالله تعالى ، ومنهم من ادعى رفع التكليف عن بلغ مقاماتهم في المعرفة ، بل منهم من غلا في وحدة الوجود إلى ادعاء الربوبية للبشر والبقر ، والحجر والمدر ، وما يستحى أو يتنزه قلم الشدين الأديب عن ذكره - وإلى عدم التفارقة بين موحد ومشرك ، ومؤمن وكافر ، وبروفاجر وعادل وجائر ، وطيب وخبيث ، ولا بين نافع وضار ، وطهور ورجس . ويستدلون على عقائدهم أو مزاعمهم بالآيات والأحاديث ، بضروب من التأويل ، وقد قال بعضهم :

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ولم يقع من فرقة تأخذ بظواهر نصوص الكتاب والسنة من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه ولا تمثيل ، في مثل هذا الضلال البعيد ، فهو لاه الظاهرية ومن يسمونهم غلاة الجنبالة من أقوى المسلمين إيمانا ، وأصحهم اسلاما ، وما رموا به من التشبيه والتمثيل الذي نفاه النص والعقل ظلم سببه التعصب المذهبي . فإذا كانوا يثبتون للرب تعالى كل ما أثبتته لنفسه في كتابه ، وأثبتته له رسوله فيما صح من حديثه ، حتى فيما يفوضون كنهه إليه تعالى للاعتراف بأن عقولهم لا تحيط به ، فهل يعقل أن يثبتوا له ما نفاه عن نفسه بقوله (ليس كمثل شيء) وهو مما يعقلونه ولا يعقلون ضده ؟ كلا ان تعصب أصحاب النظريات الكلامية من المعتزلة ومن يقرب منهم من متأولي الأشعرية هم الذين افتنأوا عليهم بما ألزموهم إياه مما نفوه من لوازم ما صح في الكتاب والسنة من علوه تعالى على خلقه ، واستوائه على عرشه ، وكونه ينزل إلى سماء الدنيا ويحب ويبغض ويضحك الخ مع استصحاب نص التنزيه ، فهم لا يرون فرقا بينها وبين كونه يسمع ويبصر ويتكلم ، وكذا يعلم ويريد . ويشاء ويقدر ، فكل ذلك مما يطلق على الخلق والخلق مع انتفاء التشبيه ، وإنما ذنبهم عندهم أنهم لا يستعملون نظريات أفكارهم في التحكم بتأويل هذه النصوص ، ولم يكلف الله تعالى أحدا من خلقه هذه النظريات الفلسفية الكلامية ، وإنما كلفهم الإيمان بجميع ما جاءهم به رسله (ص) وأصل الدين الذي بعث الله تعالى به جميع رسله إلى خلقه هو أن يعبدوا الله تعالى وحده ولا يشركوا به شيئا من خلقه ، وأن يعبدوه بما شرعه لهم دون غيره ، اذ ليس لغیره أن يشرع شيئا من الدين بدون أذنه . والله تعالى قد شرع

الدين لجميع أفراد الأمة ، وهذه الفلسفة الكلامية من دقائق النظريات الفكرية التي انفرد بالنوص عليها أفراد معدودون من أذكى الأمم ففترقوا فيها واختلفوا لأن التفرق والاختلاف من لوازمها البينة ، فعصوا الله تعالى في تنبيهه عن التفرق والاختلاف في الدين ، فكيف يقول غافل إن جميع المؤمنين قد كلفوها ، وإذا كانت صحة الإيمان تتوقف عليها ، فكم عدد المؤمنين في الأمة كلها ؟ وإذا كان الحق فيها واحدا كما يقولون فكم عدد أهل الحق منهم ؟ وكيف السبيل لدى كل من احتكر الحق فيها لنفسه إلى تلقين السواد الأعظم من الأمة ما يراه بحيث لا يقبل سواء ؟ فإن كان هو أصل الدين الذي لا يقبل الله غيره ففهم الدين متعذرا على كثرة الأمة وأما ما كان عليه السلف الصالح في صدر الأمة فكان سهلا ويسيرا كما وصف الله ورسوله هذا الدين وهذه الملة ، كان جميع المسلمين في الصدر الأول يصفون الله تعالى بجميع ما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه له بأحد من خلقه ، ومن غير هذه الفلسفة الكلامية التي لم يشرعها الله تعالى ولا أنزل بها من سلطان ، ولذلك استنكر جميع أئمة السلف علم الكلام وعدوه بدعة سيئة ، ومن خاض فيه بعد ذلك من أتباعهم فلائهم ظنوا أنه يتوقف عليه إبطال البدع وإزالة الشبهات المشكلة في الدين لآذنته ، وأرادوا به إزالة الخلاف فزادهم خلافا وافترقا ، حتى صار أكثرهم يزعم أن العقائد الصحيحة لا تعرف إلا به ، ويحصرها كل فريق في مذهبه ، ولا سلامة للمسلمين في دينهم ودنياهم إلا بالرجوع في الدين المحض إلى ما كان عليه السلف وفي أمور الدنيا إلى ما أثبتته العلم والتجارب في هذا العصر ، وأن ينبذوا جميع الأسباب والكتب التي كانت ماثرا لخلاف والتفرق وراء ظهورهم ، ولا يجعلوا قول عالم من علمائهم ولا فهمه سبيلا للتمادي والتفرق بينهم بل يمدوا كل مائيس قطعا من كتاب ربهم وسنة رسولهم واجتماع سلفهم من الاجتهاد الذي يعذر به من قام دليله عنده ومن وثق به ولا يكون حجة على غيره وقد فصلنا القول في هذا في مجلدتنا (المنار) مرارا . فهذه ايزول ضررا لاختلاف المذاهب في الأصول والفروع ، ويتراجع الجميع إلى وحدة الدين وأخوة الاسلام ، فينالوا من سعادة الدنيا ثم الآخرة ما شرع الله لهم الدين لأجله بعد هذا التمهيد نقول : إن مسألة الكلام الإلهي كمسألة الرؤية فيما اختلف فيه

من تأويل وتفويض ، اجتناباً من قوم للتعطيل ومن آخرين للتشبيه . وإعمال الفرق بينهما أن إثبات السكلام والتكليم لله تعالى صريح في القرآن المجيد في آيات متعددة لا تعارض بينها ، وأما رؤية الرب تعالى فربما قيل بادية الرأي . إن آيات النفي فيها أصرح من آيات الإثبات كقوله تعالى (لن تراني) وقوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فهما أصرح دلالة على النفي من دلالة قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) على الإثبات ، فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير في القرآن وكلام العرب كقوله (ما ينظرون إلا صيحة واحدة - هل ينظرون إلا تأويله - هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) وثبت أنه استعمل بهذا المعنى متعدياً بالي ولذلك جعل بعضهم وجه الدلالة فيه على المعنى الآخر ، وهو توجيه الباصرة إلى ما تراد رؤيته - أنه أسند إلى الوجود وليس فيها ما يصح إسناد النظر إليها إلا العيون الباصرة ، وهو في الدقة كما ترى ، ولذلك اختلف في فهمها العلماء قبل هذه المذاهب ، فقد روى عبد بن حميد عن مجاهد تفسير (ناظرة) بقوله : تنظر الثواب . قال الجافظ ابن حجر : سنده إلى مجاهد صحيح ، والجمهور يرون فهم مجاهد غير صحيح ولكن المعترلة والخوارج والشيعية يروونه صحيحاً ، وفي الفريقين من أساطين علماء اللغة ما يسوغ لك أن تقول : لكنه كقالبه ليس صريحاً ، أو ليس قطعي الدلالة بحيث يعد حجة على جميع المكلفين ، ويعتنع جعل تأويله عذراً للمخالفين . وقد كان النبي ﷺ يعذر أصحابه في اختلاف فهمهم للنصوص ، ويقدم على ما كان للاجتهاد فيه وجه وجيه كأخذ بعضهم بظاهر نفيه إياهم عن صلاة العصر إلا في بني قريظة إذ ذهب بهم اليهم ، وأخذ الآخرون بفحواه وهو عدم التخلف ، فصلى هؤلاء في الطريق وأدركوا معه بني قريظة في الموعد ، ولم يصل أولئك العصر إلا فيها ، وكما فهم بعضهم تحريم الخمر والميسر من آية البقرة التي رجحت أئمتنا على منافقهم ما فتركوها ، ولم يتركوها من لم يفهم ذلك وهم الأكترون إلا بعد نزول النص القطعي باجتنابهما

فاذا محصنا أسباب الخلاف من جهة النصوص وحدها وجدنا لكل من النفاة للرؤية والمثبتين لها ما يصح أن يكون له عذراً عند الآخر بمنع جريمة التفرق في الدين ، وجعل أهل الأحزاباً وشيعاً متعادية غير مبالية بما ورد فيه من الوعيد الذي كاد يجمعه كالسكر ، مادام كل منهم يعلم أن الآخر يؤمن بأن جميع ما جاء

به الرسول ﷺ من الدين حق ، وأن الخلاف محصور في اختلاف الفهم .
وما كدر بعض علماء السلف بعض منكرى الرؤية وغلاة التأويل لصفات الله تعالى وغيرهما من النصوص إلا لاعتقادهم أنهم زنادقة لبسوا لباس الإسلام للانفساد ، وبث دعوة الاتحاد ، والتجربة على رد نصوص القرآن والسنة التي تلقاها الصدر الأول بالقبول أو تحريمها بالتأويل عما فهموه أو عما ثبت عندهم بالعمل إذ كانوا قد عدلوا أن بعض اليهود كعبد الله بن سبأ وبشر المريسي وبعض المجوس ومن سلاطهم جهم بن صفوان قد بشوا في المسلمين دعوة الكفر أو البدع الداعية إلى النفاق ، أو المفضية إلى الشقاق ، فالامام أحمد كفر منكرى الرؤية من هؤلاء لاعتقاده فيما نرى أنهم اصادرة عن زندقة ، ولا لأن هذا الانكار نفسه زندقة بحيث يرتد المسلم المؤمن بالنصوص كلها بقلبه ولسانه وعمله إذا فهم أن آيات نفي الرؤية هو الأصل المحكم الذي يرد إليه ما ورد من الآيات والأحاديث في إثباتها ، إذا الأول هو الموافق للعقل والنقل وهو التنزيه ، دون الآخر المستلزم عنده للتشبيه ، الواجب تأويله للجمع بين النصوص لا الرد شيء منها . وأهل السنة يعمدون المتأول وكذا الجاحد لما ليس مجمعا عليه معلوما من الدين بالضرورة فلا يكفرونه بخالفته للظواهر ، ولا يعمدون البدعة من هذا القبيل مسقطا للعدالة في الرواية ، قالوا إلا إذا كان صاحب اداعية ، لأن الدعوة إلى أمر ديني لم يؤرخ عن الصدر الأول أحداث لغتة وتفريق بين الموحدين كسألة خلق القرآن ، فما القول في الدعوة إلى ما أثر عن الصدر الأول خلافه كالرؤية ؟ ثم ما القول في الدعوة إلى مخالفة النصوص القطعية التي لا تحتمل التأويل لغة ولا شرعا ومخالفة ما أجمع عليه المسلمون وهو معلوم من الدين بالضرورة كدعوى الباطنية الملوحة ، ومثلها دعوى المسيحية القاديانية الهندية ، التي يلقب أهلها بالأحمدية ، أن رئيس نحلتهن ميرزا غلام أحمد القادياني هو المسيح المبشر بعودته إلى الدنيا في بعض الأحاديث ، وأنه كان يوحى إليه ، ونسخت فرضية الجهاد على لسانه فصار من الواجب على المسلمين عندهم أن يستسلموا للأجانب المستعبدين لهم ، السالبيين لاستقلالهم المبطانين لشريعتهم ، ولا يجوز لشعب إسلامي عندهم أن يدافع بالقتال عن ملته ووطنه ، وإنما جعل القادياني هذا من أصول دينه خدمة للانكليز ، ولا يزال الباب مفتوحا عند أتباعه مثل هذا بزعمهم أن وحي النبوة متصل في خلفائه وأتباعه ، فالقول بهذا خروج من ملة الاسلام ، لا تنفع معه صلاة ولا زكاة ولا

حج ولا صيام ، وما أفضى إلى هذا الضلال المبين إلا التوسع في باب التأويل ، فإن قيل : إن كلام من مثبتى رؤية الرب تعالى في الآخرة ونفاتها قد ادعى بعضهم أن النصوص التي يستدل بها على مذهبه قطعية ، حتى إن النافي جعل نصوص الاثبات دالة على النفي ، والمثبت جعل نصوص النفي دالة على الاثبات ، كقول بعض النفاة إن قوله تعالى (إلى ربها فاعظرة) يفيد الحصر بتقديم الجار والمجرور على المتعلق أى تنظر إلى ربها وحده دون سواء كقوله (ألا إلى الله تصير الأمور) (وأن إلى ربك المنتهى) أى لا إلى سواء ، ولما كان عدم نظرها إلى غير ربها ممنوع عقلاً ونقلاً وجب حمل النظر على معناه الآخر وهو الانتظار بمعنى أنها لا تنظر الخير من غيره (راجع الكشاف) ويقابل هذا من بعض أهل الاثبات الاستدلال بقوله تعالى (لا تدركه الأبصار) على رؤيته تعالى من حيث إن الإدراك معناه الاحاطة ، وإدراك الأبصار إنما احاطتها بالمرئى ، ففي الإدراك يستلزم إثبات رؤية الإدراك فيها ، فكأنه قال لا تدركه الأبصار التي تراه وهو يدرك الأبصار التي يراها ويحيط بها . ونظيره قوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) أى هو يحيط بهم علماً لأنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم (والله من وراءهم محيط) وهم لا يحيطون به علماً لأن إحاطة المحيط به بالمحيط محال ، وهو يستلزم إثبات أصل العلم به لانه به كآية نفي إدراك الأبصار ، وكل منها جار على قاعدة معروفة في اللغة وهي أن نفي المقيد يقصده إلى القيد وأن نفي وصف خاص لمعنى عام يستلزم إثبات ذلك العام ، كقولك : فلان لا يشبع - فإنه إثبات للأكل ونفي للشبع .

هذا توجيه لهذا الاستدلال فتح الله تعالى به علينا وقد رأينا للشيخ تقى الدين بن تيمية توجيهاً آخر ملخصه أن الله تعالى ذكر هذه الآية في مقام التمدح وإنما يكون المدح بالأوصاف الثبوتية لا بالعدم المحض ، وما تمدح تعالى بأمر سلمى أو عدمى إلا إذا تضمن معنى ثبوتياً كنفى السنة والنوم المتضمن لكمال القيومية ونفى الموت المتضمن لكمال الحياة ونفى الشريك والظهير المتضمن لكمال الربوبية والالهية ، ونفى الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن لكمال توحيده وغناه عن خلقه ، ونفى المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته . . قال فكذلك نفي إدراك الأبصار ليس معناه أنه لا يرى بحال ، لأن هذا يشاركه فيه العدم المحض والرب جل جلاله يتعالى أن يتمدح بما يشاركه فيه العدم المحض ، فالمعنى إذن أنه يرى

ولا يدرك ولا يحاط به - كمنظأره - فقلوه (لا تدركه الأبصار) يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء، وأنه أعظمته لا يدرك بحيث يحاط به،^(١) فإن الإدراك هو الاحاطة بالشئ، وهو قدر زائد على الرؤية. ثم استدل على هذا المعنى لغة بما تستغنى عن ذكره بما أوردناه في تفسير هذه الآية من سورة الأنعام فقد حققنا المعنى اللغوي للإدراك والمناجاة في الخلاف في الرؤية ووعدنا بتفصيل الكلام فيها عند تفسير آية الأعراف التي نحن في صدد تفسيرها الآن (وجوابنا) عما ذكر أن هذه الدقائق اللغوية مما يخفى على أكثر علماء اللغة وكذا أهل السلفية أيضاً ولذلك اختلفوا في معناها فكيف يقال في شيء منها أنه نص قطعي لا يحتمل التأويل؟

وغرضنا من هذا التطويل بيان حجج كل فريق اقتناع أهل البصيرة في الدين والاخلاص في جمع كلمة المسلمين، من المستقلين في الفهم، والراسخين في العلم، حتى المولودين في مهور المذاهب، ولذا شئت في حجور الأحزاب والشيعة، أن يجتهدوا في التوفيق والتأليف، ومنع جعل هذه المسألة وأمثالها من أسباب التفريق، فضلاً عن جعلها من أسباب التكفير أو النفسيق، وليعذرنا من يرانا نخالف فهمه أو مذهبه في ترجيحنا للأثر عن جمهور السلف الصالح فيها وفي جميع أمور الدين، ثم ليعذرنا أخواننا السلفيون في تقريب مذهب السلف إلى العقول التي لا يرجي أن تهتدى به وتأخذ بالقبول إلا بإثباته بما ألفت من طرق الاستدلال، وإيضاحه بما يقر به إلهما من ضرب الأمثال، وقد سبق لنا تحقيق هذين الأمرين معا بفتوى نشرت في ص ٢٨٢ - ٢٨٨ من المجلد التاسع عشر من المنار، فيحسن أن تضاف إلى هذا البحث، وإن يلخص الموضوع في قضايا معدودة تكون أضيظ له واجمع للمحتاج إليه المسلمون منه في دنياهم وآخرتهم، وإن كان فيه تكرار فإن الشكر ارفى إيضاح الحقائق ضروري

وإننا نقدم بين يدي ذلك قضايا جامعة في المسئلة وماورد فيها من الأحاديث الصحيحة، وأقوال السلف والخلف فيها.

(١) تعليلنا هنا لعدم ادراكه تعالى باحاطته بكل شيء اظهر وابعدهن الابهام من تعليل شيخ الاسلام اياه بمثلته سبحانه، واطهر منه تعليل آية الاعراف نفسها اياه بلفظه تعالى، وكل منهما صحيح ولكل منهما موقع - راجع ص ٥٦ ج ٧ تفسير

قضايا جامعة في مسألة الرؤية .

(١) ان اثبات رؤية الرب تعالى في الدار الآخرة المخالفة لهذه الدار في شؤونها وشؤون أهلها وسنن الله تعالى فيهما بالقيود التي قيدها بها المثبتون لها من تنزيله تعالى عن مشابهة خلقه - ليس من الحالات العقلية الثابتة بالضرورة والالما . وقع فيها خلاف ألينة ، ولا بالبراهين العقلية التي تنتهي إلى الضرورة والإلزام . فارتفع الخلاف فيها بين حذاق النظر عند وصول البرهان إلى هذا الحد ، ولم يقع هذا ولا ذاك .

(٢) ان الآيات القرآنية فيها ليست نصوصاً قطعية الدلالة في الإثبات وحده ولا في النفي وحده ، وإلما وقع الخلاف فيها ألينة ، وقد وقع هذا الخلاف فيها بين قليل من السلف وكثير من الخلف ، ففهم عائشة لأية الأنعام وبجاهد لأية القيامة مخالف لرأى جمهور أهل السنة - فلم أنها غير قطعية الدلالة بحيث لا تحتل إلا أحد الوجهين ، فهي إذن ظنية والترجيح فيها بين مآظهم الإثبات ومآظهم النفي محل الاجتهاد ، ولا شك في أن كلا من المثبتين والنفاة يعتقد صحة ترجيحهم لظراً واستدلالاً ، أو اتباعاً وتقليداً . فالسألة بينهما مشتركة الإلزام ، فلا وجه لظن أحد منهما في دين الآخر ولا في علمه بها .

(٣) ان في الأحاديث الصحيحة من التصريح في اثبات الرؤية مالا يمكن المراء فيه ولكن المراد من هذه الرؤية غير قطعي ، وفيها ما قد يدل على عدم الرؤية ، فيأتى فيها الخلاف بين السلف والخلف حتى من المنسوبين منهم إلى السنة ، كالأشعرية بين التفويض والتأويل ، لأنها بحسب اصطلاحهم من النصوص الموهمة للتشبيه ، وقد قال صاحب جوهرة التوحيد من الأشعرية :

وكل نص أوهم التشبيه أوله أو فوض ورم تنزيلها

(٤) ان جمهور السلف والخلف وأكثراً أهل الحديث يفوضون في جملة النصوص الواردة في صفات الله تعالى وشؤونه وأفعاله بمعنى أنهم يبرونها كما جاءت من غير تحكيم في تأويل يخرجها عن ظواهر معانيها وينزهونه سبحانه عن مشابهة خلقه فيما أطلق عليهم من مثل تلك الألفاظ الدالة على تلك الصفات والشؤون والأفعال ، وان جمهور الخلف من سائر الفرق يتأولون ما عدا صفات المعاني ، كالتلم والقدرة والارادة حتى الأشعرية من أهل السنة ، وإنما تراهم أقرب إلى السلف في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها مع المعتزلة كالكلام

الإلهي ورؤية الرب سبحانه وتعالى . وقد شنع بعضهم على الحنابلة بأشد ما يشنعون به على المعتزلة ، ولكنهم لا تفاهقهم على كون أحمد بن حنبل من كبار أئمة السنة يسلمونه ممن يشنعون عليهم من أتباعه سلا ، ويبرؤونه من أقوالهم فرعاً وأصلاً

(٥) إن من أصح الشواهد على ما ذكرنا في هذه القضايا الغامة ما رواه الشيخان عن مسروق عن عائشة واللفظ لمسلم قالت « ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال مسروق : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظري ولا تعجليني . ألم يقل الله عز وجل (ولقد رآه بالأفق المبين) (ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلقه الله عليها إلا هاتين المراتين . رأيته منهبطاً من السماء سداً عظيم خلقه ما بين السماء إلى الأرض . فقالت أو لم تسمع أن الله يقول (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) أو لم تسمع أن الله يقول (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء إنه على حكيم) ؟ قالت : ومن زعم أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) . فعائشة وهي من أنصح قريش تستدل بنفي الإدراك على نفي الرؤية مع ما علم من الفرق بينهما ، وتستدل على نفيها أيضاً بقوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) وقد حملوا هذا وذلك على نفي الرؤية في هذه الحياة الدنيا ، ولكن إدراك الأبصار للرب سبحانه محال في الآخرة كالدنيا ، والتعميل الصحيح لمثبتي الرؤية في الآخرة دون الدنيا أن البشر لا يقوى خلقه الدنيوي الممدد للفناء ولا يطيق رؤية الرب تعالى كما تقدم ، ويقويه بعض الشواهد الأخرى ، وفيه بحث ذكرناه في الفتوى .

(٦) ومنها ما رواه مسلم من حديث أبي موسى (رض) قال « قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال (١) إن الله عز وجل لا ينسأ ولا ينسى له أن ينام (٢) يفض القسط ويرفعه (٣) يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ،

وعمل النهار قبل عمل الليل (٤) حجاب النور في رواية النار (٥) لو كشفه لاحرق سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه»^(١) والمعنى أن النور العظيم هو الحجاب الذي يحول بينه وبين خلقه وهو بقوته وعظمته ملتهب كالنار ، ولذلك رأى موسى عليه السلام عند ابتداء الوحي نارا في شجرة توجه همه كله اليها فنودي الوحي من وراءها وفي التوراة أن الجبل كان في وقت تكليم الرب لموسى عليه السلام وإيقائه الألواح مغطى بالسحاب «وكان منظر مجد الرب كندار آكلة على رأس الجبل امام عيون بني اسرائيل» (خروج ٢٤: ١٧) ورأى النبي الخاتم الأعظم ﷺ ليسلة المعراج نورا من غير نار وربما كان هذا أعلى ولسكنه كان حجابا دون الرؤية أيضا ، فقد سأله أبو ذر (رض) «هل رأيت ربك ؟ فقال : نور ، أنى أراد ؟» وفي رواية أخرى «رأيت نورا» ومعناها معاً رأيت نورا بمعنى من رؤيته لأنه تعالى نور ، وأنه لذلك لا يرى ، وهذا يتلاقى ويتفق مع قوله «حجاب النور» ولذلك جعلنا أحاديث النور شاخدا واحدا في موضوعنا . وهي تدل على عدم رؤية ذات الله عز وجل وامتناعها كما تمتنع رؤية شيء تكون الشمس دونه حجابا له ، فمن ذا الذي تنفذ أشعة نور بصره من نور الشمس ونارها إلى ما وراءها فتبصره ؟ وما هذه الشمس التي يراها على بعد قدره علماء الهيئة الفلكية بأكثر من تسعين مليون ميل وسائر الشمس السكتيرة التي يرونها بالمنظير المقربة للأبعاد والتي لا يرونها إلا ببض ما أقاضه تعالى من النور على خلقه وهو نور السموات والأرض وسبحات نور وجهه أعظم وأقوى ، وأجل وأعلى ، فلا تذكر معها أنوار الشمس إلا من باب ضرب المثل الذي ورد (ولله المثل الأعلى)

وقوله ﷺ «لو كشفه لاحرق سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه» يدل على أن رؤية ذاته عز وجل رؤية إدراك مما يمتنع على جميع

(١) قول أبي موسى (رض) قام فينا بخمس كلمات معناه انه قام بهم مرة أو ليسلة يعلمهم فيها هذه الكلمات الخمس ويشرح لهم معانيها . والقسط كما في نهاية ابن الأثير ميزان أعمال العباد المرتفعة اليه أو أرزاقهم النازلة من عنده أي يرفع درجات أعمال بعض العاملين وهم الصالحون المصلحون ويخفض درجات آخرين وهم اضدادهم - أو يزيد وينقص في الارزاق كالوزان الذي يزن لكل مشتر بقدر ماله . فالكلام

تشكيل ، وسبحات وجهه نوره وبقاؤه وجلاله ، قاله النووي .

الخلق حتى الملائكة في الملائكة الأعلی لا فی الدنيا فقط ، لأن الوجه يعبر به عن الذات وفسروا وجه الله بذاته وإن كان في أصل اللغة ما يواجه به الشخص غيره وفيه معارفه أى ما يعرف به ويمتاز عن غيره . ومعنى الجملة أنه تعالى لو كشف عن وجهه حجاب النور المخلوق الذى هو منتهى ما يصل اليه أكل البشر عند ارتقائهم إلى أعلى درجات المعرفة والعلم به عز وجل ، وتبلى سبحانه للخلق كافة بدون هذا النور الذى يحجبهم عنه ، لأحرقت سبحانه ما انتهى اليه بصره منهم ، أى لأحرقهم كلهم فان بصره تعالى محيط بكل موجود في العالم كله من سمائه وأرضه ، وهو ضرب مثل خلاصته أن آخر ما يصل اليه العلم هو اكتشاف الحجاب الأخير الذى هو الفاصل بين المخلوق والخالق وهو النور الذى هو مبتدأ التكوين ، ومصدر التطور والتلويح

قال الله تعالى (مالك لا ترجرن لله وقاراً ؟ وقد خلقكم أطواراً) وخلق الناس وكذا سائر المخلوقات أطواراً قد فصل في علوم سنن الله في التكوين ، ففى خلق الانسان من ذكر وأنثى أطوار ، وفى خلقه قبل ذلك من سلالة من طين أطوار . وفى التكوين الأول للأرض التى خلق منها أطوار ، وهى بعد المادة التى خلق منها السموات والأرض المشار إليها بقوله (أولم يرى الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما وجعلنا من الماء كل شئ حى) وقوله (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) الخ ، والظاهر أن هذه المادة المعبر عنها أو المشبهة بالدخان فى هذه الآية هى المشبهة للغمام المشابه للدخان فى قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) فهذا كلام عن إعادة الخلق يوم القيامة وهى النشأة الأخرى ، وذلك كلام فى بدئه وهى النشأة الأولى ، وقد قال تعالى (٢٩ : ٢٠ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) وقال (١٩ : ١٠٤) كما بدأنا أول خلق نعيده

إذا تذكرت هذا فاعلم أن كل ما يشغل الانسان عن معرفة الله تعالى ومراقبته من أطوار الخلق وشؤونه فهو حجاب له عنه فالحجب بين العبد والرب كثيرة وطوبى لمن آمن وعرف أن له ربا وأن هذه المخلوقات حجب دونه ، وأنه فوقها بائن منها لا تشبهه ولا يشبهها ، فانها حينئذ قد تكون من وسائل معرفته وشكوه ومحبته . ولا تكون حجباً إلا لدون إدراك كنهه وحقيقته ، وأن من الناس من تكون حجباً له دون

الإيمان والمعرفة ، وسيأتي الفرق بين الفريقين في شاهد آخر . وقد روى الطبراني في الأوسط من حديث أنس (رض) مرفوعاً « سألت جبريل هل نرى ربك؟ قال إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور، ولو رأيت أذناها لاحتقرت » ورواه عنه سمويه بلفظ « سبعين ألف حجاب من نور وفار » وفي النهاية لابن الأثير أن جبريل عليه السلام قال « لله دون العرش سبعون حجاباً لو دونونا من أحدها لاحترقنا سبحات وجه ربنا » وهذه الروايات صحيحة المعنى وإن كانت ضعيفة الإسناد لما يؤيدها من الصحاح . وعلماء الهيئة الفلكية يرون بما اكتشفوه بمنظرهم المكبرة عياناً أن أكثر هذه النجوم التي نراها أو ما عدا الدراري والأقمار منها كلها شموس منها ما هو أعظم من قمرنا عالمنا هذا أو بعد منها بسنين كثيرة من سنى سیر النور الذي يقطع به زهاء مائة مليون ميل في أقل من عشر دقائق ، والنصوص تدل على أنها كلها دون العرش (٧) ومنها ما رواه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً « جنتان من فضة آيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » قالوا : إن الرداء هنا بمعنى الحجاب الذي ذكر آنفاً ، وقد جمعه من باب الاستعارة ولا إشكال في التعبير وإنما الحديث صريح في عدم رؤية الذات بدون حجاب . وقال الحافظ ابن حجر في شرحه من الفتح نقلاً عن الكرمانى بعد عدة من المتشابهات : ظاهره يقتضى أن رؤية الله غير واقعة وأجاب (أى الكرمانى) بأن مفهومه بيان قرب النظر إذ رداء الكبرياء لا يكون مانعاً من الرؤية ، فمعبّر عن زوال المانع عن الأبصار بإزالة الرداء - وحاصله أن رداء الكبرياء مانع عن الرؤية فكان في الكلام حذف تقديره بمذوقه « إلا رداء الكبرياء » فإنه بمن عليهم برفعه ... الخ ما قاله - وفيه من التكلف ما لا ينبغي لحفاظ السنة الاعتداد به وهم ينكرون على الجهمية والمعتزلة مثله وما هو أمثل منه من تأويلاتهم .

ثم إن الحافظ ابن حجر اعتمد في تأويل الحديث جعل رداء الكبرياء هنا عين الحجاب في حديث مهيب الذي أخرجه مسلم بعد حديث أبي موسى هذا وكأنه أراد تفسيره به . ورواه الترمذى والنسائى وغيرهما أيضاً وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله عز وجل : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟

قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل ، وفي رواية زيادة : تلا (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وفيه أن أهل الجنة هؤلاء لم يكونوا يعلمون أنه سبحانه يرى بدون حجاب وان رؤيته في الموقف وملاقاته كانت مع الحجاب ، كذه الملاقاة في الجنة عند سؤالهم عما يطلبون من زيادة النعيم

ولقائل أن يقول أيضاً : إننا إذا قطعنا بأن المراد بهذا الحجاب رداء الكبرياء المذكور في الحديث الذي قبله وأنه كان المانع من النظر فلا يمكننا أن نقول إنه هو حجاب النور المانع من الرؤية في الأحاديث الأخرى ، والنظر غير الرؤية ، فيمكن أن يقال : إن رداء الكبرياء الذي كان مانعاً من النظر يكشف فيقع النظر فيرى الناظرون النور الذي رآه النبي (ص) وأخبر أنه كان المانع من رؤية الذات . وسياً في تحرير هذا البحث (٨) - ومنها ماورد في تجليته سبحانه في الصور ، وأقواها وأصحها حديثنا

أبي هريرة وأبي سعيد الخدري (رض) الطويلين في الصحيحين وغيرهما ، وحمل الشاهد فيه أن ناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل يضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا لا يا رسول الله قال « فانكم ترونه كذلك : يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتهم الله تعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول : أنا ربكم . فيقولون نعموذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه . فيأتهم الله تعالى في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا فليتبعونه » اه المراد منه ويليه ذكر الصراط والجواز عليه والنار والحساب الخ وهذا لنظ مسلم عن أبي هريرة ، وفي لفظ البخاري « هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ » وذكر بعدها القمر

وفي حديث أبي سعيد تشبيه رؤية الرب تعالى برؤية الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر أيضاً ، أي في كونه لا مضارة فيه ولا في التزام عليه — لا تشبيه المرئي بالمرئي — وفيه ذكر من عبد العزيز والمسيح ودخول كل من عبد غير الله النار ويقول (ص) بعده « حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه

فيها قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنّا إليهم ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا » الحديث وفيه ألفاظ أخرى في الصورة ، سنأتي في آخر الكلام عليه

وهذا لفظ مسلم أيضاً ويخالفه لفظ البخاري في بعض التعبير ورواها غيرهما بالفاظ توافق كلاهما ويخالفه بتعبير أو زيادة أو نقصان والمعنى العام واحد ، فمن أمثلة اختلاف اللفظ رواية « فيكشف عن ساقه » وهي لا تعارض رواية « فيكشف عن ساق » الموافقة للفظ القرآن (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) ولكن تكبير الساق : وإسناده كشفه إلى المفعول أوسع مجالاً للتأويل من إضافته إلى الرب تعالى وإسناده كشفه إليه فهو كالتشهير عن الساعد مثلاً في كلام العرب للجد والاهتمام وشدة الخطب ، وسبب الأول أن من يريد الفرار من شيء يخوف يكشف عن ساقه ليسهل عليه العدو السريع فلا يتعثر بشو به وسبب الثاني أن من يريد أن يعمل عملاً باتقان وسرعة يشمر عن ذراعيه حتى لا يعوقه كاه ، وفي جهاز الأساس قامت الحرب على ساقها ، وكشف الأمر عن ساقه . قال :

عجبت من نفسي ومن اشفاقها ومن طرادى الطير عن أرزاقها

في سنة قد كشفت عن ساقها هـ

أقول : فخرج بعضهم عبارة الحديث على هذا الاستعمال بمعنى أن أمر امتحان الله تعالى للناس والتزييل بين المؤمنين والمنافقين ينتهي إلى آخر حده بتيسيره جلّت حكمته السجود للمؤمنين دون المنافقين . وذهب بعضهم إلى أن لفظ الساق ورد بمعنى الذات والنفس ، واستشهدوا به بقول أمير المؤمنين على رضي الله عنه في حرب الشراة « لا بد من قتالهم ولو تلفت ساق » قالوا أي نفسي وعليه يصح أن يكون كشف الساق في الآية والحديث عبارة عن كشف

الحجاب ويخرج عليه مارواه عبد بن حميد عن الربيع بن أنس فى تفسير (يوم يكشف عن ساق) قال : عن الغطاء فيقع من كان آمن به فى الحياة الدنيا فيسجدون له . ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون لأنهم لم يكونوا آمنوا به فى الحياة الدنيا ولا يبصرونه . والأول أقرب إلى أساليب اللغة وعليه ابن عباس وجهود مفسرى الساق ، قال ابن عباس فيما روى عنه من طرق (يوم يكشف عن ساق) عن شدة الأمر وجده ، هى أشد ساعة تكون يوم القيامة ، حتى يكشف الله الأمر وتبدو الأعمال . وقال : هو الأمر الشديد المقطع من الهول يوم القيامة . وسئل عكرمة عن الآية فقل : ان العرب كانوا إذا اشتد القتال فيهم والحرب وعظم الأمر فيهم قالوا لشدة ذلك : قد كشفت الحرب عن ساق ، فذكر الله شدة ذلك اليوم بما يعرفون . وهذا من التفسير الجلى ، لا من التأويل الخفى بالمعنى الأصولى ، وأما تأويله بالمعنى القوى أى ما يؤول اليه ويتحقق به فى الآخرة فلا يعلمه البشر إلا إذا وصلوا اليه .

وقد بين البيضاوى أصلاً آخر لكشف الساق تتجه به رواية عبد بن حميد فى جعله بمعنى كشف الحجاب فتذكره مع عبارته فى المعنى الآخر الذى عليه الجمهور لحسن بيانه له وهما قوله فى تفسير (يوم يكشف عن ساق) : يوم يشتد الأمر ويعظم الخطب . وكشف الساق مثل فى ذلك وأصبه تشمير الحدرات عن سوقهن فى الحرب قال حاتم : أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرأ أو يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً ، مستعار من ساق الشجر وساق الانسان ، وتشكيكه للتأويل أو التعميم اهـ

ومن ألفاظ الحديثين التى اضطرب فيها العلماء مسألة الإتيان فى الصور المختلفة ، وإنكار المؤمنين له فى بعضها ومعرفته فى بعض فاختلَفوا فى تفسيرها وتأويلها ، فمنهم من أبعد النجعة ومنهم من قارب ، قال بعض المؤولين المراد بإتيانه تعالى رؤيته . أقول ولكن الإتيان كالتأويل فى إيهام التشبيه ، فلم يخص دونها بالتأويل ؟ وقال بعضهم يأتى ملك بأمره لامتحانهم ، ولكن جاء فى بعض النصوص الجمع بين إتيان الرب وإتيان الملك فيمتنع أن يفسر الأول بالثانى كقوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) وقوله (وجاء ربك والملك صفًا صفًا) على وجه . فمخالفة ظاهر

الحديث لله رب من إسناد الإتيان إلى الرب لا حاجة إليه مع هذا - فالأولى قول جمهور السلف إنه إتيان يليق به ، لا كإتيان الخلق

وقد اختلفوا في معنى الصورة وأولوها أيضاً ، والأظهر أنها عبارة عما يقع به التعجّل من حجاب ومنه رداء الكبرياء الذي سبق الكلام فيه ، وقد ورد لفظ الصورة في عدة روايات في الصحيحين لحديث أبي هريرة وأبي سعيد

(منها) كما تقدم من حديث أبي سعيد «أنهم رب العالمين سبحانه في أدنى صورة من التي رأوه فيها» (ومنها) «فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون» (ومنها) «في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة» (ومنها) «ثم يقبض الله لنا في صورة غير صورته التي رأيناها فيها أول مرة» وفي رواية هشام بن سعد «ثم نرفع رؤوسنا وقد عاد لنا في صورته التي رأيناها فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم . فتقول نعم أنت ربنا» وفي رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عند ابن منده «فيمثل لهم ربهم»

ذكر النووي في شرحه لحديث أبي هريرة من صحيح مسلم مذهب السلف في أمثال هذه الألفاظ والصفات وهو الإيمان بها وحملها على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع التنزيه كما تقدم ، ثم مذهب جمهور المتكلمين القائلين بالتأويل ومنه أنه يحجبهم ملك في صورة ينكرونها لما فيها من صفة الحدث ولا تشبه صفات الإله ليمتنعهم «فاذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة : أنا ربكم - رأوا عليه من علامات الخلق ما ينكرونه ويعلمون أنه ليس ربهم فيستعبدون بالله منه» وقال في شرح «فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون» : المراد بالصورة هنا الصفة ، ومعناه فيتعجّل الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التي يعلمونها ويعرفونها بها وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى لأنهم يرونه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته فيعلمون أنه ربهم فيقولون أنت ربنا ، وإنما عبر بالصورة عن الصفة لمشايتها إياها ولجأسة الكلام فانه تقدم ذكر الصورة اهـ وذكر الحافظ في الفتح تأويلات أخرى عن القرطبي والقاضي أبي بكر بن العربي من المالكية وابن الجوزي من الحنابلة تقرب مما اعتمدته النووي وغرضنا من هذه النقل بيان أن أهل السنة قد أولوا بعض أحاديث الرؤية كما أولت المعتزلة والخوارج والشيعة فلا مقتضى للتعادي والتفرق في الدين لأجل التأويل ، وبعض هذه التأويلات أعرق في التكلف من بعض ، وماساغ

في بعض الروايات لا يسوغ في البعض الآخر. وإذا كان الغرض من التأويل تقريب المعاني إلى الأذهان حتى لا يبقى مجال واسع للتشكيك في النصوص فإن الوقفين على علوم هذا العصر وفتونه قد يحتاجون إلى ما لم يكن يحتاج إليه من قبلهم، وقد بينا في مسألة الرؤية ما اشتدت إليه الحاجة في فتوى المنار التي أشرنا إليها في هذا البحث وفي مسألة الكلام الألهي بما فسرنا به الآيات التي سبقت فيه وسنزيد ذلك هنا، وسنذكر الفتوى بنصها (٩) اختلف العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج بين إثبات ونفي ووقف، واختلف المثبتون في الرؤية هل هي بعين البصر أم بعين القلب والبصيرة؟ كما اختلفوا في المعراج نفسه هل كان نقطة أم مناماً أم مشاهدة روحية بين اليقظة والنوم لا اختلاف الروايات عن الصحابة والتابعين (رض) فيها ولما ورد في الأحاديث المتعارضة في المسألة علماً وخصاصاً. والتحقيق أنه قد وردت أحاديث مرفوعة صحيحة في النفي دون الإثبات كحديث «نور أنى أراه» المنقذ في النفي الخاص به ﷺ وكحديث «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا» رواه مسلم وكذا ابن خزيمة عن أبي أمامة وعبد الله بن الصامت أما الصحابة، فاشتهر الإثبات عن ابن عباس منهم وروى عن أنس أيضاً وأخذ به بعض التابعين وقبلة بعض المحدثين والمتكلمين الذين لا يدققون في تمحيص روايات الفضائل والمناقب. واشتهر المنع عن عائشة والرواية عنها فيه أصح وأصرح، وقدم مارواه الشيخان عن مسروق عنها فيه، وفي بعض رواياته أن مسروقاً لمسألتها هل رأى محمداً؟ قالت له: لقد قف شعري مما قلت. وروى النفي عن آخرين من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو هريرة وغيرهما، وأما المحدثون الذين عنوا بالتعادل والترجيح والجمع بين الروايات فمنهم من نظر فيها لإثبات ما سبق إلى اعتقاده ومالت إليه نفسه كالخافظ ابن خزيمة وتبعه النووي فرجحاً رواية ابن عباس على رواية عائشة التي هي أصح سنداً وأقوى دليلاً بحجة أنها لم تنف الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته وانما اعتمدت على الاستنباط فتأولت آية (لاتدركه الأبصار) وآية (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً) الخ وقد غفلا عما لم يحل من حديثها في الصحيحين وقولها لمسروق لما احتج عليها بدلالة آية سورة النجم على رؤيته ﷺ لربه إنما أول من سأله ﷺ عن هذه الآية وتقدم لفظها في رواية الصحيحين،

وفيه رواية أخرى أصرح في المراد وهي ما أخرجه ابن مردويه بإسناد مسلم قالت «أنا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا، فقلت يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال لا، أنما رأيت جبريل منهبطاً» الخ

ومنه من نظار في الرويات لأجل التمهيط وتحقيق الحق فيها كشيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن حجر قبينا أن الروايات عن ابن عباس بعضها مطلق وبعضها مقيد بالرؤية القلبية لا البصرية فإذا حكمت فيها قاعدة حمل المطلق على المقيد زال التعارض بينهما وبين حديث عائشة وما في معناه

قال الحافظ في شرح البخاري: جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة، فيجب حمل مطلقاتها على مقيداتها، فمن ذلك ما أخرجه النسائي بسند صحيح وصححه الحاكم من طريق عكرمة عنه «أعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية ل محمد؟» وأخرجه ابن خزيمة بلفظه «إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة» الخ وأخرج ابن اسحق من طريق عبد الله بن أبي سلمة أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس «هل رأى محمد ربه؟ فأرسل إليه أن نعم» (ومنها) ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس «رض» في قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى - ولقد رآه نزلة أخرى) قال رأى ربه بفؤاده مرتين، وله من طريق عطاء عنه قال رآه بقلبه وأصرح منه ما أخرجه ابن مردويه عنه من طريق عطاء أيضاً قال: لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينه إنما رآه بقلبه اهـ ملخصاً، وقد روى الترمذي عن الشعبي أن ابن عباس (رض) سمع حديث قسمة الكلام والرؤية بين موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم من كذب الأخبار في عرفة ١١

فعلم مما تقدم أن ما روى عن ابن عباس من الإثبات هو الذي يصح فيه ما قيل خطأ في نفي عائشة: أنه استنباط منه ولم يكن عنده حديث مرفوع فيه، وأنه على ما صح عنه من تقييده بالرؤية القلبية معارض مرجوح بمصاح من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم لا يتى سورة النجم وهو أنهما في رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل بصورته التي خلقه الله عليه على أن رواية عكرمة عنه لا يبعد أن تكون مما سمعه من كذب الأخبار الذي قال فيه معاوية «إن كنا لنبلو عليه الكذب» كافي صحيح البخار، ورواية ابن اسحق لا يعتمد بها في هذا المقام فانه مدلس وهو ثقة في المغازي لافي الحديث - فالإثبات المطلق عنه مرجوح رواية كما هو مرجوح دراية

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ان ابن عباس « رض » لم يقل انه ﷺ رأى ربه بعين رأسه يقظة ومن حكى عنه ذلك فقد وهم وهذه نصوصه موجودة ليس فيها شيء من ذلك . وقال : ما نقل عن الإمام أحمد من اثبات رؤية النبي ﷺ لربه إنما يعنى رؤية المنام فانه سئل عن ذلك فقال نعم رآه فان رؤيا الأنبياء حق . ولم يقل انه رآه بعين رأسه . وقال بعد ذكر ما تقدم عن ابن عباس : ولفظ الإمام أحمد كلفظ ابن عباس ، وأهل السنة متفقون على أن الله تعالى لا يراه أحد بعينه في الدنيا لا نبي ولا غيره ولم يقع النزاع إلا في نبينا ﷺ خاصة مع أن الأحاديث المرفوعة ليس في شيء منها أنه رآه وإنما روى ذلك بإسناد موضوع باتفاق أهل الحديث اه .

فتوى المنار المشار إليها آنفا (من ص ٢٨٢ م ١٩)

﴿ التحقيق في مسألة رؤية الرب سبحانه وتعالى ﴾

إن من أصول العقائد القطعية المملومة من الدين بالضرورة أن نعيم الآخرة قسمان روحاني وجسماني لأن البشر لا تنقلب حقيقتهم في الآخرة بل يبقون بشرا أولى أرواح وأجساد ، وليكن الروحانية تكون هي الغالبة على أهل الجنة ، فيكون النعيم الروحاني عندهم أعلى من النعيم الجسماني . ومن الثابت بالاختبار والتجارب أن العلماء الراسخين والحكماء الربانيين والفلاسفة الماديون ^(١) والرؤساء السياسيون - كلهم يفضلون الذات العقلية الروحية والحياة المعنوية ، على الذات المادية الجسدية ، فتزى أحدهم يزهد في أطايب الطعام ، وكؤوس المدام .

(١) أى وكذا الفلاسفة الماديون : وهو استمهال يعد بليغا إذا كان لما رفع خصوصية في السياق ككون الماديين هنا مظنة لمخالفة الروحانيين . ومنه قوله تعالى في سورة المائدة (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) الخ ويقابل هذا الاستمهال في نصب ماهو في مقام الرفع مانصب على الاختصاص أو المدح والذم وهو أكثر في الاستمهال ومنه قوله تعالى (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) الخ والبرضان المقتضيان لتغيير النسق في مثل الآيتين من مقاصد بلاغة اللغة فيجب أن يكونا قياسيين وان كان الثقل في الأول قليلا لعدم فطنة رواة اللغة له

ويحتاج في جنبه عن مضجعه ، ذاهلا عن حقوق حليته ، قلذاجبل مشكلات المسائل
 واكتشاف أسرار الكون ، أو بالنفث في عقد السياسة ، وما تقتضيه أعباء الرياسة
 إلا وان أعلى العلوم العقلية والمعارف الروحية في هذه الدنيا هو معرفة الله سبحانه
 وتعالى والعلم بمظاهر أسمائه وصفاته في خلقه والوقوف على سنته وأسراره فيها ،
 وكشف الحجب عما أودع فيها من الجمال والجلال ، وفي النظام الذي قامت به من
 آيات الكمال ، التي هي بحلى صفات بارئها وهو منتهى الجمال والجلال والكمال ،
 عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

وما زال أصحاب الهمم العالية من العلماء والحكماء يستدلون بما ظهر لهم من
 تلك السنن والآيات على كمال مبدعها ومبدئها ومصرفها ، وتقطع عيون عقولهم
 إلى كيفية صدور الوجود الممكن الحادث ، (وهو مجموع هذه العوالم العلوية والسفلية)
 عن الوجود الأزلي الواجب ، ويهتمون بارتقاء الأسباب للوصول إلى معرفة أول
 موجود ممكن منها ، وكيف ابتدأت سلسلة الأسباب بعد ذلك بتحول البسائط
 وتولد بعضها من بعض ، قبل وجود هذه المركبات المعروفة من السماء والأرض ،
 طمعا في معرفة حقيقة ذلك الوجود الأعلى على عجزهم عن إدراك كنه أدنى هذه
 الموجودات السفلى ، وقد اختلف الحكماء في إمكان وصول العلم البشري ، إلى
 حقيقة الوجود الأول الأزلي ، وكيفية صدور الموجودات الممكنة عنه ، فقال بعضهم
 بإمكان ذلك وتوقع حصوله في يوم من الأيام ، وقال آخرون بأنه فوق استعداد الأنام
 والحق في ذلك ما هدانا إليه دين الله الحق ، وهو أن أدراك أبصار الخلق له
 سبحانه وتعالى وإحاطة علمهم به من المجال الذي لا مطلق فيه (لا تدركه الأبصار
 وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا
 يحيطون به علما) ولكن العجز عن الإدراك والإحاطة ، لا يستلزم العجز عما دون
 ذلك من العلم والمعرفة ، التي ترتقي إلى الدرجة التي عبر عنها بالتجلى والرؤية ،
 فإن كانت ظواهر الآيات في ذلك متعارضة ، فالأحاديث والآثار الصحيحة
 المبينة لهجلية واضحة ، وإنما وقع المراءى بين المتكلمين والمتفلسفين وبين علماء الآثار

في كلمة « الرؤية » فأثبتها أهل الأثر لدلالة ظواهر القرآن ونصوص الأحاديث عليها ، ومنعوا قياس رؤية الباري تعالى على رؤية المخلوقات ، بدعوى استلزامها التحيز والحدود وغير ذلك من صفات الأجسام ، وقالوا إننا لا نبحث في كيفية ذاته ولا صفاته تعالى ، فاننا نجزم بأن له علما وقدره وسمعا وبصرا ، ولكن علمه ليس ناشئا كعلمنا عن انطباع صور المعلومات في النفس ، ولا مكتسبا له بالحواس أو الفكر ، وكذلك قدرته وسائر صفاته ، فنحن نجتمع بين الإيمان بالنصوص في أسماء الله وصفاته وأفعاله وسائر شؤونه ، وبين تنزيهه عما لا يليق به من مشابهة خلقه ، المتنوعة بدلائل النقل والعقل ، كما قال عز وجل (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير)

ونفاهما (بعض) أهل الكلام والفلسفة بناء على قياس الخالق سبحانه وتعالى على المخلوق ودعوى منافية الرؤية للتنزيه ، الذي هو أصل العقيدة وركنها الركن . ولكنهم لا يستطيعون إنكار الحقيقة التي أثبتتها أهل السنة والجماعة إذا عبر عنها بغير لفظ الرؤية ، كأن يقال إن أعلى نعيم أهل الجنة لقاء الله تعالى بتجليه عليهم تجليا يحصل لهم به أعلى ما استعدت له أنفسهم وأرواحهم من المعرفة ، وإن أعظم عقاب لأهل النار حجبتهم عن ربهم وحرمانهم من هذا التجلي والعرفان ، الخالص بدار الكرامة والراضون . فانهم لا يعتنون بتأويل مثل قوله تعالى في المتقين (يحيطهم يوم يلقونه سلام) وقوله في الكافرين (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) كما يعتنون بتأويل قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) بأن النظر معناه الانتظار والرجاء ، وما رد به بعضهم على بعض في الآية يطلب من الكشف والبيضاوى وحواشيها وسائر كتب التفسير ومن كتب الكلام وشروح الأحاديث . *

وكم بين حذاق الجدال تنازع وما بين عشاق الجمال تنازع ومن غرائب جدلهم أن كلا منهم يستدل على مذهبه بطلب موسى عليه السلام رؤية ربه وقوله تعالى (لن تراني . .) الآية . فأهل السنة يستدلون

(قد عدنا فينا آثما لبلب الخلاف ، وأهم دلائل الفريقين مع الانصاف

على جواز الرؤية بسؤال الكلام إياها وعدم إنكار الباري تعالى عليه هذا السؤال كما أنكر على نوح عليه السلام سؤاله نجاة ولده الكافر بناء على أنه من أهل الذين وعده بنجاتهم — وبتمليق الرؤية على جائز وهو استقرار الجبل ، والمعتزلة يستدلون بالآية على عدم الرؤية بعدم إجابة الكلام إياها وتعليقها على ما علم الله أنه لا يكون

وإذا كانت الآيات التي استدلت بها كل فريق ليست نصاً قاطعاً في مذهبه ففي الأحاديث المتفق عليها ما هو نص قاطع لا يحتمل التأويل في الرؤية وتشبيهها برؤية البدر والشمس في الجلاء والظهور وكونها لا مضارة فيها ولا تضام ولا ازدحام . وفي كتاب التوحيد من صحيح البخاري أحد عشر حديثاً في ذلك ، وجمع ابن القيم في (حادي الأرواح) ما ورد في ذلك من الأحاديث فكان ثلاثين حديثاً . قال الحافظ ابن حجر عند اشارته إلى ذلك : وأكثرها جيد . وزاد ابن القيم ما ورد عن الصحابة والتابعين وأئمة علماء المصارف في ذلك وحملهم إياه على ظاهره مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات ، ولكن بعض مثبتى الرؤية من أهل السنة اختلفوا في معناها فكان بعض ما قالوه تأويلاً أبعد من تأويل المنكرين قال الحافظ في الكلام على تفسير (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) من شرح كتاب التوحيد من البخاري ما نصه : واختلف من أثبت الرؤية في معناها ، فقال قوم : يحصل للرأى العلم بالله تعالى برؤية العين كافي غيره من المراتب وهو على وفق قوله في حديث الباب « كما ترون القمر » إلا أنه منزّه عن الجهة والكيفية ، وذلك أمر زائد على العلم . وقال بعضهم : إن المراد بالرؤية العلم ، وعبر عنها بعضهم بأنها حصول حالة في الإنسان نسبتها إلى ذاته الخصوصية نسبة الابصار إلى المراتب . وقال بعضهم : رؤية المؤمن لله نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم ، وهذا أقرب إلى الصواب من الأول اهـ

ثم ذكر ما تعقب به من قال إن المراد بالرؤية العلم . وإنما قال في القول الأخير أنه أقرب إلى الصواب لما فيه من التفويض وعدم التحديد ، وهذا المعنى هو الذي قال به الغزالي وأوضحه في كتاب الحجة من الأحياء بما يعهد من قرأ الأحياء من بيانه وفصاحته .

هذا وإن احصاء ماورد في هذا الباب مما استدل به على الرؤية اثباتا ونفيان
الآيات والاحاديث وسرد كلام المثبتين والنفاة وبيان الراجح منه والمرجوح
يستغرق عدة أجزاء من المنار، ولن يرضى ذلك منا أكثر القراء^(١) وجملة القول
في المسألة أن الآيات القرآنية ليس فيها نص قاطع لا يحتمل التأويل، ولكن بعض
الاحاديث الصحيحة والحسنة صريحة في ذلك لا تحتمل التأويل، والمرفوع منها
مروى عن أكثر من عشرين صحابيا، دع الموقوف والآثار، ولم يرد في معارضتها
شيء أصرح من حديث عائشة المتفق عليه عن مسروق قال «قلت لعائشة (رض)
يا أمته هل رأى محمد ﷺ ربه ليلة المعراج؟ فقالت: لقد قف شعري مما قالت!
أبنت أنت من ثلاث، من حدثك عن فقد كذب، من حدثك أن محمدا ﷺ رأى
ربه فقد كذب - وفي رواية: فقد أعظم على الله الفرية - ثم قرأت (لا تدركه
الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا
وحيا أو من وراء حجاب) ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب؛ ثم قرأت
(وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) ومن حدثك أنه - أى النبي ﷺ - كنم
شيئا من الدين فقد كذب، ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) -
الآية - ولكن رأى جبريل في صورته مرتين» اهـ

وقد ذكر النووي في شرح مسلم أن عائشة لم تنف وقوع الرؤية بحديث مرفوع
ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية وقد
خالفها غيرها من الصحابة الخ وذكروا الحافظ في الفتح أنه قال ذلك تبعا لابن
خزيمة ذاهلا عما ورد في صحيح مسلم الذي شرحه، وذكر أن في حديث مسروق
عنده زيادة عما ذكرناه من لفظ البخاري وهي - قال مسروق «وكنت متكئا
فجلست وقلت ألم يقل الله (ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت: أنا أول هذه الامة سأل
رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: إنما هو جبريل الخ

فعلم من هذا ان عائشة تنفي دلالة سورة النجم على رؤية النبي ﷺ لربه
بالحديث المرفوع وتنفي جواز الرؤية مطلقا أوفى هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله

تعالى (لا تدركه الأبصار) وقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) وبما مضى هذا الاستدلال أنه ليس نصاً في النفي حتى يرجح على الأحاديث الصريحة في الرؤية، وقد قال بها بعض علماء الصحابة وقال بعض العلماء إن عائشة ليست أعلم عندنا من ابن عباس الذي أثبت الرؤية للنبي ليلة المعراج. وفي هذا القول بحث، فإن ابن عباس استنبط إثبات الرؤية في الدنيا من الآيات وقد انفرد بذلك دون سائر الصحابة. وأما من روى عنهم إثبات الرؤية في الآخرة فليس فيهم أحد يقال أنه أعلم من عائشة إلا والدها الصديق وعلى المرتضى وزيد بن ثابت وقد يذكر في طبقتهما منهم العبادة. ولكن الحديث عن أبي بكر وزيد بن ثابت في هذا الباب ضعيف وعن علي موضوع حتى إن ما روى عنها نفسه أقره سنداً. ويقول النفاة: لو رأى النبي ﷺ ربه ليلة المعراج لما خفي نياً ذلك عن عائشة مع ما علم من حرصها على العلم، وسؤالها إياه عن آية النجم؟ وقد يقول النفاة أيضاً: لو كانت الرؤية في الآخرة عقيدة يطالب المسلمون بالإيمان بها لما جهلهم عائشة. ولكن هذا القول لا ينهض لمعارضة إثبات المتيقنين لها بالأحاديث الصريحة، وإنما قصاره أن يعد دليلاً على أن المسألة من أمور الآخرة التي كان يذكرها النبي ﷺ أحياناً لبعض الخواص إذ لا يضر العامة جهلها، فلم يقصد أن تكون عقيدة يدعى إليها مع التوحيد.

وأحسن ما يجاب به عن استنباط عائشة وأقواه عند المتيقنين أن يقال: إنها تريد به نفي الرؤية في الدنيا كما قال بذلك الجمهور ولا تقاس شؤون البشر في الآخرة على شؤونهم في الدنيا لأن لذلك العالم سنناً ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى في الأمور المادية كالأكل والشرب والمأكل والمشروب، فإِنَّ الجنة غير آسن فلا يتغير كآء الدنيا بما يتخالطه أو يجاوره في مقره أوجوه، وخرها ليس فيها غول يقتال العقل ولا يصدعون عنها ولا يترفون، ولينها لا يعتريه فساد، ولا يتخالطه جنة (ميكروبات) أمراض، وكذلك فأكتمها ونمراتها هي على كونها أعلى وأشهى مما في الدنيا لا تفسد. قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء. وكذلك أمزجة أهلها، هي أصح وأسلم من أمزجة أهل الدنيا حتى إنهم يأكلون

و يشربون فيكون هضمهم بالتبخير و رشح العرق ، ففي الحديث الصحيح أنه جشاء و رشح لها ربح المسك ، ولا عجب في ذلك فان علماء العصر الذين يظنون أن في كوكب المريخ أحياء عقلاء كالبشر يحزمون بأنهم لا بد أن يكونوا أكبر منا أجساماً أسرع من الخيل العادية في حركتهم العادية ، هذا وعالم المريخ لا يعرف فيه من الحياة الروحانية العالية مثل ماورد في حياة الجنة ، ولكن مذكرة علماء العصر في شأنه يقرب تصور ماورد في صفة الآخرة من الأذهان المفيدة بالمألوفات ، فان بعض الناس إنما ينكرون أخبار الآخرة لأنها مخالفة لما جردوا عليه من المألوفات ، ولو أنهم أخبروا بما اكتشف من أسرار النكون في هذا العصر كخواص الكهرباء والراديو قبل أن يصيروا شهوداً مقطوعاً بعلم صدقوه . قال الله عز وجل في بيان جزاء المؤمنين القائمين بأعمال الإيمان حق القيام (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) ووضح ذلك رسوله في حديث قدسي رواه الشيخان في صحيحهما عن أبي هريرة قال : قال ﷺ « قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وروى أهل الكتاب مثل هذا عن سيدنا عيسى ﷺ فإذا ثبت لنا أن كل ماورد في دار الكرامة أعلى وأسمى مما في الدنيا حتى الأجسام وصفات الناس وغرائهم وأنه لا يشارك ما في الدنيا إلا بالاسم ، الذي عبر عنه به لضرورة تقررب تلك المعاني الغيبية من الفهم ، فهل يصح بعد ذلك أن نعود إلى أعلى ما هنالك من الشؤون الإلهية المعنوية فنشبهه بشؤون الدنيا ؟ فنجعل تجلي الرب سبحانه وتعالى لأولئك العباد المكرمين الذين رقامهم وكلهم وأهلهم لكمال معرفته تحبيراً ومشابهة للخلق ؟ ونجعل ما يحصل لهم من ذلك التجلي من العلم الأكمل والمعرفة العليا التي تستغرق أرواحهم وجميع مشاعرهم الظاهرة والباطنة إدراكاً ولكنه الرب عز وجل وإحاطة علم به — تعالى عن ذلك — ثم نعذر أنفسنا على هذا الجهل بأن ذلك قد سمى رؤية ومعينة ، ولا بد أن تكون الرؤية هنالك كرويتنا التي نهدها هنا ؟

سبحان الله ! أيكون كل ما هنالك من أعيان المخلوقات وصفاتها وأحوالها مخالفاً لما له اسمه منها هنا إلا ما يتعلق بشأن الخالق عز وجل فهو الذي يجب أن

يكون مشابهة لشؤون الخلقين بعضهم مع بعض ؟ أم هذا هو المذهب الذي يدعى أصحابه اتباع المقول ، ويسخرون من أهل السنة بزعمهم أنهم جحدوا على بعض أحاديث الأحاذ من المقول ؟ وهم الذين قد جحدوا على ما دون ذلك من الالفاظ العربية التي استعملت في صفات الباري تعالى وشؤونه وأخبار عالم الغيب ، فترام يصرقونها عن معانيها ويعطلون مدلولاتها المقصودة لتوهمهم أنها لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مدلولاتها في عالم الغيب كمدلولاتها في هذا العالم من كل وجه . ثم تحكموا فأثبتوا بعض صفات الباري تعالى بدون تأويل كالعلم والقدرة والارادة ، وهذا عين التشبيه ، وأولوا أكثرها كالسلام والرحمة والحجة والغضب والرضاء والعلو والوجه واليدن الخ وهذا عين التعطيل — وأهل السنة يثبتون له تعالى كل ما أثبتته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وينزهونه فيه كله عن مشابهة خلقه ، ولا يرون فرقا بين العلم والرحمة والسلام فكلها من صفات الكمال الثابتة له مع التنزيه — فعلمه ليس كعلم البشر منتزعا من صور المعلومات بالحس أو الفكر — وكلامه ليس كيفية عرضية يحصل بنموذج الهواء بتأثير الصوت الذي يخرج من الفم — وكذلك سائر صفاته وشؤونه تعالى . فتجلبيه لخواص خلقه في دار كرامته ليس كظهور بعضهم لبعض ، وما يحصل لهم من رؤيته ومعرفته وسام كلامه لا يشابه ما يكون من بعضهم لبعض

وإذا كنا قد عرفنا بالمشاهدة في عالم الحس أن إيقاد مصباح زيت الزيتون أو زيت البترول لا يشبه إيقاد مصباح الكهرباء بوجه من الوجوه ولا يشترط في الثاني ما يشترط في الأول — ونجزم بأن هذا الفرق لا يمكن أن يتصوره من لم يعرف الكهرباء ألبتة — فيجب علينا أن لا نستقرب ما هو أبعد من هذا الفرق بين عالم الغيب والشهادة في اختلاف الكيفية لحقيقة واحدة كالرؤية . ومن كان له حظ من معرفة الله تعالى في الدنيا لا يحتاج إلى الأمثال ، وحسب المحروم منها أن ينتفع بالأمثال (وذلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) .

﴿ خلاصة وتتمة تزيد المسألة وضوحاً ، ومذهب السلف ثبوتاً ﴾

(١) الرؤية ليست من أصول الإيمان القطعية

قد علم مما تقدم أنه ليس في الرؤية البصرية نص أصولي ولا لغوي متواتر قطعي الرواية والدلالة يجعلهما من العقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة ، وليست مما كان يدعى إليه في تبليغ الدين مع التوحيد والرسالة بحيث يكون من يجعلها أو ينكرها كافراً ، وإنما هي من غريب العلم الإلحائي الذي يستنبطه من القرآن كبار العارفين ورعا كان فتنة لمن دونهم - وكذلك كان - حتى إن كبار النظار وعلماء البيان قد اختلفوا في كل من الآيات الثلاث الواردة فيها: في سور الأنعام والأعراف والقيامة . فجعلها بعضهم مثبتة وبعضهم نافية ، والقاعدة في دين الرحمة والشرعية السمحة أن الحجة لا تقوم على جميع المكلفين إلا فيما كان قطعي الدلالة لغة ، وأنهم يعذرون باختلاف الأفهام في غيره كما علم من واقعة تحريم الخمر والميسر فإن آية البقرة تدل على التحريم بمقتضى القاعدة المعروفة عند الفقهاء وهي تحريم ما تقلب المفسدة فيه على المصلحة ويرجع الضرر فيه على النفع ، وقد نطقت الآية بهذا الترجيح في الخمر والميسر (وإنهما أكبر من نفعهما) وهو ما فهمه بعض خواص الصحابة فتركوهما ولم يكلف جميع المسلمين تركهما إلا بعد نزول آية المائدة التي هي نص قطعي لا يحتمل التأويل إذ نطقت بأنهما رجس من عمل الشيطان وصرحت بالأمر باجتنابه وهو أبلغ من الأمر بالترك وما من مسألة ذكرت في القرآن بنص غير قطعي الدلالة إلا والله تعالى حكمة في عدم القطع بها ، وقد بين حكماء العلماء حكمة ذلك في الخمر والميسر بأن شدة افتتان الناس بهما كانت تقتضي أن يشق على الناس تركهما دفعة واحدة حتى يتعذر على بعض المؤمنين من ضعاف الإيمان تركهما أو يتعسر على بعض ، وينفر غير المسلمين من الإسلام ، فكان من حكمة الرب ورحمته جل جلاله أن يحرمهما بالتدريج ولا سيما الخمر فإنه أنزل آية تقتضي ترك الخمر في عامة النهار وناشئة الليل وهي قوله (لا تقربوا الصلاة وأقموا سكراً) فراجع تفسيرها البليغ في سورة النساء - وآية يفهم منها دقيق العلم قوى الإيمان التحريم فيتركها في كل وقت وهي آية سورة البقرة ثم صرح بعد ذلك بسنين بالاجتناب على سبيل القطع

لولا غفلة العلماء الذين طعن بعضهم في علم المخالف له في مسألة الرؤية وفي

دينه عن هذه الحكمة وتلك القاعدة لعند كل منهم الآخر ولم يجعلوا الخلاف فيها عصبية مذهبية ، ولعلم المثبتون لها منهم أن الله تعالى لو أراد أن تكون عقيدة عامة وركنا من أركان الإيمان لبين ذلك في آية صريحة لا تحتمل التأويل ناطقة بأنه يرى بالأبصار عيانا فلا كيف ولا إحاطة ولا تمثيل ، ولقال النبي ﷺ حين عرف الإيمان في حديث جبريل بعد قوله «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» وأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم عيانا بلا كيف ولا تشبيه - ولأمر بتلقين هذا لكل من يدخل في الإسلام ولتواتر عنه وعن أصحابه الجري على ذلك حتى يكون معلوما من الدين بالضرورة ، وإذ لما وقع فيه خلاف ، ولما استنكرت أشعة سؤال مسروق إياها عن رؤية النبي ﷺ لربه حتى قف شعرها من استعظام ذلك ، ولو كانت تمتقد أن الرؤية تكون في الآخرة لجميع المؤمنين لما استنكرت واستنكرت حصولها للنبي ﷺ في الدنيا امتيازاً له لأن روحه فيها أقوى من أرواح سائر المؤمنين في الآخرة فيطبق مالا يطبقه غيره حتى موسى ﷺ ولقاسمت هذا الامتياز على الناس بامتياز - عليه صلوات الله - عليهم بالوحي ورؤية الملائكة وغير الملائكة من علم الغيب ، على أنه ﷺ كان ليلة المعراج في ذلك العالم لاقى عالم الأرض .

فالحكمة الظاهرة لعدم النص القطعي في القرآن على المسألة أنها مما تنحيز فيه المقول وربما كانت مما يدخل في عموم ما رواه مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» وعموم ما ذكره البخاري في كتاب العلم عن علي كرم الله وجهه «حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟» ورواية مروعين ولكن بسندين ضعيفين - والمراد بالمعرفة في الثاني ما يقابل المنكر ومالا يعقل لا ما يقابل الجهل إذ يكون من تحصيل الحاصل وقد زاد فيه آدم ابن أبي إياس وأبو نعيم في المستخرج «ودعوا ما ينكرون» ذكره الخافظ في الفتح واستشهد له بإثر ابن مسعود آتفاً ، واستدل به على أن التشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة وفسر مالا ينكرون بما لا يشق عليهم فهمه - ولا يسلم قوله هذا على إطلاقه . فإنه يجب استثناء ما في القرآن منه ، إذ لا يجوز كتمان عن أحد ، على أنه كله من قبيل آيات الرؤية ، ليس فيها مشار للفتنة ، مع عقيدة التنزيه ونفي المائنة

وباعدة التفويض التي جرى عليها السلف ، فهذا هو الذي يحول دون اتباع المتشابه إلا لمن في قلبه زيغ ، كما نص في آية المحكم والمتشابه من أول سورة آل عمران . وهذا يؤيد قولنا إن الإمام أحمد لم يكفر منكرى الرؤية إلا لأنه كان يعتقد أن الحامل لهم على الإنكار هو الزيغ والزندقة .

ثم قال الحافظ : ومن كره التحديث ببعض ذون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك في أحاديث الصفات وأبو يوسف في الغرائب ، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرايين وإن المراد (أي الثاني) ما يقع من التفتن ^(١) ونحوه عن حذيفة وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد منه من المبالغة في سنك الدماء بتأويله الواهي . وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوى البدعة وظاهره في الأصل غير مراد فالامساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب والله أعلم اهـ ^(٢)

(١) أي حديث جرابي العلم اللذين حفظهما عن النبي (ص) فثبت أحدهما ونو بـ ث الآخر لقطع بلعومه

(٢) ومن ذلك ما ذكره بعض علماء انشام لجمال باشا السفاك من جزاء البغاة الخارجين على إمام المسلمين وجماعتهم فأتخذ حجة لدى العامة على صلب من صلبهم بغير حق من نابغى البلاد ، ولم يكن هو منفذا لأمر سلطانه الذي لم يكن من أمة الحق بل لم يكن له من السلطة شيء إذ جهال باشا وجمعيته كانوا هم الخارجين عليه ، وكذلك كان يفعل أمير مكة حسين منذ سمي ملكا في الحجاز : يقطع الأيدي والأرجل ممن يخالف سياسته ولو بذنب معتاد أو بغير ذنب شرعي ، حتى روى أن رجلا فر من سجنه الذي هو أقبح مظاهر الظلم والقسوة ، فأمر بقطع يده ورجله من خلاف وإن رجلا آخر أنكر في حرم المدينة المنورة أطراء الخطيب له في الخطبة بما هو كذب وزور فأمر به فقطع وصلب ووضع على صدره لوح كتب فيه (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) الآية ، وكان هذا من قبل جهره بدعوى الخلافة ، فلو أقره العالم الإسلامي على هذه الدعوى بأجازة تلك البيعة الباطلة من بعض أولى النصيحة =

(أقول) هذه مسألة كبيرة من مسائل الاجتهاد تدخل في باب التعارض والترجيح من الأصول ، أعنى التعارض بين ما أوجب الله تعالى من بيان العلم و اظهار الشرع وما حرم من السكتان في قوله (ليعينته للناس ولا يكتُمونه) وبين ما حرم من الظلم والفساد والفتنه وما وجب من سد ذرائعها مما هو مجمع عليه ، ولم أر لأحد من العلماء تحقيقاً لهذا البحث وليس هذا محله .^(١)

(٢) الرؤية في العمل النوعي

قد ثبت بالتجربة المسكورة والرؤية البصرية أن بعض الناس يفعلون في حال النوم المعطل لجميع الحواس أعمالاً دقيقة كالقراءة والكتابة وتركيب الأدوية بسرعة ومهارة يعجزون عن مثلها في اليقظة ، وقد كان يخرج أحدهم من منزله ، ثم يعود إليه وهو مغمض العينين وقد يفتحهما ولا يرى بهما إلا ما توجهت ارادته إليه كعض الصيادلة الذي رآقه طبيب عرف حاله فراه يقرأ وصفات الأطباء ويركب ما جاء فيها فأتى إليه فيها وصفة دواء سام يقتل شاربه في الحال ، فقرأها وأعاد التأمل فيها ، وقال : لا شك أن هذا

== الجاهلية العمية فإلى أى حد كان يتهوك ويتفحم في جرأته عن تحريف كتاب الله تعالى واستحلال دماء المسلمين به ؟ وإنما نزلت الآية تهديداً للبلغاء الخارجين على امام المسلمين وجماعتهم — بقطع الطرق وتهديد الامن العام ونهب الاموال وقتل الانفس ، لا على أفراد العصاة وان اقترفوا أكبر الكبائر كالقتل والسرقة وقد منع الله عقاب البغاة بذلك إذا تابوا قبل القدرة عليهم ، وخير الامام فيهم إذا ظهر عليهم بالقوة فقال : إنما جزاؤهم كذا ، أى إذا كانت المصلحة فيه ولم يقل فيهم كما قال في السارق والسارقة (فاقطعوا أيديهما) وفي الزانى والزانية (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)

(١) طرقة الامام الشاطبي في (الباب الثامن) من كتاب الاعتصام (في الفرق بين البدع والمصالح المرسله والاستحسان) ومما ذكره من الوقائع في بعض فروعه : ان بعض كبار العلماء اقتوا بعض الملوك بوجوب صيام شهرين متتابعين في كفارة الوقائع في نهار رمضان دون العتق ، لان الصيام يزجرهم عن إفساد صيامهم دون العتق ، وان مالكا أتى الرشيد بصيام ثلاثة أيام في كفارة اليمين ويراجع تفصيله في (ص ٥٤٨ ج ٣ منه)

غلط أو سبق قلم من الطبيب فأنا لا أركبه وألقاها . وراقب بعضهم رجلا آخر كان يخبر أن تقوده تسرق من صندوقه الحديدى فى كل ليلة فبات عنده فراشه قد قام من فراشه بعد استغراقه فى النوم وفتح صندوقه وأخذ منه بعض النقود وخرج بها فتيه حتى جاء مكانا خربا فتسلق جدارا من جدره المتداعية ومشى عليه بسرعة ثم نزل فى داخله وحفر فى الأرض حفرة ووضع فيها ما حمله من النقود وعاد فتسلق الجدار ومر عليه مسرعا والمراقب ينظر إليه ولا يستطيع أن يفعل فعلة وعاد إلى منزله وأوى إلى فراشه فلما استيقظ فى النهار عد الدراهم وأخبر الرجل الذى بات عنده ليكشف له حال من يسرق صندوقه بما نقص منها فحدثه هذا بما رآه فعجب وأنكره فذهب إلى المكان فلم يستطع الرجل أن يتسلق الجدار ويعشى عليه مسرعا كما فعل وهو نائم ولكنهما تكلفا ذلك وتريثا فيه حتى وصلا إلى مكان طمر النقود وبجأ عنها فوجداها فى عدة مواضع . ورؤى بعض غلمان أسرتنا مرارا يقوم من النوم ويخرج لحاجته ثم يعود وهو نائم ودخل المطبخ مرة فنظف بعض الآنية فيه وعاد إلى فراشه وهو نائم وربما كانت هذه الحالة مؤيدة لمذهب من قال إن للانسان نفسين أو روحين تفارقه إحداهما فى حال النوم فقط وتفارقه الثنتان معا بالموت ، ويقرب هذا من قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)

(٣) الرؤيا والأحلام

الرؤيا النومية والأحلام منها خواطر تتمثل واقعة فى حال النوم وسببها اشتغال الفكر بها أو أسباب تعرض للنائم فيتمخيلها بنفسها أو ما يشبهها واقعا وهى أضغاث الأحلام ومنها الرؤيا الصادقة كرؤيا ملك مصر التى أولها له يوسف عليه السلام وأمثالها كثير وقمع معناه مع غيرنا وثبت بالتواتر ثبوتا لا يحتمل التأويل بالرغم من أنوف المكابرين وقد بيناه من قبل بالنجارب القطعية . وأعلاه وأكمله رؤيا الأنبياء التى هى من مبادئ الوحي وقد وقع للنبي ﷺ رؤية الرب تعالى فى المنام كما روى ابن عباس وأنس وظن بعضهم أنه أراد بها اليقظة ، وقد تقدم ذكر ذلك فى هذه المباحث ، ووقع ذلك لغيره أيضا

(٤) الرؤية فى النوم المغناطيسى

النوم المغناطيسى قد اشتهر وكثر وهو يحصل بتنويم صناعي يستعان عليه (تفسير القرآن الحكيم) (١١) (الجزء التاسع)

بقوة إرادة بعض الناس وتأثيرهم في أنفسهم من ينومونه أو ببعض الأعمال التي لا محل لبسطها هنا. والثالث به يغيب إدراكه وشعوره عن كل شيء ماعدا منومه فان نفسه تكون رهن تصرفه فاذا أمره بشيء خضع لإرادته بقدر ما في نفسه من الاستعداد لذلك وقد ثبت بالتجارب الكثيرة أن المنوم يسأل النائم عن أشياء غائبة أو مستورة ما هي وأين هي؟ فعند سؤاله إياه عنها توجه نفسه إليها فيراها ويخبره عنها فيصدق . .

فهذه ثلاثة أضرب أو أنواع من الرؤية للشئ . لا عمل للأعين فيها إلا أن العرب خصت ما يرى في النوم باسم الرؤيا . بالالف . وما يقع في اليقظة باسم الرؤية ، ولم تفرق بينهما في الأفعال، ولعلها لو عرفت النوع الأول والثالث عما ذكرناهنا لسمته رؤيا أيضا . روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس (رض) في قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسرى به إلى بيت المقدس وليست رؤيا منام نقول ولكن الله تعالى سماها «رؤيا» لا رؤية . والتحقيق المختار أن الإسمراء والمعراج كانا في حالة روحية قوى فيها سلطان الروح على ستن الله في الجسد فصار خفيفاً لطيفاً كالأجسام التي تتمثل فيها الملائكة للأنبياء (ع . م) وتمثل فيها الروح للسيدة مريم (ع . م) لا بالروح فقط كاقيل ولا في المنام كما في رواية شريك في كتاب التوحيد من صحيح البخاري وهو يتفق مع قول من قالوا إنهما بالروح والجسد ، إذ إطلاقهم لا ينافي هذا القيد . وإن قيل أن الجسد الذي حلت به روحه الشريفة ليلتشد غير جسده المعتاد ليناسب العالم الذي دخل فيه . فكيف ولا مانع من كونه هو بعينه أثرت فيه الروح فلفظته وجعلته كالأثير في لطفه وقوته في هذا العالم الدنيوي ، وبقي السلطان للروح فجبريل الذي تتمثل للنبي ﷺ بصورة دحية ولمريم بصورة شاب جميل الصورة هو جبريل الذي رآه النبي ﷺ بصورة سادا الأفق الأعلى ، وقال تعالى فيهما (فأوحى إلى عبده ما أوحى) يوضح هذا ما يأتي .

(٥) تشكل الملائكة والجن ورؤيتهم في هذه الحالة

قد ثبت عن أفضل البشر وأصدقهم من أنبياء الله وبعض أوليائه أنهم كانوا يرون الملائكة والجن في صور لطيفة أو كثيفة وثبت تمثلهم لهم بنص

القرآن وغيره من كتب الوحي .

وقد صح أن النبي ﷺ لم ير جبريل ملك الوحي في صورته التي خلقه الله تعالى عليها إلا مرتين ، وقد علم بالقطع أنه رآه في الصور التي كان يتشكل فيها مراراً تعد بالمئين أو أكثر ، وليست محصورة في عدد نزوله بآيات القرآن وسوره ، وقد كان من تلك الصور صورة دحية الكلبي رضي الله عنه ، ومنها صورة الرجل الغريب الذي سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان الخ ، وهذا النوع من الصور الكثيفة رآه فيه من حضر بحينه من الصحابة (رض) ومنها صور لطيفة لم يكن يراه فيها غير النبي ﷺ وقوله في حديث الوحي الذي رواه الشيخان : « وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول » يشمل النوعين ، وورد أنه ﷺ مثلث له الجنة والنار في عرض الحائط فرآهما ولم يرهما غيره ، ومعنى هذا أن الله تعالى أراه مثلاً لها ، وهذا غير تمثل الملك له بإرادته وعمله

وقد رأى ﷺ غير جبريل من الملائكة ورأى بعض الشياطين أيضاً متمثلة في صور ، وكان يعبر عن ذلك بالرؤية . فثبت بهذا أن الرؤية للشيء لا تقتضي رؤية حقيقته في الواقع ونفس الأمر ، وإن كان مخلوقاً له جنس ينقسم إلى أنواع تحتها أصناف ، وشخص لها أمثال

فإذا كان المخلوق يرى مخلوقاً مثله رؤية لا يدرك بها كنهه ولا يحيط بحقيقته ولا يشاركه فيها كل من له عينان مثله . وهذا مما يؤمن به المعتزلة والشيعة والاباضية كغيرهم . فهل يستنكر أن تكون رؤية الرب الذي ليس كمثل شيء بلا كيف ولا مثال وعلى غير الممهود في رؤية بعضنا لبعض كما استنكروا هؤلاء الذين قال شاعرهم :
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الوري فستروا بالبلكفة

أم يصح مع هذا أن يصر بعض أهل السنة على تقييد رؤيته تعالى بالابصار وأعين الرؤوس واستنكار تسميتها رؤية روحية مع الاتفاق بينهم على أن الإدراك بجميع أنواعه للنفس لا للجسد ، كما ترى توضيحه في المسألة التالية

(٦) الكشف وكون الإدراك للنفس

إن العلم والإدراك في الحقيقة للروح وإن الحواس والدماغ آلات حسية للعلم ببعض الحسيات بحسب سنن هذه الحياة الدنيا وقد ثبت بما تقدم من الشواهد

أن النبي ﷺ كان يرى من وراءه كما يرى من أمامه وهي رؤية روحية غير مقيدة
ببصر العينين ولا بالمقابلة وثبت نحو من هذا لبعض المكاشفين بالروايات التي وصلت
إلى درجة التواتر ، ومن هذه المكاشفة ما يقع في حال الصحة بقوة توجيه الارادة
إلى الشيء أو فجائيا بغير قصد ، كما وقع لمؤلف هذا التفسير في صفوه فقد رأى
جدته لأمه وهو مضطجع مسجى في بستان لها تمشى في الطريق جائئة إليه حتى إذا
مارأها قد وصلت إلى مدخل البستان من الطريق العام ناداها فأجابته ، وببعد أن
يكون هذا تخيلا صادف الواقع ، وله أمثال ونظائر لولاها لتعين القول بذلك - وقد
وقم لنا منهم مع بعض الناس ما كنا نحمله على المصادفة لثلاثي قيسوا عليه دجل المحتالين
ولثلاثي تقع في الغرور ، ولكن مجموع ما نقله الثقات منه لا يحتمل التأويل . ومنه ما يقع
في النفس بغير رؤية ولا تخيل وان كان قبا من شأنه أن يرى ، وليس مما نحن فيه
وقد يقع في أحوال مرضية كالمرضى الذي كان يعالجه الطبيب شبلى شميل
بمصر وكان يخبر بأشياء غائبة وبأمور قبل وقوعها فيصدق بالضبط الدقيق ، ومن
الأول أنه أخبر بأن قريبا له قد خرج من داره بالاسكندرية يريد السفر إلى مصر
لزيارته ثم أخبر أنه رآه قد وصل إلى محطة الاسكندرية ودخل القطار وبعد مضي
ثلاث ساعات وكسور أخبر أنه نزل من القطار في محطة القاهرة وخرج منها وركب
مركبة لنحمله إلى الدار التي هو فيها ، ثم أخبر أنه وصل إلى الدار - وإذا به قد
دخل . وكان الطبيب شبلى ينكر مثل هذا وينكر وجود أرواح مستقلة بالوجود
تلبس الأجساد وتنفارها مدركة بالذات ، أي غير مقيدة في إدراكها بوجودها في
الجسد واكتسابها العلم من حواسه وعصب دماغه ، وقد صار بعد هذه الواقعة التي
كتبها بقله ، وسمعتها من فمه ، يشبه دماغ الإنسان بالآلة الكهر بائية للتلفراف
اللاسكي التي تتلقف من كهرباء الجو ما يرسله هذا التلفراف من أخبار السفن أو البلاد
البعيدة ، ولكن كان من أخبار مريضه به أنه سيرعف أنه في ساعة كذا من نهار
غد ويخرج من دمه ما يبلغ وزنه كذا . فكان كما قال ، وهذا إخبار عن الشيء قبل
وقوعه لا يتناول التشبيه الذي ذكره ، وهو من الغيب الاضافي الذي خلق الله
الأرواح كلها مستعدة لادراك قبل وقوعه لولا ما يشغلها عنه من مدارك الحواس والعقول
وهلوم الحياة - لامن الغيب الحقيقي الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، وقد فصلنا

القول في الفرق بينهما في تفسير سورة الانعام (١)

(٧) أنواع المدركات وعناصر الكون وأحوالها

إن مدركات البشر الحسية والعقلية لا تتعلق في حال هذه الحياة الدنيا بكل ما في هذا الكون من أنواع الموجودات بل هناك حجب من الوحي والعقل والعلم تدل على ضد ذلك - أما الوحي فقد ثبت فيه أن العالم قسمان ، أو أن الكون قسمان : عالم الغيب وعالم الشهادة -

وأما العقل فمن أحكامه أن عدم العلم بالشئ لا يقتضى عدم وجوده وأن من الجائز أن يكون في الكون موجودات كثيرة لا ندركها ولا نشعر بها حواسنا ومشاعرنا لعدم استعدادها لإدراكها ألبتة كما أن بعضنا لا يدرك ما يدركه الآخر من الهيئات والألوان والطعوم والروائح مثلاً - وإما لضعف الحاسة فينا عن إدراك ما هو من متعلقها لفقد بعض شروط إدراكه ، وقد دل العقل على أن الوجود الممكن الذى نعرفه في الجملة يدل على الوجود الواجب الذى لم ندركه بحواسنا ولم ندرك كنهه عقولنا ، بل دل على وجود آخر من الممكنات وهو ما يسميه علماء الكون بالانير

وأما العلم - علم التجربة والبحث العملى في الوجود - فقد أثبت وجود أحياء كثيرة الأنواع ذات تأثير عظيم في حياة الأحياء من نفع وضرر ترى بالمرأى المكبرة دون البصر المجرد وان فيه مواد أخرى لطيفة هي من أصول عناصره التى لم يتم تكوينه إلا بها ، وهى لا تدرك بالحواس ولا بالعقل بآدى ، بدواً وما عرفت بأعمال التحليل والتركيب والآنها واستخدمت لكثير من المنافع والمضار ، وهى كالعناصر التى يتركب منها الماء والهواء وقد ثبت بالتجارب العملية ماصار العلم به قطعياً يدخل في باب الحسيات . أن أن الجسم الجامد يتحول بالحرارة إلى مائع كما يكون الجليد والثلج ماء ، وأن المائع يتحول بها إلى بخار وهو ما نشاهده كالداخلان اللطيف يخرج من الماء عند تسخينه ومن كل مائع فيه ماء . وأن هذا البخار المائى وغيره يتحول بشدة الحرارة إلى مادة لا ترى كالهواء ويسمونها غازاً ، وأن الأجسام الجامدة كالذهب والقصدير والمائعة كالماء والغازية كالهواء منها البسيط ومنها المركب ، وأن

البسائط التي تتألف منها المركبات محدودة تعد بالعشرات وصار في قدرة البشر أن يحلوا المركب ويفرقوا بسائطه بعضها من بعض بصناعة الكيمياء والانهاء وأن يحولوا الجوامد من صفتها فيجعلوها غازات ، وأن يحولوا من الغازات ومن السائلات جوامد ، وهم يشخذون منها أغذية وأدوية وسموماقاتلة بل استخرجوا من ماء البحر الملح ذهباً إبرياً . هذه الاعمال التي صارت من صنائع البشر تقرب من العقل والعلم ما صبح عن الرسل المعصومين من أن الملائكة وغيرهم من الجن يتشكلون في صور كثيفة ترى بالابصار وبصور لا ترى بالابصار . أي أن الله تعالى أعطى أرواحهم قوة يتصرفون بها في مادة الكون وفي أنفسهم بأعظم من تصرف علماء الكيمياء في نفسه ، ولكنه من جنسه ، فقد أعطى الله تعالى الواحد منهم قدرة على تأليف جسم لروحه من هذه المادة إذا شاء ، وحله وتفرقه متى شاء ، وقد وضعنا هذا التقريب من قبل وغرضنا من التذكير به هنا إيضاح مسألة تجلي الرب سبحانه تعالى في الصور أو من وراء الحجب وكون رؤيته لا تقتضي تشبيهه بخلقه كازعم من لم يعملوا من أنواع الاذراك والمدركات المخلوقة ما يقتضي تشبيه بعضها ببعض وقد قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

(٨) مذاهب الصوفية في الرؤية

الصوفية فرقة من فرق المسلمين المختلفين في الأصول وهم لا يقلدون أمما واحدا في الفروع بل منهم المجتهدون فيها ومنهم المقلدون لأهل المذاهب المشهورة ويكثر فيهم الشافعية كما أن أكثر المعتزلة والمرجئة من الحنفية . وقد غفل من لم يعد من الفرق الثلاث والسبعين . وإنما السكلام فيمن يسمون صوفية الحقائق ، وهم أقرب إلى الفلاسفة والروحانيين الاشرقيين وإلى قدماء الشيعة منهم إلى أهل السنة والأثر وجمهورهم يحلون الصحابة ولا سيما الخلفاء الراشدين وعلماء السلف ولا سيما العباد منهم . ومنهم المعتدلون وأهل الحديث كشيخ الاسلام أبي اسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين ومنهم الغلاة الذين مرق بعضهم من الإسلام بفزغات الباطنية وزيفهم وهم غلاة الرافضة من الاسماعلية إلى البهائية وزعمائهم من الفرس ومنهم البكتاشية وقد راجت دعوتهم في بلاد الترك والالبان . ويقابلهم صوفية الأخلاق وأهل السنة منهم يقولون في الرؤية ما يقول سائر

أهل السنة وكذا المعتدلون من أهل الحقائق فترى أباحامد الغزالي من علمائهم قد فسر الرؤية بما ينطبق على مذهب الأشعرى . وشأن سائر مقلداتهم كشأن سائر المقلدين للمذاهب الأخرى

وأما صوفية الحقائق المستقلون فجمهور أهل الوحدة منهم يدخلونها في مسائل الوحدة ، فغلاة وحدة الوجود ليس عندهم إلا وجود واحد له مظاهر ومجالي فهم يثبتون الرؤية بهذا الاعتبار والإفارائي والمرئي واحد عندهم ، يعنون أن الرب عين العبد والعبد عين الرب فالله تعالى يرى نفسه بما يتجلى فيه من صور عبده أو ماشاء من خلقه ، هذا تناقض وهذيان بديهي البطلان ، وحسبنا ما تنشره في المنار من إبطاله وتناقضه لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى . وأما أصحاب وحدة الشهود منهم فذهبهم أن الرب تعالى يتجلى لعبده المؤمن في الدنيا تجليا غير كامل وفي الآخرة تجليا كاملا ، فيقضي العبد بهذا التجلي عن نفسه وعن كل ماسوى ربه فلا يرى غيره وهو يراه بكل روحه المدركة لا بعينه فقط ، ومن كلام ابن الفارض فيه * إذا ما بدت ليلى فكلى أعين * فان الرؤية بآلة الباصرة إنما تكون للأرواح المحبوسة في هياكل الأجساد المقيدة بسنن الله فيها كأن تقدم آتفا ، فهي كالمحبوس في سجن له نوافذ وكوى قليلة يرى منها بعض ما يحاذيها دون غيره مما وراء السجن وهم يثبتون تجليه تعالى في الصور المختلفة ولا يرون ذلك محالا يجب تأويله بل ييقنون الأحاديث في ذلك على ظاهرها كجمهور السلف ولكل من هؤلاء . وأولئك أقوال وشواهد مشتركة يشقها معها بعضهم ببعض فيعسر التزليل بينهم ، ومنها استشهادهم بالحديث القدسي الذي أخرجه البخارى في صحيحه فانتقد عليه لعله في سنده وذكره ^(١) النووى في الأربعين ومحل الشاهد منه « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » ومعناه الذى يتفق مع أسلوب اللغة وقواعد الشرع : كنت متعلق سمعه وبصره وسائر جوارحه ، أى فلا توجه إرادته هذه الجوارح إلا إلى ما يعلم أنه يرضى ربه ولا ينسى مراقبته في أعمالها ، وكل من القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود يستدل به على مذهبه . ومن شعرهم في ذلك :

(١) رواد عن خالد بن مخلد الكوفى وهو من شيوخه وقد وثقه بعضهم وقال

أحمد : له مناكير وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به .

أعارته طرفاً رآها به فكان البصير بها طرفها

والشيخ محي الدين بن عربي كلام في كل ماسبق ذكره من الآيات والأحاديث على طريقتهم في الوحدة في الباب الحادي والأربعائة من الفتوحات المسكية وهو :

كلمة لابن عربي في الرؤية

« قال الله عز وجل (لا تدركه الأبصار) وقال عز وجل لموسى عليه السلام (لن تراني) وكل مرئى لا يرى الرأى إذا رآه منه الا قدر منزلته ورتبته فما رآه وما رأى إلا نفسه ولولا ذلك ما تفاضلت الرؤية في الرائيين إذ لو كان هو المرئى ما اختلفوا لكن لما كان هو بحلى رؤيتهم أنفسهم لذلك وصفوه أنه يتجلى وأنه يرى ولكن شغل الرأى برؤيته نفسه في بحلى الحق حجبه عن رؤية الحق فذلك لو لم تبدل الرأى صورته أو صورة كون من الأكوان ربما كان يراه فما حجبتنا عنه إلا أنفسنا فلو زلنا عنا ما رأيناه لأنه ما كان يبقى ثم بزوالنا من يراه ؟ وإن نحن لم نزل فما نرى إلا أنفسنا فيه وصورنا وقدرنا ومزلتنا فعلى كل حال ما رأيناه ، وقد تنوع فتقول قد رأيناه ونصدق كما أنه لو قلنا رأينا الإنسان صدقنا في أن نقول رأينا من مضى من الناس ومن بقى ومن في زماننا من كونهم إنسانا لا من حيث شخصية كل إنسان ، ولما كان العالم أجمعه وآحاده على صورة حق ورأينا الحق فقد رأينا وصدقنا ، وإن نظرنا إلى عين التمييز في عين عین لم نصدق ، وأما قوله ﷺ في حديث الدجال ودعواه انه إله فمهد إلينا رسول الله ﷺ أن أحدنا لا يرى ربه حتى يموت لأن الغطاء لا ينكشف عن البصر إلا بالموت والبصر من العبد هوية الحق فعينك غطاء على بصر الحق فبصر الحق أدرك الحق ورآه لأنك فان الله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) ولا أظف من هوية تكون عين بصر العبد وبصر العبد لا يدرك الله ، وليس في القوة أن يفصل بين البصرين والخبير علم الذوق فهو العلم خيرة أنه بصر العبد في بصر العبد وكذا هو الأمر في نفسه وإن كان حيا فقد استوى الميت والحى في كون الحق تعالى بصرهما وما عندهما شيء فان الله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء إذ (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) اه وقد تكلم على الآية في مواضع أخرى وعلى جميع الأحاديث الواردة في المسألة وكلامه متعارض بعضه يتأول بتكلف أو بدون تكلف .

* ٨ كلمة في النور والحجب والتجلى في الصور *

قال المحقق ابن القيم في (مدارج السالكين ، تشرح منازل السائرين) لهروى في الكلام على الدرجة الثانية من منزلة (اللحظ) مانصه .

« ونور الكشف عندهم هو مبدأ الشهود وهو نور تجلى معاني الأسماء الحسنى على القلب فتضى به ظلمة القلب ، ويرتفع به حجاب الكشف ، ولا تلتفت إلى غير هذا فتزل قدم بعد ثبوتها ، فانك تجد في كلام بعضهم « تجلى الذات يقتضى كذا وكذا ، وتجلي الصفات يقتضى كذا وكذا ، وتجلي الأفعال يقتضى كذا وكذا » والقوم عنايتهم بالألفاظ فيتوهم المتوهم أنهم يريدون تجلى حقيقة الذات والصفات والأفعال للعيان ، فيقع من يقع منهم في الشطحات والطامات ، والصادقون العارفون براء من ذلك ، وإنما يشيرون إلى كمال المعرفة وارتفاع حجب الغفلة والشك والأعراض ، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو شهود السوى بالكلية ، فلا يشهد القلب سوى معروفة ، وينظرون هذا بطلوع الشمس فانها إذا طلعت انطمس نور الكواكب ولم تعدم الكواكب ، وإنما غطى عليها نور الشمس فلم يظهر لها وجود وهي موجودة في أماكنها ، هكذا نور المعرفة إذا استولى على القلب وقوى سلطانها وزالت الموانع والحجب عن القلب . ولا ينكر هذا إلا من ليس من أهله ، ولا يعتقد أن الذات المقدسة والأوصاف برزت وتجلت للعبد كما تجلى سبحانه للطور ، وكما تجلى يوم القيامة للناس الأغالط فاقد للعلم ، وكثيراً ما يقع الغلط من التجاوز من نور العبادات والرياضة والذكر إلى نورة الذات والصفات . فان العبادة الصحيحة والرياضة الشرعية والذكر المتواظى عليه القلب واللسان يوجب نوراً على قدر قوته وضعفه ، وربما قوى ذلك النور حتى يشاهد بالعيان فينلظ فيه ضعيف العلم والتمييز بين خصائص الربوبية ومقتضيات العبودية فيظنه نور الذات ، وهيئات ! ثم هيئات ! نور الذات لا يقوم له شيء . ولو كشف سبحانه وتعالى الحجاب عنه لتدكدك العالم كله كما تدكدك الجبل وساخ لما ظهر له القدر اليسير من التجلى .

« وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « ان الله سبحانه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » فالإسلام له نور ، والإيمان له نور أقوى منه ، والإحسان له نور

أقوى منهما،^(١) فإذا اجتمع الاسلام والإيمان والإحسان وزالت الحجب الشاغلة عن الله امتلاً القلب والجوارح بذلك النور، لا بالنور الذي هو صفة الرب تعالى فان صفاته لا تحل في شيء من مخلوقاته . كما أن مخلوقاته لا تحل فيه ، فالخالق بائن عن المخلوق بذاته وصفاته ، فلا اتحاد ولا حلول ولا تمازج . تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً » اهـ

أقول : هذا التصوف الموافق للكتاب والسنة لا تصوف ابن عربي والفرق بين نفي كل منهما للحلول أن هذا يقول أن الخلق والخالق شيء واحد والشيء لا يحل في نفسه والآخر يقول أن النسبة بينهما المباشرة التامة . وهذا التوحيد هو الحق الذي كان عليه السلف الصالح (رض)

وقال المحقق ابن القيم (رح) في فوائده الذكّر من السكّم الطيب وهو :
 « إن الذكّر نور لهذا كره في الدنيا ، ونور له في قبره ، ونور له في معاده يسمى بين يديه على الصراط^(٢) في استنارة القلوب والقبور يمثل ذكر الله تعالى قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟) فالأول هو المؤمن الذي استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره . والآخر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته . والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور . والشقاء كل الشقاء في فواته . ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يبالغ في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله في لجمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه حتى يقول « واجعلني نوراً » فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور في ذراته الظاهرة والباطنة ، وأن يجعله محيطاً به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته وجملته نوراً ، فدين الله تعالى عز وجل نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ، وداره التي أعدها لأوليائه نور يتلأل ، وهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض ، ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه ، وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم الطائف « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات

(١) إنما كان نور الإحسان أقوى لانه عبارة عن الإحسان في الإسلام

والإيمان فهو السكال فيهما عملا واعتقادا

(٢) كذا والظاهر أن ههنا حذفاً قبل قوله : في استنارة

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات من وجهه » وفي بعض ألفاظ هذا الأثر : نور السموات من نور وجهه ، ذكره عثمان الدرايمى ، وقد قال تعالى (وأشرقَت الأرض بنور ربها) فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقَت بنوره الأرض وليس اشراقها لشمس ولا قر فإن الشمس تسكور ، والقمر يخسف ويذهب نورهما ، وحجابه تبارك وتعالى النور . قال أبو موسى « قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » ثم قرأ (أن يورك من في النار ومن حولها) فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره . ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل وكشف من الحجاب شيئاً يسيراً ساخ الجبل في الأرض وتذكذك ولم يقم لربه تبارك وتعالى . وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى (لا تدركه الأبصار) قال ذلك الله عز وجل إذا تجلى بنوره لم يبق له شيء . وهذا من بدیع فهمه رضى الله عنه ودقيق فطنته ، كيف وقد دعا رسول الله ﷺ أن يعلمه الله التأويل ، فارب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عياناً ، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له وإن رآته فالادراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس والله المثل الأعلى نراها ولا ندركها كما هي عليه ولا قريباً من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه (لا تدركه الأبصار) فقال ألسنت ترى السماء؟ قال بلى قال أفندركها؟ قال لا . قال والله تعالى أعظم وأجل « اهـ ^(١)

(١) كان أهل النظر المشتغلون بالفلسفة اليونانية يتأولون جميع الآيات في الأحاديث الواردة في صفات الرب تعالى وينكرونها على علماء الآثار الأخذ بظواهرها مع التنزيه والتفويض حتى أن الأشعرية الذين أرادوا أن يكونوا وسطاً بين غلاة النظر من الجهمية وغيرهم وبين أهل الحديث كالحنابلة قد بالغ بعضهم في التأويل

قد أشار هذا العالم المحقق بهذه الجملة الوجيزة من كلامه الطويل في موضوعها إلى جملة ماورد « في النور » من نصوص الكتاب والسنة فقد سمي الله تعالى نفسه نورا وورد النور في أسمائه الحسنى الماثورة وأسند النور إلى اسم الذات في قوله (الله نور السموات والأرض) وأسند رسوله إلى وجهه تعالى بقوله « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » ومثله في آثار أخرى والجمهور يفسرون الوجه بالذات . وهذا نوع من استعمال النور غير إضافته إليه تعالى في قوله (وأشرقت الأرض بنور ربها) وقوله (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) على أن نوره في الأخيرة كتابه ووجهه وكلامه الذي هو من صفاته ، والمراد به في الاظهر ما فيه آيات الهداية ، فهو كقوله (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ومثله إطلاق اسم النور على النبي (ص) في قوله (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) على وجه . وورد مثل هذا في كتب العهد الجديد عند النصارى مرويا عن المسيح عليه السلام كقول يوحنا في رسالته الأولى « ١ : ٥ وهذه هي البشري التي سمعناها منه ونبشركم بها : أن الله نور وليس فيه ظلمة أبية » وأطلق النور على المسيح نفسه في موضع من انجيلي لوقا ويوحنا ومن المعلوم أن النور حسي ومعنوي ، فالأول يرى بالبصر ويرى به البصر سائر المبصرات ، والثاني يدرك بالبصيرة وتدرك به البصيرة الحق والخير

حتى صار الخلاف بينهم وبين غلاة النظر لفظيا . والباعث لهم على ذلك محاولة تطبيق النصوص على نظريات الفكر التي عدوا الكثير منها قطعيا وليس بقطعي ونحمد الله تعالى أن العلوم الكونية قد تقصت في هذا العصر أكثر تلك النظريات الفلسفية اليونانية وقربت نصوص الكتاب والسنة من الافهام ، وبما ثبت بها أخيراً أن هذه الكهربائية التي رأى البشر كثيراً من عجائباتها هي الأصل في تكوين مادة العلم كله وأطوارها ، وهي نور أو مصدر النور والحركة التي يحدتها النور أو تحدته ، وإذا كان الخالق البارئ المنزه عن نقص المخلوقات التي لا يكمل شيء منها إلا به قد حجب عنها بالنور ، فلك أن تفهم أن الكهرباء وما جعلها الله أصلاً له من تكوين العالم المادي هي الحجاب المانع من رؤية الرب تعالى فيه وان انكشاف هذا الحجاب لا يكون الا في الجنة ، وان انكشافه هو الذي يوصل أهلها إلى أعلى وأكمل درجات المعرفة به تعالى وهي الرؤية بغير كيف ولا ادراك ، وقد نصر العلم مذهب السلف ، على تأويلات الخلف ، والله الخلد

والصلاح. وكذلك نور الآخرة قسمان حسي ومعنوي ، وأما نور الله تعالى الذي هو صفة من صفاته قد أضيف الى وجهه وأسند إلى ذاته فهو فوق هذا وذاك لا يعرف كنهه سواء عز وجل ، وهو غير النور الذي هو حجاب المانع من رؤية ذاته وإدراك كنهه ، ولا يكبرن عليك أيها الانسان المعجب بنفسك هذا العجز عن إدراك نور الله عز وجل ، فان هذا النور الحسي الذي تراه بعينك لا تدرك حقيقته ولم يدركها أحد من أبناء جنسك الى الآن ، ولم يستطع أحد أن يضع له تعريفاً يحدد هذه الحقيقة. ولم يكن المتقدمون يعرفون منه إلا ما يرونه من نار الأرض ونيران السماء ، ثم عرف المتأخرون هذه الكبرياء والراد يوم فدخل بذلك العلم والعمل في طور جديد إذا قيل إنه فوق طور العقل والفلسفة والعلم التي انتهى اليها البشر قبله لم يكن هذا القول مبالغاً ، وقد كانت الصوفية تقول إن وراء مدارك عقول البشر علوماً صحيحة منطبقة على حقائق خارجية لا محض نظريات فكرية. فيقول مدعو الفلسفة والمنطق إن هذه خرافات خيالية. قال ابن الفارض

قيم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العلوم الصحيحة

فأي عقل كان يتصور أنه يمكن لشخص واحد أن يوقد مالا يحصى من المصابيح في دار ومدينة كبيرة في طريقة عين وأن يطفئها في طريقة عين ؟ وأن هذه المصابيح نوقد بلا زيت ولا نار ، وإنما تشعل بتحريك هنة صغيرة بعيدة عنها ولكنها متصلة بها بسلك دقيق ، وأي عقل كان يتصور أن البشر يتخاطبون ويسمع بعضهم كلام بعض على بعد ألوف من الأميال ؟ وهذا بعض خواص هذه الكبرياء

نعم إن علماء المسلمين قرروا أن أمثال هذه الأمور من الممكنات لا المستحيلات فورد نظائرها في أخبار الآخرة لا يقتضى أن في الدين شيئاً يردده العقل الصحيح بالبرهان ، ولكن جماهير الكفار بالرسول لم تستطع عقولهم تصورها ولا التصديق بها . بل نرى ضعف العقل والعلم من المسلمين أنفسهم يظنون فيما نقلناه آنفاً من كتاب الوابل الصيب أنه من المشكلات التي لا تتفق معها إلا بضرب من التأويل . لأجل هذا علقنا عليه الحاشية الوجيزة المثبتة معه هنا عند طبع الكتاب في (مجموعة الحديث النجدية) ليعلموا أن منتهى ما وصل اليه علماء الكون يؤيد مذهب السلف فيها وفي أمثالها ، ويبطل قاعدة المناولة في جمل نظريات أفكارهم وألوفات عقولهم وقضايا معلوماتهم

الكلامية القليلة أصلاً ترجع إليه نصوص الكتاب والسنة ولو بالتأويل، وقد علمنا أن بعض الذين اطلعوا على هذه الحاشية في مجموعة الحديث لم يفهموها فاضطربوا فيها، ولهم العذر ظاهراً على غرابة موضوعها وجيزة لم توضح المقام لأمثالهم كما كان يجب. ولكن لها فيما سبق من المسائل والمباحث في رؤية الرب تعالى نظائر تفي من استحضرها عن الايضاح، ولا بأس مع ذلك من زيادة فيه وإن لم تخل من تكرار لبعض القضايا. تقدم أن البشر لم يصلوا إلى الإحاطة بكنه شيء من حقائق هذه المخلوقات وإنما يعرفون منها ظواهرها وبعض خواصها وسنن الخالق فيها، فهم أولى بالمعجز عن إدراك حقيقة الخالق وصفاته وأفعاله، وإنما عرفوه سبحانه وعرفوا صفاته وأفعاله بآياته الكونية في خلقه، وآياته الكلامية المنزلة على رسله. ففي كل شيء له آيات تدل على وحدانيته وعلمه ومشيئته وقدرته وحكمته ورحمته، فهو تعالى ظاهر في كل شيء. بدلالته عليه وباطن في كل شيء. يحجب عبده به عنه.

إن اشتغال العبد بشؤون الخلق يحجبه عن معرفة ربه وعن مراقبته وعن عبادته وعن شكره إذا هو اشتغل بها لذاتها وماله من اللذة والمنفعة العاجلة فيهما، كما أنها تكون آيات ودلائل لمعرفته ووسائل لمراقبته وبواعث لعبادته وذكره وشكره إذا هو نظر بهذه النية، وإن تجليه سبحانه للأبرار في الآخرة يكون بقدر هذا. كما أن حجب العجاز عنه يكون بقدر مقابله الذي ذكر قبله (جزءاً وفاقاً) فسعة العلم بالكون وسننه ونظامه ومنافسه قد تكون من أسباب سعة المعرفة بالله والكمال الذي يقرب منه. وقد تكون من أسباب الجهل بالله والبعد عنه، ولو كان هؤلاء العلماء الذين عرفوا في هذا العصر أضعاف ما نقل عن الأولين من أسرار هذا العالم قد نظروا فيه بنور الله واهتدوا في مباحثهم بهداية ربه لوصلوا إلى درجة عالية من الكمال. على أن ارتقاهم في الأسباب وتجاهلهم المتصل في كشف أسرار العالم لا بد أن يفتهم بهم إلى المعرفة الصحيحة والعبودية الكاملة التي بينها الرب سبحانه في آخر كتبه للبشر على لسان خاتم رسله لهم كأرشد إليه في قوله (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم في ضربة من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط). ذلك بأنهم سيجدون في حقائق العلوم التي يهتدون إليها باتصال أبحاثهم

وتتابعهما صدقا لهذا الكتاب فيما أخبر عنه من عالم الغيب ولقاء الله تعالى وكل ما كفر به المقيدون بنظريات عقولهم القاصرة وعلومهم الناقصة ، كالأرواح والملائكة والجن وتمثلهما في الصور المختلفة ، وتجلى الرب سبحانه لعباده بقدر استعداد أنفسهم وارتقاء أرواحهم من وراء الحجب التي كانت تحجبهم عنه وأن فيما وصلوا إليه من العلم اليوم ما يقرب ذلك من المدارك وقد بينا بعض الأمثلة في هذه المباحث وغيرها . وإن من أعظم ما يشغل هؤلاء الباحثين في هذا العلم مسألة بدء الخلق كيف كان ، ومن أي شيء كان ؟ وقد سبق لهم أن جزموا بأن هذه الاجرام السابحة في ملكوت الله من السموات والأرض قد كانت مادة واحدة سديمية تشبه الدخان فانفثت وانفصل بعضها من بعض فكانت اجراما متعددة — وقد جاءهم محمد النبي الأمي ﷺ بما هو صريح في ذلك قبل علمهم به بقرون وأجيال كثيرة كما بيناه في موضعه

ثم اهتموا في هذا الجليل إلى أن أصل تلك المادة التي انفثت رتقها بما ذكر المؤلف من عشرات العناصر قد كان مصدرها هذه الكهرباء التي دخلت بها علوم البشر وأعمالهم في طور غريب عجيب ولا تزال عجائبها كل يوم في ازدياد والمسألة التي أشرنا إليها في الحاشية التي علقناها على عبارة ابن القيم في النور هي ما ذكره أخيراً من أن للكهربائية دقائق — أو ذرات أو ذريرات أو جواهر فردة — مستقلة بنفسها سموها (الالكترونات) ورجحوا أنها هي قوام كل جواهر المادة التي يتألف منها بناء العالم العلوي والسفلي ، وأن اهتزاز هذه الذرات أو الجواهر الفردة هو سبب طيف النور ، وأن له اهتزازات مختلفة وأنها هي منشأ تغير العناصر الطبيعية والكيميائية . وقد بينا من قبل أن هؤلاء العلماء قرروا القول من قبل بأن حركة المادة هي سبب جميع التغيرات والتطورات في هذا العالم إذ هي منشأ النور والحرارة التي قلنا إنها تحول الجوامد إلى مائعات والمائعات إلى غازات ، فالظاهر من كل ما تقدم أن الكهرباء هي الأصل لسكل الكائنات التي تقدر مساحتها بحسب بعض النظريات العلمية بمئة وخمسين مليون سنة من سنى النور ، وهو يقطع في الثانية ١٨٦٢٣٠ ميلا في أقرب تقدير وأحدثه في الدقيقة ١٧٩٨٠٠٠ وفي الساعة ٤٣٠٧٨٨٠٠٠ أي أربعمائة وثلاثين مليون ميل

وسبعائة وثمانية وثمانين ألف ميل ، فكم يقطع في اليوم ، ثم كم يكون في السنة ؟؟
(وما أوتيتهم من العلم إلا قليلا)

إن مظاهر من أسرار القوة الكهر بائية إلى الآن يقرب من العقل أن تكون إرادة الله تعالى وحكمته كما قالوا منشأ التكوين والتطور في عالم الامكان بسرعة حر كنها وكونها مصدر النور ، فارتباط أجزاء العالم بها وانتظامه بسنن الله تعالى فيها معقول ، وأما تولد العناصر منها وتجميعها وصيرورتها سديما كالدخان أو الغمام أو بخار الماء فهو طور ثان متأخر عن تولد بعض عناصر المادة من بعض وارتقاء ذلك في سلسلة الأسباب المتقدمة إلى جواهر الكهر بائية الفردة ، فإذا فرضنا أن الكهر باء أول ما خلق الله تعالى من المادة فانها تكون آخر حجاب مادي مما حال بين الماديين وبين معرفته تعالى في الدنيا وبحول بينهم وبين رؤيته في الآخرة ، فإذا انكشف هذا الحجاب وانتهى بالإيمان في الدنيا فانه ينتهي بالرؤية في الآخرة التي هي أكل المعرفة

ولكن الحجب كثيرة كما تقدم وكون الكهر باء أول ما خلق الله تعالى من المادة لم يبلغ درجة العلم القطعي الآن ، فهي باعترافهم مركبة ، ومنقسمة إلى موجبة وسالبة ، وآثارها من إثارة الحركة وتوليد النور وغير ذلك إنما تكون باقتران الزوجين الموجب والسالب ، فيجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى ابتداء كما يجوز أن يكون بسبب مادي آخر ، أو بسبب روي سابق عليها في الخلق فيكون هو الحجاب الأخير الذي لا يبقى بعد انكشافه إن هو انكشف إلا معرفة الخالق ورؤيته كفا حابدون حجاب البتة - فهذا ما أشرت إليه في تلك الحاشية من التقريب بين ما ورد من التجلي الإلهي في الحجب ومن وراء الحجب ، ولكن كان من السهو جعلنا إيها على إجمالها وإيهامها في مجموعة الحديث النجدية وأكثر قرائمها إلا المأم لهم بشيء من هذه العلوم والاصطلاحات التي يستغنون عنها في هذا المقام بقوة إيمانهم واعتصامهم فيه بهدى السلف وتكرار التنبيه فيهما على أننا إنما نذكر أمثال هذه المسائل في المناور في تفسيره التقريب معاني النصوص من عقول المطلعين على هذه العلوم من أبناء هذا العصر ، المقتونين بها ، فإذا رأى هؤلاء أن أبعاد ما ورد في الكتاب والسنة عن ما لوف البشر من أخبار عالم الغيب يتفق مع أحدث ما قرره العلم المبني على التجارب والبحث العملي فالمرجو

أن يكون أجذب لهم إلى الإيمان، وهذا يكثُر يوماً بعد يوم، ومنه ما صار حقائق واقعة ومنه ما قرب منها حتى وردت الأنبياء في هذه الأيام بالاهتمام إلى ضرب من العلاج بالكهر باقية بعيدة إلى الشيوخ قوة الشباب ونضارته وذلك يقرب كون أهل الجنة شباباً لا يبرمون وسنقر بمسألة الرؤية بأوضح مثال في بحث الكلام الإلهي، وقد صرحنا مراراً بأن كل ما نورد من تقرير وتأليف بين العلم والدين، ومن تفسير أو تأويل لرد شبهات الزائعين، فإننا لا نخرج به عن قاعدتنا في المعتقد المعتمد عندنا في جميع أمور الدين من العقائد والعبادات والفضائل، وهو ما كان عليه أهل الصدر الأول من سلفنا الصالح.

وقد سبق لنا بحث مثل بحثنا هذا على قاعدتنا هذه في تفسير قوله تعالى (٣ : ٢٩٠) هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) من جزء التفسير الثاني، بعضه لنا وبعضه للأستاذ الامام فيراجع في ص ٢٦٠-٢٦٧

(قلبي) ان ادخال مباحث علوم الـكون في التفسير هو من أهم أركانه والعمل بهدى القرآن فيه، فهو مملوء بذكر آيات الله في خلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، وكان سلفنا من مفسري السلف والخلف يذكرون ما يعلمون من أسرار الخلق وكذا ما يتلقونه عن أهل الكتاب حتى الذين لا يوثق بعلمهم ولا روايتهم وهو مما يفتقد عليهم.

« الكلمة الجامعة الجامعة في مسألة الرؤية »

خلاصة الخلاصة أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق وأنها أعلى وأكمل التعميم الروحاني الذي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة والرضوان، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله تعالى في كتابه المجيد (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وقوله في الحديث القدسي الذي رواه عنه رسول الله ﷺ « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وأن هذا وذاك مما يدل على مذهب السلف الذي عبر بعضهم عنه بأوجز عبارة اتفق عليها جميعهم وهي « أنها رؤية بلا كيف » وبؤيد ذلك اضطراب جميع أصفاف العلماء في النصوص الواردة في نفيها وإثباتها سواء منهم أهل اللغة وأساطين البيان، ونظار الفلاسفة وعلم الكلام، ورواة الأحاديث والآثار .

ومناقضو الصوفية وأولو الكشف والإلهام ، فلم تتفق طائفة من هؤلاء على قول فصل قطعي تنفع به بقية الطوائف بدليلها القوي أو الأصولي أو العقلي أو فهم النص الثقل أو تسليم إلهامها للكشفي ، ولكن من نظر في جميع ما قالوه نظر استقلال وانصاف يحزم بأن ما كان عليه عامة السلف من إثبات كل ما يصح به النقل وتفويض تأويله الذي يكون عليه في الآخرة إلى الله عز وجل هو الحق الذي يطمئن به القلب ويؤيده العلم والعقل فهو الأسلم والأحكم والأعلم والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

﴿ خلاصة القول في مسألة الكلام الإلهي ﴾

اضطرب المتكلمون في الكلام الإلهي كما اضطربوا في مسألة رؤيته تعالى واستوائه على عرشه وغيرها من صفاته وشئونه فذهب الذين بنوا قواعد عقائدهم على اقتضاء التنزيه للتأويل إلى أن الكلام من صفات الأفعال كالخلق والرزق (بالمعنى المصدري) ولهذا قالوا إن القرآن مخلوق ، والحق الذي كان عليه السلف الصالح أن كلام الله تعالى صفة من صفاته الذاتية كالعلم وهو مثله لا يقتضي التشبيه إذ من المعلوم بدليل الثقل والعقل أن الخالق لا يشبه المخلوق كما تقدم شرحه في مسألة الرؤية فلا نعيده والعهد به قريب ، وإنما نكتب شيئاً تقرب به المسألة من الافهام ، بعد تفنيد تقاليد علم الكلام ، فإن أكثر متكلمي الأشعرية قد عقدوها تعقيداً شديداً بما حاولوا به التوفيق بين نصوص أئمة السنة ونظريات العقل بقولهم : إن الكلام نفسى ولغظي ، فالأول صفة قديمة قائمة بذاته تعالى . والثاني عبارة عن ذلك المعنى القائم بالذات تؤدي باللفظ الذي يحصل بالصوت والحروف التي تكتب بالقلم ، وكل من الحروف والأصوات والألفاظ التي تكيفها الأصوات حادثة مخلوقة . قالوا : وإنما منع السلف من التصريح بذلك وأنكروا على من قال إن القرآن مخلوق ، لأن القرآن يسمى كلام الله بمعنى دلالاته على صفة الله القديمة فلم يندأ الاشتراك بخشي أن يفضى القول بخلق كلمات القرآن المملوطة والمكتوبة إلى القول بأن كلام الله تعالى الذي هو صفته القديمة مخلوق .

وهذه فلسفة مردودة مخالفة لمذهب السلف كأمثالها من تأويل سائر الصفات ، وهي غير معقولة المعنى أيضاً فإن القرآن لا مدلول له إلا معاني مفرداته . وجملة هذه المعاني منها القديم وهي معاني أسماء الله تعالى وصفاته ، وسائر حادثة

وقد ورد فيه ذكر « كلام الله » في مواضع لا مدلول لها إلا ما يسمونه هم الكلام اللفظي - كقوله تعالى (وأن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسم كلام الله) فالمراد بكلام الله القرآن قطعاً ، إذ لا يمكن أن يقال إنهم يسمون صفة الله تعالى القائمة بذاته ، وقوله في اليهود (وقد كان فريق منهم يسمون كلام الله ثم يحرقونه من بعد ما عقلوه) يعني التوراة وقوله في المخلفين من الاعراب (يريدون أن يبدلوا كلام الله) يعني وعده في القرآن فيما سبق في السورة ، إذ لا يمكن أن يقال إن هؤلاء يبدلون وأولئك يحرقون صفة الله تعالى .

وقد اغتر بهذه الفلسفة الكلامية الجماهير الكثيرون لصدورها عن بعض كبار النظر ، الذين ملأت شهوتهم الاقطار ، فاعجب الباحثون منهم بها ، وقدم الآكثرون فيها ، ورجع عنها أساطين المذهب بعد تمحيصها ومقابلتها بأقوال السلف المؤيدة بالنصوص . فأكثر المتكلمين المستقلين الخالصين رجعوا إلى مذهب السلف في أواخر أعمالهم . ، لكن بقي عامة الأشعرية متبعين لما قرروه لهم من قبل ذلك في كتبهم ، كدأب الجماعات في كل ما يتخذونه مذهباً لهم ، على أن الرجوع كان في الأغلب بالتدرج والمزج بين التفويض والتأويل ، فلم يشعر به إلا الأفراد من أهل الدليل . وقد أعجبني من كلام هؤلاء النظر المنيبين قول الإمام أبي محمد عبد الله الجويني . والد إمام الحرمين في رسالة له في نصيحة المسلمين عند رجوعه إلى مذهب السلف في هذه المسألة وإخواتها التي يتأولها أصحابه الأشاعرة لتصريحه ورده على شيوخه قال : (١)

« انني كنت برهة من الدهر متحيراً في ثلاث مسائل : مسألة الصفات ومسألة الفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد ، وكنت متحيراً في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك من تأويل الصفات وتحريفها أو إمرارها والوقوف فيها ، أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل فأجد النصوص في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ناطقة منبئة بحقائق هذه الصفات ، وكذلك في إثبات العلو والفوقية ، وكذلك في الحرف والصوت . ثم

(١) طبعت هذه الرسالة في مجموعة الرسائل (التي رية هذه الايام فرأينا عباراتها جليلة مؤيدة لما أجهلناه في بحث الرؤية فأحبينا نقلها لحسن شأنها واحترام الجمهور لصاحبها

أجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم منهم من يؤول الاستواء بالقهر والاستيلاء، ويؤول النزول بنزول الأمر، ويؤول الهدى بالهدى بالهدى، والنعمة، ويؤول القدم بقدم صدق عند ربهم، وأمثال ذلك. ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله تعالى معنى قائما بالذات بلا حرف ولا صوت، ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم « ومن ذهب إلى هذه الأقوال أو بعضها قوم لهم في صدرى منزلة مثل طائفة من فقهاء الأشعرية الشافعيين لأنى على مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه عرفت فرائض ديني وأحكامه فأجد مثل هؤلاء الشيوخ الاجلة يذهبون إلى مثل هذه الأقوال وهم شيوخي، ولى فيهم الاعتقاد التام لفضلهم وعلمهم، ثم اننى مع ذلك أجد فى قلبى من هذه التأويلات حزازات لا يطمئن قلبى إليها، وأجد الكدر والظلمة منها، وأجد ضيق الصدر وعدم الشراحة مقروناً بها، فكنت كالتحير المضطرب فى تحيره. المتعامل من قلبه فى قلبه وتغييره

« وكنت أخاف من إطلاق القول بإثبات العلو والاستواء والنزول مخافة الحصر والتشبيه، ومع ذلك فإذا طالعت النصوص الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أجدها نصوصاً تشير إلى حقائق هذه المعاني وأجد الرسول ﷺ قد صرح بها خبراً عن ربه واصفاله بها، وأعلم بالاضطرار أنه ﷺ كان يحضر فى مجلسه الشريف العالم والجاهل والذكى والبلبد والاعرابى الجافى ثم لا أجد شيئاً يعقب تلك النصوص التى كان يصف ربه بها لانصافاً ولا ظاهراً مما يهرفها عن حقائقها ويؤولها كما تأولها هؤلاء مشايخى الفقهاء المتكلمين، مثل تأويلهم الاستيلاء بالاستواء، ونزول الأمر للنزول وغير ذلك، ولم أجد عنه ﷺ أنه كان يحذر الناس من الإيمان بما يظهر من كلامه فى صفته لربه من القوة واليدى وغيرها، ولم ينقل عنه مقالة تدل على أن لهذه الصفات معانى أخرى باطنة غير ما يظهر من مدلولها. بعد هذا شرع الإمام الجويني فى إيراد النصوص من الكتاب العزيز والاجادى النبوية فى مسألة علو الرب تعالى وهى معروفة ولبعض حفاظ السنة فيها مصنفات خاصة كابن قدامة والذهبي، وكتابتها مطبوعان عندنا. ثم قال فى المسألة من وجهة النظر العلمية « ومن عرف هيئة العالم ومركزه من علم الهيئة وأنه ليس له إلا جهتا العلو والسفل ثم اعتقد بينونة خالقه عن العالم فن لوازم البينونة

أن يكون فوقه لأن جميع جهات العالم فوق وليس السفلى إلا المركز وهو الوسط ،
نم إنه وضح هذه المسألة في آخر الرسالة وقال قبل ذلك وبعد بيان مسألة
صفة العلو :

﴿ فصل ﴾ إذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبه التأويل وعمارة التعميل ،
وحاجة التشبيه والتخيل ، وأثبتنا علو ربنا سبحانه وفوقيته واستواءه على عرشه كما
يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح في ذلك والصدور تشرح له ، فان التحريف
تأباه العقول الصحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف في ذلك
جهل وعي مع كون الرب تعالى وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها ، فوقونا
عن اثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا إياه ، فما وصف لنا نفسه بها
إلا لثبوت ما وصف به نفسه لنا ولا نقف في ذلك ^(١) وكذلك التشبيه والتخيل حاقة
وجاهلة . فمن وقته الله تعالى للاثبات بلا تحريف ولا تكييف ولا قوف فقد وقع
على الأمر المطلوب منه إن شاء الله تعالى .

﴿ فصل ﴾ والذي شرح الله صدرى في حال هؤلاء الشيوخ الذين أولوا الاستواء
بالاستيلاء والنزول بنزول الأمر واليدين بالنعمتين والقدرتين هو على بانهم ما فهموا
في صفات الرب تعالى إلا ما يليق بالخلق ، فما فهموا عن الله استواء يليق به ولا
نزولا يليق به ولا يدين تليق بعظمته بلا تكييف ولا تشبيه فلذلك حرفوا الكلم
عن مواضعه وعطّلوا ما وصف الله تعالى نفسه به ، وقد كبريان ذلك إن شاء الله تعالى .
« لا ريب أنا نحن وإياهم متفقون على إثبات صفات الحياة والسمع والبصر
والعلم والقدرة والارادة والكلام لله ونحن قطعاً لا نعقل من الحياة إلا هذا
العرض الذي يقوم بأجسامنا وكذلك لا نعقل من السمع والبصر إلا أعراضاً
تقوم بجوارحنا فكما أنهم يقولون حياته ليست بمرض وعلمه كذلك وبصره

(١) في كلام الجويني هذا أوضح تفنيد لمنع بعض المتكلمين من تلقين العامة
الآيات والأحاديث الواردة في صفاته تعالى كما اقترحوه على شيخ الإسلام ابن تيمية
بما كان لهم من المكانة عند الحكومة المصرية في زمنه بعد الجويني الذي يمدونه هو
وولده أمام الحرمين من شيوخهم وأئمتهم .

كذلك هي صفات كما يليق به لا كما يليق بنا فكذلك نقول نحن: حياته معلومة وليست
مكيفة وعلمه معلوم وليس مكيفاً وكذلك سمعه وبصره معلومان وليس جميع ذلك
اعراضاً بل هو كما يليق به .

« ومثل ذلك بعينه فوقيته واستواؤه ونزوله ، ففوقيته معلومة أعني ثابتة كثبوت
حقيقة السمع وحقيقة البصر ، فأنهما معلومان ولا يكيفان ، كذلك فوقيته معلومة ثابتة
غير مكيفة كما يليق به . واستواؤه على عرشه معلوم غير مكيف بحركة أو انتقال
يليق بالخلق ، بل كما يليق بمظمنه وجلاله . صفاته معلومة من حيث الخلة والثبوت ،
غير معقولة من حيث التكيف والتحديد ، فيكون المؤمن بها مبصراً من وجه أعني
من وجه ، مبصراً من حيث الإثبات والوجود ، أعني من حيث التكيف والتحديد ،
وبهذا يحصل الجمع بين الإثبات لما وصف الله تعالى نفسه به وبين نفي التحريف
والتشبيه والوقوف ، وذلك هو سراد الرب تعالى منا في إبراز صفاته لنا لتعرفه بها
ونؤمن بحقائقها ، وننفي عنها التشبيه ، ولا نعظمها بالتحريف والتأويل ، ولا فرق بين
الاستواء والسمع ، ولا بين النزول والبصر ، الكل ورد في النص .

« فان قالوا لنا في الاستواء شبهتهم ، نقول لهم في السمع شبهتهم ، ووصفتم ربكم
بالعرض ، فان قالوا لا عرض بل كما يليق به ، قلنا في الاستواء والفوقية لا حصر بل
كما يليق به . فجميع ما يلزموننا به في الاستواء والنزول واليد والوجه والقدم والضحك
والتعجب من التشبيه نلزمهم به في الحياة والسمع والبصر والعلم ، فكما لا يجعلونها
م اعراضاً كذلك نحن لا نجعلها جوارح ، ولا ما يوصف به المخلوق ، وليس من
الانصاف أن يفهموا في الاستواء والنزول والوجه واليد صفات المخلوقين فيحتاجوا
إلى التأويل والتحريف .

« فان فهموا في هذه الصفات ذلك فيلزمهم أن يفهموا في الصفات السبع^(١) صفات
المخلوقين من الأعراض فما يلزموننا به في تلك الصفات من التشبيه والجسمية فنلزمهم
به في هذه الصفات من العرضية ، وما يترهون ربهم به في الصفات السبع وينفون عنه

(١) يعني الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وهي التي
يسمونها صفات المعاني ويحملون مدار معرفة الله عليها .

عوارض الجسم فيها ، فكذلك نحن نعمل في تلك الصفات التي ينسبوننا فيها إلى التشبيه سواء بسواء ، ومن أنصف عرف ماقلنا واعتقده وقبل نصيحتنا ودان لله بآيات جميع صفاته هذه وتلك ، ونفى عن جميعها التشبيه والتعطيل والتأويل والوقوف ، وهذا مراد الله تعالى لنا في ذلك لأن هذه الصفات وتلك جاءت في موضع واحد وهو الكتاب والسنة ، فاذا أثبتنا تلك بلا تأويل وحرفنا هذه وأولناها كنا كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض ، وفي هذا بلاغ وكفاية ان شاء الله تعالى

﴿فصل﴾ وإذا ظهر هذا وبأن أنجحت الثلاث المسائل بأسرها وهي مسألة الصفات من النزول واليد والوجه وأمثالها ومسألة العلو والاستواء ومسألة الحرف والصوت . أما مسألة العلو فقد قيل فيها مافتح الله تعالى وأما مسألة الصفات فتساق مساق مسألة العلو ولا نفهم منها ما نفهم من صفات الخلق بل يوصف الرب تعالى بها كما يليق بجلاله وعظمته : فينزل كما يليق بجلاله وعظمته ، ويداه كما يليق بجلاله وعظمته ، ووجهه الكريم كما يليق بجلاله وعظمته . فكيف ننكر الوجه الكريم ونحرف ، وقد قال ﷺ في دعائه « أسألك لذة النظر إلى وجهك » وإذا ثبتت صفة الوجه بهذا الحديث وبغيره من الآيات والنصوص فكذلك صفة اليدين والضحك والتمجيب ، ولا يفهم من جميع ذلك إلا ما يليق بالله عز وجل وعظمته لا ما يليق بالخلق من الأعضاء والجوارح تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

(ثم قال) وأما مسألة الحرف والصوت فتساق هذا المساق فان الله تعالى قد تكلم بالقرآن المجيد وبجميع حروفه فقال تعالى (الم) وقال (المص) وقال (ق) والقرآن المجيد وكذلك جاء في الحديث فينادى يوم القيامة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب « وفي الحديث « لا أقول الم حرف . ولكن الف حرف ، لام حرف ميم حرف » فمؤلاء ما فهموا من كلام الله تعالى إلا ما فهموه من كلام الخلق فقالوا ان قلنا بالحروف فان ذلك يؤدي إلى القول بالجوارح واللاهوت ^(١) وكذلك إذا

(١) اللاهوت جمع لهواة ، وهي اللحمة المشرفة على الخلق في أقصى الفم ، ويجمع أيضا على لهي ولهات .

قلنا بالصوت أدى ذلك إلى الخلق والخنجرة ، علوا في هذا من التخطيط كما عملوا فيما تقدم من الصفات

« والتحقيق هو أن الله تعالى قد تكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته فانه قادر والقادر لا يحتاج إلى جوارح ولا إلى لهوات ، وكذلك له صوت كما يليق به يسمع ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس إلى الخلق والخنجرة : كلام الله تعالى كما يليق به وصوته كما يليق به ، ولا تنفى الحرف والصوت عن كلامه سبحانه لا فتقارهما منا إلى الجوارح واللهوات ، فانهما من جناب الحق تعالى لا يفتقران إلى ذلك . وهذا ينشرح الصدر له ويستريح الإنسان به من التعسف والتكلف بقوله : هذا عبارة عن ذلك

« فان قيل هذا الذي يقرؤه القارئ هو عين قراءة الله تعالى وعين تكلمه هو ؟ قلنا لا بل القارئ يؤدي كلام الله تعالى والكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مؤدياً مبلغاً ، ولفظ القارئ في غير القرآن مخلوق وفي القرآن لا يتميز اللفظ المؤدى عن الكلام المؤدى عنه ، ولهذا منع السلف عن قول « لفظي بالقرآن مخلوق » لأنه لا يتميز كما منعوا عن قول « لفظي بالقرآن غير مخلوق » فان لفظ العبد في غير التلاوة مخلوق وفي التلاوة مسكوت عنه كيلا يؤدي الكلام في ذلك إلى القول بخلق القرآن وما أمر السلف بالسكوت عنه يجب السكوت عنه والله الموفق اهـ (يقول مؤلف هذا التفسير) ان لدينا في تقريب صفة الكلام من الافهام قولاً آخر ، وهو ان جميع ما ثبت في النصوص من صفات الله تعالى وشؤونها فالتعبير عنه مستعار مما وضعه الناس في اللغة لأنفسهم فنفهم بهذه المراد من تلك بقدر الطاقة البشرية ونعرف بدليل العقل والنقل الفرق بينهما وأن النسبة بينهما المبينة في الحقيقة . وقد عبر أبو حامد الغزالي عن ذلك تعبيراً مبلغاً في قوله من كتاب الشكر من الإحياء :

« إن لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع ، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين وأضع اللغة حق يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقةها ، فلم تكن لها في العالم عبارة لعل شأنها والمحطاط رتبة واضع اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشرافها ،

فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لانغموس في نور الشمس ولكن لضد في أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم للملاحظة جلالها إلى أن يستمروا من عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستماروا لها اسم القدرة فتجاسروا بسبب استعازتهم على النطق قائلنا : لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم ذكر المشيئة والمحبة والكراهة والرضا والغضب ، فلم يفرق بين ما يسمونه صفات المعاني وما يسمونه صفات الأفعال التي يتأولها أصحابه الأشعرية تحكما منهم .

ونحن نعلم من أنفسنا أن لنا كلاما هو صفة من صفاتنا وشأن من شؤوننا تتعلق بما يتعلق به علمنا ولكن تعلق العلم عبارة عن انكشاف المعلومات للنفس وتعلق الكلام عبارة عن كشفها وتصويرها بما يدل عليها في النفس أو لمن تريد كشفها له ، تقول : حدثتني نفسي بكذا ، وقلت في نفسي كذا ، وفي حديث عمر يوم السقيفة « وكنت زورت في نفسي مقالة » يعني هيأت في نفسي كلاما لأقوله . وقال الشاعر :

عندي حديث أريد اليوم أذكره وأنت تعلم دون الناس فخواه
وأما أداء الكلام لمن نريد اعلامه ببعض ما نعلم فله طرق أعما تعبيرا
اللسان وبديه تعبيرا بقلم ، والأول غريزة في النطق خاصة بال بشر بمقتضاها تواضعوا
على الألفاظ الدالة على معاني المعلومات ، فالتسعت بقدر اتساع دائرة علومهم ، والثاني
صناعة هدام الله تعالى إليها بشورهم بالحاجة إلى إيصال معلوماتهم إلى البعيد
عنهم الذي لا يسمع كلامهم اللساني وإلى حفظها لمن يحجب بهدمهم . وقد استحدثوا
في هذا العصر آلة لخطاب البعيد باللسان سموها (التليفون) وسميناها (المسرة)
بكسر الميم وتشديد الراء ^(١) توصل الكلام من دار إلى دار ومن بلد أو قطر
إلى آخر بأسلاك كبر بائية تصل بين آلات المتخاطبين وقد استفنوا أخيرا عن
هذه الأسلاك في بعض المواضع . واستحدثوا آلة لحفظ الأصوات الكلامية
وغيرها واعادتهم عند الحاجة ولو بعد موت صاحبها سموها (الفونوغراف) وكانوا
استحدثوا قبل ذلك آلة لنقل الكلام من مكان إلى مكان في البلد الواحد وفي البلاد
(١) أخذناها من قول القاموس : المسرة بكسر الميم الآلة يسار بها كالطومار

والأفطار المختلفة بأسلاك كثر باثنية موصلة بين الآلات المؤدية للكلام والقابلة له بما هو من قبيل الخط لا الصوت ، وهى الآلة المعروفة بالتعريف .

فكل من هذا وذاك أداء للكلام الذى يقوم فى نفس صاحبه ويريد إيصاله إلى غيره وكل منها يسمى كلامه حقيقة كما يعلم من استعمال العرب الخلفى والمخضرمين والمولدين الذين تلقوا عنهما ومن بعدهم ، ولأخطل الشاعر المشهور فى دولة بنى أمية بيت من الشعر تناوله المتكلمون واستشهدوا به على الكلام النفسى والكلام اللفظى ، يفهم منه أن الأول عنده هو حقيقة مدلول الكلمة وأن الثانى مجاز مرسل وهو :

إن الكلام لفى الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وليس هذا بحجة لغوية على ما ذكر ، وقصارى الاحتجاج بشعر الشاعر أن استعماله الذى يستعمله صحيح فى اللغة فى مفرداته وتركيبه ، وذلك لا يقتضى أن يكون رأيه فيه صحيحا ، ولا أن يكون كل ما يقوله حقا فى الواقع ولا فى اعتقاده ولا سيما إذا كان شعرا ، فاستعمال العرب لمادة الكلام يدل على أن اللفظ المركب الدال بالوضع على المعانى كلام حقيقة ، وقد قال الزخشرى فى حقيقة الأساس من هذه المادة : سمعته يشكلم بكذا ، وكلته وكلته ، وكافا متصارمين فصارا يتكلمان ، وموسى كلم الله . ونطق بكلمة فصيحة وبكلمات فصاح وبكلم اه

فللكلام الإنسان صفة أو ملكة فى نفسه يتاجبها بها ويصور فيها ما ينظمه أو يقدره ويزوره ليخاطب به غيره ، وصفة أو ملكة فى لسانه ، وصفة أو صورة فيما يرسمه بقلمه على الورق ، وصورة أخرى فيما يحرك به آلة التلغراف السلكى أو غير السلكى مخاطبا لبعض الناس فى بعض البلاد ، وصورة أخرى فى الهواء تحدث عند النطق به زمنا قصيرا ، وقيل انه أطول مما يظن ، وصورة أخرى فيما ينقشه المكرون فى لوح آلة النونوغراف تكون محفوظة فيه إلى أن تعيده الآلة كما ألقى فيها صوتا مؤلفا من الألفاظ الدالة على المعانى .

وكلام كل أحد ما ينشئه فى نفسه ويؤديه إلى غيره بطريقة من الطرق التى ذكرناها ، وينقل عن قليل من البشر أنهم قد يؤدون بعض كلامهم الذى فى أنفسهم إلى بعض المستعدين بقوة توجيه الارادة وانهم قد يطلعون على بعض

ما يجوز في أنفس غيرهم من الكلام ، فمن لم يصدق هذا عنهم فليعد الاعتبار به من ضرب المثل ، ومهما تكن الوسيلة التي وصل بها علم المنتهى للكلام إلى غيره فإن غيره يصير مثله في تصوره في نفسه وفي تصويره لغيره بالوسائل المشار إليها آنفاً ، مثال ذلك قول لبيد (رض)

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

تألف نظام هذا البيت في نفس لبيد بتقتضى الصنعة والغريزة التي بها يصور الإنسان ما في علمه لنفسه ولغيره ، وسمعه الناس من لسانه فنقلوه عنه بأساليبهم ثم بأقلامهم ، ولا يزال بعضهم يروي عن بعض ، ويعكسهم في هذا العصر أن يقتاتلوه بالتلفون والتلغراف ، ولكنه في أى صورة ظهر وبأية وسيلة نقل هو من كلام لبيد قاله منذ أربعة عشر قرناً ، وليس كلام أحد ممن ينشده اليوم بلسانه أو يرقه بقلمه أو يؤديه إلى غيره بالتلغراف أو غيره

إذا تذكرت هذا كله في كلام الإنسان المخلوق على ضعفه وقصه . وأن الكلام من صفات الكمال التي أثبتها الله تعالى لنفسه - وتذكرت مع هذا كمال الخالق وتفرهه عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله - وأنه كلمك الإيمان بوجوده وباتصافه بجميع ما وصف به نفسه من خير تعظيم ولا تشبيه - فأى عثرة يعثر بها عقلك إذا أمنت بأن الله تعالى كلاماً هو صفة من صفاته الثابتة له أزلاً وأبداً لأنها مرآة علمه الأزلي الأبدي ، وأنه بلغ بعض رسله من الملائكة ما شاء من كلامه ليوحوه إلى رسله من البشر ليبلاغوه لأمتهم كما خاطب موسى بما شاء منه ، وأن هذا الكلام واحد على اختلاف تبليغه وحفظه ، بقيامه بذات الله تعالى غير متمثل في نفس جبريل ، وفي نفس موسى ، حين سمعه من وراء حجاب ، وأداء جبريل إياه وترزوله به على قلب محمد ﷺ وعلى من قبله من الرسل (ع.م) غير أداء الله تعالى إياه إلى جبريل ، وقيامه في نفس الملك غير قيامه في البشر ، كما أن قيامه في الهواء عند التلفظ به غير قيامه في لوح الفونوغراف ، وكلاهما غير قيامه في الصحف وكونه على اختلاف صورته وطرق أدائه واحداً في كونه كلام الله القديم الأزلي كما قلنا في بيت لبيد من كون انشادنا له وكتابنا إياه اليوم لا ينافي كونه كلام لبيد القديم

النسبي غير الأزلي -- وكلام الله القديم الأزلي حقيقة أولى (والله المثل الأعلى) فلا حاجة تدعو العقل الى وصفه بأنه مخلوق أو حادث . لأن المخلوقين المحدثين يتناقضونه بالسنتهم وأقلامهم ، وسائر آلاتهم المحدثه ، ولا إلى التفصى من القول بأنه ذو حروف مرتبة ، ولا بأن تلقيه يسمى سماعا . كقوله تعالى (حتى يسمع كلام الله)

إذا جعلت هذا البيان وسيلة لفهم ما ورد في الكتاب والسنة من إجابات الكلام لله تعالى وكون ما أوحاه الى رسله عليهم الصلاة والسلام من كلامه تعالى مع اجتناب التعطيل والتشبيه جميعا وفاقا للسلف الصالح ، ومع التقريب بالمشال المناسب لحال هذا العصر في علومه وقنونه ، فلك بعد هذا أن تجعله مثالا يقرب من عقلك معنى تجلى الرب سبحانه في الصور المختلفة والحجب على تنزهه عن مشابيه تلك الصور والحجب

قد علمت أن للكلام حقيقة ، ولك — مع أمن اللبس — أن تقول صورة هي مظهر العلم في النفس ومبدأ إظهار ما شاء العالم المتكلم أن يظهره من علمه لغيره ، وأن له صورة أخرى في أنفس من ألقى اليهم شيء منه على اختلاف أحوال أنفسهم من ملكية و بشرية ، وصورا أخرى في الهواء وفي الخط على السكاغد وفي النقش على ألواح الفونوغراف . وهذه الصور على ما بينها من التباين التام مظاهر لحقيقة واحدة هي ما أراد العالم المتكلم إظهاره من علمه بكلامه كبيت لبديد الشاعر — وكقوله تعالى (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد)

فمن تلقى هذه الصورة من لسان القارىء ، أو من الصورة التي كتبت بها السورة بحروف من الخط الكوفي ، أو النسخي أو الفارسي أو غيرها علم بها من كلام الله عين ما علمه جبريل وموسى ومحمد وغيرهم من الرسل في التلقى عن الله تعالى بلا واسطة ، أو التلقى عن جبريل عليه السلام . وهو عين كلام الله تعالى القائم بنفسه من حيث إنه هو المظهر لعاني هذه السور من علمه ومن حيث إنه لا عمل

ولا كسب لأحد من المبلغين لها في تأليف عبارتها لا جبريل ولا محمد عليهما السلام ولا الصحابة الذين بلغوها للتأمين قولاً وكتابة ، ولا يقتضى هذا تأويل الكلام الإلهي ولا تعطيله ولا حدوثه ، ولا تشبيهه بكلام خلقه . كمال أن علمه تعالى لا يشبه علم خلقه ، ولا يقتضى أيضاً أن نكون قد أدركنا كنه هذه الصفة بفهمنا لما بلغنا تعالى إياه من علمه بها ، كما أن اطلاع إيانا على ما عمله في الأزل وفيها لا يزال من كونه أحداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد - لا يقتضى إدراك كنهه علمه بذلك ، بل نحن لم ندرك كنه كلامنا في أنفسنا ولا في الهواء ولا في غيره مما ذكر آنفاً

وكذلك نقول : إن ماثبت في الصحاح من تجلى الرب تعالى في الصور المختلفة وتعرفه لمن شاء ببعضها دون بعض لا يقتضى حدوثه ولا مشابهته للصور ولا الحجاب للنور ولا لغيره من خلقه ولا إدراك كنهه عز وجل : ومعرفة المؤمنين له ببعضها دون بعض المعرفة بعضهم لكلامه بتبليغ اللسان دون الكتابة أو بالكتابة دون اللسان ، وكل ذلك كمال له وإنما النقص ما تخيله نفاة الرؤية والصفات من جمل الخالق تعالى معنى سلباً

﴿ تنمة السياق في الرؤية والكلام ﴾

أخبرنا الله تعالى في الآيات السابقة بأنه منع موسى رؤيته يعني في الدنيا وبشره بأنه اصطفاؤه على أهل زمانه برسالته وبكلامه ، ثم أخبرنا فيها بما آتاه يومئذ بالإجمال فقال ﴿ وكتبناه في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ أى أننا أعطينا ألواحاً كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيباً وترهيباً . وتفصيلاً لكل نوع من أصول التشريع وهي أصول العقائد والآداب ، وأحكام الحلال والحرام . وتفصيلها ذكرها ممدودة مفصلاً بعضها من بعض . وإستناد الكتابة إليه تعالى إما على معنى أن ذلك كان بقدرته تعالى وصنعه لا كسب لأحد فيه ، وإما على معنى أنها كتبت بأمره ووحيه سواء كان الكاتب لها موسى أو الملك (عليهما السلام) قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة

والراجح أنها كانت أول ما أوتيه من وحى التشريع فكانت أصل التوراة الاجمالي وكانت سائر الأحكام التفصيلية من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل عليه ويحاطبه الرب تعالى بهافي أوقات الحاجة إليها كالقرآن ، واختلفوا في عدد الألواح فقليل كانت عشرة وقيل سبعة وقيل اثنين ، قال الزجاج يجوز أن يقال في اللغة للوحين ألواح . وهذا كل ما يصح أن يذكر من خلافهم فيها . . وأما تلك الروايات الكثيرة في جوهرها ومقدارها وطولها وعرضها وكتابتها وما كتب فيها كلها من الإسرائيليات الباطلة التي منها في المسلمين أمثال كذب الأخبار ووهب بن منبه فاعتربها بعض الصحابة والتابعين أن صحت الروايات عنهم وقد نطخ السيوطي منها في الدر المنثور ثلاث ورقات - أي ست صفحات - واسعات من القطع الكبير ، وليس منها شيء يصح أن يسمى درة وإن كان منها أن الألواح من الياقوت أو من الزمرد أو من الزبرجد كما أن منها أنها من الحجر ومن الخشب ، وقد أعجبنى من الحافظ ابن كثير أنه لم يذكر من تلك الروايات شيئاً على سعة اطلاعه ، وقد تنعم في هذا عهدته في التفسير ابن جرير رحمه الله تعالى ، ولكن ذكر بعضها الألويسي من المتأخرين تبعاً لغيره كرواية الطبراني والبيهقي في الدلائل عن محمد بن يزيد الثقفي قال : اصطحب قيس بن خرشة وكذب الأخبار حتى إذا بلغا صفيين وقف كذب ثم نظر ساعة ثم قال : ليهرقن بي هذه البقرة من دعاء المسلمين شيء لا يهرق ببقرة من الأرض مثله . فقال قيس : ما يدريك ؟ فإن هذا من الغيب الذي استأثر الله به ، فقال كذب ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة واستدل به الألويسي على أن قوله تعالى (من كل شيء) على أوسع ما يحمله اللفظ من العموم وأما أظن أن هذا القول موضوع على كذب وإن كنت أخالف الجمهور في مسألة تعديله ، وتأول الألويسي له هذا القول الظاهر بطلانه بالبداية بقوله : ولعل ذلك من باب الزمير كما ندعيه في القرآن اه . وما ذكرت هذا إلا للتعجب من فتنة هذه الروايات الباطلة إلى أي حد وأي زمن وصل تأثيرها السيء حتى أن هذا النقاد قد اغتر بمثل هذا منها وتأويله بما هو باطل مثله ، فانه لم يصح عن أحد من أئمة المسلمين الذين يعتمد عليهم بكتاب الله تعالى أنه ليس في العالم أوفى الأرض شبر إلا وقد كتب فيه (أي القرآن) ما يقع فيه وما يخرج منه : وإنا قال مثل هذا بعض المجازفين

والخيليين من الصوفية على أنه من الكشف الذى يدعونه . راجع تفسير
(ما فرطنا في الكتاب من شيء) في ص ٣٩٤ - ج ٧ تفسير

هذه ، وأما ما ورد في التوراة الحاضرة في شأن الألواح فنه ما جاء في سفر الخروج من
(٢٣ : ١٢) وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة
والشريعة والوصية التى كتبتها لتعلمهم الحكايات العشر) وجاء في وصف اللوحين منه

(٣٢ : ١٥) ثم اتفق موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده : لوحان مكتوبان
على جانبيهما ، من هنا ومن هناك كانا مكتوبين ١٦ واللوحان هما صنعة الله والكتابة

هى كتابة الله منقوشة على اللوحين) وفيه أن موسى رعى باللوحين من يديه عند ما رأى
العجل الذى عبده قومه في أيام مناجاته لله تعالى ، وفي أول الفصل (٣٤ : ١) ثم قال الرب
لموسى انحت لك لوحى حجر كالأواين فاكتب عليها الكلام الذى كان على الحجرين
الأولين اللذين كسرتهما ... - ٤ فنحت لوحى حجر كالأولين وبكر موسى في الغداة

وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرب وأخذ في يده لوحى الحجر) ويليه أن الرب هبط
في الغمام ووقف عنده هناك ومر قدامه ووعدته ووصاه وأمره بأوامر ونهاه عن أمور

ويلى ذلك (٢٧) وقال الرب لموسى اكتب لك هذا الكلام لاني بحسبه عقدت
عهدا معك ومع بنى إسرائيل ٢٨ وأقام هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة

لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر)
وهنا يحتمل أن يرجع ضمير « فكتب » إلى الرب تعالى وأن يرجع إلى موسى ،

ولو لم يرد ما تقدم عن (٣٢ : ١٦) لكان هذا متعينا بقريته قول الرب له قبله أكتب
لك هذا الكلام ، وله نظائر . وأما الوصايا العشر فقد نقلنا نصها في تفسير

(٦ : ١٥٤) ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن) من صورة الانعام
عقب وصايا القرآن التى هى أجمع وأكمل منها (ص ٢٠٢ ج ٨ تفسير)

ومن هذا الذى نقلناه هنا يعلم ما فى تلك الاسرائيليات التى أوردها السيوطى
في التفسير المأثور من المخالفة للتوراة ، إذ من المعلوم أن ما كان من التحريف

اللفظى في التوراة من نقص وزيادة وغلط قد كان قبل الإسلام ، ولم يكن بعده
إلا التحريف المعنوى - فما فى تلك الروايات من تعيين جوهر الألواح ومساحتها
وكتابتها وما كتب فيها من وصف أمة محمد (ص) وغيره مما يخالف هذه التوراة

فهو باطل أراد به واضعوه أن يذكر المسلمون في تفسير القرآن وغيره من كتبهم ما يصد اليهود وغيرهم عن الإسلام ، بأن دعوته مبنية على الكذب والبهتان ، ولم يدر أولئك الذين كانوا يكتبون كل ما يسمعون شيئاً من هذا الكيد والمكر اليهودي ، ونحمد الله أنه لم يرج منه على جهابذة نقد الحديث إلا القليل

وأما قوله تعالى ﴿ فخذها بقوة ﴾ فهو مقول قول مقدر لأنه أمر لموسى والخطاب قبله للنبي الخاتم عليهما الصلاة والسلام - والمعنى كتبنا له في الألواح ما ذكره ، وقلنا له خذها بقوة - أو وقلنا له هذه رسالتنا أو وصاينا وأصول شريعتنا وكلياتها فخذها بقوة ، أي حال كونك ملتبساً بمجد وعزيمة وحزم ، أو أخذاً بقوة وعزم ، وذلك أن المراد بها تكوين شعب جديد بترية جديدة شديدة مخالفة كل المخالفة لما نشأ عليه من الذل والعبودية لفرعون وقومه والأنس بما كانوا عليه من الشرك والوثنية ومفاسدها ، فإذا لم يكن المتولى تربية هؤلاء القوم والمرشد لهم صاحب عزيمة قوية وبأس شديد وعزم ثابت فإنه يعجز عن سياستهم وتربيتهم ، ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم

﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ قيل إن (أحسن) هنا بمعنى ذى الحسن النام الكامل وليس فيه معنى تفضيل شيء آخر ، وهو ما يعبرون عنه بقولهم : اسم التفضيل على غير بابيه - أي وأمر قومك بالاستمسك والاعتصام بهذه المواعظ والأحكام المفصلة في الألواح التي هي كاملة الحسن - وقيل إنه على الأصل فيه من تفضيل بعض المضاف إليه على بعض ومنه الحقيقي والاعتباري والاضافي ، فأصول المقائد من الإيمان بالله تعالى وتوحيده وتنزيهه أفضل وأشرف من الأحكام العملية ، ولكن لا يصح أن يراد هنا ، قيل إلا إذا أريد بالأخذ الشروع والابتداء - والأوامر أفضل من النواهي ويصح أن تراد في مثل الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن اتخاذ الصور والتماثيل ، وكلاهما من الوصايا التي كتبت في الألواح وذلك أن الإخلاص لله تعالى في العبادة أمر وجودي يتجلى به العقل وتزكى به النفس ، وترك اتخاذ الصور والتماثيل أمر سلبي محض إذا لم يكن أثراً للإخلاص في العبادة وسداً للذريعة فلا قيمة له فإنه لم ينه عنه إلا لأنه من ذرائع الشرك ، وإلا فقد يتركه المرء لعدم الداعية وإن كان مشركاً - والغرض أفضل من النفل ، ولكن ليس في الوصايا العشر نوافل ويقال مثله في قولهم

والعزيمة أفضل من الرخصة ، ومنزل هذا التعبير قوله تعالى (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) والمجال فيه أوسع ، فإن القرآن أحسن ما أنزله الله تعالى إلى خلقه على السنة رسله بإكمله تعالى الدين به وبغير ذلك من مزاياه ، والخطاب فيه لأمة الدعوة أي للناس كافة لأنه معطوف على قوله (وأنبيوا إلى ربكم وأسلوا له) ثم إن فيما أنزله فيه العزيمة والرخصة وفيه من الندب ما هو أفضل من مقابله كالصدقة بالدين بدل انظار المعسر به وهو واجب ، وكالعفو في مقابلة القصاص .

وقوله تعالى ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ من حكاية خطابه لقوم موسى بالنتيع له ، إذ وجه الأمر فيما قبله إليه وإليهم ، فهو داخل في مقول القول الذي خاطب به نبينا ﷺ من قصتهم ، والجملة استئناف لبيان عاقبة الذين فسقوا عن أمر الله ووجدوا بآياته فلم يأخذوا بأحسنها ، كأنه يقول : إن لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة وتقبعوا أحسنه كنتم فاسقين عن أمر ربكم ، فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين أنجى الله منهم ونصرهم عليهم ، وسير بكم ما حل بهم بعدكم من الفرق . أو الفاسقين من سكان البلاد المقدسة والمباركة التي وعدكم إياها وسينصركم عليهم بطاعتكم له وأخذكم بميثاقه بقوة قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها : أي سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتهاب . وقال ابن جرير : وإنما قال (سأريكم دار الفاسقين) كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً ما يصير إليه حال من خلفني - على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري - وقيل معناه سأريكم دار الفاسقين أي من أهل الشام وأعطيكم إياها ، وقيل منازل قوم فرعون . والاول أولى والله أعلم ، لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه ، والله أعلم اهـ ومن مباحث رسم المصحف الإمام أن كلمة (سأريكم) زيد فيها واو قبل الراء لئلا تشبه بسأراكم ، إذ كانوا يرسمونها بالياء غير منقوطة فالمراد بها ضبط الكلمة كالضمة والله أعلم . والعبرة التي يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارىء لهذه الآية من وجوه (أحدها) أن الكتاب الإلهي يجب أخذه بقوة وإرادة وجد عزيمة لتنفيذ ما هدى إليه من الإصلاح وتكوين الأمة تكويناً جديداً صالحاً ، ويتأكد ذلك في الرسول

(تفسير القرآن الحكيم) (١٣) (الجزء التاسع)

المبلغ له والداعى إليه والمنفذ له بقوله وعمله ، ليكون لقومه فيه أسوة حسنة . وتلك سنة الله تعالى في سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية وإن لم تكن بهداية الدين ، والدين أحوج إلى القوة والعزيمة لانه اصلاح للظاهر والباطن جميعاً ، وقد أمر الله تعالى بنى إسرائيل بما أمر به رسولهم ﷺ من أخذ الكتاب ، أو ميثاق الكتاب ، بقوة أمراً مقروناً بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم ، كما تقدم في سورة البقرة (٢ : ١٣ ، ٩٣) وسيأتى مثله في هذه السورة (الاعراف) وقد أخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الأمم التي كان لها من القوى العديدة والحربية والنظامية والمالية والصناعية ما ليس لهم ، وإنما سادوا بالعمل بهدايته كما أراد الله تعالى - لا بالتغنى بقراءته في المحافل ، ولا بالتبرك الحض بالمصحف ، كما يفعل مقلدة الخلف الطالح ، إن من يأخذ القرآن بقوة يكون القرآن حجة له فيسعد به في الدنيا والآخرة ، ومن لا يأخذه بقوة يكون حجة عليه فيشقى بالاعراض عنه وهجر هدايته في الدنيا والآخرة (يضل به كثيراً ويهتدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) .

(ثانياً) أن سبب تخويف بنى إسرائيل عند تبليغهم الميثاق الإلهي بوقوع الجبل بهم وأمرهم في تلك الحال أن يأخذوه بقوة هي أن أحكام التوراة التي أخذ عليهم الميثاق بأخذها بقوة شاقة حرجية ، وحكمة ما فيها من الشدة والخرج أن القوم كانوا مستضعفين مستذلين باستعباد المصريين لهم منذ أجيال كثيرة وكان القوم أو الأقوام الذين وعدوا بأن يغلبوهم على بلادهم جبارين أولى قوة وأولى بأس شديد ، وكان من سنة الله تعالى في البشر أن تربي أفرادهم وشعوبهم بالشدة والارتياض بالصبر ، والجهاد بالمال والنفس ، ولهذا أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يسير ببنى إسرائيل في طريق التيه وهو الجفوى من برية سيناء دهن الطريق الشمالى القريب من مدن فلسطين إذ لم يكن لهم طاقة بقتال جبارى الكنعانيين وقتئذ ، فكتب الله تعالى عليهم التيه أربعين سنة ملك في أثنائها الذين استذلهم المصريون ونشأ من صفارهم ومواليدهم جبل جديد تربي في حجر الشرع الجديد ، والتيه الشديد ، كما بيناه في تفسير سورة

المائدة (ص ٣٣٢ - ٣٣٨ ج ٦ تفسير)

(فأنها) أن الاسرائيليين قد عظم ملكهم باقامة شريعتهم بقوة حتى إذا غلب الغرور على العمل وظنوا أن الله تعالى ينصرهم ويؤيدهم لنسبهم ولقبهم وهو « شعب الله » فسقوا وظلموا ، فأُنزل الله عليهم البلاء ، وسلط عليهم البابليين الأنوياء ، فثلوا عرشهم وتبروا ملكهم ، ثم تابوا إلى رشدهم ، فرحمهم الله واعد لهم بعض ملكهم وعزمهم ، ثم ظلموا وأفسدوا فسلط عليهم النصارى فمزقوهم كل ممزق ، فظلوا عدة قرون متكئين على المسيح الموعود ليعيد لهم ملكهم بخوارق العادات ، ثم رتبهم الشدائد ونورهم العلم العصرى فطفقوا يستعدون لاستعادة هذا الملك بكل ما فى الامكان من الأسباب وفى مقدمتها المال والنظام والكيد والدهاء مع المحافظة على التقاليد الدينية فى ذلك حتى انتهى بهم السعى إلى استخدام الدولة البريطانية بما فصلناه فى بيان العبرة فى قوله تعالى (١٣٦) وأورثنا القوم الذين كانوا يسضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) من هذه السورة (ص ٩٧ ج ٩)

(رابعها) أن المسلمين الذين اتبعوا سفتهم وسنن النصارى شبرا بشبرا وذراعا بذراع فى الضر دون النفع كإفصلناه فى غير هذا الموضع قد اغتروا بدينهم كما اغتروا واتكلوا على لقب « الاسلام » ولقب « أمة ختم الرسل » ﷺ ، ولكنهم لما شربوا إلى رشدهم ، لأن الذين سلبوا ملكهم وعزمهم لم يسوسوهم بشدة مربية كافية ، بل اجتهدوا فى إفساد عقائدهم وأخلاقهم ، وإيقاع الشقاق والتفريق فيما بينهم ، بل أفسدوا كذلك من لم يستولوا على ملكهم منهم ، بتوليهم الترية والتعليم لكثيرين منهم ، كانوا عوناً لهم على ما يريدون من ثل عروشهم والسيادة عليهم بالتدريج كالعثمانيين والمصريين كما فصلناه فى مواضع أخرى ^(١) ولا يزال هؤلاء المتفرنجون المحزونون يجدون فى قتل هذه الأمة وهم يظنون أنهم يجددون ، ويفسدون عليها أمرها ويحسبون أنهم يصلحون (ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون)

(١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ

بَشِيرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟

انتهى بالآية التي، قبل هاتين الآيتين فصل من فصول قصة مرسى عليه السلام
وهاتان الآيتان استئناف مرتب على جملة ما تقدمه منها بين الله فيه لخاتم رسله في
الأولى منهما سنته في ضلال البشر بعد مجيء البينات في كل زمان، ويدخل فيه
قوم فرعون من الغابرين دخولا أولياء، وينطبق على رؤساء كفار قريش المعاندين
له ﷺ من الحاضرين وبين في الثانية جزاءهم على تكذيبهم وكفرهم، قال :

﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ هذا بيان
لسنته تعالى في تكذيب البشر لدعاة الحق والخير من الرسل وورثتهم وسببه الأول
التكبر فان من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى
لأجل اتباعه، فهم يكونون دائماً من المكذبين بالآيات الدالة عليه الغافلين عنها وتلك
حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين كفرعون وملئه. وإنما ذكرت هذه السنة العامة
من أخلاق البشر بصيغة المستقبل لإعلام النبي ﷺ بأن الطاغين المستكبرين من
مشيخة قومه لن ينظروا في آيات القرآن الدالة على صدقه ﷺ في دعوى الرسالة
من وجوه كثيرة بينها صراها، والدالة على وحدانية الله تعالى بما أقامته عليها
من البراهين الكثيرة ولا في غيرها مما أيده ويؤيده به من آياته الكونية لتكبرهم في
الأرض بلباطل، فوجه نظرهم تنحصر في تفضيل أنفسهم عليه ﷺ بأنهم سادة
قريش وكبرائها وأغنيائها وأقويائها فلا يليق بهم أن يتبعوا من هو دونهم سدا وقوة
وثرة وعصبية، والمعنى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق من
قومك أيها الرسول ومن غيرهم في كل زمان ومكان كما صرفت فرعون وملأه عن آياتي

التي آتيتها رسولى موسى - والتكبر صيغة تكلف أو تكثر من التكبر الذى هو غمط الحق بعدم الخضوع له واحتقار الناس، فهو شأن من يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق، أو يساوى نفسه بشخص، والأصل الغالب فى التكبر أن يكون بغير الحق، وقد يتصور أن يتكلف الإنسان اعلاء نفسه على غيره أو اكثاره من الاستعلاء عليه بحق كالترفع عن المبطلين، وإهانة الجبارين، واحتقار المخاربين. فقوله تعالى (بغير الحق) يكون على هذا صلة للتكبر وهو قيد له، وإلا كان بيانا للواقع. أو المعنى أنهم يتكبرون حالة كونهم متلبسين بغير الحق أى - مغفسين فى الباطل فأمثل هؤلاء لاقية للحق فى نفسه عندهم، فهم لا يطلبونه ولا يبحثون عنه وقد تظهر لهم آياته ويحددونها وهم بها موقنون، كما قال تعالى فى آل فرعون (١٤: ٢٧) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وقال فى طغاة قريش (٣٣: ٦) فاتهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ هذا إما عطف على الجملة (سأصرف ..) أى سأصرفهم عن آياتى المنزلة والكونية فينصرفون. وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها — وإما عطف على (يتكبرون) فيكون هو وما بعده بيانا لصفات المتكبرين وأحوالهم، وأولها أنهم إن يروا كل آية من الآيات التى تدل على الحق وثبت وجوده لا يؤمنوا بها فإن كثرة الآيات بتعدد أنواعها وأفرادها إنما تفيد من كان طالبا للحق ولكنه جاهل أو شاك أو سىء الفهم، فإذا خفيت عليه دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره، وفى هذا إعلام للنبي ﷺ بأن الذين يقترحون عليه الآيات من قومه إنما يقصدون التعجيز، لا استبانة الحق بالدليل، فهم أن أجيبوا إلى طلبهم لا يؤمنون، ولهذا نظرنا تقدم بعضها فى سورة الأنعام مفصلا تفصيلا.

﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا﴾ الرشد الصلاح والاستقامة وضده الغي وهو الفساد، وفيه ثلاث لغات: ضم أوله وسكون ثانيه وبه قرأ الجمهور هنا — وفتحهما وبها قرأ حمزة والكسائي — والرشاد وقد وردت فى سورة المؤمن حكاية عن فرعون (وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد) ومثلها السقم والسقم والسقم — والمعنى أن من صفة هؤلاء الذين صرنا على الضلال

واستمروا مرعى الغى والفساد ، أن ينفروا من الهدى والرشاد ، فإن رأى أحدكم سبيلا واضحا جليلة لا يختار لنفسه جعلها سبيلا له بإشارتها وتفضيلها على ما هو عليه ، وما كل أحد يصل إلى هذه الدرجة من الغى لأن من الناس من يسلك سبيل الغى على جهل فاذا علم بما تنتهى به اليه من الفساد ، ورأى لنفسه مخرجا منها ، تركها واختار سبيل الرشد عليها .

﴿وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا﴾ وهذه الحالة شر مما قبلها فإن هذه إيجابية وتلك سلبية ، وبينهما حال أخرى وهى حال من ليس فيه من نور البصيرة وزكاء النفس ما يحمله على سلوك سبيل الرشد إذا رآه لضعف همته ، ولكنه يكره الغى والفساد إذا لم يصل من اعتلال الفطرة وظلمة البصيرة إلى تفضيله على الرشد وإشار سبيله واختيارها لنفسه إذا رآها بحيث لا يصرفه عن الفساد إلا جهل سبيله أو العجز عن سلوكها .

فمن اجتمعت له هذه الأحوال أو الصفات فهو الذى أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلم تبق له سبيل من أسباب الحق والرشد يسلكها ، وقد علل ذلك سبحانه بقوله :

﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ يعنى أن الله تعالى لم يخلقهم مطبوعين على شيء مما ذكر طبعا ، ولم يجبرهم ويكرههم عليه إكراها . بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدالة على الحق ، والصدود عن سبيله الموصلة إلى الرشد ، وكانوا غافلين عنها دون أهوائهم لا يعطونها حقا من النظر والتأمل والتفكر والتدبر ، لاشتغالهم عن ذلك بأهوائهم ، وعصبيتهم لأنفسهم ولآبائهم ، وبذلك قطعوا على أنفسهم طريق الهدى . فالغفلة هنا هى الغفلة المطبوعة المانعة من أسباب العلم والفطنة ، لا أى نوع من أنواع الغفلة ، بل هى المبينة فى قوله تعالى من أواخر هذه السورة (ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون) الضالون من هؤلاء الغافلين عن آيات الله تعالى وما تهدى إليه من معرفته والاستعداد للحياة الأخرى الباقية هم الذين يقول الله تعالى فى وصفهم (أولئك فى ضلال بعيد) ويقول (قد ضلوا ضلالا بعيدا) إذا كان لهم من الانهماك فيما هم فيه والغرور به واحتقار ما سواه ما يصدهم عن توجيه عقولهم إلى غيره

ومنهم متفرجة المسلمين الجغرافيين في هذا العصر يحقرون هداية الدين الروحية وما لها من التأثير العظيم في تهذيب النفس وحملها على الخير وصدها عن الشرور من الفواحش والمنكرات ، وإنما غرهم وأضلهم أنهم في عصر وصل فيه الغريبيون إلى غاية بعيدة من الفنون والصناعات ، كأنهم يرون أن من عاش في هذا العصر يجب أن يكون مثلهم عبداً شهواته ، ومقتضى ذلك أنه كان الأفضل لبني إسرائيل أن لا يتبعوا موسى عليه السلام لأنه لم يكن عنده من زينة الدنيا وقوتها وصناعاتها وفنونها ما كان عند فرعون وقومه (فاعتبروا يا أولى الأبصار)

ثم قال تعالى ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة هل يحزنون إلا ما كانوا يعملون ﴾ الآيات في الآية التي قبل هذه بمعنى الدلائل والبيانات من براهين عقلية ، نظرية كانت أو علمية أو كونية ، كآياته تعالى في الأنفس والآفاق ، ومنها معجزات الأنبياء عليهم السلام ، وأظهرها وأقواها القرآن العظيم ، من حيث هو دال على صدق النبي الأسمى في دعوى الرسالة من وجوه كثيرة تقدم بيانها - وأما الآيات المذكورة في هذه الآية فالظاهر المتبادر أنها الآيات المنزلة من حيث اشتغالها على الهداية والإصلاح بتزكية الأنفس من خرافات الشرك وفساد الأخلاق ومنتكرات الأعمال . واللقاء مصدر لقي الشيء والشخص ولا فاء كالملاقاة إذا صادفه أو قابله أو انتهى إليه ، يقال لقي زيداً ولا فاء ولقي خيراً أو شراً (لقد لقيناهم سفرنا هذا نصبا) * ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره * ولقي جزاءه . قال الراغب وملاقاة الله عز وجل عبارة عن القيامة وعن المصير إليه قال (واعلموا أنكم ملاقوه) (وقال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله)

والمعنى والذين كذبوا بآياتنا المنزلة ما لقي والهدى على رسلنا فلم يؤمنوا لهم ولا اهتدوا بها ، وكذبوا بلقاء الآخرة وما يكون فيها من الجزاء على الأعمال - على الخير بالثواب وعلى الشر بالعقاب فاتبعوا أهواءهم - لا يحزنون هنالك إلا ما كان من تأثير أعمالهم النفسية والبدنية معا أو النفسية فقط (كترك الواجبات) في أرواحهم وأنفسهم من حق وخير زكاها وأصلحها ، أو من باطل وشر دساها وأفسدها - إن الله لا يظلم الناس في الجزاء مثقال ذرة ، وإنما مضت سنته بعمل الجزاء في الآخرة أثراً للعمل مرتباً عليه ترتب المسبب على السبب ، كأنه هو نفسه وقد شرحنا هذا المعنى مراراً « تراجع كلمة جزاء في فهارس التفسير »

(١٤٧) وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ . أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا : لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

﴿ قصة اتخاذ بنى إسرائيل للعجل ﴾

في أثناء مناجاة موسى عليه السلام لربه عز وجل في جبل الطور اتخذ قومه من بنى إسرائيل عجلاً مصوغاً من الذهب والفضة وعبدوه من دون الله تعالى لما كان رسخ في قلوبهم من فخامة مظاهر الوثنية الفرعونية في مصر، ذكرت هذه القصة هنا معطوفة على ما قبلها من خبر المناجاة وألواح الشريعة لما بين السياقين من العلاقة والاشتراك في الزمن . قال تعالى

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ الحلى بالضم والتشديد جمع حلى بالفتح والتخفيف فهو كئدى جمعاً لكئدى . وهذا الحلى استعاره نساء بنى إسرائيل من نساء المصريين قبل خروجهم من مصر فلهذا كان الله تعالى ، والعجل ولد البقرة سواء كانت من العرب أو الجواميس فهو كالخوار لولد الناقة والمهر لولد الفرس والحل لولد الشاة والجدى لولد الغنم الخ . والجسد الجثة و بدن الإنسان حقيقة ، ويطلق على غيره مجازاً والأحر كالأذهب والزعفران والدم الجاف ، وقال في لسان العرب : الجسد جسم الإنسان ولا يقال لغيره من الاجسام المقتضية ، ولا يقال لغير الإنسان جسد من خلق الأرض والجسد البدن تقول منه تجسد كما تقول من الجسم تجسم ، ابن سيده : وقد يقال للملائكة والجن جسد . غيره : وكل خلق لا يأكل ولا يشرب من نحو الملائكة والجن مما يعقل فهو جسد . وكان عجل بنى إسرائيل جسداً يصبح لا يأكل ولا يشرب ، وكذا طبيعة الجن ، قال عز وجل (فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار) « جسداً » بدل من عجل لأن العجل هنا هو الجسد ، وإن شئت حملته على الخذف أى إذا جسد ، وقوله (له خوار) يجوز أن تكون الهاء راجعة إلى العجل وأن

تكون راجعة إلى الجسد ، وجمعه أجساد . وقال بعضهم في قوله (عجلا جسداً)
قال أحمر من ذهب . وقال أبو إسحق في تفسير الآية : الجسد هو الذي لا يموت
ولا يبيز وإنما معنى الجسد معنى البتة فقط ، وقال في قوله (وما جعلناهم جسداً
لأيا كاون الطعام) قال جسد واحد يعنى على جماعة ، قال ومعناه وما جعلناهم
ذوى أجساد إلا لأيا كوا الطعام وذلك أنهم قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام)
فأعلموا أن الرسل أجمعين يأكلون الطعام وأنهم يموتون . المبرد . وتعلب : العرب
إذا جاءت بين كلامين بمجحدين كان الكلام إخباراً (قال) ومعنى الآية إنما
جعلناهم جسداً لأيا كلوا (قال) ومثله في الكلام : ما سمعت منك وما أقبل منك
معناه إنما سمعت منك لا قبل منك (قال) وإن كان الجسد في أول الكلام كان
الكلام محجوداً جسداً حقيقياً (قال) وهو كقوله : ما زيد بخارج قال الأزهرى
جعل الله قول الله عز وجل (وما جعلناهم جسداً لأيا كاون الطعام) كاللائكة
(قال) وهو غلط ومعناه الإخبار كما قال النحويون ، أى جعلناهم جسداً لأيا كلوا
الطعام (قال) وهذا يدل على أن ذوى الأجساد يأكلون الطعام وأن الملائكة
روحانيون لا يأكلون الطعام وليسوا جسداً فإن ذوى الأجساد يأكلون الطعام . اهـ
وقولهم معناه الإخبار أى الالبات

والخوار صوت البقر وهو يضم أونه كأمثاله من أسماء الأصوات : رغاء الابل
ورغاء الغنم ، ويمار المعز ، ومواء الهر وثباح الكلب الخ

وعلم من القصة في سورة طه أن السامري هو الذى أخذ منهم ما حلوه من
أوزار زينة قوم فرعون فألقاها فى النار فصاغ لهم منها عجلا أى تمثالاً له صورة
العجل وبدنه وصوته ، وإنما نسب ذلك هنا إليهم لأنه عمل رأى جمهورهم الذين
طلبوا أن يكون لهم آلهة ، قال الخافض ابن كثير : وقد اختلف المفسرون
فى ذلك العجل هل صار لحماً ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا
أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة على قولين . والله أعلم اهـ روى القول
الأول عن قتادة وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاح أنه خار خورة واحدة ولم
يعن . فمن قال إنه حلت فيه الحياة علوه بأن السامري رأى جبريل حين جاوز بينى
إسرائيل البحر ، وفى رواية عند نزوله على موسى (عليهما السلام) را كبا فرسا ماوطىء
بها أرضاً إلا حلت فيها الحياة وانضرت النبات فأخذ من أثرها قبضة فبيدها فى جوف

تمثال العجل فصار حيا له خوار وفمر وابتدأ ما حكماء الله تعالى عنه في سورة طه وسياق بيانه في تفسيرها ، ولكن قال بعض هؤلاء إن خواره كان بتأثير دخول الريح في جوفه وخروجهم فيه ، كقول الآخرين الذين قالوا إنه لم يكن حيا ، والروايات في حياته لا يصح منها شيء ، ولذلك وقف الحافظ ابن كثير فلم يرجح أحد القولين على الآخر ، وفي تفسير القصص من سورة طه روايات كثيرة من خرافات الاسرائيليات ، فيها ضرب من الكذب والضلالات ، وسنعود اليها في تفسير سورة طه إن شاء الله وقدر لنا الحياة .

قال تعالى في بيان ضلالتهم ، وتقريصهم على جهالتهم ، ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ﴾ أي ألم يروا أنه فاقد لما يعرف به الإله الحق ، وخاصة ماله من حق العبادة على الخلق ، بما يكلم به من يختاره منهم لرسالته ، ويعلمه ما يجب أن يعرفوه من صفاته وسبيل عبادته ، كما يكلم رب العالمين رسوله موسى عليه السلام ويهديه سبيل الشريعة التي تتركز بها أنفسهم ، وتقوم بها مصالحهم ، فلم بهذا أن من شأن الرب الإله الحق أن يكون متكلماً ، وأن يكلم عباده ويهديهم سبيل الرشاد باختصاصه من شاء منهم واعداده لسماع كلامه ، وتلقى وحيه وتبليغ أحكامه . وفي سورة طه (أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ، ولا يملك لهم ضررا ولا نفعا) فالمراد بالقول هداية الوحي ، والمعنى أنه ليس له من صفات الرب الإله هداية الإرشاد التي مرجعها صفة الكلام ، ولا الضر والنفع اللذين هما متعلقان صفتي القدرة والإرادة . ثم قال تعالى :

﴿ اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ أي اتخذوه وهم يرون أنه لا يكلمهم بما فيه صلاحهم ، ولا يهديهم لما فيه رشادهم ، ولا يملك دفع الضر عنهم ، ولا إسداء النفع اليهم ، أي إنهم لم يتخذوه عن دليل ولا شبهة دليل ، بل عن تقليد لما رأوا عليه المصريين من عبادة المعجل « أيس » من قبل ، ولما رأوه من الماكفين على أصنام لهم من بعد ، وكانوا ظالمين لأنفسهم بهذا الاتخاذ الجبلي الذي يضرهم ولا ينفعهم بشيء .

﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ يقال : سقط في يده وأسقط في يده . — يضم أولهما على البناء المفعول — وكذا بفتح أول الثلاثي على قلة في اللغة

وشذوذ في القراءة — أي ندم ، ويقولون فلان مسقوط في يده وساقط في يده أي نادم كما في الأساس ولكنه فسره في الكشف بشدة الندم والحسرة وجعله من باب الكناية ، وفي اللسان : وسقط في يد الرجل — زل وأخطأ وقيل ندم ، قال الزجاج يقال للرجل النادم على ما فعل الحسر على ما فرط منه : قد سقط في يده وأسقط .. وفي التنزيل العزيز (ولما سقط في أيديهم) قال الفارسي : ضربوا با كفهم على أ كفهم من الندم ، فان صح ذلك فهو إذاً من السقوط ، وقد قرئ « سقط في أيديهم » كأنه أضمر الندم أي سقط الندم في أيديهم ، كما تقول لمن يحصل على شيء وان كان مما لا يكون في اليد : قد حصل في يده من هذا مكروه ، فشبه ما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين اه زاد الواحدى في تفسيره : وخصت اليد لأن مباشرة الأمور بها كقوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك) أو لأن الندم يظهر أثره بعد حصوله في القلب في اليد بعضها والضرب بها على أختها ونحو ذلك فقد قال سبحانه في النادم (فأصبح يقلب كفيه) (ويوم بعض الظالم على يديه) وفي تاج العروس : وفي العباب هذا نظم لم يسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب والأصل فيه نزول الشيء من أعلى إلى أسفل ، ووقوعه على الأرض ثم اتسع فيه فقبل للخطأ من الكلام سقط ، لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه فيسقط ، وذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب وأثره يظهر في اليد كقوله تعالى (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) ولأن اليد هي الجارحة العظمى ، فرما يسند إليها ما لم تبشره كقوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك) اه

والمعنى أنهم لما اشتد ندمهم وحسرتهم على ما فعلوه ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا ﴾ أي وعلموا أنهم قد ضلوا بهادة العجل أو تبين لهم ضلالهم به وتحقق بما قاله وفعله موسى حتى كأنهم رأوه رأى العين ﴿ قالوا لن لم يرحنا ربنا ويغفر لنا ﴾ أي أقسموا أنه لا يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة ربهم التي وسعت كل شيء ، قائلين لن لم يرحنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جرمتنا ﴿ لن نكون من الخاسرين ﴾ إسماعلة الدنيا وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد وإسماعلة الآخرة وهي دار الكرامة والرضوان وقد بحث بعض الفواصين على نكت البلاغة في تقديم الندم في الذكر على تبين الضلالة مع أن المعروف في العادة أن يشتم الإنسان على ما علم من ذنبه فقال القطب الشيرازي ما معناه موضحاً - ان الانتقال من الجزم بأن هذا الشيء أو الأمر

حق إلى استبانة الجرم بضده أو نقيضه لا يكون دفعة واحدة في الأغلب بل الأغلب أنه ينتقل من الجرم بصحته أو حقيقته إلى الشك فيها ثم إلى الظن بالضد أو النقيض ثم إلى الجرم به ، ثم إلى تبينه واليقين فيه الذي يبرهنه بالرؤية ، والقوم كانوا جازمين بأن ما فعلوه صواب ، والندم عليه ربما وقع لهم في حال الشك فيه فيكون تبين الضلال متأخراً عن الندم اهـ

وأقول : جاء في سياق القصة المفصل من سورة طه أنه لما أنكر عليهم هارون عليه السلام عبادة العجل وذكركم بتوحيد الربوبية الدال على وجوب توحيد العبادة للرب وحده (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) فلما رجع موسى وأنب هارون (قال) فيما قاله له (يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني أفعميت أمري ؟) لك (اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) فعند تصريح موسى بأنهم ضلوا ، ورؤيتهم ما كان من غضبه والقائه بالألواح حتى تكسرت وأخذ به رأس أخيه هارون ولحيته وجره إليه ندموا على ما فعلوا ، فان كان هذا الندم عن تقليد وطاعة لموسى لا عن علم يقيني بأن عملهم ضلال فالراجح أن يكون العلم القطعي المعبر عنه بقوله (ورأوا أنهم قد ضلوا) قد حصل بعد تحريق موسى للعجل ونسفه في اليم .

فإن كان من قواعد النحو أن العطف بالواو لا يقتضي الترتيب ، فمن قواعد علم المعاني أن مالا يجب الترتيب فيه بزمان ولا رتبة أن يقدم في سرده وفي نسقه اللاحق ، فان لم يكن تقديم الندم هنا لسبقه في الزمن فلا يظهر أنه المبالغة في استشعارهم استحقاق العقاب كأنه يقول انهم على ندمهم وتوبتهم التي من شأنها محو الذنب وترك العقاب وعلى كونهم صاروا على علم يقيني ببطلان عبادة العجل ووجوب تخصيص الرب بالعبادة . قالوا ذلك القول الدال على أن مجموع الأمرين لا يكفي لاستحقاق المغفرة إلا برحمة الله تعالى ، ومن المعلوم أن العلم بالضلال وحده لا يقتضي العفو والمغفرة إلا إذا ترتب عليه العمل بمقتضاه وهو التوبة والرجوع إلى الله تعالى بالعمل فان الذين ضلوا على علم ولم يتوبوا أشد الناس عقاباً . فعلم بذلك أن تقديم الندم أهم من تقديم العلم بالضلال ، وهذا من فضل الله الذي لم نره لأحد ، وقد علم منه وجه تقديم ذكر الرحمة على ذكر المغفرة وهو أنها سببها ، فان التوبة ومعرفة الحق لا يكفيان للمغفرة بدونها ، ولا غرو فقد ورد في الصحيحين عن أبي

هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لن يدخل أحداً عمله الجنة . قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسدوا وقاربوا » الخ الحديث ، وفي مسلم من حديث جابر « لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجزيه من النار . ولا أنا إلا برحمة من الله » وأمثل الاجوبة في الجمع بين الحديث وبين الآيات الكثيرة الصريحة في دخول الجنة بالعمل أن ذلك بفضل الله ورحمته فان عمل أى عامل لا يستحق عليه لذاته ذلك النعيم الكامل الدائم ، بل لا يفي عمل أحد بيمين نعم الله تعالى عليه في الدنيا . وأما قولهم إن دخول الجنة بالرحمة واقتسامها بالأعمال فهو لا يدفع التعارض بين الآيات والحديث فان منها (١٦: ٣٣ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)^(١)

(١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَتَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِي ، يَجُرُّهُ إِلَيْهِ . قَالَ : ابْنُ أُمِّ ، إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي ، فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْمَعْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

(١) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقوله ﷺ « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » لا يناقض قوله تعالى (جزاء بما كنتم تعملون) فان المنفى نفى بقاء المقابلة والمعاوضة كما يقال : بعث هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بقاء السبب فالعمل لا يقابل الجزاء وان كان سبباً للجزاء ، ولهذا من ظن انه قام بما يجب عليه وان لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « لن يدخل أحد الجنة بعمله » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل « وروى « بمغفرته » ومن هذا أيضاً الحديث الذي في السنة عن النبي ﷺ أنه قال « ان الله لو عذب أهل سماوته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم ولورحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم » الحديث .

﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾ ذكر في أول مادة أس ف من لسان العرب ان الأسف شدة الحزن والغضب . والأكثرون لا يشترطون شدتهما قال في المصباح : أسف أسفاً من باب تعب حزن وتلف فهو أسف مثل تعب ، وأسف مثل غضب وزنا ومعنى ، ويمدى بالهمزة فيقال أسفته . وقال الراغب : الأسف الحزن والغضب معاً ، وقد يقال لكل منهما على الانفراد ، وحقيقته ثوران دم القلب بشهوة الانتقام فحق كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضباً ، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزناً ، ولذلك سئل ابن عباس عن الحزن والغضب ؟ فقال : مخرجهما واحد واللفظ مختلف ، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظاً وغضباً ، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره ^(١) حزناً وجزناً . وبهذا النظر قال الشاعر :

• فحزن كل أخى حزن أخو الغضب •

ثم ذكر ان الأسف في الآية التي نفسرها هو الغضبان فهو إذا مترادف ، وقد فاته هنا ما نعهد من تحقيقه لمندولات الالفاظ ، وما أظن أن مانقله عن ابن عباس يصح ، فان ما ذكر من المقابلة بين الغضب والحزن إنما يظهر بين الغضب والحقد ، وإنما الحزن ألم النفس بفقد ما تحب من مال أو أهل أو ولد . وليس من شهوة الانتقام في شيء . ومن شواهد استعمال الأسف بمعنى الحزن قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام (وقال يا ألسفي على يوسف) ومن شواهد استعماله بمعنى الغضب قوله تعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم) ولا يوصف ربنا تعالى بالحزن ولا يسند إليه . وغضبه سبحانه ليس كغضب البشر ألباق النفس ، ولا أثر غلبان دم القلب ، تعالى ربنا عن هذه الانفعالات والآلام البشرية ، وإنما هو صفة تليق به هي صلب المقاب . والجمع بين الغضبان والأسف في صفة موسى عليه السلام يدل على ان الأسف بمعنى الحزن .

والمعنى أنه لما رجع موسى من الطور إلى قومه غضبان على أخيه هارون إذ رأى أنه ضعف في سياسته لهم ، ولم يكن ذا عزيمة في خلافته فيهم ، حزينا على ما وقع

منهم من كفر الشرك ، وإغضاب الله عز وجل ﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدي ﴾
 أى بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة الرب تعالى من بعد
 ما كان من شأنى معكم ان لقتنكم التوحيد وكففتكم عن الشرك وبينت لكم فساد
 وبطلانه وسوء عاقبة أمره حين رأيتم القوم الذين يعكفون على أصنام لهم من تماثيل
 البقر - فكان الواجب عليكم أن تخلفوني باقتفاء سيرتى ولكنكم خلفتموني بضدها
 إذ صنعتكم انكم صنما كأصنام أولئك القوم أو كأحد أصنام المصريين فعبده بعضهم.
 ولم يردعكم عن ذلك سائرهم - فالتوبيخ عام ، وفيه توبيخ خاص بهارون عليه
 السلام لأنه جعله خليفته فيهم كما تقدم

﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ قال فى لسان العرب : وعجله سبقه ، وعجله استعجله
 وفى التنزيل العزيز (أعجلتم أمر ربكم) أى استبقتم ، قال الفراء : تقول عجلت
 الشيء أى سبقته وأعجلته استحثثته اه وقال فى الكشف : يقال عجل عن الأمر
 إذا تركه غير تام ، وتيسره تم عليه ، وأعجله عنه غيره ، ويضمن معنى سبق فيعدى
 تعديته ، فيقال عجلت الأمر ، والمعنى أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين
 لهده وما وصاكم به ، فيبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع اليكم فحدثتم أنفسكم
 بموتى فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم ، وروى أن السامري قال لم حين أخرج لم العجل
 وقال (هذا إلهكم وإله موسى) إن موسى لن يرجع وإنه قد مات اه وقال ابن كثير وقوله
 (أعجلتم أمر ربكم) أى استعجلتم بحجوى اليكم وهو مقدر من الله تعالى اه وقد نقل الآلوسى
 كلام الكشف من غير عزو كعادة أكثر المؤلفين بعد سلف الأمة ثم قال : وذبح يعقوب
 الى أن السبق معنى حقيقى : له من غير تضمين . والأمر واحد الأوامر ، وعن الحسن أنه
 المعنى أعجلتم وعد ربكم الذى وعدكم من الأربعين ؟ فالأمر عليه : واحد الأمور اه
 والمراد بالأربعين ما بينه من أنها الليالى التى واعد موسى ربه كما تقدم

ثم قال ﴿ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ أى وطرح الألواح
 من يديه ليأخذ برأس أخيه مما كان من شدة غضبه لله تعالى وأسفه لما فعل قومه

من الشرك به ولما ظن من تقصير أخيه وأخذ بشعر رأس أخيه يحرقه إليه بذواته. إذ كان الواجب عليه في اجتهاد موسى أن يرد عنهم ويكفهم عن عبادة المجل إن قدر كإفعل هو يتحرى به وإلقاءه في اليم وأن يقبعه إلى جبل الطور إن لم يقدر كما حكى الله تعالى عنه في سورة طه (قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تقبعون ؟ أفصيت أمرى ؟) والاجتهاد يختلف باختلاف أحوال المجتهدين ، فالقوى الشديد الغضب للحق الحق كموسى عليه السلام . يشعر بما لا يشعر به من يغلب عليه الحلم ، ولين المريكة كهارون عليه السلام وقد بحث بعض المنسرين في إلقاء الألواح وما روى من تسكس بعضها هل يتضمن تقصيرا في تعظيم كلام الله ؟ وكيف يمكن أن يقع مثل ذلك من الرسول المصوم ولو في حال الغضب الشديد ؟ بل توهم بعضهم أنه يتضمن في نفسه إهانة للألواح فوجب بيان الخرج منه . والختار عندنا في الجواب عن هذه الأوهام : أن إلقاء الألواح لا يقتضي إهانة لها ، كما أن إلقاء العصا لإقامة الحجة على السحرة لا يتضمن مثل ذلك ، فالإلقاء في نفسه لا يقتضي ذلك لغة ولا عادة ، وإنما يقع ما يقع من مثل ذلك بقصد وهو ممتنع هنا قطعاً — وإن كان الغضب مظنة له . فعلم بهذا أن ما أظالم به بعضهم لا طائل تحته ولا حاجة إليه .

وماذا كان جواب هارون عليه السلام عليه السلام قال : ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ﴿ قرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم هنا وفي سورة طه (ابن أم) بكسر الميم على حذف ياء المتكلم للتخفيف وهي تطرح في المنادى المضاف ، وقرأها الباقون بالفتح وعللوها بزيادة التخفيف وبالتشبيه بخمسة عشر ، وقرئ في الشواذ « ابن أمي » بإثبات الياء على الأصل . قال في الكشف : قيل كان أخاه لأبيه وأمه ، فإن صح فأنما أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحد ، وذلك أدعى إلى العطف والرقّة وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ، ولأنها هي التي قاست فيه الخواف والشدائد فذكره بحقها أم وهو حسن إلا قوله فاعتد بنسبها فإن النسب لا يشوقف على الإيمان . واسم أمهما (يو كابد) نفت لاوى كما في التوراة عندهم

والمعنى يا ابن أمي لا تمجل بمؤاخذتي وتعني في فاني لم آل جهدا في الانكار على القوم والنصح لهم ولكنهم استضعفوني فلم يرفعوا لنصحي ولم يثبوا أمرى ، بل قاروا أن يقتلوني ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ولا تجملني مع القوم الظالمين ﴾ أى فلا تفعل بي من المعاتبة والاهانة ما يشمت بي الأعداء ولا تجملني مع القوم الظالمين لأنفسهم بعبادة المعجل بأن تلزني بهم في قرن من الغضب والمؤاخذة فليست منهم في شيء . والظاهر أنه يعنى بالأعداء والظالمين فريقا واحدا وهم الذين عبدوا المعجل فأنكر عليهم فوجدوا عليه وكادوا يقتلونه ، وهذا دليل على أنه كان دون موسى في قوة الإرادة وشدة العزيمة ، وهو ما اتفق عليه علماءنا وعلماء أهل الكتاب

وماذا كان من أثر هذا الاستعطاف في قلب موسى عليه السلام ﴿ قال : رب اغفر لي ولأخي ﴾ أى اغفر لي ما اغلظت عليه به من قول وفعل ، واغفر له ما عساه قصر فيه من مؤاخذة القوم ، لما توقعه من الأيذاء حتى القتل ، ﴿ وأدخلنا في رحمتك ﴾ التي وسعت كل شيء ، بجعلها شاملة لنا واجملنا مغمورين فيها . وهو أبلغ من « وارحمنا » ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ وهذا ثناء ، يدل على مزيد الثقة في الرجاء ، والدعاء في جملته أقوى في استعجاب هارون من الاعتذار له ، وأدل على تخييب أمل الأعداء في شيء . مما يشير حفيظة الشبابة ، قال الزخشمي في تعليقه : ليرضى أخاه ويظهر لأهل الشبابة رضاه عنه فلا تتم لهم شباتهم ، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة ، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة اهـ

برأ القرآن المجيد هارون عليه السلام من جريمة اتخاذ المعجل ومن التخصيص في الانكار على ، متخذه وعابديه من قومه ، وهذا من أهم المواضع التي هيمن بها على كتب الأنبياء التي في أيدي أهل الكتاب فصيح أغلاط محرفيها ، وهو يحثوا التراب في أفواه الطاعنين فيه وفيمن جاء به (برأها الله تعالى) يزعمهم أنه يأخذ عن التوراة ما فيه من أخبار موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل ، فإنه

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله كان أميا لم يقرأ ولم يطلع على شيء من تلك الكتب ولم يكن في بلده من يعرف من تلك الكتب شيئا وقد كان يقرأ على أعدى المعاندين له من قومه مثل قوله تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون) وقوله (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلم أنت ولا قومك من قبل هذا) ولو كان يعلم أو كانوا يعلمون شيئا من تلك الكتب لكذبه في هذا أولئك الجاحدون والمعاندون وقد تقدم الاحتجاج بهذا ، والغرض هنا إقامة حجة أخرى وهي أنه لو كان صلى الله عليه وسلم نقل عن التوراة لوافقها في كل ما نقله وهو قد خالفها في مواضع بما جعله منزله جل جلاله مهيمنا ورقيبا عليها ، ومصححا لأهم ما وقع من التحريف فيها ، ومنه تبرئة هارون وغيره من الرسل عليهم السلام من الذنوب والجرائم التي عزيت إليهم فيها فجعلتهم قدوة سيئة لجعل هارون عليه السلام هو الصانع للعجل كما هو مفصل في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج قال :-

« (١) ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آكلة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي اصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه (٢) فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وأتوني بها (٣) ففرع كل الشعب أقراط الذهب التي كانت في آذانهم واتوا بها إلى هارون (٤) فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي اصعدتك من أرض مصر (٥) فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال غدا عيد للرب (٦) فبكروا في الغدا واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب (٧) فقال الرب لموسى : اذهب أنزل لأنه قد فسد شعبك الذي اصعدته من أرض مصر (٨) زاغوا سريعا عن الطريق الذي أوصيتهم به صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي اصعدتك من أرض مصر »

وبعد هذا ذكر أن الرب قال لموسى إن هذا الشعب صلب الرقبة وإن غضبه

اشتد عليهم ليفنيهم ، وأن موسى استرحه أن لا يفعل ولا يشمت بهم المصريين وذكره وعده سبحانه لإبراهيم واسحق ويعقوب بتكثير نسلهم ، ثم ذكر مسألة عودة موسى إلى قومه وما فعل ثم قال

« ١٩ وكان عند ما اقترب إلى الحلة أنه أبصر العجل والرقص فغى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرها في أسفل الجبل ٢٠ ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل ٢١ وقال موسى لهارون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة ٢٢ فقال هارون لا يحم غضب سيدي عليّ ، أنت تعرف الشعب أنه في شر ٢٣ فقالوا لي اصنع لنا آلهة تسير أمامنا » الخ

ثم ذكر طلب موسى من الرب أن يغفر لقومه وأمر الرب إياهم بأن يقتل كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه - وإن بني لاوى فعلوا ذلك فقتل منهم في ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف رجل . وقد تقدم ذكر هذه المسألة في سورة البقرة

(١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا رَحِيمٌ رَحِيمٌ

﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ﴾ في هذه الآية وجهان أحدهما أنها كلام مستأنف لبيان ما استحقه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل فغى به على ما كان من شأن موسى مع هارون عليهما السلام في أمرهم ، لأن من جمع ذاك أو قرأه تستشرف نفسه لمعرفة هذا - فهو إذا مما أوحاه الله تعالى يومئذ إلى موسى (ع م) والمراد بالغضب الإلهي فيه ما اشترطه تعالى في قبول توبتهم من قتل أنفسهم وكان ذلك بعد عودة موسى إلى مناجاته في الجبل ، والذلة ما يشعرون به من هوانهم على الناس وظنهم عند لقاء كل أحد أنه يذكر برؤيتهم ما كان منهم فيحقرهم ، وقال بعضهم إن هذه الذلة خاصة بالسامري وهي

ماحكم به عليه من القطيعة واجتتاب الناس بقول موسى له (اذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس) أى : لأمس أحداً ولا يعنى أحد .

وكذلك نجزي المقتريين ❦ أى ومثل هذا الجزاء في الدنيا نجزي المقتريين على الله تعالى في أزمنة الأنبياء أو في كل زمان إذا فضحوا بظهور افتراءهم كما فضح هؤلاء ، وجعله بعض مفسري السلف خاصا بافتراء البدع ، قال الحسن البصري ان ذل البدعة على اكتافهم وإن هملجت بهم البغال وطققت بهم البراذين ، وهكذا روى أيوب عن أبي قلابة أنه قرأ هذه الآية (وكذلك نجزي المقتريين) وقال هي والله لكل مفتري إلى يوم القيامة ، وقال سفيان ابن عيينة كل صاحب بدعة ذليل . نقل ذلك ابن كثير في تفسيره ، وهو مشروط بكون افتراء الابتداع في أزمنة الرسل عليهم السلام على ما قيدناه به لان الله تعالى كفل لهم النصر ، أو في دار الإسلام والعدل التي تمام فيها السنة ، وأما البدعة في دار الكفر أو دار الظلم والبدع والفسق والظلم فهي كظلمة من الدخان أو قزعة من السحاب تحدث في حندس ليلة مطبقة السحاب ، حالكة الإهاب ، لا تكاد تظهر ، فيكون لأصحابها احتقار يذكر .

والوجه الثاني ان هذا كلام معترض في القصة خاطب الله به خاتم رسله لانهذار المجاورين له في المدينة ما سيكون من سوء عاقبتهم في افتراءهم على الله وعداوتهم لرسوله ، وانكارهم ما في كتبهم من البشارة به ، ووصفهم باتخاذ العجل اشبههم بهم وكونهم خلقاً لهم في افتراء كل منهما على الله في عهد ظهور حجته على لسان رسوله . كما غيرهم في آيات أخرى بقتل النبيين بغير الحق وغير ذلك من جرائم سلفهم . وروى هذا الوجه عن عطية العوفي قال المراد سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأريد بالفضب والدلة ما أصاب بني النضير وقريظة من القتل والجلالة أو ما أصابهم من ذلك ومن ضرب الجزية عليهم اه وتوجيهنا أظهر . قال الزحخشري ويجوز أن يتعلق « في الحياة الدنيا » بالدلة وحدها ويراد سينالهم غضب في الآخرة ودلة في الحياة الدنيا (وضربت عليهم الدلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله) اه وأقول إن لم يكن هذا هو المراد فعذاب الآخرة مقدر في الكلام دل عليه ذكر الدنيا ، على ما علم من اطراذه بنصوص أخرى .

❦ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور

رحيم ❦ هذه الآية في حكم من تاب وقبيلت توبته فدل على أن ما سبقها هو حكم

من لم يقب أو من لم تقبل توبته والمعنى أن الذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي ثم تابوا ورجعوا من بعدها إلى الله تعالى بأن رجع الكافر عن كفره وتركه وآمن بالله ورسوله ، ورجع العاصي عن عصيانه وأخلص الإيمان وركاد بالعمل بوجهه أن ربك أيها الرسول من بعد تلك الجرائم ، - أو من بعد ما ذكر من التوبة والإيمان الصحيح الباعث على العمل الصالح ، لغفور لهم أي لستور عليهم ، محام لما كان منهم رحيم بهم أي منعم عليهم بالجنة ، هكذا صور المعنى في الكشف ثم قال وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو المعجل ومن عداهم ، عظم جناباتهم أولاً ثم أردفها تعظيم رحمته ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ، ولكن لا بد من حفظ الشريعة وهي وجوب التوبة والالانابة ، وما وراءه طمع فارغ ، وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم اهـ .

وأقول إن طمع أكثر الفساق بالمغفرة قد ذهبت بحرمة الأمر والنهي من قلوبهم حتى استحل كثير منهم المحرمات ، وكانوا شرّاً ممن قالوا (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات) وماطمعهم بشجرة إيمان ، بل أمانى حق وجدل على أطراف اللسان . قال عليه السلام « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شداد ابن أوس بسند صحيح .

(١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُم لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ

ثم قص تعالى علينا ما كان من أمر موسى بعد غضبه فقال :

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسخها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ السكوت في أصل اللغة ترك الكلام فهو هنا مجاز تشبيه أو تمثيل مبني على تصوير الغضب بشخص ذي قوة ورياسة يأمر وينهى فيطاع قال الزمخشري : هذا مثل كأن الغضب كان يفره على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا ، وألقى الألواح ، وجرب رأس أخيك إليك -- فترك النطق بذلك وقطع الاغراء ، (قال) ولم يستحسن هذه الكلمة كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة ، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة

« ولما سكن عن موسى الغضب » (وهي من الشواذ) لا نجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرفاً من تلك الروعة ١٦ هـ .

والمعنى أنه لما سكن غضب موسى باعتذار أخيه ولجأ إلى رحمة الله وفضله يدعو ربه بأن يغفر لها عاد إلى الألواح التي ألقاها فأخذها ، وفي نسختها - أي ما نسخ وكتب منها فهي من النسخ كالخطبة من الخطاب - هدى وإرشاد من الخالق سبحانه للذين يرهبون ربهم ويخشون عقابه بالفعل أو بالاستعداد -- أو يرهبون ما يغضب ربهم من الشرك والمعاصي .

(١٥٤) وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّيَّ أَهْلَكْنَا بَعْدَ فَعَلِ السُّفَهَاءِ مِنَّا ؟ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُذُنَا وَإِلَيْكَ . قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ الاختيار صيغة تكلف من مادة الخير كالانتقاء من النقي (بالكسر وحقيقته دهن العظام وبجازه لباب كل شيء والاصطفاء من الصفو - والانتخاب من النخب وأصله افتزاع الصقر وغيره من الجوارح قلب الطائر ثم صار يقال لكل من افتزع لب الشيء وخياره : نخبه وانتخبه وتطلق النخبة (بالضم مع سكون الخاء وفتحها) على الجيد المختار من كل شيء كما أطلقوا النخب والنخب والمنخب على الجبان الذي لا فؤاد له والافين الذي لا رأى له ، كأنه : انتزع فؤاده وعقله بالفعل . والكلام معطوف على ما قبله ، والمعنى : وانتخب موسى سبعين رجلا من خيار قومه للميقات الذي وقته الله تعالى له ودعاهم للذهاب معه إلى حيث ينادي ربه من جبل الطور ، فلاختيار يكون من فاعل مختار وشيء مختار منه فيتمدى للثاني بمن وكأن نكتة حذف « من » الإشارة إلى كون أولئك السبعين خيار قومه كلهم لا طائفة منهم ^(١)

﴿ فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ أي فلما أخذتهم رجفة الجبل وصعقوا قال موسى يارب اني أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معي إلى هذا المكان فأهلكتهم وأهلكتنى معهم حتى لا أتع في حرج شديد مع بني اسرائيل فيقول قد ذهبت بخيارنا لاهلاكهم - أي واذا لم تفعل من قبل فأسألك برحمتك أن لا تفعل الآن - وهذا مفهوم التمني فقد أراد موسى ولا يبعد أن يكون قد نطق به إذا كانت لغته لا تدل عليه كافتنا وكان من إيجاز القرآن الاكتفاء بذكر التمني الدال عليه . واختلف المفسرون هل كان هذا بعد أن أفاق موسى من صدمة تحلي ربه للجبل عقب سؤاله الرؤية إذ كان من معه من شيوخ بني اسرائيل ينتظرونه في مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة كما تقدم ؟ أو كان بعد عبادة العجل ذهبوا للاعتذار وتأكيد التوبة وطلب الرحمة

(١) والنحويون يعدون مثل هذا الحذف لحرف الجر وإيصال الفعل بالفعل ونصبه مباشرة سماعيا لاقبسيا على كثرتهم ومنه قول الفرزدق :
منا الذي اختير الرجال سماحة وجود اذا هب الرياح الزعازع
وقول الآخر

فقلت له اخترها قلو صا سمينه ونا باعلا با مثل نايك في الحيا
أي اختر من الابل ناقة قلو صا أي طويلة القوائم وهي أول ما يركب ، ونا با وهي المسنة

وكما اختلفوا في هذا اختلفوا في سبب أخذ الرجفة إياهم هل كان طلبهم رؤية الله تعالى جبهة كما تقدم في سورة البقرة أو سببا آخر ؟ قال الحافظ ابن كثير .
قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية إن الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا فأختار سبعين رجلا فوفد بهم ليدعوا ربهم وكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا . ففكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال موسى رب لو شئت أهلكتهم - الآية . وقال السدي إن الله تعالى أمر موسى أن يأتيه في أناس من بني إسرائيل يعبدون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جبهة فانك قد كلمته فأرناهُ فأخذتهم الصاعقة فأتوا فقام موسى يبكي ويقول يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم ؟ (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) وقال محمد بن اسحق اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً فالتهم وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وأسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا واطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه يا موسى أطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تفتش الليل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كله الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرِبَ دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمِعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه أفعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جبهة) فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فالتفت أرواحهم فأتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) قدسها أهلك من ورأى من بني إسرائيل أهـ
أقول كل ما نقل عن مفسري المأثور في هذه المسألة وما لها مأخوذ عن الاسرائيليات غير الموثوق بها إذ ليس فيه شيء مرفوع إلى النبي ﷺ وإنما يرجح من بعدهم

بعض أقوالهم على بعض بكونه أقرب إلى ظاهر نظم الآيات وأساليبها وتناسبها من غيره : وأما التوراة التي في أيدي أهل الكتاب فقد ذكرت خبر السبعين من شيوخ بني إسرائيل في سياق مناجاة موسى عليه السلام لربه كما تقدم وقد نقلنا المهم منها في ذلك ومجموع عباراتها مضطربة ففيها أن السبعين مع موسى وهارون ونداب وابيهو « رأوا إله إسرائيل وتحت رجله شبه صفة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا » (خروج ٢٤ : ١٠ و ١١) وفيها أن الرب قال لموسى إذ طلب منه رؤية مجده « لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش » ثم ذكر له أنه أي الرب يضعه في نقرة صخرة ويستره بيده حتى يجناز — أي الرب — قال « ثم ارفع يدي فتنظر ورأى وأما وجهي فلا يرى » (خروج ٢٣ : ١٨ - ٢٣)

وفي سفر العدد وقائع ذكر فيها غضب الرب على بني إسرائيل لتمردهم وعنادهم واتهام اللاويين منهم لموسى وهارون بحب الرياسة والترفع عليهم وزعمهم أنهم كلهم مقدسون والرب في وسطهم وفيه أن الرب أهلك منهم خلقاً كثيراً وكان موسى يستغيث ليرفع الهلاك عنهم ويرحمهم ولا أذكر أن في شيء منها ذكر عدد السبعين ولكن في بعضها ذكر شيوخ إسرائيل وفي بعضها ذكر عدد ٢٥٠ رجلاً وذلك في الفصل ١٦ من سفر العدد وهالك بعضه

(٢٠) وكلم الرب موسى وهارون قائلاً (٢١) افترا من بين هذه الجماعة فاني افيهم في لحظة (٢٢) فخرا على وجهيهما وقالا اللهم اله أرواح جميع البشر هل يخطيء رجل واحد فتسخط على كل الجماعة (٢٣) فكلم الرب موسى قائلاً (٢٤) اطلعوا من حوالى مسكن قورح ودathan وابيرام (٢٥) فقام موسى وذهب إلى دathan وابيرام وذهب وراءه شيوخ إسرائيل (٢٦) فكلم الجماعة قائلاً اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئاً مما لهم لئلا تهللكوا بجميع خطاياهم (٢٧) فطلعوا من حوالى مسكن قورح ودathan وابيرام وخرج دathan وابيرام ووقفوا باب خيمتيهما مع نسائهما وبنيهما وأطفالهما (٢٨) فقال موسى بهذا تعلمون أن الرب قد أرسلني لأعمل كل هذه الأعمال وأنها ليست من نفسي (٢٩) إن مات هؤلاء كوت كل إنسان واصابتهم مصيبة كل إنسان فليس الرب قد أرسلني (٣٠) ولكن ان ابتدع الرب بدعة وفتحت

الأرض فاها وابتلعهم وكل ما لهم فهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد اذروا بالرب (٣١) فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم (٣٢) وفتحت الأرض فاها وابتلعهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال (٣٣) فزولوا هم وكل من كان لهم أحياء إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة (٣٤) وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم لأنهم قالوا لعل الأرض تبتلعنا (٣٥) وخرجت نار من عند الرب وأكلت المتنين والحسين رجال الذين قربوا البخور «المراد منه ومبدأ هذه القصة في أول الفصل ١٦ وفي آخره أنه أخذهم الوباء إذ لم يتوبوا

وما في سورة البقرة من ذكر مسألة عبادة العجل وذكر مسألة طلب بني إسرائيل لرؤية الله جبهة وأخذ الصاعقة إياهم يدل على أن هذه الواقعة غير الأولى ونقلنا هنالك عن الأستاذ الإمام اختيار استقلال كل منهما دون الأخرى وقوله أنها مذكورة في كتبهم فإن كان يعنى ما نقلناه آنفا عن سفر العدد أو ماقى معناه وهو ما لم يذكر فيه عدد السبعين فلعلة يريد أن ما ذكر في القرآن مختصر بقدر العبرة كسنته وإن السبعين هم الذين أهلكوا أولا وإن لم يذكر الكاتب عددهم ثم هلك غيرهم فكان الجميع ٢٥٠

فإن كانت الآية تشير إلى هذه القصة فقول موسى ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ إشارة إلى قورح وجماعته من اللاويين المفرورين المتمردين ، وهل هم الذين طلبوا من موسى رؤية الله تعالى جبهة لغرورهم بأنفسهم أم غيرهم ؟ وإن كانت في عابدى العجل فهي دليل على أن عقلاء بني إسرائيل وأصحاب الروية منهم لم يعبدهوا وإنما عبده السفهاء وهم الآكثرون.

﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء﴾ «إن» نافية والفتنة الاختيار والامتحان مطلقا أو بالأمور الشاقة والباء في «بها» للسببية ، أى ما تلك الفعلة التي كانت سببا لأخذ الرجفة إياهم إلا محنتك وابتلاؤك الذى جعلته سببا لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية ، وما يستحقون عليه من عقوبة ومشوبة ، وسنتك في جريان مشيئتكم في خلقك بالعدل والحق ، والنظام الحكيم في الخلق ، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك ولست بظالم لهم في تقديرك ، وتهدى من تشاء ولست بمحاب لهم في

توفيقك ، بل أمر مشيتك دائر بين العدل والفضل ، ولك الخلق الأمر أنت ولينا
فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴿١﴾ أي أنت المتولى لأمرنا ، والقائم علينا بما
تكتسب نفوسنا فاغفر لنا ما تترتب عليه المواخذة والعقاب من مخالفة سنتك ، أو
التقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك ، بأن تستر ذلك علينا ، وتجعله بعفوك
كما نعلم يصدر عنا وارحمنا برحمتك الخاصة ، فوق ما شملت به الخلق كلهم من رحمتك العامة
وأنت خير الغافرين حلما وكرما وجودا ، فلا يتعاطك ذنب ، ولا يعارض غفرانك
ما يعارض غفران سواك من عجز أو ضعف أو هوى نفس - وما ذكر في المغفرة يدل على
اعتبار مثله في الرحمة لدلالته عليه - أي وأنت خير الراحمين رحمة وأوسعهم فيها فضلا
واحسانا ، فإن رحمة جميع الراحمين من خلقك ، نعمة مفاضة على قلوبهم من
رحمتك ، حذف ذكر الرحمة استغناء عنه بذكر المغفرة فإن ترتيب التذليل في الشناء
عليه تعالى على طلب مغفرة ذنوبه معاً ، يقتضى أن يكون هذا الشناء بهما معا فاكتمى
بذكر الأولى لدالاتها على الثانية قطعاً ، فهو من الإيجاز المسمى في علم البديع
بالاكتفاء ، وقد غفل عن هذا من قال من المفسرين إنه اكتفى بذكر المغفرة لأنها
الأهم ولم لم يكتف بذكر الرحمة لأنها أعم ، ولأنها قد تستلزم المغفرة دون
العكس ، فإن معنى المغفرة سلبى وهو عدم المواخذة على الذنب ، والرحمة فوق
ذلك فهي احسان إلى المذنب لا يستحقه إلا بعد المغفرة ولذلك يقدم ذكر المغفرة
على ذكر الرحمة ، لأن التخلية كما يقولون مقدمة على التحلية ، فلا يليق خلع
الحلل النفيسة ، إلا على الأبدان النظيفة ، وقد قال موسى عليه السلام في دعائه
لنفسه ولأخيه (رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك) الآية . وقال نوح عند توبته
من سؤاله النجاة لولده الكافر (وإلا تغفر لى وترحمى أكن من الخاسرين) وعلمنا
تعالى من دعائه فى خاتمة سورة البقرة (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) وقلما
ذكر اسم الله (الغفور) فى كتابه العزيز إلا مقرونا باسمه (الرحيم) ومن غير
الأكثر قرنه بالشكور وبالرحيم وبالودود ويقرب معناه من معنى الرحيم ،
ومرد قرنه بالغفور والعزيز لاقتضاء المقام ذلك .

ودعاء موسى عليه السلام هنا لنفسه مع قومه بضمير الجمع قد اقتضاه مقام
المناجاة والمعرفة الكاملة ، ومن كان أعرف بالله وأكمل استحضارا لعظمته ، كان

أشد شعوراً بالحاجة إلى مغفرته ورحمته، وإن كان ما يستغفر منه تقصيراً صغيراً بالنسبة إلى ذنوب الغافلين واجتاهلين، أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقر بين، فإن كان هذا الدعاء عقب طلب الرؤية، فوجه طلبه للمغفرة والرحمة لنفسه أظهر، لأن طلبه ذلك كان ذنباً له، صرح بالتوبة منه، وإن كان عقب طلب السبعين رؤية الله جبهة فالأمر أظهر، لأن الذنب مشترك، وإن كان على أثر حادثة عبادة العجل، فقد علم ما كان من شدته فيها على أخيه هارون عليهما السلام، وأنه طلب لكل من نفسه وأخيه المغفرة على الانفراد والرحمة بالاشتراك، وإن كان عقب تمردي بني إسرائيل الذي عاقبهم الله تعالى عليه بأهلاك بعضهم وتهديمهم بالاستبصال، فادخال نفسه معهم من باب الاستعطاف، إذ لم ينقل عنه فيه شيء مما يعد من ذنوب الأنبياء عليهم السلام.

﴿تخطئة من اتهم الكليم عليه السلام بالجراءة على ربه في هذا المقام﴾

كنت في أول العهد بطلمي للعالم في طرابلس الشام اسمع بعض العلماء والأدباء ينقلون عن بعض الصوفية أن موسى عليه السلام لم يقل لربه عز وجل (إن هي إلا فتنتك) إلا وقد كان في مقام الانس والادلال الذي يطلق اللسان بمثل هذا المقال، وأن هذا خير جواب عما قيل من أن هذا القول جرأة عظيمة تاب منها عليه السلام. وقال الآلوسی في تفسير الآية. والقول بأن اقدامه عليه السلام على أن يقول (إن هي إلا فتنتك جرأة عظيمة فطلب من الله غفرانها والتجاوز عنها مما يباه السوق، عند أرباب الذوق، ولا أظن أن الله تعالى عد ذلك ذنباً منه، ليستغفره عنه، وفي تدائه السابق ما يؤيد ذلك اهـ

وأقول لا مجال للقول بالجراءة ولا بالادلال. وما كان هذا بالذي يخطر للعربي الفصح ببال، ولا للعالم الدقيق بمعاني المفردات وأساليب المقال، وسببه كلمة «الفتنة» فقد اشتهر من عهد بعيد فيما اظن أن منهاها اغراء الشر بين الناس وأراهم يتناقلون استعمال قوله تعالى (والفتنة أشد من القتل) بهذا المعنى، وله أصل في استعمال العرب فانها تطلق على الحرب ويوصف الشيطان بالفتان. ولكن هذا وذاك من المعاني الفرعية لهذه المسادة وإنما معناها الأصلي الذي تفرعها وأمثالها وأضدادها منه الامتحان والاختيار ولا سيما الشاق الذي يظهر به جيد الشيء أو الشخص من رديئة، كعرض الذهب على النار: لتصفية الغش.

من النصارى ، ومثله الفضة بل كل ما أدخل النار يسمى مفتونا كما يقال دينار أو درهم مفتون ، ويسمى حجر الصائغ الفتانة ، وقد ورد تسمية الملكين الذين يمتحنان الناس عقب الموت بفتناتى القبر ، وفسروا فتنة الممات وفتنة القبر بسؤال الملكين ، وقال تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى اختبار لكم يقين بهما قدر وقوفكم عند الحق والتزامكم الكسب الحلال ، وقال تعالى (ونبلوكم بالشرا والخير فتنة)

وجملة القول أن الفتن والفتون مصدرى فتن معناهما الابتلاء للاختبار وظهور حقيقة حال المفتونين أو لتصفيتهم وتمحيصهم ، ومن الأول قوله تعالى لموسى فى هذه الواقعة التى نحن بصدد تفسيرها على قول بعضهم (إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) فقوله عليه السلام لربه (إن هى إلا فتنتك) مأخوذ من قول ربه له (إنا قد فتنا قومك) فلا جراءة فيها ولا إدلال ، دع ما يرد هذه الدعوى من مناقها لموقف التوبة والاستغفار — ومن الثانى قوله تعالى له فى قصته من سورة طه (وفتناك فتونا) أى أصطفيناك من الشوائب حتى صرت أهلا لاصططناعنا ورسالتنا .

وتقدم تحقيق هذا اللفظ من قبل * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة * أى وأثبت وأوجب لنا برحمتك وفضلك حياة حسنة فى هذه الدنيا من العافية وبسط الرزق ، وهز الاستقلال والملك ، والتوفيق للطاعة ، ومثوبة حسنة فى الآخرة بدخول جنتك ونيل رضوانك ، فهو كقوله تعالى فما علمنا من دعائه (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) فإن ثمرة دين الله على السنة جميع رسله سعادة الدارين : الدنيا والآخرة * إنا هدنا إليك * فى لسان العرب : هاد يهود هوذا (أى من باب قال) وتهود تاب ورجع إلى الحق فهو هائد ، وقوم هود — مثل حائك وحوك وبازل وبزل — قال إعرابى * إنى امرؤ من مدحه هائد * وفى التنزيل (إنا هدنا إليك) أى تبنا إليك وهو قول مجاهد وسعيد بن جبيرة وإبراهيم . قال ابن سيده : عداه بالى لأن فيه معنى رجعتنا : ابن الاعرابى : هاد إذا رجع من خير إلى شر أو من شر إلى خير ، وداه إذا عقل ، ويهود اسم القبيلة قال :

أولئك أولى من يهود بمدحه إذا أنت يوما قلتها لم تؤنب

وقيل إنما هذه القبيلة يهود فمررت بقلب الذال دالا اه ملخصا والمعنى إنا تبنا

إليك مما فرط من سفهائنا من طلب الآلهة وعبادة العجل ، رتقصير خيارنا في الإنكار عليهم - أو من طلب رؤيتك أو من مرد المغرورين على شريكك ، وكفر نعمتك - تبنا ورجعنا إليك في جملتنا مستغفرين مسترحمين كما فعل أبونا آدم إذ تاب إليك من معصيته فتبت عليه وهديته واجتبيته ، فكانت تلك سنتك في ولده - يدل على هذا المعنى فضل قوله « إنا هدنا إليك » فانه في مقام التعليل والاستدلال على استحقاق التائب المنيب بالقول والفعل والاعتقاد للمغفرة وقد كان مما حكاه الله تعالى من وحيه إلى موسى في سورة طه (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وبماذا أجابه الله تعالى ؟

﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ أى قد كان من سبق رحمتي غضبي أن أجعل عذابي خاصاً أصيب به من أشاء من الكفار والمعصاة المجرمين وأما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين ، فهي من صفاتي القديمة الأزلية التي قام بها أمر العالم منذ خلقته ، والعذاب ليس من صفاتي بل من أفعالي المرتبة على صفة العدل ، ولهذا عبر عن التعذيب بالفعل المضارع وعن تعلق الرحمة بالفعل الماضي . وهذه الرحمة هي العامة المبذولة لكل مخلوق ولولاها هلك كل كافر وعاص عقب كفره ونجوره (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهورها من دابة) وهذالك رحمة خاصة يوجبها ويكتبها تعالى لبعض المؤمنين المحسنين ويبدل ما شاء منهم لمن شاء بغير كتابة منه ، وما كتابته إلا فضل منه ورحمة ، وأما العذاب فلم يرد في الكتاب ولا في خير المعصوم أن الله تعالى كتبه على نفسه ، ولكن أثبته وتوعد به فكان لا بد من وقوعه ، ولأنه من متعلقات صفتي العدل والحكمة ، وقد أفرط قوم في النظر إلى عموم الرحمة وغفلوا عن النظر في مقتضى العدل والحكمة ، والوعيد على الكفر والمعصية ، فذهب بعضهم إلى عدم تعذيب أحد من المؤمنين ، وآخرون إلى عدم تعذيب أحد من العالمين ، ومن هؤلاء بعض غلاة التصوف الذين زعموا أن العذاب صوري لا حقيق وأنه مشتق من العذوبة وإن في جهنم من هم أحب إلى الله تعالى من كثير من أهل الجنة - جعلهم الله منهم - وأفرط آخرون في النظر إلى مقتضى الحكمة فأوجبوا عليه تعالى تعذيب العصاة بارتكاب الكبائر لا الكفار قط ، ولولا أن صار هذا وذاك مذهبا سهلا جمع كلمة الفريقين على الأخذ

بظواهر نصوص القرآن ، في كل صفة من صفات الرحمن ، ولما قال مثل الزمخشري من جهابذة البيان ، في تفسير قوله تعالى (عذابى أصيب به من أشاء) أى من وجب على فى الحكمة تعذيبه ولم يكن فى العقوبة عنه مسامح لأنه مفسدة انتهى فقد سر من يشاء تعالى تعذيبه بمن وجب عليه تعذيبه ، وجماعته يقولون إن هذا وجوب عقلى لا يدخل الامكان سواء ولا تتعلق القدرة بخلافه ، وهذا المعنى يناق المشيئة منافاة قطعية فكيف تفسر به ؟ ياليت الزمخشري لم يفتحل مذهبا ولم ينظر فى خلاف المذاهب ، واذا لكان كشفه حجة على أصحابها ومرجعا لهم فى تحرير معانى نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف إذ كان من أدق علماء هذه اللغة فهما واحسنهم بيانا لما فهم ، ومسألة الوجوب على الله تعالى نظرية فكرية لا لغوية ، والجمع بين الحكمة والرحمة لا يقتضى أن يجب على الله تعالى شيء لذاته ، وليس فى النصوص ما يدل على هذا الوجوب إلا أن يوجه تعالى بمشيئته ، بمعنى كتابته وجعله أمراً مقضيا ، وليس فى إيجابه على نفسه بمشيئته ما فى إيجاب عقول خلقه عليه من معنى استعلاء غيره عليه تعالى - أو من إيهام كونه عز وجل محكوماً بما يناق سلطانه الاختيارى الذى هو فوق كل سلطان ، بل لا سلطان سواء ، وإنما سلطان غيره به ومنه ، فلو لم يكن فى اختلاف التعبير إلا مراعاة الأدب لكفى

﴿ فساء كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الخ أى و إذا كان الأمر كذلك فساء كتب رضى كنية خاصة وأثبتها بمشيئتي إثباتا لا يجوز دونه شيء للذين يتقون الكفر والمعاصى والتمرد على رسولهم ، ويؤتون الصدقة المفروضة التى تتركب بها أنفسهم ، وغيرها من أركان الدين ، وخص الزكاة بالذكر دون الصلاة وما دونها من الطاعات لأن فتنه حب المال تقتضى بنظر العقل والاختبار بالفعل أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين لميرها من الفرائض . وفيه إشارة إلى شدة حب اليهود للدنيا واقتنائهم بجمع المال ومنع بذله فى سبيل الله ، وقوله تعالى (والذين هم بآياتنا يؤمنون) معناه وسأكتبها كنية خاصة للذين يصدقون بجميع آياتنا التى تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديق إذعان ، مبنى على العلم والايقان ، دون التقليد للآباء وعصبيات الاقوام ، ونكتة إعادة الموصول (الذين) مع الضمير (هم) إما جعل الموصول الاول عاماً لقومه

الذين دعا لهم ، من استمعوا على التزام التقوى واداء الزكاة منهم وجعل الثأفى
 خاصا بمن يدركون بعثة خاتم الرسل عليه السلام ويتبعونه كما يعلم مما بعده - وإنما
 لبيان الفصل بين مفهوم الإسلام ومفهوم الايمان والتعريض بأن الذين طلبوا من
 موسى أن يجعل لهم آلهة والذين عبدوا العجل والذين قالوا (لن نؤمن لك حتى
 نرى الله جهرة) لم يكونوا مؤمنين بآيات الله العامة ولا الخاصة التى جاء بها نبيهم
 إذ لم يكونوا يعقلونها بل كانوا متبعين له لا نقادهم من ظلم المصريين - وبيان أن
 كتابة الرحمة الخاصة إنما تكون لمن جمعوا بين الإسلام وهو إتباع الرسل بالفعل ،
 والايمان الصحيح بالآيات الإلهية المفيدة لليقين المانع من العودة إلى الشرك بمثل
 عبادة العجل والمتنصلي لاتباع من يأتى من الرسل بمثل هذه الآيات ، وفى هذا
 توطئة لما بعده ، فهو بيان لصفة من يكتب تعالى لهم الرحمة على الإطلاق ، ويدخل
 فيهم موسى عليه السلام ومن يصدق عليهم ما ذكر من قومه وذلك يفيد استجابة
 دعائه بشرطه ، ويليه بيان أحق الأمم بهذه الرحمة ذكر على سبيل الاستطراد
 المقصود بالذات على سنة القرآن ، فى الانتقال من قصص الرسل إلى أمة خاتم
 الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو قوله عز وجل

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ فصل الاسم الموصول هنا لأنه بيان
 مستأنف للموصول الأخير أو الموصولين الذين قبله معا ، وهم الذين يتقون
 ويؤتون الزكاة ، والذين يؤمنون بالآيات ، ولو وصله فقال (والذين يتبعون
 الرسول النبي الأمي) الخ كان مغايرا لها فى الماصدق فى المفهوم بأن يراد بالأخير
 من يدركون بعثة الرسول النبي الأمي ويتبعونه بالفعل فى زمنه وبعد زمنه ، ويراد
 بمن قبلهم من يصدق عليهم معنى صلة الموصولين فى زمن موسى وما بعده إلى زمن
 محمد عليهما السلام . ومعنى الفصل على الوجه الأخير اتحاد الموصولات الثلاثة فى
 المفهوم والماصدق جميعا . والمعنى: أن كتابة الرحمة كتبة خاصة هى المتصفين
 بما دلت عليه صلات الموصولات الثلاثة وإتمام الذين يتبعون الرسول الموصوف بأنه
 النبي الأمي نسبة إلى الأم ، والمراد به الذى لا يقرأ ولا يكتب ، وكان أهل الكتاب
 يسمون العرب بالأميين ، ولعله كان لقباً لأهل الحجاز ومن جاورهم دون أهل اليمن .
 لكن ظاهر قوله تعالى فى الخوة من اليهود (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين

سبيل) العموم وليس بنص فيه ، وقال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) ولم ينقل أن الله تعالى بعث نبيا أميا غير نبينا ﷺ فهو وصف خاص لا يشارك عمداً ﷺ فيه أحد من النبيين . والامية آية من أكبر آيات نبوته ، فانه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم الناقصة وهي ما يصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم وأحكامهم وعمل بها فكان لها من التأثير في العالم ما لم يكن ولن يكون لغيره من خلق الله . وتعريف الرسول والنبي الموصوف بالامية كلاهما للعهد كما يعلم مما سبقينه من بشارات الأنبياء بنبينا ﷺ . والرسول في اصطلاح الشرع أخص من النبي فكل رسول نبي وما كل نبي رسول ، ولذلك جعل بعض المفسرين نكتة تقديم الرسول على النبي هنا كونه أهم وأشرف أو أنهما ذكرنا هنا بمعنىهما اللغوي كقولنا (وكان رسولا نبيا) وما أشرنا اليه من نكتة التقديم أظهر ، وهو النبي الأمي وصف مميز للرسول الذي يجب كل أحد اتبعه متى بعث ، وأن الرسول هو المعروف الذي نزل فيه (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) - الخ آيته المعروفة في سورة آل عمران ^(١)

والنبي في اللغة (فاعيل) من مادة النبا بمعنى الخبير المهم الشأن أو بمعنى الارتفاع وعلو الشأن والأول أظهر وأكثر العرب لانهمزة بل نقل أنه لمهمزة إلا أهل مكة ولكن النبي ﷺ أنكر على رجل قال له : يا نبي الله . وأما في الاصطلاح فالنبي من أوحى الله اليه وأنباه بما لم يكن يعلم بكسبه من خير أو حكم يعلم به علما ضروريا أنه من الله عز وجل ، والرسول نبي أمره الله تعالى بتبليغ شرع ودعوة دين وإقامته بالعمل ، ولا يشترط في الوحي اليه أن يكون كتابا يقرأ وينشر ، ولا شرعا جديدا يعمل به ، ويحكم بين الناس . بل قد يكون تابعا لشرع غيره كالرسل من بني إسرائيل كانوا متبعين لشرعية التوراة عملا وحكما بين الناس كما قال تعالى (وإن أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم به النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) الآية

(١) تراجع من ٣٥١ ج ٣ من التفسير

وقد يكون ناسخا لبعضه كما نسخ عيسى عليه السلام بعض أحكام التوراة وأقر أكثرها. كما يدل على ذلك مثل قوله تعالى حكاية لما خاطب به بنى إسرائيل (ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) وسيرته المأثورة عن الانجيليين الأربعة وغيرهم تدل على ذلك ففيها أنه ما جاء لينقض الزاموس (أى التوراة) وإنما جاء ليتمم، وأنه أحل لهم بعض ما حرم عليهم حتى ما دل عليه عموم ترك العمل يوم السبت فخصه بغير العمل الصالح من أمور الدنيا بل نرى فرق النصارى الرسميين بعد تكوين نظام الكنيسة قد تركوا ماعدا الوصايا العشر من شريعة التوراة واستبدلوا يوم الأحد بيوم السبت فيما حرمت الوصايا من العمل فيه وخالفوا أكثرهم وصية النهي عن اتخاذ الصور والتماثيل ولكن لا يستطيعون أن يأتوا بدليل على هذا من قول المسيح ولا من فعله.

وجملة القول أن الرسول أخص في عرف شرعنا من النبي، فكل رسول نبي ولا عكس. وإذا أطلق الرسول بالمعنى الذى يعم رسل الملائكة كان من هذا الوجه أعم من النبي لأن الله اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس، ولم يجعل فيهم أنبياء فنبينا عليه السلام نبي رسول، وجبريل عليه السلام رسول غير نبي، وآدم عليه السلام نبي غير رسول كأكثر أنبياء بنى إسرائيل، وهذا على قول المحققين فى نص حديث الشفاعة فى الصحيحين وغيرهما الناطق بأن نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وقد تقدم فى الكلام على عدد الرسل من تفسير سورة الأنعام جواز تسميته رسولا فى عرف بعض أهل الكلام، وأنهم لهذا العرف عدوه من الرسل الذين تجب معرفة رسالتهم وأول هؤلاء حديث الشفاعة تأويلات تجدها هناك (١)

وصف الله الرسول الذى أوجب اتباعه على كل من أدركه من بنى إسرائيل وغيرهم بصفات ونعوت (أولها) (أنه هو النبي الأسمى الكامل)

(ثانيها) - قوله تعالى - الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل - ومعناه الذى يجد الذين يقبضونه من بنى إسرائيل صفته ونعته مكتوبة عندهم فى التوراة والانجيل، وإنما ذكر الانجيل والسياق فى قوم موسى لأن مخاطب به

بأن ذات بنو اسرائيل ، وما هو مأثور عن المسيح عليه السلام في هذه الاناجيل :
 لم أبعث إلا إلى خراف اسرائيل الضالة . ولا يعارضه مارووا عنه من أمره تلاميذه
 أن يكرزوا بالانجيل في الخليقة كلها إذ يجمع بينهما أن يراد بالخليقة ما كانوا يسمونه
 (اليهودية) والعبارة الاولى نص بصيغة الحصر لا لتحتمل التأويل . وقال أبو السعود
 (الذي يجدونه مكتوبا) باسمه ونعوته الشريفة بحيث لا يشكون أنه هو ولذلك عدل
 عن أن يقال يجدون نعته أو وصفه مكتوبا عندهم ، والطرف (عندهم) لزيادة التقرير
 وأن شأنه عليه السلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم اهـ وسأني بيان ذلك في فصل خاص
 ثالثها ورابعها — قوله — ﴿ يا أمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ يحتمل

أنه استئناف لبيان أهم ما يحتاجون إليه عند بعثته — ويحتمل أنه تفسير لما كتب
 والمعروف ما تعرف العقول السليمة حسنه وترتاح القلوب الطاهرة له لنفقه وموافقته
 للفطرة والمصلحة بحيث لا يستطيع العاقل المنتصف السلم الفطرة أن يردّه أو يعترض
 عليه إذا ورد الشرع به . والمنكر ما تنكره العقول السليمة وتنفر منه القلوب وتأباه
 على الوجه المذكور أيضا . وأما تفسير المعروف بما أمرت به الشريعة والمنكر بما
 نهت عنه فهو من قبيل تفسير الماء بالماء . وكون ما قلناه يثبت مسألة التحسين والتفجيع
 العقلين وفاقا للمعتزلة وخلافا للاشعرية مردود اطلاقه بأننا انما نوافق كلا منهما
 من وجه ونخالفه من وجه أتباعا لظواهر الكتاب والسنة وفهم السلف لها فلا ننكر
 إدراك العقول الحسن الأشياء مطلقا ولا تفيد التشريع بقولنا ولا نوجب على الله
 شيئا من عند أنفسنا بل نقول إنه لا سلطان لشيء عليه فهو الذي يوجب على نفسه
 ما شاء ان شاء كما كتب على نفسه الرحمة لمن شاء وأن من الشرع ما لم تعرف العقول
 حسنة قبل شره ، وان كل ما شرعه تعالى يطاع بلا شرط ولا قيد .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذا الأمر والنهي مانصه . هذه صفة الرسول
 ﷺ في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله عليه السلام لا يأمر إلا بخير ولا
 ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين
 آمنوا) فارعها سمعك فانه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه : ومن أهم ذلك وأعظمه

ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن عبادة ما سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال الإمام أحمد — وذكر سننه إلى أبي حميد وأبي أسيد (رض) أن رسول الله ﷺ قال «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فإننا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد، فإننا أبعدكم منه» رواه أحمد (رض) بإسناد جيد ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب

خامسها وسادسها — قوله تعالى ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾
الطيب ما تستطيبه الأذواق من الأطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة، ومن الأموال ما أخذ بحق وتراض في المعاملة. والخبيث من الأطعمة ما تنجس به الطبايع السليمة وتستقذره ذوقا كالميتة والدم المسفوح، أو تصد عنه العقول الرابحة لضرر في البدن كالخنزير الذي تنولد من أكله الدودة الوحيدة — أو لضرره في الدين كالذي يذبح للتقرب به إلى غير الله تعالى على سبيل العبادة، أي لا ما يذبح لتكريم الضيفان، من صغير وكبير أو أمير أو سلطان. والذي يحرم ذبحه أو أكله لتشريع باطل لم يأذن به الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى: والخبيث من الأموال ما يؤخذ بغير الحق كالربا والرشوة والغلو والسرقة والخيانة والغصب والسحت. وقد كان الله تعالى حرم على بنى إسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم كما قال (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) الآية. وتقدم تفسيرها في سورة النساء. وحرموا هم على أنفسهم طيبات أخرى لم يحرمها الله تعالى عليهم، وأحلوا لأنفسهم أكل أموال غير الإسرائيليين بالباطل كما حكى الله تعالى عنهم بعد ذكر استحلال بعضهم أكل ما يأمنهم عليه العرب (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وتقدم تفسيرها في سورة آل عمران

(سابعها) — قوله تعالى ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾
الإصر الثقل الذي يأصّر صاحبه أي يحبس من الحراك لثقله، وهو مثل الثقل

تكليفهم وصموا بته نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توابعهم . وكذلك الأغلال مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة ، فالها الزمخشري . وذكر للثاني عدة أمثلة من شدة أحكام التوراة . وقال ابن كثير : أي أنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من ضرق عن رسول الله ﷺ أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال ﷺ لا مير به معاذواي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا ، وتطاوعا ولا تختلفا » والحديث رواه الشيخان وغيرهما حاصل ما تقدم أن بني إسرائيل كانوا فيما أخذوا به من الشدة في أحكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والمعقوبات كما الذي يحمل أثقالا يشط منها وهو مع ذلك موثق بالسلاسل والأغلال في عنقه ويديه ورجليه . وقد بينا في مواضع أخرى حكمة أخذ بني إسرائيل بالشدة في الأحكام وأن المسيح عليه السلام خفف عنهم بعض التخفيف في الآخرة ، ورأى المادية وشد عليهم في الأحكام الروحية لما كان من إفراطهم في الأولى وتفریطهم في الأخرى ، وكل هذا وذلك قد جعله الله تعالى تربية موقوتة لبعض عباد ليكمل استعدادهم للشريعة الوسطى العادلة السمحة الرحيمة التي يبعث بها خاتم الرسل الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من الرسل وأقوامهم .

﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ يطلق التعزير في اللغة على الرد والضرب والمنع والتأديب والتعظيم . وقال الراغب : التعزير النصرة مع التعظيم . وروى عن ابن عباس : عزروه عظيموه وبقروه . ولكن ورد في سورة الفتح (لنؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، والأقرب إلى فقه اللغة ما حققه الزمخشري في الكشف هنا قال (وعزروه) ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو ، وأصل المزر المنع ، ومنه التعزير بالضرب دون الحد ، لأنه منعه عن معاودة الفبيح ، ألا ترى إلى تسميته الحد ، والحد هو المنع اهـ . جاء في لسان العرب بعد نقل الأقوال ، وجهه من قبيل الاضداد : والعزير النصر بالسيف . وعززه عزرا ، وعززه (تعزيرا) أعانه وقواه ونصره ، قال الله تعالى (لتعزروه وتوقروه) وقال تعالى (وعزهم) جاء في التفسير :

لتنصروه بالسيف ومن نصر النبي ﷺ بالسيف فقد نصر الله عز وجل ، وعزرتهم
عظيمتهم ، وقيل : نصرتهم . قال إبراهيم بن السري : وهذا هو الحق والله تعالى أعلم —
وذلك أن العز في اللغة الرد والمنع ، وتأويل عزرت فلانا أى أدبته إتماماً وإلهاماً ، ففعلت به
ما يردعه عن القبيح ، كما إذا نكمت به تأويله فعلت به ما يجب أن ينكل معه عن المعادة .
فتأويل عزرتهم نصرتهم بأن تردوا عنهم أعداءهم ، ولو كان التعزير هو التوقيف لمكان
الاجود في اللغة الاستغناء به والنصرة إذا وجبت فالتعظيم داخل فيها ، لأن نصرة
الأنبياء هي المدافعة عنهم أو الذب عن دينهم وتعظيمهم وتوقيفهم ما المراد منه .

والمنفى إن الذين آمنوا — أى يؤمنون — بالرسول النبي الأمي عند مبعثه أى
من قوم موسى ومن كل قوم — فإنه لم يقل فالذين آمنوا به منهم بل أطلق —
ويعزرونه بأن يمنعه ويحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والاحلال ، لا كما
يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشتماز ، ونصروه باللسان والسنن ، واتبعوا
النور الأعظم الذي أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون ، أى
الفائزون بالرحمة العظمى والرضوان ، دون سواهم من أهل كل زمان ومكان .
فمنهم الفائزون بدون ما يفوز به هؤلاء ، كاتباع سائر الأنبياء ، ومنهم الخائبون
الخذولون ، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون .

﴿ فصل في بيان بشارات التوراة والإنجيل وغيرهما ﴾

بنبيينا ﷺ

اعلم أنه قد سبق لنا ذكر بشارات كتب أنبياء بني إسرائيل بنبيينا ﷺ
في مواضع من هذا التفسير بعضها بالاجمال وبعضها بشيء من التفصيل وفي مواضع
من المنار كما يعلم من فهرسهما ، ونريد هنا أن نفصل القول في ذلك تفصيلاً كافياً
لأنه هو المكان المناسب له أتم المناسبة ، فنقول :

كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتناقضون خبر بعثة (ص) فيما بينهم
ويدكرون البشارات به من كتبهم حتى إذا ما بعث الله تعالى بالهدى ودين الحق آمن
به كثيرون وكان علماءهم يصرحون بذلك كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء

اليهود وتميم الدارى من علماء النصارى وغيرهم من الذين أسلموا في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ورضى عنهم، والروايات في هذه كثيرة، ومن أعجبها قصة سلمان الفارسي (رض) وأما الذين أبوا واستكبروا فكانوا يكتُمون البشارات به في كتبهم ويؤلون ما بقي منها لمن اطلع عليه و يكتُمونه عن لم يطلع عليه، وقد أبى المتأخرون ولا سيما الافرنج منهم على المتقدمين في المكابرة والتأويل والتضليل لذلك وصح العلامة المحقق الشيخ رحمة الله الهندي هذه المسألة في كتابه (اظهر الحق) بأمر جعلها مقدمات لبشارات تلك الكتب به ﷺ فرأينا أن نقبسها بنصها: قال رحمه الله تعالى في سياق مسالك الاستدلال على نبوته ﷺ مانصه:

﴿ المسلك السادس ﴾

أخبار الانبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام، ولما كان القسيسون يغلطون العوام في هذا الباب تغليطا عظيما استحسنت أن أقدم على نقل تلك الاخبار أمورا ثمانية تفيد الناظر بصيرة

﴿ الأمر الاول ﴾

إن الانبياء الاسرائيلية مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السلام أخبروا عن الحوادث الآتية، كحادثة بخت نصر، وقورش والاسكندر وخلفائه، وحوادث أرض أدوم ومصر ونيوى وبابل، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد ﷺ الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول، ثم صار شجرة عظيمة تنأوى طيور السماء في أغصانها، فكسر الجبابرة والاكاسرة، وبلغ دينه شرقا وغربا وغلب الاديان، وامتد دهره بحيث مضى على ظهوره مدة الف ومائتين وثمانين الى هذا الحين، ويمتد إن شاء الله الى آخر بقاء الدنيا. وظهر في أمته ألوف من العلماء الربانيين، والحكماء المتقين، والاولياء ذوي الكرامات والمجاهدات، والسلاطين العظام. وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونيوى وغيرها، فكيف يجوز العقل السليم انهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الاخبار عن هذه الحادثة العظيمة

﴿ الامر الثاني ﴾

أن النبي المقدم إذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط في اخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الغلانية ، في السنة الغلانية ، في البلد الغلاني ، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الاخبار في غالب الاوقات مجعلا عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جليا بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفيا عنهم أيضا لا يعرفون مصداقه الا بعد ادعاء النبي اللاحق أن النبي المتقدم أخبر عن ظهور مصدق ادعائه بالمجرات ، وعلامات النبوة ، وبعد الادعاء ، وظهور صدقه يصير جليا عندهم بلاريب ، ولذلك يعاتبون كاتب المصحح عليه السلام علماء اليهود بقوله (٥٢) ويل لكم أيها الناموسيون لانكم أخذتم مفتاح المعرفة ، وأدخلتم أنفسكم والداخلون منعتموه () كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من التجيل لوقا . وعلى مذاق المسيحيين قد يبقى خفيا على الانبياء فضلا عن العلماء ، بل قد يبقى خفيا على النبي المخبر عنه على زعمهم في الباب الاول من التجيل يوحنا هكنا ١٩ (وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من اورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت ؟) ٢٠ (فاعترف ولم ينكر ، وأقر إني لست أنا المسيح) ٢١ (فسألوه اذا ملذا ؟ أنت ايليا ، فقال : أنا لست ايليا ، فسألوه أنت النبي ؟ فأجاب : لا) ٢٢ (فقالوا له : من أنت لتعطي جوابا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟) ٢٣ (قال : أنا صوت صارخ في البرية قوموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النبي) ٢٤ (وكان المرسلون من الفريسيين) ٢٥ (فسألوه وقالوا له : فما بالك تعتمد أن كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي ؟)

والالف واللام في لفظ النبي الواقع في الآية ٢١ و ٢٥ للمهد ، والمراد النبي المعهود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام في الباب الثامن عشر من سفر الاستقناء (١) على ما صرح به العلماء المسيحية ، والكهنة واللاويون كانوا من علماء اليهود وواقفين على كتبهم ، وعرفوا أيضا أن يحيى عليه السلام نبي ، لكنهم شكوا في أنه المسيح .

(١) هو سفر تثلية الاشتراع وهو الخامس والاخير من اسفار التوراة ويعبر عنه صاحب الحق بسفر الاستقناء اخذاً من بعض التراجم

عليه السلام أو ايليا عليه السلام أو النبي المهود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام، فظهر منه أن علامات هؤلاء الأنبياء الثلاثة لم تكن مصرحة في كتبهم بحيث لا يبقى الاشتباه للنواص^(١) فضلا عن العوام، فلذلك سألوأ أولا: أنت المسيح؟ فبعدما أنكر يحيى عليه السلام عن^(٢) كونه مسيحا، سألوه: أنت ايليا؟ فبعدما أنكر عن^(٣) كونه ايليا أيضا سألوه أنت النبي أى (المهود)؟ ولو كانت العلامات مصرحة لما كان للشك محل، بل ظهر منه أن يحيى عليه السلام لم يعرف نفسه أنه ايليا حتى أنكر فقال: لست أنا، وقد شهد عيسى أنه ايليا في الباب الحادى عشر من انجيل متى قول^(٤) عيسى عليه السلام في حق يحيى عليه السلام هكذا ١٤ (وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو ايليا المزمع أن يأتى) وفي الباب السابع عشر من انجيل متى هكذا ١٠ (وسأله تلاميذه قائمين فلماذا يقول الكتبة: إن ايليا ينبغي أن يأتى أولا) ١١ (فأجاب يسوع وقال لهم: إن ايليا يأتى أولا ويرد كل شيء) ١٢ (ولكنى أقول لكم: إن ايليا قد جاء ولم يعرفوه، بل عملوا به كل ما أرادوا، كذلك ابن الانسان أيضا سوف يتألم منهم) ١٣ (حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان) وظهر من العبارة الأخيرة أن علماء اليهود لم يعرفوه بأنه ايليا وفعلوا به ما فعلوا، وإن الحوار بين أيضا لم يعرفوه بأنه ايليا، مع أنهم كانوا أنبياء في زعم المسيحيين وأعظم رتبة من موسى عليه السلام، وكانوا اعتمدوا من يحيى عليه السلام ورأوه مراراً، وكان مجيئه ضروريا قبل إلههم ومسيحهم - وفي الآية ٣٣ من الباب الأول من انجيل يوحنا قول يحيى هكذا (وأنا لم أكن أعرفه لكن الذى أرسلنى لأعبد بالماء ذاك قال لى: الذى ترى الروح نازلا ومستقرا عليه فهذا هو الذى يعبد بالروح القدس) ومعنى قوله (وأنا لم أكن أعرفه) على زعم القسيسين أنا لم أكن أعرفه معرفة جيدة بأنه المسيح الموعود به، فعلم أن يحيى عليه السلام ما كان يعرف عيسى عليه السلام معرفة يقينية بأنه المسيح الموعود به إلى ثلاثين سنة مالم ينزل الروح القدس، لعل كون ولادة المسيح من العذراء لم يكن من العلامات المختصة بالمسيح، وإلا فكيف

(١) كذا والمراد بحيث لا تبقى فيها اشتباه على الخواص بل كانت مجملة لا تخلوا من الخفاء والاشتباه (٢) كلمة عن فرائدة إذ يقال انكر الشيء لا أنكر عنه

يصح هذا ؟ لكنني أقطع النظر عن هذا وأقول : إن يحيى أشرف الأنبياء الاسرائيلية بشهادة عيسى عليه والسلام ، كما هو مصرح به في الباب الحادى عشر من إنجيل متى ، وإن عيسى عليه السلام إلهه وربّه على زعم المسيحيين ، وكان بحيته ضروريا قبل المسيح ، وكان كونه ايليا يقينيا ، فاذا لم يعرف هذا النبي الاشرف نفسه إلى آخر العمر ، ولم يعرف إلهه وربّه إلى المدة المذكورة ، وكذا لم يعرف الحواريون الذين هم أفضل من موسى وسائر الأنبياء الاسرائيلية مدة حياة يحيى انه ايليا فاذا رتبته العلماء والعوام عندهم في معرفة النبي اللاحق بخبر النبي المتقدم عنه وترددهم فيه ؟ وقيافا رئيس الكثرة كان نبيا على شهادة يوحنا ، كما هو مصرح به في الآية الحادية والخمسين من الباب الحادى عشر من إنجيله ، وهو أفتى بقتل عيسى عليه السلام وكفره وأهانته ، كما هو مصرح به في الباب السابع والعشرين من إنجيل متى . ولو كانت علامات المسيح في كتبهم مصرحة بحيث لا يبق الاشتباه (فيها) على أحدا ما كان مجال لهذا النبي المفتى بقتل إلهه وبكفره أن يقتل بقتله وكفره .

ونقل متى ولو قال في الباب الثالث ومرقس ويوحنا في الباب الأول من أناجيلهم خبرا شيعيا في حق يحيى عليهما السلام ، وأقر يحيى عليه السلام بأن هذا الخبر في حقه على ما صرح به يوحنا ، وهذا الخبر في الآية الثالثة من الباب الأربعين من كتاب أشعيا هكذا (صوت المنادى في البرية سهلوا طريق الرب أصلحوا في البوادي سبيلا لاهنا) ولم يذكر فيه شيء من الحالات المختصة يحيى عليه السلام لا من صفاته ، ولا من زمان خروجه ، ولا مكان خروجه ، بحيث لا يبقى الاشتباه ، ولولم يكن ادعاء يحيى عليه السلام بأن هذا الخبر في حقه وكذا ادعاء مؤلفي العهد الجديد لما ظهر هذا للعلماء المسيحية وخواصهم فضلا عن العوام لأن وصف النداء في البرية يعم أكثر الأنبياء الاسرائيلية الذين جاؤا من بعد اشعيا عليه السلام ، بل يصدق على عيسى عليه السلام أيضا ، لأنه كان ينادى مثل نداء يحيى عليه السلام : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماء وسيظهر لك في (الأمر السادس) حال الاخبارات التي نقلها الانجيليون في حق عيسى عليه السلام

عن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام . ولا ندعى ان الأنبياء الذين أخبروا عن
 محمد ﷺ كان إخبار كل منهم بصفة مفصلا بحيث لا يكون فيه مجال التأويل المعاند
 قال الإمام الفخر الرازي في ذيل تفسير قوله تعالى (ولا تلبسوا الحق بالباطل
 وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) : واعلم أن الأظهر في الباء في قوله (بالباطل) أنها
 بـ الاستعانة كالق في قولك كتبت بالقلم . والمعنى (لا تلبسوا الحق) بسبب
 الشبهات التي توردها على السامعين . وذلك لأن النصوص الواردة في التوراة
 والانجيل في أمر محمد عليه السلام كانت نصوصا خفية تحتاج في معرفتها إلى
 الاستدلال ، ثم أنهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها
 بسبب القاء الشبهات ، انتهى كلامه بلفظه

وقال المحقق عبد الحكيم السيالكوتي في حاشيته على البيضاوى : هذا فصل
 يحتاج إلى مزيد شرح ، وهو أنه يجب أن يتصور أن كل نبي أتى بلفظة معرصة
 وبشارة مدرجة ، لا يعرفها إلا الراسخون في العلم . وذلك لحكمة إلهية . وقد قال
 الغصاة : ما أنفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبي ﷺ لسكن
 بأشاراته ، ولو كان منجليا للعوام لما عوتب علماءهم في كتمانها . ثم ازداد ذلك
 غموضا بنقله من لسان إلى لسان من العبراني إلى السرياني ، ومن السرياني إلى
 العربي . وقد ذكرت محصلة ألفاظ من التوراة والانجيل إذا اعتبرتها وجدتها
 دالة على صحة نبوته عليه السلام ، بقرينة هو عند الراسخين في العلم جلي ،
 وعند العامة خفي . انتهى كلامه بلفظه

✽ الأمر الثالث ✽

ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح وإيليا ادعاء
 باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهما أيضا لما علمت في الأمر الثاني أن
 علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولا أنت
 المسيح : ولما أنكر سألوه : أنت إيليا ؟ ولما أنكر سألوه : أنت النبي ؟ أي النبي
 المعهود الذي أخبر به موسى ، فلم أن هذا النبي كان منتظرا مثل المسيح وإيليا ،
 كان مشهورا بحيث ما كان محتاجا إلى ذكر الاسم ، بل الإشارة إليه كانت

كافية . وفي الباب السابع من انجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا
 ٤٠ (فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبي) .
 ٤١ (وآخرون قالوا : هذا هو المسيح) وظهر من الكلام أيضاً أن النبي الموعود
 عندهم كان غير المسيح ، ولذلك قابله بالمسيح

✽ الأمر الرابع ✽

ادعاء أن المسيح خاتم النبيين ولا نبي بعده باطل لما عرفت في الأمر الثالث
 أنهم كانوا منتظرين للنبي الموعود الآخر الذي يكون غير المسيح وإيليا عليهم
 السلام ، ولما لم يثبت بالبرهان بحجته قبل المسيح فهو بعده ولأنهم يعترفون بنبوة
 الحواريين وبولس ، بل بنبوة غيرهم أيضاً . وفي الباب الحادى عشر من كتاب
 الأعمال هكذا ٢٧ (وفي تلك الأيام انجحد الأنبياء من أورشليم إلى انطاكية)
 ٢٨ (وقام واحد منهم اسمه أغابوس وأشار بالروح أن جوعاً عظيماً كان عتيداً أن
 يصير على جميع المسكونة الذي صار في أيام كلوديوس قيصر) ف هؤلاء كلهم كانوا
 أنبياء على تصریح انجيلهم . وأخير واحد منهم اسمه أغابوس من وقوع الجسد
 العظيم . وفي الباب الحادى العشرين من الكتاب المذكور هكذا ١٠ (وبينما
 نحن مقيمون أياماً كثيرة انجحد من اليهودية في اسمه أغابوس) ١١ (فجاء إلينا وأخذ
 منطقة بولس وربط يدي نفسه ورجليه وقال : هذا يقوله الروح القدس الرجل الذي
 له هذه المنطقة ، هكذا سيربطه اليهود في أورشليم ويسلمونه إلى أيدي الأمم)
 وفي هذه العبارة أيضاً تصریح بكون أغابوس نبياً ، وقد يتمسكون لإثبات هذا
 الادعاء بقول المسيح المنقول في الآية الخامسة عشرة من الباب السابع من
 انجيل متى هكذا (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بقياب الحملان
 ولكتهم من داخل ذئاب خاطفة) والنفسك به عجيب لأن المسيح عليه السلام
 أمر بالاحتراز من الأنبياء الكذبة لا الأنبياء الصدقة أيضاً ، ولذلك قيد بالكذبة .
 نعم لو قال : احترزوا من كل نبي مجيء بعدى ، لكان بحسب الظاهر وجهاً للنفسك
 وإن كان واجب التأويل عندهم لثبوت نبوة الأشخاص المذكورين . وقد ظهر
 الأنبياء الكذبة الكثيرون في الطبقة الأولى بعد صعوده ، كما يظهر من الرسائل

الموجودة في العهد الجديد في الباب الحادى عشر من الرسالة الثانية إلى أهل
 قورنثيوس هكذا ١٢ (ولكن ما فعله سافعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة
 كي يوجدوا كما نحن أيضاً فيما يفتخرون به) ١٣ (لأن مثل هؤلاء رسل كذبة
 عملة ما كرون ، مغيرون شكهم إلى شبه رسل المسيح) فقدسهم ينادى بأعلى
 نداء أن الرسل الكذبة الغدارين ظهروا في عهده ، وقد تشبهوا برسل المسيح .
 وقال آدم كلارك المفسر في شرح هذا المقام : هؤلاء الأشخاص كانوا
 يدعون كذبا أنهم رسل المسيح ، وما كانوا رسل المسيح في نفس الأمر ، وكانوا
 بمضون ويجهلون ، لكن مقصودهم ما كان إلا جلب المنفعة) وفي الباب الرابع
 من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا (أيها الأحياء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا
 الأرواح هل هي من الله ؟ لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا إلى العالم)
 فظهر من العبارتين أن الأنبياء الكذبة قد ظهروا في عهد الحواريين . وفي الباب
 الثامن من كتاب الأعمال هكذا ٩ (وكان قبلا في المدينة رجل اسمه سيمون
 يستعمل السحر ويدعش شعب السامرة قائلا أنه شيء عظيم) ١٠ (وكان الجميع
 يسمونه من الصغير إلى الكبير قائلين : هذا هو قوة الله العظيمة) وفي الباب الثالث
 عشر من الكتاب المذكور هكذا (ولما اجتازا الجزيرة إلى باقوس وجدا رجلا
 ساحراً نبياً كذاباً يهودياً اسمه بار يشوع) وكذا سيظهر الدجالون الكذابون يدعى
 كل منهم أنه المسيح ، كما أخبر عيسى عليه السلام (وقال : لا يضلكم أحد فان
 كثيرون سيأتون باسمي قائلين : أنا هو المسيح ويضلون كثيرون) كما هو مصرح
 في الباب الرابع والعشرين من إنجيل متى . فمقصود المسيح عليه السلام التحذير
 من هؤلاء الأنبياء الكذبة والمسحاء الكذبة ، لا من الأنبياء الصادقين أيضاً ،
 لذلك قال بعد القول المذكور في الباب السابع (من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنبون
 من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً) ومحمد صلى الله عليه وسلم من الأنبياء الصادقين
 كما تدل عليه ثماره على ما عرفت في المسالك المتقدمة ، ولا اعتبار لمطاعن المنكرين
 كما ستعرف في الفصل الثاني ، ولأن كل شخص يعلم أن اليهود ينكرون عيسى
 ابن مريم عليها السلام ويكذبونه ، وليس عندهم رجل أشر منه من ابتداء العالم إلى

زمان خروجه ، وكذا ألوف من الحكماء والعلماء الذين هم من أبناء صنف
 القسيسين وكانوا مسيحيين ثم خرجوا عن هذه الملة لاستقباحهم إياها ينكرونه
 ويستهزؤون به و بملته وألفوا رسائل كثيرة لأنبياهم واشتهرت هذه الرسائل
 في أكناف العالم ويزيد متبعوهم كل يوم في ديار أوربا ، فكأن إنكار اليهود
 وهؤلاء الحكماء والعلماء في حق عيسى عليه السلام غير مقبول عندنا ، فكأن
 إنكار أهل التثليث في حق محمد صلى الله عليه وسلم غير مقبول عندنا
 ﴿ الأمر الخلاء ﴾

الآخبارات ^(١) التي نقلها المسيحيون في حق عيسى عليه السلام لا تصدق
 عليه على تفاسير اليهود وتأويلاتهم ، ولذلك هم ينكرونه أشد الانكار ، والعلماء
 المسيحية لا يلتفتون في هذا الباب إلى تفاسيرهم وتأويلاتهم ، ويفسرونها ويؤولونها
 بحيث تصدق في زعمهم على عيسى عليه السلام (ونقل هنا عبارة عن ميزان الحق
 بهذا المعنى ثم قال) كأن تأويلات اليهود في الآيات المذكورة مردودة غير صحيحة ،
 وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين في الآخبارات التي هي
 في حق محمد صلى الله عليه وسلم مردودة غير مقبولة عندنا وسنرى أن الآخبارات
 التي نقلها في حق محمد صلى الله عليه وسلم أظهر صدقا من الآخبارات التي نقلها
 الانجيليون في حق عيسى عليه السلام فلا بأس علينا إن لم نلتفت إلى تأويلاتهم
 الفاسدة وكما أن اليهود ادعوا في حق بعض الآخبارات التي هي في حق عيسى عليه
 السلام على زعم المسيحيين أنها في حق مسيحهم المنتظر ، أو في حق غيره ، أو ليست
 في حق أحد . والمسيحيون يدعون أنها في حق عيسى عليه السلام ولا يباون
 بمخالفتهم ، فكأن نحن لأنبأى بمخالفة المسيحيين في حق بعض الآخبارات التي
 هي في حق محمد صلى الله عليه وسلم لو قالوا إنها في حق عيسى عليه السلام .
 وسنرى أيضاً أن صدقها في حق محمد صلى الله عليه وسلم أليق من صدقها في حق
 عيسى عليه السلام فادعوا لنا أحق من ادعائهم

(١) الأخبار جمع خبر والمؤلف يجمع هذا الجمع على أخبارات ولا حاجة إلى ذلك

* الأمر السادس *

مؤلفو العهد الجديد باعتماد المسيحيين دور الإلهام. وقد نقلوا الاخبارات في حق عيسى عليه السلام، فيكون هذا النقل على زعمهم بالإلهام، فأذكر نبذا منها بطريق الأنموذج ليقس الخاطب حال هذه الاخبارات بالاخبارات التي أنقلها في هذا المسلك في حق محمد ﷺ وإن سلك أحد من التفسيرين مسلك الاعتساف وتصدي لتأويل الاخبارات التي أنقلها في هذا المسلك يجب عليه أن يوجه أولا الاخبارات التي نقلها مؤلفو العهد الجديد في حق عيسى عليه السلام ليظهر للمنصف اللبيب حال الاخبارات التي نقلها الجانبان، ويقابلها باعتبار القوة والضعف. وإن غرض النظر عن توجيه الاخبارات العيسوية التي نقلها المؤلفون المذكورون وأول الاخبارات الحمديّة التي أنقلها في هذا المسلك يكون محمولا على عجزه وتقصيره لأنك قد علمت في الأمر الثاني والخامس أن المماند له مجال واسع للتأويل في أمثال هذه الاخبارات، وإنما اكتفيت على نبذ^(١) مما نقله مؤلفو العهد الجديد لأنه إذا ظهر أن البعض منها غلط يقينا، والبعض منها محرف، والبعض منها لا يصدق على عيسى عليه السلام إلا بالادعاء البحث والتحكم الصرف، ظهر أن حال الاخبارات الأخر التي نقلها المسيحيون الذين ليسوا ذوي إلهام ووحى يكون أسوأ فلا حاجة إلى نقلها.

* الخبر الأول * ما هو المنقول في الباب الاول من إنجيل متى؟ وقد عرفت في بيان الغلط الحسنيين في الفصل الثالث من الباب الأول أنه غلط^(٢) على أن كون

- ١ - يقال اكتفى بالثبوت ولكنه ضمنه معنى اقتصر فعدها بعلی، والتضمنين سماعي عندم
- ٢ - هذا نص الغلط الحسنيين الذي أشار اليه : في الباب الاول من انجيل متى (وهذا كله لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل وهوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا) والمراد بالنبي عند علمائهم اشعيا عليه السلام حيث قال في الآية الرابعة عشرة من الباب السابع من كتابه هكذا (لأجل هذا يعطيكم الرب عينة علامته العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعى اسمه عمانوئيل) وأقول هو غلطون جهه الاول: أن اللفظ الذي ترجمه الانجيلي ومترجم كتاب اشعيا (العذراء)

مريم عذراء وقت الحبل غير مسلم عند اليهود والمنكرين ، ولا يتم عليهم حجة لأنها قبل ولادة عيسى عليه السلام كانت في تسكاح يوسف النجار على تصریح الإنجيل واليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام يقولون : إنه ولد يوسف النجار كما هو مصرح به في الآية ٥٥ من الباب ١٣ من إنجيل متى ، والآية ٤٥ من الباب الاول والآية ٤٢ من الباب السادس من إنجيل يوحنا ، وإلى الآن يقولون هكذا ، بل أشنع منه . والعلامة الاخرى المختصة بعيسى عليه السلام غير مذكورة في هذا الخبر

هو علمه مؤنث علم والماء فيه للأنثى ومضاه عند علماء اليهود المرأة الشابة سواء كانت عذراء أو غير عذراء ويقولون إن هذا اللفظ وقع في الباب الثلاثين من سفر الأسماء ومعناه ههنا المرأة الشابة التي زوجت وفسر هذا اللفظ في كلام اشعيا بالمرأة الشابة في التراجم اليونانية الثلاثة أعنى ترجمة ايكوثلا . و ترجمة تهودوشن . و ترجمة سميكس . وهذه التراجم الثلاثة عندهم قديمة يقولون إن الأولى ترجمت سنة ١٣٩ والثانية سنة ١٧٥ والثالثة سنة ٢٠ . وكانت معتبرة عند القدماء من المسيحيين سيما ترجمة تهودوشن فعلى تفسير علماء اليهود والترجم الثلاثة فساد كلام متى ظاهر الخ

الثاني - مسمى أحد عيسى عليه السلام بهما نوثيل لأبوه ولأمه بل سمياد يسوع وكان الملك قال لأبيه في الرؤيا وتدعو اسمه يسوع كما هو مصرح في إنجيل متى وكان جبريل قال لأمه : ستجبلين وتلدن ابنا وتسمينه يسوع كما هو مصرح في إنجيل لوقا . ولم يدع عيسى عيسى عليه السلام في حين من الأحيان أن اسمى همونائيل

الثالث - أن الفصة التي وقع فيها هذا القول تأتي أن يكون صدق هذا القول عيسى عليه السلام لأنها هكذا : أن راصين ملك آرام وفاقاح ملك اسرائيل جاء إلى اورشليم لمحاربة احاز بن يونان ملك يهوذا فخاف خوفا شديدا من اتفاقهما فأوحى الله إلى اشعيا أن يقول لتسلية احاز : لا تخف فانهما لا يقدران عليك وستزل سلطنتهما وبين علامة خراب ملكهما أن امرأة شابة تحبل وتلد ابنا وتصير أرض هذين الملكين خربة قبل أن يميز هذا الابن الحيز عن الشر . وقد ثبت أن أرض فاقاح قد خربت في مدة إحدى وعشرين سنة من هذا الخبر فلا بد أن يتولد (*) هذا الابن قبل هذه المدة وتخرب قبل يميزه وعيسى عليه السلام تولد بعد سنة ٧٢١ من خرابها . الخ اه من ١٠٧ من اظهار الحق فكيف تكون بشارة اشعيا منطبقة على المسيح وقصتها ماسمعت

(*) يستعمل المؤلف تولد وتولد بمعنى ولد ويولد ، والوجه هنا أن يقال : فلا ان يكون هذا الابن قد ولد قبل هذه المدة .

﴿الخبر الثاني﴾ ما هو المنقول في الآية السادسة من الباب الثاني من انجيل متى ، وهو اشارة إلى الآية الثانية من الباب الخامس من كتاب ميخا . ولا تطابق عبارة متى عبارة ميخا ، فاحدهما محرقة ^(١) وقد عرفت في الشاهد الثالث والعشرين من المقصد الأول من الباب الثاني أن محققهم اختاروا تحريف عبارة ميخا ، لكن ادعوا أن هذا لأجل المحافظة على الانجيل فقط و (هو) عند الخفاف باطل

﴿الخبر الثالث﴾ ما هو المنقول في الآية الخامسة عشرة من الباب المذكور من انجيل متى ^(٢)

﴿الخبر الرابع﴾ ما هو المنقول في الآية ١٧ و ١٨ من الباب المذكور ؟ (٥٤)

١ — هذا نص عبارة متى (٦ : ٢) وأنت يا بيت لحم يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لان منك يخرج مدير يرعى شعبى اسرائيل . وهذا نص نبوة ميخا « ٥ : ٢ » أما أنت يا بيت لحم افرائيم وأنت صغيرة ان تسكونى بين الوف يهوذا فمبكك يخرج الذى يكون متسلطا على اسرائيل ومخارجه منذ القديم . منذ أيام الازلي .

٢ — نص متى هكذا : ٢ : ١٥ « وكان هناك إلى وفاة هيرودس لىكى يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابنى » والمراد بالنبي القائل هو يوشع عليه السلام وأشار الانجيل إلى ١١ : ١ من كتابه وهو « لما كان اسرائيل غلاما احبته ومن مصر دعوت ابنى » هكذا في ترجمة الاميركان الاخيرة المطبوعة سنة ١٨٧٠ وكان نص الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هكذا كما قال الشيخ رحمة الله : أن اسرائيل منذ كان طفلا أنا احبته ومن مصر دعوت اولاده . قال الشيخ رحمة الله في الشاهد ١٥ من شواهد اغلاط هذه الكتب : فهذه الآية في بيان الاحسان الذى فعله الله في عهد موسى عليه السلام بينى اسرائيل ، وحرف الانجيل صينة الجمع « اولاده » بالمفرد « ابنى » وضمير الغائب بالمتكلم فقال « ما قال » وحرف لاتباعه مترجم العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ أيضا لكن لا تخفى خيانتة على من طالع هذا الباب لانه وقع في حق المدعويين بعد هذه الآية كلما دعوا ولوا وجوبهم وذبحوا البعالم وقربوا للاصنام . ولا تصدق هذه الامور على عيسى عليه السلام بل لا تصدق على اليهود الذين كانوا معاصريه ولا على الذين كانوا قبل ميلاده إلى خمسمائة سنة لأن اليهود كانوا تابوا من عبادة الاوثان توبة جيدة قبل ميلاده بخمسمائة وستة وثلاثين سنة بعد ما اطلقوا من اسر بابل ثم لم يحوموا حولها بعد تلك التوبة ، كما هو مصرح في التوراة اه ص ١٠٨ ج ١ اظهار الحق

٥٤ — في الباب الثاني من انجيل متى هكذا ١٧ حيث نتم ما قيل بأرميا النبي القائل ١٨ صوت سمع في الزامة : نوح وبكاء وعويل كثير راحيل تبكى على اولادها ولا تريد

« تفسير القرآن الحكيم » « ١٦ » « الجزء التاسع »

﴿الخبر الخامس﴾ ما هو المقول في الآية الثالثة والعشرين من الباب المذكور؟
وهذه الأخبار الثلاثة غلط (٦) كما عرفت في الفصل الثالث من الباب الأول
﴿الخبر السادس﴾ الآية التاسعة من الباب السابع والعشرين من الإنجيل
متى (٧) وقد عرفت في الشاهد التاسع والعشرين من المقصد الثاني من الباب الثاني
أنه غلط، على أن هذا الحال يوجد في الباب الحادي عشر من كتاب زكريا ولا
مناسبة له بالقصة التي نقلها متى لأن زكريا عليه السلام بعدما ذكر اسمي حصوي وورعي
قطيع (فانه) يقول هكذا - ترجمة عربية سنة ١٨٤٤ - (١٢) وقلت لم أن حسن
في أعينكم فها أتوا أجرى والافكفوا . فوزنوا أجرى ثلاثين من الفضة (١٣) (وقل
لي الرب ألقها إلى صناع الخبث) ثل ثمننا كريما ثمنوني به ، فأخذت الثلاثين من الفضة

ان تترى لأنهم ليسوا بموجودين . وهذا أيضا غلط وتحريف من الإنجيل لأن
هذا المضمون وقع في الآية الخامسة عشر من الباب الحادي والثلاثين من كتاب
ارميا ، ومن طالع الآيات التي قبلها وبعدها علم أن هذا المضمون ليس في حادثة هيرودس
بل في حادثة يختصم التي وقعت في عهد ارميا قتل فيها الوف من بني اسرائيل
واسر الوف منهم واجلوا إلى بابل ولما كان فيهم كثير من آل راحيل أيضا تألم
روحها في عالم البرزخ فوعده الله أنه يرجع اولادها من أرض العدو إلى
تخومهم اه ص ١٠٩ ج ١ منه

٦ - الآية ٢٣ من الباب الثاني من الإنجيل متى هكذا «وأنتي وسكن في مدينة
يقال لها ناصرة لكي يتم مقيل بالأنبياء أنه سيدعى الناصريا » وهذا أيضا غلط
ولا يوجد في كتاب من كتب الأنبياء ، وينسكرو اليهود هذا الخبر أشد الإنكار
وعندهم هذا زور وبهتان بل يعتقدون أنه لم يقم نبى من الجليل فضلا عن ناصرة
كما هو مصرح في الآية ٥٢ من الباب السابع من الإنجيل يوحنا ولعلماء المسيحية
« ههنا » اعتذارات ضعيفة غير قابلة للالتفات اه ص ١٠٩ و ١١٠ منه

٧ - الآية ٩ من الباب ٢٧ من الإنجيل متى هكذا : «حيثما كل قول النبى
ارميا حيث قال « فقبضوا الدراهم الثلاثين ثمنى والتمن الذى ثمنه بنو اسرائيل »
ولفظ ارميا غلط من الاغلاط المشهورة في الإنجيل متى لأن هذا لا يوجد في كتاب
ارميا ولا يوجد هذا المضمون في كتاب آخر من كتب العهد القديم أيضا بهذه
الألفاظ ، نعم توجد في الآية ١٣ من الباب ١١ من كتاب زكريا عبارة تناسب
هذه العبارة التي نقلها متى ، لكن بين العبارتين فرق كبير يمنع أن يحكم أن متى
نقل عن هذا الكتاب ومع قلع النظر عن هذا الفرق لا علاقة لعبارة كتاب زكريا
عليه السلام بهذه الحادثة التي نقلها متى منها . وفي هذا الموضع اقوال مضطربة
لعلماء المسيحيين سلفا وخلفا الخ اه ص ١٨٥ منه

وألقيتها في بيت الرب إلى صنائع التماثيل) فظاهر كلام زكريا انه بيان حال لاخبار عن الحادثة الآتية ، وأن يكون أخذ الدرهم من الصالحين مثل زكريا عليه السلام لا من الكافرين مثل يهوذا .

﴿ والخبر السابع ﴾ ما نقله مقدسهم بولس في الآية السادسة من الباب الأول من الرسالة العبرانية (٨) وقد عرفت حاله في الفصل الثالث أنه غلط لا يصدق على عيسى عليه السلام .

﴿ والخبر الثامن ﴾ الآية الخامسة والثلاثون من الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا (لكي يتم ما قيل بالنبي سافنج بأمثال في وأنطق بمكتوبات منذ تأسيس العالم) وهو اشارة إلى الآية الثانية من الزبور الثامن والسبعين ، لكنه ادعاء محض وتحكم بحت ، لان عبارة هذا الزبور هكذا (٢ أفنح بالأمثال في وأنطق بالذي كان قديما ٣ كل ما سمعناه وعرفناه وآباؤنا أخبرونا ٤ ولم يخفوه عن أولادهم إلى الجيل الآخر إذ يخبرون بتسابيح الرب وقواته ومجائبه التي صنع • إذ أقام الشهادة في يعقوب ووضع الناموس في إسرائيل كل الذي أوصى آباؤنا ليعرفوا به أبناءهم ٦ لكي ما يعلم الجيل الآخر بينهم المولودين ٧ فيقومون أيضاً ويخبرون به أبناءهم ٨ لكي يجهلوا اتكاهم على الله ، ولا يفسوا أعمال الله ويلتمسوا وصاياه ٩ لئلا يكونوا مثل آباءهم الجيل الأعرج المتمرد الذي لم يستقم قلبه ولا آمنتم بالله روحه) .

وهذه الآيات صريحة في أن داود عليه السلام يريد نفسه ، ولذا عبر عن نفسه بصيغة المتكلم ، ويروي الحالات التي سمعها من الآباء ليبلغها إلى الأبناء على حسب عهد الله ، لتبقى الرواية محفوظة . وبين من الآية العاشرة إلى الخامسة والستين حال انعامات الله والمعجزات الموسوية ، وثمرات بني إسرائيل وما لحقهم بسببها ثم قال (٦٦ واستيقظ الرب كالنجم مثل الجبار المفق من الخمر ٦٧ ف ضرب أعداءه في الوراء وجعلهم عاراً إلى الدهر ٦٨ وأبعد محلة يوسف

(٨) الآية ٦ من الباب الأول من الرسالة العبرانية هكذا : وأيضاً متى ادخل البكر إلى العالم يقول وتسجد له كل ملائكة الله . ولم نعتز على عبارة المؤلف في أمليطها

ولم يختار سبط أفرام ٦٩ بل اختار سبط يهوذا لجبل صهيون الذي أحب ٧٠ وبني مثل وحيد القرن قدسه وأسس في الأرض إلى الأبد ٧١ واختار داود عبده وأخذه من مراعي الغنم ٧٢ ومن خلف المرضعات أخذه ليرعى يعقوب عبده وإسرائيل ميراثه ٧٣ فرعاه بذعة قلبه وبفهم يديه أهداهم .

وهذه الآيات الأخيرة أيضاً دالة صراحة على أن هذا الزبور في حق داود عليه السلام فلا علاقة لهذا بعيسى عليه السلام .

﴿ الخبر التاسع ﴾ في الباب الرابع من أنجيل متى هكذا (١٤) لكي يتم ما قيل بأشعيا النبي القائل ١٥ أرض زبلون وأرض نفتاليم طريق البحر عبر الاردن جليل الأمم ١٦ الشعب الجالس في ظلمة أبصرواً عظيماً . وإبنا السون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور) وهو إشارة إلى الآية الأولى والثانية من الباب التاسع من كتاب أشعيا وعبارته هكذا (١) في الزمان الأول استخفت أرض زبلون وأرض نفتاليم ، وفي الآخر تنقلت طريق البحر عبر الاردن جليل الأمم ٢ الشعب السالك في الظلمة رأى نوراً عظيماً . الساكنون في بلاد ظلال الموت أشرق عليهم نور) وفرق ما بين العبارتين فأحدهما محرفة ، ومع قطع النظر عن هذا لادلالة الكلام أشعيا على ظهور شخص بل الظاهر أن أشعيا عليه السلام يخبر أن حال سكان أرض زبلون ونفتاليم كان سقيماً في سالف الزمان ثم صار حسناً كما تدل عليه صيغة الماضي : أعفى : استخفت ، وثقلت ، ورأى وأشرق ، وإن عدلنا عن الظاهر وحملناها على المجاز بمعنى المستقبل وقلنا إن رؤية النور راشقة عليهم عبارة عن مرور الصلحاء بأرضهم ، فادعاء أن مصداق هذا الخبر عيسى عليه السلام فقط تحكم صرف ، لأن كثيراً من الأولياء والصلحاء مر بتلك الأرض ولا سيما أصحاب محمد ﷺ وأولياء أمته أيضاً الذين زالت ظلمة الكفر والتلث من هذه الديار بسببهم ، وظهر نور التوحيد وتصديق المسيح كما ينبغي . واكتفى خوفاً من التطويل على (؟) هذا القدر . ونقلنا الأخبار الأخرى أيضاً (إزالة الأوهام) وغيره من مؤلفاتي وبيئت وجوه ضعفها .

﴿ الأمر السابع ﴾

إن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالبا الأسماء في تراجمهم ويوردون بدلها معانيها ؛ وهذا خبط عظيم ومشأ للساد ، وأنهم يزيدون قارة شيئا بطريق التفسير في الكلام الذي هو كلام الله في زعمهم ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم . ومن تأمل في تراجمهم المتبادلة بالسنة مختلفة وجد شواهد تلك الأمور كثيرة . وأنا أورد أيضا بطريق الأتمودج بعضا منها .

١ - في الآية الرابعة عشرة من الباب السادس عشر من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (لذلك دعت اسم تلك البئر بير الحى الناظرنى) فترجموا اسم البئر الذى كان فى العبرانى بالعربى
٢ - وفى الآية الرابعة عشرة من الباب الثانى والعشرين من سفر التكوين فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (هكذا سمي ابراهيم اسم الموضع مكان يرحم الله زائر) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ (دعا ابراهيم اسم ذلك الموضع الرب يرى) فترجم المترجم الأول الاسم العبرانى بمكان يرحم الله زائر ، والمترجم الثانى بالرب يرى (*)

٣ - وفى الآية العشرين من الباب الحادى والثلاثين من سفر التكوين فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وفى سنة ١٨٤٤ هكذا (فكنتم يةقوب أمره عن حميه) وفى ترجمة أردو (الترجمة الأوردية) المطبوعة سنة ١٨٢٥ لفظ لابان موضع حميه فوضع مترجمو العربية لفظ الحى موضع الاسم .

٤ - وفى الآية العاشرة من الباب التاسع والأربعين من سفر التكوين فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ (فلا يزول القضييب من يهوذا والمدير

(*) وفى ترجمة الاميركانيين الأخيرة رجعوا إلى الأصل العبرانى « يهوه برأه » بسكون الهاء فيهما وإثبات الهزة فى يراه . ولكن قالوا فى تئمة الآية « حتى إنه يقلل اليوم : فى جبل الرب يرى » وترجمة الجزويت بالعربية فى الموضعين .

من فحذه حتى يحىء الذى له الكل وإياه تنظر الأمم) فقوله (الذى له الكل) ترجمة لفظ «شيلوه» وهذه الترجمة موافقة للترجمة اليونانية ، وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (فلا يزول القضيب من يهوذا والرسم من نحف أمراء إلى أن يحىء الذى هو له وإليه يجتمع الشعوب) وهذا المترجم ترجم لفظ شيلوه (بالذى هو له) وهذه الترجمة موافقة للترجمة السريانية . وترجم هذا اللفظ محققهم المشهور ليكلرك بعاقبته . وفي ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨٢٥ وقع لفظ شيلا ، وفي الترجمة اللاتينية ولتكيت (الذى سيرسل) فلمترجمون ترجموا لفظ شيلوه بما ظهر وترجح عندهم ، وهذا اللفظ كان بمنزلة الاسم للشخص المبشر به

٥ - وفي الآية الرابعة عشرة من الباب الثالث من سفر الخروج في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ (فقال الله لموسى : أهيه أشرايه) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (قال له الأزل الذى لا يزال) فلفظ أهيه أشرايه كان بمنزلة اسم الذات ، فترجمه المترجم الثانى بالأزل الذى لا يزال

٦ - وفي الآية الحادية عشرة من الباب الثامن من سفر الخروج في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا (تبقى في النهر فقط) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (تبقى في النيل فقط)

٧ - وفي الآية الخامسة عشرة من الباب السابع عشر من سفر الخروج في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فابقي موسى مذبحا ودعا اسمه الرب عظمى) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (وبني مذبحا وسماه الله على) وترجمة اردو موافقة لهذه الاخيرة فأقول مع قطع النظر عن الاختلاف إن المترجمين ترجموا الاسم العبراني ^(١)

٨ - وفي الآية الثالثة والعشرين من الباب الثلاثين من سفر الخروج في الترجمتين المذكورتين هكذا (من مائة فائقة) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (من المسك الخالص) وبين الميعة والمسك فرق مافسروا الاسم العبراني

(١) الأصل العبراني «يهوه نسي» وهو الذى اعتمد في الترجمة الاميركانية الاخيرة ونص ترجمة الجزويت «و بنى موسى مذبحا وسماه الرب رايتي» ورايتي بمعنى على

بما ترجع عندهم^(١)

٩ - وفي الآية الخامسة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء (أى الثانية) فى الترجمتين المذكورتين هناك (فات هناك موسى عبد الرب) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (فات هناك موسى رسول الله) فهؤلاء المترجمون لو بدلو فى البشارات المحمدية لفظ رسول الله بلفظ آخر فلا استبعاد منهم

﴿ تركنا الشاهدين ١٠ و ١١ للاختصار ﴾

١٢ - وفي الآية الرابعة عشرة من الباب الحادى عشر من انجيل متى فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فان أردتم أن تقبلوه فهو ايليا المزمع أن يأتى) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ (فان أردتم ان تقبلوه فهنا هو المزمع بالاتيان) فالمترجم الأخير بدل لفظ ايليا بهذا ، فأمثال هؤلاء لو بدلوا اسما من أسماء النبي ﷺ فى البشارة فلا عجب .

١٣ - وفي الآية الأولى من الباب الرابع من انجيل يوحنا فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (لما علم يسوع) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٦٠ (لما علم الرب) فبدل المترجمان الأخيران لفظ يسوع الذى كان علم عيسى عليه السلام بالرب الذى هو من الألفاظ التعظيمية ، فلو بدلوا اسما من أسماء النبي ﷺ بالألفاظ التحقيرية لأجل عاداتهم وعنادهم فلا عجب^(٢)

وهذه الشواهد تدل على ترجمة الأسماء وإيراد لفظ آخر بدلها

١ - فى الباب السابع والعشرين من انجيل متى هكذا (ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلى إيلى ، لماذا شبقتنى ؟ أى إلهى إلهى لماذا تركتنى) وفى الباب الخامس عشر من انجيل مرقس هكذا (وفى الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: الوى الوى لماذا شبقتنى ، الذى تفسد إلهى إلهى لماذا تركتنى)

(١) وفى ترجمة الجزويت « من أفر الأطباء من المر القاطر » الخ .

(٢) بمثل هذا بينا أنه لا غرابة فى ورود اسم نبينا ﷺ فى انجيل برنابا بلفظ

محمد ، فانه ترجمة لاسم الفارقليط كما سيجى .

فلفظ : أى الهى الهى لماذا تركتنى ، فى انجيل متى ، وكذا لفظ : الذى تفسيره الهى الهى لماذا تركتنى فى انجيل مرقس ، ليس من كلام الشخص المصلوب يقيناً ، بل الحقا بكلامه ٢ — فى الآية السابعة عشرة من الباب الثالث من انجيل مرقس هكذا (لقبها بيوان رجس أى ابنى الرعد) فلفظ «أى ابنى الرعد» ليس من كلام عيسى عليه السلام ، بل هو إلحاق

٣ — فى الآية الحادية والأربعين من الباب الخامس من انجيل مرقس هكذا (وقال لها طليثا قومي ، الذى تفسيره يا عيسى لك أقول قومي) فهذا التفسير إلحاق ليس من كلام عيسى عليه السلام

٤ — فى الآية الرابعة والثلاثين من الباب السابع من انجيل مرقس فى الترجمة المطبوعة سنة ١٨١٦ (ونظر إلى السماء وتأوه وقال : افتأينى افتتح) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (ونظر إلى السماء وتهد وقل : افتأه ، الذى هو افتتح) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (ونظر إلى السماء وتهد وقال له : افتتح الذى هو افتتح) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا (ورفع نظره نحو السماء وقال له : افتأى افتتح) ومن هذه العبارة وان لم يعلم صحة اللفظ العبرانى أهو افتأ أو افتأه أو افتتح لأجل اختلاف التراجم التى منشأ اختلافها عدم صحة ألفاظ أصولها لكنه يعلم يقيناً أن لفظ أى افتتح أو الذى هو افتتح إلحاقى ليس من كلام عيسى عليه السلام وهذه الأقوال المسيحية الأربعة التى نقلتها من الشاهد الأول إلى ههنا تدل على أن المسيح عليه السلام كلن يتكلم باللسان العبرانى الذى كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليونانى ، وهو قريب القياس أيضاً لأنه كان عبرانياً ابن عبرانية نشأ فى قومه العبرانيين فنقل أقواله فى هذه الأناجيل فى اليونانى نقل بالمعنى ، وهذا أمر آخر زائد على كون أقواله مروية برواية الأحاد

٥ — فى الآية الثامنة والثلاثين من الباب الأول من انجيل يوحنا هكذا (فقال له : ربى ، الذى تفسيره يا معلم) فقوله : الذى تفسيره يا معلم — إلحاقى ليس من كلامها ٦ — فى الآية الحادية والأربعين من الباب المذكور فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ (قد وجدنا مسياً الذى تأويله المسيح) وفى الترجمة الفارسية

المطبوعة سنة ١٨١٦ (مامسيح را كه ترجمة آن كرسطوس ميباشمدياقيم) وترجمة أوردو المطبوعة سنة ١٨١٤ توفى الفارسية، فيعلم من المترجمين العربيين اللفظ الذى قاله اندراوس هومسيا وان المسيح ترجمته، ومن الترجمة الفارسية وارودو (أى الترجمة الاوردية) ان لفظ الأصل هو المسيح وكرسطوس ترجمته، و يعلم من ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ ان لفظ الأصل خرسه، وان المسيح ترجمته. فلا يعلم من كلامهم أى لفظ كان الأصل؟ أمسيا أم المسيح أم خرسه؟ وهذه الألفاظ وإن كان معناها واحدا لكن لا شك أن الذى قاله اندراوس هو واحد من هذه الثلاثة يميناً، وإذا ذكر اللفظ والتفسير فلا بد من ذكر لفظ الأصل أولاً، ثم من ذكر تفسيره، لكننى أقطع النظر عن هذا وأقول: إن التفسير المشكوك فيه إماما كان إلحاقى ليس من كلام اندراوس

٧ — فى الآية الثانية والآر بمين من الباب الأول من انجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام فى حق بطرس الحوارى فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (أنت تدعى ببطرس الذى تأويله الصخرة) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ (ستسمى أنت بالصفة المفسر ببطرس) وفى الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ (ترا بكيفاس كه ترجمة آن سنك است تداخواهت كرد) أمطر الله حجارة على تحقيقهم وتصحيحهم لا يتميز المفسر من كلامهم عن المفسر، لكننى أقطع النظر عن هذا وأقول: إن التفسير ليس من كلام المسيح عليه السلام، بل هو إلحاقى، وإذا كان حال تراجمهم وحال تحقيقهم فى لقب إلههم ولقب خليفته كما علمت فكيف نرجو منهم صحة بقاء لفظ محمد أو أحمد أو لقب من ألقابه صلى الله عليه وسلم.

(ثم قال بعد إيراد شواهد أخرى ما نصه):

فاذا كانت خصلة أهل الدين والديانة ما عرفت فما ظنك بغير أهل الديانة؟ بل الحق ان التحريف القصدى بالتبديل بالزيادة والنقصان من خصالهم كلهم أجمعين فبعض الأخبار التى نقلها العلماء الأسلاف من أهل الاسلام: مثل الإمام القرطبي وغيره إذا لم تجدوها موافقة فى بعض الألفاظ للتراجم المشهورة الآن فسيبه غالباً هذا التغيير، لأن هؤلاء العلماء من أهل الاسلام نقلوا عن الترجمة العربية التى كانت رائجة فى عهدهم، وبعد زمانهم وقع الإصلاح فى تلك الترجمة ويحتمل أن

أن يكون ذلك السبب اختلاف التراجم لكن الأول هو المعتمد ، لانا نرى أن هذه العادة جارية إلى الآن فى تراجمهم ورسائلهم ، ألا ترى إلى ميزان الحق الخ

﴿ الأمر الثامن ﴾

إن بولس وإن كان عند أهل التشليث فى رتبة الحوارين لسكنه غير مقبول عندنا ولا نعدّه من المؤمنين الصادقين ، بل من المنافقين الكذابين ومعلّى الزور والرسل الخداعين الذين ظهروا بالكثرة بمسد عروج المسيح كما عرفت فى الأمر الرابع . وهو خرب الدين المسيحى ، وأباح كل محرم لمعتقديه . وكان فى ابتداء الأمر مؤذيا للطبقة الأولى من المسيحيين جهرا ، لكنه لما رأى هذا الإيذاء الجهرى لا ينفع نفعا معتداً به دخل على سبيل النفاق فى هذه الملة وادعى رسالة المسيح وأظهر الزهد الظاهرى ، ففعل فى هذا الحجاب ما فعل ، وقبله أهل التشليث لأجل زهده الظاهرى ولأجل افراغ ذمتهم من جميع التكليف الشرعية ، كما قبل أناس كثيرون من المسيحيين فى القرن الثانى منتش الذى كان زاهدا مرتاضا وادعى أنه هو الفارقليط الموعود به فقبلوه لأجل زهده ورياضته كما سيجى ذكره فى البشارة الثامنة عشرة ورده المحققون من علماء الإسلام سلفا وخلفا .

قال الإمام القرطبى رحمه الله فى كتابه فى حق بولس هذا مجيبا لبعض القسيسين فى بحث مسألة الصوم هكذا : « قلنا ذلك - أى بولس - هو الذى أفسد عليكم أديانكم ، وأعمى بصائركم وأذهانكم ، ذلك هو الذى غير دين المسيح الصحيح ، الذى لم تسمعوا له بخبر ، ولا وقفتم منه على أثر ، هو الذى صرفكم عن القبلة ، وحلل لكم كل محرم كان فى الملة ، ولذلك كثرت أحكامه عندهم وتداولوها بينكم » انتهى كلامه بلفظه .

وقال صاحب (تنجيل من حرف الانجيل) فى الباب التاسع من كتابه فى بيان فضائح النصرانى فى حق بولس هذا هكذا « وقد سلمهم بولس هذا من الدين بلطيف خداعه ، إذ رأى عقولهم قابلة لكل ما يلقى إليها وقد طمس هذا انجيليث رسوم التوراة » انتهى كلامه بلفظه ، وهكذا أقوال علمائنا الآخرين . فكللامه هندا مردود ورسائله المنضمة بالعهد العتيق كلها واجبه الرد ولا نشترى

قوله بحجة خردل فلا انقل عن أقواله في هذا المسالك شيئا ولا يكون قوله حجة علينا
 وإذا قد عرفت هذه الأمور الثمانية أقول ان الأخبار الواقعة في حق عهد عليه السلام
 توجد كثيرة إلى الآن أيضا مع وقوع التحريفات في هذه الكتب ومن عرف
 أولا طريق إخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر على ما عرفت في الأمر الثاني
 ثم نظر ثانيا بنظر الانصاف إلى هذه الأخبار وقابلها بالأخبار التي نقلها الانجيليون
 في حق عيسى عليه السلام — وقد عرفت نبذا منها في الأمر السادس — جزم
 بأن الأخبار الحمديّة في غاية القوة . وأنقل في هذا المسالك عن الكتب المعتمدة
 عند علماء بروتستنت ثمان عشرة بشارة

(البشارة الأولى)

في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء (التثنية) هكذا (١٧) فقال الرب
 لي نعم جميع ما قالوا ١٨ وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم واجمل كلامي
 في فمهم ويكلمهم بكل شيء أمره به ١٩ ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي
 فانا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ فأما النبي الذي يجترى بالكبرياء ويتكلم في اسمي
 ما لم أمره بأنه يقول أم باسم آلهة غيري فليقتل ٢١ فان اجبت وقلت في قلبك
 كيف استطيع أن اميز الكلام الذي لم يتكلم به الرب ٢٢ فهذه تكون لك آية
 ان ما قاله ذلك النبي في اسم الرب ولم يحدث فالرب لم يكن تكلم به بل ذلك
 النبي صوره في تعظم نفسه ولذلك لا تخشاه)

وهذه البشارة ليست بشارة يوشع عليه السلام كما يزعم الآن احبار اليهود
 ولا بشارة بعيسى عليه السلام كما زعم علماء بروتستنت بل هي بشارة عليه السلام
 لعشرة أوجه .

(الوجه الأول) قد عرفت في الأمر الثالث أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه
 السلام كانوا ينتظرون نبيا آخر مبشرا به في هذا الباب وكان هذا المبشر به عندهم
 غير المسيح فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى عليهما السلام
 (والوجه الثاني) أنه وقع في هذه البشارة لفظ مثلك ويوشع وعيسى عليهما

السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى عليه السلام، أما أولافلانها من بنى إسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء (الثانية) وهى هكذا (١٠) ولم يقم بعد ذلك نبي فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجهه لوجه الخ وأما ثانيا فلا أنه لا مماثلة بين يوشع وبين موسى عليهما السلام لأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهي و يوشع ليس كذلك بل هو متبع لشريعته، وكذا لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام لأن عيسى عليه السلام كان إلها وربا على زعم النصارى وموسى عليه السلام كان عبدا لله وأن عيسى عليه السلام على زعمهم صار ملعونا لشقاعة الخلق كما صرح به بولس فى الباب الثالث من رسالته إلى أهل غلاطية وموسى عليه السلام ماضى ملعونا لشقاعتهم وأن عيسى عليه السلام دخل الجحيم بعد موته كما هو مصرح به فى عقائد أهل التثليث وموسى عليه السلام ما دخل الجحيم وإن عيسى عليه السلام صلب على زعم النصارى ليكون كفارة لآثمه وموسى عليه السلام ماضى كفارة لآثمه بالصلب وأن شريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيرات وأحكام الفسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات بخلاف شريعة عيسى عليه السلام فأنها فارغة عنها على ما يشهد به هذا الإنجيل المتداول بينهم وإن موسى عليه السلام كان رئيسا مطاعا فى قومه نفاذا لأوامره ونواهي وعيسى عليه السلام لم يكن كذلك (الوجه الثالث) أنه وقع فى هذه البشارة « لفظ من بين اخوتهم » ولا شك أن الاسباط الاثني عشر كانوا موجودين فى ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده فلو كان المقصود كون النبي المبشر به « منهم » لقال منهم لا « من بين اخوتهم » لأن الاستعمال الحقيقى لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصليبية والبطنية ببنى إسرائيل كما جاء لفظ الاخوة بهذا الاستعمال الحقيقى فى وعد الله لهاجر فى حق اسمعيل عليه السلام فى الآية الثانية عشرة من الباب السادس عشر من سفر التكوين وعبارتها فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وقبلة جيم اخوته ينصب المضارب) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا

(بحضرة جميع اخوته يسكن) وجاء بهذا الاستعمال ايضا فى الآية الثامنة عشرة من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين فى حق اسمعيل فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (منتهى اخوته جميعهم سكن) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (اقام بحضرة جميع اخوته) والمراد بالاخوة ههنا بنو عيسو واسحاق وغيرهم من ابناء ابراهيم عليه السلام. وفى الآية الرابعة عشرة من الباب العشرين من سفر العدد هكذا (ثم أرسل موسى رسلا من قادس الى ملك الروم قائلا: هكذا يقول أخوك اسرائيل انك قد علمت كل البلاء الذى أصابنا) وفى الباب الثانى من سفر (الثنية) هكذا (٣ وقال لى الرب ٤ ثم أوص الشعب انكم ستجوزون فى نخوم اخوتكم بنى عيسو الذين فى ساعير وسيخشونكم ٥ فلما جزنا اخوتنا بنى عيسو الذين يسكنون ساعير الخ) والمراد باخوة بنى اسرائيل بنو عيسو، ولا شك ان استعمال لفظ اخوة بنى اسرائيل فى بعض منهم كما جاء فى بعض المواضع من التوراة استعمال مجازى ولا تترك الحقيقة ولا يصار الى المجاز لم يمنع من الحمل على المعنى الحقيقى مانع قوى، ويوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بنى اسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما

(الوجه الرابع) أنه قد وقع فى هذه البشارة لفظ «سوف أقيم» ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى عليه السلام داخلاً فى بنى اسرائيل نبياً فى ذلك الوقت، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ

(الوجه الخامس) أنه وقع فى هذه البشارة لفظ: اجعل كلامى فى فم، وهو اشارة الى أن ذلك النبي ينزل عنده الكتاب، وإلى أنه يكون أميناً حافظاً للكلام، وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتفاء كلا الامرين فيه

(الوجه السادس) أنه وقع فى هذه البشارة: ومن لم يطعم كلامه الذى يتكلم به فأنا أكون المنتقم منه. فهذا الامر لما ذكر لتعظيم هذا الذى المبشر به فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الامر عن غيره من الانبياء فلا يجوز أن يراد بالانتقام من المنكر العذاب الاخرى الكائن فى جهنم أو الحن والمعوبات الدنيوية التى تلحق المنكرين من الغيب، لان هذا الانتقام لا يختص بانكار

نبي دون نبي ، بل بهم الجميع ، فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام الثمري . فظاهر منه أن هذا النبي يكون مأموراً من جانب الله بالانتقام من منكره فلا يصدق على عيسى عليه السلام ، لأن شريعته خالية عن أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد (الوجه السابع) في الباب الثالث من كتاب الأعمال في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هـ كذا (١٩) فتوبوا وارجعوا كي تمحي خطاياكم ٢٠ حتى إذا تأتي أزمان الراحة من قدام وجه الرب ويرسل المنادي به لكم وهو يسوع المسيح ٢١ الذي إياه ينبغي للسماء أن تقبله الى الزمان الذي يسترد فيه كل شيء . تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر ٢٢ إن موسى قال : إن الرب إلهكم يقيم لكم نبيا من إخوانكم مثلي له تسمعون في كل ما يكلمكم به ١٢٣ ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبي تهلك من الشعب) وفي الترجمة الفارسية

✽ حذفنا النص الفارسي استغناء عنه بما يذكره من مضمونه وهو قوله: ✽

فهذه العبارة سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على أن هذا النبي غير المسيح عليه السلام ، وأن المسيح لا بد أن تقبله السماء إلى زمان ظهور هذا النبي ، ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين — وتأمل في عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول من بطرس يكفي لإبطال ادعاء علماء بروتستانت أن هذه البشارة في حق عيسى عليه السلام

وهذه الوجوه السبعة التي ذكرتها تصدق في حق محمد صلى الله عليه وسلم
أكل صدق ، لأنه غير المسيح عليه السلام ، ويمثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة (١) كونه عبد الله ورسوله (٢) كونه ذا الدين (٣) كونه ذا نكاح وأولاد (٤) كون شريعته مشتتة على السياسات المدنية (٥) كونه مأموراً بالجهاد (٦) اشتراط الطهارة وقت العبادة في شريعته (٧) وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء في شريعته (٨) اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز فيها (٩) حرمة غير المذبح وقرايين الأوثان فيها (١٠) كون شريعته مشتتة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية (١١) أمره بمحذ الزنا (١٢) تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص (١٣) كونه قادراً على تنفيذها (١٤) تحريم الربا (١٥) أمره بإنكار من

يدعو إلى غير الله (١٦) أمره بالتوحيد الخالص (١٧) أمره الأمة بأن يقولوا له عبد الله ورسوله، لا ابن الله أو الله، والعباد بالله (١٨) موته على الفراش (١٩) كونه مدفوناً كموسى (٢٠) عدم كونه ملعوناً لأجل أمته .

وهكذا أمور آخر تظهر إذا تؤمل في شريعتهما، ولذلك قال الله تعالى في كلامه المجيد (١٥: ٧٣) إنا أرسلنا إليكم رسولاً هداً عنكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً (وكان من اخوة بنى إسرائيل لانه من بنى اسماعيل وأنزل عليه الكتاب، وكان أمياً جعل كلام الله في فيه وكان ينطق بالوحى كما قال الله تعالى) وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى (وكان مأموراً بالجهاد وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش والاكامرة والقياصرة وغيرهم، وظهر قبل نزول المسيح من السماء، وكان للسماء أن تقبل المسيح عليه السلام إلى ظهوره ليرد كل شيء إلى أصله، ويعحق الشرك والتثليث وعبادة الاوثان، ولا يرتاب أحد من كثرة أهل التثليث في هذا الزمان الأخير، لان هذا الصادق المصدق قد أخبرنا على أتم تفصيل وأكمل وجه بحيث لا يبقى ريب ما بكثرتهم وقت قرب ظهور المهدي رضى الله عنه، وهذا الوقت قريب إن شاء الله، وسيظهر الإمام ويظهر الحق عن قريب ويكون الدين كله لله، جعلنا الله من أنصاره وخدامه آمين .

(الوجه الثامن) أنه صرح في هذه البشارة بأن النبي الذى ينسب إلى الله مالم يأمره يقتل فلو لم يكن محمد ﷺ نبياً حقاً لكان قتل، وقد قال الله في القرآن المجيد أيضاً (٦٩: ٤٤، ٥٥) ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين (وما قتل، بل قال الله في حقه (٥ : ٦٧) والله يعصمك من الناس) وأوفى وعده ولم يقدر على قتله أحد حتى لقي الرفيق الأعلى ﷺ، وعيسى عليه السلام قتل وصلب على زعم أهل الكتاب . فلو كانت هذه البشارة في حقه لزم أن يكون نبياً كاذباً كما يزعمه اليهود، والعباد بالله .

(الوجه التاسع) ان الله بين علامة النبى الكاذب (وهى) ان اخباره عن الغيب المستقبل لا تخرج صادقة، ومحمد ﷺ أخبر عن الأمور الكثيرة المستقبلية كما علمت

في المسلك الأول وظهر صدقه فيها ^(١) فيكون نبيا صادقا لا كاذبا .

(الوجه العاشر) ان علماء اليهود سلموا كونه مبشرا به في التوراة لكن بعضهم أسلم وبعضهم بقي في الكفر - كما أن قيافا وكان رئيس الكهنة ونبيا على زعم يوحنا عرف أن عيسى هو المسيح الموعود به ولم يؤمن بل أفتى بكفره وقتله كما صرح به يوحنا في الباب الحادى عشر والثامن عشر من انجيله - كما روى من حديث مخبريق أنه كان يسرف رسول الله ﷺ بصفته وغلبت عليه إلفه دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم (غزوة) أحد ، وكان يوم السبت فقال : يامعشر اليهود والله انكم تعلمون ان نصر محمد عليكم لحق . قالوا : فان اليوم يوم السبت ؟ قال : لا سبت . ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى النبي ﷺ بأحد ، وكان يوم السبت ، وهمد إلى من ورائه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فملى لمحمد يصنع فيه ما أراه الله تعالى ، فقاتل حتى قتل ، فكان رسول الله ﷺ يقول « مخبريق خير يهود » وقبض النبي ﷺ أمواله ، فدعاة صداقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها - وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال « أتى رسول الله ﷺ بيت المدراس ^(٢) فقال : أخرجوا إلى أهلكم ، فقالوا : عبيد الله بن صوريا فخلا به رسول الله ﷺ فناشدته بدينه وبعائنه الله عليهم وأطعمهم من المن والسوى وظللهم من الغمام : أتعلم أنى رسول الله ؟ قال : اللهم نعم ، وان اليهود يعرفون ما أعرف ، وان صفتك ولعنتك لمبين في التوراة ولكن حسدوك قال « فما بمنعك أنت » ؟ قال : أكره خلاف قومي ، عسى أن

(١) ظهر صدق بعضها في زمنه كانتصاره على المشركين ودخوله المسجد الحرام مع المؤمنين ، آمنين محتلين رده وسهم ومقصرين ، وغلب الروم للفرس ، وبعضها لأصحابه كفتح مصر وبلاد كسرى وقبصر ، وقتل الفئة الباغية لعار ، ولا يزال يظهر الكثير منها عصرا بعد عصر ومن أغربها قوله ﷺ « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، رؤسهن كأسنة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها » الحديث رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعا . والسيات المذكورة هي الكرابيج ، والرؤس التي كأسنة البخت هي التي يوضع عليها البرانيط وأشباهاها .

(٢) المدراس المدرس أي المعلم .

يتبعوك ويسلموا فأسلم - وعن صفة بنت حيي رضي الله عنها لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمر أبو ياسر بن أخطب مفسرين ، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس ، فأثيا كالين كسلاتين ساقطين عشيان الموبتا ، فمششت إليهما فما التفت إلى أحد منهما مع ما بهما من الهم فسمعت عمر أبا ياسر يقول لأبي : أهو هو ؟ (أي المبشر به في التوراة) قال : نعم والله ، قال : أنتيته وتعرفه ؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبداً » - فذلك عشرة كاملة

(فان قيل) إن إخوة بني إسرائيل لا تنحصر في بني إسماعيل لأن بني عيسو وبني أبناء قطورا زوجة إبراهيم عليهما السلام من اخوتهم أيضا (قلت) نعم هؤلاء أيضا من إخوة بني إسرائيل لكنهم لم يظهر أحد منهم يكون موصوفا بالأموور المذكورة ، ولم يكن وعد الله في حقهم أيضا بخلاف بني إسماعيل فانهم كان وعد الله في حقهم لإبراهيم ولهاجر عليهما السلام مع أنه لا يصح أن يكون مصداق هذا الخبر بني عيسو على ما هو مقتضى دعاء اسحق عليه السلام المصروح به في الباب السابع والعشرين من سفر التكوين . ولعلماء يروى تسنت اعتراضان نقلهما صاحب الميزان في كتابه المسمى بمحل الاشكال في جواب الاستفسار (الأول) أنه وقع في الآية ١٥ من الباب ١٨ من سفر الاستثناء (الثنية) هكذا (فان الرب إلهك يقيم من بينك من بين اخوتك) الخ ، فلفظ « من بينك » يدل دلالة ظاهرة على أن هذا النبي يكون من بني إسرائيل لا من بني إسماعيل (والثاني) أن عيسى عليه السلام نسب هذه البشارة إلى نفسه فقال في الآية ٤٦ من الباب الخامس من انجيل يوحنا (أن موسى كتب في حقي)

(أقول) آية الثنية على وفق التراجم الفارسية وتراجم اردو هكذا (فان الرب إلهك يقيم من بينك من بين اخوتك نبياً مثلي قاصع منه) والقسيس أيضا نقلها هكذا . والجواب أن اللفظ المذكور لا ينافي مقصودنا لأن محمداً عليه السلام هاجر إلى المدينة وبها تكامل أمره قد كان حوله بلاد اليهود كخير وبني قينقاع والنضير وغيرهم فقد قام من بينهم ، ولأنه إذا كان من إخوتهم فقد قام من بينهم ، ولأن قوله (تفسير القرآن الحكيم) (١٧) (الجزء التاسع)

من بين اخوتك بدل من قوله « من بنيك » يدل على اشتغال على رأى ابن الحاجب ومتبعيه القائلين بكفاية علاقة الملابس غير السكبية والجزئية في تحقق هذا البدل نحو جاء في زيد أخوه . وجاء في زيد غلامه ، و بدل اضراب على رأى ابن مالك ، والمبدل منه على كلا التقديرين غير مقصود ، ويدل على كونه غير مقصود أن موسى عليه السلام لما أعاد هذا الوعد من كلام الله في الآية الثامنة عشرة لم يوجد فيه لفظ من بينك ، ونقل بطرس الحواري أيضا هذا القول ولم يوجد فيه هذا اللفظ كما علمت في الوجه السابع ، وكذا نقله استفانوس أيضا ولم يوجد في نقله أيضا هذا اللفظ كما صرح به في الباب السابع من كتاب الأعمال وعبارته هكذا (هذا هو موسى الذي قال لبي اسرائيل نبيا مثلي سيقم لكم الرب إلهكم من اخوتكم له تسمعون) فسقوطه في هذه المواضع دليل على كونه غير مقصود فاحتمال البدل قوى جدا .

وقال صاحب الاستفسار : إن لفظ من بنيك إلخاقى زيد تجرينا ويدل عليه ثلاثة أمور (الأول) أن المخاطبين في هذا الموضوع كانوا بنى اسرائيل كلهم لا البعض فقوله : من بنيك خطاب لجميع القوم فصار لفظ من اخوتك لغوا محضاً لا معنى له ، لكن لفظ من اخوتك جاء في الموضع الآخر أيضا فيكون صحيحاً ، ولفظ من بنيك إلخاقيا زيد تجرينا (الثاني) أن موسى عليه السلام لما نقل كلام الله لا يثبت قوله لم يوجد فيه هذا اللفظ ولا يجوز أن يكون ما قال موسى نحا فإلما قاله الله (والثالث) أن الحواريين كلما نقلوا هذا الكلام لم يوجد فيه لفظ من بينك ، وإن قلتم ان المحرف إذا حرف فلم يحرف الكلام كله ؟ (قلت) نحن نرى في محاكم العدالة دائماً ان القبايل المحرفة بثبت تحريف الألفاظ المحرفة فيها من مواضع أخرى منها غالباً ^(١) وإن شهود الزور يؤخذ ببعض بياناتهم . فالوجه الوجه على ان عادة الله جارية بأنه لا يهدى كيد الخائنين وبأنه يظهر خيانة خائن الدين بمقتضى رحمته ، فبمقتضى هذه العادة يصدر عن الخائن شيء ما تظهر به خيائته ، على أنه لا توجد ملة يكون أهلها كلهم خائنين . فالخائنون الذين حرفوا كتب العهدين كان لهم لحاظ ما ^(٢) من جانب بعض المتدينين فلذلك ما بدلوا الكل انتهى

(١) لعل معنى القبايل الوثائق والمستندات ومعنى الجملة أنها على وجود

التحريف فيها يحتج ببعض عباراتها على إثبات التحريف فيها « وكذا على غيره »

(٢) قوله أن اد أن يقول : كان عليهم عهد ، وقد قدام

أقول : هذا الجواب بالنسبة إلى عادة أهل الكتاب كما عرفت في الأمر السابع وأقول في الجواب عن الاعتراض الثاني إن آية الانجيل هكذا (لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كنب عني) وليس فيها تصريح بأن موسى عليه السلام كنب في حقه في الموضع الفلاني بل المفهوم منه أن موسى كنب في حقه (مطلقا) وهذا يصدق إذا وجد في موضع من التوراة إشارة إليه ، ونحن نسلم هذا الأمر كما ستعرف في ذيل بيان البشارة الثالثة ، لكننا نتكر أن يكون قوله إشارة إلى هذه البشارة للوجوه التي عرقها ، وقد ادعى هذا المعارض في الفصل الثالث من الباب الثاني من الميزان أن الآية الخامسة عشرة من الباب الثالث من سفر التكوين إشارة إليه ، فهذا القدر يكفي لتصحيح قول عيسى عليه السلام ، نعم لو قال عيسى عليه السلام إن موسى عليه السلام ما أشارني أسفاره الحسة إلى نبي من الأنبياء الا إلى لسان هذا التوم محال في هذه الحال .

﴿ البشارة الثانية ﴾

الآية ٢١ من الباب ٣٢ من سفر الاستثناء (التثنية) هكذا (هم أغاروني بغير إله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب وبشعب جاهل أغضبهم) والمراد بشعب جاهل العرب لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام ، وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من هاجر الجارية : فتصود الآية أن بني اسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون . فأوفى بما وعد ، فبعث من العرب النبي صلى الله عليه وسلم فهداهم إلى الصراط المستقيم ، كما قال الله تعالى في سورة الجمعة (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوه عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس في الباب العاشر من الرسالة الرومية لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم كله في العلوم والفنون ، وكانوا

الحكماء المشهورين مثل سقراط وبقرات وفيثاغورس وافلاطون وارسطاطاليس وارشميدس وبليناس وأقليدس وجالينوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الأهلبيات والرياضيات والطبيعيات وفروعها قبل عيسى عليه السلام ، وكان اليونانيون في عهده على غاية درجة الكمال في فنونهم ، وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها ، وعلى سائر كتب العهد العتيق أيضا بواسطة ترجمة سبتوجنت التي ظهرت باللسان اليوناني قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة ، لكنهم ما كانوا معتقدين للعلة الموسوية ، وكانوا متفحصين عن الأشياء الحكيمية الجديدة كما قال مقدسهم هذا في الباب الأول من الرسالة الأولى إلى أهل قورنثوس هكذا (٢٢) لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة ٢٣ ولسكننا نحن نركز بالمسيح مصلوبا لليهود عثرة وللإونانيين جهالة فلا يجوز أن يكون المراد بالشعب الجاهل اليونانيين ، فكلام مقدسهم في الرسالة الرومية إمام مؤول أو مردود — وقد عرفت في الأمر الثامن أن قوله ساقط عن الاعتبار عندنا .

﴿ البشارة الثالثة ﴾

في الباب الثالث والثلاثين ^(١) من سفر التثنية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (٢) وقال بجاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير ^(٢) واستعان من جبل فاران ومعه ألوف الاطهار في يمينه ستة من نار ^(٣) فجيشه من سيناء اعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام وإشراقة من ساعير اعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام واستملأه من جبل فاران إنزاله القرآن ، لأن فاران جبل من جبال مكة ، فقد جاء في بيان حال اسماعيل عليه السلام من سفر التكوين (٢١ : ٢٠) وكان الله معه ونما وسكن في البرية وصار شابا يرمى بالسهم ٢١ وسكن بريبة فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر (ولا شك أن اسماعيل عليه السلام

(١) هذا الباب هو الأخير من سفر التثنية . وفي الآية الأولى منه أن هذه البشارة قالها موسى قبل موته مباركا بها بني اسرائيل « ٢ » في التراجم الأخيرة ساعير بالكسر والمراد بها واحد وفيها زيادة وأتى من « ٣ » المراد بالسنة الشريعة . وترجمة الجزويت « عن يمينه قبس شريعة لهم » ربوات القدس وليس فيها ألوف الاطهار .

كانت سكناه بمكة ، ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا ، فانتشرت في هذه المواضع ، لأن الله لم يخلق نارا في موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع إلا إذا اتبع تلك الواقعة وحى نزل في ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك ، وقد اعترفوا بأن الوحي اتبع تلك (النار التي رآها موسى) في طور سيناء . فكيف لا يد أن يكون في ساعير وفاران .

(البشارة الرابعة)

في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله في حق إسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هـ كذا (وعلى إسماعيل استجب لك، هوذا أباركه وأكبره جدا فسيلد اثني عشر رئيسا واجعله لشعب كبير) قوله «أجعله لشعب كبير» يشير إلى محمد ﷺ لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان شعب كبير غيره وقد قال الله تعالى حاكيا دعاء إبراهيم وإسماعيل في حقهم عليهم السلام في كلامه المجيد أيضا (ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) .

وقال الامام القرطبي في الفصل الأول من القسم الثاني من كتابه : وقد تنظرن بعض النباه ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم فقال : يخرج مما ذكر من عبارة التوراة في موضعين اسم محمد ﷺ بالعدد على ما استعمله اليهود فيما بينهم (الأول) قوله جدا جدا بتلك اللغة «بمادام» وعدد هذه الحروف اثنان وتسعون لأن الباء اثنان والميم أربعون والألف واحد والدال أربعة والميم الثانية أربعون والألف واحد والدال أربعة ، وكذلك الميم من محمد أربعون والحاء ثمانية والميم أربعون والدال أربعة (١)

(والثاني) قوله «لشعب كبير» بتلك اللغة «لعوي غدول» فالام عندهم ثلاثون والغين ثلاثة - لأنه عندهم في مقام الجيم ، إذ ليس في لغتهم جيم ولا صاف والواو

(١) يؤيد هذا ما روى عن احيار اليهود المجاورين للمدينة في زمن البعثة من ظنهم أن الحروف المقطعة في أوائل بعض السور لبيان أجل الأمة الاسلامية .

سنة والياء عشرة والغين أيضا ثلاثة والدال أربعة والواو ستة واللام ثلاثون فمجموع هذه أيضا اثنان وتسعون ، انتهى كلامه بتلخيص ما .

وعبد السلام كان من أحبار اليهود ثم أسلم في عهد السلطان المرحوم بايزيد خان ، وصنف رسالة صغيرة سماها بالرسالة الهادية فقال فيها « إن أكثر أدلة أحبار اليهود بحرف الجمل الكبير ، وهو حرف أ بجد ، فإن أحبار اليهود حين بنى سليمان النبي عليه السلام بيت المقدس اجتمعوا وقالوا : يبقى هذا البناء أربعمائة وعشرة سنين ، ثم يعرض له الخراب ، لأنهم حسبوا لفظة « بزأت » ثم قال : واعترضوا على هذا الدليل بأن البناء في عماد ما ليست نفس الكلمة بل هي أداة حرف جي . بدلالة ، فلو أخرج منه لاحتاج اسم محمد إلى ياء ثانية ويقال : يعماد ما (قلنا) من المشهور عندهم إذا اجتمع الباء الآن (إحداهما) أداة (الآخر) من نفس الكلمة تحذف الأداة وتبقى التي هي من نفس الكلمة ، وهذا شائع عندهم في مواضع غير معدودة فلا حاجة إلى إيرادها » انتهى كلامه بلفظه .

أقول : قد صرح العلماء بأن من أسمائه ﷺ مادام كما في شفاء القاضي عياض

(البشارة الخامسة)

جاء في ترجمات سنة ١٧٢٢ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ العربية من سفر التكوين (٤٩ : ١٠) فلا يزول القضيبي من يهوذا والمدير من فخذته حتى يجيء الذي له الكل وإياه تنتظر الأمم) وفي ترجمة سنة ١٨١١ (فلا يزول القضيبي من يهوذا والراسم من تحت أمره إلى أن يجيء الذي هو له إليه تجتمع الشعوب) ولفظ الذي له الكل أو الذي هو له ترجمة لفظ « شيلوه » وفي ترجمة هذا اللفظ اختلاف كثير فيما بينهم كما عرفت في الأمر السابع أيضا . وقال عبد السلام في الرسالة الهادية هكذا (لا يزول الحاكم من يهوذا ولا راسم من بين رجليه حتى يجيء الذي له واليه تجتمع الشعوب) وفي هذه الآية دلالة على مجيء سيدنا محمد ﷺ بعد تمام حكم موسى وعيسى ، لأن المراد من الحاكم هو موسى ، ولأنه بعد مبعده وب ما جاء صاحب شريعة إلى زمان موسى إلا موسى ، والمراد من الراسم هو عيسى لأنه بعد موسى إلى زمان عيسى ما جاء صاحب شريعة إلا عيسى ، وبعدهما ما جاء صاحب شريعة

الإمام . فعلم أن المراد من قول يعقوب في آخر الأيام ، هو نبينا محمد ﷺ لأنه في آخر الزمان بعد مضي حكم الحاكم والراسم ماجاء إلا سيدنا محمد ﷺ ويبدل عليه أيضا قوله : حتى يحى الذى له أى الحكم بدلالة مساق الآية وسياقها وأما قوله (واليه تجتمع الشعوب) فهى علامة صريحة ودلالة واضحة على أن المراد منها هو سيدنا محمد ﷺ لأنه ما تجتمع الشعوب إلا إليه ، وإنما لم يذكر الزبور لأنه لأحكام فيه ، وداد النبي تابع لموسى ، والمراد من خبر يعقوب هو صاحب الأحكام ، انتهى كلامه بلفظه أقول : إنما أراد من الحاكم موسى عليه السلام لأن شريعته جبرية انتقامية ، ومن الراسم عيسى عليه السلام لأن شريعته ليست بجبرية ولا انتقامية . وإن أريد من القضييب السلطنة الدنيوية ، ومن المدير الحاكم الدنيوى — كما يفهم من رسائل القسيسين من فرقة بروتستانت ومن بعض تراجمهم — فلا يصح أن يراد بشيلوه مسيح اليهود كما هو مزعومهم ، ولا عيسى عليه السلام كما هو مزعوم النصارى (أما الأول) فظاهر لأن السلطنة الدنيوية والحاكم الدنيوى زالا من آل يهوذا من مدة هى أزيد من ألفى سنة من عهد بخت نصر ، ولم يسمع إلى الآن حسيس مسيح اليهود (وأما الثانى) فلائهما زالا من آل يهوذا أيضا قبل ظهور عيسى عليه السلام بمقدار ستمائة سنة من عهد بخت نصر ، وهو أجلي بنى يهوذا إلى بابل ، وكانوا فى الجلاء ثلاثا وستين سنة لاصبعين كما يقول بعض علماء بروتستانت تغلطا للعوام — كما عرفت فى الفصل الثالث من الباب الأول — ثم وقع عليهم فى عهد انتيوكس ما وقع فانه عزل أنياس حبر اليهود وباع منصبه لأخيه ياسون بثلاثمائة وستين وزنة ذهب يقدمها له خراجا كل سنة ، ثم عزله وباع ذلك لأخيه مينلاوس بثلاثمائة وستين وزنة ، ثم شاخ خبر موته فطلب ياسون أن يسترد لنفسه الكهنوت ، ودخل أورشليم بألف من الجنود فقتل كل من كان يظنه عدوا له — وهذا الخبر كان كاذبا — فهجم أنتيوكس على أورشليم وأمتلكها ثانية فى سنة ١٧٠ قبل ميلاد المسيح وقتل من أهلها أربعين ألفا ، وباع مثل ذلك عبدا . وفى الفصل العشرين من الجزء الثانى من مرشد الطالبين فى بيان الجداول التاريخي فى الصفحة ٤٨١ من النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٢ من الميلاد

(انه نهب أورشلیم وقتل ثمانين ألفاً) اهـ . وسلب ما كان في الهيكل من الأمتعة النفيسة التي كانت قيمتها ثمانمائة وزنة ذهب ، وقرب خمزيرة وقودا على المذبح للاهانة ثم رجع إلى إنطاكية وأقام فيلبس أحد الأراذل حاكما على اليهودية — وفي رحلته الرابعة إلى مصر أرسل أبولو ينوس بعشرين ألفاً من جنوده وأمرهم أن يخربوا أورشلیم ويقتلوا كل من فيها من الرجال ويسبوا النساء والصبيان فانطلقوا إلى هناك ، وبما كان الناس في المدينة مجتمعين للصلاة يوم السبت هجموا عليهم على غفلة ، وقتلوا الكل إلا من أفلت إلى الجبال أو اختفى في المغاور ونهبوا أموال المدينة وأحرقوها . وهدمو أسوارها وخربوا منازلها ، ثم ابتنوا لهم من بسائط ذلك الهدم قلعة حصينة على جبل اكرا ، وكانت المسارح تشرف منها على جميع نواحي الهيكل ، ومن دنانهم يقتلونه ، ثم أرسل انتيوكس أنانيوس ليعلم اليهود طقوس عبادة الاصنام اليونانية ، ويقتل كل من لا يمتثل ذلك الأمر ، فجاء أنانيوس إلى أورشلیم ، وساعده على ذلك بعض اليهود الكافرين ، وأبطل الذبيحة اليومية ، ونسخ كل طاعة للدين اليهودي عموماً وخصوصاً ، وأحرق كل ما وجده من نسخ كتب العهد العتيق بالفحص التام وكرس الهيكل للمشرى ، ونصب صورة ذلك على مذبح اليهود ، وأهلك كل من وجده مخالفاً أمر أنتيوكس ، ونجا مئائيس الكاهن مع أبنائه الخمسة في هذه الداهية وفروا إلى وطنهم مودين في سبط دان ، فانتقم من هؤلاء الكفار انتقاماً ماقدروا عليه على استطاعته كما هو موضح به في التواريخ ، فكيف يصدق هذا الخبر على عيسى عليه السلام ؟

وان قالوا ان المراد ببقاء السلطنة والحكومة امتياز القوم كما يقول بعضهم الآن (قلنا) هذا الأمر كان باقياً إلى ظهور محمد ﷺ ، وكانوا في أقطار العرب ذوي حصون وأمالك غير مطيعين لأحد ، مثل يهود خيبر وغيرهم كما تشهد به التواريخ وبعد ظهور محمد ﷺ ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وصاروا في كل إقليم مطيعين للغير — فالائق أن يكون المراد بشيلوه النبي ﷺ لا مسيح اليهود ولا عيسى عليه السلام

﴿ البشارة السادسة ﴾

الزبور الخامس والأربعون هكذا (١) — فاض قلبى كلمة صالحة أنا أقول
 أعمالى لذلك ٢ لسألى قلم كاتب سريع الكتابة ٣ بنى فى الحسن أفضل من بنى
 البشر ٤ انسكبت النعمة على شفيعك لذلك باركك الله إلى الدهر ٥ قلنا سيفك
 على فخذك أيها القوى بحسنك وجمالك ٥ استله وانجح واملك من أجل الحق والدعة
 والصدق وتهديك بالعجب عيذك ٦ بذلك مسنونة أيها القوى فى قلب أعداء
 الملك ، الشعوب تحمك يسقطون ٧ كرسيك يا الله إلى دهر الداهرين ، عصا
 الاستقامة عصا ملكك ٨ أحببت البر وأبغضت الإثم لذلك مسحك الله إلهك
 بدهن الفرح أفضل من أصحابك ٩ المر والميعة والسليخة من ثيابك ، من منازلك
 الشريفة العاج التى أبهجتك ١٠ بنات الملوك فى كرامتك ، قامت الملكة من عن
 عيذك مشتملة بثوب مذهب موشى ١١ اسمى يا بنت وانظرى وأنصتى بأذنيك
 وانسى شعبك وبنت أبيك ١٢ فيشتهى الملك حسنك لأنه هو الرب إلهك
 وله تسجد ١٣ بنات صور يأتينك بالهدايا ، لوجهك يصلى كل أغنياء الشعب ١٤
 كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى ١٥ ييلفن إلى الملك
 عذارى فى أثرها قريباتها إليك يقدمن ١٦ ييلفن بفرح وابتهاج يدخلن إلى
 هيكل الملك ١٧ ويكون بنوك عوضا من آبائك وتقيمهم رؤساء على سائر
 الأرض ١٨ سأذكر اسمك فى كل جيل وجيل من أجل ذلك تعترف لك الشعوب
 إلى الدهر وإلى دهر الداهرين)

من المسلم عند أهل الكتاب أن داود عليه السلام يبشر فى هذا الزبور
 بنبي يكون ظهوره بعد زمانه ، ولم يظهر إلى هذا الحين عند اليهود نبي يكون
 موصوفا بالصفات المذكورة فى هذا الزبور ، ويدعى علماء يروستنت أن هذا النبي
 عيسى عليه السلام ، ويدعى أهل الإسلام سلفاً وخلفاً أن هذا النبي محمد
 صلى الله عليه وسلم .

فأقول : انه ذكر فى هذا الزبور من صفات النبي المبشر به هذه الصفات :

١ — كونه حسناً ٢ كونه أفضل البشر ٣ كون النعمة منسكبة على شفثيه ٤ كونه مباركا إلى (آخر) الدهر ٥ كونه مثقلاً بالسيف ٦ كونه قويا ٧ كونه ذا حق وودعة وصدق ٨ كون هداية يمينه بالمعجب ٩ كون نبلة مسنونة ١٠ سقوط الشعب تحته ١١ كونه محباً للبر ومبغضاً للآثم ١٢ خدمة بنات الملوك إياه ١٣ إتيان الهدايا إليه ١٤ انقياد كل أغنياء الشعب له ١٥ كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم ١٦ كون اسمه مذكوراً جيلاً بعد جيل ١٧ منح الشعوب إياه إلى دهر الدهارين وهذه الأوصاف كلها توجد في محمد صلى الله عليه وسلم على أكل وجه

أما الأول فلأن أبا هريرة رضى الله عنه قال « مارأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كأن الشمس تجري في وجهه ، وإذا ضحك يتلألأ في الجدار » وعن أم معبد رضى الله عنها قالت : في بعض ما رصفته به « أجمل الناس من بعيد ، وأحلام وأحسنهم من قريب »

وأما الثاني فلأن الله تعالى قال في كلامه المحكم (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) الآية . وقال أهل التفسير : أراد بقوله (ورفع بعضهم درجات) محمداً صلى الله عليه وسلم أى رفعه على سائر الأنبياء من وجوه متعددة ، وقد أشبع الكلام في تفسير هذه الآية الامام الهمام الفخر الرازى في تفسيره الكبير ، وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » أى لا أقول ذلك فخراً لنفسى بل تحديداً بنعمة ربى .

وأما الثالث فغير محتاج إلى البيان حتى أفر بفصاحته الموافق والمخالف وقال الرواة في وصف كلامه : انه كان أصدى الناس لهجة ، فكان من الفصاحة بالحل الأفضل والموضع الأكل .

وأما الرابع : فلأن الله قال (إن الله وملائكته يصلون على النبي) وألوف ألوف من الناس يصلون عليه في الصلوات الخمس (وغيرها)

وأما الخامس : فظاهر ، وقد قال هو بنفسه « أنا رسول الله بالسيف »
وأما السادس : فكانت قوته الجسدية على الكمال كما ثبت ان ركاة خلا برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شعاب مكة قبل أن يسلم فقال « يا ركاة

ألا تنقئ الله وتقبس ما أدعوك اليه ؟ فقال : لو أعلم ما تقول حقاً لا تبعثك فقال : أرايت إن صرعتك أعلم أن ما أقول حق ؟ قال ! نعم ، فلما بطش به صلى الله عليه تعالى عليه وآله وسلم أضجعه لا يملك من أمره شيئاً ، ثم قال : يا محمد فصرعه أيضاً فقال : يا محمد إن ذا لعجب ! فقال ﷺ « وأعجب من ذلك إن شئت أريكه إن اتقيت الله وتبعت أمرى ، قال : ما هو ؟ قال : أدعوك هذه الشجرة » فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم فقال لها : ارجعي مكانك . فرجع ركناة إلى قومه فقال : يا بني عبد مناف ما رأيت اسحر منه ثم أخبرهم بما رأى « وركناة هذا كان من الأقوياء والمصارعين المشهورين ^(١) وأما شجاعته فقد قال ابن عمر رضي الله عنهما : ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله ﷺ . وقال علي رضي الله عنه « وانا كنا إذا حى اليأس واحمرت الحديق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً »

وأما السابع : فلأن الأمانة والصدق من الصفات الجبلية له ﷺ كما قال النضر بن الحارث القرشي « قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم بكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم إنه ساحر ، لا والله ما هو بساحر » وسأل هرقل عن حال النبي ﷺ أبا سفيان فقال : هل كنتم تهملونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا « وأما الثامن : فلأنه رعى يوم بدر ، وكذا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة

(١) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ، قال ابن حبان في اسناد خبره وفي المناصرة نظر : يشير إلى الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي من رواية أبي الحسن المسقلاني عن جعفر بن محمد بن ركناة عن أبيه ... الحديث قال الترمذي : غريب وليس اسناده بقاتم أه أقول : ورواه البيهقي من طريق ابن اسحق عن أبيه وعن ركناة وأخرجه هو وأبو نعيم عن أبي امامة مطولاً وفيه زيادة بحج الشجرة ، وإن ركناة لم يكن يصرعه أحد

تراب فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه ، فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلا وأسرًا ..
فأمثال هذه من عجيب هداية بعينه

وأما التاسع : فلأن كون أولاد اسماعيل أصحاب النبل في سالف الزمان ، غير محتاج إلى البيان ، وكان هذا الأمر مرغوباً له ، وكان يقول « ستفتح عليكم الروم ويكنفكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهم » . ويقول « ارموا بنى اسماعيل فان أباكم كان رامياً » . ويقول عليه السلام « من تعلم الربى ثم تركه فليس منا » .
وأما العاشر : فلأن الناس دخلوا أفواجا أفواجا في دين الله في مهة حياته .
وأما الحادي عشر : فمشهور يعترف به المعاندون أيضاً كما عرفت في المسلك الثاني .
وأما الثاني عشر : فقد صارت بذات السلوك والأمراء خادمة للمسلمين في الطبقة الأولى ، ومنها شهر بنار بنت يزجرد كسرى ، فارس كانت تحت الإمام الهمام الحسين رضى الله عنه

وأما الثالث عشر والرابع عشر : فلأن النجاشي ملك الحبشة ومنذر بن ساوى ملك البحرين وملك عمان انقادوا وأسلموا ، وهرقل قيصر الروم أرسل إليه بهدية ، والمقوقس ملك القبط أرسل إليه ثلاث جوار وغلاماً أسود وبغلة شهباء وحماراً أشهب وفرساً وثيلاً وغيرها

وأما الخامس عشر : فقد وصل من أبناء الإمام الحسن رضى الله عنه إلى الخلافة وألوف في أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وغيرها ، وفازوا بالسلطنة والامارة العالية ، وإلى الآن أيضاً في ديار الحجاز واليمن وفي غيرهما توجد الأمراء والحكام من نسله صلى الله عليه وسلم ، وسيظهر إن شاء الله المهدي رضى الله عنه من نسله . ويكون خليفة الله في الأرض ويكون الدين كله لله في عهده الشريف

وأما السادس عشر والسابع عشر : فلأنه ينادى ألوف ألوف جيلاً بعد جيل في الأوقات الحسة بصوت رفيع في أقاليم مختلفة : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، ويصلى عليه في الأوقات المذكورة غير المحصورين من المصلين ، والقراء يحفظون منشوره ، والمفسرون يفسرون معاني فرقانه ، والوعاظ

يبلغون وعظه ، والعلماء والسلاطين يصلون إلى خدمته ، ويسلمون عليه من وراء الباب ويمسحون وجوههم بتراب روضته ويرجون شفاعته .^(١)

ولا يصدق هذا الخبر في حق عيسى عليه السلام كما يدعيه علماء بروقتنت ادعاء باطلا ، لانهم يشيرون إلى الخبر المندرج في الباب الثالث والخمسين من كتاب أشعيا في حق عيسى عليه السلام ، وهذا نصه : ليس له منظر وجمال ، ورأيتناه ولم يكن له منظر واشتهيناه مهاناً ، وآخر الرجال رجل الأوجاع مختبراً بالأمراض ، وكان مكتوماً وجهه ، ومزدولاً ولم نحسبه ونحن حسبناه كأبرص ومضروباً من الله ومخضوعاً ، والرب شاء أن يسحقه .^(٢)

وهذه الأوصاف ضد الأوصاف التي في الزبور المذكور فلا يصدق عليه كونه حسناً ولا كونه قوياً ، وكذا لا يصدق عليه كونه متقلداً بالسيف ، ولا كون نبلاً مسنوناً ، ولا انقياد الأغنياء له ، ولا إرسالهم إليه الهدايا ، بل هم على زعم النصارى أخذوه وأهانوه واستهزؤا به وضرروه بالسياط ثم صلبوه ، وما كان له زوجة ولا ابن ، فلا يصدق دخول بنات الملوك في بيته ، ولا كون أبنائه بدل آبائه رؤساء الأرض

﴿قائمة﴾ ترجمة الآية الثامنة التي نقلتها مطابقة للترجمة الفارسية للزبور التي كانت عندي ، ولتراجم اردو للزبور وموافقة لنقل مقدسهم بولس لانه نقل هذه الآية في الباب الأول من رسالته المبرانية هكذا ترجمة عربية سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ (أحببت البر وأبغضت الاتم ، لذلك مسحك الله إلهك بدمهن الفرح أفضل من أصحباك) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وتراجم اردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١ مطابقة للتراجم العربية ، فالترجمة التي تكون مخالفة لما نقلت تكون غير صحيحة ، ويكفي ردها إلزاماً كلام مقدسهم ، وقد عرفت في مقدمة الباب الرابع أن إطلاق لفظ الإله والرب وأمثالها جاء على العوام فضلا عن الخواص . والآية السادسة من الزبور الثماني والثمانين هكذا (أنا قلت انكم آلهة وبنو العلى كلمكم) فلا يرد

(١) هذا مما حاربه رسول الله ﷺ وكتبه مصححه .

(٢) ان ترجمة الاميركان الأخيرة وترجمة الجزويت تخالف هذه الترجمة في بعض العبارات كما هو شأنهم في جميع الترجمات ولذلك وضع صاحب إظهار الحق التنبيه الآتي

ما قال صاحب مفتاح الأسرار انه وقع في الآية المذكورة هكذا (أحببت البر وأبغضت الشر من أجل ذلك يا الله مسيح إهلك بدهن البهجة أفضل من رقائك) ولا يقال لشخص غير المسيح يا الله مسيح إهلك الخ ، لانا لانسلم أولاً صحة ترجمته لكونها مخالفة لكلام مقدسهم (وثانياً) لو قطعنا النظر عن عدم صحتها أقول ادعاؤه صريح البطلان لان لفظ الله ههنا بالمعنى المجازى لا الحقيقي ، ويدل عليه قوله إهلك ، لان الإله الحقيقي لا إله له ، فاذا كان بالمعنى المجازى يصدق في حق محمد ﷺ كما يصدق في حق عيسى عليه السلام ^(١) .

(قد حذفنا هنا ٦ بشارات من ٧ - ١٢ للاختصار)

﴿ البشارة الثالثة عشرة ﴾

في الباب الثالث من انجيل متى هكذا (١) وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلا : توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات (وفي الباب الرابع من انجيل متى هكذا (١٢) ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل ... ١٧ من ذلك الزمن ابتدأ يسوع يكرز ويقول : توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات ... ٢٣ وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت) الخ وفي الباب السادس من انجيل متى في بيان الصلاة التي دأبها عيسى عليه السلام تلاميذه هكذا (١٠ - ليأت ملكوتك) ولما أرسل الحواريين إلى البلاد الاسمرأيلية للدعوة والوعظ وصام بوصايا منها هذه الوصية أيضاً (وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات) كما هو مصرح به في الباب العاشر من انجيل متى ، ووقع في الباب التاسع من انجيل لوقا هكذا (١) ودعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم قوة وسلطاناً على جميع الشياطين وشفاء أمراض ٢ وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله وشفوا المرضى (وفي الباب العاشر من انجيل لوقا هكذا (١) وبعد ذلك عين الرب سبعمين آخرين أيضاً وأرسلهم) الخ (فقال لهم) الخ (٨) وأية مدينة دخلتموها وقبلكم فكلموا بما يقيم

لكم (٩) واشفوا المرضى الذين فيها وقولوا لهم : قد اقترب منكم ملكوت الله (١٠) وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى شوارعها وقولوا (١١) حتى الغبار الذى لصق بنامن مدينتكم تنفضه لكم ، ولكن اعلوا هذا أنه قد اقترب منكم ملكوت الله) — فظاهر أن كلام من يحى وعيسى والحواريين والتلاميذ السبعين بشر بملكوت السموات ، وبشر عيسى عليه السلام بالألفاظ التى بشر بها يحى عليه السلام ، فلم أن هذا الملكوت كما لم يظهر فى عهد يحى عليه السلام ، فكذلك لم يظهر فى عهد عيسى عليه السلام ، ولا فى عهد الحواريين والسبعين ، بل كل منهم مبشر به ونخب عن فضله ومترج لحيته ، فلا يكون المراد بملكوت السموات طريقة النجاة التى ظهرت بشرية عيسى عليه السلام ، وإلا لما قال عيسى عليه السلام والحواريون والسبعون : إن ملكوت السموات قد اقترب ، ولما علم التلاميذ أن يقولوا فى الصلاة وليأت ملكوتك ، لأن هذه الطريقة قد ظهرت بعد ادعاء عيسى عليه السلام النبوة بشريعته ، فهو عبارة عن طريقة النجاة التى ظهرت بشرية محمد ﷺ فهو أولاد كانوا يبشرون بهذه الطريقة الجليلة ، ولفظ ملكوت السموات بحسب الظاهر يدل على أن هذا الملكوت يكون فى صورة السلطنة لافى صورة المسكنة ، وأن المحاربة والجدال فيه مع المخالفين يكونان لأجله ، وأن مبنى قوانينه لا بد أن يكون كتابيا سماويا ، وكل من هذه الأمور يصدق على الشريعة المحمدية .

وقول علماء المسيحية : إن المراد بهذا الملكوت شيوع الملة المسيحية فى جميع العالم وإحاطتها بكل الدنيا بعد نزول عيسى عليه السلام . فتأويل ضعيف خلاف الظاهر ، ويرده التمثيلات المنقولة عن عيسى عليه السلام فى الباب الثالث عشر من إنجيل متى مثلا قال (٢٤) يشبه ملكوت السموات إنسانا زرع زرا جيدا فى حقله ...) ثم قال : (٣١) يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله ...) ثم قال (٣٣) يشبه ملكوت السموات خيرة أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاثة أكياس دقيق حتى اختمر الجميع) يشبه ملكوت السموات بانسان زارع لا ينمو الزراعة وحصادها ، وكذلك شبه بحبة خردل لا بصيرورتها شجرة

عظيمة وشبهه بخميرة لا باختر جميع الدقيق . وكذا يرد هذا التأويل قول عيسى عليه السلام بعد بيان التمثيل المنقول في البيان الحادى والعشرين من انجيل متى هكذا (٤٣) لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل أثماره) فان هذا القول يدل على أن المراد بملكوت السموات طريقة النجاة نفسها لاشيوعها في جميع العالم وإحاطتها بكل العالم وإلا لامعنى لنزع الشيع والإحاطة من قوم وإعطائها لقوم آخرين . فالحق أن المراد بهذا الملكوت هى الملكة التى أخبر عنها دانيال عليه السلام في الباب الثانى من كتابه (١) فصدق هذا الملكوت وتلك المملكة نبوة محمد ﷺ والله أعلم وعلمه أتم

﴿ البشارة الرابعة عشرة ﴾

في الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا (٣١ قدم لهم مثلاً آخر قائلاً يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله (٣٢) وهى أصغر جميع البذور، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول، وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتأوى في أغصانها) فملكوت السماء طريقة النجاة ، التى ظهرت بشريعة محمد ﷺ لأنه نشأ في قوم كانوا حقراء عند العالم لكونهم من أهل البوادي غالباً وغير واقفين على العلوم والصناعات ، محرومين من اللذات الجسدية ، والتكلفات الدنيوية ، ولا سيما عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر فبعث الله منهم محمداً ﷺ فكانت شريعته في ابتداء الأمر بمنزلة حبة خردل ، أصغر الشرائع بحسب الظاهر ، لكونها لعمومها نمت في مدة قليلة ، وصارت أكبرها ، وأجاطت شرفاً وغرباً ، حتى إن الذين لم يكونوا مطيعين لشريعة من الشرائع تشبهوا بذييل شريعته

﴿ البشارة الخامسة عشرة ﴾

في الباب العشرين من انجيل متى هكذا (١ فان ملكوت السموات يشبه رجلاً رب بيت خرج مع الصبح لينسأجر فقلة لسكرمه ٢ فاتفق مع العملة

(١) قد بينها المؤلف في البشارة الرابعة عشرة وهى مما حذفناه للاختصار

على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه ٣ ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما في السوق بطالين ٤ فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فأعطيك ما يحق لكم فوضوا ٥ وخرج أيضا نحو الساعة السادسة والتاسعة وقبل كذلك ٦ ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياما بطالين فقال لهم : لماذا قستم ههنا كل النهار بطالين ٧ قالوا له : لأنه لم يستأجرنا أحد . قال لهم : اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم ٨ فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله : ادع الفعلة واعطهم الأجرة مبتدئا من الآخرين إلى الأولين ٩ فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا ديناراً ديناراً ١٠ فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا ديناراً ديناراً ١١ وفيما هم يأخذون تدمروا على رب البيت ١٢ قائمين : هؤلاء الآخرون عملوا ساعة وقد ساءلويتهم فبأنحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر ١٣ فأجاب وقال لواحد منهم : يا صاحب ما ظلمتك أما انفتحت معي على دينار ؟ ١٤ فخذ الذي لك واذهب فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك ١٥ أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بما لي أم عينك شريرة لأنني أنا صالح ١٦ هكذا يكون الآخرون أولين ، والأولون آخرين ، لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون (اهـ) فالآخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يقدمون في الأجر وهم الآخرون الأولون كما قال النبي ﷺ « نحن الآخرون السابقون » ^(١) وقال « إن الجنة حُرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحُرمت على الأمم حتى تدخلها أمي »

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما وفي رواية زيادة بيد أنهم أو توالى الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » الخ وقال ﷺ « مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجرا فقال من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود ، ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ فأتهم ، فغضبت اليهود والنصارى فقالوا ما لنا أكثر عملا وأقل عطاء ؟ قال هل نقصتكم من حقكم (وفي رواية هل ظلمتكم من حقكم » تفسير القرآن الحكيم » ١٨ » الجزء التاسع »

شيثا) قلوا لا . « فذلك فضلى أوتيته من أشاء » رواه البخارى من حديث ابن عمر .

﴿ البشارة السادسة عشر ﴾

في الباب الحادى والعشرين من انجيل متى هكذا (٣٣ سمعوا مثلاً آخر كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبني برجاً وسلمه إلى كرامين وسافر ٣٤ ولما قرب وقت الاتمار أرسل عبده إلى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره ٣٥ فأخذ الكرامون عبده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجعوا بعضاً ٣٦ ثم أرسل أيضاً عبداً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك) ٣٧ (فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً : يهايون ابنى ٣٨ وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم : هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ٣٩ فأخذه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ٤٠ فتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ ٤١ قلوا له أولئك الأردياء يهلككم هلا تاردياء يسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الاتمار فى أوقاتها ٤٢ قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البنائون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب ؟ كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ٤٣ لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل أثماره ٤٤ ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه ٤٥ ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم)

أقول إن رب بيت كناية عن الله ، والكرم كناية عن الشريعة ، وإحاطته بسياج ، وحفر المعصرة فيه ، وبناء البرج كناية عن المحرمات والمباحات والأوامر والنواهي ، وإن الكرامين الطاغين كناية عن اليهود ، كما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون أنه تكلم عليهم ، والعبيد المرسلين كناية عن الأنبياء عليهم السلام والابن كناية عن عيسى عليه السلام — وقد عرفت فى الباب الرابع أنه لا بأس بإطلاق هذا اللفظ عليه ، وقد قتله اليهود أيضاً زعمهم ، والحجر الذى رفضه البنائون كناية عن محمد ﷺ ، والامة التى تعمل أثماره كناية عن أمته ﷺ وهذا هو الحجر الذى كل من سقط عليه ترضض ، وكل من سقط هو عليه سحقه .

وما ادعاه علماء المسيحية بزعمهم : ان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام
فغير صحيح لوجوه

(الاول) أن داود عليه السلام قال في الزبور المائة والثامن عشر هكذا ٢٢ (الحجر
الذي رذله البنائون هو صار للزاوية ٢٣ من قبل الرب كانت هذه وهي عجيبة في أعيننا)
فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى السلام ، وهو من اليهود من آل يهوذا من آل
داود عليه السلام . فأى عجب في أعين اليهود عموماً ليكون عيسى عليه السلام
رأس الزاوية ولا سيما في عين داود عليه السلام ، خصوصاً لأن مزعوم المسيحيين
أن داود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام في مزاميره تعظيماً بليغاً ويعتقه
الألوهية في حقه : بخلاف آل إسماعيل ، فإن اليهود كانوا يحترقون أولاد إسماعيل
غاية التحقير فكان كون أحد منهم رأساً للزاوية عجيبة في أعينهم

(والثاني) أنه وقع في وصف هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر ترضض
وكل من سقط هو عليه سحقه . ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام
لأنه قال : (وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدنيه ، لأنني لم آت لأدين العالم
بل لأخلص العالم) كما هو في الباب الثاني عشر من إنجيل يوحنا . وصدقه على محمد
ﷺ غير محتاج إلى البيان ، لأنه كان مأموراً بتنبئيه ^(١) الفجار الاشرار فإن
سقطوا عليه ترضضوا ، وإن سقط هو عليهم سحقتهم

(الثالث) قال النبي ﷺ « مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن
بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف بها النظاريتم عجبون من حسن بنيانه إلا
موضع تلك اللبنة ختم في البنيان وختم في الرسل » ^(٢) ولما ثبتت نبوته بالأدلة
الآخري ، كما ذكرنا نبتاً منها في المسالك السابقة فلا بأس بأن استدلل في هذه
للإشارة بقوله أيضاً

(الرابع) أن المتبادر من كلام المسيح أن هذا الحجر غير الابن

(١) لو قال بتأديب أو كبح أو زجر الفجار لسكان أظهر (٢) الحديث رواه
الشيخان عن جابر وأبي هريرة قال الثاني « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل
بنى بيئاً (وفي رواية بنياناً) فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون
به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »

﴿ البشارة السابعة عشر ﴾

في الباب الثاني من المشاهدات هكذا (٢٦) ومن يقرب ويحفظ أعمال إلى
 النهاية فسأعطيه سلطاناً على الأمم ٢٧ فبرعام بقضيب من حديد كما تكبير
 آنية من خزف كما أخذت أيضاً من عند أبي ٢٨ وأعطيه كوكب الصبح
 ٢٩ من له أذن فليسمع مايقول الروح بالكنائس) فهذا الغالب الذي أعطى
 سلطاناً على الأمم وبرعام بقضيب من حديد هو عهد وَاللَّهُ ، كما قال الله في حقه
 (وينصرك الله نصراً عزيزاً) وقد سماه سطيع الكاهن صاحب الهراوة - روى
 أنه ليلة ولادته وَاللَّهُ انشق إيوان كسرى أنوشروان ، وسقط منه أربع عشرة شرفة
 وحدثت تار فارس ولم تحمد قبل ذلك بألف عام ، وغارت بحيرة ساوة بحيث صارت
 يابسة : وروى المؤيدان في تومعه أن إبلا صامياً تقود جيلاً عراباً فقطعت دجاجة
 وأتت شرفاً من طرازات الشام ، وكسرى من حدوث هذه الامور وأرسل عبد المسيح
 إلى سلاطين شكناف الذي قال في كتابه : وَاللَّهُ عبد المسيح إليه وجده في سكرات
 الموت فذبحه وَاللَّهُ ، إذ كثرت التلاوة ، وظهر صاحب
 الهراوة وفاحش بؤرة صارت وَاللَّهُ ، فليست بابل للفرس مقاماً ، ولا
 إلى نام كسرى : وَاللَّهُ ، على عدد الشرفات ، ونقل
 بامورهم ، وَاللَّهُ ، ورجع عبد المسيح فأخبر أنوشروان
 بذلك وَاللَّهُ : إلى ان يملك أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأموار ،
 فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقيون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه
 فهلك آخرهم يوسف في خلافة ، والهراوة بكسر الهاء العصا الضخمة : وكوكب
 الصبح عبارة عن القرآن ، قال الله في سورة النساء (وأنزلنا اليكم تورا مبيناً)
 وقال في سورة الشعراء (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا)

قال صاحب صولة الضيغم بعد نقل هذه البشارة : قلت للقسيسين وبيت
 بوليم عند المناظرة : إن صاحب هذا القضيب من حديد عهد وَاللَّهُ

فاضطر باسماع هذا الأمر وقالوا : إن عيسى عليه السلام حكم بهذا الكنيسة ثباتاً ، فلا بد أن يكون ظهور مثل هذا الشخص هناك ، ومحمد ﷺ مراح هناك ، قلت : هذه الكنيسة في أية ناحية كانت ؟ فرجوا إلى كتب اللغة وقالوا : كانت في أرض الروم قريبة من اسسنابول ، قلت : راح أصحاب مجد ﷺ في خلافة الفاروق الأعظم عمر رضى الله عنه إلى هذه البلاد وفتحوها وبعد الصحابة رضى الله عنهم كان المسلمون أيضاً متسلطين عليها في أكثر الأوقات ثم تسلط عليها سلاطين آل عثمان أدام الله سلطنتهم من مدة مديدة ، وهم متسلطون إلى هذا الحين . فهذا الخبر صريح في حق مجد ﷺ انتهى كلامه

قلت : إن الفاضل عباس علي الجاجوى الهندي صنف أولاً كتاباً كبيراً في الرد على أهل التثليث سماه (صولة الضيفم على أعداء ابن مريم) ثم ناظره رحمه الله ويت ووليم القسيسين في بلد كانفور من بلاد الهند وأزعموا ثم اختصر كتابه وسمى المختصر (خلاصة صولة الضيفم) ومناظرته كانت قبل أن أناظر صاحب ميزان الحق في أكبر آباد بمقدار اثنتين وعشرين سنة

﴿ البشارة الثامنة عشرة ﴾

هذه البشارة واقعة في آخر أبواب الإنجيل يوحنا وأنا انقلبت عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ في بلدة لندن فأقول : في الباب الرابع عشر من الإنجيل يوحنا هكذا (١٥) ان كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ١٦ وأنا أطلب من الأب فيعطيك فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد ١٧ روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندهم وهو ثابت فيكم ٢٦ والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم ٣٠ والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون) وفي الباب الخامس عشر من الإنجيل يوحنا هكذا (٢٦) فاما إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب يثبت فيكم فهو يشهد لأجلي ٣٧ وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء) وفي الباب السادس عشر من الإنجيل يوحنا هكذا (٧) لكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن

أنطلق لأنى ان لم انطلق لم يأتكم الفار قليط فاما إن انطلقت أرسلته اليكم
 ٨ فإذا جاء ذاك يوبخ العالم على خطيئة على يرو على حكم (* ٩ أما على الخطيئة فلا تهم
 لم يؤمنوا بي ١٠ وأما على اثبر ، فلا فى منطلق إلى الأب ، ولستم تروننى بعد ١١
 وأما على الحكم فان أكون (رئيس) هذا العالم قد دين ١٢ وان لى كلاما كثيرا
 أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن ١٣ وإذا جاء روح الحق ذاك فهو
 يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يشكلم بكل ما يسمع ويخبركم
 بما سياتى ١٤ وهو معجذنى لأنه يأخذ مما هو لى ويخبركم ١٥ جميع ما هو للأب
 فولى فن أجل هذا قلت إن ما هو لى يأخذ ويخبركم)

وأنا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمرين (الأمر الأول)
 أنك قد عرفت فى الأمر السابع أن أهل الكتاب سلفا وخلفا عاداتهم أن يترجموا
 غالبا الأسماء (أى الأعلام) وأن عيسى عليه السلام كان يشكلم باللسان العبرانى
 لا باليونانى فإذا لا يبقى شك فى أن الانجيلي الرابع ترجم اسم المبشر به باليونانى
 بحسب عاداتهم ثم مترجموا العربية عربوا اللفظ اليونانى بفار قليط وقد وصلت
 إلى رسالة صغيرة بلسان أردو من رسائل القسيسين فى سنة ألف ومائتين وثمانية
 وستين من الهجرة وكانت هذه الرسائل طبعت فى كلكتة وكانت فى تحقيق لفظ
 (فار قليط) وادعى مؤلفها أن مقصوده أن يبين المسألة على سبب وقوعهم فى
 الغلط من لفظ فار قليط وكان ملخص كلامه أن هذا اللفظ معرب من اللفظ
 اليونانى « فان قلنا إن هذا اللفظ اليونانى الأصل باراكلى طوس فيكون معنى
 المعزى والمعين والوكيل وان قلنا أن اللفظ الأصل بير كاوطوس يكون قريبا من
 معنى محمد وأحمد ، فمن استدل من علماء الإسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصل
 بير كاوطوس ومعناه قريب من معنى محمد وأحمد فادعى أن عيسى عليه السلام
 أخبر بمحمد أو أحمد لكن الصحيح أنه باراكلى طوس » انتهى ما خصا من كلامه
 (يقول مجد رشيد مؤلف هذا التفسير) اننى اوضح هنا ما كتبه الشيخ

رحمة الله بكلمة لكثور محمد توفيق صدق أوردتها في هذا المقام في كتابه (دين الله في كتب أنبيائه) قال رحمه الله :

هذا اللفظ (الفارقليط) يوناني ويكتب بالانكليزية هكذا (Paraclete) بارقليط أي (المعزي) ويتضمن أيضاً معنى الحاج كما قال بوست في قاموسه، وهناك لفظ آخر يكتب هكذا (Periclite) ومعناه رفيع المقام سام . جليل . مجيد . شهير . وهي كلها معان تقرب من معنى محمد واحمد ومحمود .

ولا يخفى أن المسيح كان يتكلم بالعبرية فلا ندرى ماذا كان اللفظ الذي نطق به عليه السلام ؟ ولا ندرى إن كانت ترجمة . وُلّف هذا الانجيل له بلفظ (Paraclete) صحيحة أو خطأ ؟ ولا ندرى إن كان هذا اللفظ (Paraclete) هو الذي ترجم به من قبل أم لا ؟ لأننا نعلم أن كثيراً من الألفاظ والعبارات وقع فيها التحريف من الكتاب سهواً أو قصداً ، كما اعترفوا به في جميع كتب المهددين (راجع الفصل الثالث) فإذا كان اللفظ الأصلي (Periclite) بيرقليط فلا يبعد أنه تحريف عمداً أو سهواً إلى (Paraclete) بارقليط حتى يبعدوه عن معنى اسم النبي ﷺ ، ومما يسهل عليهم ذلك تشابه أحرف هذه الكلمة في اللغة اليونانية .

وعلى كل حال فسواء كان هو (Paraclete) بارقليط أو (Periclite) بيرقليط ، فعنى كل منهما ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم فهو معز المؤمنين على عدم إيمان الكافرين ، وعلى عدم وجود الشرف في هذا العالم بإيضاح أن هذه هي إرادة الله لحكمة يعلمها هو ، ومعز أيضاً للمصابين والمرضى والفقراء وغيرهم بمقيدة البعث والقيامة ، وهو صلى الله عليه وسلم كان يحاج الكفار والمشركين وغيرهم (إذا كان معناها الحاج المجادل ^(١) كما قال بوست) وهو شهير سام جليل مجيد إذا كان اللفظ الأصلي (بيرقليط) والعبارات الواردة في انجيل يوحنا في هذه المسألة لا تنطبق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم كما بين ذلك صاحب كتاب إظهار الحق ومؤلف كتاب (فتح الملك العلام في بشار دين الإسلام) وكما أشرنا إلى ذلك في

صفحة ٨٢ من هذا الكتاب ا ه ونعود إلى سياق صاحب اظهار الحق الشيخ زحمة الله ، قال رحمه الله :

وأقول : ان التفاوت بين اللفظين يسير جدا وان الحروف اليونانية كانت متشابهة ، فتبدل بيروكوطوس بباراكليطوس في بعض النسخ من المكاتيب قريب القيباس . ثم رجح أهل التثليث المنكرين هذه النسخة على النسخ الآخر ، ومن تأمل في الباب الثاني من هذا الكتاب والأمر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الانصاف اعتقد يقينا بأن مثل هذا الأمر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس ببعيد بل لا يبعد أن يكون من المحسنات .

(والأمر الثاني) أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد ﷺ أنهم مصاديق لفظ فارقليط مثلا منتسب المسيحي الذي كان في القرن الثاني من الميلاد وكان مرتاضا شديدا لارتياض وأتقى أهل عهده : ادعى في قرب سنة ١٧٧ من الميلاد في آسيا الصغرى الرسالة وقال : إني الفارقليط الذي وعد بعجيبته عيسى عليه السلام ، وتبعه اناس كثيرون في ذلك كما هو مذكور في بعض التواريخ وذكر ولهم ميور حاله وحال متبعيه في القسم الثاني من الباب الثالث من تاريخه بلسان اردو المطبوع سنة ١٨٤٨ من الميلاد هكذا : أن البعض قالوا انه ادعى أنه الفارقليط يعني المعزى روح القدس ، وهو كان اتقى (؟) ومرتاضا شديدا (؟) ولأجل ذلك قبله الناس قبولاً رائداً ، انتهى كلامه .

فعلم أن انتظار الفارقليط كان في القرون الأولى المسيحية أيضاً ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصاديقه ، وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم — وقال صاحب لب التواريخ : إن اليهود والمسيحيين من معاصري محمد صلى الله عليه وسلم كانوا منتظرين لنبي ، فحصل الحمد من هذا الأمر نفع عظيم لأنه ادعى انه هو ذاك المنتظر ، انتهى ملخص كلامه — فيعلم من كلامه أيضاً أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبي في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الحق ، لان التجاشي ملك الحبشة لما وصل إليه كتاب محمد صلى الله عليه وسلم قال : أشهد بالله أنه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وكتب الجواب وكتب في الجواب : أشهد أنك

رسول الله صادقاً ومصداقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك — أى جعفر بن أبى طالب — وأسست على يديه لله رب العالمين اه وهذا النجاشى كان قبل الاسلام نصرانياً وكتب المقوقس ملك القبط فى جواب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم هكذا : إلى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبياً قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك اه والمقوقس هذا وإن لم يسلم لسكنه أقر فى كتابه : أنى قد علمت أن نبياً قد بقى . وكان نصرانياً فهذان الملكان ما كانا يخافان فى ذلك الوقت من محمد صلى الله عليه وسلم لأجل شوكته الدنياوية .

وجاء الجارود بن الملا فى قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : والله لقد جئت بالحق ، ونطقت بالصدق ، والذى بعثك بالحق نبياً لقد وجدت وصفك فى الانجيل ، وبشرك ابن البتول ، فطول التحية لك ، والشكر لمن أكرمك ، لا أثر بعد عين ، ولا شك بعد يقين ، مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت محمد رسول الله . ثم آمن قومه وهذا الجارود كان من علماء النصارى وقد أقر بأنه قد بشر به ابن البتول أى عيسى عليه السلام ، فظهر أن المسيحيين أيضاً كانوا منتظرين لخروج نبي بشر به عيسى عليه السلام .

فإذا علمت ذلك فأقول : إن اللفظ العبرانى الذى قاله عيسى عليه السلام مفعول واللفظ اليونانى الموجود ترجمة ، لكنى أترك البحث عن الأصل واتكلم على هذا اللفظ اليونانى فأقول : إن كان اللفظ اليونانى الأصل بيركلوطوس ، فالأمر ظاهر وتكون إشارة المسيح فى حق محمد صلى الله عليه وسلم بلفظ هو قريب من محمد واحمد وهذا وإن كان قريب القياس بالنظر إلى عاداتهم لكنى أترك هذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم الزاماً وأقول إن كان اللفظ اليونانى الأصل بارا كلى طوس كما يدعون فهذا لا ينافى الاستدلال أيضاً لأن معناه المعزى والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة أو الشافع كما يوجد فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وهذه المعنى كلها تصدق على محمد ﷺ

وأنا أبين الآن أولاً أن المراد بالفارقليط النبي المبشر به أعنى محمداً صلى الله

عليه وسلم لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذي جاء ذكره في الباب الثاني من كتاب الأعمال ، واذكر ثانياً شبهات علماء المسيحية وأجيب عنها فأقول : أما الأول فيدل عليه أمور .

(١) إن عيسى عليه السلام قال أولاً (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي) ثم أخبر عن الفارقليط فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بأن ما يلقي عليهم بعد ضروري واجب الرعاية فلو كان الفارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة إلى هذه الفقرة لأنه ما كان مظهرنا أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لأنهم كانوا مستعفيين منه من قبل أيضاً بل لا مجال للاستبعاد أيضاً لأنه إذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لا محالة ظهوراً بيناً فلا يتصور انكار المتأثر منه وليس ظهوره عندهم في صورة يكون فيه مظنة يكون الاستبعاد^(١) فهو عبارة عن النبي المبشر به حقيقة الأمر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وبنور النبوة أن الكثيرين من أمته ينكرون النبي المبشر به عند ظهوره أكدوا أولاً بهذه الفقرة ثم أخبر عن مجيئه .

(٢) إن هذا الروح متحد بالأب مطلقاً وبالابن نظراً إلى لاهوته اتحاداً حقيقياً فلا يصدق في حقه (فارقليط آخر) بخلاف النبي المبشر به فإنه يصدق هذا القول في حقه بلا تكلف .

(٣) أن الوكالة والشفاعاة من خواص النبوة لا من خواص هذا الروح المتحد بالله فلا يصدقان على الروح ويصدقان على النبي المبشر به بلا تكلف .

(٤) أن عيسى عليه السلام قال (هو يذكركم كل ما قلته لكم) ولم يثبت في رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم إياه .

(٥) أن عيسى عليه السلام قال (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون) أن يوجد) حتى إذا كان — أي وجد وبعث — تؤمنون) وهذا يدل على أن المراد

(١) هذه العبارة لا تفهم لركائنها وفسادها وأقرب ما يفهم منها بالقرينة أنه ليس ظهوره عندهم في صورة المظنة يقتضي الاستبعاد

به ليس الروح لأنك قد عرفت في الأمر الأول أنه ما كان عدم الإيمان مظنوناً منهم وقت نزوله بل لا مجال للاستبعاد أيضاً، فلا حاجة إلى هذا القول، وليس من شأن الحكيم العاقل أن يتكلم بكلام فضول، فضلاً عن شأن النبي العظيم الشأن، فلو أوردنا به النبي المبشر به يكون هذا الكلام في محله، وفي غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية .

(٦) إن عيسى عليه السلام قال (هو يشهد لأجلي) وهذا الروح ماشهد لأجله بين أيدي أحد لأن تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين إلى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضاً فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمنكرون هم الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح ماشهد بين أيديهم بخلاف محمد ﷺ فإنه شهد لأجل المسيح عليه السلام وصدقه وبرأه عن إدعاء الألوهية الذي هو أشد أنواع الكفر والضلال . وبرأ أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر برأتهما في القرآن في مواضع متعددة وفي الأحاديث في مواضع غير محصورة .

(٧) إن عيسى عليه السلام (قال وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء) وهذه الآية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هـ كذا) وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم كنتم معي من الابتداء) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هـ كذا) (وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء) فيوجد في هذه التراجم الثلاث لفظ أيضاً وكذا يوجد في التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وفي ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ ترجمة لفظ أيضاً فلفظ أيضاً سقط من التراجم التي نقلت عنها عبارة يوحنا سهواً أو قصداً فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحوارين غير شهادة الفار قليط : فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار لم توجد مغايرة بين الشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحوارين بل شهادة الحوارين هي شهادته بعينها لأن هذا الروح مع كونه إلهاماً تحنّ أب الله اتخذ حقيقة يابرياً من النزول والحلول والاستقرار والشكل التي هي من عوارض الجسم والجسمانيات نزل مثل ريح عاصفة وظهر في أشكال السنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم يوم الدار فكان حالهم كحال من عليه أثر الجن ، فكما أن قول الجن يكون قوله في تلك

الحالة فكذلك كانت شهادة الروح هي شهادة الحواريين فلا يصح هذا القول بخلاف ما إذا كان المراد به النبي المبشر به فان شهادته غير شهادة الحواريين .

(٨) إن عيسى عليه السلام قال : إن لم انطلق لم يأتكم الفارقليط فأما ان انطلقت أرسلته اليكم فعلق مجيئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين في حضوره لما أرسلهم إلى البلاد الاسرائيلية فنزوله ليس بشروط ذهابه فلا يكون مردا بالفارقليط ، بل المراد به شخص لم يستفص منه أحد من الحواريين قبل زمان صعوده وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ كان كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام لأن وجود رسولين ذوي شريعتين مستقلتين في زمان واحد غير جائز بخلاف ما إذا كان الآخر متبعا لشريعة الأول أو يكون كل من الرسل متبعا لشريعة واحدة لأنه يجوز في هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر في زمان واحد ومكان واحد كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

(٩) إن عيسى عليه السلام قال (يوحنا العالم) فهذا القول بمنزلة النهي الجلي لمحمد ﷺ لأنه و يوحنا العالم سيما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى عليه السلام توبيخا لا إشك فيه إلا معانيد بحت ، ومسيكون ابنه الرشيد محمد المهدي رفيقا لعيسى عليه السلام في زمان قتل الدجال الأعور ومتابعيه ، بخلاف الروح النازل يوم الدار فإن توبيخه لا يصح على أصول أحد وما كان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزوله أيضا لأنهم كانوا يدعون إلى الله بالترغيب والوعظ وما قال رانكين في كتابه المسمى بدافع البهتان الذي هو بلسان اردو في رده على خلاصة (صولة الضيفم) إن لفظ التوبيخ لا يوجد في الإنجيل ولا في ترجمة من تراجم الإنجيل وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على عهد صدقا بيننا لأجل أن محمدا ﷺ و يوحنا وهدد كثيرا إلا أن مثل هذا التغليب ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله انتهى كلامه فردود وهذا القسيس إما جاهل غلط أو مغالط ليس له إيمان ولا خوف من الله ، لأن هذا اللفظ يوجد في التراجم العربية المذكورة التي نقلت عنها عبارة يوحنا وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٧١ في رومية العظمى وعبارة الترجمة العربية

المطبوعة في بيروت سنة ١٨٦٠ هكذا (ومضى جاء ذلك بيكت العالم على خطية الخ وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ وفي التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ يوجد لفظ الالتزام. ولفظ التبيكت والالزام أيضاً فربان من التوبيخ لكن لا شكاية منه لأن مثل هذا الأمر من عادات علماء بروستنت ولذا ترى أن مترجمي الفارسية واردو تركوا لفظ فار قليط لشهرته عند المسلمين في حق محمد ﷺ ومترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ فاق أسلافه هؤلاء أيضاً حيث أرجع إلى الروح ضمائر المؤنث ليحصل الاشتباه للعوام أن مصداق هذا اللفظ (أى مدلوله) مؤنث وليس عندك

(١٠) قال عيسى عليه السلام (أما على الخطية فلاأنهم لم يؤمنوا بي) وهذا يدل على أن الفار قليط يكون ظاهراً على منكرى عيسى عليه السلام مو بمخالفهم على عدم الإيمان به والروح النازل يوم الدار ما كان ظاهراً على الناس مو بمخالفهم

(١١) قال عيسى عليه السلام (إن لى كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن) وهذا يناق إرادة الروح النازل يوم الدار لأنه ما زاد حكماً على أحكام عيسى عليه السلام فانه على زعم أهل التثليث كان أمر الحوار بين بمقيدة التثليث و بدعوة أهل العالم كله فاقى أمر حصل لهم أزيد من أقواله التي قالها إلى زمان صعوده. نعم إنهم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة التي هي ماعدا بعض الأحكام العشرة المذكورة في الباب العشرين من سفر الخروج وحلوا جميع المحرمات وهذا الأمر لا يجوز في شأنه أن يقال إنهم ما كانوا يستطيعون حمله لأنهم استطاعوا حل سقوط حكم تعظيم السبت الذي هو أعظم أحكام التوراة وكان اليهود ينكرون كون عيسى عليه السلام مسيحاً موعوداً به لأجل عدم مراعاته هذا الحكم فقبول سقوط جميع الأحكام كان أهون عندهم، نعم قبول زيادة الأحكام لأجل ضعف الإيمان وضعف القوة إلى زمان صعوده كما يعترف به علماء بروستنت كان خارجاً عن استطاعتهم فظهر أن المراد بالفار قليط نبي تزداد في شريعته أحكاماً ويثقل حملها على المكلفين الضعفاء وهو محمد صلى الله عليه وسلم

بالنسبة إلى الشريعة العيسوية *

(١٢) إن عيسى عليه السلام قال : ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، وهذا يدل على أن الفارقليط يكون بحيث يكذبه بنو إسرائيل ، فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول ، ولا مجال لمظنة التكذيب في حق الروح النازل يوم الدار ، على أن هذا الروح عندهم عين الله ، فلامعنى لقوله : بل يتكلم بما يسمع ، فصداقه محمد ﷺ فإنه كان في حقه مظنة التكذيب ، وليس هو عين الله ، وكان يتكلم بما يوحى إليه كما قال الله تعالى (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى) وقال (إن أتبع إلا ما يوحى إلى)

(١٣) إن عيسى عليه السلام قال : انه يأخذ مما هو لى ، وهذا لا يصدق على الروح لأنه عند أهل التشليث قديم وغير مخلوق ، وقادر مطلق ، ليس له كمال منتظر ، بل كمال من كماله حاصل له بالفعل ، فلا بد أن يكون الموعود به من الجنس الذى يكون له كمال منتظر . ولما كان هذا الكلام موهماً أن يكون هذا النبي متبعاً لشريعته دقعه بقوله فيما بعد (جميع ما للاب فهو لى فلاجل هذا قلت مما هو لى يأخذ) يعنى ان كل شىء يحصل للفارقليط من الله فكانه يحصل منى -- كما اشتهر : من كان لله كان الله له -- فلاجل هذا قلت : ان مما هو لى يأخذ

وأما الثانى أعني الشبهات التى توردها علماء بروتستنت الخمسة

(الشبهة الأولى) جاء فى هذه العبارة تفسير الفارقليط بروح القدس ، وروح الحق ، وهما عبارتان عن الاقنوم الثالث ، فكيف يصح أن يراد بالفارقليط محمد ﷺ ؟

أقول فى الجواب : ان صاحب ميزان الحق يدعى فى تأليفاته كون ألقاظ روح الله ، وروح القدس ، وروح الحق ، وروح الصديق ، وروح فم الله ، بمعنى واحد . قال فى الفصل الأول من الباب الثانى من مفتاح الأسرار فى الصفحة ٥٣

(*) الأظهر المختار عندنا ان أهل عصر عيسى عليه السلام لم يكونوا يستطيعون حمل شريعة خاتم النبيين ﷺ لفقد الاستعداد لها وهو استقلال الفكر والحكم والإرادة . ان حبها الله تعالى للأمة العربية فى زمن البعثة المحمدية

من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٥٠ : ان لفظ روح الله ، ولفظ روح القدس في التوراة والإنجيل بمعنى واحد انتهى . فادعى أن هذين اللفظين يستعملان بمعنى واحد في العهدين — وقال في حل الاشكال ، في جواب كشف الأستار : من له الملم ما بالتوراة والإنجيل فهو يعرف ان ألفاظ روح القدس وروح الحق وروح قم الله وغيرها بمعنى روح الله ، فلذلك مارأيت اثبانه ضروريا انتهى

فاذا عرفت هذا نقول فنحن نقطع النظر عن صحة ادعائه وعدم صحته ههنا ونسلم ترادف هذه الألفاظ على زعمه ، لكننا ننكر أن استعمالها في كل موضع من مواضع العهدين بمعنى الألقوم الثالث ، ونقول قولاً مطابقاً لقوله من له شعور ما يكتب العهدين يعرف ان هذه الألفاظ تستعمل في غير الألقوم الثالث كثيراً ففي الآية الرابعة عشرة من الباب السابع والثلاثين من كتاب حزقيال قول الله تعالى في خطاب ألوف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حزقيال عليه السلام هكذا : (فأجعل فيكم روحى) ففي هذا القول روح الله بمعنى النفس الناطقة الانسانية لا بمعنى الألقوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم — وفي الباب الرابع من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا ترجمة عربية سنة ١٧٦٠ (١) أيها الأحباء لاتصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله ؟ لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا إلى العالم بهذا تعرفون روح الله : كل روح يترف يسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله ٦٠٠ نحن من الله فن يعرف الله يسمع لنا ، ومن ليس من الله لا يسمع لنا من هذا تعرف روح الحق وروح الضلال) وهذه الجملة الواقعة في الآية الثانية (بهذا تعرفون روح الله) وفي التراجم العربية الأخر سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (بهذا يعرف روح الله) وفي ترجمة سنة ١٨٢٤ (فانكم تميزون روح الله) ولفظ روح الله في الآية الثانية ، ولفظ روح في الآية السادسة بمعنى الواعظ الحق لا بمعنى الألقوم الثالث : ولذلك ترجم مترجم ترجمة أرود المطبوعة سنة ١٨٤٥ لفظ كل روح بكل واعظ ، ولفظ الأرواح بالواعظين في الآية الأولى ، ولفظ روح في الآية الثانية بالواعظ من جانب الله . ولفظ روح الحق في الآية السادسة بالواعظ الصادق . وترجم لفظ روح الضلال

بالواعظ المضل ، وليس المراد بروح الله وروح الحق الاقنوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم ، وهو ظاهر . فتفسير الفارقليط بروح القدس وروح الحق لا يضرنا لانهما بمعنى الواعظ الحق ، كما ان لفظ روح الحق روح الله بهذا المعنى فى الرسالة الأولى ليوحنا ، فيصح اطلاقهما على محمد ﷺ بلا ريب

(الشبهة الثانية) ان المخاطبين بضمير « كم » الحواريون ، فلا بد أن يظهر الفارقليط فى عهدهم ، ومحمد ﷺ لم يظهر فى عهدهم .

(أقول) هذا أيضا ليس بشئ ، لأن منشأ ان الحاضرين وقت الخطاب لا بد أن يكونوا مرادين بضمير الخطاب ، وهو ليس بضرورى فى كل موضع . ألا ترى أن قول عيسى عليه السلام فى الآية الرابعة والستين من الباب السادس والعشرين من انجيل متى فى خطاب رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع هـ كذا . (وأيضاً أقول) لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالساً على يمين القوة وآتياً على سحاب السماء) وهؤلاء المخاطبون قد ماتوا : ومضت على موتهم مدة هى أزيد من ألف وثمانمائة سنة ، ومارأوه آتياً على سحاب السماء ، فكما ان المراد بالمخاطبين ههنا الموجودون من قومهم وقت نزوله من السماء ، فكذلك فيما نحن فيه المراد الذين يوجدون وقت ظهور الفارقليط .

(الشبهة الثالثة) أنه وقع فى حق الفارقليط ان العالم لا يراه ولا يعرفه وأنه تعرفونه ، وهو لا يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الناس رأوه وعرفوه أقول : هذا أيضا ليس بشئ ، وهم أحوج الناس تأويلاً فى هذا القول بالنسبة إلينا ، لأن روح القدس عين الله عندهم ، والعالم يعرف الله أكثر من معرفة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن نقول : ان المراد بالمعرفة المعرفة الحقيقية الكاملة . ففى صورة التأويل الاشتباه فى صدق هذا القول على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون المقصود ان العالم لا يعرفه معرفة حقيقية كاملة ، وأنتم تعرفونه معرفة حقيقية كاملة . والمراد بالرؤية المعرفة ، ولذا لم يعد عيسى عليه السلام لفظ الرؤية بعد لفظ أنتم ، بل قال : وأنتم تعرفونه ، ولو حملنا الرؤية على الرؤية البصرية يكون نفى الرؤية محمولاً على ما هو المراد فى قول الانجيل الأولى فى الباب

الثالث عشر من إنجيله . وأقل عبارته عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ (١٣) فلذلك أضرب لكم الأمثال لأنهم ينظرون ولا يبصرون ، ويسمعون ولا يستمعون ولا يفهمون (١٤) وقد كل فيهم تنبؤ أشعيا حيث قال : إنكم تستمعون سمعاً ولا تفهمون ، وتنظرون نظراً ولا تبصرون) فلا اشكال أيضاً

وأمثال هذين الأمرين وإن كانت معاني مجازية لكنها بمنزلة الحقيقة العرفية ووقعت في كلام عيسى عليه السلام كثيراً ، ففي الآية السابعة والعشرين من الباب الحادي عشر من الإنجيل متى هكذا (وليس أحد يعرف الابن إلا الأب ولا أحد يعرف الأب إلا الابن ، ومن أراد الابن أن يعلن له) وفي الآية الثامنة والعشرين من الباب السابع من الإنجيل يوحنا هكذا (الذي أرسلني حق الذي أنتم لستم تعرفونه) وفي الباب الثامن من الإنجيل يوحنا هكذا (١٩) لستم تعرفوني أنا ولا أبي لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً ٥٥ ولستم تعرفونه أي الله الخ) وفي الآية الخامسة والعشرين من الباب السابع عشر من الإنجيل يوحنا هكذا (أيها الأب إن العالم لم يعرفك ، أما أنا فعرفتك) في الباب الرابع عشر من الإنجيل يوحنا هكذا (٧) لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً ، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه ٨ قال له : فيلبس بإسيد أرنا الأب وكفانا ٩ قال له يسوع : أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس الذي رأي قد رأي الأب ، فكيف تقول أنت أرنا الأب ؟ فلما أراد بالمعرفة في هذه الأقوال المعرفة الكاملة ، وبالرؤية المعرفة : وإلا لا تصح هذه الأقوال يقيناً ، لأن العوام من الناس كانوا يعرفون عيسى عليه السلام فضلاً عن رؤساء اليهود والكهنة والمشايع والحواريين ورؤية الله بالبصر في هذا العالم ممتنعة عن أهل التشليث أيضاً

(الشبهة الرابعة) أنه وقع في حق الفارقليط (أنه مقيم عندكم وثابت فيكم) ويظهر من هذا القول أن الفارقليط كان في وقت الخطاب مقبلاً عند الحواريين وثابتاً فيهم ، فكيف يصدق على محمد ﷺ

أقول : إن هذا القول في التراجم الأخرى هكذا في الترجمة العربية سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ (لانه مستقر معكم وسيكون فيكم) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة

١٨١٦ سنة ١٨٢٨ سنة ١٨٤١ سنة وترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ سنة ١٨٣٩
كلها مطابقة لهاتين الترجمتين ، وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا :
(ماكن معكم ويكون فيكم) فظهر أن المراد بقوله ثابت فيكم الثبوت الاستقبالي
يقينا فلا اعتراض به بوجه من الوجوه ، وبقي قوله مقيم عنكم

فأقول : لا يصح حمل هذا القول على معنى هو مقيم عنكم الآن لانه لا ينافي
قوله (أنا أطلب من الأب فيعطيك فارقليط آخر) وقوله (قد قلت لكم قبل أن
يكون حتى إذا كان تؤمنون . وقوله . إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط) وإذا أول قول
انه بمعنى الاستقبال كما أن القول الذي بعده بمعنى الاستقبال ومعناه يكون مقيما
عندكم في الاستقبال ، فلا خدشة في صدقه على محمد ﷺ والتعبير عن الاستقبال
بالحال بل بالماضي في الأمور المتبينة كثير في المصنفين — ألا ترى أن حزقيال عليه
السلام أخبر أولا عن خروج يأجوج ومأجوج في الزمان المستقبل وإدراكهم حين
وصولهم الى جبال اسرائيل . ثم قال في الآية الثامنة من الباب التاسع والثلاثين
من كتابه هكذا (ها هو جاء وصاريقول الرب الاله هذا هو اليوم الذي قلت به)
فانظروا الى قوله ها هو جاء وصار — وهذا القول في الترجمة الفارسية المطبوعة
سنة ١٨٣٩ هكذا (اينك رسيد وبقوع بيوست) فمير عن الحال المستقبل بالماضي
لكونه يقينا لا شك فيه ، وقد مضت مدة أزيد من ألفين وأربعمائة وخمسين
سنة ، ولم يظهر خروجهم — وفي الآية الخامسة والعشرين من الباب الخامس من
إنجيل يوحنا هكذا (الحق أقول لكم أنه تأتي ساعة ، وهي الآن حين يسمع
الاموات صوت ابن الله والسامعون يحيون) فانظروا إلى قوله وهي الآن ، وقد
مضت مدة أزيد من ألف وثمانمائة ولم تجيء هذه الساعة ، وهي إلى الآن مجهولة
لا يعرف أحد متى تجيء

(الشبهة الخامسة) في الباب الاول من كتاب الأعمال هكذا (٤ وفيما هو
مجمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من اورشليم ، بل ينتظروا موعد الأب الذي
سمعه مني لان يوحنا عمد بالماء ، وأما أنتم فستعمدون بالروح القدس ليس
هذه الايام بكثير) وهذا يدل على أن الفارقليط هو الروح النازل يوم الدار . لان
المراد بوعد الاب هو الفارقليط .

أقول : الادعاء بأن المراد بموعده الأب هو الفارقليط ادعاء محض ، بل هو غلط لثلاثة عشر وجهاً ، وقد عرفتها ، بل الحق أن الأخبار عن الفارقليط شيء والوعد بانزال الروح عليهم مرة أخرى شيء آخر . وقد وفي الله بالوعدين ، وقد عبر عن الوعد الأول بمجيء الفارقليط ، وههنا بموعده الأب ، غاية الأمر أن يوحنا نقل بشارة الفارقليط ، ولم ينقلها الإنجيليون الباقون — ولوقا نقل موعد نزول الروح الذي نزل يوم الدار ، ولم ينقله يوحنا . ولا بأس فيه فانهم قد يتفقون في نقل الأقوال الخسيسة ، كركوب عيسى عليه السلام على الحمار وقت الذهاب إلى اورشليم ، اتفق على نقله الأربعة ، وقد يتخالفون في نقل الأحوال العظيمة ، ألا ترى أن لوقا انفرد بذكر إحياء ابن الأرملة من الأموات في نايين ، وبذكر إرسال عيسى عليه السلام سبعين تلميذاً ، وبذكر إبراء عشرة برص ، ولم يذكر هذه الحالات أحد من الإنجيليين ، مع أنها من الحالات العظيمة ، وأن يوحنا انفرد بذكر وليمة العرس في قانا الجليل ، وظهور من يسوع فيه معجزة تحويل الماء خمرًا وهذه المعجزة أول معجزاته ، وسبب ظهور مجده وإيمان التلاميذ به وبذكر إبراء السقيم في بيت صيدا في اورشليم ، وهذه أيضا معجزة عظيمة ، والمرضى كان مريضاً من ثمان وثلاثين سنة ، وبذكر قصة امرأة أخذت في زنا ، وبذكر إبراء الإلكه ، وهذا أيضا من أعظم معجزاته ، وهي مصرحة بهما في الباب التاسع وبذكر إحياء العازر من بين الأموات ، ولم يذكرها أحد من الإنجيليين ، مع أنها حالات عظيمة ، وهكذا حال متى ومرقس ، فانهما انفردا بذكر بعض المعجزات والحالات التي لم يذكرها غيرهما . وإذ طال البحث في هذا المسلك فلنقتصر على هذا القدر من البشارات التي نقلتها عن كتبهم المعتبرة عندنا في زماننا . اهـ

﴿ بشارة إنجيل برنابا ﴾

ذكر الشيخ رحمة الله بعد هذا أنه لم يعن بإيراد البشارات من الكتب التي بعدها أهل الكتاب غير قانونية إلا بشارة إنجيل برنابا : وقد نقلها عن مقدمة ترجمة التفسير سائل الانكليزي للقرآن الجديد ، وهذه ترجمتها :

(اعلم يا برنابا أن الذنب وإن كان صغيراً يجزى الله عليه لأن الله غير راض

عن الذنب ، ولما اكتسب اى وتلاميذى لأجل الدنيا سخط الله لأجل هذا الأمر وأراد باقتضاء عدله أن يحزن بهم على هذا العام على هذه العقيدة غير الائمة ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم ولا يكون لهم اذية هناك وإنى كنت بريالكن بعض الناس لما قالوا فى حق إنه الله وابن الله كره الله هذا القول ، واقتضت مشيئته أن لا تضحك الشياطين يوم القيامة منى ولا يستهزؤن بى ، فأراد بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء فى الدنيا بسبب موت يهوذا ، ويظن كل شخص أنى صلبت لكن هذه الالهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يحىء مجد رسول الله فاذا جاء فى الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط وترفع هذه الشبهة من قلوب الناس) ترجمة كلامه

أقول هذه البشارة عظيمة وان اعترضوا بأن هذا الإنجيل رده مجلس علمائنا السلف ^(١) أقول لا اعتبار لردهم وقبولهم كما علمت بما لا مز يد عليه فى الباب الأول وهذا الإنجيل من الأناجيل القديمة ويوجد ذكره فى كتب القرن الثانى والثالث فعلى هذا كتب هذا الإنجيل قبل ظهور محمد ﷺ بمئتي ^(٢) سنة ولا يقدر أحد أن يخبر بغير الإلهام بمثل هذا الأمر قبل وقوعه بمئتي سنة فلا بد أن يكون هذا قول عيسى عليه السلام وإن قالوا إن أحداً من المسلمين حرف هذا الإنجيل بعد ظهور محمد ﷺ قلت هذا الاحتمال بعيد جداً لأن المسلمين ما التفتوا إلى هذه الأناجيل الأربعة أيضاً فكيف إلى إنجيل برنابا ويبعد أن يؤثر تحريف أحد من المسلمين فى إنجيل برنابا تأثيراً كبير به النسخ الموجودة عند المسيحيين أيضاً وهم يزعمون أن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أسلموا نزلوا عن كتب العهدين البشارات الحميدة وحرفوها فعلى زعمهم أقول إن

«١» يعنى مجامع الأساقفة «٢» وهنا غلط ظاهر لا ندري سببه فقد كان ظهور النبی ﷺ ، أو قبل القرن السابع للمسيح فاذا كان قد ذكر إنجيل برنابا فى القرن لثانى يكون قبل ظهور النبي ﷺ بخمسة قرون عني أن برنابا كتب فى القرن الأول كما أمره المسيح عليه السلام وإن لم رد له ذكر قبل ذلك التاريخ ، وأما النسخ التى وقعت فى أيدي علماء أوربة فاقدمها هذا يترابح تاريخه بين منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السادس عشر ، ولكنه لم يشتهر إلا فى أوائل القرن الثامن عشر

هؤلاء العلماء الكبار حرقوا على زعمهم ولم يؤثر تحريفهم في كتبهم التي كانت موجودة عندهم في مواضع هذه البشارات فكيف أثر تحريف بعض المسلمين في الإنجيل برنابا في النسخ التي كانت عندهم؟ فهذا الاحتمال وادضعف جداً، واجب الرد اه . وقد ختم الشيخ (رحمة الله) رحمه الله تعالى هذه البشارات بتنبية ذكر فيه القارئ بما بينه مفصلاً من اختلاف النصارى في ترجمة كتبهم والتغيير فيها زمنًا بعد زمن لئلا يظن من أطلع على ما أورده ورآه مخلفاً لغير الترجمات التي نقل عنها أنه هو المحبلى . فيما نقله ، وهذا مشهور لا يستطيعون إنكاره

بعد هذا أقول ان الشيخ رحمه الله لم ير الإنجيل برنابا وإنما نقل هذه البشارة من مقدمة سايل المستشرق الانجليزى لترجمته للقرآن الجيد ، وسايل هذا قد اطلع على احدى النسختين اللتين وجدتا من هذا الإنجيل في في أول القرن الثامن عشر ، وهى النسخة الاسبانية وقد فقدت ، إذ كان المتعصبون من النصارى يتلفون كل ما عثروا عليه من هذا الإنجيل وغيره من الأناجيل التي تعدها الكفيسة غير قانونية . وأما النسخة الأخرى فهى باللغة الايطالية القديمة وكانت في خزنة كتب (الفاتيكان) فسرقتها منها راهب اسمه (مرينو) في أواخر القرن السادس عشر ، ويظن أنها هى النسخة الموجودة الآن في خزنة كتب بلاط (فيينا) . وقد ترجمت هذه النسخة بالانكليزية في هذا العصر فسمينا إلى ترجمتها بالعربية سنة ١٣٢٥ وطبعناها طبعاً دقيقاً في مطبعة المنار ، وإتينا ننقل عنها هنا نحن بعض بشاراته بنبيينا ﷺ غير البشارة التي نقلها الشيخ رحمه الله إذ هى متعددة

جاء في الفصل الثاني والسبعين من هذا الإنجيل أن المسيح عليه السلام أخبر الحواريين أنه سينصرف عن هذا العالم ثم قال :

(٧ فبكى حينئذ الرسل قائمين : يا معلم لماذا تتركنا ، لأن الأخرى بنا أن نموت من أن تتركنا ٨ أجاب يسوع : لا تضرب قلوبكم ولا تحزنوا ^(١) ٩ لاني لست أنا الذى خلقتكم ، بل الله الذى خلقكم بكميكم ١٠ أما من خصوصى فاني قد أتيت لأهـ الطريق لرسول الله الذى سيأتى بخلاص العالم ١١

ولكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتي أنبياء كذبة^(١) كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي

١٢ حينئذ قال اندراوس : يا معلم اذكر لنا علامة لمعرفة

(١٣) أجاب يسوع : أنه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلي ، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً ١٤ في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختار الله وهو سيظهره للعالم ١٥ وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم ١٦ واني أسر بذلك ، لأنه بواسعته سيعلمن ويتمجد الله ويظهر صدق ١٧ ومينتقم من الذين سيقولون اني أكبر من انسان ١٨ الحق أقول لكم : إن القمر سيعطيه رقاداً في صباه ومتى كبر هو أخذه كفيه ١٩ فليحذر العالم أن يلبذه لأنه سيفتك بعبد الأصنام ٢٠ فان موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيراً ، ولم يبق يشوع على المدن التي أحرقوها وقتلوا الأطفل ٢١ لان القرحة المزمنة يستعمل لها الحكى (٢٢) وسيجيء بمحق أحلى من سائر الأنبياء وسيوبخ من لا يحسن السلوك في العالم ٢٣ وسيجيء طرباً أبراج مدينة آباءنا بعضها بعضاً ٢٤ فتى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض ، واعترف بأنى بشر كسائر البشر . فالحق أقول لكم : أن نبى الله حينئذ يأتي)

وجاء في الفصل السادس والتسعين من محاوردة بين المسيح ورئيس كهنة اليهود : أن الكاهن سألته عن نفسه فأجاب بذكر اسمه واسم أمه ، وبأنه بشر ميت ثم قال الانجيل ما نصه :

(٣) أجاب الكاهن : أنه مكتوب في كتاب موسى أن إلهنا سيرسل لنا مسيحاً الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتى للعالم برحمة الله ؛ لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيحاً الله الذى ننتظره ؟)

(٥) أجاب يسوع : حقاً إن الله وعد هكذا ولكننى لست هو ، لأنه خلق

قبل وسيأتي بعدى (١)

(٦) أجاب السكاهن : اننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي وقديس الله ٧ لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تفيدنا حيا في الله بأية كيفية سيأتي مسيا ؟

(٨) أجاب يسوع : لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي (٢) في لست مسيا الذي تنظرونه كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا ابراهيم (٣) قائلا : بفسلك أبارك كل قبائل العرب ٩ ولكن عند ما يأتيني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى لهذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنني الله وابن الله ١٠ فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبق ثلاثون مؤمناً ١١ حينئذ يرحم الله العالم ، ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله ١٢ الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبداء الأصنام ١٣ وسينزع من الشيطان سلطته على البشر ١٤ وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ١٥ وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا)

ثم قال في الفصل ٩٧ مانصه :

(١) ومع أنني لست مستحقاً أن أحل سير حدائثه قد نلت نعمة ورحمة من الله لأراه (٢) فأجاب حينئذ السكاهن مع الوالي والملك قائلين لا تزعج نفسك يا يسوع قدوس الله لأن هذه الفتنة لا تحدث في زمننا مرة أخرى لأننا سنكتب إلى مجلس الشيوخ الروماني المقدس بإصدار أمر ملكي أن لأحد يدهوك فيما بعد الله أو ابن الله (٤) فقال حينئذ يسوع : إن كلامكم لا يعزيني لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور ٥ ولكن تعزيني في محبة الرسول الذي سيبيد كل رأى كاذب في وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا ابراهيم ٦ وأن ما يعزيني فهو أن لا نهاية لدينه لأن الله سيحفظه محيياً .

(١) الإنجيل يوحنا ١ : ١٥ (٢) تكرر هذا القسم في هذا الإنجيل وهو بمعنى

قول نبينا ﷺ « والذي نفس محمد بيده » (٣) تلك ٢٢ : ١٨

(٧) أجاب الكاهن : آياتى رسل آخرون بعدى (رسول الله ؟)
 (٨) فأجاب يسوع : لا يأتى بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله ٩ ولكن
 يأتى عدد غفير من الأنبياء الكذبة وهو ما يحزننى ١٠ لأن الشيطان سيثيرهم
 بحكم الله العادل فيستترون بدعوى أنجيلي
 (١١) أجاب هيدروس : كيف أن محي هؤلاء الكافرين يكون بحكم الله العادل ؟
 (١٢) أجاب يسوع : من العدل أن من لا يؤمن بالحق خلاصه يؤمن بالكذب
 لعنته ١٣ لذلك أقول لكم : إن العالم كان يمتحن الأنبياء الصادقين دائماً وأحب
 الكاذبين كما يشاهد فى أيام ميشع وأرميا ^(١) لأن التشبيه يجب شبيهه
 (١٣) فقال الكاهن حينئذ : ماذا يسمى مسيا ؟ وما هى العلامة التى تعلمن
 مجيئه ١٤ أجاب يسوع : إن اسم مسيا عجيب ، لأن الله نفسه سماه لما خلق
 نفسه ووضعها فى بهاء سماوى ١٥ قال الله : اصبر يا محمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق
 الجنة والعالم وجماً غفيراً من الخلائق التى أحبها لك ، حتى أن من يباركك يكون
 مباركا ، ومن يلعنك يكون ملعوناً ١٦ ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولى
 الخلاص وتكون كلتك صادقة ، حق إن السماء والأرض تهتزان ، ولكن إيمانك
 لا يبن أبداً ١٧ إن اسمه المبارك مجد .
 ١٨ حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائمين : يا الله أرسل لنا رسولك ، يا محمد
 تعال سريراً لخلاص العالم ! ا
 وأما البشارة التى نقلها الشيخ رحمة الله فى إظهار الحق فى من الفصل
 العشرين بعد المثنين ، وليس بعده غير فصلين من هذا الانجيل ، وترجمتها
 قريبة من الترجمة الأخيرة للانجيل كله .

﴿ تلييه ﴾

اقد كان من مواضع ارتياح الباحثين من علماء أوربة فى هذا الانجيل ذكره
 لحاتم النبیین ﷺ باسمه العلم عند المسلمين (محمد) وقد ذهب بعضهم إلى أن بعض

المسلمين قد دسوا فيه ذلك ، وقرى شبهتهم ما وجد من التعليقات العربية على حواشي النسخة الطليانية الموجودة منه إلى هذا العهد .

وقد فندنا هذه الشبهة في مقدمتنا لطبعة هذا الإنجيل العربية بما بيناه من استحالة صدور هذه الحواشي عن مسلم ، فانها على فساد لغتها ومعجمتها مخالفة لما يعرفه كل مسلم عربياً كان أو مجمياً لأنه من أذكار الدين ككلمة سبحان الله فهي تذكر في هذه الحواشي بتقديم المضاف إليه على المضاف هكذا « الله سبحان » وبعد أن أوردنا في المقدمة أمثلة أخرى كهنه قلنا :

« ولذلك أمثلة أخرى : أضف إليها عدم اطلاع المسلمين في الاندلس وغيرها على هذا الإنجيل كما حققه الدكتور مرجليوث المستشرق الانكليزي ، وبدأ تحقيقه بخلو كتب المسلمين الذين ردوا على النصارى من ذكره ، وناهيك بآبن حزم الاندلسي وابن تيمية المشرقي فتد كانا أوسع علماء المسلمين في الغرب والشرق اطلاعا كما يعلم من كتبهما ولم يذكر في ردهما على النصارى هذا الإنجيل .

« بقي أمر يستسكروا الباحثون في هذا الإنجيل بمخالفته لآدنياً أشد الاستنكار وهو تصريحه باسم « النبي محمد » عليه الصلاة والسلام فائلين . لا يعقل أن يكون ذلك كتب قبل ظهور الإسلام ، إذ المهود في البشارات أن تكون بالسكنيات والأشارات ، والعريقون في الدين لا يرون مثل ذلك مستسكراً في خبر الوحي . وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن دحالة انكليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحبري قبل بعثة النبي ﷺ وفيها يقول المسيح (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) وذلك موافق لنص القرآن بالحرف ، ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين أنه رأى شيئاً من هذه الأناجيل التي فيها هذه البشارات الصريحة ، فيظهر أن في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الأناجيل والكتب التي كانت ممنوعة في القرون الأولى ما لو ظهر لأزال كل شبهة عن الإنجيل برنابا وغيره .

« على أنه لا يبعد أن يكون مترجم برنابا باللغة الإيطالية قد ذكر اسم « محمد » ترجمة ، وإن يكون قد ذكر في الأصل الذي ترجم هو عنه بلفظ يفيد معناه كلفظ .

الفارقليط ، ومثل هذا التساهل معهود عند المسيحيين في الترجمة كما بينه الشيخ رحمة الله بالشواهد الكثيرة من كتبهم في الأمر السامع من المسالك السادس من الباب السادس من كتابه إظهار الحق ، وزاده بعد ذلك بيانا في البشارة الثامنة عشرة « ١٠٠ . وإنني أريد مثالا على ما سبق من اختلاف ترجم الأعلام والالقاء والصفات في كتب أهل الكتاب يقرب لفهم القارىء هذه المسألة وهو ما جاء في نبوة النبي حجي من البشارة بفينا ﷺ قال :

بشارة النبي حجي بمحمد ﷺ :

« ٢ : ٦ » هكذا قال رب الجنود : هي مرة بعد قليل فأرزل السموات والأرض والبحر واليابسة ٧ وأرزل كل الأمم ، ويأتى مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً ، قال رب الجنود ٨ لى الفضة ولى الذهب يقول رب الجنود ٩ مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول ، قال رب الجنود ١٠ وفي هذا المكان أعطى السلام ، يقول رب الجنود »

أقول قبل كل شئ : إن اسم أو لقب « مشتهى الأمم » هو فى الأصل العبرانى عند اليهود « حمدوت » ومعناه الذى يحمده فهو صيغة مبالغة من الحمد كلكوت من الملك . فحمدوت الأمم هو الذى تجمده الأمم ، وهو معنى محمد ومحمود ، فالأول اسم فاعل من حمده بالتشديد إذا حمده كثيراً ، ومن تجمده الأمم يكون محموداً حمداً كثيراً أى محمداً . والثاني اسم مفعول من حمد الثلاثى ، ومحمود من أسماء صلى الله عليه وآله وسلم فهل بعد هذا يبعد أن يكون لفظ الفارقليط اليونانى مترجماً من لفظ حمدوت

العبرانى ، ونسخ الانجيل العبرانية التى نقلت ألفاظ المسيح عليه السلام بحروفها قد فقدت ولا ندرى سبب فقدتها ؟ بل نحن معاصر المسلمين نهم بمجامع الاساقفة التى تحكمت فى الأناجيل القديمة ، فعدت بعضها قانونياً وبعضها غير قانونى ، وصاروا يتلفون ما هو غير قانونى ، بل نحن لا نعتقد بتنصر القيصصر قسطنطين الأول ولا نعتقد اخلاصه فيه ، بل نعتقد أن ذلك كان عملاً سياسياً منه ، وأنه استعان بالمجامع على تحويل النصرانية عن صراط التوحيد إلى وثنية القدماء من اليونانيين .

وأستاذتهم من قدماء المصريين، الذين دانوا بعقيدة التثليث قبل المسيح بألوف من السنين . ولو بقيت نسخ ملك الانجيل لكان لأهل العلم الاستقلال في الغرب والشرق من التحقيق فيها ما لم يكن لأتلك الأساقفة الذين قبلوا منها ماوافق اعتقادهم وردوا ما لم يوافقهم ، كأن عقائدهم التقليدية المتأثرة بنصرانية قسطنطين السياسية بعد ثلاث قرون خلعت للمسيح هي الأصل ، والانجيل الماثورة هي الفرع ، تعرض على تلك التقاليد فيقبل منها ما وافقها ويرد ماخالفها؟

وها نحن أولاء نرى إنجيل برنابا أرق من هذه الانجيل الأربعة في العلم الإلهي والثناء على الخالق عز وجل ، وفي علوم الأخلاق والآداب والفضائل ، فان كان بعض الباحثين كالدكتور خليل سعادة الذي ترجم لنا هذا الانجيل يعمل هذا بموافقة لفلسفة أرسطو التي كانت رائجة في قرون المسيحية الأولى — فان بعض علماء أوربة الباحثين المستقلين قد طعن بمثل هذه الشبهة في شريعة موسى وفي آداب الانجيل الأربعة فقلوا : إن التوراة مستمدة من شرائع المصريين الذين نشأ موسى في حجر فرعونهم ثم قال بعضهم : إنها مستمدة من شريعة حورابى التي هي أصل شرائع البابليين وكانت كتابة التوراة الحاضرة بعد السبي البابلي ، وفيها ألوف من الكلمات البابلية — وقالوا : إن الآداب المسيحية مستمدة من كتب اليونان والرومان في الفلسفة العملية الاخلاق . .

ونحن مع أهل الكتاب لانعتقد بهذه الشبهات ، ولكننا نقيم الحجة عليهم بها في مثل المقام الذى نحن فيه وأمثاله مما لا محل لبسطه هنا .

ثم ان بقية بشارة حجى لاتصدق على غير نبينا ﷺ محمد الأمم فهو الذى زلزل رب الجنود ببعثته العالم ، ونصره بالجنود وبالجمعة جميعا ، وكان بمحمد بن الله به أعظم من مجده بموسى وسائر أنبياء قومه ، وفرضت شريعة الزكاة وخمس الغنائم تنفق في سبيل الله فكانت الفضة والذهب لله — وفي النسخة السبعينية للمهد القديم : إن الآية التاسعة من هذه البشارة ، « إن المجد القديم لهذا البيت أعظم من المجد الذى كان للهيكلك الازل » وهذه العبارة أظهر في المراد من ترجمة النصارى التى نقلنا عنها ، وحسبنا هذا من البشارات الكثيرة ، ومن

يهدي الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلا هادي له ومحمد له تعالى أن جعلنا من أمة خاتم رسله والدعاة إلى ملته وصلى الله عليه وآله وسلم تسليماً

(١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

ذكرت رسالة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في الآية التي قبل هذه من قصة موسى عليه السلام استطراداً بحسب نظم الكلام ، ولكنها هي المقصودة بالذات من القصة ومن سائر قصص الرسل عليهم السلام ، ولما كان ذكرها في سياق القصة لدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وإقامة الحجج عليهم بذكره ﷺ في كتبهم والبشارة برسالته على السنة أنبيائهم ، وبيان ما يكون لهم من الفلاح والفوز بالإيمان به ﷺ ، اتباعه فأنسب أن يفي على ذلك ببيان عموم بعثته ﷺ ودعوة الناس كافة إلى الإيمان بالله تعالى وبه فقل عز وجل مخاطباً له صلواته وسلامه عليه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ هذا خطاب عام لجميع البشر من العرب والعجم وجهه إليهم محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي بأمر الله تعالى فينبئهم به أنه رسول الله تعالى إليهم كافة لا إلى قومه العرب خاصة كما زعمت الميسورية من اليهود فهو كقوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) وقوله (وأوحى إلى هذا القرآن لآنذركم به ومن مانع) أي وأنذر به كل من بلغه من الثقليين ، فمن قال إنه يؤمن برسالته إلى العرب خاصة لا يعتقد بإيمانه لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية مما جاء به ، وما في معناها كقوله تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وهو يشمل عقلاء الجن . وفي هذا المعنى أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه ﷺ بالرسالة العنامة كحديث جابر في الصحيحين وغيرهما قال رسول الله ﷺ أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأبأ رجل من أمي أن أدركته الصلاة

فليصل ، وأحلت لى التناثم ولم يحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة . « وفي رواية كافة . ورواه آخرون عن غيره بألفاظ أخرى . ولما كانت الشفاعة على إطلاقها غير خاصة به ﷺ ذهب الجمهور إلى أن الخاص به الشفاعة العظمى لجميع الخلق بفصل القضاء فيهم ومحاسنتهم ليعلم مستقر كل منهم وفي أحاديث الصحيحين وغيرها أن أهل الموقف يرسلون الوفود إلى آدم فنوح فأبراهيم فإسماعيل فموسى فإليهم السلام يطلبون منهم الشفاعة عند الله تعالى بفصل القضاء ، فيعترف كل منهم بأن هذا ليس من شأنه ويقول « لست هناك » و يطلب النجاة لنفسه ويحيلهم على من بعده ، حتى إذا أحاطم عيسى على محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين أجابهم إلى طلبهم وقال « أنا لها » وفي رواية « أنا صاحبكم » فيشفع في فصل القضاء بين الخلق فتقبل شفاعته . وقيل إن المراد في هذه الشفاعة وقيل ما يعمرها وغيرها ، والروايات في الشفاعة متداخلة مضطربة ، ولنا بصدد تحقيق القول فيها

ثم وصف الله عز وجل نفسه في هذا المقام بتوحيد الربوبية وتوحيده الإلهية وبالاحياء والإماتة فقال ﷻ الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت ﷻ والمراد بملك السموات والأرض التصرف والتدبير في العالم كله لما جرى عليه عرف البشر من أن السموات هى العوالم التى تلو هذه الأرض التى يعيشون فيها وصاحب الملك والتصرف والتدبير فيهما هو ربهما رب العالمين ، وهو واحد ، ولو كان لغيره تصرف لتعارض مع تصرفه وفسد النظام العام ، فإن وحدة النظام فى جملة المخلوقات وعدم التفاوت والتعارض فيها دليل على وحدة مصدرها وتدبيرها ، وإذا كان رب الخلائق واحداً وجب أن يكون هو المعبود وحده ، لا إله إلا هو ، والتوحيد بقسميه ، توحيد الربوبية بالإيمان وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل أى عبادة الله وحده — هما أصل الدين وأساسه ، والركن الأول لعقائده ، وقد اقترن برسالة الرسول ﷺ وهى الركن الثانى ، وأما وصفه تعالى بالاحياء والإماتة وهو بعض تصرف الرب فى خلقه فيتضمن عقيدة البعث بعد الموت التى هى الركن الثالث من أركان الإيمان ، فقد أدمجت فى دعوى الرسالة أركان الدين الثلاثة — وهو من إيجاز القرآن الغريب — وبفى على ذلك الدعوة

إلى الإيمان على طريقة التفرع على هذا الأصل بل الأصول، وذلك قوله عز من قائل ﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أي فآمنوا يا أيها الناس من جميع الأمم بالله الواحد في ربوبيته وألوهيته الذي يحيي كل ماتحله الحياة في العالم، ويميت كل ما يعرض له الموت بعد الحياة، وهذا أمر يتجدد كل يوم فتشاهدونه ومثله البعث العام بعد الموت العام وخراب هذا العالم، وآمنوا برسوله المطلق الممتاز بأنه النبي الأمي الذي بعثه في الأميين (العرب) رسولا إلى الخلق أجمعين، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويطهرهم من خرافات الشرك والردائل والجهل والتفرق والتعادي بمصيبيات الأجناس واللات والأوطان ليكونوا يهدايتهم أمة واحدة يتحقق بها الاخاء البشري العام، وقد بشر به الأنبياء الكرام عليهم السلام لأنه التمام المكمّل لما بشئوا به من هداية الأفوام وأميته ﷺ من أعظم معجزاته، وأية آية على صحة دعوى الرسالة أقوى وأظهر من تعليم الأمي الذي لم يتعلم شيئا لجميع الأمم، ما فيه صلاحهم وفلاحهم من العلوم والحكم؟

﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي يؤمن بما يدعوكم إلى الإيمان به من توحيد الله تعالى وكلماته التشريعية التي أنزلها لهداية خلقه، وهي مظهر علمه وحكمته ورحمته، وكلماته التكوينية التي هي مظهر إرادته وقدرته وحكمته. وبعد أمرهم بالإيمان أمرهم بالإسلام فقال ﴿وَاتَّبِعُوا لِمَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي واتبعوه بالاذعان الفعلي لسلك ما جاءكم به من أمر الدين فعلا وتركوا رجاء اهتدائكم بالإيمان واتباعه لما فيه سعادosكم في الدنيا والآخرة، فشجرة الإيمان والاسلام اهتداء صاحبها ووصوله بالفعل لسعادة الدارين كما فصلناه في غير هذا الموضع، ودليله الفعلي في الدنيا أنه ما آمن قوم بنبي إلا وكانوا بعد الإيمان به خيرا مما كانوا قبله من هناء المعيشة والعزة والكرامة في دنياهم، وأظهر التواريخ وأقربها عهدا تاريخ الأمة المحمدية، ومن المعجائب أن يصل بهم الجهل بعد ذلك إلى ترك هذه الهداية التي نالوا بها الملك العظيم والعز والسؤدد والغنى والحضارة، وأعجب منه أن يزول المعلول بزوال علته وهم لا يشعرون به فيعودوا إليه، وأعجب من هذين أن يصل بهم الجهل إلى أن يعتقد كثير منهم في هذا العصر أن هداية الإسلام التي سعدوا بها ثم شقوا بتركها هي سبب هذا الشقاء الأخير لتركها

﴿ فصل في معنى اتباع الرسول وموضوعه ولوازمه ﴾

قوله تعالى هنا (واتبعوه) أعم من قوله في الآية التي قبلها (واتبعوا النور الذي أنزل معه) فذلك في اتباع القرآن خاصة وهذه تشمل اتباعه ﷺ فيما شرعه من الأحكام من تلقاء نفسه ، على النول بأن الله تعالى أعطاه ذلك وأذن له به ، واتباعه في اجتهاده واستنباطه من القرآن إذا كان تشريعاً - كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها كالجمع بين الأخنتين المنصوص في القرآن - ولا يدخل فيه اتباعه فيما كان من أمور العادات كحديث « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه طيب مبارك » رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة والحاكم ومصححه ورواه غيرهما باللفظ أخرى وأسانيده ضعيفة ، وحديث « كلوا البلع بالتمر » أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم عن عائشة ومصحوه ، فإن هذا من أمور العادات التي لأقربة فيها ولأحقق تقتضي التشريع ، بخلاف حديث « كلوا الحوم الاضاحي وادخروا » رواه أحمد والحاكم عن أبي سعيد وقتادة بن النعمان وسنده صحيح . فإن الاضاحي من النسك ، والاكل منه اسنة فأمر المضحي به للندب ، وادخارها جائز له ، ولولا الأمر به لظن تحريمه أو كراهته لعلاقة الاضاحي بالعيد فهو ضيافة الله تعالى للمؤمنين في أيام العيد . فالتشريع إما عبادة أمرنا بالتقرب إلى الله تعالى بها وجوباً أو ندباً ، وإمام مفسد نهينا عنها اتقاء لضررها في الدين كدهاء غير الله فيما ليس من الأسباب التي يتعارن عليها الناس وكأكل المذبح لغير الله وتعظيم غير الله بما شرع تعظيم الله به من الذبح له والحلف باسمه - أو لضررها في العقل أو الجسم أو المال أو العرض أو المصلحة العامة - وإما حقوق مادية أو معنوية أمرنا بأدائها إلى أهلها كالمواريث والنفقات ومعاشرة الأزواج بالمعروف ، أو أمرنا بالتزامها لضبط المعاملات كالوفاء بالعقود ، وبإدخال حكم الاستحباب وحكم كراهة التنزيه في التشريع تتسع أحكامه في أمور العادات كما يعلم مما يأتي :

ليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهي ما لا يتعلق به حق الله تعالى ولا خلقه لا جلب مصلحة ولا دفع مفسدة كالعادات والصناعات والزراعة والعلوم والفنون المبنية على التجارب والبحث وما يرد فيها من أمر ونهي يسميه العلماء ارشاداً لا تشريعاً إلا ما ترتب على النهي عنه وعيد كلبس الحرير ،

وقد ظن بعض الصحابة (رض) أن إنكار النبي ﷺ لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب للتشريع كتمليح النخل نامة منعوا عنه فاشاص (خرج ثمرد شيصاً أى رديماً أو يابساً) فراجعوه في ذلك فأخبرهم أنه قال ما قال عن ظن ورأى لاعن تشريع وقال لهم « أنتم أعلم بأمر دنياكم » والحديث معروف في صحيح مسلم وحكمته تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية كالزراعة والصناعة لا يتعلق بها لذاتها تشريع خاص بل هي متروكة إلى معارف الناس وتجاربهم .

وكاوا يراجعونه أيضاً فيما يشبه عليهم أهو من رأيه ﷺ واجتهاده الدنيوي أو بأمر من الله تعالى وإن لم يكن تشريعاً كقوله عن الموضع الذي اختاره للنزول فيه يوم بدر، قال له الحباب بن المنذر (رض) : أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا متقدم عنه ولا متأخر ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فلما أجابه بأنه رأى لاوحى وأن المول فيه على المصلحة ومكايد الحرب أشار بغيره فواقفه ﷺ .

وإذا اشتبه على بعض الصحابة بعض هذه المسائل فغيرهم أولى بأن يعرض لهم الاشتباه في كثير منها ، وكان النبي ﷺ يبين لأولئك الحق فيما اشتبهوا فيه، ومن ذا يبين ذلك من بعده ؟ ولولم يتخذ الناس اجتهاد العلماء من بعده ديناً يوجبون اتباعه لهان الأمر ، ولكن اتخذه ديناً قد كثرت به التكاليف ، ووقع المسلمون به في حرج عظيم في الازمنة التي ضعف فيها الانباع ، ففقدت على الطباع ، فصاروا يتركون ماثقل عليهم منها ، وجراهم ذلك على ترك المشروع القطعي الذي لا حرج ولا عسر فيه ، ثم جرم ذلك إلى ترك بعضهم للدين كله ودعوة غيرهم إلى ذلك ، والجاهلون من مقلدة الفقه المتشدين في إلزام الأمة الندين باجتهاد الفقهاء لا يشعرون بهذه العاقبة السوء ولا يبالون إذا شعرهم المصلحون .

مثال ما شدد به بعضهم من ذلك صبغ الشيب بالسواد هو من الأمور العادية المتعلقة بالزينة المباحة إذ لا تبعد فيه ولا حقوق لله ولا للناس ، إلا أنه قد يعرض فيه وفي مثله كالزى من كون فعله أو تركه صار خاصاً بالكفار وفعله بعض المسلمين تشبها بهم أو صار بفعله له مشابها لهم بحيث يعد منهم ، وفي ذلك ضرر معنوي وسياسي معروف عند الباحثين في سنن الاجتماع من كون المتشبه بقوم تقوى عظمتهم في نفسه من حيث تضعف فيها رابطته بقومه وأهل ملته ، وقد ورد في صبغ الشيب أخبار وأثار يدل بعضها على استحبابه عادة لا عبادة ولو بالسواد ، وفهم بعض

العلماء منهما استحبابه شرعا ، وفهم آخرون من بعض آخر كراهته بالسواد ، بل قال المشددون منهم بتحريمه ، فصار المقلدون لهم ينكرون على فاعله ويعدونّه عاصيا لله تعالى ، فخالفوا هدى السلف في المسألة وفي القاعدة العامة وهي عدم الإنكار في المسائل الاجتهادية التي وقع فيها الخلاف .

فن الاخبار في المسألة ماورد في الصحيح « أن أبا قحافة والد أبي بكر الصديق (رض) جاء أو أتى به يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة ^(١) » بياضا فقال رسول الله ﷺ « لا يصبغون فخالفهم » رواه الشيخان وأصحاب السنن الأربعة - وبقوله ﷺ « إن أحسن ما غيرتم به هذا الشيب الحناء والكتم » وظاهره تغييرهما معا ، وإلّا لقال أو الكتم ، ويؤيده ماصح عن أبي بكر الصديق (رض) أنه كان يخبض بالحناء والكتم معا ، وقد حقق العلامة ابن الأثير أن الخضب بهما معا يكون أسود . وقال بعضهم إنه أسود يضرب إلى الحمرة أى ليس حالكا ، والجمع بين القولين أنه يكون شديد السواد إذا كان قويا مشبعا ، يضرب إلى الحمرة إذا كان خفيفا وهو أسود على كل حال وذكر بعض العلماء أن سبب أمر النبي ﷺ باجتنب السواد في تغيير شيب أبي قحافة أنه لم يستحسنه لشيخ بلغ من الكبر عتيا ، وكان شعر رأسه ولحيته كالثغامة في شدة بياضه كله ، ومن رجع إلى ذوق البشر العام أدرك أن السواد لا يليق بمثله ويؤيده ما ذكره الحافظ في الفتح عن ابن شهاب الزهري أنه قال : كنا نخبض بالسواد إذا كان الوجه جديدا فلما نفض الوجه والاسنان تركناه اهـ ، ومثل هذه الخصوصيات قال الأصوليون إن وقائع الأعيان لا عموم لها . وذكر الحافظ في الفتح أيضا أن الذين أجازوا الصبغ بالسواد تمسكوا بالأمر المطلق بتغييره مخالفة للأعاجم (وقال) وقد رخص فيه طائفة من السلف منهم سعد بن أبي وقاص وعقبة بن عامر والحسن والحسين وجابر وغير واحد (أى من الصحابة) أقول وقد نقل الذنوى في شرح الحديثين من صحيح مسلم عن

(١) اشغام بالفتح نبت له نور أبيض شديد البياض واحدته ثغامة

القاضي عياض بعد جزمه هو بأن الأصح المختار عند الشافعية تحريم السواد مائة: «وقال القاضي: اختلف السلف من الصحابة والتابعين في الخضاب وفي جنبه فقال بعضهم ترك الخضاب أفضل. ورووا حديثاً عن النبي ﷺ في النهي عن تغيير الشيب ولأنه ﷺ لم يغير شيبه، روى هذا عن عمر وعلي وأبي وأخري رضي الله عنهم. وقال آخرون الخضاب أفضل وخضب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره، ثم اختلف هؤلاء فكان أكثرهم يخضب بالصفرة منهم ابن عمر وأبو هريرة وآخرون، وروى ذلك عن علي. وخضب جماعة منهم بالخناء والكتم وبعضهم بالزعفران، وخضب جماعة بالسواد. روى ذلك عن عثمان والحسن والحسين ابني علي، وعقبة بن عامر وابن سيرين وأبي بردة وآخرين (قال القاضي) قال الطبراني (١) الصواب أن الأثر المروي عن النبي ﷺ بتغيير الشيب والنهي عنه كلها صحيحة وليس فيها تناقض بل الأمر بالتغيير لمن شابه كشيبة أبي قحافة والنهي لمن له شعث فقط (قال) واختلاف السلف في فعل الأمرين بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك مع أن الأمر والنهي في ذلك ليس للوجوب بالاجماع، ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه في ذلك (قال) ولا يجوز أن يقال فيهما ناسخ ومنسوخ (قال القاضي) وقال غيره هو على حالين فمن كان في موضع عادة أهله الصبغ أو تركه فخروجه عن العادة شهرة ومكرمه والثاني أنه يختلف باختلاف نظافة الشيب فمن كانت شيبته تكون نقية أحسن منها مضبوغة فالترك أولى ومن كانت شيبته تستبشع فالصبغ أولى (قال النووي) هذا ما نقله القاضي والأصح الأوفق للسنة ما قدمناه عن مذهبنا والله أعلم اهـ

أقول إن هذا الإصرار من النووي رحمه الله تعالى على تصحيح مذهب أصحابه وجعله أوفق للسنة من غريب تعصبه لهم بعد العلم بعمل بعض عطاء الصحابة والتابعين بخلافه وسائر ما نقله عن القاضي وغيره في المسألة، ومنه قول الإمام الطبري من أن الأمر في هذه المسألة - وكذا أمثالها - ليس للوجوب والنهي ليس للتحريم لأنها من أمور العادات والزينة والتجمل بين الناس، وما نقله عنه وعن غيره من كونها تختلف باختلاف السن وباختلاف المادة والأحوال بين الناس، ويعتبر فيها الذوق في الزينة هو الصواب كما قال الطبري، وأي مدخل للتحريم في مثل هذا ولا محرم في الشريعة السمحة إلا ما كان ضاراً ؟

(١) كذا في الأصل والذي أذكره أن قائل هذا هو الإمام الطبري لا الحافظ الطبراني.

وقد سبق لنا تفصيل لهذه المسألة وأماها كسنة الفطرة في فتاوى المنار، ومنه أن حديث ابن عباس عند أبي داود « يكون قوم في آخر الزمان يخضبون بالسواد كمواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة » ضعيف متنا وسنداً بل قال ابن الجوزي أنه موضوع ويؤيده أن من آيات الوضع في متنه الوعيد بالحرمان من رائحة الجنة على أمر من العادات ولا يحرم من الجنة إلا الكافر بالمعنى الأخص دع مخالفته لحديث الصحيحين ، وفي سنده عبد الكريم غير منسوب والظاهر أنه ابن أبي الخارق وهو ضعيف ، فإن قيل يحتمل أنه الجزري الذي روى عنه الشيخان قلنا التصحيح لا يثبت بالاحتمال ولا سيما في أمر مخالف لأصول الشرع كهذا الوعيد وإن ابن حبان منع من الاحتجاج بما انفرد به عبد الكريم الجزري كهذا الحديث

وما نقله القاضي عن الذين اختاروا عدم تغيير الشيب من أن النبي ﷺ لم يغير شيبته غير صحيح بل ثبت في الصحيح أنه خضب رواه البخاري وغيره عن ابن عمر وأم سلمة وله باب في شمائل الترمذي فيراجع مع شروحه . وفي الأصول أن أفعاله ﷺ لا تدل من حيث هي على وجوب ولا نهي شرعي وإنما تدل على الإباحة لأنه لا يفعل الحرام ، وعدم فعله لعادة من عادات الناس أولى بأن لا يدل على حرمتها ولا كراهتها ديناً . وقد صح أنه نهي الأمة إلى أن بعض أعماله في بعض العبادات لم يقصد بها التشريع كوقوفه في عرفات والمزدلفة لثلاثي لزموها تديناً فيكونوا قد شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله . على أن من توخى اتباعه عليه صلوات الله وسلامه في العادات حبا فيه وتذكراً لحياته الشريفة بدون أن يعتقد أن ذلك من الدين أو يوم الناس ذلك أو يتحمل ضرراً لا يباح التعرض له شرعاً ومن غير أن يكون سبب شهرة مذمومة شرعاً - فجدير بأن يكون اتباعه هذا مزيد كل في إيمانه من حيث أنه يتحرى ذلك يزيد ذكره للنبي ﷺ وحباً له ، وقد انفرد من الصحابة ابن عمر (رضي الله عنهما) بتقمع أعماله وعاداته وتقلبه في سفره ولا سيما سفر حجة الوداع وتحري اتباعه في ذلك كله ولم يكن سائر الصحة يفعلون ذلك لثلاثي بعده الناس تشريعاً فيكون جنابة على الدين فالزيادة فيه كالنقص منه وهي تتضمن تكذيب قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم)

وجوب تبليغ دعوة الإسلام ورسالة محمد ﷺ لجميع البشر

ومما يدخل في أحكام رسالته ﷺ للناس كافة أن الله تعالى لا يقبل إيمان أحد بلغته دعوته على وجهها الصحيح إلا بالإيمان به واتباعه ، وأنه يجب على

أُمته أى أمة الإجابة وهم الذين اهتدوا بما جاء به من الإيمان والإسلام ، أن يبلغوا
دعوته لجميع الناس من جميع الأمم ، على الوجه الذى يحرك إلى النظر ، ويجب
أن يكون القائلون بذلك منهم جماعات تتعاون عليه إذ لا يغنى الأفراد غناء الجماعات
سواء أ كانت الدعوة إلى أصل الإيمان الاجمالى الذى هو بدء الدعوة - أم إلى
الشرائع التفصيلية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويشمل ذلك كله قوله
تعالى (٣ : ١٠٤) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقد ذكرنا فى تفسيرها ما بسطه شيخنا الأستاذ
الإمام من كون الراجح المختار أن قوله تعالى (ولتكن منكم أمة) تجريد كقول
القائل : ليكن لى منك صديق ، أى لتكن صديقاً لى ، وأنه يجب على جميع المسلمين
أن يكونوا دعاة إلى الخير الأعظم الذى هداهم الله إليه ، ويأمروا بالمعروف وينهوا
عن المنكر ، كل على قدر حاله واستطاعته كما كان المسلمون فى الصدر الأول ،
وأنه مع ذلك يجب أن يتألف للدعوة جماعات تعد لها عدتها وأن هذا متعين على
الوجه الآخر فى الآية وهو جعل منكم للتبليغ الخ

(راجع ص ٢٧ - ٤٥ ج ٤ تفسير وكذا ص ٢٨ منه)

وتبليغ الدعوة إلى الإسلام على الوجه الذى تقوم به الحجة يختلف باختلاف
الزمان والمكان والأفراد والأقوام ، فقد كان مشركو العرب فى عصر البعثة يؤمنون
بأن الله تعالى هو رب العالمين وخالق الخلق ومدير أموره وأنما كانوا يشركون
بعبادته غيره من الملائكة والجن والأصنام زاعمين أنهم يقر بونهم إليه زافى ويشفعون
لهم عنده فيقضى لهم حاجهم من جلب خير ودفع ضرر بوساطتهم ، وكانوا ينكرون
البعث والحياة بعد هذه الحياة الدنيا وينكرون الرسالة والوحى من الله لبعض البشر
فكان النبي ﷺ يدعوهم أولاً إلى التوحيد الذى هو عنوان الإسلام وباب الدخول فيه
لأنه الركن الأعظم ، ثم أنه كان يقيم لهم الحجج والبراهين على توحيد الألوهية وهو أفراد
الله وحده بالعبادة وعلى حقيقة الرسالة والبعث والجزاء مع دفع ما عندهم من الشبهات على
ذلك كما تراه مفصلاً فى سورة الأنعام التى هى أجمع سورة فى القرآن لذلك وكذا فى غير هاتين
السورتين المسكية . وبلى ذلك دعوتهم إلى أصول الشريعة وقواعدها السككية فى الآداب
والفضائل والحلال والحرام ثم إلى الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد .
وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فكانوا يؤمنون بالله وبالوحى

والرسل والبعث والجزاء ، ولكن دخلت على أكثرهم الوثنية القديمة بجميع أصولها وفروعها ولاسيما النصراني الذين أقاموا عقيدتهم على أساس التشليث المعروف عن قدماء المصريين والهنود وغيرهم من الوثنيين ، وكان اليهود يزعمون أن النبوة والرسالة محصورة في بني إسرائيل لا يمكن أن يبعث الله رسولا من غيرهم ، وكانت التوراة قد فقدت في غزو البابليين لهم . ثم كُتب بعضهم لهم توراة بعد عدة قرون هي عبارة عن تاريخ ديني مشتمل على قصص الأنبياء إلى عهد موسى وهارون وعلى ما تذكر الكتب من شريعة التوراة مع تحريف وأغلاط كثيرة ، وكان الإنجيل الذي جاء به عيسى عليه السلام من وعظ وتعليم وإشارة قد ادعاه كثيرون فظهر في العصر الأول بعده زهاء سبعين إنجيلا اختار الجمهور الذي جمع شمله الملك قسطنطين - الوثني الذي تنصر سياسة - أربعة منها فيها كثير من الخلاف والتعارض ، وذلك بعد المسيح بثلاثة قرون وقشا فيهم منذ عهد هذا الملك الوثني المنتصر عبادة السيدة مريم عليها السلام وغيرها من الصالحين حتى صارت الكنائس النصرانية كلها كل الأوثان مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة — فكانت دعوة النبي ﷺ إليهم إلى الاسلام وحججه عليهم التي أنزلها الله عليه في القرآن تختلف من بعض الوجوه عن دعوة المشركين الأصليين كما تراه مبسوطة في السور الطول الأديب الأولى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة — ففي الجزء الأول من البقرة من القرآن : يوجه أكثر الكلام إلى اليهود وذكري في النصراني بالعرض — وأوائل سورة آل عمران نزلت في حجاج نصراني نجران . وفي أواخر النساء كلام في أهل الكتاب أكثره في النصراني — وجل سورة المائدة في أهل الكتاب عامة والنصراني خاصة وأما هذا العصر فقد كثرت فيه الملاحمة والمعتلة ، وتجددت الكفار على اختلاف فرقهم شبهات جديدة يتكوّن فيها على مسائل من العلوم العصرية لم تكن معروفة عند الأقدمين ، وحدثت للناس آراء ومذاهب في الحياة فيها الحسن والقيبح ، والنافع والضار ، بل منها ما قد يفضي إلى فساد العالم وتقويض دعائم العمران . ومثارد ذلك كله ذبوع التماثيل المادية وفوضى الآداب وتدهور الأخلاق وتغلب الرذائل على الفضائل ، وقد ظهر هذا الفساد في أفطع صورة في حرب المدنية الكبرى وما ولدته من تهاقم شره

المستعمرين وشرهم وفضائهم في الشرق ، وانتشار البلشفية ومفاسدها في البلاد الروسية وغيرها ، وبث دعوتها في العالم - فصار من الواجب مراعاة ذلك في الدعوة إلى الدين والاحتجاج له ورد الشبه التي توجه إليه . وقد ذكرت في تفسير آية سورة آل عمران المشار إليها آنفا (أى ١٠٤.٣) حاجة الداعي إلى الاسلام في هذا الزمان إلى أحد عشر علما منها السياسة ولغات الأقوام الذين توجه إليهم الدعوة وأشرت هنالك إلى مقالة كنت كتبتها قبل ذلك في المنار في الدعوة وطريقها وآدابها

اللغة العربية لغة الإسلام

ومما يسئل في بحث اتباعه صلوات الله وسلامه عليه تعلم لفته التي هي لغة الكتاب الإلهي الذي أوحاه الله تعالى إليه وأمر جميع من اتبعه ودان بدينه أن يتعبده به وأن يتلوه في الصلاة وغير الصلاة مع التدبر والتأمل في معانيه ، وذلك يتوقف على اتقان لفته وهي العربية . فالمسلمون يملفون الدعوة لكل قوم بلغتهم حتى إذا ما هدى الله من شاء منهم ودخل في الاسلام علموه أحكامه ولفته ، وكذلك كان يفعل الخلفاء الفاتحون في خير القرون وما بعدها إلى أن تغلبت الأتاجم على العرب وسلبوهم الملك فوقفت الدعوة إلى الاسلام وضعف العلم بالعربية إلى أن قضى عليها الترك وحرمتها حكومتهم عليهم في هذا الزمان ، لتقطع كل صلة لهم بدين القرآن ، وقد فصلنا هذه المباحث في مجلة المنار تفصيلا

ومما نشرناه في هذا الموضوع مقال في لغة الاسلام نشرناه أولا في بعض الجرائد اليومية وفيه تصريح للإمام الشافعي رضي الله عنه بوجوب تعلم اللغة العربية على جميع المسلمين في رسالته في أصول الفقه ، ذلك بأنه يبين أن القرآن كله نزل بلسان العرب ليس فيه شيء إلا بلسانهم ثم قال مانصه . « فان قال قائل : ما الحاجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره ؟ فالجبة فيه كتاب الله ، قال تبارك وتعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)

« فان قال قائل : من الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة ؟ (قيل) قد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ويكون على الناس كافة أن يتعلموا

لسانه ، أو ما يطيقونه منه . ويحتمل أن يكون بعث بالسنتهم ^(١) ؟ فان قال قائل .
فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون السنة العم ؟

قال الشافعي رحمه الله تعالى . فالدلالة على ذلك بينة من كتاب الله عز وجل
في غير موضع ، فاذا كانت الالسة مختلفة بما لا يفهم بعضهم عن بعض فلا بد أن
يكون بعضهم تبعا لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع وأولى
الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ﷺ ، ولا يجوز - والله تعالى أعلم - أن
يكون أهل لسانه أتباعا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان
تبع للسانه وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه ، وقديين الله تعالى ذلك في غير
آية من كتابه . قال الله عز ذكره (وانه لتنزِيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين *
على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين) وقال (وكذلك أنزلناه حكما
عربيا) وقال (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال
تعالى (حم والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)

قال الشافعي رحمه الله تعالى : فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها ،
ثم أكد ذلك بأن نفي جل وعز عنه كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه
فقال تبارك وتعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يلهه بشر . لسان الذي يلحدون
إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وقال (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا
فصلت آياته ؟ أأعجمي وعربي ؟)

« قال الشافعي رحمه الله تعالى : وعرفنا قدر نعمه بما خصنا به من مكانه فقال
تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه) الآية ، وقال هو الذي
بعث في الأميين رسولا منهم) الآية ، وكان معارف الله تعالى نبيه ﷺ من انعامه
ان قال (وإنه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكر معه بكتابه وقال (وإنذر
عشيرتك الأقربين) وقال (لتنذر أم القرى ومن حولها) وأم القرى مكة

وهي بلده وبلد قومه ، فجعلهم في كتابه خاصة ، وأدخلهم مع المنذرين عامة ، وقضى أن يندروا بلسانهم الغربي لسان قومه منهم خاصة

« فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه ، كان خيراً له ، كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها ولو أتى البيت ومأمر باتيانه ويتوجه لما وجه له ، ويكون تبعاً فيما افترض عليه وندب اليه لا متبوعاً

« قال الشافعي رحمه الله : وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيرهم لأنه لا يعلم من إيضاح جهل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه ، وجماع معانيه وتفرقها . ومن علمها انتفت عنه الشبهة التي دخلت على من جهل لسانها ، فكان تلبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه ، أو إدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه ، وترك موضع حظه ، فكان يجمع مع النصيحة لهم قياماً بإيضاح حق ، وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين طاعة لله وطاعة الله جامعة للخير » أم ثم ذيلنا هذا النقل بما نذكر هنا ملخصه ببعض تصرف وهو :

هذا ما قاله الإمام الشافعي في رسالة الأصول الشهيرة المطبوعة بمصر بنصها ، ولا تحسبن أن هذا مذهب له خالفه فيه غيره من أئمة المسلمين ، كلا أنه إجماع لا اختلاف فيه ، وقد اشتهرت رسالته هذه في جميع أقطار الإسلام إذ كانت هي أول ما كتب في أصول الفقه ، وقد خالفه بعض المجتهدين في بعض مسائل الأصول دون هذه المسألة فلم يخالفوه ولم يناقشه أحد فيها ، ولا فيما أورده من الأدلة عليها ، وأوضح الأدلة على هذا إجماع المسلمين سلفاً وخلفاً على التعبد بتلاوة القرآن العربي وأذكار الصلاة والحج وغيرها بالعربية ، لم يشذ عن هذا سني ولا شيعي ولا أياضي ولا خارجي ولا معتزلي نعم أن المسلمين قد قصروا في دراسة هذه اللغة بعد ضعف الخلافة الإسلامية وتغلب الأعاجم فمطلوا بذلك بعض ما أمرهم الله تعالى به من تدبر القرآن والميرة والانتماظ

بآياته وفهم عقائده وفقه أحكامه ، ولكن روى قول شاذ عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى يجوز أداء بعض أذكار الصلاة والتلاوة فيها بغير العربية لمن تمذرع عليه تعلم ما يجب منهما أى من الأفراد لضعف في نطقه وفهمه ، وقد صح عنه أيضاً أنه رجع عن هذا القول ، على أنه مقيد بالضرورة الشخصية ، ولم يقل هو ولا غيره باطلاق ذلك وأنه ينعى أى شعب أعجمى أن يستغنى في دينه عن لغة كتابه وسنته ، والدليل على هذا أن جميع مقلديه من الأعاجم لا يزالون يقرؤون القرآن وأذكار الصلاة والحج وغيرها بالعربية وكذلك خطبة صلاة الجمعة والعيدين إلا ما شذت به الحكومة الكيالية التركية فأمرت الخطباء بأن يخطبوا بالتركية تمهيداً للصلاة بالخلمع رتبة الإسلام وقد بلغنا أن جماعة المصلين من الترك لما سمعوا خطبة الجمعة بالتركية نسكروها ونفروا منها واتخذوا خطباءها سخرياً لأن للعربية سلطاناً على أرواحهم يخشعون لها وإن لم يفهموا كل عباراتها ولأنهم اعتادوا أن يسمعوها بنغم خاص وأداء خاص لا تقبله اللغة التركية كالعربية وأيسر عبادات الإسلام وحدها هي التي تتوقف على العربية بل معرفة أحكام المعاملات تتوقف عليها أيضاً فإن أحكام الشريعة بجميع أنواعها حتى المدنية والسياسية متوقفة على الاجتهاد المبرع عن عرف هذا العصر بالتشريع ، وقد أجمع علماء الأصول من جميع المذاهب الإسلامية على توقف الاجتهاد في الشرع واستنباط الأحكام على معرفة اللغة العربية معرفة تمكن صاحبها من فهم أحكام القرآن والسنة ، وقد وضعنا هذه المسألة وبيننا وجه الحاجة إليها في هذا المصنف في كتاب (الخلافة - أو الامامة العظمى) فتراجع فيه

وجملة القول : أن إقامة دين الإسلام متوقفة على لغة كتابه المنزل وسنة نبيه المرسل ، سواء في ذلك هدايته الروحية ، ورابطته الاجتماعية ، وحكومته العادلة المدنية ، وأن المسلمين لم يكونوا في عصر من العصور أحوج إلى الوحدة المفروضة عليهم المتوقفة على هذه اللغة منهم في هذا العصر الذي تمزقوا فيه كل ممزق ، فأصبحوا أكلة لمنهوى الاستعمار ومستعبدى الأمم والشعوب ، وصدق فيهم قول النبي ﷺ « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كاتداعى الأكلة إلى قصبتها » الحديث

بحث ترجمة القرآن

سيقول بعض الجاهلين لحقيقة الإسلام وكونه ديناً روحانياً مدنياً سياسياً ،
وبعض أولى العصبة الجنسية الجاهلية : إن مقتضى ما ذكرت أنه لا يمكن إقامة
دين الإسلام كما يجب إلا باللغة العربية ، فلماذا لا يجوز على شعوب المسلمين ما جاز
على شعوب النصارى مثلاً من ترجمة كتبهم المقدسة بلغاتهم المختلفة مع بقائهم على
دين النصرانية وملة المسيح عليه السلام ؟

ونقول (أولاً) إن المسألة عندنا مسألة نقل واتباع لامتساق رأى ، وقد علمت أن
أئمتنا مجمعون على ما ذكرنا (وثانياً) أننا نحن المسلمين لا نعتقد أن النصارى على ملة
المسيح عليه السلام ولا يصح أن يزيد على ذلك اعتقادنا هذا في صحيفة عمومية ^(١) وثالثاً
إن ترجمة القرآن المعجز للبشر ترجمة تؤدي معانيه تأدية تامة كما أنزلها الله تعالى ويبقى
بها معجزاً وآية - متعذرة ، وقد بينا هذا بالأيضاح في مجلتنا (المنار) ولا محل له هنا
(ورابعاً) إذا فرضنا أن ترجمة الكتاب والسنة لا تخل بفهم أصول الدين وفروعه وتشريع
أفلا تخل بما هو موضوع هذا المقال من وجوب وحدتهم وتعارفهم وتعاونهم - وتوقف
ذلك على لغة واحدة ضروري - فإذا لم تكن لغة جميع أفراد شعوبهم فلتكن مما يتقنه
طوائف رجال الدين ودعاة الوحدة والاتفاق منهم ؟ بلى بلى اهـ

﴿ تفصيل القول في ترجمة القرآن ﴾

كتبنا في فاتحة المجلد ٢٦ من المنار مقالا في مسألة ترجمة القرآن
نذكر هنا منه ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرتلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون *
(سورة يوسف ١٢ : ١ و ٢)

(١) المراد بها جريدة الاهرام التي نشرنا فيها هذا المقال

وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون أو يُحدثُ لهم
ذكرًا * (سورة طه ٢٠: ١١٣)

ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر
الذين ظلموا و بشري للمحسنين * (الأحقاف ٢٦: ١٢)

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون * قرآنا عربيا
خير ذى عوج لعلمهم يتقون * (سورة الزمر ٣٩: ٢٦ و ٢٧)

حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم
يعلمون * (سورة فصلت ٤١: ١-٣)

حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه في أم
الكتاب لدينا لعلى حكيم * (الزخرف ٤٣: ١-٤)

وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم
الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير (سورة الشورى ٤٢: ٧)

وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من
المنذرين * بلسان عربى مبين * وإنه لى زبر الأولين * أولم يكن لهم آية أن
يعلمه علماء بنى إسرائيل * ولو أنزلناه على بعض الأعجمين * قرأه عليهم ما كانوا
به مؤمنين (سورة الشعراء ٢٦: ١٩٢-١٩٩)

قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى
للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر، لسان الذى يلمحدون اليه أعجمى
وهذا لسان عربى مبين * (سورة النحل ١٦: ١٠٢ و ١٠٣)

ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ؟ قل هو
للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عى ، أولئك
ينادون من مكان بعيد * (سورة فصلت ٤١ : ٤٤)

وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مآلك
من الله من ولى ولا واق * (سورة الرعد ١٣: ٣٧)

﴿ أما بعد ﴾ فهذه آيات محكمات من أم الكتاب فى هذا الباب ، تتجاوزن جمع القلة

إلى جمع الكثرة وعدون إشارات الإيجاز وحدود المساواة إلى باحة الإطناب ، ينطقن بنصوص صريحة لا تحتمل التأويل ، ولا تقبل التبديل ولا التحويل ، بأن الله تبارك وتعالى هو الذي أنزل هذا الكتاب الذي جعله آخر كتبه ، على خاتم أنبيائه ورسله . قرآننا عربيا ، وأنه هو الذي جعله قرآننا عربيا ، وأنه هو الذي أوحاه قرآننا عربيا . وأنه هو الذي فصل آياته قرآننا عربيا ، وأن الروح الأمين ، نزل به على قلب خاتم النبيين . بلسان عربي مبين : وأنه ضرب فيه للناس من كل مثل ، والمراد بالناس أمة الدعوة من جميع الملل والنحل ، حال كونه قرآننا عربيا غير ذي عوج ، وأنه أمر خاتم رسله أن ينذر به (أم القرى) ومن حولها من جميع الورى ، وأنه على إنزاله إياه قرآننا عربيا للأنذار والذكرى ، والوعيد والبشرى ، لعلمهم يعقلون ولعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ، أنزله حكما عربيا ، وأمر من أنزله عليه أن يحكم بين جميع الناس بما أراه الله فيه من الحق والعدل ، الذي جعله فيه حقا مشاعا لا هوادة فيه ولا محاباة لقراءة ولا فضل ، فقال (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للظالمين خصيا) اقرأ الآيات (من سورة النساء ١٠٤ : ١١٤) بطولها . وراجع سبب نزولها ، فعلم من هذه الآيات المحكمة أن القرآن هداية دقيقة عربية ، وأنه حكومة دينية مدنية عربية ، عربية اللسان ، عامة لجميع شعوب نوع الانسان .

وصلوات الله وتحياته المباركة الطيبة على محمد النبي العربي الأمين ، الذي جعله سيد ولد آدم وفضله على جميع النبيين والمرسلين ، بإكمال دينه بلسانه وعلى لسانه وإرساله لجميع العالمين ، وجعل هداية رسالته باقية إلى يوم الدين ، بقوله عمت رحمته (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين * ٢١ : ١٠٦) وقوله تبارك اسمه (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا * ٢٥ : ١) وقوله تعالى جده (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ٣٤ : ٣٨) وقوله جل جلاله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما * ٣٣ : ٤٠) وقوله عم نواله فيما أنزله عليه في حجة الوداع يوم الحج الأكبر (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً * ٥ : ٤)

وقد بلغ صلوات الله وسلامه عليه دعوة ربه كما أمر ، فبدأ بأمر القرى ثم بما حولها من

جزيرة العرب وشعوب المعجم ، باللسان العربي الذي قضى الله أن يوحد به السنة جميع الأمم ، فيجعلهم أمة واحدة بالمقائد والعبادات والآداب والشرع واللغة ، ليكونوا بنعمته إخوانا لامثار بينهم للعداوات التي تفرق بين الناس بعصبيات الأنساب والأقوام والأوطان والألسنة ، فكتب ﷺ كتبه إلى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر بلغة الإسلام العربية ككتبه إلى ملوك العرب وأمرائهم ، وبلغ أصحابه ما أمر الله به أمته من تعميم الدعوة ، وبشرهم بأن نورها سينتشر ما بين المشرق والمغرب ، فصنع الصحابة والتابعون لهم بهم ، وجميع دول الإسلام من بعدهم ، بما أمروا به من نشر هذا الدين بلغته ، في كلا قسمي شريعته عبادته وحكومته .

فكان الإسلام ينتشر في شعوب الأعاجم من قارات الأرض الثلاث (آسية وأفريقية وأوربة) بلغته العربية ، فيقبل الداخلون فيه على تعلم هذه اللغة بياث العقيدة ، وضرورة إقامة الفريضة ، ولا سيما فريضة الصلاة التي هي عماد الدين ، وأعظم أركانه بعد التصريح بالشهادتين ، اللتين هما عنوان الدخول فيه ، على أنهما من أعمال الصلاة أيضا ، فكان تعلم العربية من ضروريات الإسلام ، عند جميع تلك الشعوب والأقوام ، بالاجماع العلى العملى ، التعبدى والسياسى ، إلا ما كان من تقصير دولة الترك العثمانيين ، بعدم جعل العربية لغة رسمية للدواوين ، كسلفهم من السلجوقيين والبوليقيين ، حتى بعد تنحلهم للخلافة الإسلامية ، ورفع ألقابهم على مهد الإسلام من البلاد الحجازية ، قال ذلك إلى التعارض والتعاضد بين العصبية التركية اللغوية ورابطة الإسلام ، فالتفرق والتقاتل بين الترك والعرب فالقاء الخلافة العثمانية فاسقاط دولة آل عثمان ، وتأليف جمهورية تركية العصبية والتربية والتعليم ، أوروبية العادات والتقنين والتشريع ، وإبطال ما كان في الدولة من المصالح الإسلامية ، كمشيخة الإسلام والأوقاف والمدارس الدينية والحكام الشرعية وصرحوا بأن حكومتهم هذه مدنية غربية لادينية وأنهم فصلوا بين الدين والدولة فصلا باتا كما فعلت الشعوب الافرنجية ، على أنهم لما وضعوا قانون هذه الجمهورية قبل التجرد على كل ما ذكر ، وضعوا في موادها الدين الرسمى للدولة هو الاسلام مراعاة للشعب التركى المسلم ، كما وضعوا فيه مواد أخرى تنافى الإسلام من استقلال المجلس الوطنى المنتخب بالتشريع بلا قيد ولا شرط ، ومن إباحة الردة واستحلال ما حرم الشرع ، وظهر أثر

ذلك بالقول والفعل ، كالطعن الصريح في الدين والاستهزاء به حتى في الصحف العامة وكاباحة الزنا والسكر المسلمين والمسلمات ، وبروز الفسائد التركيات في معاهد الفسق ومحافل الرقص كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، إلى غير ذلك من منافيات الدين . ولكن هذا كله لم يرو غليل العصبية اللغوية التورانية ، ولم يذهب بحقدتها على الرابطة الاسلامية ، وآدابها الدينية العربية ، بل كان من كيدها لها السعى لازالة كل ما هو عربي من نفس الشعب التركي ولسانه ، وعقله ووجدانه ، ليسل عليهم سله من الاسلام ، بمعونة التربية الجديدة والتعليم العام ، بل عمدوا إلى هذه الشجرة الطيبة الثابت أصلها ، الراسخ في أرض الحق والعدل والفضل عرقها ، الممتد في أعالي السماء فرعها ، التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، عمدوا إليها لاجتثاث أصلها واقتلاع جذرها بعد ما كان من التحاء عودها ، وامتلاخ أملودها ، وخضد شوكتها وعضد خصلتها بعد أن نعموا بضعة قرون بشمرتها ، وإنما تلك الشجرة الطيبة هي القرآن الكريم الحكيم المجيد العربي المبين ، هي الزيتونة المباركة الموصوفة بأنها لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار ، فإذا مسته نار الإيمان بجرارتها اشتعل نورا على نور (يهدي الله لنوره من يشاء) يضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم)

وإنما أعنى بقطع هذه الشجرة المباركة من أرض الشعب التركي محاولة حرمانه منه ، ذلك بأنهم ترجموا القرآن بالتركية لایلهمه الترك ، فان تفاسيره بلغتهم كثيرة وكان من مقاصد ابطال المدارس الدينية ابطال دراستها (أى التفاسير حتى التركية) وحظر مدارس كتب السنة وكتب الفقه ونحوها ، لأنها مشحونة بآيات القرآن العربية ، وبالأحاديث النبوية العربية ، وبآثار السلف الصالح العربية وبالحكم والأمثال وشواهد اللغة العربية ، وهم يريدون محو كل ما هو عربي من اللغة التركية ، ومن أنفس الأمة التركية ، حتى إنهم ألفوا جمعية خاصة لما عبروا عنه « بتطهير اللغة التركية » من اللغة العربية ، واقترح بعضهم كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية ، وإذا طال أمد نفوذ الملاحدة في هذا الشعب الاسلامي الكريم فانهم سينفذون هذا الاقتراح قطعا كما نفذوا غيره حتى استبدال قرآن تركي بلغة بعض ملاحدة التورانيين ، بالقرآن الذي نزل به الروح الأمين ، على قلب خاتم النبيين ، بلسان عربي مبين ،

المتعبد بألفاظه العربية بإجماع المسلمين ، والمعجز ببلاغته العربية لجميع العالمين ،
وكونه حجة الله تعالى عليهم إلى يوم الدين .

أرأيت أيها القارىء هذا الخطب العظيم ؟ أرأيت هذا البلاء المبين ؟ أرأيت
هذه الجرأة على رب العالمين ؟ أرأيت هذه الصدمة لدين الله القويم ؟ أرأيت هذا
الشنآن والاحتقار لإجماع المسلمين ؟ ورفض ما جروا عليه مدة ثلاثة عشر قرناً
ونصف ؟ ثم أرأيت بعد هذا كله ما كان من تأثير ذلك في مصر أعرق بلاد الإسلام
في الفنون العربية ، والعلوم الإسلامية .

لقد كان من تأثير ذلك ما هو أقوى البراهين ، على فوضى العلم والدين ،
واختلال المنطق وفساد التعليم ، والجهل الفاضح بضروريات الإسلام وشؤون
المسلمين ، لقد كان أثر ذلك الجدال والمراء ، وتعارض الآراء والأهواء ، وتسويد
الصحائف المنشرة ، بمثل ما شوهوها به في مسألة الخلاف ، وقد كان يجب أن
تكون مسألة القرآن أبعد عن أهواء الخلاف ، لخصوص الكثيرة الصريحة فيها ،
وإجماع السلف والخلف بالعلم والعمل عليها ، وعدم شذوذ أصحاب المذاهب والفرق
حتى المبتدعة عنها ، فقد كثرت الخلاف والتفرق في الدين ، وتعددت الأحزاب
والشيع في المسلمين ، على ما ورد في النهي عن ذلك والوعيد عليه في الآيات
الصريحة ، والأحاديث الصحيحة ، وارتدت بعض الفرق عن الدين ، بضروب من
فاسد التأويل ، وسخافات من أباطيل التعريف ، كما فعل زنادقة الباطنية وغيرهم .
قبل أن يقولوا ويصرحوا بكفرهم ، ولم تقم فرقة تنتمى إلى الإسلام بترجمة القرآن
ولا ضلت طائفة بترجمة أذكار الصلاة والأذان ، لأجل الاستغناء بهما في التعبد
لله ، عن اللفظ المنزل من عند الله ، وإنما قصارى ما وقع من الخلاف فيما حول ذلك
من فروع المسألة ، ومن تصوير الفقهاء للوقائع النادرة ، أنه إذا أسلم أعجمي مثلاً
وأردنا تعليمه الصلاة فلم يستطع لسانه أن ينطق بألفاظ الفاتحة فهل يصلى بعمانيها
من لغته ، أم يستبدل بها بعض الأذكار العربية المأثورة مؤقتاً ريثما يتعلم القرآن كما
ورد في بعض الأحاديث ، أم يصلى بترجمة الفاتحة بلغته ؟ نقل القول الأخير عن أبي

حنيفة وحده مع مخالفة جميع أصحابه له ، ونقل عنه أنه رجع عنه إلى الإجماع ، وما ينقل عن أحد من المسلمين أنه عمل به ﴿ على أنه لاجبة في عمل أحد ولا في قوله ، غير المصوم ﴾ فكان هذا الإجماع العام المطلق مما يؤيد حفظ الله تعالى للقرآن ، وأراد ملاحدة الترك أن يبطلوه في هذا الزمان (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون *) (سورة الصف : ٦١ : ٩ و ١٠)

منشأ فكرة ترجمة القرآن وسببها

لقد كان ضعف الخلافة القرشية بجبل الخلفاء وترفعهم وفسقهم سبباً لتفريق المسلمين فتخاذلهم فضعتهم ، إذ كان سبباً لتأسيس عدة دول إسلامية تتنازع السلطة - ولضعف اللغة العربية وترك الأعاجم لها ، فاضطراهم إلى ترجمة بعض الكتب الدينية وتدريس العربية منها بالترجمة فالشعور بالحاجة إلى ترجمة القرآن نفسه بلغاتهم لأجل فهمه بالأجمال ، ثم بالحاجة إلى ترجمته بسائر اللغات لأجل الدعوة بترجمته إلى الإسلام ، ولما انفردت دولة الترك العثمانيين دون سائر دول الأعاجم الإسلامية بجعل لغتهم رسمية لها ، ثم بادعاء منصب الخلافة لسلطانها ، اقتضى ذلك تمعد هذه الدولة لأضعاف الأمة العربية ولمعاداتها ، ولتفضيل لغة أبناء جنسهم ، على لغة كتاب ربهم وسنة رسولهم ، ثم لتفضيل رابطة جنسهم ولغتهم على رابطة دينهم ، ثم للاستغناء عن هذه بتلك ومن ثم صارت جامعة اللغة والقومية معارضة للجامعة الإسلامية وسبباً لمعاداتها . ثم تجدد لدعاة العصبية الجنسية التركية سبب آخر لترجمة القرآن وهو التهديد به إلى المروق من الإسلام ، ولم يفعل هذا إلا الترك الذين نالوا بالإسلام دون غيره ما نالوا من العز والملك الكبير

إن ملاحدة الترك ودعاة العصبية الجنسية منهم قد بشوا في قومهم فكرة الاستغناء عن القرآن المنزل من الله تعالى باللسان العربي بترجمته باللسان التركي قبل عهد الحرية الدستورية بسنين . وقد أنكرنا هذا عليهم قولاً وكتابة ، وأول من سمعنا منه هذا الرأي محمد عبيد الله أفندي الذي صار بعد الدستور مبعوثاً

وأشأ في الاستانة جريدة عربية باللغة العربية لأجل خداع العرب وإضلالهم . سمعت هذا الرأي الفاسد منه في مصر ورددت عليه فيه . ثم سمعته في الاستانة من غيره أيضاً وأنكرته عليهم ، وقد ذكرته في مواضع من مجلد المنار الثالث عشر (منها) قولنا في (الفتوى ٢٧ ص ٣٤٣ ج ٥ م ١٣ الذي صدر في سلخ جمادى الأولى سنة ١٣٢٧) في سياق مخططة محمد عبيد الله أفندي في ادعائه أن الإسلام نشر بالاكره عليه بالسيف

« ليست هذه المسألة هي التي شذ فيها وحدها هذا الرجل ، فان له شذوذاً في مسائل أخرى دينية وتاريخية كادعائه أن نبوة النبي ﷺ ما تمت ولا تتم إلا بترجمة القرآن إلى جميع اللغات ، وكادعائه أن غير العرب من المسلمين يمكنهم الاستغناء في دينهم عن معرفة اللغة العربية ، وعن القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى آية العالمين ، معجزاً للبشر على مر السنين ، بترجمته إلى الترجمة والفارسية وغيرها من اللغات وإن كان المترجم يترجم حسب فهمه ، فيختلف مع غيره ، فيكون لكل أهل لغة قرآن ، وإن كانت الترجمة لا يمكن أن يتحقق فيها الإعجاز كالقرآن المنزل من عند الله تعالى ، ولا يصح التعبد بتلاوتها ، ولا يتحقق فيها غير ذلك من خصائص القرآن ، وقد سبق لي مناقشة معه في هذه المسألة بمصر منذ سنين أ »

ومنها — ما ذكرته في (ج ٧ منه ص ٥٤٩) في سياق مكرر مع طلست بك (باشا) ناظر الداخلية بداره في الاستانة : ذكر لي فيه أن هذا الرجل سينشئ جريدة عربية لأجل التآلف بين العرب والترك ، فذكرت له أنه يخشى أن يكون تأثيرها زيادة المشقة لما هو معروف به من كراهة العرب ، وزعمه بإمكان استغناء الترك عن لغتهم وعن قواهم العربي بترجمته بالتركية الخ وكذلك كان ومنها — قولنا في مناجاة لله تعالى (في ص ٣٨٤ منه) : اللهم إنك تعلم أن من هؤلاء (أي المنسدين) من يفوق سهام كيدته ومكره للأمة العربية التي شرقتها وفضلتها بخاتم أنبيائك ورسالك ، وخير كتبتك المنزلة لها إية خلفك ، وخطبت سلفها الصالح بقولك الحق (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الخ

« اللهم إنهم حسدوها أن جعلت كتابك حرباً مبيناً ، فهم يريدون ترجمته ليكون حرضة لتحريف المحرفين ، واختلاف المتفقين ، اللهم إنك أنزلته لتجمعهم عليه ، وهم يحاولون ترجمته لكل شعب من المسلمين ليتفرقوا فيه ، اللهم إنه حبلك المتين الذي أمرتنا أن نعتصم به ، ولا نفرق عنه بقولك (٣ : ١٠٣) واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وهو بينناك التي قلت فيها (٣ : ١٠٥) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات)

« اللهم إنهم يزعمون أن رسالة خاتم رسلك ما تمت إلى الآن ، وأنها لا تتم إلا بترجمة القرآن ، وأنت قلت وقولك الحق (٥ : ٣) اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليهم نعمتي ورزيت لكم الإسلام ديناً)

ومنها - قولنا في آخر الفتوى ٣٢ منه (ص ٥٧١) في سياق الدعوة إلى الاهتداء بالكتاب والسنة : ولا يتم هذا الاهتداء إلا بالعناية باللغة العربية ، ولا شيء أضر على الإسلام في هذا العصر ممن يدعو إلى ترجمة القرآن إلى اللغات المختلفة ، ليستغنى المسلمون بالترجمة عن القرآن المنزل من عند الله تعالى بلسان عربي مبين . قالفاية من هذه المفسدة إذا وقعت (لاصح الله) أن يكون الأعاجم من المسلمين حرضة لترك الدين . وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى .
وقد راجت دعوة ملاحدة الترك إلى الاستغناء عن كتاب الله المنزل بعد قبض ملاحدة جمعية الاتحاد والترقي على أعنة الدولة العثمانية تمهيداً منهم لما نفذه أندادهم السكاليون من بعدهم من نبذ الدولة التركية لأحكام الإسلام ، وسعيها لسل الشعب التركي منه أيضاً

وقد كان مما نشر الاتحاديون من الكتب الممهدة لهذا السبيل كتاب (قوم جديد) الذي انتقدناه ونشرنا ترجمة بعض مسائله في المجلد السابع عشر من المذار (سنة ١٣٣٥) والمراد بكلمة قوم جديد إنشاء شعب تركي غير مسلم . ومما قلناه في آخر مقال طويل منه (ص ١٦٠ ج ٢ م ١٧) عنوانه (مفسد المتفرجين . في أمر الاجتماع والدين) مانصه :

« يرى هؤلاء العاملون أنه ليس في طريقهم عقبة تحول دون بلوغ المقصد

بالسرعة التي يبغون من وراء هذا العمل إلا حاجة الترك إلى اللغة العربية لأجل الدين . ويرون أن هذا الدين ولغته مما يعيق تكوين أمة تركية محضنة على الطراز الأفرنجي الفرنسي ، فاجتهدوا في إزالة هذا المانع بمزيلين .

(أحدهما) ترجمة القرآن بالتركية ودعوة الترك إلى الاستغناء عن القرآن العربي بما صوبه القرآن التركي . وإذا استغنوا عن القرآن يستغنوا بالأولى عن غيره من كتب الحديث والتفسير والفقه وسائر العلوم والفنون العربية .

(الثاني) نشر الكتب والرسائل التي تجعل الجنسية التركية أعلى وأسمى في النفوس من رابطة الدين تمهيداً للثانية بالأولى ...

(وذكرنا من هذه الكتب كتاب قوم جديد ، وأشرنا إلى بعض مفاسده) ثم نشرنا نموذجاً من كتاب (قوم جديد) هذا في (ص ٥٣٩ - ٥٤٤ منه) أوله قوله في (ص ١٤ منه) : يجب تعطيل جميع المساجد والتكيا الموجودة في الآستانة ماعدا الجوامع التي بناها السلاطين^(١) وتخصيص نفقاتها بالشئون الحربية والعسكرية ، كما ورد في الآيات الكريمة والأعمال النبوية ، ويليه (٢) قوله في ص ١٥ بفرضية ترجمة القرآن .

ومنه ما ذكره من صفات من سماهم (قوم عتيق) من تمسكهم بالصوم والصلاة والحج والزكاة ، والعمل بكتب فقه الأئمة الأربعة التي وصفها بأنها مملوءة بالنفاق والشقاق ، وزعم أن العمل بها غير جائز - ثم قال في صفات (جديد) مانعه :

« وأما القوم الجديد فإنهم لا يبالون بمثل هذه الخرافات القديمة ، بل

استخرجوا من الأحكام القرآنية والحديثية الأركان الدينية الآتية (١) العقل (٢) كلمة الشهادة (٣) الأخلاق الحسنة (٤) الجهاد مالا وبدناً والحرب (٥) السعي لأعداد لوازم الحرب . . . الخ . ثم بسطنا هذه المسائل من وسائل ومقاصد في المجلد التاسع عشر . وقد صدق كل ما قلناه وأرأيناه من مقاصد ملاحدة الترك ما فعلته الحكومة الكمالية من إلغاء الأحكام الشرعية كلها ، وجعل جميع سياستها وأحكامها حتى الشخصية مدنية أوربية ، وإلغاء المحاكم

(١) استغناءهم عن القرآن الكريم .

الشرعية ، والأوقاف الإسلامية ، واندارس الدينية - دع إلغاء ماعمل باسم الدين من المبتدعات كشكيا أصحاب الطرق مقلدة المتصوفة الخ . صدقوا بالفعل كل ماقلناه من مقاصدهم ، وكان بعض المسلمين الجاهلين بحال الدولة التركية وتأثير التفرنج فيها ينكرون علينا ماقلناه عن علم وخبرة وغيرة على الاسلام ظنا منهم أنه إضمااف للدولة حامية الإسلام ، وإنما كان حرصاً على تقوية الدولة بالاسلام وتقوية الإسلام بالدولة ، لأننا نعلم ما لا يعلمون من إفضاء هذه الضلالات والعصبية الجنسية إلى إضاعة هؤلاء المتعصبين المفتونين للإسلام والدولة معا - وكذلك كان . وقد كان بعض الترك الروسين استغفانا في مسألة الترجمة قبل أن نعلم بهذا الغرض الفاسد فأفتيناه فيها لذاتها إذ لم يكن يخطر ببالنا أن أحداً من المسلمين يتوسل بذلك إلى إخراج شعب اسلامي من الاسلام - وهذا نص السؤال والجواب

﴿ فتوى المنار في حظر ترجمة القرآن ﴾

نشرت في ص ٢٦٨ - ٢٧٤ م ١١ ج ٤ منه المؤرخ ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٢٦

(س ١) من الشيخ أحسن شاه أفندي أحمد (من روسيا)

حضرة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا

نرجو أن تعيروا جانب الالتفات لهذه المسألة المهمة :

ذكر الفاضل أحمد مدحت أفندي من علماء الترك العثمانيين في كتابه

« بشائر صدق نبوت » ما ترجمته :

إن ترجمة القرآن مسألة مهمة عند المسلمين وجميع المباحثات التي دارت بشأن ترجمة هذا الكتاب الجيد لم ترس على نتيجة ، وذلك لوجوه (الأول) أن ترجمته باللغة غير ممكنة لإيجازه من جهة البلاغة (والوجه الثاني) أن فيه كثيراً من الكلمات لا يوجد لها مقابل في اللغة التي يترجم إليها ، فيضطر المترجم إلى الإتيان بما يدل عليها مع شيء من التغيير . ثم إذا نقلت هذه الترجمة إلى لغة أخرى يحدث فيها شيء من التغيير أيضاً وهلم جرا ، فيخشى من هذا أن يفتح

يستخرج منها بعض إشارات وأحكام بطريق الحساب ، فابداها بالترجمة يسد هذا الطريق ، مثل ذلك أن سعدى جلبي كتب في حاشيته على البيضاوى عند تفسير سورة الفاتحة أنه إذا أخرجت الحروف المسكرة من سورة الفاتحة التى هى أول القرآن وسورة الناس التى هى آخر سورة تكون الحروف الباقية ثلاثة وعشرين قال : وفى ذلك إشارة إلى مدة سنى النبوة المحمدية - فإذا ترجم القرآن لا يبقى فى الترجمة مثل هذه الفوائد التى هى من جملة معجزاته انتهى « من بشرأ صدق نبوت » أما أدباؤنا معشر الترك الروسين ، فانهم مصررون على ترجمته ويقولون : لا معنى للقول بأنه لا يجوز ترجمة القرآن إلا بإيجاب بقائه غير مفهوم ، فلذا يذهبون إلى وجوب ترجمته ، وهو الآن يترجم فى مدينة قران ، وتطبع ترجمته تدريجاً ، وكذلك تشبث بترجمته إلى اللسان التركى زين العابدين حاجى الباكوى أحد فدائية القفقاز ، فنرجو من حضرة الأستاذ التدبر فى هذه المسألة

حرره الامام الحقير أحسن شاه أحمد

الكتائب الدينى السامرى

(جواب المنازله) إن من تقصير المسلمين فى نشر دينهم أن لا يدينوا معانى القرآن لأهل كل لغة بلغتهم ، ولو بترجمة بعضه ^(١) لأجل دعوة من ليس من أهله اليه ، وإرشاد من يدخل فيه عند الحاجة بقدر الحاجة . وإن من زلزال المسلمين فى دينهم أن يتفرقوا إلى أُمم تسكون رابطة كل أمة منها جنسية نسبية أو لغوية أو قانونية ، ويهجروا القرآن المنزل من الله تعالى على نبيهم رسله ، المعجز بأسلوبه وبلاغته وهدايته ، المتعبد بتلاوته ، اكتفاء بأفراد من كل جنس بترجمته لهم بلغتهم بحسب ما يفهم المترجم

هذا الزلزال أثر من آثار جهاد أوروبا السياسى الذى للمسلمين . زين لنا أن نتفرق وننقسم إلى أجناس ، طائفا كل جنس منا أن فى ذلك حياته ، وما ذلك إلا موت للجميع . ولا تطيل فى هذه المسألة هنا ، ولعلنا نذكر شيئاً مما يخطر فى البال من مفاسد هجر المسلمين للقرآن المنزل (بلسان عربى مبين) -- استغناء

عنه بترجمة أعجمية يفنيهم عنها تفسيره بلغتهم ، مع المحافظة على نصه المتواتر المحفوظ من التعريف والتبديل - مع مراعاة الاختصار فنقول :

(١) إن ترجمة القرآن ترجمة حرفية تطابق الأصل متعذرة كما يعلم من المسائل الآتية ، والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن ، أو فهم من عساه يعتمد هو على فهمه من المفسرين ، وحيث لا تكون هذه الترجمة هي القرآن ، وإنما هي فهم رجل للقرآن بخطئه في فهمه ويصيب ، ولا يحصل بذلك المقصود المراد من الترجمة بالمعنى الذى نذكره

(٢) إن القرآن هو أساس الدين الإسلامى ، بل هو الدين كله ، إذ السنة ليست ديناً إلا من حيث أنها مبينة له . فالذين يأخذون بترجمته يكون دينهم ما فهمه مترجم القرآن لهم ، لأنفس القرآن المنزل من الله تعالى على رسوله محمد ﷺ والاجتهاد بالقياس إنما هو فرع عن النص ، والترجمة ليست نصاً من الشارع ، والاجماع عند الجمهور لا بد أن يكون له مستند والترجمة ليست مستنداً . فعلى هذا لا يسلم لمن يجعلون ترجمة القرآن قرآناً شئ من أصول الاسلام

(٣) ان القرآن منع التقليد في الدين وشنع على المقلدين فأخذ الدين من ترجمة القرآن هو تقليد لمترجمه ، فهو إذاً خروج عن هداية القرآن لا اتباع لها

(٤) يلزم من هذا حرمان المقتصرين على هذه الترجمة مما وصف الله به المؤمنين في قوله (١٢ : ١٠٨) قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وأمثالها من الآيات التى تجعل من مزايى المسلم استعمال عقله وفهمه فيما أنزل الله (١)

(٥) كما يلزم حرمانهم من هذه الصفات العالية يلزم منع الاجتهاد والاستنباط من عبارة المترجم ، لأن الاجتهاد فيها مما لا يقول به مسلم

(٦) ان من يعرف لغة القرآن وما يحتاج اليه في فهمه كالسنة النبوية وتاريخ الجليل الأول الذى ظهر فيه الاسلام يكون مأجوراً بالعمل بما يفهمه من القرآن

(١) أعني كقوله تعالى في أول سورة الاعراف (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون) والمنزل اليها من ربها هو القرآن العربى

كما صحت به الآيات : فاتقاء الترجمة مخافة إكل من الأمانة التى في هذه الآية

وإن أخطأ في فهمه ، لأنه بذل جهده في الاهتداء بما أنزله الله هداية له . كما يعلم ذلك من معاملة النبي ﷺ لأصحابه فيما فهموه من كيفية التيمم إذ عذر المختلفين في فهم العمل بها ، ومثله معاملته لهم فيما فهموه من نهيه عن صلاة العصر إلا في بني قريظة ، ولذلك شواهد أخرى ولا أخال مسلماً يجعل لعبارة مترجم القرآن هذه المزية (٧) إن القرآن ينبوع للهداية والمعارف الإلهية ، لا تخلق جدته ، ولا تفنأ تتجدد هدايته ، وتفبض للقارىء على حسب استعداده حكمته ، فر بما ظهر للمعناخر من حكمه وأسراره ما لم يظهر لمن قبله ، تصديقاً لعموم حديث « قَرَّبَ مِبلغ أَوْعَى من سَماع » و ترجمته تبطل هذه المزية ، إذ تقيد القارىء بالمعنى الذى صورته المترجم بحسب فهمه ، مثال ذلك أن المترجم قد يجعل قوله تعالى (١٥ : ٢٢) وأرسلنا الرياح لواقح) من المجاز بالاستعارة أى إن اتصال الريح بالسحاب و حدوث المطر عقب ذلك يشبه تلقيح الذكر للأنثى و حدوث الولد بعد ذلك كما فهم بعض المفسرين . فاذا هو جرى على ذلك بأن فرضنا أنه لا يوجد فى اللغة التى يترجم بها لفظ يقوم مقام (لواقح) العربى فى احتمال حقيقةه و مجازه إذا أطلق فان القارئ يتقيدون بهذا الفهم ، ويمتنع عليهم أن يفهموا من العبارة ما هى حقيقة فيه ، وهو كون الرياح لواقح بالفعل . إذ هى تحمل مادة اللقاح من ذكور الشجر إلى إناثه ، فان لم ينطبق هذا المثال على القاعدة لتيسر ترجمة الآية ترجمة حرفية ، فان هناك أمثلة أخرى ، وحسبنا أن يكون هذا موضحاً . والترجمة تقف بنا عند حد من الفهم يمولنا معه الترقى المطلوب

(٨) ذكر الغزالي فى كتاب « إلجام العوام عن علم الكلام » أن ترجمة آيات الصفات الإلهية غير جائزة ، واستدل على ذلك بما هو واضح جداً . وقد ذكرنا عبارته فى تفسير (٣ : ٦) هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) وبين أن الخطأ فى ذلك مدرجة للكفر ^(١)

(٩) ذكر الغزالي فى الاستدلال على ما تقدم أن من الألفاظ العربية ما لا يوجد لها فارسية تطابقها — أى ومثل الفارسية التركية وغيرها — فما الذى

يفعله المترجم في مثل هذه الألفاظ ، وهو إن شرحها بحسب فهمه ، بما يقع قارئ ترجمته في اعتقاد ما لم يرده القرآن ؟

(١٠) قد ذكر ذلك أيضاً : أن من الألفاظ العربية مأثمة فارسية تطابقها « لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها لها » فإذا أطلق المترجم اللفظ الفارسي يكون هنا مؤدياً المعنى الحقيقي للفظ العربي . وربما كان مراد الله هو المعنى المجازي ، ومثل الفرس غيرهم من الأعاجم . وهذا المقام من مراتب الأقدام إذا كان الكلام عن الله عز وجل وصفاته وأفعاله (١١) ذكر أيضاً في هذا المقام . أن من هذه الألفاظ ما يكون مشتركاً في العربية ، ولا يكون في العجمية كذلك . فقد يختار المترجم غير المراد لله من معني المشترك ، ولا يخفى ما فيه ، وقد مرّ نظيره آنفاً .

(١٢) من المقرر عند العلماء أنه إذا ظهر دليل قطعي على امتناع ظاهر آية من آيات القرآن فانه يجب تأويلها حتى تتفق مع ذلك الدليل . والفرق بين تأويل ألفاظ القرآن وتأويل ألفاظ ترجمته لا يخفى على عاقل لاسيما في الآيات المتشابهة والألفاظ المشتركة

(١٣) إن لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصاً في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة ، وإذا فات يفوت بقوة غير كثير ، فيما طالما كان جاذباً إلى الاسلام ، حتى قال أحد فلاسفة أوروبا وهو فرنسي نسيب اسمه : إن محمداً كان يقرأ القرآن بحال مؤثرة تجذب السامع إلى الإيمان به ، فكان تأثيره أشد من تأثير ما ينقل عن غيره من الأنبياء من المعجزات . وحضر الدكتور فارس افندي مرة الاحتفال السنوي لمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالقاهرة ، فافتتح الاحتفال بتليذ بقراءة آيات من القرآن ، فقال لي الدكتور فارس افندي : إن لهذه القراءة تأثيراً عميقاً في النفس . ثم لما كتب خير الاحتفال في جريدته (المقطم) كتب ذلك . فإذا كان لتلاوة القرآن هذا التأثير حتى في نفس غير

المؤمن به ، فكيف نخم منها المسلمين بترجمة القرآن لهم

(١٤) إذا ترجم التركي والفارسي والهندي والصيني إلخ القرآن ، فلا بد أن يكون بين هذه التراجم من الخلاف مثل ما بين تراجم كتب العهد العتيق والعهد الجديد عند النصارى^(١) وقد رأينا ما استخرجه لهم صاحب إظهار الحق من الخلافات التي كنا نقرؤها ونحمد الله تعالى أن حفظ كتابنا من مثلها ، فكيف نختارها بعد ذلك لأنفسنا ؟

(١٥) ان القرآن هو الآية الكبرى على نبوة محمد ﷺ ، بل هو الآية الباقية من آيات النبيين . وإنما يظهر كونه آية باقية محفوظة من التفتير والتبديل ، والتحريف والتضخيف ، بالنص الذي نقلناه عن جاء به من عند الله والترجمة ليست كذلك . هذا ما نراه لنا من الوجوه المانعة من ترجمته للمسلمين ليكون لهم قرآن أحسن بدل القرآن العربي ، وإذا كان بعض هذه الوجوه مما يمكن ادخاله في البعض — وإنما ذكر هكذا لزيادة الإيضاح — فإن هناك وجوها أخرى يمكن استنباطها لمن تأمل وفكر في وقت صفاء الذهن وصحة البصيرة ، بل منها ما تركناه مع تذكره . وأما دعوى القائلين بوجوب ترجمته أن عدم جواز الترجمة يستلزم إيجاب بقاءه غير مفهوم فهي ممنوعة ، فأننا نقول : إن فهمه سهل ، ولكن ليس لأحد أن يجعل فهمه حجة على غيره فكيف يجعله ديناً لشعب برمته ؟ وإن لاهتداء المسلم الأعجمي بالقرآن درجتين . درجة دنيا خاصة بالعوام الذين لا يتيسر لهم طلب العلم فيحفظون الفاخرة وبعض السور القصيرة لأجل قراءتها في الصلاة ويترجم فهم تسييرها ، وتقرأ أمامهم في مجالس الوعظ بعض الآيات ويذكر لهم تفسيرها ، بلغتهم كما جرى عليه كثير من الأعاجم حتى يبلاد الصين ودرجة عليا للمستغنين بالعلم وهؤلاء يجب أن يتقنوا لغته ويستفادوا بفهمه مستعينين بكلام المفسرين غير متلدين لأحد منهم .

ان الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام على أيدي الصحابة السكرام قد فهموا أن للإسلام لغة خاصة به لا بد أن تكون عامة بين أهلها لفهموا كتابه الذي

يدينون به ويمتدون بهديه ، ويعبدون الله بتلاوته ، ولتتحقق بينهم الوحدة المشار إليها بقوله فيه (٩٤: ٢١) ان هذه أمتكم أمة واحدة) ويكونوا جديرين بأن يعنصروا به وهو حبل الله فلا ينفرقوا ، ولتكل فيهم أخوة الإسلام التي حتمها عليهم بقوله (١٠٠ : ٤٩) إنما المؤمنون أخوة) ولذلك انتشرت اللغة العربية في البلاد التي فتحها الصحابة بسرعة غريبة مع عدم وجود مدارس ولا كتب ولا أساتذة للتعليم ، واستمرت الحال على ذلك في زمن الأمويين في الشرق والغرب وفي أول مدة العباسيين حتى صارت العربية لغة الملايين من الأوربيين والبربر والقبط والروم والفرس وغيرهم في ممالك تمتد من القاموس المحيط الغربي (الأتلاتيك) إلى بلاد الهند ، فهل كان هذا إلا خيراً عظيماً تأخت فيه شعوب كثيرة ، وتعاونت على مدنية كانت زينة الأرض ، وضياء ونوراً لأهلها ؟ .

ثم هنا المأمون في الشرق هفوة سياسية حركت العصبية الجنسية في الفرس فأنشؤا يتراجعون إلى لغتهم ويعودون إلى جنسيتهم ، وجاء الأتراك ففعلوا بالعصبية الجنسية ما فعلوا ، فسقط مقام الخلافة وتمزق شمل الإسلام بقوة ملوك الطوائف . ولكن لم تصل الفتنة بالناس إلى إبعاد قرآن أمجى للأعاجم وإبقاء القرآن العربي المنزل خاصاً بالعرب ، بل بقي الدين والعلم عربيين وراء إمامهما الذي هو القرآن .

فالواجب على دعاة الإصلاح في الإسلام الآن أن يجتهدوا في إعادة الوحدة الإسلامية إلى ما كانت عليه في الصدر الأول خير قرون الإسلام ، وأن يستعينوا على ذلك بالطرق الصناعية في التعليم ، فيجعلوا تعلم العربية إجبارياً في جميع مدارس المسلمين ، ويحيوا العلم بالإسلام بطريقة استقلالية لا يتقيدون فيها بأراء المؤلفين في القرون الماضية المخالفة لطبيعة هذا العصر في أحوالها المدنية والسياسية . ولكننا نرى بعض المفتونين منا بسياسة أوروبا يعاونونها على تقطيع بقية ما ترك الزمان من الروابط الإسلامية بتقوية العصبية الجنسية حتى صار بعضهم يحاول إغناء بعض شعوبهم عن القرآن المنزل ! : ألا إنها فتنة في الأرض وفساد كبير وقع الله المسلمين شمه ها . فهذا ما أقوله الآن في ترجمة القرآن للمسلمين دون

تفسيره لم بلغتهم مع بقاءه إماماً لهم ، ودون ترجمته لدعوة غيرهم به إلى الاسلام مع أن المترجم بين المعنى الذى يفهمه هو . انتهت الفتوى

وبلخص هذه الفتوى أن ترجمة القرآن ترجمة حرفية منعذرة وينترب عليه مفسد كثيرة ، فهو محظور لا يبيحه الإسلام لأنه جناية عليه وعلى أهله . ولا يجوز أن تسمى الترجمة قرآناً ولا كتاب الله ولا أن يسند شيء منها إليه تعالى فيقال قال الله كذا لأن كتاب الله وقرآنه عربى بالنص القطعى والاجماع الشرعى من سلف أهل الملة كلهم وخلفها لا الإجماع الأصولى المختلف فيه ، ولأنها ليس لها شيء من خصائص القرآن اللفظية ولا المعنوية كالإعجاز ، وهى لابد أن تكون مخالفة له فى المعنى كخالفتهما فى اللفظ فاسنادها إليه تعالى كذب عليه وكفر بكتابه . بل أجمع المسلمون على أنه لا يجوز إبدال لفظ من ألفاظ المصحف بلفظ آخر يرادفه من اللغة العربية ككلمتى « شك ، وريب » فى قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وأما الترجمة المعنوية التى هى عبارة عن تفسير ما يحتاج إلى تفسير منه بلغة أخرى فغير محرم ، وإنما تنبع فيه المصلحة الشرعية بقدرها

﴿ أقوال الفقهاء فى المسألة ﴾

﴿ ترجمة القرآن وقراءته وكتابه بغير اللغة العربية ﴾ (١)

المعول عليه عند الأئمة وسائر العلماء أنه لا يجوز كتابة القرآن ولا قراءته ولا ترجمته بغير العربية مطلقاً ، إلا فيما نقل عن أبى حنيفة وصاحبيه من جواز قراءة القرآن بالفارسية فى خصوص الصلاة ، وإليك بمض النصوص فى ذلك : قال شيخ الإسلام أبوا الحسن المرغينانى الحنفى فى التجنيس : وينبغ من كتابة القرآن بالفارسية بالاجماع ، لأنه يؤدى إلى الاخلال بحفظ القرآن ، لأننا أمرنا بحفظ اللفظ والمعنى فانه دلالة على النبوة ، ولأنه يؤدى إلى التهاون بأمر القرآن اه وقال فى معراج الدراية : من تعمد قراءة القرآن أو كتابته بالفارسية فهو

(١) نقلناه من الفقه من رسالة الاستبصار للشيخ محمد حسين العبدى ، أحد كبار علماء الأزهر

مجنون أو زنديق ، والمجنون يداوى ، والزنديق يقتل ، وروى ذلك عن أبي بكر محمد بن الفضل البخارى اهـ

وفي الدراية : ان القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً بالإجماع ، وقد أنزل حجة على النبوة ، وعلماً على الهدى ، والهدى بمعناه ، والحجة بنظمه . وكان الاخلال بالمعنى يسقط حكم القراءة ، كذلك الاخلال بالنظم ، ولأن حفظ القرآن واجب في الجملة ليكون حجة على الحكم . ولا قراءة تجب إلا في الصلاة ، فلم أنها متعلقة بعين ما أنزل ليقع الحفظ بها اهـ

وروى عن الإمام أبي حنيفة كافي الهداية وغيرها : جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة مطلقاً ، وعن صاحبين : إذا كان لا يحسن العربية ، أما إذا كان يحسنها فلا يجوز ، وتفسد صلاته إذا قرأ بغير العربية

وروى أبو بكر الرازى : رجوع الإمام إلى قولها وعليه الاعتماد — وقال الامام الزاهدى فى الجامع الصغير : ان ما نقل عن أبى حنيفة وصاحبيه من أن القراءة بالفارسية تفسد الصلاة لمن قدر على العربية ، أما عند المجز فلا فساد (محله) إذا قرأ بالفارسية كل لفظ بما هو فى معناه من غير أن يزيد فيه شيئاً . أما إذا قرأ على سبيل التفسير فتفسد صلاته بالإجماع اهـ

وهو تقييد حسن ، لأنه حينئذ يكون تكلاماً بكلام غير القرآن من كلام الناس وهو مفسد للصلاة

وأصل الاختلاف فى ذلك كما فى بدائع الصنائع وأحكام القرآن لحجة الإسلام الجصاص قوله تعالى (فاقروا ما تيسر من القرآن) حيث أمر بالقراءة ، والأمر للوجوب ، ولا موضع لوجوب القراءة غير الصلاة ، فوجب أن يكون المراد القراءة فى الصلاة ، فذهب صاحبان إلى أنه إذا قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية ، فقد قرأ ما ليس بقرآن ، فقد خرج عن عبدة الأمر : لأن الفارسية ليس قرآناً ، والقرآن هو المنزل بلغة العرب ، قال تعالى (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) وأيضاً فالقرآن هو المعجز ، والعجاز من جهة اللفظ يزول بزوال النظم الدائم ، فلا يكون الفارسي قرآناً لانعدام المعجز . ولهذا لم تحرم قراءته على

الجنب والخاص ، غير أنه إذا كان لا يحسن العربية ، فقد عجز عن مراعاة لفظه فيجب عليه مراعاة معناه ليكون التكليف بحسب الامكان اه - والمراد مطلق المعنى ، وإلا فعنى النظم المعجز لا تؤديه الترجمة كما هو ظاهر

ولا يعنيها الآن بيان وجه استدلال الإمام بالآية على ما ذهب اليه بعد أن صرح رجوعه إلى قول الصحابين

فظهر أن قول الثلاثة بجواز قراءة القرآن بغير العربية في الصلاة لمن لا يحسنها ليس مبنيًا أن الترجمة تصير قرآنًا عند المعجز عن أدائه بالعربية ، فيفرض عليه ذلك في هذه الحالة ، بل المفروض عليه حينئذ تعلم العربي ، لأنه القرآن المأمور به في الصلاة ، وإنما هو مبني على الاكتفاء بالمعنى في حقه لمجزه ، ولأنه الميسور له من معنى القرآن الذي هو مجموع النظم والمعنى المأمور به في الصلاة . ولما كان أداء المفروض موقوفًا على النظم العربي ، وليس ذلك ميسورًا له أتى بالترجمة بدلًا عنه لتمام مقامه في أداء المعنى المفروض ، مع أنها ليست قرآنًا ، لأن القرآن هو كلام الله ، المنزل بلسان العرب ، والترجمة ليست كذلك — وفي الدراية : قراءة غير العربي تسحق قرآنًا بخلافه ألا ترى أنه يصح نفي القرآن عنه فيقال : ليس بقرآن وإنما هو ترجمته ، وإنما جوزناه للعاجز إذا لم يخل بالمعنى ، لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى ، فلا يتيان به أولى من الترك مطلقًا ، إذ التكليف بحسب الوسع اه

وظاهر أن مسألة القراءة في الصلاة شيء ، ومسألة ترجمة القرآن وقراءته بغير اللغة العربية مطلقًا شيء آخر . والكلام في الثاني دون الأول ، ولا يلزم من جواز الأول على فرض تسليمه جواز الثاني ، حتى ينسب إلى الامام وصاحبيه القول بجواز ترجمة القرآن وقراءته خارج الصلاة ، وكتابتها بغير اللغة العربية ، وكيف ذلك وقد أجمعت كتبهم على أن الخلاف في خصوص الصلاة . وأصله أن الأمر بالقراءة إنما هو في الصلاة دون غيرها كما اظهرهوا على أنه المراد في قوله تعالى (فاقرؤا ما تيسر من القرآن) والقرآن المصروف هو النظم المنزل بلسان العرب خاصة

وفي شرح أصول النزدي للأمام عبد العزيز بن احمد بن الخادم الحنفي :

والقرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً في قول عامة العلماء ، وهو الصحيح من قول أبي حنيفة ، إلا أنه لم يحمل النظم ركناً لازماً في جواز الصلاة خاصة ، وإنما هو لازم فيما سواه من الأحكام الأخرى ، كوجوب الاعتقاد ، وحرمة كتابة المصحف بالفارسية ، وحرمة المداومة والاعتیاد على القراءة بها .

وقد نقل أن الامام رجع عن هذا القول في الصلاة أيضاً إلى القول بعدم جواز الصلاة بالفارسية مطلقاً ، فيكون النظم ركناً لازماً عنده في كل حالة كما ذكره العلامة الألوسي في تفسيره عند قوله (وإنه لفي ذير الأولين) بناء على عود الضمير إلى القرآن باعتبار معناه . وفي رواية عنه تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية . وفي أخرى إنها إنما تجوز بالفارسية في الصلاة للعاجز عن العربية . وقد صح رجوعه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقاً جمع من الثقات المحققين لضعف الاستدلال بهذه الآية عليه كما لا يخفى ؛ فان الظاهر عود الضمير في الآية على القرآن بتقديم مضاف أى وإن ذكر القرآن لفي الكتب المتقدمة . وهذا كما يقال إن فلاناً في دفتر الأمير اهـ ملخصاً

ومن هذا يعلم ماى استدلال بعضهم بقول الامام على جواز ترجمة القرآن بأى لغة خارج الصلاة ودخلها للمأذون والعاجز ، لأنه على رواية التخصيص بالفارسية لا تجوز بغيرها مطلقاً ، وعلى رواية رجوعه الى قول صاحبيه لا تجوز خارج الصلاة مطلقاً ، ولا للمأذون في الصلاة ، وعلى رواية الثقات عنه : لا تجوز مطلقاً بغير العربية في الصلاة وغيرها للمأذون والعاجز . والمعول عليه رأيه الأخير الذى صح رجوعه إليه كما هو رأى الجماعة ، فكيف يصح الاستدلال بقوله على جواز ترجمة القرآن مطلقاً ؟ اهـ (ص ٣٩٠-٣٩١)

ثم قال في فصل آخر (ص ٣٩)

« ومذهب الشافعية عدم جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة مطلقاً سواء كان بحسن العربية أو لا يحسنها ، وفي فتاوى شيخ الاسلام ابن حجر ^(١) من أئمة

(١) يريد أحمد بن حجر الهيتمي الفقيه ولم يلقب بشيخ الاسلام وإنما لقب به

الشافعية - وقد سئل هل تحرم كتابة القرآن بالمجمية كقراءته ؟ فأجاب بقوله : قضية ما في المجموع عن الأصحاب التحريم . ووجهه بما لا يخرج عما قدمناه فراجع ، « وقال الإمام الزركشي من أئمة الشافعية رحمه الله : الأقرب المنع من كتابة القرآن بالفارسية كما تحرم قراءته بغير لغة العرب ، وفي شرح العباب أن كتابة القرآن العظيم بالمعجم تصرف في اللفظ المعجز الذي حصل به التحدى بما لم يرد بل بما يوم عدم الاعجاز بل بالركاكة لأن الألفظ المعجمة فيها تقديم المضاف إليه على المضاف ، وذلك مما يخل بالنظم ويشوش الفهم ، وقد صرحوا بأن الترتيب مناط الاعجاز . وهو ظاهر في حرمة تقديم آية على آية يعنى أو كلمة على كلمة كما يحرم ذلك قراءة اه

« بل نصوا على أن في ترتيب حروف الكلمات القرآنية ومراعات التناسيب فيما بينها من الصفات من وجوه الاعجاز مالا يقدر أحد من البشر على الاتيان بمثله فضلا عما في ترتيب الكلمات والجل من اللطائف والأسرار مما لا يحوم حول بيانه لسان أو دركه جنان

« ومع اتفاقهم على عدم جواز كتابة القرآن بغير العربية اختلفوا فيما إذا كتب بغيرها : هل يحرم مسه وحمله للحائض والجنب ؟ ذهب الجمهور إلى الجواز لأنه ليس بقرآن ونقل العلامة الشوبرى عن الشافعية أن القرآن إذا كتب بغير العربية يحرم مسه وحمله للحائض والجنب إذ لا يخرج بذلك عن كونه قرآنا والالم تحرم كتابته اه ولعل المراد به أنه لم يخرج بذلك عن كونه متضمنا معنى القرآن بقدر ما تسمعه أوضاع اللغة المكتوب بها وإن خرج عن نظمه وأسلوبه ، وإعطائها حكم القرآن حملا ومسا عندهم إنما هو احترام لهذا القدر وإلحاق لنقوش الرسم المعجمي بالرسم المخطوط العربي مع مراعاة جانب المعنى في الجملة

« ولم يلاحظ . مثل ذلك في التفسير مع أن نظم القرآن موجود فيه متخلل بين سطوره لم يطرأ عليه تغيير ولا تبديل نظراً إلى أن المجموع المركب من القرآن وغيره لا يطلق عليه اسم القرآن ولا ترجمته بل يسمى تفسيراً فقط ، والغالب أن تكون ألفاظه أكثر من ألفاظ القرآن فروعاً جانبية في الحكم كما دعى في التسمية ،

والكتابة بغير العربية وإن لم يكن نظم القرآن موجوداً فيها بذاته ولا هي دالة عليه بهيئته ولكن لوضع نقشه مكان النقش الدال عليه وإقامته مقامه نزل منزلته « والحاصل أن الرسوم الكتابية لما كانت كلها من وضع البشر لا فرق بين عربي وغيره أعطيت حكماً واحداً حملاً ومسا بخلاف الألفاظ فإن نظم القرآن من وضع الله تعالى وما عدها من صنع البشر ، فلذلك لم ينزل غير النظم المعجز منزله قراءة وتعبيراً ، ونزل الرسم غير العربي منزلة العربي حملاً ومسا عند هذه الطائفة « ومذهب الحنابلة أن الصلاة تفسد بالقراءة بالفارسية ونحوها عند المعجز

وعنده وهو يدل على منع قراءة القرآن وكتابته بغير العربية مطلقاً « ومذهب المالكية أنه لا تجوز قراءة القرآن وكتابته بغير العربية ولذلك أوجبوا تعلم الفاتحة على من لا يحسن قراءتها في الصلاة بالعربية أن يمكن وإلا اثم من يحسنها فإن لم يكن فالحتم سقوطها وسقوط القيام لها وقيل يجب قيامه بقدر ما تيسر من الذكر

« إذا علمت هذا ظالمول عليه عند جميع الأئمة أنه لا تجوز كتابة القرآن ولا قراءته بغير العربية للعاجز أو قادر لا في الصلاة ولا خارجها إلا ما تقدم عن السادة الحنفية في خصوص الصلاة للعاجز عن العربية وقد علمت ما فيه وتصحيح الثقات رجوع الإمام عنه

« ومن ذلك تعلم ما في قول صاحب الكافي من علمه الحنفية (أن اعتاد القراءة بالفارسية أو أراد أن يكتب مصحفاً بها يمنع وإن فعل في آية أو آيتين لا فإن كتب القرآن وتفسير كل حرف وترجمته جاز) اهـ

« فانه إن أراد بالترجمة الترجمة الحرفية للقرآن فقد علمت أنها لا تجوز مطلقاً ذكر معها تفسير أو لم يذكر لأنها تحريف وتغيير للنظم لا يدفعه اقتران التفسير به وإن أراد الترجمة التفسيرية فهذه جائزة مطلقاً بالشرط الذي بيناه وليست ترجمة القرآن ، على أن نصوص الفقهاء من الحنفية وغيرهم تنافه

ولذلك أفتى صاحب الفضيلة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر بمنع ترجمة القرآن ووجوب مصادرة المصحف المشتمل على الترجمة الحرفية وإن كان معها ترجمة

تفسيرية (١)

« وما ينوم من جواز الترجمة الحرفية أخذنا من ظاهر قوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فليس بصحيح لأن المعنى كما ذكره الألويسي وغيره أن المشرك إذا طلب الأمان بمداقضاء الأجل المضروب يؤن حتى يتدبر الأمر ويتمط بما يدعى اليه من هدى الإسلام ، فإن كان من العرب تفل عليه آيات الله وكلامه لأنه من أعرف الناس بدلائنها وأعلمهم ببراعة أسلوبيها وبلاغتها نظمها ، وكثير منهم كانوا إذا سمعوا القرآن خروا له سجدا وهم صاهرون ، وآمنوا به وهم لا عجزاه مذعنون ، وإن كان من غير العرب الذين لا يعرفون اللغة العربية يبين له ما يرشده للحق ويهديه إلى الصراط المستقيم لا بخصوص كلام الله تعالى واقتصر في الآية على ذكر السماع لأنها مسوقة لبيان حال مشركي العرب وهم من أهل اللسن والبلاغة ، وإن كان أعظمها يتناولهم وغيرهم من المشركين والمراد حتى ينصاعوا لطاعة الله ورسوله .

« وقد علمت مما سلف حكم ترجمة كتبه عليه السلام وأن بعضها إلى الكفار مشتملة على بعض الآيات القرآنية لا ينهض دليلا على جواز الترجمة الحرفية للقرآن الكريم لجواز أن يكون ترجمة ما وقع فيها من نحو الآية والآيتين ترجمة تفسيرية لا حرفية ولو سلم أنها حرفية فهي لم تذكروا في الكتب على أنها من نظم القرآن ولا قصد بها تلاوته بل سبقت الدعوة إلى حكمها ضمن كتبه عليه الصلاة والسلام اهـ

(١) يعني الترجمة الانكليزية الحديثة لبعض النصوص المطبوعة مع المصحف الشريف فقد جاءت نسخ منها إلى مصر ، فدألت الحكومة مشيخة الأزهر عنها فأفقي شيخ الأزهر بما ذكر فتمت الحكومة إدخال الترجمة إلى الديار المصرية ، وسبق مثل هذا في بيروت ، فقد أرسل إليها بعض النسخ من هذه المصاحف المطبوعة مع الترجمة الانكليزية فأرسلته إدارتها لجرى إلى مفتي بيروت حسب النظام المتبع فأفقي بمذمها فتمت

شبهات من ألباح ترجمة القرآن في هذا الزمان

قد كان مما نشكو من فوضى العلم والدين في هذا الزمان : أن بعض الناس كتبوا مقالات في الجرائد خالفوا فيها جماعة المسلمين منذ ظهر الاسلام إلى اليوم فزعموا أن ترجمة القرآن مباحة : وجاءوا بشبهات يمتنعون بها على رأيهم ، بعضها آراء لهم ، وبعضها أقوال من الكتب لم يفهموها ، فهي لا تدل على زعمهم ، ولو دلت عليها لم تكن حجة ، لأنها كأرائهم ، وما كان لأحد أن ينقض برأيه بناءً ورفع سمكه القرآن ، وأجمعت عليه الأمة قولاً وعملاً

(الشبهة الأولى) ما استدلل به بعض الحنفية لامامهم على قوله الذي كان خطر له ، ثم رجع عنه لظهور بطلانه له ، كما أنه لم يتابعه عليه أصحابه ، ولا عمل به أحد من أتباعه . أعني ما سبقت الإشارة اليه مرارا من جواز قراءة العاجز عن النطق بالعربية لما عجز عنه من القرآن في الصلاة بالفارسية ، أعني بما استدلل به بقوله تعالى في سورة الشعراء (وإنه لفي زُبر الأولين) قال الزمخشري في كشفه في تفسيرها وإن القرآن - يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية . وقيل : إن معانيه فيها ، وبه يحتاج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة حيث قيل : (وإنه لفي زُبر الأولين لكون معانيه فيها) . ونقله عنه آخرون كصاحب التفسيرات الأحمدي . وصاحب فتح البيان ، ونقله عنهم في هذه الأيام بعض الأزهريين في الجرائد عند إيراد الجمل في حكم ترجمة القرآن باللغات الأجنبية ودّعي أن الزمخشري فهم هذا من الآية

ونقول في رد هذه الشبهة (أولا) إن الزمخشري لم يفهم هذا من الآية ، بل فهم غيره ، ونقله بصيغة التمرّض والضعيف « قيل » وإنما الذي فهمه وأعتمده ما قبله ، وأعله لولا عادة المنتسبين إلى مذهب مجتهد الحكايه كل ما يؤيد قوله من قوى وضعيف لم ينقله ولو بصيغة التمرّض ، وله كثير من النقول الضعيفة التي لا يحمل تبعها لإشارته إلى ضعفها

(ثانياً) أن سبب اشارته إلى ضعفه هو أن تفسير المعاني بما ذكره ظاهر البطلان لا يمكن أن يريده الامام أبو حنيفة ، ولا من دونه في علم اللغة والدين ، أعني أن تكون معانيه هي مدلول كلمة القرآن كله أو بعضه ، بأن تكون سورة الفاتحة الواجبة في الصلاة — وهي موضوع مسألة أبي حنيفة قبل كل شيء — موجودة في التوراة بهذا النظم والترتيب ؛ ولكن باللفظ عبرانية ، إذ لو كان الأمر كذلك لكان القرآن ترجمة للتوراة ، وصح أن يقال : إنه هو التوراة ، ولا نطيل في بيان وجوه فساد هذا القول وبطلانه ، وما كان يترتب عليه لو كان مراداً من الأباطيل كاحتجاج اليهود وغيرهم على النبي ﷺ بأنه لم يأت بكتاب جديد من عند الله بل بترجمة بعض التوراة .

(ثالثاً) إن فرضنا أن هذا مراد في بعض القرآن كقصة موسى التي في سورة الشعراء أو مطلقاً دون الفاتحة ، ومثل قصة بدر وأحد ، وأن من قرأ قصة موسى في سورة الشعراء يصح أن يقول : قرأت التوراة مترجمة بالعربية ، فإن هذا على كونه — ليس بصحيح أيضاً على حقيقته — لا يدل على جواز ترجمة القرآن كله كما أن الذي يقرأ القصة في سفر الخروج من التوراة لا يصح أن يقول : قرأت القرآن ، الذي هو موضوع الخلاف . وإنما قصارى ما يدل عليه أن تجوز قراءة عبارة التوراة الموافقة للقرآن في الصلاة ، وأن يقاس عليها جواز ترجمتها بالفارسية مثلاً ، ولم يقل بالأصل أبو حنيفة ولا غيره من علماء المسلمين حتى يصح قياسهم عليه . وهذا مجال واسع للتجهيل والسخرية بمن يتهمون مثل هذا التهوك الذي نحن بصددده ، وينشرونه على الناس في مسألة عظيمة كهذه نتركه عفواً عنهم .

(رابعاً) اتفق السلف والخلف من علماء التفسير على أن الكلام في الآية مقدر فيه مضاف قبل ضمير القرآن ومضاف قبل زبر الأولين — كما قال ابن جرير — والمعنى وإن ذكره أو خبره أو دليل صدقه — مثلاً — لنابث في بعض زبر الأولين . ولهم في الضمير قولان (أحدهما) أنه القرآن — وهو المتبادر من السياق قبله — والثاني أنه النبي (ص) كما قال (يحدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل)

(خامساً) ان الذي يوجد من معاني القرآن في كتب الرسل الأولين قسماً (أحدها) عام يوجد فيها كلها ، وهو أصول الدين الإلهي المطلق من الايمان بالله تعالى وعبادته وحده ، والايمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح وما يقابل ذلك من الزجر عن الشرك والمعاصي والذائل — ويصح حمل الآية عليه على حد قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) الخ (والثاني) خاص وهو الأقرب إلى السياق سابقه ولاحقه ، وهو أن المراد مافي هذه السورة وأمثالها من قصة موسى وكذا غيره من الرسل عليهم السلام التي كانت مجهولة عند النبي ﷺ وقومه وأهل بلده خاصة ، ولذلك قال بعدها (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل) كما قال عقب قصة موسى في سورة القصص مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم محتجاً على صدق ما جاء به (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) الآيات

فهل يصح الذي علم أو فهم أن يقول في الآية إنها تدل على جواز ترجمة القرآن بالفارسية أو غيرها ، وان الترجمة مع هذا تسمى قرآناً ، وكلام الله ، ويتعبد بها ، خلافاً لنصوص القرآن القطعية ، ولاجماع الأمة منذ وجد الاسلام ، إلى اليوم ؟؟ لك أن تقول : إن فوضى العلم والدين : يصح معها ما هو أبعد من هذا عن العلم والفهم ، كما صح لعالم أزهري أن يقول : إن الزمخشري رجح القول الذي رأيت أنه حكاه حكاية بصيغة التضعيف ، وأنه ليس في سياق الآية ولا في قواعد اللغة ما يمنع هذا التفسير . وقد علمت قطعاً أن سياق الآية والمتبادر من اللغة يمنع ذلك !!!

﴿ الشبهة الثانية ﴾ قول هذا الأزهري « وإن رجعنا إلى قول الفقهاء — لأن الجواز وعدمه من مباهتهم — رأينا الإمام الشافعي روى عنه في الأم أن للأعجمي أن يتعلق بالقرآن مترجماً إلى غير العربية في الصلاة ، وأن ما ينطق به إذا أراد القراءة به صحت صلاته ، وعند ما ينطق به قراءة وقرآناً . وأنه يجوز وجود جماعة تصلي في مسجد يقرأ الإمام في تلك الصلاة بلسان أعجمي ، ويقرأ المؤمنون به بلسان أعجمي ، كذلك أم القرآن وغيرها من السور ماداموا لا يحسنون العربية » اهـ

يا للمعجب وباللقوضى ! الامام الشافعي يحيز للأعجمي أن يقرأ القرآن في

الصلاة مترجماً إلى غير العربية ويسمى الترجمة قرآناً؟ الإمام الشافعي يجوز إقامة صلاة الجماعة العامة في المسجد بإمام يقرأ بلسان أعجمي ، وجماعة يقرؤون بلسان أعجمي ، سواء في ذلك أم القرآن وغيرها من السور؟ وماذا بقي؟ إذا كان الشافعي يجيز قراءة القرآن في الصلاة باللسان الأعجمي للإمام والجماعة وللأفراد يمثل هذا الإطلاق الذي حكاه هذا العالم الأزهرى عن الأئم ، فامعنى ذلك البيان المفصل الذي أوردته في رسالته في الأصول في إثبات كون القرآن عربياً ، وأنه يجب على كل مسلم أن يتعلم العربية ليقرأ بها في الصلاة كما أنزله الله الخ ؟ ؟ .

(والجواب) عن هذه الشبهة أن صاحبها تقول على الشافعي ما لم يقل ، على أنه كان قد نقل بعض عبارته بتصرف ، ثم فسرهما بما نقلناه عنه ، فقصر في النقل ، وأخطأ في النظم ، ولأنهم يعتمدون القول على الإمام الشافعي ، وهذا نصّ عبارة الأئم :

« فإن أم أعجمي أو لحن أو أفصح بأم القرآن . أو لحن لحناً لا يحيل معنى شيء منها أجزأته وأجزأهم ، وإن لحن فيها لحناً يحيل معنى شيء منها لم تجز من خلفه صلاتهم ، وأجزأته إذا لم يحسن غيره ، كما يجزيه أن يصل بلا قراءة إذا لم يحسن القراءة . ومثل هذا إن لفظ منها بشيء بالأعجمية وهو لا يحسن غيره أجزأته صلاته ، ولم تجز من خلفه ، قرؤا معه أو لم يقرؤا ، وإذا ائتموا به فأت أقام معاً أم القرآن أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمي في شيء من القرآن غيرها أجزأته ومن خلفه صلاتهم إذا كان أراد القراءة لما نطق به من محجمة ولحن . فإن أراد به كلاماً غير القراءة فسدت صلاته ، فإن ائتموا به فسدت صلاتهم » اهـ

ذكرت هذه الأحكام في الأئم في فصل عنوانه (إمامة الأعجمي) والأعجمي كالأعجم من في لسانه لكنة وفهاة ، سواء كان عربياً أو عجمياً ، وضده الفصح الجيد النطق كما في المصباح وغيره . وحكم الأعجمي أنه لا يغتفر له ما ذكر آنفاً من التحن في الصلاة منفرداً وإماماً أو منفرداً فقط ، كما يغتفر ترك القراءة فيها مطلقاً لمن لا يحسنها . وقوله الأخير الذي لم يفهمه المناقل فكان محل الشبهة وهو « وإذا ائتموا به » الخ ، معناه أن الأعجمي الذي لا يحسن القراءة إذا أم مثله

فأما معاً أم القرآن أي أحسن كل من الإمام والمأموم قراءة الفاتحة ، أو لحنا جميعاً في غير الفاتحة ، أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمي في شيء من القرآن غير الفاتحة كانت صلاة كل منهما صحيحة ، لأن اللحن والعجمة والرتانة الأعجمية في غير الفاتحة لا تبطل الامانة ولا الصلاة ، إذ ركن القراءة في الصلاة هو الفاتحة ، وما عداه من القرآن فهو مستحب لا فرض ولا واجب — وليس عند الشافعي في الصلاة واجب غير فرض — والمفروض أن ما ذكر من النطق بالأعجمية أو باللسان الأعجمي في غير الفاتحة سببه العجز عن القراءة الفصيحة لا التلاعب ولا قصد غير القراءة ، وإلا بطلت صلاتهما .

ولا يدخل في هذا الباب شيء من تعمد ترجمة القرآن والاستغناء بالعجمي المترجم به عن القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى ، وتسميته قرآناً . كيف وقد صرح الشافعي في الرسالة بوجوب قراءة القرآن في الصلاة وغيرها بالعربية كما أنزله الله تعالى ، وبوجوب أداء سائر الأذكار المأمور بها بالعربية أيضاً ، وبوجوب تعلم العربية على كل مسلم لذلك . وهذا نص عبارته (كما في ص ٩ من الطبعة الأميرية التي مع كتاب الأم له) :

« فعمل كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وينلو به كتاب الله تعالى ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك » الخ .

هذا نص الشافعي بعد أن أطل في كون كل ما في القرآن عربي ، وكتب مذهبه متفقة في المسألة كسائر كتب المسلمين وأتباعه أشدهم فيها — أليس من العجيب مع هذا أن يشجراً عالم أزهري فيعزوا إلى رواية الأم عن الشافعي ما يأتي على إطلاقه .

(١) إن للأعجمي أن يتناقى بالقرآن وترجأ إلى غير العربية في الصلاة :

(٢) وإن ما ينطق به إذا أراد القراءة به صحت صلاته وعدم ما ينطق

قراءة وقرأنا .

(٣ و ٤) وإنه يجوز وجود جماعة تبصلي في مسجد يقرأ الإمام في تلك الصلاة

بلسان أعجمي أم القرآن وغيرها من السور ماداموا لا يحسنون العربية
 أين ذكر الشافعي الترجمة وأباحها للأعجمي ؟ اللهم هذا افتراء عليه
 أين أجاز الشافعي إقامة الجماعة في مسجد يقرأ إمامه فيها الفاتحة وغيرها بلسان
 أعجمي الخ ؟ وعبارته المنقولة عنه آنفا صريحة في كون عجز الأعجمي عن الإفصاح
 ولو ببعض الفاتحة عذراً له دون من يصلي خلفه ، فانهم لا تصح صلاتهم معه .
 وعدم الإفصاح بالألفاظ العربية شيء والترجمة بلسان أعجمي شيء آخر
 .وجملة القول أن عبارة الإمام الشافعي في هذا المقام خاصة بمن لا يحسن
 النطق بالقرآن ، وما يعذر به وما لا يعذر به هو ومن يأتيه به ، ومثل هذا المجرم مهود
 في كل زمان نسمعه بأذاننا ممن يتعلمون لغة غير لغتهم ولا يتقنونها من العرب
 أو المعجم ، فهم يحرفون ويلحنون ويخلطون ألفاظاً من اللغة التي يجيدونها باللغة
 التي لا يجيدونها بغير اختيار . ونعيد القول ونؤكد به أن تعمد ترجمة القرآن
 والقراءة به لا تدخل في شيء من كلام الامام ، ولم تخطر ببال أحد من أتباعه في
 مذهبه عندما شرحو كلامه ، وفصلوا أحكامه ، ولا تخطر ببال أي قارئ له يفهم ما يقرأ
 ﴿ الشبهة الثالثة ﴾ ان الدلائل على وجوب فهم القرآن في الصلاة وتدبره فيها
 وفي خارجها صريحة والآيات الواردة فيها محكمة ، ولا يتم أداء هذا الواجب إلا
 بترجمة القرآن بلغات جميع الشعوب العجمية التي تدين بالإسلام . وما لا يتم
 الواجب إلا به فهو واجب .

الجواب عن هذه الشبهة من وجوه (أحدها) ان الفهم والتدبر وما يراد
 بهما من الخشوع والاعتبار إنما يتم بتعلم المسلمين لغة الكتاب الالهي لا بتحويل
 الكتاب الالهي إلى لغاتهم كذا كما فصله الإمام الشافعي في رسالة الأصول وأقره
 جميع المسلمين لسبق الاجماع وبرهان العمل على ذلك في الصدر الأول . ويؤكد به
 أن ترجمة القرآن ترجمة صحيحة تؤدي مافيه من المعاني والتأثير كما أراد الله تعالى
 متعذرة ومستلزمة لتغيير كلام الله ، وهذا دليل وسند الاجماع على تحريره ما
 فتعين أن يكون المسلمون تابعين لما أنزل الله تعالى دون أن يكون ما أنزله تعالى
 تابعاً للغاتهم . ولا يعقل أن يؤثر المؤمن بالله وبكتابه ورسوله لغة قومه على لغة

كتاب الله ورسوله ، ولهذا كان قدماء المعجم من المسلمين يزاحمون العرب بالمناكب في تلقى العربية من أهراق البادية وفي جميع علومها وفنونها وآدابها كلوم الشريعة نفسها ، وذلك أن إيمانهم كان برهانيا وجدانيا ، وما أحدث التنافس بين لغة الدين الذي عليه مدار سعادة الدارين ولغة الآباء من المعجم إلا بعض زنادقة الفرس الأولين وملاحدة الترك المتأخرين . وأما قدماء مسلمي الترك الذين أعرضوا عن العربية وفنونها فكانت آفاتهم الجبل ، فالتخوف من عودة السلطان والسيادة إلى العرب — وهذا هو الذي أعدم لقبول دسائس الأفرنج بالدعوة إلى عصبية الجنس واللغة التي قوضت سلطنتهم (امبراطوريتهم) العظمى بحملهم

﴿ ثانيهما ﴾ أن مالا بد منه من التلاوة في الصلاة وهو الفاتحة وبعض الآيات أو السور القصيرة يمكن أن يفسر لكل مسلم بحفظه تفسيراً يتمكن به من فهم معناه والاعتبار به ، فهو لا يتوقف على ترجمته وتسميتها كلام الله كذباً على الله وخلافاً لنص كتاب الله واجماع المسلمين — فضلاً عن ترجمة جميع القرآن كذلك ﴿ الشبهة الرابعة ﴾ مسألة تبليغ الدعوة إلى الإسلام وقد بينا بطلانها من قبل ، ونزيدها هنا بياناً فنقول :

لئن كان اطلاع بعض الأفراد من أعاجم الشرق والغرب على ترجمة القرآن سبباً لاسلامهم ، فعلته أنهم عرفوا منها أصول الإسلام ومقاصده كلها أو بعضها ، وذلك كاف لتفضيله على غيره من الأديان كلها ، ولم يكن سببه ترجمته كتأثير أصله المعجز للبشر ، في إقناع العقول ، وهداية القلوب ، الذي كان سبب اعتناء العرب ، وقلب طبائعهم ، وجمع كلمتهم ، وارتفاع رايهم ، وخضوع الأمم والشعوب لهم . ولو بلغت هذه الأصول والمقاصد للأعاجم بلغاتهم بأسلوب آخر بأن يذكر كل أصل في فصل خاص مع الشواهد عليه من القرآن والسنة ، ببيان مآلى نصوصها بالتفسير ، وإقامة الأدلة عليه من النقل والعقل — لكان يكون ذلك أقرب إلى الاقتناع ، وأشد تأثيراً في هداية المستعد للإسلام . فان هذه هي الطريقة المثلى للدعوة ، وهي التي جرى عليها مسلمو خير القرون ، وشهد لهم بذلك أصدق الشهود ، وأبعدها عن الجرح والظمن — وهي

سيرتهم الفضلى في فتوحهم ، وعد لهم المطلق في أحكامهم ، وإصلاحهم في أعمالهم ، وبذلك انتشر الاسلام في الشرق والغرب ، وساد قلبه الأمم والشعوب بسرعة لم يعرف لها نظير في التاريخ

فإسلام الأمة العربية كان بتأثير هداية القرآن وهدى النبي ﷺ وجهاده به كما قال تعالى (إن هذا القرآن يهدي للقى هدى أقوم) (يهدي به من اشاء من عبادنا) و يهدي به كثيرا) (يهدي به من اتبع رضوانه سبيل السلام) وقال لنبية (وجهدهم به جهاداً كبيراً) وقد كان كل ما كان من اضطهاد رؤساء قومه المعاندين له ﷺ لأجل صده عن تبليغ القرآن للعرب ، ولجزهم بما يكون من جذبهم به الى اتباعه كما قال لهم عه أبو لهب في أول العهد بتبليغهم الدعوة : خذوا على يديه ، قبل أن يجتمع العرب عليه . ولم يكن ﷺ يطلب منهم ثم من كل من كان يعرض نفسه عليهم في الموسم في الموسم لإحمايته ليبلغ دعوة ربه . ولما أسلم من أسلم من الانصار في موسم الحج سرّاً . ونشروا الدعوة في عاصمتهم يثرب ، وعصار لهم قوة يحمونه بها من قريش . هاجر إليهم فما زالت قريش تقاتله إلى أن رضى منهم بعد استكمال قوته أن يصالحهم في الحديبية بالشروط التي يرضونها مع كراهة أصحابه كلهم لها في مقابلة الشرط الوحيد الذي كان هو أهم المهمات عنده عليه صلوات الله وسلامه . وهو حرية الاختلاط والاجتماع بينه وبين سائر العرب ، لعلمه بأن سماعهم للقرآن ولا سيما منه كفاً لإسلام السواد الأعظم منهم ، وكذلك كان

وكذلك ما فعل خلفاؤه وأصحابه المهادون المهديون من العجائب في نشر الإسلام وفتح الاقطار ، وثل عروش أعظم دول الأرض قوة وعظمة ونظاماً وشرعاً وحضارة ، وتبديل محالهم وشعوبها بذلك كله ما هو خير منه — ما فعلوا ذلك كله إلا بتأثير القرآن

وآب انتشار الاسلام في الأعاجم فقد كان بتبليغ الصحابة ثم من تبعهم في هديهم من العرب فالمعجم للدعوة ، وكان برهانهم عليها من أحوالهم الصالحة وسيرتهم الحسنى أقوى تأثيراً في تلك الشعوب من أقوالهم التي كانت تنفل إليها بالترجمة . ولم ينتشر الاسلام في شعب منها بترجمة القرآن بلغته ، وقرانهم لترجمته ، وإنما

كانت درجة الهدى والعلم والعمل ترتفع فيهم بقدر تدبرهم له بعد تعلم لغته ، فكان من مقتضى لغة القرآن من الموالى كبار الأئمة المجتهدين من أهل الحديث وأهل الرأي ، وجهابذة علوم اللغة وفنونها ، وأفراد العباد ، وتوابغ الأدباء ، وقولة الشعراء .

وقد كان إيمانهم الصحيح بتلك الدعوة المثلى هو الذى حملهم على طلب لغة الدين (العربية) من غير إلزام حاكم ، ولا نظام تعليم إجبارى تؤسس له المدارس وقد ترجم القرآن فى هذه القرون الأخيرة بأشهر لغات الشعوب الكبيرة من عربية وشرقية ، فكانت ترجمته مثاراً للشبهات وسبباً للمطاعن ، أكثر مما كانت سبباً للاعتناء إلى الاسلام

(فان قيل) إن مثار الشبهات لم يكن من الترجمة بل من الخطأ فيها ، وذلك يتلافى بالترجمة الصحيحة التى ندعوا إليها ، وإن سبب الطعن لم يكن إلا سوء قصد من أعداء الاسلام من دعاء النصرانية أو الملازمة ، وهؤلاء يطعنون فى القرآن العربى المنزل أيضاً

(قلت) إني على علمى بهذا أقول إن الترجمة أكبر عون على الأمرين ، فان الذى يطعن فى القرآن المنزل إما أن يكون ضعيفاً فى اللغة العربية أو حاذقاً لها راسخاً فيها فالأول شبيه بمن يحاول فهم القرآن من الترجمة أكثر مما يؤتى من جهله باللغة ، وأما الثانى فهو يتسكف الطعن تكلفاً يكابر به وجدانه ، ويغالب ذوقه وبيانه ، فيجىء طعنه ضعيفاً سخيفاً ويكون الرد عليه سهل المسلك . واضح المنهج ، وقلماً يسكون الدفاع عن الترجمة كذلك . وإن كانت صحيحة ، ولن تكون صحيحة إلا فى بعض الجمل أو الآيات القصيرة . دون السور والآيات الطويلة . بل بعض المفردات تتعذر ترجمتها بمفردات من اللغات الأخرى تؤدى المراد منها وانه ليرجع فى كل لغة من هذه المفردات التى لا يوجد لها مرادف فى لغة أخرى . وفى كلام بعض العارفين باللغة العربية وغيرها من اللغات المشهورة ما يدل على أن العربية أغنانهم بهذه المفردات ، دعى ما لها من الخصائص فى فنون المجاز والسكنايات

تعذر ترجمة القرآن

قد تكرر في كلامنا الجزم بتعذر ترجمة القرآن ، والمسلم الصحيح الإسلام لا يحتاج إلى دليل على هذا لأنه يؤمن بأن القرآن معجز للبشر بأسلوبه ونظمه العربي المنزل ، كما أنه معجز بهدايته وإصلاحه للبشر ، وقد تحدى النبي ﷺ العرب بهذه الاعجاز وتحدى المسلمون به من بعدهم فثبت عجز الجميع عن الاتيان بمثله ، وصدق قوله عز وجل (١٧ : ٨٩ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) والترجمة لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مثل الأصل ، فالآية نص قطعي على عجز الانس والجن عن الاتيان بمثله ولو كان بعضهم عوناً ومساعداً لبعض ، فكيف يمكن أن يأتي بمثله فرد أو جماعة ؟

وإن الذين يريدون ترجمته من الترك لصرف قومهم بها عن الكتاب المنزل من عند الله ليسوا بمؤمنين به ، فتقوم عليهم هذه الحجة ، وإن كثيراً من المسلمين المقلدين الذين يجهلون كثيراً من أصول الاسلام وفروعه لينخدعون بشبهات القائلين بترجمة الكلام الالهي باللغات المختلفة ، ولا يدرون أنه غير ممكن ولا أنه غير جائز ، وإذا قد بينا للتريقين عدم جوازه وما يترتب عليها من الفساد بالدلة المقنعة وجب أن نبين لها الدلائل على عدم إمكانها من جهة اللغة ، ولا تقتصر على بيانها من جهة الشرع فقط

وقد علم أننا نتي بالت ترجمة حقيقة معناها والمراد منها الذي هو محل النزاع وهو التعبير عن الآيات العربية بما يؤدي معانيها وتأثيرها من لغة أخرى وإن توفية هذا الموضوع حقه يتشظى تأليف كتاب مستقل ، ولسكننا نكتفي بقليل من الشواهد تغني عن الكثير ، ونبدأ بالمفردات ونشئ بالجل ثم نعرضها بكلمة في الأساليب

أما المفردات فاما حقيقة وإما مجاز وإما كناية وكل منها إما لغوي سبق به استعمال العرب ، وإما شرعي أو مما انفرد به التنزيل ، ومنها المشترك الذي وضع لعدة معان في اللغة تعرف المراد منها بالقرائن . ومن علماء اللغة والأصول من أثبت

أن اللفظ قد يستعمل في حقيقة ومجازه والمشارك في معنييه أو معانيه إذا لم يمنع من ذلك مانع ، وقد جرى على هذا الجمع شيخ المفسرين الإمام محمد بن جرير الطبري في تفسيره وتبعناه فيه ، ثم إن هذه المفردات تنقسم إلى أسماء وأفعال وحروف معان ، وكل منها أقسام لكل منها مواقع في الاستعمال .

ومن المعلوم بالقطع لدى العارفين باللغات المتعددة أنه لا يمكن أن تتفق لغتان من لغات العالم في جميع مفرداتها ، ولا في طرق دلالتها ، وإذا فرض اتفاق لغتين في حقيقة لفظ واحد ومجازه وكنايته بحيث يترجم أحدهما بالآخر مها يكن المراد منه المشكك فلن يمكن مثل هذا في الأوضاع الجديدة الشرعية والعرفية ، كالألفاظ الموضوعية في القرآن لصفات الله تعالى وغير ذلك من عالم الغيب أو لبعض العبادات . ولذلك ذهب بعض علماء اللغات وعلماء الاجتماع إلى استحالة قيام لغة مقام أخرى في آدابها ومعارفها ومعانيها العقلية والشعرية

مثال ذلك : الأسماء الموضوعية ليوم القيامة وهي كثيرة وكل لفظ منها له معنى تدل عليه مادته العربية ، وهذا المعنى مراد لتحقيقه في ذلك اليوم ، كالواقعة والقارعة والطامة والصاخة والحاقة والفاشية الخ وقد أقيمت الحجة على طيب تركي في التسطيفية بهذه الألفاظ ، إذ زعم أنه يترجم القرآن المجيد — وهو لا يحسن التعبير عن مراده باللغة العربية كما يجب — قلت له : لكم أن تفسروه بالتركية كما فعل بعض علمائكم من قبل . وأما الترجمة فهي مما يتعذر على أهل اللغات التي هي أغنى من لغتكم وأوسع وإن أنقنوا العربية . . . ثم سألته : كيف تترجم هذه المفردات المفردة الموضوعية ليوم القيامة ؟ قال إنه يترجمها بيوم القيامة . قلت إذا تفوت الممانى الاشتقاقية المقصودة بالذات من هذه الأسماء وهي بيان صفات ذلك اليوم مبدأ وغاية وما يقع فيه ، وما فيها من الوعظ والنشر المؤثرة في الخوف والرجاء ، والرادعة عن المعاصي . وإذا ترجمت بمعناها الاشتقاق لم يفهم منها أن المراد بها صفة يوم القيامة ، فإن القارعة اسم فاعل يوصف به الحقيقة امرأة تفرغ أحدا بالقرعة ، وفي المجاز داهية تفرغ القلوب بأهوالها ، والقرع في أهل اللغة ضرب شيء على شيء . كما قال الراغب — وأخص منها (الصاخة) وهي الضربة ذات الصوت

الشديد يصحّ المسامح أى يقرعها حتى يصمها أو يكاد ، أو الذى يضطرها إلى الاصاخة والاصفاة

وإذا أنت فستت الكلمة بيوم القيامة ، ووصفته بالقارعة فى سورتها ، وبالصاخة فى سورة (عبس وتولى) تكون قد انفلتت من مأزق الترجمة إلى صفة التفسير ، وحينئذ قد تكون عرضة لغلط فى التفسير يضيع به شئ من مراد الله تعالى من هذه الألفاظ . وإذا كان قد وقع فى هذا بعض المفسرين بالعربية ، فالمترجم بلغة غير العربية أولى بالغلط ، فإن بعض المفسرين قال : إن المراد بالقارعة الداهية التى تقرع الغلوب . وهذا التفسير مردود بدلالة القرآن نفسه ، فإن الله تعالى يقول فى شرح هذا القرع (٥٢ : ١ - ٢ إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجبت الأرض رجاً * وبست الجبال بساً * فكانت هباء منبهاً) فهذا عين المراد من قوله تعالى (القارعة ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟ يوم يكون الناس كإفراس المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش) .

وبوضح هذا من نظريات الهيئة الفلكية ، اذهب إليه بعض الفلكيين من أن خراب هذا العالم لا يتصور إلا بدنو بعض النجوم ذوات الأذنان من الأرض وصدمة أوقرعه لها قرعة شديدة على نسبة قوة الجذب ، تبس به الجبال أى تفتت حتى تكون هباء منبهاً فى الفضاء ، وحينئذ يبطل نظام الجاذبية العامة ، فتتناثر الكواكب وتتصادم كما قال تعالى فى وصف ذلك اليوم (وإذا الكواكب انتثرت) فانطباق الآيات المختلفة الواردة فى وصف يوم النيامة من السور المتفرقة على هذه النظرية الفلكية التى لم تكون فى عصر التنزيل معروفة للعرب ولا لغيرهم من علماء الفلك على الطريق القديم ، قد تعد فى هذا العصر من معجزات القرآن وعجائبه ، وفاقا لما ورد فى وصفه من الآثار (ولا تفتن عذابه) ولكنه لا يظهر من ترجمة القرآن الحرفية ، فيكون قصورها وعدم موافقتها للأصل من طرق متعددة

فلما سمع منى ذلك الطبيب التركى المفلور هذا الشرح بهت ولم يحجر جواباً - على أننا رأينا فى الصحف أن الذين شرعوا يترجمون القرآن فى هذه الأيام قد فسروا (يوم الدين) فى الفاتحة بيوم القيامة ، والدين الجزء على الأعمال ،

وذكره مقصود بالذات ، وله من التأخير ما ليس ليوم القيامة ، فانه يذكر التالي للماتحة في الصلاة وغيرها بأن الله سبحانه على أعماله ويمجز به بها « إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر »

وأذكر من مفردات الأفعال دلالة صيغها من نحو الشكف والتكثير والمشاركة والمطوعة الخ ومن مفردات حروف المعاني والأدوات الغروق في العطف ونكت وضع بعضها في موضع الآخر كقوله في سورة الأنعام (٦ : ١١) قل سيرا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقوله في سورة العنكبوت (٢٩ : ٢٠) قل سيرا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) فعطف النظر في الأول ثم المفيدة للتأخر ، وفي الثاني بالغاء المفيدة للتعقيب . فهل يوجد في سائر اللغات مثل هذا العطف الذي تقتضيه المعاني ، كما يبين في تفسير الآية الأولى مع مقارنات أخرى (ص ٣٢١ ج ٧ تفسير) وله نظائر أخرى في تفسيرنا

وأذكر من معاني الأدوات ما حققه الامام عبد القاهر الجرجاني من الفرق بين الحصر بـ «أما» والحصر بحرفي النفي والاثبات كقولك : ما هو إلا كذا . وهو أن موضوع «أما» على أن نجى خبر لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته ، أو لما نزل هذه المنزلة ، وأن الخبر بالنفي والاثبات يكون للأمر يذكره المخاطب ويشك فيه وقد وقد ذكرنا هذه القاعدة بالأثلة في تفسير قوله تعالى من سورة الأنعام (٦ : ١٤٥) قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحماً خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به) وبيننا سبب حصر هذا المعنى بـ «أما» في سورتي النحل والبقرة وأن الجمل بينهما هو أن آية الأنعام هي أول ما نزل في هذا الحصر ، فكان لما ينكره المشركون ويجهله المسلمون ، وأن آيتي النحل والبقرة نزلتا بعد ذلك فكانت في معنى صار هروفاً فهل يوجد مثل هذا الفرق في الأدوات في اللغة التركية وغيرها ؟ وهل يفهم المترجمون هذه الدقائق في الكتاب الالمى فيراعونها في ترجمتهم ، إن كانت لغتهم تساعد على ذلك ؟ ومن هذا الباب : الفرق بين إن وإذا الشرطيتين ذكرني به قولي «إن

كانت لغتهم تساعدهم على ذلك « وهو أن الأصل في شرط «إن» أن يكون مما يجبهه المخاطب أو ينكره أو يشك فيه أو ما ينزل هذه المنزلة ، وأن شرط « إذا » بخلافه كما هو مقرر في على المعاني والنحو بأمثلته .

وأما الجمل فأكتفى منها بإيراد شاهد واحد ، وهي الجملة المفيدة بالحال والفرق فيها بين الحال المفردة وجملة الحال ويترتب على ذلك أحكام شرعية كما بيناه في تفسير قوله تعالى من سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا - ٤ : ٤٣) فقوله تعالى (وأنتم سكارى) جملة حالية مقيدة للنهي وقوله (جنباً) حال مفردة مقيدة له أيضاً ، ولكن الأولى تنفيذ النهي عن السكر قبل الصلاة لئلا يأتي وقت الصلاة في حال السكر فيضطر السكران إلى ترك الصلاة أو إلى أدائها وهو سكران وهو المنهي عنه في الآية . وأما الثانية فلا تدل على ترك أسباب الجنابة قبل وقت الصلاة ولا في وقتها إلا أن يدل أن لا يتمكن من فعل الطهارة وأداء الصلاة قبل ذهاب الوقت . ومثاله ما قاله النخعي في النذر وهو أن من قال : لله علي أن أعتكف صائماً وجب عليه أن يصوم لأجل الاعتكاف ، ولا يجوز له أن يعتكف في رمضان ، ومن قال : لله علي أن أعتكف وأنا صائم لا يلزمه صوم لأجل الاعتكاف بل يجوز له أن يعتكف في رمضان . وراجع وجه كل منهما في تفسير الآية (ص ١١٥ ج ٥ تفسير) فهل يفهم مترجم القرآن بالتركية مثل هذه الدقائق ؟ وهل تساعده لغته على مراعاتها إن كان يفهمها ؟ أم يحتاج إلى شرح وتفسير لبيانها فكون مفسراً لا مترجماً ؟ .

هنا شاهد من شواهد دقة التعبير في الأحكام الشرعية العملية . وأما دقة التعبير ، وبلاغته في الوصف المفيد للوعظة والتأثير ، فمن عجائب شواهد وصف الظالمين يوم القيامة في قوله تعالى من سورة إبراهيم (٤٢ و ٤٣) إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار « مطعنين » بمعنى رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم « وأفئدتهم هواء » شخوص الأبصار عبارة عن ارتفاعها وكون أجفانها مفتوحة ساكنة لا تطرف (ومطعنين) من أطح البعير إذا صوب عنقه من بصره ، وقبل الاططلاع أن تقبل بهصره على المرئي قديم النظر إليه لا تلتفت إلى غيره ، ويأتي بمعنى الإسراع . (ومقنعي

ووسهم) من أقنع البعير رأسه إلى الخوض ليشرب إذا رفته، وقيل إنه يكون رفعا وخفضا فهو من أسماء الاضداد، وقوله (لا يرتد إليهم طرفهم) معناه ان لم في شخص خاص الابصار وإعطاهم مع اعتماد الأعناق ونصويها إلى ما تنظر اليه شعلا شاغلا لها أن ترجع إليهم فتكون طوع إرادتهم بوجهونها حيث شاؤوا، بنهم في هول وكرب لا مشيئة ولا سلطان لهم معها على أبصارهم ، بل عيونهم ممدودة مفتوحة لا تقطوف ولا تتحرك ولا تتوجه إلى شيء آخر بتصويب ولا تصعيد . ثم بين علة هذا وسببه في النفس فقال (وأفتدثهم هواء) أي غلاء خاوية من العقل فاقدة للقوة والإرادة .

لعمري الحق إذا تصور من يفهم هذا الوصف حق اللهيم قوما هذه حالهم في ذلك اليوم حتى كأنه يرأى ليأخذن الرعب بمخنقه ، وليستحذون الذعر على شعوره وإدراكه ، ولا سيما إذا كان من العرب الخلل أو الأعراب الألقاح .

وأذكر من الكنيات مثل الرفث وإفضاء الزوج إلى الزوج وقوله تعالى (فلما تشاها حملت حملا خفيفا) وقوله تعالى (أو لأمستم النساء) وقوله (نساؤكم حرث لكم) وقوله (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) فإذا فرضنا أن في اللغة التركية وغيرها لفظا بمعنى التفتش الدال على السر ولفظا بمعنى الحرث وهو الزرع - لأن معانيهما كالمس والملازمة مشتركة بين الشعوب - فهل تستعمل هذه الألفاظ وما في معناها في لغاتهم كناية عن الوظيفة الزوجية السرية كما تستعمل في العربية ؟

وأما أسلوب القرآن فالكلام فيه هو البحر الخضم ، والفاموس المحيط الأعظم فإنه أظهر وجوه الإعجاز اللفظية ، وذلك أنا يمزج فنون الكلام ، وينظم مقاصد الهداية والإرشاد ، على اختلاف أنواعها ، وتباين موضوعاتها ، مزجامة لائما ، ولفظا متناسبا متناسقا ، موافقا للذوق السليم ، مطابقا لنكت البلاغة . فالحق أن لا آية ، والدلائل العلمية والعقلية ، والأخبار الغيبية ، والسنن الكونية والاجتماعية ، والمواظب الأخلاقية والأدبية ، وأحكام العبادات والمعاملات القضائية والسياسية ، وقصص الأنبياء ، ووصف الأرض والسماء ، وما فيهما من جواهر وأحياء ، وما بينهما من هواء وهباء ، تراءى كله في السورة الواحدة ، وترى الكثير منه في آية واحدة ، بعبارة بديعة مؤثرة ، ينتقل فيها العقل من فائدة إلى فائدة ، ويتقلب

فيها القلب من موعظة إلى موعظة ، مع منتهى الأحكام والمناسبة ، بحيث لا عمل تلاوته ، ولا تفتناً تتجدد هدايته ، حتى إن بعض الأدباء وأهل الذوق في اللغة العربية من غير المسلمين يترددون في ليالي رمضان على بيوت معارفهم من المسلمين ، ليسمعوا القرآن ، ويمتنعوا قلوبهم وأذواقهم بسماع ترتيله ، بذلك النظم الذي ليس بشعر ولا سجع ، ولا كلام مرسل ، بل هو نظم خاص ، قابل للأداء بالنغمات المختلفة المؤثرة على تفاوت آياته وفواصله في الطول والقصر ، فلا يلة قد تكون كلمة مفردة أو كلمتين وجملته أو جملتين ، أو جملاً قليلة أو كثيرة ، وكلها مخالفة لسائر أساليب الكلام العربي المنشور والمنظوم ، ولكل نوع منها تأثير غريب في ترتيلها وتجويدها ، بالأصوات الملائمة لمعانيها

صليت الفجر مرة في أهل بيتي بسورة القمر ، وتلوته بصوت خاشع صاعد مناسب لزواجرها ونذرها ، فقالت لي الوالدة : إن هذه النذر تقصم الظهر ، وصارت تسميها سورة النذر . وقالت مثل هذا القول مرة أخرى في سورة (ق) فهل يتصور مثل هذا التأثير للترجمة التركية أو غيرها من لغات الأعاجم في أنفس أهلها كما يؤثر في أنفسهم مادون القرآن من كلام بلغاتهم ؟ كلا

نموذج من ترجمة تركية

إنني بعد كتابة ما ذكر تذكرت أن عند بعض معارف ترجمة تركية للقرآن فاستعرتها منه ، فإذا هي ترجمة جميل بن سعيد - وسيأتي ذكرها - وإذا فهم من النقص والحذف والخطأ فوق ما كنت أظن ، ويظن أنه أخذها من الترجمة الفرنسية لأنه هو لا يعرف العربية ، وهذه جرأة قبيحة لا تصدر عن رجل يؤمن بالله وكتابه ورسوله ، وتدل على سوء نية هؤلاء الناس في الترجمة وكون غرضهم منها العبث بدين الإسلام وتغيير الترك منه ، وفتح أبواب الطعن لهم فيه . وقد راجعنا فيها ما ذكرنا من أسماء يوم القيامة فوجدناه يذكر ألفاظها العربية ويفسرهما بيوم القيامة . وأما كنايةات الواقع فحذف منها قوله تعالى (فلما تفشاهما) واكتفى بكلمة بما يدل على الحل .

وترجم الملامسة بما معناه وإذا وجدتم بالمناسبات الجنسية مع النساء فمتظفروا

وفيه ما فيه . وأما الحث فترجمه بكلمة « تارالا » وهي الأرض المعدة لزرع الحبوب دون المشجرة ، ومن المعلوم أن الكناية تجامع الحقيقة ، فاحلال الرفث إلى النساء في ليالى رمضان يدل بمفهومه على حظر الرفث بالقول على الصائم وهو المعنى الحقيقي . لكلمة كما يدل على تحريم الفعل المكنى عنه . والترجمة التركية لا تفيد الداليتين . وترجم قوله تعالى (لا تقرّوا الصلاة وأنتم سكارى) الخ بما معناه : لا تصلوا فى حال سكركم بل انتظروا أن تحيثوا إلى حال يمكنكم أن تفهموا فيها ما تقولون - ولا تعبدوا فى حال كونكم جنباً بل انتظروا الغسل . وهذه ترجمة تفسيرية باطلة من وجوه كما يرى القارئ ، وليس فيها تفريق بين الحالين ولا بين الحكيم .

وأما قوله تعالى فى الظالمين (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهبطين مقننى رهوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) فقد ترجمه بما معناه الخرفى : يعلمهم الله إلى يوم يسطفون فيه أنظارهم إلى السماء بصورة كاملة ، وستبقى قلوبهم فارغة وأنظارهم ثابتة ، وهم يسرعون بعجلة رفعت رهوسهم اه فزاد على الأصل توجيه النظر إلى السماء وقوله بصورة كاملة أراد به تفسير شخوص البصر وهو لا يؤدى معناه ولا يصور ذلك الوصف البليغ المؤثر للأبصار الشاخصة ، والرهوس المقنعة ، والأعناق المبطعة ، بل لم يذكر الرهوس والأعناق ألبتة . وإذا كان بهذه الدركة من العجز مع استعانتة بالألفاظ العربية فكيف تكون ترجمتهم لكتاب الله تعالى إذا حاولوا أن تكون تركية خالصة خالية من الألفاظ العربية . كما يطلب غلاة غواتهم ؟

هذا وإن فى هذه الترجمة من الغلط وتحريف المعانى والزيادة والنقصان ما لا يعقل . له المطلع عليه سبباً إلا اعتماد الاضلال ، لأن الجهل وحده لا يبيط بهذا المترجم إلى . هذا الدرك الأسفل مع ادعائه الوقوف عند حدود التعبير عن مدلول اللفظ العربى . بلفظ تركى ، كوظيفة مترجمى المحاكم القضائية .

فن التحريف الخلل الدال على سوء النية ترجمة قوله تعالى (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا القومكما بمصر بيوتا واجمعا لى بيوتكم قبلة) (سورة يونس آية ٨٧) . اتفق مفسرو السلف والخلف على أن معنى اتخاذ بيوتهم قبلة أن يصلوا فيها .

فكانه قال اجعلوها مساجد ، وهو الصحيح - أو أن يوجهوها إلى القبيلة - قيل هي الكعبة ، وقيل بيت المقدس إلا ما ذكره بعضهم من احتمال جعلها متقابلة متقاربه ولكن المترجم التركي ترجحها بقوله

« قومكم ايجون مصرده خانه لراشا ايديكز . و بوتلرني قبلة طرفنه توجيه ايديكز » أي أنشئوا في مصر بيوتاً لقومكم ووجهوا أصنامها لجهة القبلة (؟؟) فما قول العالم الاسلامي في ترجمة للقرآن تعلم الترك ان الله تعالى أجاز لبي اسرائيل اتخاذ الاصنام . والعياذ بالله تعالى .

وليس هذا هو الغلط الوحيد في ترجمة هذه الآية الكريمة بل هو الأفسح وفيها أيضاً انه ترجم تبوأ البيوت بإنشاء البيوت وهو غلط وإنما معناه سكنها ومن الحذف والاسقاط انه أسقط من ترجمة سورة البقرة قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء (١ : ٢٨) وأسقط ذكر المن والمسلوى من الآية ٥٤ منها - وأسقط وصف القرآن بالقيم من أول سورة الكهف والأمر بالسجود والافتراق من آخر سورة العلق ... وغير ذلك مما يشق إحصاؤه

نعم قد بلغنا ان رئيس الأمور الدينية في الجمهورية التركية قد أعلن ان هذه الترجمة ملوثة بالأغلاط فلا يجوز الاعتماد عليها . ولكن هذه الحكومة لم تجمع نسخها وتمنع استعمالها وطبعها فهي منتشرة ، وبلغنا انها ألقت لجنة لترجمة القرآن أي مسلم يعتمد عليها وعلى لجنتها في عمل يعده المسلمون العارفون بالاسلام جنابة عليه وهماً له ؟

صفة ترجمات القرآن التركية

وقد نشرت جريدة الأخبار المصرية رسالة لمراسلها من الاستانة^(١) في هذا الموضوع جاء فيها بعد الموافقة على ترجمة الترك للقرآن وتجهيزها ما نصه :

« كان أول مترجم للقرآن الكريم زكي افندى مغازر ، وهو مسيحي سوري وقد اطلعنا على ترجمته صدقة قبل طبعها ، فأبدينا رأينا في الحال ، وكنا السبب في عدم طبعها ، ثم قام على أثر ذلك الشيخ محسن فاني (هو حسين كاظم بك)

(١) هو عمر رضا افندى المصرى من محررى الجرائد التركية

أحد أعلام تركيا في الأدب والفضل ، وتصدى لترجمة القرآن الكريم مع جماعة من زملائه ، وقد رأيناه لا يؤدى المعانى حقها ، لا يؤديها في أحسن صورة يمكن أن تؤدى بها في اللغة التركية ، ولذلك فإننا ^(١) انتقدناه مرارا .

ثم قام بعدها جميل سعيد بك حفيد كمال باشا ناظر المعارف الأسبق ، فترجم القرآن . لقد كان المنتظر أن تكون الترجمة الثانية أحسن وأكمل من الأولى إنما لم يتحقق ذلك الأمل ، ولذلك فإننا ^(٢) قد انتقدنا جميل بك أمر انتقاده ولم نترك له أى منفذ للتخلص ، وقد أراد حضرته أن يجهينا على انتقاداتنا بتخفيف أهمية أخطائه فلم يفلح في ذلك ، بل كان جوابه أعدل شاهد على أنه غير كفء للعمل الذى أراد أن يقوم به . والأدهى من ذلك أننا عند انتقاداتنا ظننا أنه ترجم القرآن من لغة من لغات أوروبا ، لا من أصله العربى ، واستدلنا على ذلك ببعض الدلائل ، فلم يستطع أن يجهينا على ذلك ببنت شفة ، ولذلك فإننا ^(٣) في مقالتنا الثانية شدنا عليه الحملة لآخر درجة ، وقلنا له : إنه فضح الشعب التركى باقتراف هذه الجريرة المدهشة ، لأن الشعب التركى شعب مسلم منذ عشرات القرون ، شعب يخدم المدنية الاسلامية ، ويتولى زعامة الأمم الاسلامية منذ قرون ، شعب يفهم القرآن الكريم من أصله العربى منذ قرون شعب أعجب المثات من العلماء الذين فسروا القرآن ، وتبحروا في جميع العلوم المستفادة منه . فعار أن يقرأ ترجمة القرآن في هذا القرن من لغة مبشر متعصب ! وقد أخرجنا لذلك المترجم كثيراً من أخطائه التى لم يستطع أن يرد عليها ، وعدا هذا فان رئاسة الأمور الدينية في أقرة لم تتأخر مطلقاً في القيام بواجبها ، بل إنها عند انتشار كل ترجمة من هذه التراجم حذرت الناس منها ونهتهم إلى ما فيها من التحريفات . وبذلك قضت على تلك الكتب بما تستحقها . المراد منه .

(١) هذا التعبير أى تأخير الفاء وجعل ما قبلها متعلقاً بما بعدها مما نشأ في الجرائد وهو خطأ صوابه هنا : فلذلك انتقدناه الخ (٢ و ٣) تراجع الحاشية السابقة .

وجاء في جريدة الأهرام في ٢٩ رمضان سنة ١٣٤٢ مائه :

ترجمة القرآن بالتركية

أقدم فريق من الترك أخيراً على تنفيذ الفكرة التي طالما تمنوا تنفيذها ، وهي أن يترجموا القرآن بالتركية ، ويستغنوا به عن النظم العربي المبين ، فشرع مصطفى افندي العينتاي وزير الحفانية السابق ، والشيخ محسن قاني ، ومصطفى بك ، وسيف الدين بك في نشر الترجمة التركية بأقلامهم ، وقد أنشأت مجلة (سبيل الرشاد) التركية مجلة علمية جليظة في انتقاد هذه الترجمة ، وبيان مواطن الخلل فيها ، وقدمت لذلك نموذجاً من الغلطات الموجودة في ترجمة (سورة الفاتحة) فقط ، فبلغت ست غلطات لا يجوز التسامح في واحدة منها . فن ذلك خطوهم في وضع لفظ يدل على المعنى المندمج في حرف (أل) من (الحمد) وحشوم لفظاً زائداً في ترجمة (الرحمن الرحيم) وتقول المجلة التركية إنهم قطعوا بذلك نظم الكلمات القدسية ، بل سحقوا ما فيها من الدرر ، وترجموا وغيروا لفظ (يوم الدين) بلفظ (يوم القيامة) وقد أبانت المجلة التركية الفروق العظيمة بين اللفظين وزادوا في الفاتحة نداء « يا الله » مرتين بلا لزوم . وبذلك حوّلوا بلاغة القرآن وإيجازه إلى شكل غير لطيف ، وترجموا كلمة (إهدنا) بلفظ « أرنا » قالت المجلة : وبذلك نحوا نحو مذهب المعتزلة ، ولا ندرى أقصدوا ذلك أم هي رمية من غير رام ؟ وحرفوا نظم (صراط الذين أنعمت عليهم) فجعلوا « الصراط » في الترجمة مفعول الانعام ، وهو مفعول الهداية ، فجاءت ترجمتهم هكذا : « الصراط الذي أنعمته على غير المفضوب عليهم ولا الضالين »

قالت مجلة (سبيل الرشاد) : والحق أن جرأة أناس هذا مبلغ علمهم بلغة القرآن ، على أن يترجموا القرآن لما يدعوا إلى الأسف، وإنه لاثم عظيم ، قالت : ورجاؤنا إليهم أن يستغفروا الله عما ارتكبوا من الائم العظيم ، وأن يتوبوا إليه ، ويتحوّلوا عن هذا العمل السقيم الذي حاولوه .

وتقول : بلغنا أنهم لم يتوبوا وأنهم مأمورون بذلك من حكومة انقرة ، وإن ترجمتهم ستكون الرسمية والله أعلم

قد علم مما تقدم أن كل ترجمة حاولها الترك قاصرة عن أداء معاني القرآن
الظاهرة التي يفهمها كل قارىء. يسهل التعبير عنها بكل لغة ، دع ما أثرنا إليه من
المعاني الدقيقة ، والأوصاف الممتازة في البلاغة ، وأسماء الله تعالى وصفاته وعالم
الغيب ، والتعبير عنها بالمفردات والجل والأساليب الخاصة باللغة العربية دون لغات
العجم ولا سيما التركية الفقيرة ، وهذا يفتح أبوابا واسعة للشبهات والمطامع فيه
ويسد أبوابا واسعة لضروب من التفسير والتأويل الدافعة لها ، وضروب من المعارف
هي من أعظم الآيات البينات له. وقد علمنا أن الترك حظروا تعليم اللغة العربية وفنونها
والمعلوم الشرعية في بلادهم . فعلى هذا لا يجد قارىء ترجمتهم التركية للقرآن في
الاجيال الآتية مرجعا لتفسير هذه الترجمة إذا هو استشكل أو طعن له أحد في شيء منها
وأضرب لذلك من المثل قوله تعالى (والتين والزيتون) الذي سأل عنه مصطفى كال
باشا بعض علمائهم ، فأجابه بأن الجواب لا يمكن بيانه في أقل من نصف ساعة ، فهزأ
به الباشا ، وأراد أن يجعله مثالا في الجهل ، وهو أجدر بهذا الوصف في هذا المقام
لتوهمه أنه يكفي في الجواب أن يذكر له مرادف التين بالتركية وهو «النجير»
وذلك العالم يمتد إذا اعتقد أن هذا الرجل الكبير في مقامه وفي معارفه العسكرية
لا يعقل أن يسأل عن تفسير بعض المفردات العربية بما يقابلها في التركية ،
واعتقد أنه إنما يريد بالسؤال معنى إقسام الله تعالى ببعض الشجر والبقع والبلاد
وحكمته ، كما إذا سأل هذا الفقيه من الباشا عما يسميه رجال الحرب «خط الرجعة»
مثلا ، فانه لا يمكن أن يريد بذلك تفسير كلمة خط وكلمة الرجعة لغة
ولعل ذلك العالم كان يعتقد أن الباشا لم يسأل هذا السؤال إلا وهو منسكح
لورود القسم بالتين والزيتون كما يؤخذ من كلام له كثر نقله عنه ، وهو احتقار
التعاليم والنظم التي وضعت في صدر الاسلام ، وزعمه أنها وضعت لقوم منخططين
في الحضارة والفنون ، فلا يليق اتباعها في هذا العصر الذي ارتقت فيه الصناعات
والفنون والمعارف المادية ، واستباح المترفون فيه الرذائل باسم المدنية ، فأراد أن يزيل
من فكره هذه الشبهات الجبلية ، ويبين له معنى صيغة القسم عند العرب وهو تأكيد الكلام
وحكمة ما في القرآن من الإقسام بال مخلوقات ، كالذكر بما فيها من الآيات ، ومناسبة

كل قسم منه لما أقسم به عليه لتوكيده ، كالأقسام بالنجم على هداية النبي ﷺ ورشاده ، لأن كلامهما يهتدى به ، ثم الانتقال من ذلك إلى ماورد في التفسير المأثور متناسبا لذلك ، ولا بأس ببيان ذلك وإن طال الاستطراد إزالة شبهة مصطفى كمال باشا وأمثاله مثلا يكون تأخيراً للبيان عن وقت الحاجة فنقول :

إن الجمع في قوله تعالى (والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين) بين نوعين من الشجر وموقعين من بقاع الأرض لم يكن إلا المناسبة جامعة بينهما كما هو المعهود في التنزيل ، وفيما دونه من كلام البلغاء أيضا ، ولما كان من المعلوم قطعاً أن طور سينين (أى سيناء) مهبط الوحي على موسى ﷺ ومظهر نبوته — وأن البلد الأمين (مكة) مهبط الوحي على محمد ﷺ ومظهر نبوته — ترجح أن يكون المراد بالتين والزيتون الكناية عن مظهرين من مظاهر النبوة والدين ، كما يكتفى بالإهرام أو أبي الهول عن حضارة الفراعنة ، وبشجر الأرز عن جبل لبنان مثلا .

وإذا رجعنا للتفسير المأثور عن السلف في ذلك نرى فيه عن ترجمان القرآن وحبر الأمة ابن عباس (رض) قولين (أحدهما) ما رواه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم وهو أن المراد بالتين مسجد نوح (عليه السلام) الذي بناه على الجودي — أى حيث استوت صفينته بعد الطوفان ، والزيتون بيت المقدس وطور سينين مسجد الطور والبلد الأمين مكة (ثانيها) ما رواه عنه الأخير من أن المراد بالتين والزيتون المسجد الحرام والمسجد الأقصى حيث أسرى بالنبي ﷺ الخ : ويقوى الأول تعدد روايته وموافقة التاريخ له كما بينه شيخنا الأستاذ الإمام من وجه آخر في تفسير السورة من جزء عم فإنه قال بعد حكاية أشهر أقوال المفسرين مانصه :

« وقال قليل من المفسرين إن الأقسام هو بالنوعين لذاتهما التين والزيتون قالوا : لكثرة فوائدهما ، ولكن تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معاً في نسق واحد غير مفهومة ، ولهذا رجح أنهم موضعان ، وقد يرجح أنهما النوعان من الشجر ، ولكن لا لفوائدهما كما ذكرنا ، بل لما يدكر أن به من الحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر . قال صاحب هذا القول

إن الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسان الطويل من أول نشأته إلى يوم بعثة النبي ﷺ : فالتين إشارة إلى عهد الانسان الأول فانه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها يورق التين ، وعند ما بدت له ولزوجته سواتهما طلقا يخصمان عليهما من ورق التين . والزيتون إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك لأنه بعد أن فسد البشر وأهلك الله من أهلك منه بالطوفان ونجى نوحا في سفينة واستقرت السفينة نظر نوح إلى ماحوله فرأى المياه لا تزال تغطي وجه الأرض فأرسل بعض الطيور لعله يأتي اليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الأرض فغاب ولم يأت بخبر ، فأرسل طيراً آخر فرجع اليه يحمل ورقة من شجر الزيتون فاستبشر وسرّ وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد أذن للأرض أن تعمّر . ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة في الأرض التي يحى عمرانها بالطوفان ، فمهر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون . والإقسام هنا بالزيتون . لقد كبرت تلك الحادثة ، وهي من أكبر ما يذكر به من الحوادث . وطورسينين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد في العالم بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية ، وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم إلى التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم عيسى ﷺ جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البع ، ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الاختلاف في الدين ، وحجب نوره بالبدع وإخفاء معناه بالتأويل وإحداث ما ليس منه بسبيل ، فنّ الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ويفصل بين ما سبق من أطوار الانسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة ، واليه أشار يذكّر البلد الأمين . وعلى هذا القول الذي فصلنا بيانه يتناسب القسم والمقسم عليه كما ستري . اه المراد منه

ومن هذا الشرح تعلم أن ذلك العالم التركي على علم لا يشاركه مصطفى كال باشا في شيء منه ، وأنه مصيب في تقدير زمن الجواب بنصف ساعة كما تعلم أن الترجمة التركية لن تكون إلا قاصرة عن احتمال مثل هذا التفسير ، وانها تمهيد للاضلال والتكفير سبحانه الله ! أنشك في كون مراد ملاجدة الترك بترجمة القرآن التوسل بها

إلى الطعن فيه والتشكيك في كونه كلام الله عز وجل ، وإقامة الشبهات على بطلان دين الاسلام ، وترك المسلم منهم في ظلمات لا يبصر فيها بصيصاً من النور يمتدى به إلى الدفاع عن دينه ؟ أنشك في هذا بعد اقدامهم على إبطال التشريع الاسلامي من حكومتهم حتى في الأحكام الشخصية من زواج وطلاق وإرث تفضيلاً للتشريع الأوربي عليه على اختلافه ، وإبطال التعليم الاسلامي من بلادهم واضطهاد علماء الدين حتى في ملابسهم ، فقد أكرههم على لبس الزى الخاص بغير المسلمين كغيرهم ، ولم يبالوا بمراعاة وجدان أحد ولا اعتقاده في أن ذلك معصية لله تعالى بل هو آية الردة عن دينه . فملأوا هذا والسواد الأعظم من الشعب التركي يدين الله بالاسلام وجدانا وتسليماً يحمله على الفضائل ويزعه عن الرذائل ، ولعلماء الدين احترام عنده ، ثم لم يستطع أحد منهم أن يدافع عن دين الشعب بكلمة مع كون مادة القانون الأساسى للجمهورية التركية الناطقة بأن دين الدولة هو الإسلام لما تنسخ كما نسخت أحكام الإسلام نفسها ، ذلك بأن من عارض الحكومة في عمل من أعمالها هذه يساق إلى محكمة خاصة تسمى محكمة الاستقلال مفوضة بأن تحكم بالقتل للدفاع عن هذه الحكومة اللادينية من غير استناد إلى شرع منزل ولا قانون مدون ، ويكون حكمها نهائياً لا استئناف له ولا مراجعة فيه ، وقد قتل كثير من العلماء والأتقياء المعارضة في وضع الفلنسة الافرنجية (البرنيطة) موضع الإمامة واستبدالها بها ؟

هذا ما يجري اليوم فإذا يكون في الغد إذا لم يجد المسلم التركي بين يديه في بلاده من كتب دينه إلا ترجمة للقرآن بالصفة التي عرفت أغلاطها وقصورها ؟ نعم إن هؤلاء الملاحدة أنفسهم سيفسرونها له بما يزيد بعداً عن الإسلام ويعدو للكفر به وعداوته وعداوة أهله ، ان طال أمر استبدالهم فيه

لا تقل : وما يمنع بقية أهل الدين منهم أن يفسروها له بالتركية تفسيراً يصحح الاغلاط ويدفع الشبهات ؟ فان الذين منعوا ما علمت بمنعون هذا أيضاً وينشرون تفاسير ملاحدتهم المؤيدة لفرضهم وهم يستمدونها من خصوم الإسلام كدعاة النصرانية وشياطين السياسة الأوربية ، وملاحدة المادية دع ما يعليه عليهم الجهل أو الكفر أذكر مثالا واحداً من ذلك قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)

بلغنى من عالم عربى أقام فى الأستاذة سنين كثيرة يخالط علماءها عن عالم تركى أعرفه وكنت أعدة من أفضل علماء الجامعين بين العلم والتدين ومعرفة حال المعصير أنه يشتغل بترجمة القرآن ، وأنه يقول بقول الباطنية الأولين : فى هذه الآية وهو أن العبادة من صلاة وصيام لم تفرض إلا على من لم يصلوا فى العلم إلى درجة اليقين ، ومن وصل إلى هذه الدرجة ترتفع عنه العبادة بنص هذه الآية من القرآن . ويمكن هذا التأويل لإبطال جميع عبادات الإسلام . فان اليقين أمر يمكن لكل أحد أن يدعيه ، ويمكن اضلال جماهير الناس بالوصول اليه ، وفى التحكم فيما يطلب اليقين فيه

ونقول فى إبطال هذه الضلالة (أولا) : إنها طعن صريح فى النبى الأعظم صلوات الله وسلامه عليه بأنه لم يكن على يقين فى دينه وعلمه بالله عز وجل ، فان الخطاب له ﷺ فى الآية ، وهو المعنى به أولا وبالذات وان كان الحكم عاما . وذلك بالتبع لما قبله من الامتنان عليه بآياته السبع المثانى والقرآن العظيم ، وأمره بالتبليغ والصدع به وتهوين أمر المشركين عليه وإنيائته بكفايته تعالى أمر المستهزئين منهم بعد هذا قال (١٥ : ٩٤ - ٩٩ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقد ورد فى التفسير المأثور أن المراد باليقين الموت ، وان المعنى : واعبد ربك مادمت حيا . ونقلوا شواهد له من الاستعمال . وفسروا به قوله تعالى حكاية عن أهل النار (٧٤ : ٤٦ و ٤٧ وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين *)

(ثانيا) إن أصل اليقين شرط فى صحة الإيمان والإيمان الصحيح شرط فى صحة العبادة ، فاليقين فى الإسلام مبدأ لا غاية ، والخفية الذين تلقى هذا التركى الدين على مذهبهم يقولون : ان الإيمان لا يقبل الزيادة ولا نقصان ، لأن التصديق إذا لم يكن يقينا لا يكون إيمانا ، وليس فوق اليقين غاية تكون هى الزيادة . وفى هذا البحث نظر ليس هذا محله

(ثالثا) ان اليقين الذى ينتهى اليه تصديق الانسان فى الدين أو غيره لا يصح التعبير عنه بالاثيان ونحوه كالحجى لأنه يكون فى نفسه وعقله ، وانما يعبر

به عما يرد على الإنسان من الخارج بذاته أو بأسبابه كالموت والعلم الخبى ، أو المنتزع من المعلوم الخارجى ، دون نتيجة القياس العقلى . فقوله تعالى (حتى يأتيتك اليقين) كقوله (ويأتيه الموت من كل مكان) وقوله (من قبل أن يأتى أحدكم الموت) وقوله (حتى إذا جاء أحدكم الموت) .

ونكتفي بهذا القدر من الاستطراد للدفاع عن القرآن فى تفسيره ، فهو أفضل ما يدافع به عنه ، بل هو من مقاصد التفسير لآمن الاستطراد الأجنبى عنه . وما ضعف اعتداء الناس بالقرآن إلا بخلو تفسيره من تطبيق عقائده وأحكامه على أحوال الناس ودفع الشبهات التى تصدم عنه .

(١٥٨) وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ

بين تعالى فى الاستطراد الخالص بنبوة خاتم الرسل ﷺ كتابة رحمته للذين يتبعونه من قوم موسى وعيسى عليهما السلام ، وقال فى متبعيه (أولئك هم المفلحون) أى دون غيرهم من الذين كفروا به ولم يتبعوا النور الذى أنزل معه بعد بعثته وبلوغ دعوته ، وذلك لا ينافى كون المتبعين لموسى حق الاتباع قبل بعثته ﷺ على هدى وحق وعدل وأنهم من المفلحين ، فإن ما أفادته جملة (أولئك هم المفلحون) من الحصر اضافى لاحقيقى كما أشرنا إليه آنفاً وبيناه فى تفسير تلك الآية . ولذلك بين سبحانه فى هذه الآية حال خواص أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الاتباع ، عاطفاً إياهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين ﷺ فقال :

﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ أى ومن قوم موسى (أيضاً) جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذى جاءهم به من عند الله تعالى ويعدلون به دون غيره إذا حكموا بين الناس ، لا يتبعون فيه الهوى ، ولا يأكلون السحت والرشى ، فالظاهر المتبادر أن هؤلاء ممن كانوا فى عصره وبعد عصره حتى بعدما كان من ضياع أصل التوراة ثم وجود النسخة المحرفة بعد السبى ، فإن الأمم العظيمة لا تخلو من أهل

الحق والعدل . وهذا من بيان القرآن للحقائق ، وعدله فى الحكم على الأمم ، كقوله (٣ : ٧٥) ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً) وقيل فى وجه التناسب والاتصال : إنه ذكر هؤلاء من قومه فى مقابل متخذى المعجل للدلالة على أنهم كانوا بعض قومه لا كلهم ، وهو جائز على بعد يقدر بقدر بعد هذه الآية عن قصة المعجل ، وما قلناه أظهر .

(فان قيل) إن قوله « يهدون ويعدلون » لأجل المفيد الاستمرار (قلنا) إن أمثاله مما حكى فيه حال الغابرين وحدهم بصيغة المضارع كثير ، ووجهه ان التعبير لتصوير الماضى فى صورة الحاضر ، وما هنا يشمل أهل الحق من قوم موسى إلى زمن نزول هذه السورة ممن لم تكن بلغت دعوة النبي الامى خاتم النبيين ﷺ وهم الذين كانوا كلما بلغت أحداً منهم الدعوة قبلها وأسلم ، وقد ورد فى وصفهم آيات صريحة وحل بعضهم هذه الآية التى تفسرها عليهم وحدهم .

قالوا : ان المراد هؤلاء الأمة من آمن بالنبي ﷺ من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه . ونقول انه نزل فى هؤلاء آيات صريحة كقوله فى آخر سورة آل عمران (٣ : ١٩٩) وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم) وهذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها ليست صريحة فى هذا ، بل السياق يناهيه لأنها جاءت بعد بيان حال الذين يؤمنون به ﷺ فالتبادر فيها أنها فى خواص قوم موسى فى عهد موسى وبعد عهده ومنهم النبيون والرايون والقضاة العادلون ، كما يعلم بالقطع من آيات أخرى . فالآيات فى الخبار من أهل الكتاب ثلاثة أنواع (١) الصريحة فى الذين ادركوا النبي ﷺ وآمنوا قبل إيمانهم أو بعده كقوله تعالى فى سورة البقرة (١٣١) الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) وقوله فى سورة القصص (٢٨ : ٥٢ - ٥٥) الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * إلى قوله — أولئك يؤتون أجراً مرتين - الآيات) ومثلهم فى سورة الانعام والرعد والاسراء والقصص والمنكبوت الخ (٢) الصريحة فى الذين كانوا فى عهد موسى عليه السلام واستقاموا معه ثم فى

عهد من بعده من أنبيائهم إلى عهد البعثة العامة قبل بلوغ دعوتها كالآية التي نحن
نصدد تفسيرها (٣) المحملة للقسامين كقوله تعالى (٣: ١١٣-١١٥) من أهل
الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله) الخ فراجع تفسيرهن (ق ص ٧٠-٨٣ ج ٤ تفسير)
وفي تفسير الأمة هنا خرافات اسرائيلية ذكر بعضها ابن جرير عن ابن جريج
انه قال : بلغني كذا ، وذكر أن سبطا من بني اسرائيل ساروا في نفق من الأرض
فخرجوا من وراء الصين الخ . وذكر عن ابن عباس ما يؤيد هذا بدون مسند .
وابن جريج على سعة علمه وروايته وعبادته شر المدلسين تدليسا لأنه لا يدل
عن ثقة وأئمة الجرح والتعديل لا يعتمدون بشيء يرويه بغير تحديث ، ونقل هذه
الخرافة كثيرون ، وزادوا فيها ما عزوه إلى غيره أيضا ويبحثوا فيها مباحث ، ولا
يستحق شيء من ذلك أن يحكى .

(١٥٩) وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى
مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ
مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ
النِّعَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

هذا سياق آخر من أخبار قوم موسى عليه السلام عطف على ما قبله لمشاركته
إياه في كل ما يقصد به من العظات والمبر . قال تعالى :

﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما ﴾ أى وفرقنا قوم موسى الذين كان
منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ومنهم الظالمون والفاسقون - كما سيأتى بعد
بضع آيات - قطعناهم فجعلناهم اثنتي عشرة قطعة أى فرقة تسمى أسباطا أى
أما وجاعات يمتساز كل منها بنظام خاص فى معيشتها وبعض شتونها كما يأتى
قريباً فى مشارب ما هم . والمشهور من معنى السبط - بكسر السين - أنه ولد الولد

مطلقاً ، وقد يخص بولد البنت . وأسباط بني اسرائيل سلالات أولاده العشرة - أي ماعدا لاوى - وسلاتل ولدى ابنه يوسف وهما (افراهيم وموسى) وأما سلالة لاوى ، فنيطت بها خدمة الدين فى جميع الأسباط ولم تجعل سبطاً مستقلاً . وقد تقدم تفصيل ذلك ^(١) فالأسباط بيان للفرق والقطع التى هى أقسام بني اسرائيل ليعلم أنها سميت بذلك ، كما سميت الفرق فى العرب بالقبائل ، والأمم بيان المراد من معنى الأسباط الاصطلاحى . والامة الجماعة التى تؤلف بين أفرادها رابطة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد ، وتقدم بيان ذلك أيضاً .

﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ﴾ تقدم فى سورة البقرة مثل هذا مع تفسيره وهو (وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) فأفاد ما هنا أن قومه استسقوه ، وما هنالك انه استسقى ربه لقومه ، وكلاهما قد حصل . والاستسقاء طلب الماء للسقيا ، وتعريف الحجر فى هاتين السورتين المكية (الأعراف) والمدنية (البقرة) لتعظيم جرمه ، وقد عبر عنه فى التوراة بالصخر - أو تعظيم شأنه ، أو كليهما ، وكلاهما عظيم ، وقد يكون للعهد كما تدل عليه عبارة التوراة ، إذ عينت مكانه من جبل حوريب . والانبجاس والانفجار واحد . يقال : يجسه أى فتحه فانبجس ويجسه (بالتشديد) فتبجس ، كما يقال : فجره (كمنصره) إذا شقه فانفجر ، وفجره (بالتشديد) فتنفجر - وزعم الطبرسى أن الانبجاس خروج الماء بقله ، والانفجار خروجه بكثرة ، وأنه عبر بهما لافتادة أنه خرج أولاً قليلاً ثم كثر . وأدق منه قول الراغب : الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شئ ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شئ واسع ، فاستعمل حيث ضاق الخرج اللفظان - أى وهو حجر موسى - وقال (وفجرنا خلالها نهرا) (وفجرنا الأرض عيوناً) ولم يقل بجسنا اه

أقول : ولكن رواية اللغة فسروا أحدها بالآخر ، وذكروا من الشواهد عليه

ما يدل على الكثرة . قال في الاسان : البجس انشقاق في قرية أو حجر أو أرض ينبع منه الماء ، فان لم ينبع فليس بانبجاس وأنشد * وكيف غرني دالج تبجسا*^(١) والسحاب يتبجس بالمطر : والانبجاس عام ، والنبوع للعين خاصة ، وبجست الماء فانبجس أى فجرته فانفجر ، وبجس بنفسه يبجس ، يتعدى ولا يتعدى . وسحاب يُبجس ، وتبجس أى انفجراه وفي الأساس : انبجس الماء من السحاب والعين : انفجر ، وتبجس : تفجر الخ ... وسحاب يُبجس وبجسها الله . قال ابن مقبل : له قائد دُهم الرباب وخلفه روايا يمجسن الغمام الكنهورا^(٢)

وحاصل المعنى : وأوحينا الى موسى حين استسقاء قومه فاستسقى ربه لهم (كما في آية البقرة) بأن اضرب بمصاك الحجر فضر به فتبعته منه عقب ضربه اياه اثنتا عشرة عينا من الماء بمدد أسبابهم * قد علم كل أناس مشربهم * أى قد عرف أناس كل سبط المكان الذى يشربون منه ، إذ خص كل منهم بعين لا يأخذ الماء إلا منها لما في ذلك من النظام ، واتقاء ضرر الزحام . وفي أول سفر العدد من التوراة : أن عدد الرجال الصالحين للحرب من بنى اسرائيل كان يزيد على ستمائة ألف من ابن عشرين فما فوقه ، فعلى هذا يكون عدد الجميع رجالا ونساء وأطفالا لا يقل عن ألفى ألف (مليونين) والمؤرخ النقاد الحكيم ابن خلدون تشكيك معروف فيما قاله المؤرخون تبعاً للتوراة في كثرة هذا العدد من وجوه كثيرة ، فصلها في أول مقدمة تاريخه ، ولكن لا يمكن الشك في أنهم كانوا ألوفاً كثيرة أو عشرات الألوف فإذا لم يكن لهم في سيناء موارد للماء غير تلك العيون التى انفجرت من صخر في جبل (حوريب) متصل به ، فلا بد أن تكون مساحة ذلك الصخر واسعة جداً ، وأن يكون السهل أمامه أفيح ليسع الألوف من الأسباب يردون ويصدرون . وقد اختلف

(١) أى وكفت وسالت كوكيف دلوى مانح من البئر وهو الدج . قالوكيف مصدر كالوكف والوكوف (٢) الرباب السحاب ، والكنهور كسفرجل السحاب المتراكم ، والروايا الابل التى تحمل الماء . والكلام في وصف سحاب ماطر ، يقول : إنله قائدا من السحاب السود ، وخلفه سعائب ثقال من حمل الماء كالروايا يمجسن أى يفجرن الغمام المتراكم بالوابل المدرار

علماء أهل الكتاب في مدلول لفظ (حوريب) الذي أمر الله موسى أن يذهب إلى صخر فيه فيجده — أي الرب — عنده أو عليه ، وأن يضربه بعصاه فينفجر منه الماء هل هو جبل سيناء نفسه أم بين اللفظين عموم وخصوص — ويزعم بعضهم أنه الصخر المذكور في الوادي الذي يسمى (وادي العجاء) ويهين بعض الرهبان مكانه ولا يعيننا شيء مما ذكر إلا أننا نجزم بأن ما في كتب التفسير عندنا من صفة ذلك الحجر وحجمه وشكله ككونه كراش الشاة أو أكبر وكونه يوضع في الجوالق أو يحمل على ثور أو حمار — كل ذلك من الخرافات الاسرائيلية التي كانوا يتلقونها بالقبول أيها أغرب. وقد نقل ابن كثير على احتراسه كثيرا منها

وفي عرائس المجالس عن وهب بن منبه أن موسى كان يقرع لهم أقرب حجر فتنفجر منه عيون ... فقالوا إن فقد موسى عصاه متنا عطشا ، فأوحى الله إليه بأن يكلم الحجارة فتطيعه ، فقالوا : كيف بنا إذا مضينا إلى الأرض التي ليس فيها حجارة ؟ فأمر الله موسى أن يحمل معه حجرا فحينما نزل ألقاه إلى الخ وهذا من الخرافات التي اختلفها وهب ، ليس لها أصل عند اليهود ولا عند المسلمين. ولولا جنون الرواة بكل ما يقال عن بني إسرائيل لما قبلوا من مثله أن يشرب مئات الألوف أو الملايين من حجر صغير يحمل كما قبلوا من مزاعمه أن راس الرجل من قوم هود عليه السلام كان كالقبة العظيمة !! وقد عدوه مع أمثال هذه الخرافات ثقة في الرواية (١)

﴿ وظلنا عليهم الغمام ﴾ الغمام السحاب أو الأبيض أو الرقيق منه أي وسخرنا لهم الغمام يلقي عليهم ظله فيقيهم لفتح حرارة الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها وحرها المعتدل ، وتسمى السحابة ظلة بالضم ككل ما أظلك من فوق. ولولا كثرة السحاب في التيه لأحرقهم الشمس إذ لم يكن هنالك شجر يستظلون به

﴿ وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾ المن مادة بيضاء تنزل من السماء (الحو) كالطلح حلوة الطعم تشبه العسل ، وإذا جفت تكون كالصمغ ، وقد كثر نزوله على بني إسرائيل في التيه ، وهو موصوف في التوراة بأن طعمه كطعم قطائف بالزيت ، ومنظره

نكظر المقل ، وعبر عنه فيها بخبر السماء . وقد كان يقوم مقام الخبز . ويقول كثير من المفسرين انه هو المعروف عند الأطباء بالترنجبين . وقال (الدكتور بوست) في قاموس الكتاب المقدس : لا يجوز أن يشبه بين هذا المن والمن الطبي الذي هو عصير منعقد من شجرة الدردار ولا هو أيضاً - المن الذي يتكون من شجرة الطرفاء وعلى ذلك بقوله (١) إن الاسرائيليين لم يروه قبل رحلتهم (٢) لا يوجد المن العربي إلا تحت الطرفاء وفي أول الصيف فقط (٣) يمكن حفظه مدة طويلة ولا يدود (٤) لا يمكن طحنه أو دقه (٥) يتكون المن كل يوم من أيام الأسبوع مدة الفصل ٥ . وفي قوله نظر لاحاجة إلى شرحه ، وهو يريد به إثبات ماقاله من أن هذا المن كان « عجيبة » أى معجزة أو كرامة لموسى عليه السلام . ونحن لانكر ما آتى الله كليمه من الآيات البينات والحجج على قومه لاصلاحهم . وقد كان أفسدهم استعباد المصريين لهم ويكفى أن تكون المعجزة في نزولها بتلك الكثرة التي كانت تكفي تلك الألوف وتقوم عندهم مقام الخبز كما اعترف به هوفى (السوى) فقد وافق غيره في أنها هي طير السمان المعروف وقال : إنها كانت تهاجر من أمريقية (ولاسيا مصر) فنصل إلى سيناء تعبئة فتقع على الأرض أو تسف فتؤخذ باليد . وقيل طير تشبه السمان ولكنها أكبر منها .

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ هنا قول مقدر يكثر مثله في التنزيل وكلام العرب أى وقلنا لهم --- أو أنزلنا ماذا ذكر عليهم قائلين : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، فوضع هذا الوصف لمن والسوى موضع الضمير تعظيم شأن المن بهما . وإسناد الرزق إلى ضمير جمع العظمة تأكيداً للتبهيبة والتذكير بما يجب من شكره تعالى على ذلك . ويقدر مثل هذا في آية البقرة المدنية ، وإن كانت خطاباً لبني إسرائيل المجاورين للنبي ﷺ في المدينة ولن بلغه من غيرهم ، فإن الخطاب لهم هناك إنما كان بما وقع لأجنادهم فهو بمعنى الحكاية في آية الأعراف إلا أن الكلام هنا كان موجهاً أولاً إلى المشركين لأن السورة مكية ، ولذلك اتحد عجز الآية في السورتين وهو :

﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أى وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ولكن كان دأبهم ظلم أنفسهم دون ربهم الذى لا يبدله تأثير أحد بظلم ولا غيره فكأنوا يجنون على أنفسهم بكفر النعم والوجود وغيرها أنا بعد آن وجيلا بعد جيل ، كما هو مبين فى القرآن بالاجمال وفى التوراة بالتفصيل . فتقديم أنفسهم على يظلمون المفيد لقصر ظلمهم عليها إنما هو لبيان أن كفرهم بنعمة الله تعالى يضرهم ولا يضره تعالى كما فى الحديث القدسى الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى ذر رضى الله عنه مرفوعا « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » . (ومنه) « يا عبادى إنكم لن تباهوا ضرى فضررتى ، ولن تبلفوا نفعى فتنفعوا » ولا يدخل فى معنى القصر أنهم لا يظلمون الناس فانه لم يكن معهم أحد فى التيه فينتفى عنهم ظلمه ولما اتصلوا بالناس بعد الخروج منه وكان منهم العادلون ومنهم الظالمون ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم . وإن كان ظلمه لنفسه مما يحول أنه ظلم لها لأنه يتجلى له فى صورة المنفعة ، وإنما تكون عاقبته المضرة ، وهكذا شأن جميع الظالمين والمجرمين . ينوون بظلمهم وإجرامهم نفع أنفسهم جهالة منهم . ولا يزال طوائف من بنى إسرائيل يقدمون على ضرر من ظلم الناس بقصدون بها نفع أنفسهم وقومهم ، وهى تنذر بخطر كبير ، وشر مستطير ، كالفتنة التى أثاروها فى بلاد الروسية بتعاليم الاشتراكية المسرفة المعبر عنها بالبلشفية ، ومحاولة انتزاع فلسطين من الأمة العربية ، وهذا مما يدخل فى مضمون التمدى والاستمرار على الظلم المعبر عنه بجملة (كانوا أنفسهم يظلمون) إذ هى تفيد أن هذا صار دأبا وعادة لهم

(١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ سَيُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ

تقدم مثل هاتين الآيتين في سورة البقرة و بين ما هنا وما هناك فروق في التعبير نبيها هنا فنقول

(٢١) قال تعالى هنا ﴿ وإذ قيل لهم ﴾ لأن القصة خطاب وجه أولاً إلى أهل مكة ، فالحكاية فيه عن بنى إسرائيل حكاية عن غائب والأصل أن يذكر ضميره فيه ولذلك قال « لهم » في سورة البقرة « وإذ قلنا » والمعنى واحد إذ المعلوم أن القائل هو الله تعالى ، وقد روعى هناك السياق في خطاب بنى إسرائيل إذ قبلها « وإذ فرقنا بكم البحر . . . » وإذ واعدنا موسى . . . » فناسب أن يقول « وإذ قلنا » ولم يقل فيها « لكم » كما قال هنا « لهم » لأن القول كان لأجداد المخاطبين من ألوف السنين لا لهم أنفسهم ، ولم يقل « لهم » أيضاً لأن السياق لم يكن حكاية عن غائب مجهول يحتاج إلى تعيينه ، بل هو تذكير الخلف بما تقوم به عليهم الحجة من شؤون السلف ، لأنهم وارثوا أخلاقهم وغرائزهم وعاداتهم ، فهو إذن مشترك بين الخلف الحاضر ، والسلف الغابر ، وزيادة « لهم » تلمسه بالغائب وحده فتكون حكايته لبنى إسرائيل كحكايته لعرب مكة وغيرهم ، فتأمل

(٣) قال ههنا ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ وفي سورة البقرة « ادخلوا » والفائدة ههنا أتم لأن السكنى تستلزم الدخول ولا عكس . وتظهر فائدة اختلاف التعبير في الفعلين بما يليهما من العطف عليهما وهو

(٤) قال ههنا ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ وفي سورة البقرة « فكلوا منها حيث شئتم رغداً » فمعطف الأمر بالاكل هنالك بالغاء لأن بدءه يكون عقب الدخول كأكل الفواكه والثمار التي كانت توجد في كل ناحية من القرية - والسكنى أمر ممتد يكون الأكل في أثناءه لاعتقه ، بل لا يقال عقب السكنى إلا فيمن يترك هذه السكنى ، ولذلك عطف عليه هنا بالوار التي تفيد الجمع بين الأمرين مطلقاً بلا ملاحظة ترتيب ولا تعقيب . وقد وصف هنالك الأكل بالرغد وهو الواسع الحنى والتبشير به يناسب حال الدخول ، إذ الأمر لدى الداخل مجهول .

(٦) قال ههنا ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ وقدم هنالك ما أخر

هنا وآخر ما قدمه أى في الذكر ، وهو لا يدل على طلب ترتيب بين الأمرين لأن العطف فيه بالواو الدالة على طلب الأمرين مطلقاً ، ولكن لو كان التعبير في الموضعين واحداً لزم منه أن المقدم في الذكر أرجح أو أهم ولو في الجملة كما هي القاعدة في التقديم لذاته . فكان الاختلاف دالاً على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذلك وبين عكسه . لأن المراد منها لا يقتضى ترتيباً بين مادات عليه كلمة (حطة) وهو الدعاء بأن تحط عنهم أوزارهم وخطاياهم كقولك اللهم غفراً^(١) وبين دخول باب القرية في حال التلبس بالتواضع والخشوع لله تعالى وتنكيس الرؤوس شكراً لجلاله على نواله ، كما فعل النبي الأعظم ﷺ لما دخل مكة فاتحاً

(٧) قال ههنا ﴿ تغفر لكم خطيئاتكم ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب (تغفر) بالياء والقاء المفتوحة ورفع (خطيئاتكم) وهو يناسب (وإذ قيل لهم) وقرأ الجمهور تغفر بالتون وكسر القاء ونصب «خطيئاتكم» بكسر تائها وهو يناسب ما بعده وهو كون «سنزید» للمتكلم المعظم . والمعنى فيهما واحد ، لأن المخاطب الذي يغفر الذنوب واحد . وقرأ ابن عامر (خطيئتك) بالافراد ، وهو بمعنى الجمع لأنه مضاف فيفيد العموم ، ولعل فيه إشارة إلى خطيئة خاصة مشتركة . وقرأ أبو عمرو خطاياكم) وبها قرأ الجمهور في آية البقرة ، مع اختلافهم في فعل المغفرة كما هنا . وكتابة الكلمتين في المصحف الامام تحمل كل ما ذكر في الكلمتين ، وفائدة الاختلاف لفظية وهي التوسع في القراءة ، وقال القطب الشيرازي إن فائدة الاختلاف بين قراءتي الافراد والجمع للخطيئة أن هذه الذنوب تغفر لهم إذا فعلوا ما أصرأ به من قول وفعل سواء كانت قليلة كواحدة أو كثيرة

(٨) قال ههنا ﴿ سنزید المحسنين ﴾ بدون واو على الاستئناس البيناني وهو جواب سؤال كأنه قيل: وماذا بعد المغفرة ؟ أى سنزید المحسنين في علمهم جزاء حسناً على

(٩) قالوا رفعت كلمة حطة مع كونها في موضع النصب بمعنى حط عنا خطايانا حطة - للدلالة على معنى الثبات والاستقرار . والتقدير حاجتنا حطة ، وهو أحسن من تقدير مسألتنا حطة كما قدروا ، أى حاجتنا أن تحط عنا ذنوبنا حطاً خاصاً أو تاماً فإن كلمة حطة بكسر الحاء تدل على هيئة الحط ونوعه

احسانهم . وفي سورة البقرة (وستزيد بالعطف ، والمعنى واحد . وقد يكون طرح الواو أدل على كون هذه الزيادة تفضل محض ليس مشاركا للمغفرة فيما جعل سبباً لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بمحط الأوزار

(٩) قال ههنا ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ وفيه زيادة (منهم) على مثله من سورة البقرة وسببها ما تقدم نظيره في قوله تعالى (وإذا قيل لهم) الخ من الحاجة إلى ذكر ضمير المحكي عنهم لربط الكلام ، وهذه الحاجة منتفية في سورة البقرة كما علمت من الفرق السابع آنفاً ، وليس لزيادة البيان كما قيل ، بل هو الأصل ههنا ولا حاجة إليه هنالك وإن كان حكاية عن القائبين لأنه لم يخرج عن سياق مخاطبة خلفهم الحاضرين .

وأما معنى تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم فقد تقدم بيانه في تفسير آية البقرة وملخصه أنهم عصوا بأقول والفعل . وخالفوا الأمر مخالفة تامة لا تحتمل الاجتهاد ولا التأول ، فلم يراعوا ظاهر مدلول لفظه ، ولا فحواه والمقصود منه ، حتى كان المطلوب منهم غير الذي قيل لهم ، ولو قال فبدلوا قولاً بقول ، أو فبدلوا ما قيل لهم ، لم يدل على هذا المعنى كله .

ولا ثقة لنا بشيء مما روى في هذا التبديل من ألفاظ عبرانية ولا عربية ، فكله من الاسرائيليات الوضعية ، كما قاله الاستاذ الإمام هنالك . وإن خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفاً ومرفوعاً كحديث أبي هريرة المرفوع في الصحيحين وغيرهما « قيل لبني اسرائيل (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : حطه ، حبة في شعرة » وفي رواية شعبة رواه البخاري في تفسير السورتين من طريق همام بن منبه أخى وهب وهما صاحبا الغرائب في الاسرائيليات . ولم يصرح أبو هريرة بإسماع هذا من النبي ﷺ فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار إذ ثبت أنه روى عنه ، وهذا مدرك عدم اعتماد الاستاذ رحمه الله تعالى على مثل هذا من الاسرائيليات وإن صح سندُه ولكن قلما يوجد في الصحيح المرفوع شيء يقتضي الطعن في سندها .

(١٠ - ١٢) قال ههنا ﴿ فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾

وقال هنالك (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) فالاختلاف في ثلاثه مواضع (أولها) بين الإرسال والانزال وهو لفظي إذ الإرسال من فوق عين الانزال (ثانيها) بين المضمّر « عليهم » والمظهر (على الذين ظلموا) والمراد منهما أن ذلك الرجز عذاب كان خاصاً بالذين ظلموا لا عاماً فحسن أن يقول في آية الأعراف « عليهم » لتصريحه بسببية الظلم بعده ولو قال « فأرسلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون » لكان تكرار التعليل بالظلم منافياً للبلاغة ، وهذا التكرار منتف في آية البقرة لأن التعليل فيها بالفسق لا الظلم (ثالثها) بين يظلمون ويفسقون وفائدته بيان أنهم كانوا جامعين بين الظلم الذي هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو للغير ، وبين الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة ولو في غير الظلم للنفس أو للناس . وحسن أن تكون هذه الزيادة في آية البقرة لأنها نزلت آخرّاً . والرجز العذاب الذي تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم كما تقدم تحقيقه في تفسير الآية (١٣٣) من هذه السورة وذكرنا فيها قول المفسرين إن الرجز الذي أرسله الله على الظالمين في قصة دخول القرية هو الطاعون وأنه جائز ولكن لم يثبت بنقل صحيح ، وقد عزاه بعض المفسرين إلى وهب بن منبه إن الله تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة ، وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكراً ، لا نارخ شعوب ومدائن ، ولا تحقيق وقائع ومواقع . والعبرة في هذه القصة أن نتقى الظلم والفسق . ونعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة ، وأنه قد عاقب بنى اسرائيل بظلمهم ، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل ، وكثرة وجود الأنبياء فيهم . ومنه السياق الآتي

(١٦٢) وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ

مَعَذِّرُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ

هذه الآيات تفصيل لقوله تعالى في سورة البقرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) إلى آخر الآيتين وقد تقدم تفسيرها ، ولا أعلم للقصة ذكراً من كتب اليهود المقدسة ولكنها كانت معروفة عندهم ، ولولا ذلك لبهتوا النبي ﷺ في المدينة عند ما نزل عليه (ولقد علمتم) أو لما آمن من آمن به من علمائهم إذا كانوا لا يعلمون ما حكى لهم عن الله تعالى أنهم يعلمونه مؤكداً بلام القسم ، وإذا قال غير المسلم المؤمن : أنه اطلع على القصة في بعض كتبهم المقدسة أو التاريخية غير المقدسة أو سمعه من بعضهم قلنا أولاً : ان آيات سورة الاعراف هذه نزلت بمكة في أوائل الاسلام ، ولم يكن النبي ﷺ لقي أحداً من اليهود . ومن المعلوم قطعاً انه كان أمياً لم يقرأ الكتب كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذا لا رتاب المبطلون) الخ . وثانياً : انه ﷺ لم يكن يصدقهم بعد معاشرتهم في المدينة بكل ما يحكون عن كتبهم بل كذبهم عن الله تعالى في كثير منها ، ولم يكن يصدقهم في كل ما يقولونه غير منقول عن كتبهم بالأولى : وهالك تفسير الآيات بدلول ألفاظها ، ولا نعتمد على شيء من الروايات فيها .

✽ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ✽ الخطاب للرسول ﷺ والسؤال فيه للتقرير المتضمن للتقريع ، والادلال بعلم ماضيهم . والمعنى واسأل بني إسرائيل عن أهل المدينة التي كانت حاضرة البحر أي قرية منه ، راكبة لشاطئه ✽ إذ يعدون في السبت ✽ أي أسأل عن حالهم في الوقت الذي كانوا يعدون في السبت ، ويتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه ✽ إذ تأتتهم حيتانهم ✽ أي سمكهم — ولا يزال أهل الحجاز يسمون السمكة حوتاً

كبيرة كانت أو صغيرة ، وأهل سورية يخصصون السمكة الكبيرة باسم الحوت -
وقد أضيفت الحيتان إليهم لما كان من ابتلائهم بها ، واحتياهم على صيدها ،
وكانت تأتيمهم ﴿ يوم سبتهم ﴾ أى تعظيمهم للسبت ، فهو مصدر سببت اليهود
نسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة ﴿ شرعا ﴾ أى
ظاهرة على وجه الماء كما روى عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى عنه ظاهرة من
كل مكان - وهى جمع شارب ، كالركم السجد جمع الراكع والساجد ، من شرع
عليه إذا دنا وأشرف ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيمهم ﴾ أى ولا تأتيمهم يوم لا يعظمون
السبت فعلا وتركوا . قيل إنها اعتادت أن لا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت ،
فأمنت وصارت تظهر فيه ، وتخفى في الأيام التى لا يسبتون فيها لما اعتادت من
اصطيادها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها في يوم السبت أغرام ذلك بالاحتيا
على صيدها ففعلوا .

﴿ كذلك نبloom بما كانوا يفسقون ﴾ أى مثل هذا البلاء بظهور السمك لهم
نبloom أى نختبرهم أو تعاملهم معاملة التحذير لحال من يريد إظهار كنهه حاله ليرتب
الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر عن أمر ربهم ، واعتدائهم حدود شرعه .

﴿ وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾
أى وأسألهم عن حال أهل تلك القرية في الوقت الذى قالت أمة وجماعة منهم كيت
وكيت تدل هذه الآية على أن الذين كانوا يعدون في السبت بعض أهل القرية لا كلهم
وأن أهلها كانوا ثلاث فرق : فرقة العادين التى أشير إليها في الآية الأولى ، وفرقة
الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان ، وعظومهم ليكفوا عنه وهى التى أشير إليها
في هذه الآية . وفرقة اللاتمين للواعظين التى قالت لهم : لم تعظون قوماً قضى الله
عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد ، فهو إما مهلكهم بالاستئصال ، أو بعذاب شديد
دون الاستئصال ، أو المعنى مهلكهم في الدنيا ومعذبهم في الآخرة - وأيا ما كان
المراد فأوهناهم المانعة للخلو من وقوع أحد الجزاءين ، لا المانعة لجمعهما ، فهى لا تنفى
اجتماعهما . وفي الآية من الإيجاز البليغ ما لا يوجد نظيره في غير القرآن .

﴿ قالوا : معذرة إلى ربكم واعلمهم ينقون ﴾ أى قال الواعظون للآئمين :
نعظمهم وعظا عذرتهم بذكره إلى ربكم عن السكوت على المنكر وقد أمرنا بالتناهى عنه ،
ورجاء فى انتفاعهم بالموعظة ، وحملها لهم على اتقاء الاعتداء الذى اقترفوه . أى :
فنحن لم نياس من رجوعهم إلى الحق يأسكم

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أى فلما نسى العادون المذنبون ، ما ذكروهم
ووعظهم به اخوانهم المتقون ، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالنسي فى
كونه لا تأثير له ﴿ أنجينا الذين يهون عن السوء ﴾ أى عن العمل الذى تسوء
عاقبته أى أنجيناهم من العقاب الذى استحقه فاعلوا السوء بظلمهم ﴿ وأخذنا الذين
ظلموا ﴾ وحدهم ﴿ بمذاب بئيس ﴾ أى شديد من البأس وهو الشدة ، أو البؤس
وهو المكروه أو الفقر ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أى بسبب فسقهم المستمر ،
لا بظلمهم فى الاعتداء فى السبب فقط . وذلك أن وصفهم بأنهم ظلموا تعليل
لأخذهم بمذاب بئيس ، على قاعدة كون بناء الحكم أو الجزاء على المشتق يدل على أن
المشتق منه علة له ، ولكن الله تعالى لا يؤاخذ كل ظالم فى الدنيا بكل ظلم يقع منه
ولو كان قليلا فى الصفة أو العدد . وإن شئت قلت فى الكيف أو الكم - بدليل
قوله (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهورها من دابة) وقوله (ويعفو
عن كثير) وإنما يؤاخذ الأمم والشعوب فى الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب
التي يظهر أثرها فيها بالأصرار والاستمرار عليها ، وهو ما أفاده هنا فى هؤلاء
اليهود قوله تعالى (بما كانوا يفسقون) وإنما يكون العقاب على بعض الذنوب دون
بعض فى الدنيا خاصا بالأفراد أو الجماعات الصغيرة من المذنبين كأهل هذه القرية
الذين كانوا بعض أهل قرية من أمة كبيرة ، وأما الأمم الكبيرة فهى التى تصدق
عليها سنن الله فى عقاب الأمم إذا غاب عليهم الفسق والظلم كقوله تعالى (واتقوا
فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة) إلا أن يقال إن الفاسقين من أهل تلك
القرية كانوا أقل من الغريقين الآخرين . وقد عاقب الله بنى إسرائيل كافة
بتنكيل البابليين ثم النصارى بهم وصلبيهم ملكهم ، عند ما عم فسقهم ، ولم يدفع

ذلك عنهم وجود بعض الصالحين فيهم ، إذا لم يكونوا يخلون منهم .
والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ، ونجاة الصالحين الذي نهوهم عن
عمل السوء وارتكاب المنكر ، وسكنت عن الفرقة التي أنكرت على الواعظين
وعظمهم وانكارهم ، فتيل : أنها لم تنج ، لأنها لم تنه عن المنكر بل أنكرت على
الذين نهوا ، وقيل : بل نجت ، لأنها كانت منكرة للمنكر مستقبحة له ، ولذلك
لم تفعله ، وإنما لم تنه عنه لئلا يساها من فائدة النهي ، وجزمها بأن القوم قد استحقوا
عقاب الله بأصرارهم فلا يفيدهم الوعظ ، وروى هنا عن ابن عباس كما روى عنه
أنه كان متردداً في هذه الفرقة حتى أقنعه تلميذه عكرمة بن جاثان . وقد رجح
الزحشرى وغيره هذا قال :

(فان قلت) الأمة الذين قالوا : لم تعظون ؟ من أى الفريقين هم ؟ أمن فريق
الناجين أم المذنبين (قلت) من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، وما
قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً
صحيحاً لهم بحال القوم ، وإذا علم الناهى حال المنهى وأن النهى لا يؤثر فيه ،
سقط عنه النهى ، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث . ألا ترى أنك لو
ذهبت إلى المسكسين القاعدين على المآصر ، والجلادين المرتبين للتعذيب ،
لتعظم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثاً منك ، ولم يكن إلا سبباً للتأذى بك .
وأما الآخرون فأنما لم يعرضوا عنه إما لأن يأمرهم لم يستحکم كما استحکم يأمر
الأولين ، ولم يخبرهم كما خبرهم ، أو لفرط حصرهم ، وجدّم في أمرهم ، كما
وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله (فلعلك باخع نفسك) اه
أقول : إن ما ذكره من سقوط النهي عن المنكر أو وجوب تركه في حالة اليأس
من تأثيره مرجوح ولا سيما إذا أخذ على إطلاقه ، وإنما هو شأن أضعف الإيمان
في حديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده » فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع
فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد
الخدري (رض) وإنما تكون هذه الحالة أضعف الإيمان عند عدم استطاعة ما قبلها ،
فان استطاع النهي وسكت عنه لم يكن له عذر مطلقاً ، ولذلك اختلف في هؤلاء الساكتين .

المحتملة حالهم للعذر وعدمه ، واليأس قلما ينفش إلا من ضعف في النفس أو الأيمان ، وكثير من مكاس وجلاذ ومدمن خمر تاب وأناب ، والمحققون لم يجعلوا احتمال الأذى ولا يقينه موجبا لترك النهي عن المنكر ولا لتفضيله على الفعل بل قالوا في هذه الحالة بالجواز ، واستدلوا على تفضيل النهي بحديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وغيرهم

وفي بئس عدة قرأت أخرى بين متواترة وشاذة ، تنخرج على الخلاف في أصل صيغته ، وعلى لغات العرب في التصرف في الميموز : فقرأها أبو بكر على خلاف عنه بيئس بوزن ضيعم - وابن عاصم يكسر الباء وسكون الهمزة بناء على أنه أصله بيئس بوزن حذر فنقلت حركة الهمزة إلى الفاء للتخفيف ككبد في كبد ، ونافع بييس على قلب الهمزة ياء كذئب وذيب ، أو على أنه فعل الذم وصف به فجعل اسما ، ومن الشواذ بييس كريس على قلب الهمزة ياء وإدغامها ، وبييس كهين على تخفيف المشددة ، وبأئس بوزن فاعل

﴿ فلما عتوا عما هموا عنه ﴾ أي فلما عتوا عن أمر ربهم عتوا إياه واستكبار عن ترك ما نهىهم عنه الواعظون ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ هذا القول للكوثر أي نعلقت إرادتنا بأن يكونوا قردة خاسئين أي صاغرين أذلاء فكانوا كذلك قيل : إن هذا بين وتفصيل للعذاب البيئس في الآية السابقة ، وقيل : هو عذاب آخر ، وإن الله عاقبهم أولا بالبؤس والشقاء في المعيشة ، لأن من الناس من لا يربيه ويهذبه إلا الشدة والبؤس ، كما إن منهم من يربيه ويهذبه الرخاء والنعمة ، وبكل يبتلى الله عباده ويمتحنهم كما قال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال في بني إسرائيل (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون) ولكن هؤلاء القوم لم يزدحم البؤس والسوء إلا عتوا وإصراراً على الفسق والظلم فقدم عليهم ربهم بذنوبهم ، ومسحهم مسخ خلق وبدن فكانوا قردة بالفعل ، أو مسخ خلق ونفس ، فكانوا كالقردة في طيشها وشرها ، وإفسادها لما تصل اليه أيديها ، والأول قول الجمهور والثاني قول مجاهد : قال مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ، مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) نَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكُتُبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالَّذِينَ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُعَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ تَتَّقِنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

هذه الآيات خاتمة قصة بنى إسرائيل في هذه السورة ، وما سياتى من نبال الذى آتاه الله آياته فالسلخ منها مثل عام ليس فيه مايدل على أنه كان منهم كما روى عن بعض المفسرين فهو لايدخل فى قصتهم ، ومناسبة هذه لما قبلها مباشرة أنها بيان لجريان سنة الله العامة فى عقاب الأمم وانطباقها على اليهود عامة ، بعد بيان عقابه تعالى لطائفة منهم قال عز وجل :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾
 تأذن صيغة تفعل من الايدان ، وهو الاعلام الذى يبلغ فيدرك بالأذان ، ويتضمن هنا تأكيد القسم ، ومعنى العهد المكتوب للتعزم ، بدليل مجيئ لام القسم ونون التوكيد فى جوابه ، والمعنى : واذا كرأيتها الرسول الخاتم العام إذا أعلم ربك هؤلاء القوم المرة بعد المرة أنه قد قضى فى علمه وكتب على نفسه ، وفاء لما أقام عليه نظام الاجتماع البشرى من سننه ليبعثن ويسلطن عليهم إلى يوم القيامة من

يسومهم سوء العذاب ، أى يريده ويوقعه بهم ، عقاباً على ظلمهم وفسادهم ، وهو مجاز من سوم الشيء ، كما يقال سامه خسفاً . وسوء العذاب ما يسوء صاحبه ويذله ، وهو هنا سلب الملك ، وإخضاع القهر

ومصداق هذا وتفصيله على ماقررنا قوله تعالى فى أول سورة الاسراء (رقصينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب اتفسدن فى الأرض مرتين ولنمعلن علواً كبيراً --- إلى قوله --- ويتبرأوا ما علواً تنبيراً) ثم قال (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا) الآية أى وإن عدتم بعد عقاب المرة الآخرة إلى الافساد ، عدنا إلى التعذيب والاذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذى اقاموه بعد نجاتهم من السبي البابلى ، وقهرهم واستذلهم ، ثم جاء الاسلام فعاداه منهم الذين كانوا هربوا من الذل والنكال ولجؤا إلى بلاد العرب فماشوا فيها أعزاه آمنين ، ولم يفوا للنبي ﷺ بما عاهدوهم عليه إذ آمنهم على أنفسهم وأهوالهم وحرية دينهم ، بل غدروا به وكادوا له ، ونصروا المشركين عليه ، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم ، فأجلى بعضهم ، وقتل بعضاً ، وأجلى عمر من بقى منهم ثم فتح عمر سورية بعضها بالصلح كبيت المقدس ، وبعضها عنوة ، فصار اليهود من سيادة الروم الجائرة القاهرة فيها إلى سلطة الاسلام العادلة ، ولكنهم ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال . وقد بينا حقيقة حالهم ، وما يحاولونه من استعادة ملكهم فى هذا الزمان فى غير هذا الموضع من هذا التفسير ، وفى مواضع من المنار

﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ للآثم الذى تنسق عن أمره وتفسد فى الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترقيها ففسقوا فيها — فحق عليها القول — فدمرناها تدميراً) أى أمرناهم بالحق والعدل ، والرحمة والنضل ، فمضوا وفسقوا عن الأمر ، وأفسدوا وظلموا فى الأرض ، فحق عليهم القول ، بمقتضى سنته تعالى فى الخلق ، فحل بهم الهلاك على الفور .

﴿ وإنه لعنور رحيم ﴾ لمن تاب عقب الذنب ، وأصلح ما كان أفسد فى

الأرض ، قبل أن يحق عليه القول (وإني لفغار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وهذا كما قال في اليهود بعد ذكر إفسادهم مرتين (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا) وقلماً ذكر الله عذاب الفاسقين المفسدين ، الا وقرنه بذكر المغفرة والرحمة للتائبين المحسنين ، حتى لا ييأس صالح مصباح من رحمته بذنب عمله بجمالة ، ولا يامن مفسد من عقابه اغتراراً بكرمه وعفوه وهو مصر على ذنبه ، ثم بين تعالى كيف كان بدء إذلال اليهود بإزالة وحدتهم ، وتمزيق جامعهم

فقال ﴿ وقطعناهم في الأرض أئمة ﴾ أي وفرقناهم في الأرض حال كونهم أئمة بالتقدير ، أو صيرناهم أئمة مقطعة ، بعد أن كانوا أئمة منجدة ﴿ منهم الصالحون ﴾ كالذين نهوا الذين اعتدوا في السبت عن ظلمهم ، والذين كانوا يؤمنون بأنبياؤه الله تعالى فيهم من بعد موسى إلى عهد عيسى عليهم السلام ، والذين آمنوا بمحمد خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿ ومنهم ذرئ ذلك ﴾ ومنهم ناس دون وصف الصلاح لم يبلغوه ، وهم درجات أو درجات ، منهم الغلاة في الكفر والفسق ، كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير حق ، ومنهم السامعون للكذب الأكالون للسهو ، إلى غير ذلك مما هو شأن الأمم الفاسدة في كل عصر ، تفسد بالتدريج لادفعة واحدة كما نراه في أممنا الإسلامية

﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ أي امتحناهم ، وبلونا سرائرهم واستعدادهم ، بالثمن التي نحسن ، وتقربها الأعين ، وبالنقم التي تسوء صاحبها ، وربما حسنت بالصبر والإنابة عواقبها ، وجاء أن يرجعوا عن ذنبيهم ، ويفيئوا إلى ربهم ، فيعود برحمته وفضله عليهم .

﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ أي فخلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح ، والبر والفاجر ، خلف سوء وبدل شر ، قيل : إن الخلف بكون اللام يغلب في الأشرار ، وإنما يقال في الأخيار خلف بالتحريك كساف ﴿ ورثوا السكتاب ﴾ الذي هو التوراة عنهم ، وقامت الحججة به عليهم ،

فإذا كان شأنهم ؟ الجواب ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أى يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى . أى هذا الخطام الحقير من متاع الدنيا ، والمراد به ما كانوا يأكلونه من السمحت والرشى ، والاتجار بالدين والمحابة في الحكم والقوى ﴿ ويقولون سيفقر الله لنا ، ولا يؤخذنا بما أذهبنا ، فانتا شعبه الخاص ، وسلائل أنبيائه ، ونحن أبنائه وأحبائه وما هذه الأقوال إلا أمانى ، وغرور وأوهام ، قال ابن كثير ، وقال مجاهد : هم النصارى ، وقد يكون أعم من ذلك اه وكل من القولين ينافية مقتضى السياق ، فأوائل النصارى كانوا صالحين ، وسابق الكلام ولاحقه في اليهود وحدهم ﴾ وإن

يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ أى يقولون ذلك والحال أنهم مصررون على ذنبهم إن يأتهم عرض آخر مثل الذى أخذوه أو بالباطل يأخذوه لا يتعففون عنه وإنما وعد الله في كتبه بالمغفرة للتائبين الذين يتركون الذنوب ندماً وخوفاً من الله ورجاء فيه ، ويصلحون ما كانوا أفسدوا ، كما تكرر في القرآن ، ومنه في سياق قصة موسى مع بنى إسرائيل خطاباً لهم من سورة طه (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)

وقد رد الله تعالى عليهم زعمهم بقوله ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ الاستغناء عن التقرير ، أى قد أخذ عهد الله وميثاقه في كتابه بأن لا يقولوا عليه غير الحق الذى بينه فيه ، فما بالهم يحزمون بأن الله سيفقر لهم مع اصرارهم على ذنوبهم على خلاف ما في الكتاب ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أى من تحريم أكل أموال الناس بالباطل والكذب على الله كقولهم إنه سيفقر لهم وغير ذلك ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في العمل بكتابه كما في آخر سفر تثنية الاشتراع

﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ أى والدار الآخرة وما أعده الله فيها للذين يتقون الرذائل والمعاصى خير من الخطام القانى من عرض

الدنيا بالرشوة والسحت وغير ذلك ، أفلا تعلمون ذلك وهو ظاهر جلي لا يخفى على عقل لم يطمسه الطمع الباطل ، في الخطام العاجل ، فترجعون الخير على الشر ، والنعيم العظيم الدائم ، على المتاع الحقير الزائل ، وقد علم من الآية ان الطمع في متاع الدنيا هو الذي استحوذ على بني اسرائيل فأفسد عليهم أمرهم ، ولا يزال هذا التفاني فيه أخص صفاتهم ،

وقد سرى شيء كثير من هذا الفساد إلى المسلمين ، حتى رجال الدين الذين ورثوا الكتاب الكريم ، واطروا الحكيم ، ودرسوا مافيهِ ، غلب على أكثرهم الطمع في حطام الدنيا القليل ، وعرضها الدنيء ، والغرور بالنسبة إلى الاسلام والتعالي بلمتبه ، والتملل بأمانى المغفرة مع الإصرار على الذنب والانتكال على المكفرات والشفاعات ، وهم يقرؤن مافي الكتاب من النهي عن الاماني والأوهام ، ومن نوط الجزاء بالأعمال ، والمغفرة بالتوبة والاصلاح ، وكون الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله لمن رضى عنه كقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) وان يرضى الله عن فاسق ولا منافق (فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) بل ما قص الله علينا مثل هذه الايات من أخبار بني اسرائيل إلا لنعتهير بأحوالهم ونقتي الذنوب التي أخذهم بها ، ولكننا مع هذا كله اتبعنا سننهم شيئاً بشير وذراعاً بذراع ، الا اننا نحمد الله ان هذا الاتباع فينا غير عام ، وانه لا يزال فينا طائفة ظاهرة على الحق بطن فيها الجماهير الذين صاروا لاسلام فيهم غريباً ، وقد شرحنا ذلك مراراً بل صرحت الايات بالتحذير من اتباع أهل الكتاب في أمانيتهم وفي فسقهم كقوله تعالى (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به) الخ وقوله (ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

قرأ (تعلمون) بالناء فافع وابن عامر وابن ذكوان وأبو جعفر وسهل ويعقوب وحفص فقل إن الخطاب به لليهود المحكي عنهم بطريق الالتفات ، وقيل بل هو خطاب لهذه الأمة لنعتهير بمآلهم ، وتجنب ما كان سبباً لسوء مآلهم ، من الإصرار

على سوء أعمالهم ، وقرأ الآخرون (يقولون) على الأصل في الحكاية عن الغائبين ، ولو صح ما قبل من أن هذه الآيات نزلت وحدها في المدينة لصح أن يقال إن الخطاب موجه إلى اليهود المجاورين لها ، لأنهم آخر ذلك الخلف ، الذي نزل فيه هذا الوصف في ذلك الوقت

﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة أنا لانضيع أجر المصلحين ﴾
قرأ الجمهور يمسكون بتشديد السين من مسك تسميكا بمعنى تمسك تمسكا ، ومثله قدم بمعنى تقدم ، ومنه (لا تقدسوا بين يدي الله ورسوله) وقرأ أبو بكر وحدها يمسكون بالتخفيف من الامساك . — أي والذين يستمسكون بعروة الكتاب الوثقى ويعتصمون بحبله في جميع أحوالهم وأوقاتهم ، وأقاموا الصلاة التي هي عماد الدين في أوقاتها ﴿ أنا لانضيع أجر المصلحين ﴾ أنا لا نضيع أجرهم لأنهم هم المصلحون . والله لا يضيع أجر المصلحين ، فهو خبر قرآن بالدليل ، وبمثل قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنا لانضيع أجر من أحسن عملا)

﴿ واذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾ لعل حكمة ختم قصة بني اسرائيل بهذه الآية هنا للتذكير بيده عالم في انزال الكتاب عليهم في إربابان عاقبة أمرهم في مخالفتهم والخروج عنه ، فإن في تلك الفاتحة إشارة إلى هذه الخاتمة ، وذلك عندما أخذ عليهم الميثاق ليأخذوا بالشرعية بقوة وعزم فانه رفع فوقهم الطور وأوقع في قلوبهم الرعب من خوف وقوعه بهم ، فلا غرو إذا آلى أمرهم إلى ترك العمل به بعد طول الامد وقساوة القلوب ، والانس بالذنوب ، وقد تقدم في معنى هذه الآية آيتان من سورة البقرة وأشير إليه في سورة النساء . وذكرنا آية الاعراف هذه في سياق تفسير آية البقرة الأولى . والمعنى واذا ذكر أيتها الرسول النبي الأمي إذ نتقنا فوق هؤلاء الجبل جبل الطور أي رفعناه كما عبر به في الآيات الأخرى وهو المروى عن ابن عباس — أو زلزلناه وهو مرفوع فوقهم وظلل لهم — كما يقال نتق السماء إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة : قال الجمهور انه اقتلعه وجعله فوقهم (فان قيل) ان كان الأمر كذلك لسكان ظلة بالفعل

لا كالظلة ، فان الظلة كل ما أظلك من فوقك ، ويصدق رفع الجبل فوقهم كالظلة وجودهم في سفحه واستظلالهم به (قلنا) إنه وإن صح هذا التأويل فان رفع الجبل على الوجه الاول إنما كان لاختفهم لا لإظلالهم وأما ظههم أنه واقع بهم فانما جاء من زلزله واضطرابه ، على أن الله تعالى قادر على فعله وجعله فوقهم وكما رأوا من آياته ما هو أدل على قدرته تعالى من ذلك

﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ وقلنا لهم في تلك الحالة : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بقوة عزيمة وعزم على احتمال مشاقه ﴿واذكروا ما فيه لعكم تنقون﴾ أى واذكروا ما فيه من الاحكام وأوامرها ونواهيها ، أو اعملوا به لتلا تنسوه — فان ذلك يعدكم للتقوى ويجعلها مرجوة لكم ، فان الجد وقوة العزم في إقامة الدين يهذب النفس ويزكيها ، والتهاون والاعراض فيه يدسها ويقربها (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

هذه الآيات بدء سياق جديد في شؤون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتوحيده وشكره ، في إزبيان هدايته لهم بإرسال الرسل وانزال الكتب في قصة بني إسرائيل ، فالمناسبة بين هذا وما قبله ظاهرة ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة ، أو سياق سياق على ، قال تعالى

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ الظهور جمع ظهر وهو العمود الفقري لهيكل الانسان الذي هو قوام بنيته ، ومركز النخاع الشوكي

الذى عليه مدار حياته ، فيصح أن يعبر به عن جملة وجوده الجسدى الحيوانى ، والذرية سلالة الانسان من الذكور والإناث . قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب (ذرياتهم) بالجمع والباقون بالافراد ومعناها واحد فان المفرد المضاف يفيد العموم ، ورسمها فى المصحف الامام واحد ، وقوله (من ظهورهم) بدل من بنى آدم بمعنى والجمهور على انه بدل البعض من الكل ، وهو الظاهر إذا لم يرد بهذا البعض ذلك الكل ، وقال أبو البقاء هو بدل اشتمال .

والمعنى وإذكر أيها الرسول فى اثر ذكر أخذ ميثاق الوحي على بنى إسرائيل خاصة ، ما أخذ الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشرية ، إذ استخرج من بنى آدم ذريتهم بطنا بعد بطن ، فخلقهم الله على فطرة الاسلام ، وأودع فى أنفسهم غريزة الإيمان ، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لا بد له من فاعل ، وكل حادث لا بد له من محدث ، وأن فوق العوالم الممكنة القائمة على سنة الأسباب والمسببات ، والملئ بالعلول ، سلطانا أعلى على جميع الكائنات ، هو الأول والآخر هو المستحق للعبادة وحده ، - وقد بسطنا هذه

المسألة - وهذا معنى قوله تعالى ﴿ واشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ﴾ أى أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة على نفسه بما أودعه فى غريزته واستعداد عقله قائلا قول إرادة وتكوين ، لا قول وحى وتلقين ، ألست بربكم ؟ فقالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال ، لا بلسان المقال : بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا . فهو من قبيل قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها فالتا أتينا طائعين) وهذا النوع من التعبير والبيان يسمى فى عرف علماء البلاغة بالتمثيل ، وهو أعلى أساليب البلاغة وشواهد فى القرآن وكلام البلغاء كثيرة .

بين سبحانه سبب هذا الاشهاد وعلة فقال :

﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ أى فعلنا هذا منعا واعتذاركم أو احتجاجكم يوم القيامة بأن تقولوا : إذا أنتم أمرتكم به . إنا كنا

غافلين عن هذا التوحيد للربوبية وما يستلزمه من توحيد الالهية بعبادة الرب وحده والمراد أنه تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل .

﴿ أو تقولوا : إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ جاهلين ببطلان شركهم ، فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم ﴿ أقهملكننا بما فعل المبطلون ﴾ باختراع الشرك فتجعل عذابنا كعذابهم ، مع عذرنا بتحسين الظن بهم ، والمراد أن الله تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد آبائهم وأجدادهم ، كما أنه لم يقبل منهم الاعتذار بالجهل ، بعد ما أقام عليهم من حجة الفطرة والعقل .

﴿ وكذلك نفصل الآيات لعلهم يرجعون ﴾ أى ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبنى آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم ، ولعلهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليدهم ، والآيات تدل على أن من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة بالشرك بالله تعالى ولا بفعل الفواحش والمنكرات التى تنفر منها الفطرة السليمة ، وتدرك ضررها وفسادها العقول المستقلة ، وإنما يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه أن لا يعرف إلا منهم . وهو أكثر العبادات التفصيلية .

هذا ما يتبادر إلى الفهم من الآيات لذاتها ولسكن ورد فى أخذ الذرية من بنى آدم واشهادهم على أنفسهم أحاديث وآثار لا يمكن أن تعرف إلا من خبر الوحي . وقد كانت موضوع بحث ومناقشة بين علماء المعقول والمنقول فنورد أمثل مآلوله فيها . قال الامام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

« يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه المسلة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جماء هل تحسون فيها من جدعاء » . وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ

عليه وسلم « يقول الله : إني خلقت عبادي جنفاً فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحلت لهم » وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني السري بن يحيى أن الحسن ابن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال : غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة ، فبلغ رسول الله ﷺ فاشند عليه ثم قال : « ما يال أقوام يقتولون الذرية ؟ » فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : « إن خياركم أبناء المشركين ، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة ، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها » قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية ، وقد رواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصري به ، وأخرجه النسائي في سننه من حديث هشيم بن يونس ابن عبيد عن الحسن قال : حدثني الأسود بن سريع فذكره ، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتعميمها إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال . وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم ، قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يقال الرجل من أهل النار يوم القيامة أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ » قال : فيقول نعم : فيقول قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به

﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير —

يعني — ابن حازم عن كلثوم ابن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعنان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنهزها بين يديه ثم كلمهم فقال قال : أأست بر بكم ؟

قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلون أو تقولوا : — إلى قوله — المبطلون » وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم عن صاعقة عن حسين بن محمد المروزي به ، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به ، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً . وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كاثوم بن جبير به وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكاثوم بن جبير هكذا قال ، وقد رواه عبد الوارث عن كاثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه ، كذا رواه اسماعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كاثوم عن جبير عن أبيه به ، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله ، وكذا رواه السوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت والله أعلم ، وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيعة حدثنا أبي عن أبي هلال عن أبي حمزة الضبي عن ابن عباس قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أذى من الماء . وقال أيضاً : حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة ابن ربيعة حدثنا أبو مسعود عن جوير : مات ابن الضحاك بن مزاحم ابن منة أباها قال : فقال يا جابر إذا أنت وضعت ابني في الحدة فأبرز وجهه وحل عنه عقده . فان ابني مجلس ومسئول ، ففعلت الذي به أمر ، فلما فرغت قلت یرحمك الله عم يسأل ابنك ؟ من يسأله إياه ؟ قال : يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قلت : يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم ؟ قال : حدثني ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول ، على الفطرة . فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف ، هذا علي ابن عباس والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن جرير : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد حدثنا
أحمد بن أبي ظبية عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن
مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ (وإذا أخذ ربك من بنى
آدم من ظهورهم ذريتهم) قال « أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال
لهم : أأست ربكم ؟ قالوا : بلى ، قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة
إنا كنا عن هذا غافلين » أحمد بن أبي ظبية هذا هو أبو محمد الجرجاني قاضي
فومس ، كان أحد الزهاد ، أخرج له النسائي في سننه وقال : أبو حاتم الرازي يكتب
حديثه ، وقال ابن عدي : حدث بأحاديث كثيرة غرائب . وقد روى هذا
الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد
عن عبد الله بن عمرو قوله ، وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال الامام أحمد : حدثنا روح هو ابن عبادة حدثنا مالك
وحدثنا اسحق بن مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن
ابن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن
هذه الآية (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم
أأست ربكم ؟ قالوا بلى) الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه
فاستخرج منه ذرية قال : خاقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » فقال :
يا رسول الله فقيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا خلق الله العبد
للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله
به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل
من أعمال أهل النار فيدخله به النار » وهكذا رواه أبو داود عن الثعنبى والنسائي
عن قتيبة ، والترمذي عن اسحق بن موسى عن معن ، وابن أبي حاتم عن يونس
ابن عبد الأعلى عن ابن وهب ، وابن جرير من حديث روح بن عبادة وسعيد
ابن عبد الحميد بن جعفر ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية أبي مصعب

الزبيرى كلهم عن الامام مالك بن أنس به قبل الترمذى : وهذا حديث حسن
ومسلم بن يسار لم يسمع عمر ، وكذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة ، زاد أبو حاتم
وبينهما نعيم بن ربيعة ، وهذا الذى قاله أبو حاتم رواه أبو داود فى سننه عن محمد
ابن مصفى عن بقة عن عمرو بن جهم القرشى عن زيد بن أبى أنيسة عن
عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهوى عن نعيم
ابن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية (وإذا أخذ
ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) فذكره . وقال الحافظ الدارقطنى : وقد
تابع عمرو بن جهم بن زيد بن سنان أبو فروة الرهاوى ، وقولها أولى بالصواب من
قول مالك والله أعلم (قلت) الظاهر أن الامام مالك إنما أسقط ذكر نعيم
ابن ربيعة عمداً لما جهل حال نعيم ولم يعرفه ، فإنه غير معروف إلا فى هذا
الحديث ، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ، ولهذا يرسل كثيراً من
المرفوعات ، ويقطع كثيراً من الموصولات والله أعلم

حديث آخر * قال الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد
حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من
ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل
إنسان منهم وبيضا من نور ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب من هؤلاء ؟ قال :
هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص عينيه قال : أى رب من هذا ؟
قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال : رب وكم جعلت
عمره ؟ قال : ستين سنة قال : أى رب قد وهبت له من عمرى أربعين سنة فلما
انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال
أو لم تعطها ابنك داود قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته
وخطيء آدم فخطئت ذريته » ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ،
وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه
الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين به وقال : صحيح على

شروط مسلم ولم يخرجاه ، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدثه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فذكر نحوه ما تقدم إلى أن قال « ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الاجنم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم : يا رب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تذكر نعمتي وقال آدم : يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظفر الناس نوراً ؟ قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم

حديث آخر قال عبد الرحمن بن قتادة النصري عن أبيه عن هشام بن حكيم رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله ابتداء الأعمال أم قد قضى القضاء قال : فقال رسول الله ﷺ « إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق هذه

حديث آخر روى جعفر بن الزبير — وهو ضعيف — عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الملقى وقضى القضية أخذ أهل اليمن بيمينه ، وأهل الشمال بشماله ، فقال يا أصحاب اليمن فقالوا بليك وسعديك قال ألسنت بر بكم قالوا بلى ثم خلط بينهم ، فقال قائل له يا رب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة أنا كنّا عن هذا غافلين ، ثم ردهم في صلب آدم » رواه ابن مردويه

أخر آخر قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) الآيات قال فجعلهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم اسقنطقهم فتسكعوا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم (ألسنت بر بكم قالوا بلى) الآية قال فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أبائكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا أعلموا أنه لا إله غيري

ولا رب غيري ، ولا تشركوا بي شيئاً ، وأنى سأرسل لكم رسلاً لينذروكم عهدى وميثاقى وأنزل عليكم كتفى ، قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لارب لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أبام آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال يارب لو سويت بين عبادك قال انى أحببت ان أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذى يقول تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) الآية وهو الذى يقول (فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله) الآية . ومن ذلك قال (هذا نذير من النذير الأولي) ومن ذلك قال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الآية رواه عبد الله بن الامام أحمد في مسنده أبيه ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه في تناسيهم من رواية أبي جعفر الرازي به . وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى وغير واحد من السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها وبالله المستعان

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الاشهاد عليهم هناك بأنه ربه فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس — وفي حديث عبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لامرفوعان كما تقدم ، ومن ثم قال قائلون من السلف واختلف إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصرى عن الاسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا : ولهذا قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم) ولم يقل من ظهر ذرياتهم أى جعل نسلمهم جيلاً بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، كقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ثم قال (وأشهدهم على أنفسهم ألاست بربك ؟ قالوا بلى) أى أوجدتم شاهدين بذلك قائمين له حالاً وقالوا والشهادة تارة تكون بالقول كقوله (قالوا شهدنا على أنفسنا) الآية . وتارة تكون حالاً كقوله تعالى (ما كان للمشركين

أن يعرفوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى حالهم يشاهد عليهم ذلك لا أنهم قائلون ذلك كقوله تعالى (وإياه على ذلك شهيد) كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله (وآتاكم من كل ما سألتموه) قالوا وما يدل على أن الاشهاد حجة عليهم في الاثراء ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه ، فان قيل اخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوهه ، الجواب أن المسكدين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ، ولهذا قال (أن يقولوا) أى لنلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أى عن التوحيد غافلين ، أو يقولوا إنما أشرك

آبائنا الآية ، ١٠ كلام ابن كثير .

وقد بسط العلامة ابن القيم هذه المسألة في كتاب الروح في سياق البحث في خلق الأرواح قبل الاجساد — فذكر الروايات المرفوعة والموقوفة والاثار فيها ما قيل من الجرح والتعديل في أصانيدهم قال ١ —

وهنا أربع مقامات (أحدها) ان الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم ، فيرشقهم وسعيدهم ومعافاتهم من ميثاق (والثاني) ان الله سبحانه أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته (الثالث) ان هذا هو تفسير قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) (الرابع) انه أن تلك الأرواح كلها بعد إخراجها بمكان وفراغ من خلقها وإنما يتجدد كل وقت إرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها .

(فأما المقام الأول) فالاثار متظاهرة به مرفوعة وموقوفة (وأما المقام الثاني) فأما أخذه من أخذه من المفسرين من الآية وظنوا انه تفسيرها ، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر . قال أبو اسحق : جائز أن يكون الله سبحانه جعل لامثال النذر التي أخرجها فلما تعقل به كما قال (قالت نمل يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) وقد سخر مع داود الجبال تسيح معه والطير . وقال ابن الانباري : مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية ان الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب

أولاده وهم في صور الذر، فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب، وكافعل ذلك باليمير لما سجد، والنخلة التي سمعت وانقادت حين دعيت

وقال الجرجاني: ليس بين قول النبي ﷺ «ان الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته» وبين الآية اختلاف بمحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض. وقوله تعالى (أن تقولوا يوم القيامة إنا سكتنا عن هذا غافلين) أي عن الميثاق المأخوذ عليهم، فإذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهودا عليهم بأخذ الميثاق قال: وفي هذا دليل على التفسير الذي جاءت به الرواية من أن الله تعالى قال للملائكة أشهدوا فقالوا أشهدنا. قال: وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ على الأرواح دون الأجساد أن الأرواح هي التي تعقل وتفهم ولها الشواب وعليها العقاب، والأجساد أموات لا تعقل ولا تفهم. قال: وكان اسحق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى، وذكر أنه قول أبي هريرة قال اسحق: وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم وأشهدهم، قال الجرجاني: واحتجوا بقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء) والأجساد قد بليت وضلت في الأرض، والأرواح ترزق وتفرح، وهي التي تلذ وتألم، وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر، وبيان ذلك في الأحلام موجود، أن الإنسان يصيح وأثرلذة الفرح وألم الحزن باق في نفسه مما تلاقى الروح دون الجسد قال: وحاصل الفائدة في هذا الفصل أنه سبحانه قد أثبت الحججة على كل

منفوس عن يبلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم، وزاد على من بلغ منهم الحججة بالآيات والدلائل التي نصبها في نفسه وفي العالم وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين، وبالمواعظ بالمثلثات المنقولة إليهم أخبارها، غير أنه عز وجل لا يطلب أحدا منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحججة وركب فيهم من القدرة وآثارهم من الأدلة، وبين سبحانه ما هو عامل في البالغين الذين ادركوا الأمر

واللهي وحجب عنا علم ما قدره في غير البالغين ، إلا أنا نعلم أنه عدل لا يجوز في حكمه ، وحكيم لا تفاوت في صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل ، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين

﴿ فصل ﴾

ونازع هؤلاء غيرهم في كون هذا معنى الآية وقالوا معنى قوله (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) أى أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطقاً في أصلاب الآباء إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التي تضطرم إلى أن يعلموا أنه خالقهم فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربه ما يشهد على أنه باريه ونافذ الحكم فيه ، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال في غير هذا الموضع (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يريد هم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفره وكما تقول قد شهدت جوارحي بقولك نريد قد عرفته فكأن جوارحي لو استشهدت وفي سماعها أن تنطق لشهدت ، ومن هذا إعلامه وتبيينه أيضاً (شهد الله أنه لا إله إلا هو) يريد أعلم وبين فأشبه ذلك شهادة من شهد عند الحكم وغيرهم ، هذا كلام ابن الأنباري وزاد الجرجاني بياناً لهذا القول فقال حاكياً عن أصحابه إن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فيهم بما هو كائن وما لم يكن بعد مما هو كائن كالكائن إذ علمه بكونه مانع من غير كونه تابع في مجاز العربية أن يوضع ما هو منتظر بعد مما لم يقع بعد ، وقع الواقع اسبق علمه بوقوعه كما قال عز وجل في مواضع من القرآن كقوله (ونادى أصحاب النار نادى أصحاب الجنة — ونادى أصحاب الاعراف) قال فيكون تأويل قوله (وإذا أخذ ربك) وإذا أخذ ربك وكذلك قوله (وأشهدهم على أنفسهم) أى ويشهدهم بما ركبهم فيهم من العقل الذي يكون به الفهم ، ويجب به الثواب والعقاب وكل من ولد وبلغ الحنث ، وعقل الضر والنفع ، وفهم الوعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق في التوحيد بما ركب فيه من

العقل ، وأراه من الآيات والدلائل على حدوثه ، وأنه لا يجوز أن يكون قد خلق نفسه وإذا لم يجر ذلك فلا بد له من خالق هو غيره ليس كمثل ، وليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ ولم يقدح فيه مانع من فهم إلا إذا حزن به أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير إليها بأصبعه علماً منه بأن خالقه تعالى فوقه وإذا كان العقل الذي منه الفهم والإفهام مؤدياً إلى معرفة ما ذكرنا ودالاً عليه فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق إذ جعل فيه السبب والأداة اللذين بهما يؤخذ العهد والميثاق ، وجائز أن يقال له قد أقر وأذعن وأسلم كما قال الله عز وجل (والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) قال واحتجوا بقوله ﷺ « رفع القلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يلتبه »

وقوله عز وجل (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) ثم قال (وحملها الإنسان) الأمانة هن عهد وميثاق فامتناع السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة خلوها من العقل الذي يكون به الفهم والإفهام وحمل الإنسان إياها مسكان العقل فيه قال وللهرب فيها ضروب نظم فتمها قوله

ضمن القنان لفقمس بقباتها إن القنان لفقمس لا يأتلي

والقنان جبل فذكر أنه قد ضمن لفقمس وضمانه لهم أنهم كانوا إذا حزنهم أمر من هزيمة أو خوف لجأوا إليه فجعل ذلك كالضمان لهم ومنه قول النابغة كأجارف الجولان هللى ربه وجوران منها خاشع متضائل

وأجارف الجولان جبالها وجوران الأرض التي إلى جانبها وقال هذا القائل ان في قوله تعالى (ان تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) دليلاً على هذا التأويل لأنه عز وجل أعلم أن هذا الأخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . والغفلة ههنا لا تخلو من أحد وجهين إما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق فاما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه في كتابه أنه أخذ

عليهم عهداً وميثاقاً بمعرفه البعث والحساب وإنما ذكر معرفته فقط ، وأما أخذ الميثاق فالأطفال والأسقاط إن كان هذا العهد مأخوذاً عليهم كما قال المخالف فهم لم يبلغوا بعدما أخذ هذا الميثاق عليهم مبلغاً يكون منهم حفلة عنه فيجحدونه وينكرونه ففي تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم وذكر ما لا يجوز ولا يكون محال وقوله تعالى (أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فلا يخلو هذا الشرك الذي يؤاخذون به أنفسهم أن يكون منهم أو من آبائهم ، فإن كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك إلا بعد البلوغ وثبوت الحجة عليهم إذ الطفل لا يكون منه شرك ولا غيره ، وإن كان من غيرهم فالأمة مجمعة على أن لا تز وازرة وزر أخرى كما قال عز وجل في الكتاب وليس هذا بمخالف لما روى عن النبي ﷺ « إن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد » لأنه ﷺ اقتص قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه فوضع الماضي من اللفظ موضع المستقبل ، قال وهذا شبيه بقصة قوله تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به) فجعل سبحانه ما أنزل على الأنبياء من الكتاب والحكمة ميثاقاً أخذهم من أمهم بعدهم يدل على ذلك قوله تعالى (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) ثم قال للأمم (أأقرتم وأخذتم على ذلك إصرى قالوا أقرنا . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فجعل سبحانه بلوغ الأمم كتابه المنزل على أنبيائهم حجة عليهم كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به إقراراً منهم : قلت : وشبيه به أيضاً قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا) فهذا ميثاقه الذي أخذه عليهم بعد إرسال رسله إليهم بالإيمان به وتصديقه ، ونظيره قوله تعالى (والذين يوفون بعهده الله ولا يفتقرون الميثاق) وقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لسكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) فهذا عهده إليهم على السنة رسله ومثله قوله تعالى لبني إسرائيل (وأوفوا بعهدي أوف بعهديكم) ومثله (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)

وقوله تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى
وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) فهذا ميثاق أخذه منهم بعد بعثهم
كما أخذ من أمهم بعد انذارهم وهذا الميثاق الذي لعن سبحانه من نقضه وعاقبه
بقوله تعالى (فَمَا نَقْضُهم مِيثَاقَهُم لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) فإنما عاقبهم بنقضهم
الميثاق الذي أخذه عليهم على السنة رسله وقد صرح به في قوله تعالى (وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ) ولما كانت هذه الآية ونظيرها في سورة مدنية خاطب بالذكور بهذا
الميثاق فيها أهل الكتاب فإنه ميثاق أخذه عليهم بالإيمان به وبرسله . ولما
كانت آية الاعراف هذه في سورة مكية ذكر فيها الميثاق والاشهاد العظام لجميع
المكلفين ممن أقرؤا ربوبيته ووجدانيته وبطلان الشرك وهو ميثاق واشهاد تقوم
به عليهم الحجة وينقطع به العذر وتحل به العقوبة ويستحق بمخالفته الإهلاك
فلا بد أن يكونوا ذاكرين له عارفين به وذلك بما فطرهم عليه من الإقرار
بربوبيته وأنه ربهم وفطرهم وأنهم مخلوقون صريون ثم أرسل اليهم رسله
يذكرونهم بما في فطرهم وعقولهم ويعرفونهم حقه عليهم وأمره ونهيه ووعدته
ووعيده ونظم الآية إنما يدل على هذا من وجوه متعددة (أحدها) أنه قال :
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَمْ يَقُلْ آدَمُ وَبَنُو آدَمَ (الثاني) أنه قال من ظهورهم
ولم يقل ظهره ، وهذا يدل على بعض من كل أو يدل على اشتغال وهو أحسن و (الثالث)
أنه قال ذرياتهم ولم يقل ذريته (الرابع) أنه قال وأشهدهم على أنفسهم أي
جعلهم شاهدين على أنفسهم فلا بد أن يكون الشاهد ذا كراما شاهد به وهو إنما
يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار لا يذكر شهادة قبلها (الخامس) أنه
سبحانه أخبر أن حكمة هذا الاشهاد إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة
(إنا كنا من هذا غافلين) والحجة إنما قامت عليهم بالرسالة والفطرة التي فطروا
عليها كما قال تعالى رسلنا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة
بعد الرسل (السادس) تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا من هذا
غافلين معلوم إنهم غافلون بالخراج لهم من صلب آدم كلهم واشهادهم

ربه وخالقه ومبدعه ، وأنه مر بوب مخلوق مصنوع حادث بعد ان لم يكن ، ومحال أن يكون حدث بلا محدث أو يكون هو المحدث لنفسه ، فلا بد له من موجد أو جده . ليس كذلك شيء ، وهذا الإقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها ليست بمكتسبة . وهذه الآية وهي قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) . مطابقة لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » ولقوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه) ومن المفسرين من لم يذكر إلا هذا القول فقط كزحشرى ، ومنهم من لم يذكر إلا القول الأول فقط ومنهم من حكى القولين كابن الجوزي والواحدي والماوردي وغيرهم . قال الحسن بن يحيى الجرجاني : فإن اعترض معترض في هذا الفصل بحديث يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ثم ردهم في ظهوره » وقال ان هذا مانع من جواز التأويل الذي ذهب إليه لامتناع ردهم في الظهر ، ان كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتام العقل . قيل له : إن معنى ثم ردهم في ظهره : ثم يردهم في ظهره ، كما قلنا إن معنى أخذ ربك يأخذ ربك فيكون معناه ثم يردهم في ظهره بوقاتهم لأنهم إذا ماتوا رددوا إلى الأرض للدفن وآدم خلق منها ، ردد فيها : فإذا رددوا فيها فقد رددوا في آدم وفي ظهره إذ كان آدم خلق منها وفيها ردد بعض الشيء من الشيء وفيما ذهبتم إليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوتت بينه وبين مانع به القرآن في هذا المعنى إلا أن يرد تأويله إلى ما ذكرنا لأنه عز وجل قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) ولم يذكر آدم في القصة إنما هو هنا مضاف إليه لتعريف ذريته أنهم أولاده ، وفي الحديث أنه مسح ظهره فلا يمكن رد ما جاء في القرآن وما جاء في الحديث إلى الاتفاق إلا بالتأويل الذي ذكرناه . قال الجرجاني وأنا أقول : ونحن إلى ما روى في الآية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما ذهب إليه أهل العلم من السلف الصالح أميل وله أقبل وبه آنس . والله ولي التوفيق لما هو أولى وأهدى .

على أن بعض أصحابنا من أهل السنة قد ذكر في الرد على هذا القائل معنى يحتمل ويسوغ في النظم الجارى وبحار العربية بسهولة وإمكان من غير تعسف ولا استكراه وهو أن يكون قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) مبتدأ خبره من الله عز وجل عما كان منه في أخذ العهد عليهم و « إذ » يقتضى جوابا يجعل جوابه قوله تعالى (قلوا بلى) وانقطع هذا الخبر بتمام قصته، ثم ابتدأ عز وجل خبراً آخر بذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة فقال « شهدنا » يعنى نشهد . قال الخطيئة :

شهد الخطيئة حين يلقى ربه أن الوليد أحق بالمعذر

بمعنى يشهد الخطيئة، يقول تعالى نشهد إنكم ستقولون يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين أى عما هم فيه من الحساب والمناقشة والمواخذة بالكفر، ثم أضاف إليه خبراً آخر فقال (أو تقولوا) بمعنى وأن تقولوا لأن أو بمعنى وإلّا النسق مثل قوله تعالى (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) فتأويله ونشهد أن تقولوا يوم القيامة (إنا أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) أى أنهم أشركوا وحملونا على مذهبهم في الشرك في صبانا فجرينا على مذاهبهم واقتدينا بهم فلا ذنب لنا إذ كنا مقتدين بهم، والذنب في ذلك لهم (قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) يدل على ذلك قولهم (أقمناكمنا بما فعل المبطلون) أى حملهم إيانا على الشرك فتكون القصة الأولى خبراً عن جميع الخلقين بأخذ الميثاق عليهم. والقصة الثانية خبراً عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار، وقل فيما ادعاه المخالف إنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر، لا اختلاف ألفاظهما فيهما قولاً يجب قبوله بالنظر والمعبر التى تؤيد بها مخالفته فقال : إن الخبر عن رسول الله ﷺ أن الله مسح ظهر آدم أفاد زيادة خبر كان في القصة التى ذكر الله تعالى في الكتاب بعضها ولم يذكر كلها، ولو أخبر ﷺ بسوى هذه الزيادة التى أخبر بها، فما عسى أن يكون قد كان في ذلك الوقت الذى أخذ فيه العهد مما لم يضمنه الله كتابه لما كان في ذلك خلاف ولا تفاوت . بل كان زيادة في الفائدة وكذلك الألفاظ إذا اختلفت في ذاتها وكان مرجعها الى أمر واحد لم يوجب ذلك تناقضاً كما قال عز وجل في كتابه في خلق آدم فذكر مرة

أنه خلق من تراب ، ومرة أنه خلق من حمأ مسنون ، ومرة من طين لازب ومرة من صلصال كالغضار . فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها أيضا في الأحوال المختلفة لأن الصلصال غير الحماة ، والحماة غير التراب إلا أن مرجعها كلها في الأصل إلى جوهر واحد وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال فقوله سبحانه وتعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) وقوله ﷺ « إن الله مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته » معنى واحد في الأصل إلا أن قوله ﷺ « مسح ظهر آدم » زيادة في الخبر عن الله عز وجل ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته منه مسح لظهور ذريته واستخراج ذرياتهم من ظهورهم ، كما ذكر تعالى لانا قد علمنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه ، لكن لما كان الطبق الأول من صلبه ، ثم الثاني من صلب الأول ، ثم الثالث من صلب الثاني جاز أن ينسب ذلك كله إلى ظهر آدم لأنهم فرعه وهو أصلهم ، وكما جاز أن يكون ما ذكر الله عز وجل أنه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم جاز أن يكون ما ذكر ﷺ أنه استخرجه من ظهر آدم من ظهور ذريته ، إذ الأصل والفرع شيء واحد . وفيه أيضا أنه عز وجل لما أضاف الذرية إلى آدم في الخبر احتمل أن يكون الخبر عن الذرية وعن آدم كإفاد أن آدم عز وجل (فضلت أعنقهم لهم خاضعين) والخبر في الظاهر عن الأعناق والعت للآسماء المكنية فيها وهو مضاف إليها كما كان آدم مضافا إليه هناك ، وليست جميعا بالمقصودين في الظاهر بالخبر ، ولا يحتمل أن يكون قوله (خاضعين) للأعناق لأن وجه جمعها خاضعات ، ومنه قول الشاعر :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته * كما شرقت صدر القناة من الدم

فالصدر مذكر وقوله شرقت أنت لإضافة الصدر إلى القناة اهـ

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَتِنَا فَٱنشَلَحْ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَٰوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَشَآلُهُ كَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ

أَوْ تَنَزَّاهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ (١٧٧)

هذا مثل ضرب به الله تعالى للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله ﷺ على ما أيدها به من الآيات العقلية والكونية ، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها حافظاً لقواعدها وأحكامها ، قادراً على بيانها والجدل بها ، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفاً لعلمه تمام المخالفة ، فسلبها لأن العلم الذي لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبهه الحية التي تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض (ويسمى هذا الجلد المسلخ) أو كان في اتبائين بين علمه وعمله كالنسلخ من العلم التارك له ، كالثوب الخلق يلقيه صاحبه والشعبان يتجرد من جلده حتى لا يبقى له به صلة ، على حد قول الشاعر :

خلقوا ، وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا ، وما رزقوا سلاح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

فحاصل معنى المثل : أن المكذبين بآيات الله تعالى المنزلة على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه على إيضاها بالحجج والدلائل كالعالم الذي حرم ثمرة الانقاع من علمه ، لأن كلا منها لم ينظر في الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص وهما تفسير الآيات بما يدل عليه نظمها العربي ، ويتلوه ماورد من الروايات فيها

ونظرة فيه ﴿ وائل عليهم نياً الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ التلاوة القراءة وإلقاء الكلام الذي يعاد ويكرر للاعتبار به ، والضمير في عليهم للناس الخطاطين بالدعوة وأولهم كفار مكة . والسورة مكية ، وقيل لليهود لأن المثل تابع لقصة موسى في السورة ، والنبي الأخير الذي له شأن ، وهذا الذي آتاه الله آياته من مبهمات القرآن لم يبين الله ولا رسوله في حديث صحيح عنه اسمه ولا جنسه ولا وطنه لأن هذه الأشياء لا دخل لها فيما أنزل الله تعالى الآيات لبيانها . وانسلاخه منها

تجرده وانسلاله منها وتركه إياها بحيث لا يلتفت إليها لاهتداء ولا اعتبار ولا عمل والتعبير بالانسلخ المستعمل عند العرب في خروج الحيات والثعابين أحياناً من جلودها يدل على أنه كان متمكناً منها ظاهراً لا باطماً

﴿ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ أى قترتب على انسلخه منها باختياره أن لحقه الشيطان فأدركه وتمكن من الوسوسة له إذ لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة ما يحول دون قبول وسوسته ، وأعقب ذلك أن صار من الغاوين أى الفاسدين المفسدين

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أى ولو أردنا أن نرفعه بذلك الآيات إلى درجات الكمال والعرافان ، التى تقرن فيها العلوم بالأعمال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) — لنجعلنا ، بأن نخلق له الهداية خلقاً ، ونجعله عليها طوعاً أو كرهاً ، فان ذلك لا يعجزنا ، وإتما هو مخالف لسنتنا .

﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ أى ولكنه اختار لنفسه التسفل المنافى لتلك الرفعة بأن أخلد ومال إلى الأرض وزينتها وجعل كل حظه من حياته التمتع بما فيها من اللذائذ الجسدية ، فلم يرفع إلى العالم العلوى رأساً ، ولم يوجه إلى الحياة الروحية الخالدة عزماً ، واتبع هواه في ذلك فلم يراع فيه الاهتداء بشيء مما آتينا من آياتنا ، وقد مضت سنتنا في خلق نوع الانسان بأن يكون مختاراً في عمله ، المستعد له في أصل فطرته ، ليكون الجزاء عليه بحسبه ، وأن نبنتليه ونمنحنه بما خلقنا في هذه الأرض من الزينة والمسئلات (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً) ونولى كل انسان منهم ما نولى (من كان يريد العاجلة جعلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً)

وقد مضت سنتنا أيضاً بأن اتباع الانسان لهواه بتعريه وتشبيه ما تميل إليه نفسه في كل عمل من أعماله دون ما فيه المصلحة والفائدة له من حيث هو جسد

وروح ، يضلّه عن سبيل الله الموصلة إلى معادة الدنيا والآخرة ، ويتعسف به في سبيل الشيطان المردية المهلكة قال تعالى خليفته داود عليه السلام (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال تعالى في أول ما أوحاه إلى كليمه موسى عليه السلام بعد ذكر الساعة (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) وقال جل جلاله لخاتم أنبيائه عليه صلواته وسلامه (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) والآيات في ذم الهوى والنهي عنه كثيرة وحسبك منها قوله (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)

وحاصل معنى الشرط والاستدراك : أن من شأن من أوتى آيات الله تعالى أن ترتقى نفسه ، وترتفع في راقى السكّال درجته لما فيها من الهداية والإرشاد والذكرى ، وإعما يكون ذلك لمن اخذ هذه الآيات وتلقاها بهذه النية « وإعما السكّل امرئ مانوى » وأما من لم ينو ذلك ولم تتوجه إليه نفسه وإعما تلقى الآيات الإلهية اتفاقا بغير قصد ، أو بنية كسب المال والجاه ، ووجد مع ذلك في نفسه ما يصرفه عن الاهتمام بها فلن يستفيد منها ، وأصرع به أن يفسلخ منها ، فهو يقول : لو شئنا لرفعناه بها لأننا في أنفسنا هدى ونور ، ولكن تعارض المقتضى والممانع وهو إخلاده إلى الأرض واتباع هواه

قالوا فلان عالم فاضل فأكرموه مثلما يقتضى

فقلت : لما لم يكن حاملا تعارض الممانع والمقتضى

﴿ فقل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ * اللهم بالفتح واللاهث بالضم : التنفس الشديد مع إخراج اللسان ، ويكون لغير الكلب من شدة التعب والاعياء أو العطش ، وأما الكلب فيلهث في كل حال سواء أصابه ذلك أم لا ، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب أم تركته وادعاً آمناً ، وهذا الرجل صفة كصفة الكلب في حالته هذه وهي أخس أحواله وأقبحها ، والمراد والله أعلم - أنه كان من إخلاده إلى الأرض واتباع هواه في أسوأ حال ، خلافا لما كان ينبغي من نعمة العيش وراحة البال ، فهو في هم دائم مما شأنه أن يهتم به ، وما شأنه أن لا يهتم به من صفات الأمور وخسائس الشهوات ، كدأب عباد الأهواء

وصغار الهمم تراه كاللاهث من الإعياء والتعب وإن كان ما يعنون به وبجملته همه حقيراً لا يتعب ولا يعبى ، ولا ترى أحداً منهم راضياً بما أصابه من شهواته وأهوائه ، بل يزيد طمعاً وتعباً كلما أصاب سعة وقضى أرباً

فما قضى منها أحد لباتته ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى ذلك الأمر البعيد الشاؤ فى الغرابة هو مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين ، والمقلدين الجاهلين ، كذبوا لظنهم أن الإيمان بها يسلمهم ما يفخرون به من العزة والمظلة باتباعهم لغيرهم ، ويحط من قدر آبائهم وأجدادهم الذين قلدهم فى ضلالهم ، ويحول دون تمتعهم بما يشتهون من لذاتهم ، فلهذا الظن الباطل لم ينظروا فى الآيات نظراً تفكراً واستقلالاً ، وتبصراً واستدلالاً ، بل نظروا إليها - لافيتها - من جهة واحدة وهى أن اتباعها يحط من أقدارهم ، ويعد اعترافاً بضلال سلفهم الذين يفخرون بهم ، ويحرمهم التمتع بحظوظهم وأهوائهم

فكان مثلهم مثل الذى أوتى الآيات فانسخ منها ، وذلك لا يعيب الآيات وإنما يعيب أهل الأهواء الذين حرمهم سوء اختيارهم الانتفاع بها ، وكأين من إنسان حرم الانتفاع بما وهبه الفطرية بعدم استعماله إياها فيما يرفعه درجات فى العلم والعمل - وكأين من إنسان استعمل حوائشه فى الضرر ، وعقله وذكاؤه فى الشر ، وما ظلمهم الله وسكن آفئتهم يظلمون ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أى فاقصص أيها الرسول قصص ذلك الرجل المشابهة حاله لخال هؤلاء المكذبين بما جئت به من الآيات البينات فى مبدأ أمره وغايته ، ومعناه وصورته ؛ رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثابهم ، على التفكير والتأمل ، فإذا هم تفكروا فى ذلك تفكروا فى المخرج منه ، ونظروا فى الآيات ، وما فيها من البينات ، بعين العقل والبصيرة ، لابعين الهوى والمداوة ، ولا طريق لهذا ينهم خير هذه ، والآية تدل على تعظيم شأن الأمثال فى تأخير الكلام وكونه أقوى من سوق الدلائل والحجج المجردة ، ويدل على تعظيم شأن التفكير ،

وكونه مبدأ العلم وطريق الحق ، ولذلك حث الله عليه في مواضع من كتابه ، وبين أن الآيات والدلائل إنما تساق إلى المتفكرين لأنهم هم الذين يعقلونها وينتفعون بها

وقد تكرر قوله تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) في عدة سور من القرآن ، وقد قال تعالى ضارباً مثلاً للحياة الدنيا والغرور بها يناسب سياقنا هذا (١٠ : ٢٤) إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمراؤها ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) وقد قال بعض علماء الغرب : إن الفارق الحقيقي بين الإنسان المادي ، والإنسان الوحشي هو التفكير اهـ . فبقدر التفكير في آيات الله تعالى المنزلة على رسوله وآياته في النفس والآفاق ، وسننه وحكمه في البشر وسائر المخلوقات ، يكون ارتقاء الناس في العلوم والأعمال ، من دنيوية ودنيوية

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أى ساء مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا في الامثال ، وقبحت صفتهم في الصفات ، وما كانوا بما اختاروه لأنفسهم من الاعراض عن التفكير في الآيات ، ومن النظر إليها نظر العدو الشافئ يظلمون أحداً وانما يظلمون أنفسهم وحدها بجرماتها من الاهتداء بها ، وبما يعقب ذلك من حرمان سعادة الدنيا والآخرة

هذه مافهمته من معنى الآيات كتبته (بمكة المكرمة) وليس عندي شيء من كتب التفسير أستعين به على الفهم ، وكنت قرأت تفسيرها في بعض الكتب ولكن لم يبق منه في ذهني إلا تنازع الأشعرية والمعتزلة في تفسير (ولوشئنا لرفعناه بها) هل يدل على مشيئة الله تعالى لضلال الرجل أم لا ، ولا شك في أن الله يفعل ما يشاء ، وأن كل شيء يقع بمشيئته ، ولكن مشيئته تجري في العالم بمقتضى سننه وتقديره — وإلا ماورد في الروايات الماثورة من قصة الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلك منها ، وأن أ كثرها على أنه من بنى إسرائيل وأن اسمه (بلعام) واسم

أبيه (باعورا) وهذا مما تلقاه أولئك المفسرون من الاسرائيليات وصار ينقله بعضهم عن بعض لثقتهم بالراوي لسكونه ممن اغتروا بصلاحهم ككعب الأحبار ووهب بن منبه . وهاك خلاصة تلك الروايات . منقولة عن الدر المنثور للحافظ السيوطي

قال رحمه الله تعالى

قوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية أخرج الفريابي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والفسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن أبر ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن طريق ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء وفي لفظ بلعام بن عامر الذي أوتي الاسم كان في بني إسرائيل

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) الآية ، قال : رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم تعلم اسم الله الأكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال إني إن دعوت الله أن يزد موسى ومن معه مضت ديناي وآخرتي فلم يزلوا به حتى دعا عليهم فسلخ مما كان فيه وفي قوله (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) قال : إن حمل الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهتد لخير كالكلب إن كان رابضاً لث وإن طرد لث

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه) الآية ، قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت اجعل لي منها واحدة ، قال : تلك واحدة فما الذي تريد ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغب

عنه وأرادت شيئاً آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعبرنا الناس بها فدفع الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليه ، فدعا الله فمادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال ، هو رجل يدعى يلعم من أهل اليمن آتاه الله آياته فتركها . وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو (وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وفي لفظ نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت ، وأخرج ابن عساکر عن سعيد بن المسيب قال : قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فقال لها « هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ » قالت نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا فارعة ان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها »

وأخرج ابن عساکر عن ابن شهاب قال : قال أمية بن أبي الصلت :

ألا رسول لنا منا يخبرنا ما بعد غايتنا من رأس نجرانا

قال : ثم خرج أمية إلى البحرين وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام أمية بالبحرين ثمانين سنة ، ثم قدم فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه (بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم) حتى فرغ منها ، وثب أمية بحجر رجليه فتبعته قرش تقول : ما تقول يا أمية ؟ قال : أشهد أنه على الحق ، قالوا فهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر في أمره ، ثم خرج أمية إلى الشام وقدم بمدة بركة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الإسلام ورجع إلى الطائف فمات بها ، قال ففيه أنزل الله (وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساکر عن نافع ابن عاصم بن عروة بن مسعود قال : أتني حلة فيها عبد الله بن عمرو فقرأ

رجل من القوم الآية التي في الاعراف (وائل عليهم نبأ الذي آتيناها آياتنا فانسلخ منها) فقال : أتدرون من هو ؟ فقال بعضهم هو صيقي بن الراهب ، وقال بعضهم هو بلعلم رجل من بني إسرائيل ، فقال لا ، فقلوا من هو ؟ قال أمية بن أبي الصلت وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الشعبي في هذه الآية (وائل عليهم نبأ الذي آتيناها آياتنا فانسلخ منها) قال : قال ابن عباس : هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعلم بن باعور ، وكانت الأنصار تقول هو ابن الراهب الذي بنى له مسجد الشقاق ، وكانت ثقيف تقول هو أمية بن أبي الصلت . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو صيقي بن الراهب . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال : هو نبي في بني إسرائيل يعني بلعلم أوتى النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (فانسلخ منها) قال نزع منه العلم . وفي قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) قال لرفع الله بعلمه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال : بعث نبي الله موسى بلعلم بن باعورا إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله وكان يحب الدعوة . وكان من علماء بني إسرائيل فكان موسى يقدمه في الشدائد فأقطعه وأرضاه فترك دين موسى وتبع دينه . فأنزل الله (وائل عليهم نبأ الذي آتيناها آياتنا فانسلخ منها) وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب في قوله (وائل عليهم نبأ الذي آتيناها آياتنا) قال كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (وائل عليهم نبأ الذي آتيناها آياتنا فانسلخ منها) قال هذا مثل ضرب به الله لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه (ولو شئنا لرفعناه بها) قال لو شئنا لرفعناه بإيتائه الهدى ، فلم يكن للشيطان عليه سبيل ، ولكن الله يبتلي من يشاء من عباده (ولكنك أخلد إلى الأرض واتبع هواه) قال أبي أن يصحب الهدى ، فشبه (كمثل الكلب) الآية ، قال هذا مثل الكافر يميت الفؤاد كما أميت فؤاد الكلب . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله (وائل عليهم نبأ الذي آتيناها

آياتنا فانسلخ منها) قال أناس من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاهم الله من آياته وكتابه فانسلخ منها فجعله مثل السكلب

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) قال لدفعنا عنه بها، ولكنه أخذ إلى الأرض قال سكن (إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) إن تطرده بدايتك ورجليك وهو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سمي بن جبير في قوله (ولكنه أخذ إلى الأرض) قال ركن ، نزع . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (إن تحمل عليه) قال : إن تسع عليه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله إن تحمل عليه يلهث قال السكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له، مثل الذي يترك الهدى ، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع كان ضالاً قبل أو بعد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن المعتمر قال : سئل أبوا المعتمر عن هذه الآية (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) فحدث عن سيار: أنه كان رجلاً يقال له بلعام وكان قد أوتى النبوة وكان بحساب الدعوة ، ثم إن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام ، فرعب الناس منه رعباً شديداً فاتوا بلعام فقالوا : ادع الله على هذا الرجل ، قال حق أوامر ربي فأمر في الدعاء عليهم فقبل له لا تدع عليهم ، فإن فيهم عبادي ، وفيهم نبيهم . فقال لقومه : قد أمرت في الدعاء عليهم وإني قد نهيت ، قال فأهدوا إليه هدية فقبلها ، ثم راجعوه فقالوا : ادع الله عليهم ، فقال حق أوامر فأمر فلم يحار اليه شيء ، فقال قد أمرت فلم يحار إلى شيء ، فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى فأخذ يدعو عليهم فإذا دعا جرى على لسانه الدعاء على قومه ، فإذا أرسل أن يفتح على قومه جرى على لسانه أن يفتح على موسى وجيشه . فقالوا ما نراك إلا تدعوا علينا . قال : ما يجري على لساني إلا هكذا ، ولو دعوت عليهم ما استجيب لي ، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاككم إن الله يبغض الزنا ، وإن هم وقعوا بالزنا هلكوا فأخرجوا النساء فاتهم قوم مسافرون فمضى أن يزنوا فيهلكوا

فأخرجوا النساء تستقبلهم فوقعوا بالزنا فسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله (وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال : كان اسمه بلعام وكان يحسن اسما من أسماء الله فغزام موسى في سبعين ألفاً ، فجاءه قومه فقالوا : ادع الله عليهم ، وكانوا إذا غزام أحد أتوه فدموا عليهم فهل سكو ، وكان لا يدعو حتى ينام فينظر ما يؤمر به في منامه ، فنام ، فقيل له ادع الله لهم ولا تدع عليهم ، فاستيقظ فأبى أن يدعو عليهم ، فقال لهم زينوا لهم النساء فاتهم إذا رأوهن لم يصبروا) حتى يصيبوا من الذنوب فتدعو عليهم . اهـ ذلك ما لخصه السيوطي عن رواية التفسير المأثور ، وكله مما اتخذ به بعض الصحابة والتابعين من الاسرائيليات ان صحت الروايات عنهم ، وبعضها قوى السند . وقد أورد الحافظ ابن عساكر في تاريخه جل هذه الروايات وزاد عليها وانتقد بعضها ، وذكر أن من رواها كعب الاحبار ووهب بن منبه ، ومما عزاه إلى رواية وهب وفيه مخالفة لغيره أن قصة بلعام كانت في قتل فرعون من الفراعنة لامة موسى بعد وفاته وان بلعام من أنبياء بنى إسرائيل ، وذكر عنه رواية أخرى وقال بعد سياق طويل للقصة لاحاجه إلى نقله مانصه :

« وحكيته هذه القصة عن كعب وفيها ان معسكر موسى عليه السلام كان بأرض كنعان من الشام بين أريحا وبين الأردن وجبل البلقاء واثنيه فيما بين هذه المواضع ، ثم ساق القصة على نمط ما تقدم إلا أن فيها بدل « اندلع لسانه » وجاءته لمعة فأخذت بعصره فعمى . »

« وحكى عن وهب انه قال : ان بلعام أخذ أسيرا فأتى به إلى موسى فقتله (قال) وهكذا كانت سنتهم انهم يقتلون الأسرى (قال) فقولته تعالى (فانسلخ منها) يقول الاسم الأعظم الذي أعطاه الله عز وجل إياه »

وروى محمد بن اسحق عن الزهري عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال « كان مثل بلعام بن باعورا في بنى اسرائيل كمثل أمية بن أبى الصلت في هذه الامة » (قال ابن عساكر) قلت : والحديث موقوف على ابن المسيب ، فنأمل (??) (قال) « وأقول : في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر العدد من التوراة ذكر بلعام »

وقصته مطولة وهي أشبه برواية وهب ، غير أن الذين دونوا التوراة الموجودة اليوم برءوا بلعام فقالوا إنه ذهب إلى منزله ولم يدع على بنى إسرائيل ولم يصبه شيء ، فان كانت الآيات نزلت في حكاية بلعام فيكون القرآن قد أظهر ما كتبه التوراتيون وأظهر ما خباؤه ويكون هذا من جملة المعجزات الدالة على أن القرآن من عند الله تعالى وإن كانت في غيره فالله أعلم بمن نزلت . على أن الصحيح أن الآيات شاملة لكل من كانت هذه صفته من كل من آتاه الله الآيات التي هي الحجج التي جاء بها الأنبياء ثم انه انسلخ منها — إلى أن قال — والصواب في تفسير هذه الآية : أنه لا يخص منه شيء إذا كان لا دلالة على خصوصه من خبر ولا عقل » اه المراد من كلام ابن عساكر

أقول : ان هذا الحافظ كان مطلقاً على التوراة التي في أيدي أهل الكتاب وهي عين التي بين أيدينا منها إلا ما في اختلاف الترجمات القديمة والحديثة من الفروق ، وهي وان كان فيها اختلاف في المعاني فان يصل الى الحد الذي في روايات وهب وكعب وغيرهما من رواة الاسرائيليات الكاذبة . وابن عساكر يرجح قول وهب على ما في التوراة لأنه ثقة عنده في الرواية ويعد روايته دليلاً على معجزة للقرآن ، ولو ذكر القرآن ان الرجل الذي آتاه الله آياته هو بلعام هذا أو لو صح هذا في خبر مسند متصل عن النبي ﷺ لكان صحيحاً ، ولكن يجب أن نعلم من أين جاء وهب بهذه القصة ، وهو لم يكن الا روائياً لما عند أهل الكتاب ومقاله مخالف لما عندهم ؟

وقصة بلعام مفصلة في الفصول ٢٢ - ٢٤ من سفر العدد وفيها أنها وقعت في « عربات موآب من عبر أردن أريحا » من أرض مدين كما نقول (أو مديان كما يقولون) وأن بالاق بن صفور (بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء) ملك الموآبين طلب من بلعام بن بعور أن يلعن بنى إسرائيل لينصره الله عليهم ووعدته بمال كثير ، فأوحى الله الى بلعام أن لا يفعل فلم يفعل

وفي قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست أن بلعام هذا من قرية فتور من بين النهرين قل « وكان نبيا مشهوراً في جيله ، والظاهر انه كان موحداً يعبد

الله (!) وليس ذلك بمعجيب لانه من وطن ابراهيم الخليل حيث يظن ان جرثومة تلك العبادة كانت لم تزل معروفة عند أهل تلك البلاد ما بين النهرين في أيام ذلك الرجل ، وقد ذاع صيت هذا النبي بين أهل ذلك الزمان فملا شأنه وصارت الناس تقصده من جميع أنحاء البلاد ليتنبأ لهم عن أمور مختصة بهم أو ليباركهم ويبارك مقتنياتهم وما أشبه « ثم ذكر حكاية ملك موآب معه ، فعلى ذلك يكون بعلام عراقياً لا اسرائيلياً ولا موآبياً

وذكر البستاني في دائرة المعارف العربية ملخص قصة بعلام ثم قال : وبعض مفسري الكتاب المقدس المدققين ذهب الى ان قصة بعلام المدرجة في سفر العدد من الاصحاح ٢٢ — ٢٤ دخيلة الخ فتأمل

وجملة القول : أن هذه الروايات الاسرائيلية لا يعتمد بشيء منها ، ولا قيمة لأسانيدها ، لان من ينتهي اليه السند قد اغتر ببعض ملفقى الاسرائيليات حتماً ، وقد رأينا شيخ المفسرين ابن جرير لم يعتمد بها . ونرجو وقد راجعنا أشهر المحدثين من كتب التفسير - أن يكون ما بيننا به معنى الآيات أصحها وأكبرها فائدة

وأكبر وجوه العبارة فيها ما نراه من حال علماء الدنيا اللابسين لباس علماء الدين الذين هم أظهر مظاهر المثل في الانسلاخ من آيات الله والاخلاد الى الأرض واتباع أهوائهم وتفانيهم في إرضاء الحكام ، وان كانوا مرتدين ، والعوام وان كانوا مبتدعة خرافيين ، وهم فتنة للنابذة العصرية تصدهم عن الاسلام ، وللعوام في الثبات على الخرافات والادهام ، ومنها عبادة القبور بدعاء موتاها فيما لا يطلب الا من الله تعالى ، والطواف بها والنذر لها وغير ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

(١٧٨) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى ، وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٩) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا . أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَصْلٌ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

هاتان الآيتان مقررتان لمضون المثل في الآيات قبلها ، وهم أن أسباب الهدى والضلال إنما ينتهي كل نوع منها بالمرء المستعمل إلى كل من الغائين والعرضة لسلك كل من النجدين ، بتقدير الله والسير على سننه في استعمال مواهب وهداياته القلبية ، من العقل والحواس في أحد السبيلين (إما هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) وقد أجل تعالى هذا المعنى في الآية الأولى وفصله في الثانية بإيجاز بديع فقال ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ﴾ أي من يوفقه الله سبحانه وتعالى لسلك سبيل الهدى باستعمال عقله وحواسه يقتضى سنة الفطرة وإرشاد الدرء فهو المهتدي الشاكر نعمه تعالى الفائز بسعادة الدنيا والآخرة ﴿ ومن يضل فأولئك هم الخاسرون ﴾ أي ومن يخذله بالخرمان من هذا التوفيق فيتمتع هواه وشيطانه في ترك استعمال عقله وحواسه في فقه آياته تعالى وشكر نعمه فهو الضال السكونر الخاسر لسعادة الدنيا والآخرة — لأنه يخسر بذلك مواهب نفسه التي كان بها إنسانا مستعدا للسعادة بصفوته هذه السعادة فوتا إضافيا في الدنيا وحقيقيا في الآخرة .

وفي الآية من محاسن البديع الاحتباك وهو حذف الفوز والفلاح من الجملة الأولى لادلم به من إثبات نظيره ومقابله وهو الخسران في الجملة الثانية ، وحذف الضال من الجملة الثانية لإثبات مقابله وهو المهتدي في الجملة الأولى . وإفراد المهتدي في الأولى مراعاة للفظ (من) وجمع الخاسرين في الثانية مراعاة لمعناها فاعلمنا من صيغ العموم وحكمة إفراد الأول الإشارة به إلى أن الحق المراد من الهداية الإلهية نوع واحد وهو الإيعان المشر للعمل الصالح ، وحكمة جمع الثاني الإشارة إلى تعدد أنواع الضلال كما تقدم بيانه مفصلا في تفسير قوله تعالى من سورة الأنعام (١٥٣:٦) وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

وتفسير قوله تعالى من سورة البقرة (٢ : ٢٥٧) الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) الآية (١).

ثم فصل تعالى ما في هذه الآية من الاجمال بقوله ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لم يلوب لا يقيمون بها ﴾

(الذره) فسروه بالخلق ، وذرأنا خلقنا كما قال ابن عباس وغيره وهو تفسير مراد ولكل مادة معنى خاص وقد تقدم معنى مادة خلق وسنعيده . وقال الراغب : الذره إظهار الله تعالى ما أبداه . يقال ذرأ الله الخلق أى أوجد أشخاصهم وذكر هذه الآية وغيرها وقال : وقرئ تذرؤه الرياح . وفي اللسان بعد تفسير الذره بالخلق والاستشهاد بالآية : وقال عز وجل (خلق لسكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه) قال أبو اسحاق : المعنى يذرؤكم به أى يكثركم بحمله منكم ومن الأنعام أزواجا . ثم قال « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ » وكأن الذره مختص بخلق الذرية . وفي حديث عمر (رض) كتب إلى خالد « وأني لأظنكم آل المغيرة ذره النار » يعنى خلقها الذين خلقوا لها ، و يروى ذرو النار ، يعنى الذين يفرقون فيها ، من ذرت الريح التراب إذا فرقته اه المراد منه . وفي الأساس : ذرأنا الأرض وذرأناها ، وذرأ الله الخلق وبرأ الخ فاذا تأملت مع هذه الأقوال استعمال القرآن لهذا الحرف في النبات والحيوان والانسان خاصة علمت أن الذره فى أصل اللغة بمعنى بث الأشياء وبدورها وتفريقها وتكثيرها وان اسنادها إلى الله تعالى بمعنى خلق ذلك أى إيجادها ، كما أن أصل معنى الخلق التقدير ، ويسند إلى الله تعالى بمعنى إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لاجزائها ولهذا عطف الذره والبرء على الخلق فى حديث الدعاء المتقدم .

(والجن) الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بحواس البشر ، ولعل تقديمهم هنا فى الذكر على الانس أنهم أكثر أهل جهنم لأنهم أجدر وأعرق فى الصفات الآتية التى هى سبب استحقاقها ، وكون خلق أصل نوعهم وأوله من

مارج من نار ، لا يقتضى عدم تألمهم من النار كما قد يتوهم ، فان بين حقيقة نوع البشر وحقيقة الطين الذى خلق أبوم منه بونا عظيما يقاس عليه الجن .

(والقلوب) جمع قلب وهو يطلق فى اللغة العربية على المضغة الصنوبرية الشكل التى فى الجانب الأيسر من جسد الانسان ، إذا كان موضوع الكلام جسد الانسان ، ويطلق عند الكلام فى نفس الانسان وإدراكه وعلمه وشعوره وتأثير ذلك فى أعماله على الصفة النفسية واللطيفة الروحية التى هى محل الحكم فى أنواع المدركات ، والشعور الوجدانى للهولاء والملائات ، أعنى أنه يطلق بمعنى العقل ومعنى الوجدان الروحى ، الذى يعبر عنه فى عرف هذا العصر بالضمير وهو تعبير صحيح . واشتقاق العقل من عقل البعير لمنعه من السير ، وفى معنى القلب اللب الذى هو جوهر الشئ ، ويكثر فى التنزيل . ومنه التهمة وجمعها تهمة ، ومنه قوله تعالى فى سورة طه (٢٠ : ١٢٨) ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) .

ومن استعماله فى معنى العقل قوله تعالى فى سورة الحج (٢٢ : ٤٦) أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ؟ فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وهى بمعنى الآية التى فسرناها وحذف منها (أو أعين يبصرون بها) استغناء عنه بدلالة ما بعده عليه ، والآيات المبصرة بالآعين فى السياحة فى الأرض أكثر من المسموعة ، ومن استعماله فى معنى الوجدان النفسى قوله تعالى فى سورة الزمر (٣٩ : ٤٥) وإذا ذكر الله وحده اثنأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) وقوله فى سورة آل عمران والافتل (٣ : ٥١ و ٨ : ١٢) سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) وقوله فى النساء (٧٩ : ٨) قلوب يومئذ واجفة) فالاشتمزاز والرعب والتوجيف شعور وجدانى ، لاحكم عقلى ، وقد يستعمل فى المعنيين معاً ، والاقرب ان منه فقه القلوب هنا فان الفقه لا يحصل إلا بنوع من الادراك يصحبه وجدان يبعث على العمل ، كما يعلم مما نذكره فى تحقيق معناه وقد يتعارض مقتضى العقل والوجدان ، كوجدان اللذة والألم والحب والبغض التى تحمل على أعمال مخالفة لحكم العقل فى المنافع والمضار .

وسبب استعمال القلب بمعنى الوجدان الحسى والمعنوى وهو الضمير ما يشتر

به المرء من انقباض أو انشراح عند الخوف والاشمئزاز أو السرور والابتهاج ، ولذلك قال النبي ﷺ لو أبصرت حين جاء يسأله عن البر والاثم وقد علم ﷺ ذلك قبل السؤال « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والاثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتك الناس وأفتوك » رواه الامام أحمد والدرامي باسناد حسن ومسلم مختصراً . ثم توسعوا في استعماله فاستعملوه بمعنى الادراك العقلي المؤثر في النفس لا مطلق التصور والتصديق . فهو لا ينافي كون مركزهما الدماغ ، على ان الاستعمالات اللغوية ، لا يجب أن توافق الحقائق العلمية .

(والفقه) قد فسروه بالعلم بالشئ والفهم له — وكذا بالنظنة كما في جل المعاجم أو كلها ، وقالوا : فقه (كعلم وفهم وزنا ومعنى) وقالوا فقه (ككذب وضخم) ففقه أي صار الفقه وصفاً وسجية له ، وقال الراغب ، الفقه هو التوصل بعلم شاعداً إلى علم غائب . قال السيوطي بعد نقله : فهو أخص من العلم .

وقال ابن الأثير في النهاية إن اشتقاقه من الشق والفتح . أي هذا معناه الأصلي فهو كالفقه بالهمزة ، وهي تتعاقب مع الهاء لاتحاد مخرجهما ، وذكر الحكيم الترمذي هذا واستعمل به على أن الفقه بالشئ هو معرفة باطنه والوصول إلى اعماقه ، فمن لا يعرف من الأمور إلا ظواهرها لا يسمى فقيهاً . وذكر أصحاب المعاجم أن اسم الفقه غلب على علم قروع الشريعة ، أي من العبادات والمعاملات وهو اصطلاح حادث لا يفسر به ماورد في الكتاب والسنة من هذه المادة ، والتحقيق أنهم لم يكونوا يسمون كل من يعرف هذه الفروع فقيهاً كما ترى من عبارة الغزالي الآتية ولغيرهما هو أوضح منها ، فقد اشترطوا فيه معرفتها بدلائلها .

وذكر الغزالي في (بيان ما يدل من ألفاظ العلوم) أن لفظ الفقه تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة القروع القرينية في الفتاوى والوقوف على دقائق علمها . . . (قال) ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الاحاطة بمخاطرة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب وبذلك عليه قوله تعالى (ليتقوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) وما يحصل

به الإنذار والتحذير هو هذا الفقه دون تفرعات الطلاق والعناق واللعان والسلم
والإجارة ، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تحذير ، بل التجرد له على الدوام
بفسى القلب وبتزع الخشية منه ، كما نشاهد الآن من المتجربين له : وقال تعالى
(لهم قلوب لا يفقهون بها) وأراد به معانى الإيمان دون الفتوى . روى عن
أبي حنيفة تفسيره بمعرفة النفس مالها وما عليها

وأقول : ذكرت هذه المادة في عشرين موضعاً من القرآن تسعة عشر منها
ندل على أن المراد به نوع خاص من دقة الفهم ، والتعمق في العلم ، الذى يترتب
عليه الاتقاع به ، وأظهره نفي الفقه عن الكفار والمنافقين ، لأنهم لم يدركوا كنه
المراد مما نفي فقه عنهم ، ففاتهم المنفعة من الفهم الدقيق والعلم الممكن من النفس
ومنه قول قوم شعيب لنبيهم (١١ : ٩١) مانقه كثيراً مما تقول) وإن رأى غير الفقيه
أنه ليس منه ، فأنهم كانوا يفهمون كل ما يقول فيها سطحياً ساذجاً لأنه يكلمهم
بلفظهم ، ولكن لم يكونوا يبلغون ما فى أعماق بعض الحكم والمواعظ من الغايات
البعيدة لعدم تصديقهم إياه ، وعدم احترامهم له ، ولأنه مخالف لتقاليدهم وأهوائهم
الصادرة لهم عن التفكير فيه والاعتبار به . وأما الموضع العشرون فهو قوله تعالى
لحكاية عن نبيه موسى (وأحل عقدة من لساني يفقهوا قولي) وهو لا ينافى ما ذكر
لأن فصاحة لسان الداعية إلى الدين والواعظ المنذر تعين على تدبر ما يقول وفقهه
إذا تمهد هذا فقله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم
قلوب لا يفقهون بها) معناه : قسم أننا قد خلقنا وبنشنا فى العالم كثيراً من الجن
والإنس لأجل سكنى جهنم والمقام فيها ، أى كما ذرأنا للجنة مثل ذلك ، وهو
مقتضى استعداد الفريقين (فمنهم شقى وسعيد) (فريق فى الجنة وفريق فى السعير)
وبإذا كان هؤلاء معدين لجهنم دون الجنة ، وما صفاتهم المؤهلة لذلك ؟

(الجواب) : ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها
الخ أى لا يفقهون بقلوبهم ما تصلح وتزكى به أنفسهم من توحيد الله المظهر
هنا من الخرافات والأوهام ، ومن المهانة والصفار ، فإن من يعبد
الله تعالى وحده عن إيمان ومعرفة تملو نفسه ، وتسبو بمعرفة ربه رب

العالمين ، ومدبر السكون بتقديره وسننه ، فلا تدل نفسه بدعاء غيره ، والخوف منه ، والرجاء فيه ، والاتكال عليه ، بل يطلب كل ما يحتاج إليه من ربه وحده ، فإن كان مما أقدر الله تعالى عليه خلقه بأعلامهم بأسبابه وتمكينهم منها طلبه بسببه ، مراعيًا في طلبه ما علمه من مقادير الخلق وسننه ، وذلك عين الطلب من الله تعالى ولا سيما في نظر العالم بما ذكر ، وإن لم يكن كذلك توجه إلى الله وحده لهدايته إلى العلم بما لا يعلم من سببه ، واقداره على ما لا يقدر عليه من وسائله أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه ، أو إيصاله إليه ، ممن أعطاهم من أسبابه ما لم يعطيه ، كالأطباء مداواة الأمراض ، وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال ، والعلماء الراسخين لبيان الحقيقة وحل الاشكال ، ولا يتوجه مثل هذا العارف الموحد في طلب شيء إلى غير ما يعرف البشر من الأسباب المطردة ، والوسائل المعقولة المجربة ، كالرقى والشرحات ، والتنجيس والطلسمات ، والعزائم والتبخيرات^(١) ولا كرامات الصالحين من الأحياء والأموات ، دع التقرب إليهم بما يبعد من العبادات ، كالدعاء الذي هو

(١) الرقى بالضم جمع رقية (كعرق جمع عرق) وهي ما يقرأ على المذبوغ أو المريض ليبراً أو يخفف الله ، ومنه ما يفيد ولا سيما أصحاب الامزجة العvisية الذين يؤثر فيهم الوهم والاعتقاد ، وهي جائزة لذلك إذا كان المقروء حقاً كالقرآن وذكر الله ، ومحرم إذا كان فيه شيء منكر أو مجهول . ولما كان الانتفاع بالرقية غير مطرد جمل النبي ﷺ الاسترقاء مانعاً من دخول الجنة بغير حساب ومنافياً للتوكل على الله تعالى . بخلاف التداوى . والشر ما يكتب للعريض ويحرق أو يشرب ماؤده بعد أن يذاب ليشقى ، وقد حرمها الفقهاء بالمجهول . والتماجيس ما يعلق على الأطفال وغيرهم من عظم وخرز وغير ذلك لمنع تأثير العين وإلزام الشياطين ، والطلسمات جمع طلسم بكسر الطاء وتشديد اللام والأشهر بفتح فسحة وكسرة وجمعه طلاسم ، وهو خرافة يكتبون لها أرقاما في أشكال هندسة للتأثير الخارق للعادة ، والعزائم أقسام يقسم بها على الجن لتخرج من المصروع أو لتجمل على عمل آخر ويحرقون في أثناء تلاوتها بالخور ، وكل هذا من أعمال السحر القديمة خلط بها سحرة المسلمين ومشعوذوهم أسماء الله تعالى . قال ابن حجر الهيتمي - بعد الجزم بتحريم العزائم المقروءة والمكتوبة أن كان فيها اسم لا يعرف معناه وكذلك الرقية - قال مانصه : وما عدا ذلك من التبخيرات والتدخينات ونحوهما مما اعتاد السحرة والفجرة - الحرام الصرف بل الكبير بل الكفر بتفصيله المشهور عندنا ، ومطلقا عند مالك وغيره . اهـ

مع العبادة والركن الأعظم فيها كما ورد في الحديث والله تعالى يقول (فلا تدعوا مع الله أحدا) ويقول (بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) ويقول (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) ويقول (أنخشوهم ؟ فإله أحق أن تخشوه) ويقول (فلا تخشوهم واخشوني) الخ ويقول (وعلى الله فتوكاوا) ويقول (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها أن ترك الشرور والمنكرات ، والحرم على أعمال الخيرات ، وإن شئت فقل : واجتناب الرذائل ، والتحلي بالفضائل — مناط سعادة الدنيا ، وبها مع الإيمان بالله واليوم الآخر يتم الاستعداد لسعادة الآخرة ، وأنها لا يمكن أخذ الناس بها فعلاً وتركاً ، وسراً وجهاً ، إلا بالتربية الدينية الصحيحة ، ولذلك نرى أعلمهم بصفات النفس البشرية وأخلاقها وقوانين التربية الصورية وآدابها ، يجنون على أجسادهم وأنفسهم بالاسراف في الشهوات ، والاحتيال على كثرة المقتنيات ، والتعالي على الاقران والذات ، فيجترحون فواحش الزنا واللواط ، ويقترفون جرمي الرشوة والقمار ، ويستحلون منكرات الحسد والاستكبار ، ومنهم أكثر الخونة أعوان الأجانب على استعبادهم ، وامتهلاك أوطانهم ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها معنى الحياة الروحية ، والذات المعنوية ، والسعادة الأبدية (يملكون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها معنى الآيات الإلهية في الأنفس والافاق ، ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علميات وكونيات ، وأظهر آياته العلمية الباقية إلى آخر الزمان ، ما أودعه منها في كتابه القرآن المنزل على رسوله الأمي ﷺ كعلوم الإلهية والتشريعية والأدبية والاجتماعية ، وأخبار الغيب الماضية والآتية ، فهم ينظرون في ظواهر هذه الآيات ، ويتكلفون لها غرائب التأويلات ، ولذلك قال تعالى في موضوع الآيات (٦ : ٦٦ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم سيباً وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ . أنظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون)^(١) وقال (٦ : ٩٨ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع قد

فصلنا الآيات لقوم يفتقون) وقال في عدم فقههم للقرآن (٦ : ٢٦) ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على القلوب أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا. وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلوك يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين) وهذه الآية جمعت حرمانهم هداية القلوب والاسماع والابصار فهي شاهد لكل ما جاء في الآية التي نحن بصدد تفسيرها، ومنها في سورتى الاسراء (١٧ : ٤٥ و ٤٦) والكهف (١٨ : ٥٥) ولكن الشاهد فيهما على نفى هداية القلوب والاسماع فقط، إذ هو المناسب للموضوع

ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها أسباب النصر على الاعداء من روحية وعقلية، واجتماعية وآلية، التي نصر الله بها المؤمنين على الكافرين في عهد الرسول ﷺ ثم في عهد الخلفاء الراشدين والمحدثين في الاسلام، وجعل العشرة منهم أهلا لقلب المائة في طور القوة، والمائة أهلا لقلب المائتين في طور الضعف، وعلى ذلك بأن الكفار قوم لا يفقهون (الانفال ٨ : ٦٦) وقال في سورة الحشر (٥٩ : ١٣) لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله. ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) فمن آيات الدين في المؤمن أن يكون أقم من الكافر بنظم الحرب وأسباب النصر الصورية والمعنوية أو كل اتصافاتها، ومنتجا بشمرها. فأين هذا الايمان، من مسألتي هذا الزمان؟ ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها سنن الله تعالى في الاجتماع، وتأثير العقائد الدينية في جمع الكلمة وقوة الجماعات، ولا سيما في عهد النبوة وزمن المعجزات، ولا يفقهون بها إدالة الله لأهل الحق من أهل الباطل، بل يحكمون في ذلك بما يبدو لعقولهم القاصرة من الظواهر، دون ما وراءها من الفقه الباطن، كما حكاه الله تعالى عن المنافقين في آخر سورة التوبة من كونهم لا يزادون بتزول سور القرآن إلا رجساً أى خبثاً ونفاقاً، وكونهم يفتنون ويمتنحون مبراراً، ولا يفقهون ذلك توبة ولا اذكاراً، حتى إذا ما أنزلت سورة فروا من سماعها فراراً، لا يخافون أن يراهم الله ولكن يخافون أن يراهم المؤمنون (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد؟ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) وما حكاه تعالى عنهم في سورتهم من قصر نظرهم وظلمة بصيرتهم إذ أتوهوا

أنهم يفتقرون المؤمنين من الأنصار بترك الإنفاق على إخوانهم المهاجرين ، وأن ذلك كاف في انقضاءهم من حول الرسول ﷺ (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون) أى لا يفقهون سر كفاية الله تعالى رسوله والمؤمنين وكفائته لهم ، ولا يفقهون أن سبب إنفاق الأنصار الأبرار رضوان الله تعالى عليهم هو الإيمان الصادق الذي هو أقوى البواعث على بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى ابتغاء مرضاته ، فلا يؤثر فيهم قولهم : لا تنفقوا على من عند رسول الله . إلا احتقارهم لهم على نفقاتهم ، وثباتهم هم على إنفاقهم . لا يفقهون هذا ولا ذاك لأنهم محرومون من وجدان الإيمان ، وإشارة ما عند الله تعالى على جميع ما في هذه الدار الفانية من منافع

وجملة القول : أن فني الفقهة عن قلوب المخلوقين لجهنم يشمل كل ما ذكرنا ، وما في منته من أمور الدين وأمور الدنيا من حيث علاقتها بالدين وتكميل النفس . ومن العبرة فيه : أن الذين يدعون الإيمان في هذا الزمان لهم قلوب لا يفقهون بها ما ذكر . ولا يعلمون أن من فقهه فهو المخلوق للجنة كما يؤخذ من الحكم على أن من لم يفقهه مخلوق لجهنم ، بل صار كثير ممن لا يوصفون بإيمان ولا إسلام يفقهون من سنن الله تعالى المشار إلى بعضها في القرآن مالا يفهمون كأسباب النصر في الحرب ولذلك نراهم ينصرون فيها على هؤلاء . والله تعالى يقول المؤمنين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ويقول فيهم (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وليس المعنى أنه ينصركم بخوارق المعاديات ، بل إنهم يقتضى الإيمان هم الذين يفقهون أسباب النصر المادية والمعنوية . وقراءة الأمر تقتضى العمل بموجبه ، والآيات حجة على المسلمين الجغرافيين بأنهم غير مؤمنين ، وأن لدى أعدائهم من العلم وأخلاق الإيمان أكثر مما عندهم ، وإن لم يبلغوا بها مرتبة الإيمان الاسلامي الكامل . ثم إنهم بعد ذلك يعدون جهلهم وخذلانهم حجة على الإسلام ، ويرجعون أنها سبب حرمانهم النصر ، والترقى في معارج العمران — (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) حقيقة الإسلام ، ولا يدرون ما الكتاب

وما الإيمان ، فالقرآن حجة عليهم : وعم أجهل وأضل من أن يكونوا حجة على القرآن .

وقوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها) أبلغ من أن يقال: ليس لهم قلوب يفقهون بها لأن إثبات خلق القلوب لهم ، هو موضع قيام الحجة عليهم ، والتعبير الآخر يصدق بأمرين: بعدم وجود القلوب لهم بالمرّة ، وبوجود قلوب لا يفقهون بها ، وفي الحالة الأولى لا تقوم عليهم حجة لأنهم لم يؤثروا آلة التكليف وهو العقل والوجدان . فلا تكون العبارة نصّاً في قيام الحجة لاحتياها عدم التكليف . وإنما قال (لا يفقهون بها) ولم يقل « لا تفقه » لبيان أنهم هم المؤاخذون بعدم توجيه إرادتهم لفقّه الأمور واكتناء الحقائق ، ويقال مثل هذا وما قبله فيما بعده وهو :

﴿ ولم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها ﴾ ومعنى الجملتين يفهم إجمالاً بما فسرنا به فقه القلوب تفصيلاً ، أي ولم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكير فيما يرون من آيات الله في خلقه ، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسله ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى في خلقه ، فبهتدوا بكل منها ما فيه إلى سعادتهم في دنياهم وآخرتهم . وأما التفصيل فيؤخذ من آيات القرآن الكثيرة المرشدة إلى النظر في آياته تعالى في الأنفس والأفاق وفي تدبر القرآن ، وكذا الاستفادة مما يروى ويؤثر من تاريخ البشر ، فإن الآذان قد خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع ، لا من القرآن فقط ، كما أن الأبصار خلقت له ليستفيد من كل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك على كماله بتوجيه إرادته إلى استعمال كل منهما فيما خلق له . قال تعالى في آخر سورة الم السجدة (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ؟) أولم يروا أننا نسوق المساء إلى الأرض الجزر فنخرج به زرعاً نأكل منه أنعامهم وأنفسهم . أفلا يبصرون ؟ فهذان مثلان للآيات البصرية والسمعية وأمثالها كثير ، ولكن أكثر الذين يسمون أنفسهم أهل القرآن لا يفقهون شيئاً منها ، وليس الفقه عندهم إلا تقليد علماء فروع الأحكام العملية فيما كتبوه منها ، وقد يكون في حكايتها دون العمل بها !!

وفي معنى ما هنا من صفات أهل جهنم قوله تعالى في الذين علم الله رسوخهم في الكفر وتباتهم عليه من سورة البقرة (٢ : ٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) فقد بين بضرب من التشبيه البليغ عدم اتقاعهم بخواص القلوب والأسماع والأبصار التي هي آلات العلم والعرفان ، وطرق الهدى والإيمان . وقوله في المنافقين بتشبيه أبلغ (٢ : ١٧) صم بكم عى فهم لا يرجعون) ومثله المثل (٢ : ١٦٦) ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عى فهم لا يملكون) وقوله فيهم من سورة النحل (١٦ : ١٠٨) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) وقوله في سورة الجاثية (٥٥ : ٢٢) أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟) وقوله في سورة الأحقاف بعد ذكر هلاك عاد (٤٦ : ٢٥) ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلناهم سمعاً وأبصاراً وأفنتهم فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفنتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله) وقوله تعالى في سورة الأنفال (٨ : ١٩) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون (٢٠) ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون (٢١) إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (٢٢) ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) أي ولو أسمعهم سماع تفقه واعتبار والحال أنه قد علم أنهم لا خير فيهم لتولوا عن الاستجابة وهم معرضون .

كرر الرب الحكيم بيان هذه الحقيقة بأساليب مختلفة في البلاغة كالتشبيه والتخييل والاحتجاج ، وبيان السنن الاجتماعية لأجل التأثير والتذكير والإنذار ، لمن لم يفقد استعداد الهداية من الكافرين ، ولأجل العظة والذكى للمؤمنين ، كما نرى في آيات الأنفال ، ومع هذا التكرار البالغ حد الإعجاز في البلاغة نرى أكثر المسلمين أشد إهمالاً من غيرهم لاستعمال أسماعهم وأبصارهم وأفنتهم في النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق ، لأنهم من أجهل الشعوب بالعلوم التي تعرف بها آياته تعالى في أعضاء الإنسان ومشاعره وقواه العقلية وانفعالاته النفسية

وأياته في الجماد والنبات والحيوان والهواء والماء والبخار، والغازات التي تتركب منها هذه المواد وغيرها، وسنن النور والكهرباء، والهيئة الفلسفية، ومن أصاب منهم حظاً من هذه العلوم فاعلم أخذته عن الإفراج أو تلاميذهم المتفرجين فكان مقلداً فيه لهم لاستقلاله، ولم يتجاوز طريقهم في البحث عن منافع هذه الأشياء لأجل الانتفاع بها في هذه الحياة الدنيا، من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً مديراً عالماً حكماً، مريداً قديراً وحياً، يجب أن يعبد وحده، وأن يخشى ويحب فوق كل أحد، وأن تكون معرفته والزلفى عنده ورجاء لقائه في الآخرة منتهى كل غاية من الحياة، ونقصه أو تلك العلماء هذا من العلم لأضابوه فإن الأمور بمقاصدها، وإنما الأعمال بالنيات، ولكنهم غفلوا عنه، لتعلق إرادتهم بما دونه ولهذا كان علمهم على سمته ناقصاً أقبح نقص، وكان الانتفاع به مشبهاً بإبصار عظيم باستعمال ما عدهم إليه العلم من خواص الأشياء في الحرب والآلات القتال، التي تدمر العمران وتسحق الألوف الكثيرة من البشر في وقت قصير - وهذا يصدق على هؤلاء العلماء الذين استعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم في استنباط حقائق العلوم ونفعها المادي العاجل ما يصدق على الذين أهملوا استعمالها، وآثروا الجهل على العلم بها، من قوله عز وجل :

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات السلبية كالأنعام من إبل وبقرو غنم، في كونهم لاحظ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بحسيتهم في هذه الحياة الدنيا، بل هم أضل سبيلاً من الأنعام، لأن هذه لا تجنى على أنفسها يتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية في أكلها وشربها ونزواتها، بل تقف فيه عند قدر الحاجة التي تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية، وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون في كل ذلك إسرافاً يتولد منه أمراض كثيرة يقل فيهم من يسلم منها كلها، ومن الناس من يجاهد هذه الشهوات جهاداً يفرط فيه بحقوق البدن فلا يعطيه الغذاء الكافي، ويقتصر في حقوق الزوجية، أو يقطع على نفسه طريقها بالرهبانة، فيجنى على شخصه وعلى نوعه بالنفريط كما يجنى عليها عبيد الذات بالافراط، ذم الجنابة على الأخلاق

والآداب وعلى الأمم والشعوب ، وهداية الاسلام تحظر هذا وذاك وتوجب الأكل من الطيبات والزواج بشرطه ، وتحرم الاسراف في كل شيء . فلو اهتدى الناس بالقرآن في فقه أسرار الخلق ومنافعه لجمعوا بها بين ارتقايتهم في معاشهم ، واستمدادهم لمعادهم ، واتفقوا هذا الإبراف في الشهوات والتنازع عليها الذي أفسد مدينة الإفروج بما يشكو منه جميع حکماهم ويجزمون بأنه لا يبد أن يقتضى عليهم .

﴿أولئك هم الغافلون﴾ أى أولئك الموصوفون بكل ما ذكرهم ، الغافلون التامو الغفلة عما فيه صلاحهم وسعادتهم في الحياتين الدنيا والآخرة جميعاً ، أو خيرها وأكملها وأدومهما وهى الثانية ، فهم طبقات على درجات في الغفلة ، الغافلون عن أنفسهم ، الغافلون عن استعمال عقولهم ومشاعرهم في أفضل ما خلقت لأجله من معرفة الله تعالى ، الغافلون عن آيات الله فى الأنفس والآفاق التى تهدى إلى معرفة العبد نفسه وربّه ، الغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية ، وحياتهم القومية ، وحياتهم المليّة ، الذين يعدون كالأنعام من وجه آخر غير الذى تقدم من بحفاة سنن الفطرة ، وهو حقارتهم ومهانتهم الشخصية والقومية بين الأمم والدول . ونسخير غيرهم لهم كما يسخر الأنعام فى سبيل معيشتهم .

فالقسم الأول من الغافلين هم الذين قال الله تعالى فيهم فى أوائل سورة يونس بعد التذكير بخلق السموات والأرض واستوائه على عرشه وتدبيره أمر العالم ، وكونه يبدى الخلق ثم يعيده . والاعادة فى العادة أهون من البدء . والتذكير بآياته فى جمل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل ليعلم منها عدد السنين والحساب . وآياته فى اختلاف الليل والنهار وخلق السموات والأرض . قال بعد ذلك (١٠: ٦) إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧) أولئك ماؤهم النار بما كانوا يكسبون) فهذا نص فى أن النار ماؤى الغافلين عن هذه الآيات أى عن دلائلها على وجود خالقها ومدبر النظام فيها وكون إعادة خلق البشر وغيرهم فى طور آخر لا يتماضى على قدرته ، وهو من مقتضى علمه وحكمته ، وعن كون معرفته تعالى أعلى أنواع المعرفة ، وكون النعم الروحاني بلفائه عز وجل فى دار الكرامة أسمى أنواع النعم . وإن كان هؤلاء الغافلون عما ذكر من أكبر

العلماء بسنن الله تعالى وحكمه في خالق العالم العلوي والعالم السفلي ، بل حجة الله على هؤلاء العلماء أبلغ وأظهر ، لأنهم لو فطنوا لدلائلها على ما ذكر وقهوه كما يجب لكانوا أسعد في هذه الحياة الدنيا وأبعد عن شرورها ومفاسدها مما هم عليه الآن ، ولا استعداد بذلك لسعادة الآخرة أكل استعداد .

كذلك يصدق عليهم قوله تعالى في أول سورة الروم (٣٠ : ٦) يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) فانظر إلى بلاغة القرآن في إعادة ضمير (هم) وهو لنا كمد الذي اقتضاه وصفهم بالعلم الذي من شأن صاحبه عدم الغفلة تلك الصفات هي صفات من خلقوا لسكنى الجحيم ، وما يقابلها فهو صفات أهل دار النعيم ، أهل النار ينص كتاب الله تعالى هم الأغبياء الجاهلون الغافلون الذين لا يستعملون عقولهم في فقه حقائق الأمور ، ولا يستعملون أسماعهم وأبصارهم في استنباط المعارف واستفادة العلوم ، ومعرفة آيات الله الكونية ، وقه آياته التنزيلية ، وهما سبب كال الإيثار ، والباعث النفسى على كمال الاسلام والاحسان ، ولن ترى في كتب التفسير الكثيرة من نبه قراء كتاب الله تعالى إلى هذه المعاني الهادية إلى سبيله وصراطه المستقيم ، على أن أكثر المسلمين قد اتخذوا كتاب الله مهجوراً ، فإذا سألت أشهرهم بعلم التفسير عن معنى هذه الآية قال لك إن الله تعالى خلق النار خلقاً لهم على الكفر والمهوى مجبورون ، لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئاً مما من شأنه أن يفهم ، فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دحولا أولاً . ولهم أعين لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجاً أولاً . ولهم آذان لا يسمعون بها شيئاً من السموعات ، فيتناول الآيات التنزيلية على طرز ماسلف ، عام باختصاصاً من روح المعاني ، وما زاد عليه فيه فكلام في الاعراب ونكت التعبير وتحقيق المعنى الجبر عند بعض المتكلمين وهو زبدة مافى كتب التفسير . وأهل النار عندهم من يسمونهم كافرين ، أهل الجنة من يسمونهم مسلمين ، وإن كانوا يجادلون حقائق هذه الأمور ويصرون على المعجور ، إتكالا على شفاعة أهل القبور ، الذين يدعونهم مع الله أو من دون الله لمهمات الأمور ، ويندجون لهم الفسائل ويتذرون لهم التذورات ،

وهي عبادات لغير الله يخرجون بها من حظيرة الإيمان ، والاحتجاج بالآية على الجبر غفلة وجهل ، بل هي كسائر الآيات الدالة على نوط الجزاء بالعمل ، ومعناها أن هؤلاء المكلفين من الجن والإنس قد تركوا استعمال عقولهم ومشاعرهم الباطنة والظاهرة في علم الهدى الذى يترتب عليه الأعمال المزيكية للنفس فكانوا بذلك أهل جهنم ، وليس فيها أنه تعالى ذرأهم لجهنم لذواتهم فان ذوات الجنسين كلها متشابهة ، ولم يقل إنه خلقهم عاجزين عن استعمال تلك القوى في أسباب الهدى بل قال إنهم لم يستعملوها في ذلك (١٠٠: ١١) وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير) ولكن الجدل في المذاهب هو الذى أدهمهم . ونحمد الله تعالى أن هداانا إلى تفسير الآية بالشواهد الكثيرة من القرآن ، وسنن الله تعالى في الانسان والاكوان ، وهو مالم نطالع على مثله ، ولأما يوم حوله لإنسان . واتحدث بنعمة الله ، مما أمر به الله ، فالحمد لله ثم الحمد لله .

(١٨٠) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

بين الله تعالى لنا في الآية السابقة حال الخلقين لجهنم في عدم استعمال عقولهم ومشاعرهم في الاعتبار بآيات الله والتفقه في تزكية أنفسهم بالعلم الصحيح الذى يترتب عليه العمل الصالح ، وأن ذلك الإهمال أعقبتهم الغفلة التامة عن أنفسهم وما فيه صلاحها من ذكر الله تعالى وشكره والثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال — وفقى على ذلك في هذه الآية بدواء هذه الغفلة وأقرب الوسائل للمخرج منها إلى ضدها فقال :

* **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** * الأسماء جمع اسم ، وهو اللفظ الدال على الذات فقط ، أو على الذات مع صفة من صفاتها سواء كان مشتقا ، كالرحمن الرحيم الخالق الرازق ، أو مصدرا ، كالرب والسلام والعدل . والحسن جمع أحسن ، والمعنى

والله دون غيره جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات ، فادعوه
 أي سموه واذكروه وفادروه بها ، لجرد الثناء وعند السؤال وطلب الحاجات ، فمن
 الذكر لحض النساء آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ الخ وآخر
 سورة الحشر ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾
 هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار
 المتكبر ، سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق الباري المصور له الأسماء
 الحسنى يسبح له مافي السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ وقد ورد في السنة
 الدعاء بهذه الآيات وأن يقول قائلها « أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان
 الرجيم — ثلاث مرات » رواه الترمذي والدارمي وابن السني من حديث
 معقل بن يسار .

والذكر الحض فوائد كثيرة في تغذية الإيمان وصرافة الله تعالى وحبه والخشوع
 له والرغبة فيما عنده واحتقار مصائب الدنيا وقلة المبالة والتألم لما يفوت المؤمن
 من نعمها ، ولذلك ورد في الحديث الصحيح « من نزل به غم أو كرب أو أمر
 مهم فليقل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا
 الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم » رواه الشيخان والترمذي والنسائي
 ومن الذكر بصيغة النداء ما رواه الترمذي أنه ﷺ سمع رجلا وهو يقول :
 « يا ذا الجلال والإكرام فقال : قد استجيب لك فسل » وروى الحاكم في المستدرک
 من حديث أنس (رض) قال : قال رسول الله ﷺ لفاطمة : « ما يمنعك أن تسمي
 ما أوصيك به ؟ أن تقولى إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حي يا قيوم يرحمك
 أسئتي ، أصلح شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين » وقال هذا حديث
 صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الحافظ الذهبي على ذلك .

والأدعية بأسماء الله تعالى نداء أو غير نداء كثيرة تراجع في كتاب الأذكار
 للنووي ، وكتاب الحصن الحصين لابن الحزري وغيرهما من كتب السنة .
 وأسماء الله كثيرة ، وكلها حسنى بدلالة كل منها على منتهى كمال معناه وتفضيلها
 على ما يطلق منها على المخلوقين ، كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم .

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما قال : قال رسول الله ﷺ

« إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » هذا لفظ البخارى فى كتاب الشروط وكتاب التوحيد ومسلم فى الذكر . قال مسلم : وزاد همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « إنه وتر يحب الوتر » وفى الرواية الأخرى له « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من حفظها دخل الجنة وإن الله وتر يحب الوتر » (قال) وفى رواية ابن أبى عمر « من أحصاها » ورواه البخارى فى كتاب الدعوات بلفظ « لله تعالى تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحدة من حفظها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » وقوله « إلا واحدة » بالتأنيث وجهه ابن مالك بأنه أنثى باعتبار التسمية أو الصفة أو الكلمة .

ورواه الترمذى والحاكم من طريق الوليد بن مسلم وسردا فيه الاسماء التسعة والتسعين ، ورواه غيرهما أيضاً من طريقه وفى سرد الأسماء اختلاف فى الروايات وقد اختلف المحدثون فى سرد الأسماء هل هو مرفوع أو مدرج فى الحديث من بعض الرواة ؟ والراجع أنه مدرج لا مرفوع ، ولم يخرج الشيخان لتفرد الوليد به والاختلاف عليه فيه وتدليسه واحتمال الإدراج كما قال الحافظ فى الفتح ، وروى من طريق أخرى أضف من هذه . وهذا سرد الأسماء فى أمثل الطرق عن الوليد من جامع الترمذى كما قال الحافظ :

هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، الغفار القهار ، الوهاب الرزاق ، الفتاح العليم ، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع البصير ، الحكيم العدل ، اللطيف الخبير ، الحليم العظيم ، الغفور الشكور ، العلى الكبير ، الحفيظ المقيت ، الحسيب الجليل ، الكريم الرقيب المجيب ، الواسع الحكيم ، الودود المجيد ، الباعث الشهيد ، الحق الوكيل ، القوي المتين ، الولي الحميد ، المحصى المبدى ، المعيد ، المحيى المميت ، الحى القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد الصمد ، القادر المقدر ، المقدم المؤخر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الوالى المتعالى ، البر التواب ، المنتقم العفو الرؤف ، مالك الملك ، ذو الجلال

والا کرام ، المقسط الجامع ، الذی المغنی المانع ، الضار النافع ؛ النور المهادی ،
البديع الوارث ، الرشید البصير ،

أورد هذه الاسماء الحافظ ابن حجر فی الفتح وذكر اختلاف الروایات فيها
وانكار بعض كبار العلماء لرفعها ، كابن حزم والداردی والقافی أبی بكر بن العربي ،
والاقوال فی حصرها وماخذها ثم قال :

« وإذا تقرر رجحان أن سرد الاسماء ليس رفوعاً فقد اعتني جماعة بتتبعها
من القرآن من غير تعيد بعدد ، فروينا في كتاب المحدثين لأبي عثمان الصابوني بسنده
إلى محمد بن يحيى الذهلي أنه استخرج الاسماء من القرآن ، وكذا أخرج أبو نعيم
عن الطبرانی عن أحمد بن عمر ، والخلال عن ابن أبي عمير ، وحدثننا محمد بن جعفر
ابن محمد بن علي بن الحسين قال : سألت جعفر بن محمد الصادق عن الاسماء الحسنی
فقال : هي في القرآن ، وروينا في فوائد تمام من طريق أبي الطاهر بن السرح عن
حيان بن نافع عن سفيان بن عيينة الحديث ، يعني حديث « إن لله تسعة وتسعين
اسماً » قال فوجدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فابطأ ، فأتينا أبا زيد فأخرجها
لنا ، فعرضناها على سفيان فنظر فيها أربع مرات وقال : نعم هي هذه

« وهذا سياق ما ذكره جعفر وأبو زيد قالوا : ففي القائمة خمسة : الله ، رب ،
الرحمن الرحيم مالك ، وفي البقرة : محيط ، قدير ، عليم ، حكيم ، علي ، عظيم ،
تواب ، بصير ، ولي ؛ واسم ، كاف ، رؤف ، بديع ، شاکر ، واحد ، سمیع ، قابض
باسط ، حي ، قيوم ، غني ، حميد ، غفور ، حلیم . وزاد جعفر : إله قريب مجيب ،
عزيز نصير ، قوي شديد ، سريع خبير ، قال وفي آل عمران ، وهاب ، قائم . زاد
جعفر الصادق : باعث منعم متفضل ، وفي النساء : رقيب حسيب شهيد مقيت
وكيل ، زاد جعفر : علي كبير . وزاد سفيان . عفو . وفي الانعام : فاطر قاهر ، زاد جعفر :
محيي غفور برهان : وزاد سفيان : لطيف خبير قادر ، وفي الأعراف : محي مميت .
وفي الأنفال : نعم المولى ونعم النصير ، وفي هود : حفيظ مجيد ودود ، فعال
لما يريد ، زاد سفيان : قريب مجيب ، وفي الرعد : كبير متعال ، وفي ابراهيم : منان
زاد جعفر : صادق وارث ، وفي الحجر : خلاق ، وفي مريم : صادق وارث ، زاد

جعفر : فرد ، وفي طه عند جعفر وحده : غفار ، وفي المؤمنين : كريم ، وفي النور :
 حق مبين ، زاد سفيان : نور ، وفي الفرقان : هاد ، وفي سبأ : فتاح وفي الزمر :
 عالم ، عند جعفر وحده . وفي المؤمن : غافر قابل ذو الطول ، زاد سفيان : شديد ،
 وزاد جعفر : رفيع ، وفي الذاريات : رزاق ذو القوة المتين ، بالتاء ، وفي الطور :
 بر ، وفي اقتربت : مقتدر . زاد جعفر : ملك ، وفي الرحمن ، ذو الجلال والاكرام :
 زاد جعفر (رب المشرقين ورب المغربين) باق معين ، وفي الحديد : أول آخر
 ظاهر باطن . وفي الحشر : قدوس سلام مؤمن مهيم عن بزجبار متكبر خالق بارئ
 مصور ، زاد جعفر : ملك ، وفي البروج : مبدئ معيد ، وفي الفجر : وتر .
 عند جعفر وحده ، وفي الاخلاص : أحد صمد : هذا آخر ما روينا عن جعفر
 وأبي زيد وتقرير سفيان من تتبع الاسماء من القرآن ، وفيها اختلاف شديد وتكرار
 وعدة أسماء لم ترد بلفظ الاسم وهي : صادق منعم متفضل منان مبدئ معيد
 باعث قابض برهان معين محيت باق

« ووقفت في كتاب المقصد الاسنى لأبي عبد الله محمد بن ابراهيم الزاهد أنه
 تتبع الاسماء من القرآن فتاملته فوجدته كرر أسماء وذكر مما لم أره فيه بصيغة
 الاسم : الصادق والكاشف والعلام ، وذكر من المضاف : الفائق من قوله (فائق
 الحب والنوى) وكان يلزمه أن يذكر القابل من قوله (قابل التوب)

« وقد تتبعته ما بقى من الاسماء مما ورد في القرآن بصيغة الاسم مما لم يذكر في
 رواية الترمذي ، وهي الرب الإله المحيط ، القدير الكافي ، الشاكر الشديد ، القائم
 الحاكم ، الغافر الغافر القاهر ، المولى النصير ، الغالب الخالق ، الرفيع المليك ،
 الكفيل الخلاق - الاكرم الأعلى ، المبين - بالوحدة ، الحى - بالحاء المهملة والقائه -
 القريب ، الاحد الحافظ . فهذه سبعة وعشرون اسما إذا انضمت إلى الاسماء التي وقعت
 في رواية الترمذي مما وقعت في القرآن بصيغة الاسم تكمل بها التسعة والتسعون وكلها
 في القرآن لكن بعضها باضافة كالشديد (من شديد العقاب) والرفيع من (رفيع الدرجات
 والقائم من قوله (قائم على كل نفس بما كسبت) والناظر من (فاطر السموات) والقاهر من
 (وهو القاهر فوق عباده) والمولى والنصير : (نعم المولى ونعم النصير) والعالم من (عالم)

الغیب) والخالق من قوله (خالق کل شیء) والغافر من (غافر الذنب) والغالب من (والله غالب علی أمره) والرفیع من (رفیع الدرجات) والحافظ من قوله (الله خیر حافظا) ومن قوله (ولم ناله لحاظون) وقد وقع نحو ذلك من الاسماء التي فی رواية الترمذی وهی المحیی من قوله (لحیی الموتی) والمالك من قوله (مالك الملك) والنور من قوله (نور السموات والأرض) والبديع من قوله (بديع السموات والأرض) والجامع من قوله (جامع الناس) والحکم من قوله (أفغیر الله أبتغی حکما) والوارث من قوله (ومن الوارثون) والاسماء التي تقابل هذه مما وقع فی رواية الترمذی مما لم تقع فی القرآن بصیفة الاسم، وهی سبعة وعشرون اسما: القابض الباسط، الخافض الرافع، المغز المنزل، العدل الجلیل، الباعث المحصى، المبدی المعید الممیت، الواجد المسجد، المقدم المؤخر، الوالی ذو الجلال والإکرام، المنسط المغنی، المانع المضار، النافع الباقی، الرشید الصبور.

« فإذا اقتصر من زوایة الترمذی علی ما عدا هذه الاسماء وأبدلت بالسبعة والعشرين التي ذکرناها خرج من ذلك تسعة وتسعون اسما وكلها فی القرآن واردة بصیفة الاسم ومواضعها كلها ظاهرة من القرآن إلا قوله « الحفی » فانه فی سورة صريم فی قول ابراهيم (سأستغفر لك ربی إنه كان بی حفيا) وقيل من أمه علی ذلك

« ولا یبقى بعد ذلك إلا النظر فی الاسماء المشتقة من صفة واحدة مثل: القدير والمقتدر والقادر، والغفور والغفار والغافر، والعلی والأعلى والمتعال، والمالك والمليک، والکريم والاكرم، والقاهر والقهار، والخالق والخلق، والشاكر والشکور، والعالم والعليم، فاما أن يقال: لا یمنع ذلك من عدها فان فيها التباين فی الجملة فان بعضها یزید بخصوصية علی الآخر لیست فيه، وقد وقع الاتفاق علی أن الرحمن الرحيم اسمان مع کونهما مشتقين من صفة واحدة؛ ولو منع من عد ذلك لزم أن لا یعد ما یشارك الامنان فيه مثلا من حيث المعنی مثل الخالق الباری، المصور لکنها عدت لآتماروا وشارکت

على الابداد^(١) والبارى بقيد الموجد لجوهر الخلق ، والمصور بقيد خالق الصورة في تلك الذات الخلوقة ، وإذا كان ذلك لا يمنع المغايرة لم يمتنع عدها أسماء مع ورودها والعلم عند الله تعالى . وهذا سردها لتعريف ولو كان في ذلك إعادة ولكنه يغتفر لهذا القصد : الله الرحمن الرحيم ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز ، الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، الغفار القهار ، التواب الوهاب ، الخلاق الرزاق الفتاح ، الهادي الحليم العظيم ، الواسع الحكيم ، الخي القويوم ، السميع البصير ، اللطيف الخبير ، العلي الكبير ، المحيط القدير ، المولى النصير ، الكريم الرقيب ، القريب المجيب ، الوكيل الحبيب ، الخفيظ المقيت ، الودود المجيد ، الوارث الشهيد ، الولي الحميد ، الحق المبين ، القوى المتين ، الغنى المالك الشديد ، القادر المقنن ، القاهر الكافي ، الشاكر المستعان ، ذا الطار البديع النافر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، السكفي الغالب ، الحكم العالم الرفيع ، الحافظ المنتقم ، القائم المحي ، الجامع المليك المتعال ، النور الهادي ، الغفور الشكور ، الغفور الرؤف ، الأكرم الأعلى ، البر الحفي ، الرب الإله ، الواحد الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ثم قال الحافظ : وقد اختلف في هذا العدد هل المراد به حصر الاسماء الحسنی في هذه العدة أو أنها أكثر من ذلك ، ولكن اختصت هذه لأن من أحصاها دخل الجنة ، فذهب الجمهور إلى الثاني ، ونقل النووي اتفاق العلماء عليه ، فقال ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى ، وليس معناه انه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث ان هذه الاسماء من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الاخبار عن دخول الجنة بأحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء ويؤيده قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الذي أخرجه أحمد ومحمد بن حبان « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » وعند مالك عن كعب الاخبار في دعاء « وأسألك باسمائك

(١) أصل معنى الخلق التقدير ، فالأولى أن يقال : ان الخالق هو الموجد للأشياء

الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم ، وأورد الطبري عن قتادة نحوه من حديث عائشة أنها دعت بحضرة النبي ﷺ بنحو ذلك ، وسيأتي في الكلام على الاسم الأعظم . وقال الخطابي : في هذا الحديث اثبات هذه الأسماء المحصورة بهذا العدد ، وليس فيه منع ما عداها من الزيادة ، وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها معاني . وخبر المبتدأ في الحديث هو قوله « من أحصاها » لا قوله « لله » وهو كقولك لزيد ألف درهم أعدها للصدقة ، ولعمرو مائة ثوب من زارد ألبسه إياها . وقال القرطبي في الميهم نحو ذلك ، ونقل ابن بطال عن القاضي أبي بكر بن الطيب قال : ليس في الحديث دليل على أنه ليس لله من الأسماء إلا هذه العدة ، وإنما معنى الحديث أن من أحصاها دخل الجنة . ويدل على عدم الحصر أن أكثرها صفات وصفات الله لا تنفاه ، وقيل إن المراد الدعاء بهذه الأسماء لأن الحديث مبني على قوله (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) فذكر النبي ﷺ أنها تسمة وتسعون فيدعى بها ولا يدعى بغيرها حكاه ابن بطال عن المهلب . وفيه نظر لأنه ثبت في أخبار صحيحة الدعاء بكثير من الأسماء التي لم ترد في القرآن ، كما في حديث ابن عباس في قيام الليل « أنت المقدم وأنت المؤخر » وغير ذلك . وقال الفخر الرازي : لما كانت الأسماء من الصفات وهي إما ثبوتية حقيقية كالحي ، أو إضافية كالعظيم وإما سلبية كالقدوس ، وإما من حقيقية وإضافية كالقدوس ، أو من سلبية وإضافية كالأول والآخر ، وإما من حقيقية وإضافية كالملك والسلب غير منتهية ، لأنه عالم بلا نهاية قادر على مالا نهاية له ، فلا يمنع أن يكون له من ^(١) ذلك اسم فيلزم أن لا نهاية لأسمائه ، وحكي القاضي أبو بكر بن العربي عن بعضهم أن لله ألف اسم . قال ابن العربي : وهذا قليل فيها ، ونقل الفخر الرازي عن بعضهم أن لله أربعة آلاف اسم ، استأثر بعلم ألف منها وأعلم الملائكة بالبقية ، والأنبياء بألفين منها ، وسائر الناس بألف . وهذه دعوى نحتاج إلى دليل ^(٢) واستدل بعضهم بهذا القول لأنه ثبت في نفس حديث الباب أنه وتر يحب الوتر الرواية

(١) المقام يقتضي أن يقول من كل ذلك .

(٢) وكذا ما قبلها .

التي مررت في الأسماء لم يعهد فيها الوتر ، فدل على أن له أسماء آخر غير التسعة والتسعين
وتعقبه من ذهب إلى الحصر في التسعة والتسعين ، كابن حزم بأن الخبر الوارد لم يثبت
بوجه ، وإنما هو مدحج كاتقدمت الإشارة إليه ، واستدل أيضا على هدم الحصر بأنه
مفهوم عدد وهو ضعيف ، وابن حزم ممن ذهب إلى الحصر في العدد المذكور وهو
لا يقول بالمفهوم أصلا ، ولكنه احتج بالتأكيد في قوله وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ «إلا واحدا» قال : لأنه لو
جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور لزم أن يكون له مائة اسم فيبطل
قوله «مائة إلا واحد» وهذا الذي قبله ليس بحجة على ما تقدم لأن الحصر المذكور
عندهم باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها ، فمن ادعى أن الوعد وقع لمن أحصى زائلا على
ذلك خطأ ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون هناك اسم زائد ، واحتج بقوله تعالى (والله
الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه) وقد قال أهل التفسير : من
الإلحاد في أسمائه تسمية بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة ، وقد ذكر منها في
آخر سورة الحشر عدة وختم ذلك بأن قل (له الأسماء الحسنى) قال وما يتخيل من
الزيادة في العدد المذكور له مكرر معنى وإن تغير لفظا ، كالغافر والغفار والغفور
مثلا فيكون المعدود من ذلك واحدا فقط ، فإذا اعتبرت ذلك وجمعت الأسماء الواردة
نصا في القرآن وفي الصحيح من الحديث لم تزد على العدد المذكور ، وقال غيره : المراد
بالأسماء الحسنى في قوله تعالى (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ما جاء في الحديث
« إن لله تسعة وتسعين اسما » فإن ثبت الخبر الوارد في تعيينها وجب المصير إليه وإلا
فليتبع من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، فإن التعريف في الأسماء للعهد فلا بد
من المعهود ، فإنه أمر بالدعاء بها ونهى عن الدعاء بغيرها فلا بد من وجود المأمور به
(قلت) والحوالة على الكتاب العزيز أقرب . وقد حصل بحمد الله تتبعها كما قدمته
وبقي أن يعمد إلى ما تكرر لفظا ومعنى من القرآن فيقتصر عليه ويتبع من
الأحاديث الصحيحة تكللة العدة المذكورة فهو خط آخر من التتبع عسى الله أن يعين
عليه بحوله وقوته آمين . اه (فتح) والمتبادر من الحديث أنه جملتان فالأسماء الشرعية
في الإسلام ٩٩ ، كان الحافظ أحمد ، العلماء عا دحا في آخر كلامه

(ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) (فذرهم وما يفترون) (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) الخ

وأما الأحاد فمعناه العام الميل والازدراء عن الوسط حساً أو معنى ، والأول الأصل فيه كأمثاله . ومنه لحد القبر للميت وهو ما يحفر في جانب القبر من جهة القبلة مائلاً عن وسطه ويسوى ببناء ونحوه ويوضع فيه الميت ، ويقابله الضريح أو الشق وهو وضعه في وسط القبر (واللحد أفضل في الشرع) يقال : لحد القبر وألحده ، ولحد الميت وألحده ، أي جعل له لحداً ، ومن كلامهم : ألحد السهم الهدف : أي مال في أحد جانبيه ولم يصب وسطه ، ولما كان « خيار الأمور أوسطها » كان الانحراف عن الوسط مذموماً ، ومنه أخذ الشعبي عن الكفر والتعطيل والشك في الله تعالى بالأحاد وسمى ذروه الملاحدة والملحدون .

قال الراغب : اللحد حفرة مائلة عن الوسط وقد لحد القبر حفرة وألحده وقد لحدت الميت وألحدته : جعلته في اللحد ، ويسمى اللحد ملحداً وهو اسم موضع من ألحدته . ولحد بلسانه إلى كذا مال . قال تعالى (لسان الذي يلحدون إليه) من لحد وقرىء (يلحدون) من ألحد ^(١) وألحد فلان : مال عن الحق ، والأحاد ضربان : إلحاد إلى الشرك بالله ، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب ^(٢) فالأول ينافي الإيمان ويبطله ، والثاني يوهن عراه ولا يبطله . ومن هذا النحو قوله (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وقوله (الذين يلحدون في أسمائه) والإلحاد في أسمائه على وجهين : أحدهما أن يوصف بما لا يصح وصفه به ، والثاني أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به اهـ

(١) الآية رد على بعض كفار قريش الذين قالوا إن النبي ﷺ يلمه بشمر يعنون روميًا كان بمكة يصنع السيوف ، ورأوه ﷺ يقف عنده يتأمل صنعته قال تعالى (لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) فاستعمال الإلحاد فيه على القاعدة لأنهم مالوا فيه إلى الباطل (٢) هو النظر إلى الأسباب مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيرها . ويختص الإنسان ذلك ، أو يعتقد إنها مؤثرة بذاتها لا بفضل تعالى وهو شرك جلي ، والظاهر أن الراغب أراد بهذا النوع المعاصي كالظن في الحرم عن قهله : المعاصي يرد الكفر

أقول: قرأ حمزة (يلحدون) بفتح الياء هنا وفي قوله تعالى في فصلت (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا) من لحد والياقون بعضهم من لحد ومعناها واحد كما علمت ، وأخطأ من زعم أن الأول لا يكاد يسمع .

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) الإلحاد التكذيب وقال في تفسيره هنا: اعتقوا العزى من العزيز واللات من الله . وعن الأعشى أنه قرأ «يلحدون» بفتح الياء من اللحد وفسره بقوله: يدخلون فيها ما ليس منها، وعن قتادة في تفسيره روايتان إحداهما يشركون، والثانية: يكذبون في أسمائهم، وبمخلص هذه الروايات: أن من الإلحاد في أسمائه تعالى التكذيب بها وإنكار معانيها وتحريرها بالتأويل ونحوه ، وتسميته تعالى بما لم يسم به نفسه ، وبما لا يليق بكماله وجلاله ، وإشراك غيره به فيها — وهذان قسمان: إشراك في التسمية ، وهو يقصر على الأسماء الدالة على معنى الألوهية والربوبية وخصائصهما ، وإشراك في المعاني وهي قسمان: معان خاصة بالألوهية والربوبية ، ومعان غير خاصة في نفسها ، وإنما الخاص به تعالى كمالها ، وهو معنى كونها الحسنى كما يدل عليه تقديم الخبر في قوله «ولله الأسماء الحسنى» أي له وحده دون غيره كما تقدم . فالإلحاد في أسمائه الحسنى أقسام

(١) التغير فيها بوضعها لغيره مما عبيد من دونه كما ورد في «اللات والعزى» وتقدم قريباً ، قيل و «مناة» من اسمه تعالى المنان فإن صحح كان دليلاً على أن العرب كانت قبل الإسلام تطلق هذا الاسم على الله تعالى وهو ليس في القرآن ولا في رواية الترمذي لأسمائه تعالى ، ولكن ورد في بعض الأحاديث وأما لفظ «اللات» فالظاهر أنهم أنشأوا به اسم الجلالة «والعزى» مؤنث الاعز كالفضلى مؤنث الفضل ، والحسنى مؤنث الأحسن .

(٢) تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه في كتابه أو ما صح من حديث رسوله ﷺ قال بعضهم: أو أجمع عليه المسلمون فإنه كما قيل لا بد له من مستند منها ومنه «واجب الوجود والواجب» - لكن يحتاج هذا إلى قرينة لأن استعماله في كل واجب عقلي وكل واجب شرعي هو الأكثر - (قال) «والقديم والصانع» وقيل هما مسموعان وأقول: إن الواجب وواجب الوجود والصانع من اصطلاح المتكلمين

لا يثبت كونها من أسماء الله تعالى بالإجماع الذي قالوا إنه لا بد له مستند من الكتاب أو السنة عند أهلها ، والصانع مأخذ من قوله تعالى في سورة النمل (صنع الله الذي أتقن كل شيء) عند من يقول بجواز مثله وهو ضعيف ، ويقضى أن يكون من أسائه المنقن أيضا . والتحقيق أن باب الاخبار عنه تعالى بأفعاله أوسع من باب اطلاق الاسماء عليه ، فإن الاسم في الاصل ما دل على الذات ولا يعتبر فيه اتصاف المسمى بمعنى الاسم إن كان له معنى غير العلمية كزيد وحارث وفضل ، وما أطلق لأجل معناه فقط يسمى وصفا ونمنا كالحارث بوصف به من يحرث الأرض ، والظالم لمن يجرور في فعله أو حكمه ، وقد يقصد بالإسم العلم الوصف مع العلمية من باب التفاضل أو المدح فإن لمع عند الاطلاق أدخلوا عليه الألف واللام فقالوا الحارث والفضل وإلا فلا ، وهذا صماعى لا قياسى فى العربية . ومنه أسماء الله المنقولة عن اسم فاعل كالخالق والرازق والمؤمن والمهيمن أو صفة مشبهة كالرحمن الرحيم ، أو مصدر كالسلام والعدل فكلاهما يراعى فيها المعنى الوصفى فتسمى صفات والدلالة على الذات المنصفة بمدلوله الوصفى فتسمى أسماء

ويقتصر فيها كلها على التوقيف وليس منه الواجب والصانع والموجود ولكن يجوز الاخبار بهذه الصفات عنه تعالى ، فيقال إن الله موجود وواجب وهو صانع كل شيء والمنقن لكل ما خلقه ، ولا يقال فى الدعاء والنداء يا واجب أو يا صانع اغفر لى مثلا ، بهذا القدر يصح كلام المتكلمين ، ولا يجوز أن يشتق له تعالى أسماء من كل ما أخبر به عن نفسه ولو بصيغة اسم الفاعل ، فلم يقل أحد باطلاق اسم الزارع عليه تعالى من قوله (أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) ولا الماكر من قوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ولا الخادع أو الخادع من (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ولكن عدوا منها بعض الصفات المضافة كالتقدم فى الشديد والرفيع والقائم والفاطر ، والفرق بين الفريقين أن هذه ذكرت فى سياق الثناء على الله تعالى ، وأما تلك فذكرت فى سياق الاحتجاج أو من باب المشاكلة ، واسم الصفة لا بد أن يدل على السكمال بمجرد إطلاقه وليس هذا منه

وقد اتفق أهل الحق على أن أسماء وصفاته تعالى توقيفية ونصوا على إثبات

كل ما ورد في الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاء ووصفاته ، وإخباراً عنه ، وعلى منعه كل ما دل على منعه ، ومنه كل ما يسمى إلحاداً في أسمائه ؛ وكل ما يؤم نقصاً أو كان منافياً للكمال ولوصف الحسن . وقد منع جمهور أهل السنة كل ما لم يأذن به الشارع مطلقاً ، وجوز المعتزلة ما صح معناه ودل الدليل على اتصافه به ولم يوجب إطلاقه نقصاً ، والغلاسفة أوسع حربة في هذا الإطلاق . ومنه قول ابن سينا :

مدير الكل أنت القصد والغرض وأنت عن كل ما قد فاتنا عوض

من كان في قلبه مثقال خردة سوى جلالك ، ظالم أنه مريض

وقد عدوا عليه من إساءة الأدب قوله لخالفه : فاعلم

ذكر ذلك السفاريني في شرح عقيدته الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة ثم قال : ومال إليه - أي قول المعتزلة بالجواز - بمضى الأشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني وثوقف إمام الحرمين الجويني ، وفصل الغزالي فجوز إطلاق الصفة وهي ما دل على معنى زائد على الذات ومنع إطلاق الاسم وهو ما دل على نفس الذات ، واحتج للقول المعتمد « أنها توقيفية » بأنه لا يجوز أن يسمى النبي ﷺ بما ليس من أسمائه فالبارئ أولى . وتعلق المعتزلة بأن أهل كل لغة يسمونه سبحانه باسم يختص بلغتهم كقولهم (خدای) وشاع من غير تكبر ، ورد بأنه لو ثبت لسكان كافياً في الأذان الشرعي ، ونقل الألوסי في تفسيره سياق السفاريني إلى احتجاج المعتزلة بمدم ابتكار أحد من المسلمين على إطلاق الفرس (خدا) وزاد عليه اسم (تکرى) وهو تركي وكافه نون في النطق ؛ وقال إنهم ادعوا أن هذا إجماع ، وأنه لو ثبت لكان كافياً في الأذان الشرعي .

وأقول : إن لفظي خدا وتكرى هما الاسم العلم لرب العالمين وخالق الخلق ، وذلك من قبيل الترجمة لإسم الجلالة (الله) وليس من أخلاق اسم جديد عليه فيحتاج إلى نص أو دليل شرعي . ومثله ترجمة ما يمكن ترجمته من الأسماء والصفات وهو المشترك في اللغات ولا سيما الراقية منها ؛ كالفارسية فهو جائز بخلاف ترجمة ما لا يوجد له مرادف في غير العربية ، كالرحمن والقيوم - كما نعتقد - ومنع الغزالي في كتابه إلجم العوام ترجمة صفات الله في الكلام على التشابهات منها لما فيها من

خطر مخالفة مراده تعالى وقال ان بعضها لامرادف له في غير العربية ولبعضها مرادف في الحقيقة دون الجواز كاليد فهي تطلق في العربية على الجارحة من أعضاء الانسان، ولها عدة معان مجازية كالنعمة والقدرة والتصرف مثلاً وقد أضيفت إليه تعالى في مواضع قد تختلف معانيها كقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم بيده الملك) (بيدك الخير) (لما خلقت بيدي) (بل يدها مبسوطة) (فلا يمكن وضع كلمة ترجمة يد بالفارسية لتفسير هذه الآيات كلها. اه بالمعنى، وقد أوردت لفظه في تفسير الآيات المتشابهات من أول سورة آل عمران.

ثم إن الالوسي نقل موافقة القاضي الباقلاني للمعتزلة وذكر أن إمام الحرمين اعترضه بأنه قول بالقياس وهو حجة في العمليات دون الدلعيات والأسماء والصفات منها (قل) وروى بعضهم عنه التوقف. ثم ذكر قول الغزالي المتقدم وذكر أنه احتج له بإباحة الصدق واستحبابه، والصفة لتضمنها النسبة الظيرية راجعة إليه وهي لا تتوقف إلا على تحقيق معناها، بخلاف الاسم فإنه لا يتضمن النسبة الظيرية وأنه ليس إلا للابوين أو من يجري مجراهما (قال الالوسي) وأجيب بأن ذلك حيث لا مانع من استعمال اللفظ الدال على تلك النسبة — واخطر قائم — وأين التراب من رب الأرباب ؟ اه

وأقول : مثال ما ذكره وصفه تعالى بالعقل بناء على أنه هو الكمال في غرائز البشر ولم يرد به الشرع. ويدل على منعه من جهة النظر أيضاً أن معنى العقل في اللغة العربية يدخل فيه مادلت عليه مادته وهي عقل البعير، أي ربط ذراعه ووظيفته وشدها بالعقال (وهو بالكسر الخيل الذي يعقل به البعير وغيره) لمنعه من المشي، وذلك أن عقل الانسان من شأنه أن يعقله أي يمنعه مما لا ينبغي له، وهذا المعنى لا يليق بالباري سبحانه وتعالى، فعادة الغزالي في الصفات تقتضي تحكيم رأى كل أحد في وصف خالقه بما يراه هو حسناً أو كلاً. وقد يكون في رأى غيره ممن هم أعلم منه غير حسن ولا كلاً، وهذا ظاهر عقلاً لا نقلاً فالحق أن لا يتناقض عليه المؤمنون من الصفات إلا ما أذن به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ

(ح) ترك تسميته باسم به نفسه أو صفته عال، صفاته واهل أسانيدنا أناسهم

تعالى إلى نفسه من الأفعال — بناء على أن ذلك لا يليق به تعالى أو أنه يوم نقصاً في حقه عز وجل ، كأن هؤلاء الملمحين أعلم منه تباركت أسماؤه وجات صفاته ، وأعلم من رسوله صلواته عليه وسلامه — بما يليق به وما لا يليق ، وبما يوم نقص التشبيه أو غير التشبيه ، كامتناع بعض المبتدعة من ذكر بعض الآيات والأحاديث في صفات الله تعالى التي زعموا وجوب تأويلها في عقائدهم ودروسهم وعدم ذكرها في محاسنهم إلا مقرونة بالتأويل وادعاء أن معناها غير مراد . وقد خلا بعض الأشعرية في القرون الوسطى في التأويل غلو الجهمية والمعتزلة أو أشد ، حتى إن منهم من أغروا السلاطين بسجن شيخ الإسلام ابن تيمية لذكر هذه الآيات والأحاديث في كتبه ودروسه ، كصفة علو الله تعالى على خلقه ، ومنها اسم العلي والمتعال ، ومنها آيات الاستواء على العرش وأحاديث النزول من السماء ، وانتهى بهم الأمر إلى أن يطلبوا منه التوبة من ذكر هذه الآيات والأحاديث للعامة وإن يتعهد بذلك كتابة (١) . وهذا من أعاجيب تعصب المذاهب والغرور في تحكيم العقل أي الآراء النظرية في النصوص . وإن ادعاء أن بعض كلام الله وحديث رسوله مما يجب كتابته واستبدال نظريات بعض المتأخرين أمثالهم به لمطعن كبير في الدين ، وفي سلف الأمة الصالحين . وهذا النوع من الإلحاد هو غير التأويل للأسماء والصفات وهو القسم الآتي من الإلحاد فيها

(٤) تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضرور من التأويل ، تقتضي التشبيه أو التعطيل ، فالمشبهة ذهبت إلى جعل الرب القدوس الذي ليس كمثل شيء كرجل من خلقه ، زاعمة أنه وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك كالسمع والبصر والكلام والوجه واليد والرجل والضحك والرضا والغضب . والجهمية ذهبت إلى تأويل جميع صفات الله تعالى حتى جعلته كالعدم . وأهل السنة والجماعة الذين قال الله تعالى فيهم (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) هم الذين جمعوا بين العقل والنقل في تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله . وبين وصفه بما وصف به نفسه وتسميته بما سمي به نفسه وإسناد ما أسنده إلى نفسه من الأفعال ، كالاستواء على العرش والعلو على الخلق وغير ذلك . أمثروا

له كل ذلك مع كمال التنزيه، فقالوا : إن له رحمة ليست كرحمة المخلوق ، وغضباً لا يشبه غضب المخلوق ، واستواء على عرشه ليس كاستواء الملوك المخلوقين على عروشهم ، وانه تعالى علمنا بما بين لبنا من أسمائه وصفاته وأفعاله كل ما أوجب علينا أن نعلمه من عظمته وكماله وجلاله وجماله وأفعاله ، ولا يمكن بيان ذلك لنا إلا بالألفاظ التي نستعملها في شؤون أنفسنا ، وعلمنا مع ذلك أنه ليس كمثل شيء ، فعصمنا بهذا التنزيه ، أن يضلنا الاشتراك اللفظي فنقع في التشبيه .

(٥) اشراك غيره فيما هو خاص به من أسمائه باللفظ كاسم الجلالة (الله) والرحمن : ورب العالمين — وما في معناه من الإضافات كرب السماء والأرض ، والسموات والأرض ، أو رب الكعبة ، أو رب البيت — إذا أريد به الكعبة . قال تعالى (فليمجدوا رب هذا البيت) وأما إذا أضيف لفظ رب إلى بيت آخر من بيوت الناس في كلام يعينه فلا بأس ، كأن تقول وأنت في بيت أحد الناس وقد حضرت الصلاة : الامامة حق رب البيت ، أو ليؤمننا رب البيت . أو تقول لمن أراد أن يجلس في كرسي صاحب البيت أو على الحشية الخاصة به : هذه تكربة وب البيت ، وقد نهينا عن الجلوس عليها بدون إذنه . وقالوا : إن كلمة الرب معرفة خاصة به تعالى . ويترجح هذا القول حيث لا قرينة تصرف اللفظ إلى غيره .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في شرحه الحديث « لله تسعة وتسعون اسماً » من الفتح بحث انعقاد اليمين بجميع هذه الأسماء عند الحنفية والمالكية وابن حزم مطلقاً ثم قال : والمعروف عند الشافعية والحنابلة وغيرهم من العلماء ان الأسماء ثلاثة أقسام (أحدها) ما يختص بالله تعالى : كاسم الجلالة والرحمن ورب العالمين فهذا ينعمد اليمين به إذا أطلق ولو نوى به غيره (ثانيها) ما يطلق عليه وعلى غيره ولكن الغالب اطلاقه عليه وأن يقيد في حق غيره بضرب من التقييد كالجبار والحق والرب ونحوها ، فالحلف به يمين ، فإن نوى به غير الله فليس بيمين (ثالثها) ما يطلق في حق الله وحق غيره على حد سواء ، كالحي والمؤمن ، فإن نوى به غير الله أو أطلق فليس بيمين ، وإن نوى الله تعالى فوجهان . صحح النووي انه يمين ، وكذا في المحرر ، وخالف في الشرحين فصحيح أنه ليس بيمين ، واختلف الحنابلة فقالوا

القاضي أبو يعلى ليس يمين ، وقال الحمد ابن تيمية في المحرر : إنها عين اه
 (٦) اشراك غيره تعالى في معاني أسمائه الخاصة مع تغيير اللفظ كإطلاق لفظ
 (الوسيلة) على بعض الصالحين بمعنى أنه يدعى من دون الله أو مع الله سبحانه
 لقضاء الحاجات ، ورفع الكربات ، وكفاية المهمات ، من غير طريق الأسباب
 والمعادات ، كطلب ذلك من الأموات ، فلفظ الوسيلة هنا بمعنى (الإله) إذ
 معناه المعبود ، والدعاء مع العبادة وأعظم أركانها كما بينا مراراً ، أو (الرب)
 المدير للأمر على الإطلاق - فهذا الحاد في معاني أسماء الله تعالى لا في ألفاظها
 (٧) اشراك غيره في كمال أسمائه التسام الذي وصفته لأجله بالحسنى ، كمن
 يزعم أو يعتقد أن لغيره تعالى رحمة كرحمة ورأفة أو غير ذلك من معاني أسمائه
 كالجيب مثلاً ، قال تعالى (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي
 إذا دعان) وقال تعالى حكاية عن رسوله صلى الله عليه وسلم (ان ربي قريب مجيب)
 وإن بعض الذين يدعون غير الله من الموتى يعتقدون أنهم أقرب وأسرع في
 إجابتهم من الله تعالى فيجمعون بذلك بين الشركين : شرك دعاء غير الله مع
 اعتقاد إجابته للدعاء - والله يقول (٢٧ : ٢٣) أمن يجيب المضطر إذا دعاه
 ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟) أي لا يجيب المضطر إلا
 الله ، فهو الإله المستحق للعبادة وحده ، والكفر به بتفضيل غيره عليه سبحانه في سرعة
 الإجابة . وقد سمعت امرأة مصرية تدعو وتستغيث في أمراهما : يا متبولي !
 يا متبولي ... ! فقلت لها بعد أن هدأ روعها لماذا تدعين المتبولي ولا تدعين الله
 تعالى ؟ قالت : المتبولي ما يستنأش - أي لا يهمل ولا يتأخر في إجابة من دعاه
 واستغاث به - وذكر حكاية متناقلة بين أمثالها وهي : أن رجلاً كان قد سرق
 سمكة فسيخها كلها ، فخلقه صاحبها يميناً بالمتبولي ، فخلف به فقيأه الفسيخة ، واخل
 هذه الحكايات بتجراً أمثال هؤلاء على الخلف بالله تعالى كذباً ولا يتجرؤون على الخلف
 بمعتقدهم . وهذا نوع آخر من تفضيلهم إياهم على رب العالمين ، وهو من إلهاد الشرك
 الصريح ويزعمون معه أنهم من المسلمين ، ويتأول لهم علماء الجود المضلين : وينتزون
 من أنسك عليهم بلفظ هاسن ، ويعتقون هذا اللقب وإن صار بمعنى الموحدين :

(١٨١) وَمِنْ خَلْقَنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨٢)
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٣)
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا؟ مَا بِصَاحِبِهِمْ
مِنْ حِنَّةٍ . إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٥) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي
مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى
أَنْ يَكُونُوا قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ؟ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ؟
(١٨٦) مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ؛ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

بعد الانتهاء من قصة موسى مع قومه التي ختمت بها قصص الرسل من هذه
السورة بين الله تعالى لنا في بضع آيات منها شيئا من شؤون البشر العامة في الايمان
والشرك والتهدى والضلال ، وما لفساد الفطرة واهمال مواهبها من العقل والحواس
من سوء امال ، وارشدنا في آخرها الى ما يصلح فساد الفطرة من دعائه باسمائه
الحسنى ، والى ما للاتحاد فيها من سوء الجزاء في العقبى . ثم قفى على هذه البضع
الآيات ببضع آيات أخرى في شأن الامة الحمديّة بدأها بوصف أمة الاجابة ،
وفنى بذكر المكذبين من أمة الدعوة ، وثلت بتفنيد ما عرض لهم من الشبهة ،
فالارشاد الى التفكير الموصول الى فقه الامور وما فى حقائقها من العبرة ، وإلى النظر
الهادى الى ما أخذ البرهان والحجة ، لمعرفة صدق الرسول وما فى القرآن من الهداية
والعلم والحكمة ، فالوعظة الحسنة المؤثرة فى النفس المستعدة بالتذكير بقرب الاجل ،
والاحتياط للقاء الله عز وجل ، وختمها ببيان عدم الطمع فى هداية من قضت سنة
الله بضلاله ، وتركه يعمه فى طغيانه . قال تعالى

﴿ وَمِنْ خَلْقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة
(ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والانس) وكناتهما تفصيل لاجمال قوله تعالى
(من يهد الله فهو المهتدى) الخ بدأه ببيان حال من أضلهم وهم الذين أهملوا
« تفسير القرآن الحكيم » ٢٩٥ « الجزء التاسع »

استعمال قلوبهم وأبصارهم واسماهم في فقه آيات الله ، وانهم كثيرون ، ولكنه ما سماهم أمة ، لانهم لا يجتمعهم في الضلال جامعة ، ولان الباطل كثير وسبيله متفرقة . ثم ذكر هنا حال من هداهم الله تعالى وهو أنهم أمة أى جماعة كبيرة ، مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة ، يهودون بالحق وبه دون غيره يعدلون ، فسيلهم واحدة لان الحق واحد لا يتعدد ، هؤلاء هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد تقدم تفسير هذا التركيب في قوله تعالى من هذه السورة (٧ : ١٥٨) ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فليراجع فهو قريب ^(١) فهاتان الآيتان متقابلتان لقرب الشبه بين أمة موسى وأمة محمد عليهما الصلاة والسلام . كقرب الشبه بينهما وقد تقدم بيانه أيضاً ^(٢) وانما قال (ومن خلقنا) إلح لمناسبة قوله في مقابله (ولقد ذرأنا) أى خلقنا ، فهناك يقول ذرأنا لهم من صفتهم كذا ، وهنا يقول ومن خلقنا أى للجنة أمة صفتهم كذا وكذا .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله تعالى (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق) قال ذكر لنا أن النبي ﷺ قال « هذه أمتي ، بالحق يحكمون ويقضون ، ويأخذون ويعطون » وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فيها قال : بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأها « هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها) ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : لتفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الا فرقة : يقول الله (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهذه هي التي تنجو من هذه الامة . اهـ . ومعلوم ان الشق الاول من هذا الاثر مرفوع الى النبي ﷺ فذكره على رضى الله عنه ليفسر به الفرقة الناجية . وقد فسرها النبي ﷺ في بعض الروايات بانها هي التي تستقيم على ما كان عليه ﷺ هو وأصحابه ، ومعنى التفسيرين واحد في مآلها والمراد منه أمة الاجابة لدعوته ﷺ . ثم ذكر حال المكذبين من أمة الدعوة فقال :

﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ الاستدراج مأخوذ من الدرج مصدر درج ، أو من الدرجة وهي المرقاة ، يقال درج الكتاب والثوب وأدرجه إذا طواه . ويعبر بالدرج وهو المصدر عن المدرج أي المطوى ، ويقال درج فلان بمعنى مات ، وهذه آثار قوم درجوا أي اقرضوا ، جملة الراغب مجازاً بالاستعارة ، ولكن الزمخشري ذكره في حقيقة الأساس وقل واستدرجه . رقا من درجة إلى درجة ، وقيل استدعى هلكته ، من درج إذا مات . وقل الراغب في «سنستدرجهم» من الآية : قيل معناه سنطويهم طي الكتاب عبارة عن إخفائهم نحو (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) وقيل معناه سنأخذهم درجة بعد درجة وذلك إتناؤهم من الشيء شيئاً فشيئاً كالمرابي والمنازل في ارتقيها ونزلها .

أقول : والمراد على هذا أنهم يسترسلون في غيهم وضلالهم ، من حيث لا يدرون شيئاً من عاقبة أمرهم ، لجهلهم سنن الله تعالى في المنازعة بين الحق والباطل ، والمصارعة بين الضار والنافع ، وكون الحق يدفع الباطل ، وما ينفع الناس يصبر ما يضرهم ، كما قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) وقوله تعالى (فأما الزبد فذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .

وأما المعنى على القول الأول فهو إنذار لهم بهذه العاقبة وهو أن الله تعالى سيأخذهم بالعقاب وينصر رسوله عليهم ، ولكن بالتدرج وكذلك كان .

والجمع بين معني الاستدراج جائز هنا لظهوره فيمن نزل فيهم أولاً وبالذات وهم كفار قریش الجاحدون والمبالغون في عداوة النبي ﷺ فقد كانوا مغترين بكبرتهم وثروتهم لا يمتدون به ولا يغيرون آمن به أولاً وأكثرهم من الضعفاء النقرأ فما زالوا يتدرجون في عداوتهم له وقتلهم إياه حتى أظهره الله تعالى عليهم في غزوة بدر فلم يمتدحروا ، ثم زادهم غروراً ظهورهم في آخر معركة أحد وقل قئدهم أبو سفيان يوم بيوم بدر — إلى أن كان الفتح الأعظم ، فهذا كله استدراج بمعنى التنقل في مدارج الغرور ، وبمعنى أخذ الله إياهم وإظهار رسوله ﷺ ومن اتبعه عليهم من حيث لا يعلمون سننه تعالى في هذا ولا ذاك .

وقد فسر السدي الاستدراج بالمعنى الثاني فجعله خاصاً بأخذهم في غزوة بدر

وفسر بعض المتقدمين الاستدراج بمعناه العام في اللغة كإغترار العصاة بالنعم التي تنسيهم التوبة وتلهيهم عن شكر النعم ، واقتصارهم عليه غفلة عن سبب النزول ومن أنزل فيهم . فهو كقوله تعالى في سورة القلم (٦٨ : ٤٤) فذرني ومن يكذب بهذا الحديث مستندرجهم من حيث لا يعلمون) وفقى عليها بمثل ما هنا . . . والسورتان مكيتان . وهو قوله تعالى :

﴿ وأملئ لهم إن كيدى متين ﴾ الاملاء الامداد في الزمن والامهال والتأخير مشتق من الملاء والملازة ، وهي الطائفة الطويلة من الزمن ، والمألوان الليل والنهار قال الراغب وحقيقته تكررها وامتدادها ، يقال أملئ له إذا أمهله طويلاً . وأملئ للبعير إذا أرخى له الزمام ووسع له في القيد ليتسع له المرعى . (واهجرني ملياً) أى زمتنا طويلاً . والملا بالقصر المفازة الواسعة الممتدة ، وأما الاملاء للكاتب بمعنى تلمينه ما يكتب فأصله أملل . فهو ليس من هذه المادة

والكيد كالمكر هو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره بحيث يتخدع المكيد له بمظهره فلا يظن له حتى ينتهي إلى ما يسوءه من مخبره وغايته ، وأكثره احتيال مذموم ، ومنه الحمود الذي يقصد به المصلحة ، ككيد يوسف لأخيه الشقيق من إخوته لأبيه برضاهم ومقتضى شريعتهم ، ولذلك أسند وأضيف إلى الله عز وجل في مثل هذين الموضعين . والجمهور على أن إضافة الكيد والمكر أو إسنادهما إليه تعالى في القرآن من باب المشاكلة أو تناول بمعنى العقاب والجزاء وما بيناه أدق ، والمئين القوى الشديد ومعنى الآية : وأهل هؤلاء المكدين المستدرجين في العمر وأمد لهم في أسباب

العيشة والقدرة على الحرب بمقتضى سننى في نظام الاجتماع للبشر كيداً لهم ومكرّاً بهم ، لاجباً فيهم ونصراً لهم ، (٢٣ : ٥٥) فذرهم في غمرتهم حتى حين ٥٦ أيجسبون أن ماتمدهم به من مال وبنين ٥٧ نساوع لهم في الخيرات ؟ بل لا يشعرون) وان تسأل عن كيدى فهو قوى متين . قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبى موسى « إن الله ليلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » فمعنى هذا الإملاء أن سنة الله تعالى في الأمم والأفراد قد مضت بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق ، فالخذول إذا بقي وظلم ولم ينزل به العقاب الإلهي عقب ظلمه يزداد

بغيا وظلما ولا يحسب للعواقب حسابا فيستمرسل في ظلمه إلى أن تحيق به عاقبه
فذلك يأخذ الحسكاه له أو بتورطه في مهلكة أخرى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى
وفد نقلنا في أوائل هذا التفسير عن شيخنا الأستاذ الامام أن عذاب الأمم
في الدنيا مطرد ، وأما عذاب الأفراد فقد يتخلف ويرجأ إلى الآخرة . وحقنا في
مواضع أخرى أن عقاب الأمم وبعض عقاب الأفراد أثر طبيعي لذنوبهم ، فالأمم
والشعوب الباغية الظالمة لا بد أن يزول سلطانها وتداول دولتها ، والسكر والزنا
لا يسلطان من الأمراض التي سببها السكر والزنا . والمقامر قلما يموت إلا فقيراً . مدامالح
وفد سردنا الشواهد في مواضع أخرى على عقاب الأمم من الآيات التي
صدقها شواهد التاريخ الماضي والحاضر وستصدقها في المستقبل ، وما كانت
الحرب الأخيرة العظمى إلا بعض عقاب الله تعالى للذين صالوا نارها بغيرهم وفسدوهم ،
وسمروا ما هو شر منها إذا لم يرجعوا عن غيهم

بعد هذا أرشدكم إلى المخرج من أكبر شبهة لهم على الرسالة فقال عز وجل
﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حُنَّةٍ ﴾ الجنة بالسكسر النوع الخاص من
الجنون ، فهو اسم هيئة ، واسم للجن أيضا ولا يصح هنا إلا بتقدير مضاف ، أي
من مس حنّة — وقد حكى الله تعالى عن قوم نوح أول رسله إلى قوم مشركين أنهم
اتهموه بالجنون فقالوا بعد قولهم انه بشر مثاهم يريد أن يتفضل عليهم (٢٣: ٢٥)
ان هو إلا رجل به حنّة فتر بعوا به حتى حين) وفي سورة القمر عنهم (٥٣: ٩) كذبت
قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدا وقالوا بجنون وازدجر) وفي سورة الشعراء حكاية عن
فرعون لعنه الله في موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم (٢٦: ٢٦) قال إن رسولكم
الذي أرسل إليكم لمجنون) وقال تعالى عنه في سورة الذاريات (٥١ : ٣٩) فتولى
بركته وقال ساحر أو مجنون) ثم بين تعالى في هذه السورة أن جميع الكفار كانوا
يقولون هذا القول في رسلهم فقال (٥٢) كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول
إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٣) أتواصوا ، بل هم قوم طاغون .

وفي معنى آية الاعراف في خاتم النبيين والمرسلين عدة آيات (منها) قوله
تعالى في كفار مكة من سورة المؤمنين (٦٣: ٦٩) أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات

آبائهم الأولين ؟ (٧٠) أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ (٧١) أم يقولون به
 جنة ؟ بل جاءهم الحق وأكفرهم للحق كارهون) ومثله في سورة سبأ (٧ : ٣٤) وقال الذين
 كفروا هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خاق جديد ؟
 (٨) أنترى على الله كذبا ، أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب
 والضلال البعيد) ثم قال فيها (٤٦ : ٤٦) قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى
 وفرادى ثم تتفكروا : ما بصاحبكم من جنة ، أن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب
 شديد) وهذه شبيهة بآية الاعراف . وفي أول سورة الحجر (١٥ : ٦) وقالوا
 يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون (٧) لو ما تأتينا بالملأكة إن كنت من
 الصادقين) وفي سورة الصافات (٣٧ : ٣٥) ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر
 مجنون) وفي سورة الطور من الرد عليهم (٥٢ : ٢٧) فذكر ، فما أنت بنعمة ربك
 بكاهن ولا مجنون) ومثله (٦٨ : ١) ن والقلم وما يسطرون (٢) ما أنت بنعمة
 ربك مجنون) وفي آخرها (٥١) ويقولون انه لمجنون (٥٢) وما هو إلا ذكر العالمين)
 وفي سورة التكاوير بعد وصف ملك الوحي (٨١ : ٢٢) وما صاحبكم بمجنون)
 روى أبناء حميد وجريرو والمفسر وأبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر
 لنا أن نبي الله ﷺ قام على الصفا فدعا قريشاً فخدأ فخدأ : يا بني فلان يا بني
 فلان يحدركم بأس الله ووقع الله إلى الصباح حتى قل قائلهم : إن صاحبكم
 هذا لمجنون . بات يهوت (أى يصيح) حتى أصبح . فأنزل الله (أو لم يتفكروا
 ما بصاحبهم من جنة)

قد علمنا بما سبق أن جميع الكفار كانوا يرسلون برسولهم بالجنون لأنهم ادعوا
 أن الله تعالى خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشرأ كغيرهم لا يمتازون على سائر
 الناس بما يفوق أفق الانسانية ، كما علم من نشأتهم ومعيشتهم ، ولأنهم ادعوا ما لا
 يعهد له عندهم نظير ، وليس مما تصل إليه عقولهم بالتفكير ، وهو أن الناس يبعثون
 بعد الموت والبلى خلفاً جديداً ، ولأن كلا منهم كان يدعى أن الناس مخطئون وهو
 المصيب ، وضالون وهو المهتدي ، وخاسرون وهو المفلح ، إلا من اتبعه منهم -
 ولأنهم نهوا عن عبادة الآلهة وأنكروا أنها بالدعاء والتعظيم والنذور لها تقرب

المتوسلين بها إلى الله زانق وتشفع لهم عنده ، وأثبتوا أن الشفاعة لله وحده لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، من رضى له لمن رضى عنه ، فلا استقلال له إلا بالآلة بالشفاعة عنده لمن توسل بهم - وشرعوا أنه لا يدعى مع الله أحد من ملك كريم ، ولا صالح عظيم ، فضلاً عن صوره وتماثيلهم المذكورة بهم ، وقبورهم المشرفة برفاتهم ، مع أن المذنب العاصي لا يليق به في رأى المشركين أن يدعو الله تعالى بغير واسطة ولا وسيلة لتدخسه بالذنوب ، فيحتاج إلى من يقر به إليه من أولئك الطاهرين ، وشبهتهم أن الملوك العظام في الدنيا لا يدخل أحد عليهم إلا بإذن ووزرائهم وحجابه . ومن الغريب أن هذه الشبهة الشركية لا تزال متسلسلة في جميع المشركين ، حتى من أشرك من أهل الكتاب والمسلمين ، الذين خالفوا نصوص الكتب الالهية وسنة الرسل إلى أعمال الوثنيين . ولا يرون بأساً في تشبيه رب العالمين وأرحم الراحمين ، بالملوك الظالمين المستبدين .

وأما معنى الآية فالاستفهام فيه للانكار والتوبيخ وهو داخل على فعل حذف للعلم به من سياق القول كما تقدم في أمثاله والتقدير : أ كذبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من أول نشأته ، وفي حقيقة دعوته ، ودلائل رسالته ، وآيات وحدانية ربه ، وقدرته على إعادة الخلق كما بدأهم وحكمته في ذلك -- فان حذف معمول التفكير يؤذن بسموم ما يدل عليه المقام مما تقتضيه الحال كما هي القاعدة المعروفة في علم المعاني - ألا فليتفكروا ، فال مقام مقام تفكير وتأمل ، انهم ان تفكروا أو شك أن يعرفوا الحق ، وما الحق ؟ (ما بصاحبكم من جنة) جملة مستأنفة لبيان الحق في أمر الرسول نقياً وإثباتاً ، فهي نافية لما رموه به من الجنون ، كقوله تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وقوله (وما صاحبكم بمجنون) ومثلها آية سبأ (ثم تفكروا : ما بصاحبكم من جنة) ولذلك ختمنا بنفي كل صفة عنه في موضوع رسالته إلا كونه منذراً مبيناً عن ربه ، فقال هنا ~~ان~~ هو إلا نذير مبين ~~في~~ الانذار بعلم وارشاد مقترن بالتخويف من مخالفته أى ليس بمجنون ، ليس إلا منذراً واضحاً ومبيناً عن الله مبيناً ، يذكركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة إذا لم تستجيبوا له ، وقد دماكم لما يحبيكم في الدنيا بجمع كلنكم ، واصلاح أفرادكم وجمتمعكم والسيادة على غيركم ، ويحييكم في الآخرة بلفاء ربكم . وقال هناك (ان هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)

وقد عبر عنه في هاتين الآيتين وفي آية التذكير بالصاحب لهم لتذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته إلى أن تجاوز الأربعين من عمره ، فما عليهم إلا أن يتفكروا حق التفكير في سيرته الشريفة المعقولة ليعلموا أن الشذوذ وبجافة المعتقد ليس من دأبه ولا مما عهد عنه ، وكذلك الكذب كما قال بعض زعمائهم من أهل مكة : إن محمداً لم يكذب قط على أحد من الناس أفيكذب على الله ؟ وقد قال تعالى في أولئك الزعماء (فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

وقد بينا في تفسيرنا هذا شبهة المشركين على الرسل بكونهم بشرأ مع الرد عليها^(١) كذلك شبهاتهم على البعث مع الرد عليها^(٢)

ولو تفكر مشركو مكة في نشأة النبي ﷺ وأخلاقه وآدابه وما جربوا من أمانته وصدقه من صبوته إلى أن اكتمل ، ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد الله بعبادته وحده ومن كونه حكماً في خلقه السموات والأرض بالحق تقتضى تنزهه عن العيب (ومنه) أن يكون هذا الانسان السميع البصير العاقل البصير عن حقائق الأشياء من ماض وحاضر وآت ، ينتهي وجوده بالعدم المحض الذي هو في نفسه محال ، ثم لو تفكروا في سوء حالهم الدينية (كعبادة الأصنام) والأدبية والمدنية والاجتماعية وما دعاهم إليه من اصلاحها كلها — لعلموا ان هذا الاصلاح الديني والأدبي والاجتماعي والسياسي لا يتم إلا السيادة والسعادة ، وأنه لا يمكن أن يكون مصدره جنون من دعا إليه ، بل إذا كان فيه شيء غير معقول فهو أنه لا يمكن أن يكون هذا العلم العالي والاصلاح الكامل من رأى محمدين عبد الله الأسمى الناشئ بين الأميين — ولأن تكون هذه البلاغة المعجزة للبشر في أسلوب القرآن ونظمه من كسب محمد الذي بلغ الأربعين ولم ينظم قصيدة ولا ارتجل خطبة — وأن هذه الحجج البالغة على كل ما يدعو إليه القرآن ، والبراهين العقلية والعلمية الكونية لا يتأتى أن تأتي فجأة من ذي عزلة لم ينظر ولم يفاخر ولم يجادل أحداً فيما مضى من عمره كمحمد بن عبد الله — فاذا تفكروا في هذا كله جزوا بأن هذا كله وحى من الله تعالى

(١) راجع ص ٢٠٩ و ٣١٥ من ج ٧ تفسير وص ٢٧٨ و ٤٩٥ ج ٨ منه

(٢) راجع ص ٣٥٧ ج ٧ تفسير وص ٢٨٣ و ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨ منه

ألقاه في روعه ونزل من لدنه على روحه، وعلّموا أن استبعادهم لذلك جهل منهم، فألّه تعالى القادر على كل شيء يختص برحمته من يشاء. لهذا حثهم على التفكير في هذا المقام من هذه السورة وغيرها، وذكر بعدها كونه نذيرا مبينا، ونذيرا بين يدي عذاب شديد.

ثم إنه دعاهم بعد هذا إلى النظر والاستدلال العقلي فقال:

﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء؟ وأن عسى أن يكون قدام أجبهم﴾ الملكوت الملك العظيم كاتدل عليه صيغة (فعلوت) والمراد بملكوت السموات والأرض مجموع العالم لأن الاستدلال به على قدرة الله تعالى وصفاته ووحدانيته أظهر، فإن العالم في جلته لا يمكن أن يكون قديما أزليا ولا نزاع بين علماء الكون في إمكانه ولا في حدوث كل شيء منه وإنما يخجلون في مصدره وهم وجد. وهو لا يمكن أن يكون من عدم محض. لأن عدم المحض لاحقيقة له في الخارج بل هو أمر فرضي، فلا يمكن أن يصدر عنه وجود. ولا يمكن أن يكون بعضه قد أوجد البعض الآخر، وهذا يديهي ولذلك لم يقل به أحد، فلا بد إذا من أن يكون صادرا عن وجود آخر غيره، وهو الله واجب الوجود. ثم إن هذا النظام العام في الملكوت الأعظم يدل على أن مصدره واحد وتدبيره راجع إلى علم عليم واحد وحكمة حكيم واحد، سبحانه وتعالى (أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض؟ بل لا يوقنون)

ومعنى الآية: أكذبوا الرسول المشهور بالأمانة والصدق، وقالوا: إنه لجنون وهو المعروف عندهم بالبرية والعقل، حتى جعلوا تحكيمه في تنازعهم على رفع الحجر الأسود هو الحكم الفصل. ولم ينظروا نظر تأمل واستدلال في مجموع ملكوت السموات والأرض على عظمته، والنظام العام الذي قام بجلته، وما خلق الله من شيء في كل منهما وإن دق وصغر، وخفي واستتر، نفى كل شيء من خلقه له آية تدل على علمه وقدرته، ومشيتته وحكمته، وفضله ورحمته، وكونه لم يخلق شيئا عبثا، ولا يترك الناس مدى. تدل على ذلك بوجود ذلك الشيء بعد أن لم يكن، وبترجيح كل وصف من أوصافه على ما يقابله، بما فيها من فائدة ومنفعة، فكيف بالملكوت الأعظم في

جهلته ، والنظام البديع الذي قام هو به ؟ أكذبوا وقالوا ما قالوا ولم ينظروا في العالم الأكبر ، ولا في ذرات العالم الأصغر ، نظر تأمل واعتبار ، وتفكر واستدلال ، ولا فيما عسى أن يكون عليه الشأن من اقتراب أجلمهم ، وقدمهم على الله تعالى بسوء عملهم فأجل الافراد مهما يطل فهو قصير ، ومهما يبعد أجلمهم فيه فهو في الحق الواقع قريب ولو نظروا في الملكوت أو في شيء ما منه ، واعتبروا بخلق الله تعالى إياه ، لاهتدوا بدلائله إلى تصديق الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، ولو نظروا في وقوع قرب أجلمهم لاحتطأوا لأنفسهم ورأوا أن من العقل والروية أن يقبلوا إنذاره ﷻ لهم . لأن خير بته لهم في الدنيا ظاهرة لم يكونوا ينكرونها ، وأما خير بته في الآخرة فهي أعظم إذا صدق ما يقرره من أمر البعث والجزاء ، وهو صدق وحق ، وإن صح إنكارهم له -- وما هو بصحيح -- فلا ضرر عليهم من الاحتياط له ، كما قال الشاعر :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت : إليكما إن صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي فالتسار عليكما فالجنون إذا من بترك ما فيه سعادة الدنيا باعترافه ، وسعادة الآخرة ولو على احتمال لا ضرر في تخلفه ، لامن يدعو إلى السعادتين ، أو إلى شيئين يحزمون بأن أحدهما نافع قطعاً والآخر إما نافع وإما غير ضار . هذا مادعاهم إليه صاحبهم بكتاب ربهم مؤيدا بالبراهين العقلية والعلمية ، لعلمهم يعقلون ويعلمون .

﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ وردت هذه الآية بنصها في آخر سورة المرسلات (٧٧) التي أقيمت فيها الدلائل على البعث والجزاء وتهديد المكذبين بالويل والهلاك بعد تقرير كل نوع منها . وورد في الآية الخامسة والثلاثين من سورة الجاثية (٤٥) بعد التذكير بآيات الله للؤمنين وآياته لقوم يوقنون وآياته لقوم يعقلون قوله : (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟) والحديث في الجميع كلام الله الذي هو القرآن ، يدل عليه هنا قوله تعالى في رسوله (إن هو إلا نذير مبين) وفي آية المرسلات القرينة في تهديد المكذبين له . وفي آية الجاثية افتتاح السورة بذكر الكتاب فيكون معناها فبأى حديث بعد كتاب

الله المذكور في الآية الأولى وآياته المشار إليها بعدها يؤمنون ؟
 والمراد أن محمداً رسول الله ﷺ نذير مبين عن الله تعالى وإنما أنذر الناس
 بهذا الحديث أي القرآن كما أمره أن يقول (٦ : ١٩) وأوحى إلى هذا القرآن
 لا نذركم به (من باغ) وهو أكل كسب الله بيانا ، وأقواها برهاناً ، وأقهرها
 سلطاناً ، فمن لم يؤمن به فلا مطمع في إيمانه بغيره ، ومن لم يؤمن بالله الماء النقاخ
 المبرد فأى تنبيه رويه ؟ ومن لم يبصر في نور النهار في أى نور يبصر ؟ ثم قال تعالى
 ﴿ من يضل الله فلا هدى له ﴾ هذا استئناف بياني مقرر لجملة هذا السياق ،
 ومعنى الجملة المراد أن الله تعالى قد جعل هذا القرآن أعظم أسباب الهداية وإنما
 جملة هدى للمتقين لالجاهدين المعاندين ، وجعل الرسول المبلغ له أكل الرسل
 وأقواهم برهاناً في حاله وعقله وإخلاقه وكونه أمياً — فمن فقد الاستعداد للإيمان
 والهدى بهذا الكتاب ، على ظهور آياته وقوة بينات ، وبهذا الرسول المنجى به —
 فهو الذي أضله الله ، أى قضت سنته في نظام خلق الإنسان ، وارتباط المسببات
 في أعماله بالأسباب ، بأن يكون ضالاً راسخاً في الضلال ، وإذا كان ضلاله بمقتضى
 سنن الله ، فمن يهديه من بعد الله ؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير سنته ولا تبديلها
 ﴿ ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أى وهو تعالى يترك هؤلاء الضالين في طغيانهم
 كالشيء اللقا الذي لا يبالي به حالة كونهم يعمهون فيه أى يترددون تردد الحيرة والغمة
 لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، وفي هذا بيان لسبب ضلالهم من كسبهم ، وهو
 الطغيان أى تجاوز الحد في الباطل والشر من الكفر والظلم والفجور الذي ينتهي
 بالعمه ، وهو التردد في الحيرة والارتباك في الغمة ، وقد روعي في أفراد الضمير
 أولاً لفظ من « يضل » وفي جمعه آخرها معناها وهو الجمع ، ونظائره كثيرة

وقد علم مما قررناه أن إسناد الاضلال إلى الله تعالى ليس معناه أنه أجبرهم
 على الضلال إجباراً ، وأمحزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم اضطراراً لا اختياراً
 بل معناه أنهم مارسوا الكفر والضلال وأسرفوا فيها حتى وصلوا إلى حد العمه
 في الطغيان ، ففقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضادها من الهدى والإيمان
 وقرأ حمزة والكسائي يذرهم باسكان الزاء ، فمقل هو للتخفيف وقيل للاعراب
 بالمطف على جواب الشرط ، وقرأه بعض القراء بالمتون على الالتفات

﴿ تحقيق معنى الفكر والتفكر والنظر العقلي ﴾

من تحقيق المباحث اللغوية في الآيات كلتا التفكر والنظر العقلي وقد عرفت
 بالتفكر في موضوع استبانة كون النبي ﷺ ليس بمجنون كما زعم بعض عوامهم ، وبالنظر
 في جملة المملوكات وجزيئاته في موضوع الايمان بما جاء به الرسول من كتاب الله
 تعالى ، فبين ذلك بما تظهر به نكتة الفرق بين التعبيرين . ويتجلى تفسير الآيتين
 الفكر بالكسر عبارة عن التأمل في المعاني وتدبرها وهو اسم من فكر
 يفكر فكراً (من باب ضرب) وفكر بالتشديد وتفكر ، ومثله الفكرة والفكري .
 وفسروه أيضاً بإعمال الخاطر وإجابته في الأمور ، وقال الراغب : الفكرة مطرقة
 للعلم إلى المعلوم . والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل ولا يقال
 إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب ولهذا روى « تفكروا في آلاء الله ولا
 تفكروا في الله » إذ كان مفزها أن يوصف بصورة . ثم أورد الشواهد من الآيات
 ومنها آية الاعراف هذه . ثم قل عن بعض الأدباء أن الفكر مغلوب عن الفكر
 لكنه يستعمل في المعاني ، وهو فرك الأمور وبحسبها طلباً للوصول إلى حقيقتها اه
 وقال علماء المنطق : الفكر ترتيب أمور معلومة للتوصل إلى مجهول تصوري أو
 تصديقي ، وهو يتألف الحكم على ظواهر الأشياء أوفيهما بادي الرأي من غير تحصيل
 ولا تقدير ، واستعمال القرآن للتفكر والتفكير يدل على أنهما في العقلات المحضة أوفى
 العقلات التي مبادئها حسيات ، فالإنسان يفكر فيما ينبغي أن يقوله في المواقف التي
 تميز الأقوال ، وفيما ينبغي أن يفعله حيث تقتضد الأفعال ، ويفكر في أقوال الناس
 وأفعالهم ، ويفكر في الأمور الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية ، ويفكر أيضاً
 في المبصرات كالمسموعات والمعتولات ، وأكثر ما استعمله التنزيل في آيات الله
 ودلائل وجوده ووحدانيته وحكمته ورحمته

وأما النظر فقد قال الراغب في تعريفه : هو تفليص البصر أو البصيرة في
 إدراك الشيء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص وقد يراد به المعرفة الحاصلة
 بعد الفحص وهو الروية ، يقال : نظرت فلم تنظر ، أي لم تأمل ولم تترو ، وقوله تعالى

(قل انظروا ماذا في السموات والأرض) أى تأملوا . واستعمال النظر في البصر أكثر عند العامة ، وفي البصيرة أكثر عند الخاصة . اهـ وقد اختلف علماء المعقول من المناطق المتكلمين في الفكر والنظر هل هما مترادفان أو أحدهما أخص من الآخر؟ ولم كلام طويل في ذلك أكثره اصطلاحى غير مقيد باستعمال اللغة . واستعمال القرآن يدل على أن النظر العقلى مبدأ من مبادئ الفكر والتفكير ، كما أن مبدؤه هو النظر الحسى فى الغالب كقوله تعالى (أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت ؟) الخ وقوله (أفلم ينظروا إلى السماء فوهم كيف بنيناها ؟) الخ ومنه النظر فى عاقبة الأمم بروية آثارها فى عدة آيات والشواهد على ذلك فى التنزيل . مصروفة فلا تظيل فى سردها . والآيات التى نحن بصدد تفسيرها جمعت بين المبدأ الحسى وهو ملكوت السموات والأرض والمبدأ الفكرى وهو اقتراب الأجل ، وهما وما فى معناهما يدلان على بناء الدين الإسلامى على قاعدة : النظر العقلى والتفكير اللذين يمتار بهما الأفراد والأمم بعضها على بعض والله أعلم وأحكم

(١٨٧) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ : أَيَّانَ مُرْسِيهَا ؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ ؛ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً . يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَافِيٌّ عَنْهَا ؛ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنها ارشاد إلى النظر والتفكير فى أمر الساعة التى ينتهى بها أجل جميع الناس ، فى أثر الإرشاد إلى النظر والتفكير فى اقتراب أجل من كانوا فى عصر التنزيل وعهد نزول هذه السورة منهم ، وبعبارة أخرى أنها كلام فى الساعة العامة ، وبعد الكلام فى الساعة الخاصة . قال تعالى :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ الساعة فى اللغة جزء قليل غير معين من الزمان ، وتسمى ساعة زمانية ، ومنه قوله تعالى فى أوائل هذه السورة (٣٣)

لا يستأخرون عنه ساعة) وفي اصطلاح الفلكيين جزء من ٢٤ جزءاً متساوية من اليوم واللييلة ، وهي تنقسم إلى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية - وقد صار هذا التقسيم عرفاً عاماً في جميع البلاد الحضرية يضبط بأكة تسمى الساعة ، وكان معروفاً عند العرب ، وثبت في الحديث « يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة » يعنى نهارها . وفي لسان العرب : الساعة جزء من أجزاء الليل والنهار والجميع ساعات وساع وجاءنا بعد سماع من الليل وبعد سماع أى بعد هذه منه - أو بعد ساعة . والساعة الوقت الحاضر ، وقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) يعنى بالساعة الوقت الذى تقوم فيه القيامة فلذلك ترك أن يعرف أى ساعة هى . فان سميت القيامة ساعة فعلى هذا ، والساعة القيامة . وقال الزجاج اسم للوقت الذى يصمق فيه العباد والوقت الذى يبعثون فيه وتقوم فيه القيامة ، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى التى ذكرها الله عز وجل فقال (إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون)

ثم ذكر أنه تكرر ذكرها فى القرآن والحديث وإنما تطلق فى الأصل بمعنىين وهما ما ذكرنا أولاً من الساعة الزمانية والساعة الفلكية ، وقال فى المعنى الأول : يقال جلست عندك ساعة من النهار أى وقتاً قليلاً منه ثم استعير لاسم يوم القيامة . قال الزجاج : معنى الساعة فى كل القرآن الوقت الذى تقوم فيه القيامة - يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم ، فقليلة الوقت الذى تقوم فيه سماها ساعة اه أقول : الصواب أنها استعملت فى القرآن منكراً بمعنى الساعة الزمانية ومعرفة بالالف واللام العهدية بمعنى الساعة الشرعية ، وهى ساعة خراب هذا العالم وموت أهل الارض ، وجمع بينهما فى قوله تعالى (٣٠ : ٥٤ و ٥٥ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون : ما لبثوا غير ساعة) وقيل أن هذا القول هو وجه تسميتها بالساعة . والغالب فى استعمال القرآن التعبير بيوم القامة عن يوم البعث والحشر الذى يكون بعد الموت الذى يكون فيه الحساب وما يتلووه من الجزاء - والتعبير بالساعة عن الوقت الذى يموت فيه الاحياء فى هذا العالم ويضطرب نظامه ويخرب بما يكون فيه من الأهوال يتلو بعضها بعضها فالساعة هى المبدأ والقيامة هى الغاية ، وفى الأولى

الموت والهلاك ، وفي الآخرة البعث والجزاء . و بعض التفسيرات في كل منها يحتمل حلوله محل الآخر في الغالب ، وفي المعنى المشترك الذي يعم المبدأ والغاية . وحل بعض المفسرين الآيات على القيامة الضغرى لكل فرد وهي ساعة موته ، وزاد بعضهم القيامة الوسطى وهي هلاك الجيل أو القرن ، وفسروا به حديث « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة » رواه البخارى من حديث أبى هريرة . وقد يراد بالساعة هنا ساعة زوال الدولة لأن هذا من شؤونها واستدلوا عليه بحديث « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » رواه الديلمى عن أنس مرفوعاً . وفي حديث عائشة من صحيح مسلم : كان الأعراب يسألون رسول الله ﷺ عن الساعة فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال « إن يهش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » ومثله من حديث أنس عنده أيضاً وهو أصرح من حديث أبى هريرة لإضافة الساعة إليهم . قال الداودى : هذا الجواب من معارضض الكلام فإنه لو قال لهم : لا أدري - ابتداء مع ما هم فيه من الجفاء وقبل تمكن الإيمان في قلوبهم - لارتابوا فعدل إلى إعلامهم بالوقت الذى ينقضونهم فيه . وقال الكرماني : إن هذا الجواب من الأسلوب الحكيم ، أى دعوا السؤال عن وقت القيامة السكبرى فإنها لا يعلمها إلا الله ، واسألوا عن الوقت الذى يقع فيه انقراض عصركم فهو أولى لكم لأن معرفتكم بتمتكم على ملازمة العمل الصالح قبل فوته لأن أحدكم لا يدري من الذى يسبق الآخر اه وقال ابن الجوزى : كان النبي ﷺ يتكلم بأشياء على سبيل القياس وهو دليل معمول به ، فكأنه لما نزلت عليه الآيات في قرب الساعة كقوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقوله (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) حل ذلك على أنها لا تزيد على مضي قرن واحد ، ومن ثم قال في الدجال « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه » فجوز خروج الدجال في حياته . قال وفيه وجه آخر . وذكر مثل ما تقدم عن الداودى ورجحه الحافظ في الفتح .

ومما اختلفوا في تفسير الساعة فيه بالوجوه الثلاثة المذكورة قوله تعالى (٣١ : ٦) قد خسروا الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) وقوله تعالى (٤٠ : ٦) قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير

الله تدعون إن كنتم صادقين ؟) ويراجع تفسيرهما في الجزء السابع .

وحيث يذكر قيام الساعة كآيات سورة الرءم الثلاث (١٠ و ١٢ و ٥٣) وآية سورة غافر (٤٠ - ٤٦) ويوم تقوم الساعة : أدخلوا آل فرعون أشد المدب) فالتبادر منه غايتها يوم البعث والساب والجزاء - - - وحيث يذكر التكذيب بها أو الماراة فيها ، فالمراد المسمى العام لكل ما وعد الله به وأوعد من أمر مبدئها وغايتها وحيث يذكر اقتراب الساعة أو مجيئها وإثباتها ولا سيما إذا قرن ببغنة فالتبادر منه مبدأ القيامة وخراب العالم الذي نعيش فيه ، ومن هذا القبيل السؤال عنها فإن السؤال يكون عن أول الأمر المنتظر في الغالب ، ومنه آية الأعراف التي نحن بصدد تفسيرها فقله تعالى ﴿ آيا نمرساها ﴾ معناه يسألونك أيها الرسول عن الساعة قائلين آيا نمرساها ؟ أي متى إرساؤها وحصولها واستقرارها - - - أو يسألونك عنها من حيث زمن مجيئها وثبوتها بالوقوع والحصول . . . فآيا ن ظرف زمان ، ومرساها مصدر معناه إرساؤها يقال رسا الشيء يرسو ثبت ، وأرساه غيره ، ومنه أرساه السفينة وإيقافها بالمرسة التي تنقذ في البحر فتمنعها من الجريان ، قال تعالى (باسم الله مجراها ومرساها) وقال (والجبال أرساها) .

وفي السؤال عن زمن وقوعها بحرف الارساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والجريان أو الميدان والاضطراب نكتة دقيقة هي في أعلى درج البلاغة . وهو أن قيام الساعة عبارة عن انتهاء أمر هذا العالم وانقضاء عمر هذه الأرض التي تدور بعن فيها من العوالم المتحركة المضطربة ، فعبر بإرسائها عن منتهى أمرها ووقوف سيرها ، والساعة زمن وهو أمر مقدر ، لاجسم ساثر أو مسير ، وما يقع فيها ويمر بها عنه فهو حركة اضطراب وزلزال ، لارسوا ولا إرساء ، وهو أمر مستقبل لاحاصل ، ومتوقع لا واقع ، وقوله تعالى (٥٢ : ٦) أن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع) معناه أنه سيقع حتما ، ولذلك علق به بيان ما يتبع فيه بقوله (٨ يوم تورد السماء مودا ٩ وتسير الجبال سيرا ١٠ فويل يومئذ للمكذبين) فلم يبق لإرسائها معنى إلا إرساء حركه هذا العالم فيها . وأنه لتعبير بليغ ، لم يمهله في كلام

البلغاء نظير، ولم أر أحدا نبه لهذا . وذكر الساعة أولا والاستفهام عن زمن وقوعها ثانيا على قاعدة تقديم الأهم، وهو المقصود بالذات .

قيل : إن المراد بالسائلين هنا اليهود سألوهم عنها امتحانا قالوا إن كان نبيا فانه لا يعين لها زمنا لأن الله تعالى لم يطلع على ذلك أحدا من رسله ، وقيل قریش وبرجعه أن السورة مكية ولم يكن في مكة أحد من اليهود، وصيغة « يسألونك » المتبادر منها الحال لا الاستقبال البعيد . وفي آية الأحزاب (٣٣: ٦٣) يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدرىك أعل الساعة تسكون قريبا) وهذه مدنية . قال ابن كثير بعد ترجيح كون السائلين من قریش : وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادا لوقوعها وتبكيديا بوجودها كما قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وقال تعالى (٤٢ : ١٦) يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق . ألاإن الذين يمارون في الساعة إني ضلال بعيد) وقوله (أيا نمرساها) قال علي بن طلحة عن ابن عباس : منتهاها . أي متى عطاها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة اهـ

﴿قل إنما علمها عند ربى﴾ قل أيها النذير إن علم الساعة عند ربى وحده ليس عندى ولا عند غيرى من الخلق شئ منه . وهذا يدل عليه لفظ « إنما » من الحصر كما قال تعالى في الآية التي فسر بها النبي ﷺ مفاتيح الغيب (٣١ : ٣٤) إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام) أى عنده لا عند أحد سواه . ومثله قوله تعالى (٤١ : ٤٦) إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها) الآية أى يرد إليه وحده لا إلى غيره . وأشبه الآيات الدالة على استقنار علم الله تعالى بالساعة بآية الأعراف آيتان : آية الأحزاب (٣٣ : ٦٣) وذكرناها آفا . وآية الأواخر المتازعات وما بعدها : (٧٩ : ٤٢) يسألونك عن الساعة أيان مرساها ٤٣ فم أنت من ذكرها ٤٤ إلى ربك منتهاها ٤٥ إنما أنت منذر من يخشاها ٤٦ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) أى إلى ربك وحده من دونك ودون سائر خلقه منتهى أمر الساعة الذى يسألونك عنه ، وإنما أنت منذر لأهل الإيمان الذين يخشونها ويستعدون لها لا تعدو وظيفة الإنذار والتعليم والارشاد .

فهذه الآيات كآية الأعراف سؤالاً وجواباً فالسؤال عن الساعة من حيث إرساؤها ومنتهى أمرها ، والجواب رد ذلك إلى الرب مضافاً إلى ضحير رسوله فما أخبره به في قوله (إلى ربك منتهاها) هو ما أمره أن يحاسب به في قوله (قل إنما علمها عند ربي) وفيه إيذان بأن ما هو من شأن الرب ، لا يكون للأعبد ، فهو تعالى قد ربه ليكون متذكراً ومبشراً ، لا للاخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها ، والالذار إنما يباط بالادلام بالساعة وأموالها ، والنار وسلاسلها وأغلالها ، ولا تهم الفائدة منه إلا إبهام وقتها ، لينجش أهل كل زمن اتينها فيه ، والإعلام بوقت إتيانها وتحديد ناريخها ينافي هذه الفائدة بل فيه مفاسد أخرى ، فلو قال الرسول للناس إن الساعة تأتي بعد أنى سنة من يومنا هذا ، مثلاً - والفاسدة في تاريخ العالم وآلاف السنين تعد أجلاً قريباً - لرأى المكذابين يستهزئون بهذا الخبر ويلحون في تسكيبه ، والمرتابين يزادون ارتياباً ، حتى إذا ما قرب الأجل وقع المؤمنون في رعب عظيم ينقص عليهم حياتهم ، ويوقع الشلل في أعضائهم ، والتشنج في أعضائهم ، حتى لا يستطيعون عملاً ولا يسيغون طعاماً ولا شرباً ، ومنهم من يخرج من بيته وما يملكه ، من حيث يكون الكافرون آمنين ، يسخرون من المؤمنين ، وقد وقع في أوربة أن أخبر بعض رجال الكنيسة الذين كان يقلدهم الجمهور بأن القيامة تقوم في سنة كذا فهلمت الغلو واختلت الأعمال ، وأهدل أمر العيال ، ووقف المصدقون ما يملكون على الكنائس والأديار ولم تهدأ الأنفس وينوب إليها رشدها إلا بعد ظهور كذب النبأ بنجىء أجله دون وقوعه ، فالحكمة البالغة إذاً في إبهام أمر الساعة العامة للعالم ، وكذا الساعة الخاصة بأفراد الناس ، أو بالأمم والأجيال ، وجعلها من الغيب الذي استأثر الله تعالى به ، على ما سئذ كرفي إيضاحه ، فلذلك قال بعد حصر أمرها في علمه

﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ هذا جواب عن طلب معرفة الوقت الذي يكون إرساؤها فيه ، يقال : جلاى الأمر وأنجلي ، وجلاه فلان تجلية بمعنى كشفه وأظهره أتم الاظهار . واللام الداخلة على وقتها تسمى لام التوقيات كقولهم : وكتب هذا الكتاب لغرة المحرم أو لعشر مضين أو بقين من صفر . والمعنى لا يكشف حجاب الغطاء عنها ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الرب تعالى إلا هو ، فلا

(الأعراف ص ٧) ثقل أمر الساعة في السموات والأرض وإتيانها بغتة ٤٣٧

وساطة بينه وبين عبادته في إظهارها ولا الإعلام بميقاتها، وإنما وساطة الرسل عليهم السلام في الإنذار بها .

وتنق على هذا الإيثار من علم أمرها والإنباء بوقت وقوعها بقوله في تعظيم شأنها ومسر إخفاء وقتها ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ أي ثقل وقوعها وعظم أمرها في السموات والأرض على أهلها من الملائكة والانس والجن لأن الله تعالى نبأهم بأحوالها ، ولم يشعهم بميقاتها . فوم ينوقون أمراً عظيماً لا يدرون متى يقع وموقعه . وروى عن قتادة في تفسيره أنما أنه قال : ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون . وقال السدي : خفيت في السموات والأرض فلا يعلم قيامها ملك مقرب ولا نبي مرسل . فهذا القولان تفسير لثقلها بفقد العلم بها فان الجهول ثقل على النفس ولا سيما إذا كان عظيماً ، وروى عن معمر وابن جريج أن ثقلها يكون يوم يحشيها (إذا الشمس كورت) و (إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت) و (إذا رجفت الأرض رجاً) و يست الجبال بساً * فكانت هباء منبثاً) وغير ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها . وعن ابن عباس في ثقلها : ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة ، ولكل رواية وجه صحيح ، والمتبادر من الجملة ما ذكرناه أولاً وهو يتفق مع جملة هذه الروايات .

﴿ لا تأتكم إلا بغتة ﴾ أي فجأة على حين غفلة ، من غير توقع ولا انتظار ، ولا إشعار ولا إنذار . وقد تكرر هذا القول في التنزيل ، وجاء في حديث أبي هريرة من الصحيحين واللفظ للبخاري « ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان توبهما بينهما فلا يقبمانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ^(١) فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يكتيط حوضه فلا يسقي فيه ^(٢) ولتقوم الساعة وقد وقع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها » والمعنى أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معاشهم المعتادة . وأبلغ من هذا قوله تعالى في أول سورة الحجج (٢٢ : ١) يا أيها الناس اتقوا ربكم إن ذلّة الساعة شيء عظيم ٢ يوم

١ « اللقحة المأخذات الدرة » ٢ « يكتيط حوضه بالضم من الأظ » طلاحجارته
باطن أو شيء كالصالح لك الماء يحفظه ، والشاة في الماء لا يطعمه

ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد)

فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق ، ويتحروا الخير ، ويتقوا الشرور والمعاصي ، ولا يجعلوا حفظهم من أمر الساعة الجدال . والقليل والقال . وإننا نرى بعض المتأخرين قد شغلوا المسلمين عن ذلك ببحث افتجروه بعض الغلاة وهو أن النبي ﷺ لم يبق طول عمره لا يعلم متى تقوم الساعة كاندل عليه آيات القرآن الكثيرة بل أعلمه الله تعالى به ، بل زعم أنه أطلعهم على كل ما في علمه ، فصار علمه كعلم ربه أي صار ندأ وشريكاً لله تعالى في صفة العلم المحيط بالغيوب التي لانهاية لها ، ومن أصول التوحيد أنه تعالى لا شريك له في ذاته ولا في صفة من صفاته ، والرسول عبد الله لا يعلم من الغيب إلا ما أوحاه الله تعالى إليه لأداء وظيفة التبليغ وستزاد علماً ببطلان هذا الغلو خاصة في تفسير الآية التالية . ولكن الغلاة يرون من التقصير في مدح النبي ﷺ وتكثير صفاته دون صفات ربه وإلهه وخالق الخلق أجمعين . فسكذبوا كلام الله تعالى وشبهوا به بعض عبيده لإرضاء لغلوهم ، ومثل هذا الغلو لم يعرف عن أحد من سلف هذه الأمة ، ولو أراد الله تعالى أن يعلم رسوله ﷺ بوقت قيام الساعة بعد كل ما أنزله عليه في إختفائها واستثنائه بعلمه لما أكد كل هذا التأكيد في هذه السورة وغيرها كقوله عز وجل :

﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ الخ . يسألونك هذا السؤال كأنك حفي مبالغ في سؤال ربك عنها — أو يسألونك عنها كأنك حفي بهم — فمنها متعلق بيسألونك وجملة « كأنك حفي » معترضة . قال في مجاز الأساس : أحفي في السؤال : ألحف . . . وهو حفي عن الأمر : بليغ في السؤال عنه (كأنك حفي عنها) وقال الأعشى :

فان تسألني عنى ، فيارب سائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا واستخفيت عن كذا : استخبرته على وجه المبالغة . ونصفي في فلان ، وحفي في

حفاوة ، إذا تلطف بك وبالغ في إكرامك اه . أقول : ومنه قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه وعلى نبينا وآلها الصلاة والسلام (إنه كان في حفيّا)

وفي تفسير ابن كثير : عن العوفي عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفي عنها) بقول : كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم . قال ابن عباس : لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن مجداً حفي بهم ، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا رسولا . وقال قتادة : قالت قریش لمحمد ﷺ إن بيننا وبينك قرابة فأشر إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل (يسألونك كأنك حفي عنها) وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والاسدي ، هذا قول ، والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره (يسألونك كأنك حفي عنها) قال : استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها . وكذا قال الضحاك عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفي عنها) يقول كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، قال إنما علمها عند الله . وقال معمر بن بعضهم (كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها وقد أخفى الله علمها عن خلقه وقرأ (إن الله عنده علم الساعة) الآية . قال ابن كثير : وهذا القول أرجح في المعنى من الأول والله أعلم ، ولهذا قال :

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾ هذا تكرر للجواب في أثر تكرر السؤال المبالغة في التأكيد والإيناس من العلم بوقت مجيئها ، وتخطئة من يسألون عنه ، وقد ذكر هنا اسم الجلالة الإشعار بأنه في السماء بعله لآياته ، كما أشعر ما قبله بأنه من شئون ربه بيته ، وكل منهما مما يستحيل على خلقه ﴿ولسكن أ كثر الناس لا يعلمون﴾ اختصاص عنها به تعالى ولا حكمة ذلك ، ولا أدب السؤال ، ولا غير ذلك مما يتعلق بهذا المقام . وإنما يعلم ذلك القليلون وهم المؤمنون بما جاء من أخبارها في كتاب الله تعالى وبإسراع من رسوله ﷺ كالذين حضروا تمثيل جبريل عليه السلام بصفة رجل وسؤله للنبي ﷺ عن الإيمان والاسلام والاحسان ثم عن الساعة . وقول النبي ﷺ له عند السؤال الأخير عما المسؤول عنها بأعلم من السائل . يعني أننا سواء في هذا الأمر لا يعلم أحد منا متى تقوم الساعة .

﴿فصل فيما ورد في قرب الساعة وأثرها وما قيل في عمر الدنيا﴾

إن ماورد في بعض الأحاديث من قرب قيام الساعة حتى يقتبس من القرآن
كآية الأحزاب التي ذكرت قريبا ومنها آية النور (١٧:٢٢) وما يدرك لعل
الساعة قريب (وفي معناها قوله تعالى في سياق الرد على منكري البعث والامادة
(٥١:١٧) ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا) وفي التعبير عن قربه بلعل
وعسى مايناسب عدم إطلاع الله لرسوله على وقته ، ولا شك أن قرب ذلك اليوم
الذي مقدار من بدهه إلى نايه مقدر ألف سنة مايناسب له ، ولما تقدم من عمر
الدنيا ربقى منه . فالقرب بالبعد من الأمور الدنيوية - الراد قربها بالنسبة إلى
ماضي من عمر الدنيا ولا يلحقه إلا الله تعالى .

وما جاء في الآثار من أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة مأخوذة من الامم البديلة
التي كان يدينها زنادقة اليهود والفرس في المسلمين حتى دبره مرفوعا ، وقد اختلف بها
من لا ينظرون في نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها حتى استقبل بعضهم منها بقي
من عمر الدنيا ، والجلال السبوطي في هذا رسالة في ذلك قد عدها عليه الزمان ،
كما هدم أمثالها من التخرصات والأوهام ، وما بث في الامم ائيمانيات من السكيد الاسلام
قال السيد الآلوسي في أثر تفسير الآية : « وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء
الحكمة التشريعية ذلك ، فإنه ادعى إلى الطاعة ، وأمر به عن المعصية ، كما أن الحكمة
الأجل الخاص للانسان كذلك . ولو قيل بأن الحكمة التكميلية تقتضيه ذلك أيضا
لم يبعد . وظاهر الآيات . ^(١) أنه ﷺ لم يعلم وقت قيامها . نعم علم ﷺ
قربها على الاجمال ، وأخبر ﷺ به ، فقد أخرج الترمذي وصححه عن
أنس مرفوعا « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى ^(٢)
وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا أيضا « إنما أجلكم فيعين مضي قبلكم من الأمم
من صلاة العصر إلى غروب الشمس » وجاء في غير ما أثر أن عمر الدنيا سبعة

(١) الصواب أن نصوص الآيات قطعية في ذلك (٢) الحديث برواد الشيخان أيضا
وكانه غفل عنه .

آلاف سنة ، بأنه عليه الصلاة والسلام بحث في أواخر الألف السادسة ، ومعظم
الملة في الألف السابعة .

« وأخرج الجلال السيوطي عدة أحاديث في أن عمر الدنيا سبعة آلاف
سنة ، وذكر أن مدة هذه الأمة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ،
واستدل على ذلك بأخبار وآثار ذكرها في رسالته المسماة (بالكشف ، عن مجاوزة
هذه الأمة الألف) وسمى بعضهم لذلك هذه الألف الثانية بالخصومة لأن نصفها
دنيا ، ونصفها الآخر أخرى ، وإذا لم يظهر المهدي على رأس المائة التي نحن فيها
يهدم جميع ما بناء فيها كالإني ، وكأنني لك تراه منهدما اهـ

أقول : قلت هذا لأن كثيراً من الناس يرجعون إلى هذا التفسير في مثل هذا
البحث ، فحبيت أن أعرف رأيه في المسألة من لم يطلع عليه ، وقد مضت المائة التي
كان فيها مؤلفه برأسها وذهبها وهي المائة الثالثة عشرة من الهجرة ثم مضى زهاء
أربع مائة التي بعدها وهي الرابعة عشرة إذ نكتب هذا البحث في سنة ١٣٤٥
لم يظهر المهدي فانهم بالله الحمد ما بناء السيوطي عفا الله تعالى عنه من الأوهام
التي جمعها كحاطب ليل ، ولم يرج في مباحثها على ما كتبه أستاذه الأكبر الحافظ
أن حجر في تقدم رواياتنا . ونحن نورد هنا ما كتبه الحافظ في شرحه لحديث
« بعثت أنا والساعة كهاتين » من شرحه للبخاري ، ثم نقى عليه بما يقتضيه المقام
بدأ الحافظ شرحه بمعنى الحديث بأقوال محقق العلماء في معنى التشبيه بالأصبعين
هل المراد به قرب أحدهما من الأخرى أم التفاوت الذي بينهما في الطول ؟ وما
المراد به ؟ والأرجح المختار عندنا من هذه الأقوال أنه ليس بينه وبين الله وبين الساعة
شيء آخر فهي تليبه . ثم قال « ولا معارضة بين هذا وبين قوله تعالى (إن الله عنده
سجل الساعة) ونحو ذلك لأن علم قريبها لا يستلزم علم وقت مجيئها معنا ، وقيل معنى
الحديث ليس بيني وبين القيامة شيء هي التي تليق كأنني السبابة الوسطى . وعلى هذا
فلا تشافي بين سائل عليه الحديث وبين قوله تعالى عن الساعة (لا يعلمها إلا هو) اهـ
أقول إن جملة (لا يعلمها إلا هو) قد وردت في قوله تعالى من سورة الانعام
(٦ : ٢٩) وعند مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) لا في الساعة ولكن ورد في الصحيح تفسير

مفاتيح الغيب بآية آخر سورة لقمان (٣١ : ٣٤) أن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث)
 الخ فبهارته صحيحة المعنى لا اللفظ ولعله أراد ذلك . ثم قال رحمه الله وأما به :
 « وقال القاضي عياض : حازل بعضهم في تأويله أن نسبة ما بين الأصبغين
 كنسبة ما بقي من الدنيا بالنسبة إلى ماضى وأن جعلتها سبعة آلاف سنة واستند
 إلى أخبار لا تصح ، وذكر ما أخرجه أبو داود في تأخير هذه الأمة نصف يوم
 وفسره بخمسمائة سنة ، فيؤخذ من ذلك أن الذى بقى نصف سبع وهو قريب مما
 بين السبابة والوسطى في الطول (قال) وقد ظهر عدم صحة ذلك لوقوع خلافه
 ومجاوزة هذا المقدار ، ولو كان هذا ثابتاً لم يقع خلافه

« قلت : قد انضاف إلى ذلك منذ عهد عياض إلى هذا الحين ثلاثمائة
 سنة^(١) وقال ابن العربي^(٢) قيل : الوسطى تزيد على السبابة نصف سبعها وكذا
 الباقي من الدنيا من البعثة إلى قيام الساعة ؟ قال وهذا بعيد ولا يعلم مقدار الدنيا
 فكيف يتحصل لنا نصف سبع أمد مجهول ؟ فالصواب الاعراض عن ذلك
 « قلت : السابق إلى ذلك أبو جعفر بن جرير الطبري فإنه أورد في مقدمة
 تاريخه عن ابن عباس قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة وقدمه
 ستة آلاف ومائة سنة ، وأورده من طريق يحيى بن يعقوب عن حماد بن أبي سليمان
 عن سعيد بن جبيرة عنه ويحيى هو أبو طالب القاضي الانصارى ، قال البخارى ، منكر
 الحديث . وشيخه هو فقيه الكوفة وفيه مقال ، ثم أورد الطبري عن نعيم الاخبار
 قال : الدنيا ستة آلاف سنة ، وعن وهب بن مثبه مثله ، أراد أن الذى مضى منها
 خمسة آلاف وستمائة سنة ثم زيفها ورجع ما جاء عن ابن عباس أنها سبعة آلاف .
 ثم أورد حديث ابن عمر الذى فى الصحيحين مرفوعاً « ما أجلكم فى أجل من كان
 قبلكم إلا من صلاة العصر إلى مغرب الشمس » ومن طريق مغيرة بن حكيم عن
 ابن عمر يلفظ « ما بقى لأمى من الدنيا إلا كقدار ما إذا ضللت العصر » ومن طريق

(١) كان عباس فى القرن السادس وابن حجر فى القرن التاسع وقد تم كتابه
 فتح البارى سنة ٨٤٢ وكانت وفاة عباس سنة ٥٤٤ ووفاته هو ٨٥٢ رحمه الله
 تعالى ورحمنا (٢) هو القاضي أبو بكر المفسر الفقيه المالكي لا ابن عربى الحاتمي الضوفى

بجاهد عن ابن عمر « كنا عند النبي ﷺ والشمس على قمية ما نمرقة بعد العصر فقال : ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من هذا النهار مما مضى منه » وهو عند أحمد بسند حسن ثم أورد حديث أنس « خطبنا رسول الله ﷺ يوماً وقد كادت الشمس تغيب » فذكر نحوه الحديث الأول عن ابن عمر ومن حديث أبي سعيد بعنه قال عند غروب الشمس « إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها كبقية يومكم هذا فيما مضى منه » وحديث أبي سعيد أخرجه أيضاً وفيه على بن زيد بن جدهان وهو ضعيف وحديث أنس أخرجه أيضاً وفيه موسى بن خاف^(١) ثم جمع بينهما بما حاصله : أنه حمل قوله « بعد صلاة العصر » على ما إذا صليت في وسط من وقتها .

« قلت : وهو بعيد من لفظ أنس وأبي سعيد . وحديث ابن عمر صحيح متفق عليه ، فالصواب الاعتماد عليه . وله محالان أحدهما أن المراد بالتشبيه التقريب ولا يراد حقيقة المقدار فيه يجتمع مع حديث أنس وأبي سعيد على تقدير ثبوتهما والثاني أن يحمل على ظاهره فيقدم حديث ابن عمر لصحته ويكون فيه دلالة على أن مدة هذه الأمة قدر خمس النهار تقريباً . ثم أيد الطبري كلامه بحديث الباب . بحديث أبي ثعلبة الذي أخرجه أبو داود وصححه الحاكم ولفظه « والله لا تعجز هذه الأمة من نصف يوم » ورواته ثقات ولكن رجح البخاري وقفه ، وعند أبي داود أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ « إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربهم أن يؤخروهم نصف يوم ، قيل لسعد : كم نصف يوم ؟ قال خمسمائة سنة » ورواه مؤثفون إلا أن فيها انقطاعاً ، قال الطبري : ونصف اليوم خمسمائة سنة أخذاً من قوله تعالى (وإن يوماً عند ربك كألف سنة) فاذا انضم إلى قول ابن عباس إن الدنيا سبعة آلاف سنة توافقت الأخبار فيكون الماضي إلى وقت الحديث المذكور ستة آلاف سنة وخمسمائة سنة تقريباً ، وقد أورد السهيلي كلام الطبري وأيده بما وقع عنده في حديث المستورد وأكده بحديث ابن زعل رفته « والدنيا سبعة آلاف سنة بعثت في آخرها »

« قلت : وهذا الحديث إنما هو عن ابن زعل وسنده ضعيف جداً أخرجه ابن السكن في الصحابة وقال إسناده مجهول وليس بمعروف في الصحابة وابن قتيبة

(١) لم يقل الحافظ فيه شيئاً وقد وثقه بعضهم وضعفه ابن معين وقال ابن حبان :

في غريب الحديث وذكره في الصحابة أيضاً ابن منده وغيره وسماه بعضهم حيداً لله
وبعضهم الضحاك ، وقد أورده ابن الجوزي في الموضحات ، وقال ابن الأثير
الفاظه مصنوعة ، ثم بين السهيلي أنه ليس في حديث نصف يوم يابني الزيادة على
الخمسة قال : وقد جاء بيان ذلك فيما رواه جعفر بن عبد الواحد بلفظه « إن أحسنت
أمتي فبقاؤها يوم من أيام الآخرة - وذلك ألف سنة - وإن أسأت فنصف يوم » قل
وليس في قوله « بعثت أنا والساعة كهاتين » ما يقطع به على صحة التأويل الماضي
بل قد قيل في تأويله إنه ليس بينه وبين الساعة شيء مع التقريب لجيئها ثم جوز
أن يكون في عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر ما يوافق حديث
ابن زمل وذكر أن عندها تسعمائة وثلاثة .

« قلت : وهو مبني على طريقة المغاربة في عدد الحروف وأما المشاركة فيندم
العدد عندهم مائتين وعشرة ، فإن السنين عند المغاربة بشمائة والصاد بستين وأما
المشاركة فالسنين عندهم ستون والصاد تسعون فيكون المقدار عندهم ستمائة وثلاثة
وتسعين ، وقد مضت زيادة عليها مائة وخمس وأربعون سنة ، فالجمل على ذلك من
هذه الحيفية باطل ، وقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عدي بن جاد بالاشارة إلى
أن ذلك من جملة السحر وليس ذلك ببعيد فانه لا أصل له في الشريعة وقد قال
القاضي أبو بكر بن العربي ، وهو من مشايخ السهيلي في فوائد رحلاته ما نصه : ومن
الباطل الحروف المقطعة في أوائل السور وقد تحصل لي فيها عشرون فولا وأزيد
ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم ولا يصل فيها إلى فهم ، إلا أني أقول - فذكر ما لم يخصص -
انه لولا ان العرب كانوا يعرفون ان لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من
انكر ذلك على النبي ﷺ بل تلا عليهم (ص وحج فصلت) وغيرهما فلم ينكروا
ذلك بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوئهم إلى عثرة ، وحرصهم
على زلة ، فدل على أنه كان أمراً معروفاً بينهم لا انكار فيه ^(١)

(١) تقول : لو كان لها مدلولاً متداولاً لعرف ونقل ، وينبغي في سبب سكوت
العرب عن انكارها عليهم انها ذكرت لثائفة كالتثنية واستغناء السمع وتوجيه
الذهن لما يذكر بعدها كما شرحناه في أول تفسير هذه السورة . وأما عدد أبي جاد
فليس بلغوى ولا شرعى بل هو اصطلاح يهودي

وقال: وأما عند أهل الحروف بخصوصه فأنما جاء عن بعض اليهود كما حكاه ابن أسحق في السيرة النبوية عن أبي ياسر بن أخطب وغيره أنهم حملوا الحروف التي في أوائل السور على هذا الحساب واستقصروا المدة أول ما نزل «الم وال» فأنه أول بعد ذلك (المص وطسم) وغير ذلك قالوا ألست علينا الأسماء وعلى تقدير أن يكون ذلك مراداً فليحمل على جميع الحروف الواردة ولا يحذف المكرر فأنه ما من حرف منها إلا وله سر يخصه، أو يقتصر على حذف المكرر من أسماء السور ولو تكررت الحروف فيها فإن السور التي ابتدئت بذلك تسع وعشرون سورة وعدد حروف الجميع ثمانية وسبعون حرفاً. وهي الم ستة حم ستة ال خمسة طسم اثنتان المص الم ركبي طس طه طيس ص ق ن فاذا حذف ما كرر من السور وهي خمس من: أم وحسن من حم وأد بع من ال وواحدة من طسم بقي أربع عشرة سورة عنده حروفها ثمانية وثلاثون حرفاً فاذا حسب عددها بالجل الم في بلغت ألفين ومن ثمانية وثمانين ومن ثمانية وأما بالجل الم المشرق فتبلغ ألفاً وسبعين ألفاً وثمانين. ومما ذكره ذلك يعتمد عليه إلا لا يبين أن الذي جنح إليه السبيل لا ينبغي الاعتماد عليه لشدة الخفاف فيه.

وفي الجمله فأقوى ما يعتمد في ذلك ما دل عليه حديث ابن عمر الذي أشرت إليه قبل، وقد أخرج من حديث أبي الجاهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال معمر بن باهقي عن عكرمة في قوله تعالى (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال: الدنيا من أولها إلى آخرها يوم، مقداره خمسون ألف سنة لا يدري كم مضى ولا كم بقي إلا الله تعالى، وقد حمل بعض شراح المصابيح حديث: «إن تعجز هذه الأمة أن يؤخرها نصف يوم» على حال يوم القيامة وزيفه الطيبي فأصاب.

وأما زيادة جعفر فهي موضوعة لأنها لا تعرف إلا من جهته وهو مشهور بوضع الحديث وقد كذبه الأئمة مع أنه لم يسبق منه ذلك فالعجب من السبيل كيف سكنت عنه مع معرفته بحاله. والله المستعان اه سيق الحافظ ابن حجر كله (فيقول محمد رشيد) أما زيادة جعفر أي ابن عبد الواحد على حديث ابن زعل في عمر الدنيا فهو ما ذكره من حديث اليوم ونصف اليوم في عمر هذه الأمة

فهو موضوع جمع السيوطي بينه وبين حديث ابن زمل الجهول الذي حكم ابن الجوزي بوضعه ومزجها بسائر الروايات في المسألة ولا يصح منها شيء يؤيد مراده فكان رسالته كلها مستنبطة من الخبرين الموضوعين أي المسكندر بين علي رسول الله ﷺ ، فتأمل هداك الله تعالى ما يفعل الغرور بظواهر الروايات حتى في أنفس المشتغلين بالحديث كالسيوطي الذي عد من الحفاظ وأنكر ذلك زميله السخاوي وكلاهما من تلاميذ الحفاظ ابن حجر

وقد علم مما ذكره الحفاظ هنا أن بطلان الاسرائيليات وينبغي الخرافات كعب الأحبار ووهب ابن منبه قد بشا في هذه الأمة خرافة تحديد عمر الدنيا وليس أصله من مخترعاتهم فهو موجود في كتب اليهود حتى فيما يسمونه التوراة ولكنه فيها سبعة آلاف فجعله ستة آلاف غشا للمسلمين ، وما يدرينا أن كل تلك الروايات أو الموقوفة منها ترجع إليهما . فإن الصحابة (رض) لم يكونوا يذكرون ما يسمع بعضهم من بعض ومن التابعين على سبيل الرواية والنقل بل يذكرونه بالمناسبات من غير عزو غالبا ، وكثير من التابعين كذلك بل أكثر ما روي عن أبي هريرة من الأحاديث المرفوعة لم يسمعه منه ﷺ ولذلك روى أكثره عنه بالمنعنة أو بقوله قال رسول الله ﷺ وأقله بلفظ سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا ، وقد روى عن بعض الصحابة وعن بعض التابعين ، وثبت أنه روى عن كعب الأحبار ومن هنا نجزم بأن موقوفات الصحابة التي لا مجال فيها للاجتهاد والرأي لا يكون لها قوة المرفوع كما قال المحدثون إلا إذا كانت ليست من قبيل الاسرائيليات

وقد تكلم في مسألة قرب الساعة بعد السيوطي كثير من ولیمعهم فيها مصنفات كهجة الناظرين والاشاعة ومنهم العلامة السفاري في كتبه والسيد ابن الأمير اليميني والسيد أبو الطيب صدديق حسن خان في كتبه ومنها كتاب (الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة) وكان معاصراً للسيد محمود الألوسي صاحب تفسير (روح المعاني) وقد نقل عن ابن الأمير وعن الحفاظ ابن حجر ، وقد نخص ابن الأمير كلام ابن جرير وما أورده عليه ابن حجر ، ثم أورد خلاصة كلام السيوطي ورده وذكر أن الحق الواقع بخالفه وهو ما أشار إليه الألوسي بعده إشارة — وهالك ما نقله

عند صاحب الإذاعة السيد أبو الطيب صديق حسن خان المعاصر للأوسى في هذا عقب ما نقله من تعقيب الحافظ على ابن جرير قال :

(قلت) لما تقارب انحرام القرن التاسع ذكر الحافظ السيوطي أنه وصل إليه رجل في سنة ثمان وتسعين وثمانمائة في شهر ربيع الأول ومعه ورقة حاصل ما فيها الاعتماد على حديث أنه لا يلبث النبي ﷺ في قبره ألف سنة وأنه أفنى بعض العلماء اعتماداً على هذا الحديث بأن في المائة العاشرة خروج المهدي والدجال ونزول عيسى وسائر الآيات من أشراط الساعة ، ثم قال السيوطي : على أن هذا الحديث باطل ، وأطال الكلام في صدر رسالته التي سماها (الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف) ثم ذكر أن الذي دلت عليه الآثار أن هذه الأمة تزيد مدة بقائها في الدنيا على ألف سنة ، وأنها لا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، ثم اعتمد ما ذكره ابن جرير أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، قال (ذلك لانه ورد من طرق أن مدة الدنيا من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة سبعة آلاف سنة ، وأن النبي ﷺ بعث في آخر الألف السادس وسائق ما قدمناه من أدلة ابن جرير ، بل قال ومحمد بن جرير هذا الأصل وعقده باباً انتهى .

« قال السيد الأمير (قلت) وما كان للسيوطي أن يعرض عن تعقبات الحافظ ابن حجر ، بل كان يتعين عليه ذكرها وإقرارها أو ردّها ، فان تركها لها يوم الناظر في كلامه وسكوته على تصحيح ابن جرير ليس كذلك كما عرفت (١) .

« ثم استند السيوطي في جزمه ببقاء الأمة بعد الألف أقل من خمسمائة سنة إلى آثار ذكرها ، منها ما أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنه قال « يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة » ، وإلى أنه يلبث عيسى عليه السلام أربعين سنة بعد قتله الدجال ثم يستخلف رجل من نعيم يبقى ثلاث سنين وإلى أنه يبقى الناس بعد إرسال الله ويحاً تقبض روح كل مؤمن مائة سنة لا يعرفون

(١) لابد أن يكون قد سقط من هذا النقل شيء والمعنى أن هذا الترك والسكوت يوم الناظر فيهما أن نقد الحافظ لكلام ابن جرير في غير محله والأمر ليس كذلك .

ديناً من الأديان ، وإلى أن بين النفختين أربعين عاماً ، وإلى أنه ينزل عيسى على رأس مائة سنة فمذه مائة سنة وثلاث وستون سنة ، ونحن الآن في القرن الثاني عشر ويضاف إليه مائتان وثلاث وستون سنة فيكون الجميع ١٤٦٠ وعلى قوله إنه لا يبلغ خمسمائة سنة بعد الألف يكون منتهى بقاء الأمة بعد الألف ٤٦٣ سنة فيخرج منه أن خروج الدجال أعذنا الله من فتنته قبل انحرام هذه المائة التي نحن فيها وهي المائة الثانية عشرة من الهجرة النبوية انتهى ، وقد توفي ابن الأمير سنة ١١٨٢ .

قال صاحب الإذاعة : « أقول : وقد مضى إلى الآن على الألف نحو من ثلاثمائة سنة ولم يظهر المهدي ولم ينزل عيسى ولم يخرج الدجال فدل على أن هذا الحساب ليس صحيح .

» ثم قال السيد العلامة (قلت) وقد أخرج مسلم والحاكم عن ابن عمر درفوعا « يخرج الدجال فيمكث في أمي أربعين » انتهى ، هكذا لم يتميز العدد بشيء ، لا بالأيام ، ولا بالشهور ، ولا بالسنين ، فلو كانت سنين لكان ظهوره من رأس سنين من هذا القرن ، إلا أنه قد ثبت عند أحمد وابن خزيمة وأبي يعلى والحاكم تعيين الأربعين بليلة ، فهي أربعون يوماً ، وقال « يوم منها كالسنة ، ويوم كالشهر ، ويوم كالجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » وعلى هذا يكون خروجه في سنة تسع وتسعين من هذا القرن الذي نحن فيه ، وإنما قلنا ذلك لئتم نزول عيسى في رأسها ويبتدئ عيسى من القرن الثالث عشر أربعين سنة وخميسته ثلاث سنين ، ثم تطلع الشمس من مغربها ويبقى الناس مائة وعشرين بعد طلوعها ، ويحتمل أن المائة التي يبقى الناس فيها لا يعرفون دينها هي من هذه المائة والعشرين . هذا خلاصة كلام السيوطي في رسالة الكشف ، وفيه ما عرفت ، واستدل على ما ذكره بآثار عن السلف كأنه يقول أنها لا تقال من قبل الرأي فلها حكم الرفع .

(ثم قال) وإذا أحطت علما بجميع ماسقناه علمت أن القول بتعيين مدة الدينين أولها إلى آخرها بأنه سبعة آلاف سنة لم يثبت فيه نص يعتمد عليه ، وغاية ما فيه آثار عن السلف وإن كانت لا تقال إلا عن تهيف فلعلهم أخذوا عن أهل الكتاب وفي أسانيد هامقال ، وقد علم تغييرهم لما لديهم عن الله تعالى وعن رسوله وأهل

الكتاب هم القائلون (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) وقيل عنهم المفسرون أنهم قالوا ان مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وأنهم يعذبون بكل ألف عام يوما من هذه الأيام، ثم أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والواحدي عن ابن عباس أن يهودا كانوا يقولون: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما تعذب بكل ألف سنة يوما واحدا من أيام الدنيا في النار، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب فأُنزل الله تعالى (وقالوا لن نمسنا النار إلا أياما معدودة) — الى قوله تعالى — هم مهمل خاللون) انتهى وأكذبهم الله فيما قالوه

«وبما في هذا الذي نقله عن السلف من الآثار التي سقناها وساقها ابن جرير والسيوطي في رسالة الكشف مأخوذة من أهل الكتاب إذ لم يثبت بنص نبوي عنه ﷺ بأن مدة الدنيا كذا، على أن تلك الآثار القاضية بأن مدتها سبعة آلاف سنة معارضة لما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة في قوله تعالى (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) فلا هي الدنيا أولها إلى آخرها يوم مقداره خمسين ألف سنة يوم القيامة التي فهذه الآثار متعارضة كاترى، وإنما ثبت عنه ﷺ أن بعثته مع آتى نيام الساعة انتهى كلام السيد العلامة محمد بن اسماعيل الأمير رحمه الله

(قال صاحب الإذاعة) «وقد قال الشيخ مرعي في بهجة الناظرين بعد ذكر قول السيوطي في رسالة الكشف ما نصه: وهذا محدود لأن كل من يتكلم بشيء من ذلك فهو ظن وحسبان لا يقوم عليه برهان انتهى.

«وقال في الإذاعة^(١) بعد ذكر قول السيوطي: الذي فهم من الأحاديث أن المهدي يحك في الأرض أربعين سنة وأن عيسى يحك بعد الدجال أربعين سنة كما رواه الحارث عن ابن مسعود، فإنه ظاهر في الأربعين بعد الدجال وأن بعد عيسى يتولى أمره منهم القحطاني يتولى إحدى وعشرين سنة، وليقرض لبقيةهم الى طلوع الشمس من المغرب أربعين سنة أيضا إن لم يكن أكثر، فهذا مائة وعشرون سنة، ومن أن الدجال يحك أربعين سنة، فإن لم تكن سنين فلا أقل من مقدار سنتين لأن أيامه طوال وأن بعد طلوع الشمس من مغربها يحك الناس مائة وعشرين سنة وفي رواية أن

الشرار بعد الخیار عشرون ومائة سنة، ورد أيضاً أن المؤمنين يتمتعون بعد ظهورها أربعين سنة ثم يسرع فيهم الموت، فهذه ثلثمائة وعشرون سنة. وقدمضى بعد الألف قريب من ثمانين، فهذه أربعة وإلى تمام هذه المائة تبلغ أربع مائة وثلاثين. وقد مر عن السيوطي أنها لا تبلغ خمسمائة بل أخذ بعضهم من قوله تعالى (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) وقوله (لا تأتیکم إلا بغتة) أن الساعة تقوم سنة ١٤٠٧ فان عدد حروف « بغتة » ١٤٠٧ والعلم عند الله، فيحتمل خروج المهدي على رأس هذه المائة ويحتمل أن يتأخر المائة الثانية، ولا يفوتها قطعاً، وإذا تأخر فلا بد أن يبعث الله على رأس هذه المائة من يجدد للأمة أمر دينها، كما ورد في حديث مشهور. وهذه كلها مظنونيات ورد بها آحاد الأخبار بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعاف مع شواهد وبعضها بغير شواهد، وغاية ما ثبت بالأخبار الصحيحة الكثيرة الشهيرة التي بلغت النواتر المعنوى وجود الآيات العظام التي أولها خروج المهدي وأنه يأتي في آخر الزمان من ولد فاطمة عليها الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وأنه يقاتل الروم في الملحمة ويفتح القسطنطينية، ويخرج الدجال في زمته وينزل عيسى ويصلى خلفه وما سوى ذلك كله أمور مظنونة أو مشكوكة والله أعلم انتهى

(أقول) قد علمت من هذه النقول أنه ليس في عمر الدنيا حديث مرفوع صحيح ولا حسن وأن الروايات فيه إما ضعيفة وإما موضوعة، وأن الراجح أن كل ما ورد فيها من مرفوع وموقوف ومن الآثار فهو من الإسرائيليات التي بنها في الأمة كتب الأخبار ووهب بن منبه وأمثالها، ولو فطن الحافظ ابن حجر لدسائسهما وخطأ من عدلها من رجال الجرح والتعديل لحقاه تلبيسهما عليهم لكان تحقيقه لهذا البحث أتم وأدل وقد أشار إلى ذلك حكيم الإسلام الاجتماعي ابن خلدون في مقدمته عند الكلام في ابتداء الدول والأمم وما بقي من الدنيا قال « فكان المعتمد في ذلك في صدر الإسلام آثار منقولة عن الصحابة وخصوصاً مسلمة بنى إسرائيل مثل كتب الأخبار ووهب بن منبه وأمثالها. وربما اقتبسوا بعض ذلك من علوان مأثورة وتأويلات محتملة » ثم ذكر مباحث السويلى في كلام الطبري وغير ذلك مما يفني عنه ما تقدم وذكر أيضاً كلام الصوفية في ذلك وظهور كذب الجميع

(الاعراف. ص ٧) كلام ابن حزم في طول عمر الدنيا وجهل من حذره ٤٨١

وكذلك الامام أبو محمد علي بن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) لم يعبأ بشيء من هذه الروايات في هذه المسألة على طول باعده وسعة حفظه للآثار وقد سبق القاضي عياض والقاضي أبابكر بن العربي وابن خلدون في رفضه لما قيل في عمر الدنيا وعجبت كيف غفل الحافظ عن إيراد ما قاله في هذه المسألة على سعة اطلاعه. قال بعد ذكر ما كان يقول اليهود والنصارى في بدء الخليقة مانصه:

« وأما نحن - يعني المسلمين - فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ، ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد قال ما لم يأت قط عن رسول الله ﷺ فيه لفظة تصح ، بل صح عنه ﷺ خلافه ، بل نقطع على أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله تعالى . قال الله سبحانه (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وقال رسول الله ﷺ « ما أنتم في الأمم قبلكم إلا كالشجرة البيضاء في الثور الأسود ، أو الشجرة السوداء في الثور الأبيض » وهذه نسبة من تدبرها وعرف مقدار عدد أهل الاسلام ونسبة ما بأيديهم من معمور الأرض وأنه الأكثر — علم أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله . وكذلك قوله عليه السلام « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم أصبعيه المقدستين السبابة والوسطى ، وقد جاء النص بأن الساعة لا يعلم متى تكون إلا الله تعالى لأحد سواء — فصيح أنه ﷺ إنما عفى شدة القرب لأفضل الوسطى على السبابة إذ لو أراد ذلك لأخذت نسبة ما بين الأصبعين ونسب من طول الأصبع — فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة وهذا باطل ، وأيضا فكان تكون نسبته ﷺ إيانا إلى من قبلنا بأننا كالشجرة في الثور كذبا ، ومعاذ الله من ذلك ، فصيح أنه ﷺ إنما أراد شدة القرب . وله ﷺ منذ بعثت أربعمائة عام ونيف ، والله تعالى أعلم بما بقي للدنيا . فإذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عند ما سلف لقلته ونفاخته بالإضافة إلى ما مضى فهو الذي قاله ﷺ من أننا فيمن مضى كالشجرة في الثور أو الرقة في ذراع الحمار اه كلام ابن حزم

وأقول : هذا كلام الأئمة المحققين فالذين حاولوا تحديد عمر الدنيا ومعرفة وقت قيام الساعة ارضاء لشهوة الاتيان بما يهيم جميع الناس لم يشعروا بأنهم يحاولون تكذيب آيات القرآن الكثيرة الناطقة بأن الساعة من علم الغيب الذي استأثر الله

« نفسه القرآن الحكيم »

تعالى به وأنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون - أى على غير انتظار من أحد منهم ولا أدنى علم وهذا البلاء كله من دسائس رواة الاسرائيليات وتليبسيهم على المسلمين باظهار الإسلام والصلاح والتقوى، ومن وضع بعض الاصطلاحات العلمية في غير موضعها ككون كثرة الروايات الضعيفة يقوى بعضها بعضها فإن هذا إنما يصح في المسائل التي لا يحتمل إرجاعها إلى مصدر واحد يعنى بنشرها والدعوة إليها، كسألة المهدي المنتظر الذي هو أساس مذهب سياسي كسى ثوب الدين، ألم تر أن رواياته لا تخلو أسانيداً من شيعي، وأن الزنادقة كانوا يبشرون الدعوة إلى ذلك تمهيداً لسلب سلطان العرب وإعادة ملك الفرس ؟ وككون كلام الصحابي فيما لا يحول الرأي والاجتهاد فيه له حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ، بحسب تقييد هذا فيما لا يحتمل أن يكون من الاسرائيليات وهو ما أشار إليه العلامة المحقق محمد بن اسماعيل الأثير في موضوعنا هذا كما رأيت آنفاً .

هذا وإن لمقتضى أعم الحضارة الأولين من الهنود والصينيين وغيرهم أقوالاً في عمر الدنيا وتاريخ البشر الماضي تذكر فيه الأرقام بألوف السنين وألوف الألوف وقد بنى بعضه على روايات مأثورة عن قدمائهم وبعضه على اصطلاحات فلكية وأوهام تنجيمية لا تفيد علماً صحيحاً .

وأما علماء الكون في هذا العصر فلمهم منهج في عمر الأرض الماضي ومنهج آخر في تاريخ البشر وآثارهم في القرون الخالية : منهجان علميان مبنيان على ما عرف بالحفر من طبقات الأرض وما كشف من آثار أعمال البشر ومن عظام موتاهم ودفنهم ، وهم يجزمون أن عمر الدنيا الماضي يعد بألوف الألوف من السنين وقد وجدت آثار للبشر فيها منذ مئات الألوف منها ، وذلك ينقض ما في سفر التكوين في المسائلتين ، ولكنه لا ينقض من القرآن كلمة ولا حرفاً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وكذلك أحاديث الرسول القطعية أو الصحيحة الصريحة القريبة من القطعية ، التي لا شبهة فيها للدسائس الاسرائيلية ، ولا للدكايد الفارسية الجوسية . وإنما نتم هذا البحث بفضل وحيز في أشراط الساعة وأماراتها لأننا ألمنا في هذا الفصل بذكر أهمها ، وفيها من الشبهات ما في مسألة عمر الدنيا وقام الساعة الغمهم أماراتها فنهول :

أشراط الساعة وأمارتها

إن للساعة أشراطاً ثبتت في الكتاب والسنة قال تعالى (٤٧: ٢٠) فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ؟ فأنتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) الأشراط جمع شرط بفتح حاء كآسباب جمع سبب وهى العلامات والأمارات الدالة على قربها وأعظمها بثمة خاتم النبيين ، بآخر هداية الوحي الإلهى للناس أجمعين ، لأن بعثته ﷺ قد كل بها الدين ، كما قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وبكمله تكمّل الحياة البشرية الروحية ، وينلوها كمال الحياة البشرية المدنية ، وما بعد السكّال إلا الزوال ، لأن البقاء فى هذا العالم محال ، وقد ورد أن نبينا ﷺ نبي الساعة وتقدم حديث الصحيحين « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقد وردت أحاديث أخرى فى أشراط الساعة يدل بعضها على أن الشهورات المادية تتنازع مع الهداية الروحية ، فيكون لها الغلب زماناً ثم تنتصر الهداية الروحية زماناً قصيراً ، ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر ، حتى تقوم الساعة على شرار الخلق ، ولكن فى هذه الأحاديث اختلافاً وتعارضاً وما ينافى حكمة الله تعالى فى إخفائها وعدم اطلاع الخلق على وقتها وبعضها ظاهر فى قرب قيام ساعة دولة العرب أو دولة الإسلام

ومن الأحاديث الصحيحة الواردة فى إقبال الدنيا وسعتها من أمارات الساعة حديث جبريل الذى رواه مسلم فى صحيحه عن عمر بن الخطاب (رض) وفيه أن جبريل عليه السلام لما جاء فى صفة رجل غريب وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ليعلم الصحابة (رض) كيف يسألون عن دينهم - ثم سأله عن الساعة قال « فأخبرنى عن الساعة ؟ قال ﷺ ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال فأخبرنى عن أمارتها قال : أن تلد الأمة ربّتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » وروى هذا السؤال وحده ابن أبى شيبه والبخارى ومسلم وغيرهم من حديث أبى هريرة قل « كان النبي ﷺ يوماً بارداً للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربّتها فذاك من أشراطها ، وإذا كانت

الحفاة العراة رعاء الشاء رموس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا تناول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها « قيل معنى ولادة الأمة ربها كثرة السراري وأولاد السبايا - وكان لهذا طور عظيم في الفتوحات الإسلامية - وقيل معناه أن الملوك والأمراء يكونون من أولاد السراري لأمن أولاد بنات البيوتات العريقة في حسن التربية وعلو الأخلاق ، والمراد بصيرورة رعاء (بالهمزة) أى رعاء الغنم وأهل البداوة من أصحاب الثروة والبذخ والقصور العالية أن يكون من هذه الطبقة رؤساء للناس كما في حديث أبي هريرة وهذا قد ظهر أيضاً في أمتنا وفي غير هامن الأمم ، وصار بعض تسود هذه الطبقة وأمثالهم في هذا العصر معدوداً في مناقبه بعد فساد تربية كثير من أسرا الأشراف والنبلاء واستغلالهم على الناس بالباطل ، وكان هذا من أمارات زوال الدولة العربية أو الإسلامية فهو يظهر في علامات الساعة الخاصة لا العامة وأجمع الأحاديث الصحيحة السند فيما يكون قبل الساعة مارواه البخاري من حديث أبي هريرة ، وروى هو وغيره ما ذكر فيه في أحاديث أخرى مفصلة وهذا نصه عن أبي هريرة مرفوعاً (*)

« لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتها واحدة ^(١) وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول

(*) في هذا الحديث أحد عشر شرطاً أوردها البيهقي في البعث في سبعة أحاديث أدمج في الثالث منها قبض العلم وكثرة الزلازل وتقارب الزمان وكثر الهرج فأول كل حديث منها « لا تقوم الساعة حتى » يكون كذا - فاذا عدت « حتى » في هذا الحديث وجدتها سبعة - ولذلك قال : أخرج البخاري هذه الأحاديث السبعة عن أبي اليمان عن شعيب الخ واستشكل الحافظ في الفتح عدها سبعة إذ هو لا مند عن إدماج ٤ أشراط في حديث واحد . ومعنى كلام البيهقي أن ما هنا سبعة أحاديث متفرقة جمعها البخاري في واحد

(١) المراد بالفئتين فئة على الامام الحق وفئة معاوية الباغية - وهذا أول أشراط قيام ساعة لدولة العربية أو الإسلامية المقيدة بالشورى ونصوص الكتاب والسنة

الله^(٢) وحق يقبض العلم^(٣) وتكثر الزلازل^(٤) ويتقارب الزمان^(٥) وتظهر

(٢) من هؤلاء الدجالين في المتأخرين الباب والبهاء الايرانيان - على أن الثاني ادعى الألوهية - ومسيح الهند القادياني الدجال وأتباعه لا يزالون يدعون النبوة . وفي حديث ثوبان الجزم بعدد الثلاثين مع زيادة « وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدى » قال الحافظ أخرجه أبو داود والترمذي وصححه ابن حبان وهو طرف من حديث أخرجه مسلم ولم يسق جميعه . وذكر روايات أخرى منها حديث عبد الله بن عمرو بن عبيد أحمد وأبي يعلى وفيه زيادة « قلت ما آياتهم ؟ قال : يأتونكم بسنة لم تكونوا عليها يغيرون بها سنتكم فإذا رأيتموه فاجتنبوهم »

(٣) حديث قبض العلم مفصل في حديث عبد الله بن عمرو في الصحيحين مرفوعاً « ان الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولا سكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم - وفي رواية : لم يبق عالم - اتخذ الناس رؤساء جهلاً فاستلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » والمراد علم الدين والهداية لا علوم الدنيا والغواية . (٤) في حديث سلمة بن قهيل - عند أحمد - « وبين يدي الساعة سنوات الزلازل » فيظهر منه أنها تكثر قبيل الساعة بسنوات قليلة عما يهدد الناس في كل زمان، والا فهي دائماً كثيرة في مجموع الأرض . وللأسفة نفسها زلزلة عظيمة تتقدم الساعة التي هي الطامة الكبرى . اقرأ (١: ٢٢) إن زلزلة الساعة شيء عظيم (الحج : ٩٩) إذا زلزلت الأرض زلزالها (الحج

(٥) ذكر تقارب الزمان واقتربه في عدة أحاديث في الصحاح وغيرها مجملاً وأخرج الترمذي من حديث أنس وأحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً « لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتسكون السنة كسهر والشهر كالجمعة والجمعة كالיום واليوم كالحقارة السفة » وقد اختلفوا في معنى ذلك هو حسي أو معنوي ؟ وهل المراد الزمان نفسه أو أهله ؟ فقيل إن المراد به استلذاذ العيش ووفرة النعيم حتى لا يشعر الناس بالزمان كما قال الشاعر * وعمر النسر معكم بعض يوم * وقيل المراد به نزع البركة منه وقيل تقارب أهله في قلة الدين الخ ما قالوا ، ويرى بعض أهل هذا الزمان أن المراد قد يكون ما هو حاصل من تقارب المواصلات وقطع المسافات البعيدة في الزمن القصير براً وبحراً وجواً - وهذا أظهر من كل ما قالوه ، وأليق بكونه إخباراً عن غيب لا مجال للرأى فيه ولا يعرف إلا بوحي من الله تعالى وما قالوه يختلف

الفن^(٦) ويكثر الهرج وهو القتل^(٧) وحتى يكثرفيكم المال فيفيض حتى بهم

باختلاف الناس في كل زمان ، فترى مثل القاضي عياض والنووي يرجحان ان معنى الحديث نزع البركة من الزمان ويوافقهما على ذلك الحافظ ابن حجر فيقولون ان الانتفاع باليوم قد صار بمقدار الانتفاع بالساعة . وهو وهم ظاهر ، ونحن نقول ان بعض ما يعمل الآن في ساعة واحدة لم يكن يمكن عمله في يوم وما يعمل في يوم واحد كان يحتاج فيه إلى اسبوع الخ ولو كانت البواخر والقطارات الحديدية والطيارات في عصر الذين كانوا يرحلون من قطار إلى قطار لتلقى الحديث لتيسر لمثل البخاري أن يتلقى في سنة واحدة ما تلقاه في سنين أو عمره كله

(٦-٧) ظهور الفن وكثرة القتل قد وقع في كل عصر في البلاد الاسلامية وغيرها ، فلا يمكن عدها من العلامات التي تكون بين يدي الساعة إلا أن أريد بها ساعة ملك الأمة العربية أو الاسلامية فالأمر حيثئذ يكون ظاهرا ويكون المراد به مافصل في أحاديث أخرى كاعتداء الترك وقتلهم للعرب وسلبهم ملكهم وإخراجهم من عراقهم وفي ذلك عدة أحاديث في الصحاح والسنن والمسائيد ومن أصرحها حديث معاوية عند أبي يعلى مرفوعا « ان الترك تجلب العرب حتى تلحقها بمنابت الشيخ » يعني بوادي جزيرة العرب — وحديث « ان بني قنطوره أول من يسلب امتي ملكهم » رواه الطبراني عنه أيضا قال الحافظ : وكأنه يريد بقوله « امتي » أمة النسب لأمة الدعوة — يعني العرب والله أعلم اه وورد أن من اشراط الساعة فتح القسطنطينية وهو في الصحاح قال شيخ شيوخنا العلامة الشيخ محمود نشابة : معناه أن العرب يفتحونها من أشقياء الترك ولم يكن الشيخ من أهل السياسة ولا كان في زمنه شيء من التعادى بينهم وبين العرب ، دع : افعلة الحكومة التركية في هذا الزمان ، من ترك شريعة الاسلام ، وكان مسلمو الترك يحملون الأحاديث على فتح السلطان محمد لها ولكنها صريحة في أن فتحها ينلوه في عهد ظهور الدجال وإذا حل الهرج وكثرة القتل على ما حدث في هذا الزمان من الفن ومن كثرة القتل بما استحدثت من آلات الحرب النارية بحيث يقتل في يوم واحد ما لم يكن يمكن حدوثه في سنة أو سنين قبلها لكان أبلغ في الإخبار بالغيب فقد هلك في الحرب الاوربية الأخيرة زهاء عشرة آلاف الف (١٠ ملايين) في أربع سنين ولم يقع مثل ذلك في عدة قرون قبل هذه الآلات الحديثة.

رب المال من يقبل صدقته^(٨) وحق يتناول الناس في البنيان^(٩) وحق يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتني مكانه^(١٠) وحق تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)^(١١) ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يلميط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » وتقدم تفسير هذه الجمل الأخيرة .

وفي الأحاديث اشراط وأمارة أخرى بعضها صار عادياً وبعضها غريب ويقول علماءنا ان منه ما وقع ، وباقية يتوقع ، وفيها تعارض وتناقض ومشكلات حار العلماء في الجمع بينها وانني أتكلم عنه كلاماً إجمالياً عاماً ، وأبسط الكلام في أهمها بسطاً خاصاً ، ولا سيما أحاديث الدجال والمهدي ، فألق له السمع ووجه إليه النظر ، فهو يحل العبرة لمن اعتبر .

(٨) كثرة المال فسرت بما حدث للمسلمين من الثروة في الفتوحات من عهد الصحابة ويصح تخصيص كثرة بهم إذا كان المراد بالساعة ساعتهم فان كثرة المال كانت سبباً للترف الذي كان سبباً لنزوال ملكهم كغيرهم . وإذا أريد بالساعة العامة فيمكن أن يكون المراد ما ترى مقدماته من كثرة الثروة العامة في العالم .

(٩) التناول في البنيان تقدم ذكره في حديث جبريل وهو ما حصل منذ قرون كثيرة ويقال فيه ما قلناه فيما قبله ، وقد وصل التناول فيه الآن إلى أن صارت المباني تناطح السحاب ، ولا يمكن الصعود إليها إلا بالمعارج والمصاعد الكهرومائية فإذا كانت في مصر لا تزيد على بضع طبقات ففي أميركا قد صار البناء الواحد مؤلفاً من عشرات من الطبقات فهذا هو التناول الذي لم يمهده له نظير من قبل .

(١٠) تمنى الموت حصل ويحصل في أوقات الضيق والبلاء من كل زمان ولا يكون من اشراط الساعة العامة إلا إذا صار عاماً فهو هذا المعنى من الاشراط المستقبلة (١١) طلوع الشمس من مغربها هو أعظم الاشراط الكبرى بين يدي الساعة وقد تقدم تفصيل القول فيه في تفسير الآية ١٥٩ من أواخر سورة الانعام فيراجع

﴿ نظرة في أشراط الساعة وتقاسيمها ومشكلاتها ﴾

اعلم أيها المسلم الذي يجب أن يكون على بصيرة من دينه أن في روايات الفتن واشراط الساعة من المشكلات والتعرض ما ينبغي لك أن تعرفه ولو إجمالاً حتى لا تكون مقلداً لمن يظنون أن كل ما يعتمد أصحاب النقل حق ، ولأن يظنون أن كل ما يقوله أصحاب النظريات العقلية حق ، فان الله تعالى يقول (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الآية ، وقال خاتم رسله ﷺ (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وانني أبين فيه ما يطمئن به قلب القانع بالاجمال ، ويفتح باب التحقيق لطالب التفصيل ، فأقول :

ان العلماء جملوا ما روى من اشراط الساعة وأماراتها ثلاثة أقسام : ما وقع بالفعل منذ قرون خلت إلى زمن كل من تكلم في ذلك منهم ، وقد عدوه عدا — وما وقع بعضه وهو لا يزال في ازدياد كالفتن والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين وكثرة النساء وتشبههن بالرجال والكفر والشرك حتى في بلاد العرب . وما سيقع بين يدي الساعة من العلامات الصغرى والكبرى — ومن الأولى قتال اليهود وفتح بيت المقدس والقسطنطينية .

وتنقسم باعتبار آخر إلى ما عهد ويعهد مثله في كل الأمم من الفتن والقتال وسعة الدنيا وضيقها ، وقيام الدول وسقوطها ، والفسق من زنا ولواط وسكر ، الخ والابوثة والزلازل ، وهذا لا يشعر جماهير الناس بأن له علاقة ما بقيام الساعة الكبرى ، وإلى ما هو غريب غير مألوف كظهور يأجوج وأجوج والدجال والمهدي والمسيح وطلوع الشمس من مغربها ، وأما الزلازل والخسوف وظهور النجوم ذوات الأذنان أو الأذيال ، فقد صارت من الأمور المعتادة المعروفة بين الناس .

وباعتبار ثالث إلى ما هو علامة على قيام ساعة الجليل أو الدولة كذهاب الأمانة وتوسيد الأمر إلى غير أهله ، وما هو آية على قرب الساعة العامة الكبرى .

ويرد من الاشكال على ما ذكر أن ما ورد من الاشراط الصغرى المعتاد مثلها التي تقع عادة بالتدريج لا يذكر بقيام الساعة ولا تحصل به الفائدة التي من أجلها

أخبر الشارع بقرب قيام الساعة — وأن ماورد من الاشرط الكبرى الخارقة للعادة يضع العالم به في مأمن من قيام الساعة قبل وقوعها كلها فهو مانع من حصول تلك الفائدة ، فالمسلمون المنتظرون لها يعلمون أن لها أشرطاً تقع بالتدريج فهم آمنون من مجيئها بغتة في كل زمن ، وإنما ينتظرون قبلها ظهور الدجال والمهدي والمسيح عليه السلام ويأجوج وماجوج ، وهذا الاعتقاد لا يفيد الناس موعظة ولا خشية ، ولا استعداداً لذلك اليوم أو لتلك الساعة ، فما فائدة العلم به إذا ؟ وهل من الحكمة أن تكون فائدتها محصورة في وقوع الرعب في قلوب الذين يشاهدون هذه الآيات الكبرى ولا سيما آخر آية منها ؟ وكيف يتفق هذا وماورد من كون كل رسول كان يخوف قومه وينذرهم الساعة والدجال قبلها ؟ وكيف وقع هذا منهم ولم يصدقوا الواقع ومثله لا يكون بمحض الرأي ؟ وهل كان نبينا ﷺ يريد بالاخبار بها تأمين الناس من قيام الساعة مدة قرون كثيرة إلى أن تظهر هذه الاشرط ؟ أم كان يتوقع ظهورها بعد سنة في قرنه أو فيما يقرب منه كغيره من الرسل بدليل ماورد من تجويزه ظهور الدجال في زمنه ، وتصديقه ما حكاه تميم الداري من خبر الجساسة وكون الدجال محبوساً في جزيرة ؟

الاشكال والاشتباه في روايات الدجال

قد تقدم ما قاله ابن الجوزي من كونه ﷺ كان يقدر في هذه المسائل تقديرًا ، إذ لم يوح الله تعالى إليه أخبارها تفصيلاً ، وعدم ذلك ماورد في احتمال ظهور الدجال في زمنه وقال النووي في شرح أحاديث ابن صياد من صحيح مسلم : قال العلماء وقصته مشكلة وأمره مشتبه : . . . وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره ، وإنما أوحى إليه بصفات الدجال وكان في ابن صياد قرآن محتملة ، لذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره ولهذا قال لعمر « إن يكن هو فلن تستطيع قتله » اهـ ولا بأس ببيان ما أشار إليه النووي من الاشكال والاشتباه بشيء من التفصيل.

إن أحاديث الدجال مشكلة من وجوه (أحدها) ما ذكرناه آنفاً من منافاتها لحكمة إنذار القرآن الناس بقرب قيام الساعة وإتيانها بغتة

(ثانيها) ما ذكر فيها من الخوارق التي تضاهي أكبر الآيات التي أيد الله بها أولى العزم من المرسلين أو تفوقها ، وتعد شبهة عليها كما قال بعض علماء الكلام وعده بعض المحدثين ذلك من بدعتهم ، ومن المعلوم أن الله ما آتاه هذه الآيات إلا لهداية خلقه ، التي هي مقتضى سبق رحمته لغضبه ، فكيف يؤتي الدجال أكبر الخوارق لفئة السواد الأعظم من عباده ؟ فإن من تلك الروايات أنه يظهر على الأرض كلها في أربعين يوماً إلا مكة والمدينة ، وقد روى أبو نعيم في الحلية عن حسان ابن عطية من ثقات التابعين أنه لا ينجو من فتنة الدجال إلا اثنا عشر ألف رجل وسبعة آلاف امرأة . قال الحافظ في الفتح وهذا لا يقال من قبل الرأي فيحتمل أن يكون مرفوعاً أرسله ، ويحتمل أن يكون أخذه عن بعض أهل الكتاب اه وهو الصحيح المختار عندي

(ثالثها) وهو من متعلقات ما قبله أن ما عزی اليه من الخوارق مخالف لسنن الله تعالى في خلقه وقد ثبت بنصوص القرآن القطعية أنه لا تبدل لسننه تعالى ولا تحويل . وهذه الروايات المضطربة المتعارضة لا تصلح لتخصيص هذه النصوص القطعية ولا لمعارضتها

(رابعها) اشتمال بعض هذه الأحاديث على مخالفة بعض القطعيات الأخرى من الدين كتخلف أخبار الرسل أو كونها عبثاً وإقرارهم على الباطل وهو محال في حقهم (خامسها) أنها متعارضة تعارضاً كثيراً يوجب تساقطها كما ترى فيما يلي

فن ذلك التعارض أن بعضها يصرح بأنه ﷺ كان يرى من المحتمل ظهور الدجال في زمنه وأنه يكفي المساهدين حينئذ شره ، وبعضها يصرح بأنه يخرج بعد فتح المسلمين لبلاد الروم والقسطنطينية (ومنه) أنه كان يشك في ابن صياد من يهود المدينة هل هو الدجال أم لا ؟ وأنه وصف ﷺ الدجال بصفات لا تنطبق على ابن صياد كما قال ابن صياد نفسه لأبي سعيد الخدري (رض)

ومن التعارض أيضاً أنه يصرح في بعض الروايات بأنه يكون معه (أي الدجال) جبل أو جبال من خبز ونهراً أو أنهار من ماء عسل ، كما رواه أحمد والبيهقي في البعث عن رجل من الأنصار وعن جابر بن عبد الله بسند رجاله ثقات مع

مارواه الشيخان واللفظ للبخاري من حديث المغيرة بن شعبة قال « ما سألت أحد النبي ﷺ عن الدجال ما سألته وإنه قال لي : ما يضرك منه ؟ قلت لأنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء . قال « بل هو أهون على الله من ذلك » وفي رواية مسلم « يقولون إن معه جبال خبز ولحم ونهر من ماء » وقد أولوا هذا لتصحیح ذلك ، ويتأمل قول جابر « يقولون إن معه كذا وكذا » ولم يقل : إنك قلت هذا ومن التعارض أيضا ماورد من اختلاف الروايات في المكان الذي يخرج منه ، ففي بعض الروايات أنه يخرج من قبل المشرق على الإيهام . وفي حديث النّوّاس بن سميان عند مسلم أنه يخرج من خلة بين الشام والعراق . وفي رواية أخرى لمسلم أنه يخرج من أصفهان ، وفي حديث الجساسة عنده أنه محبوب بدير أو قصر في جزيرة في بحر الشام - أي البحر المتوسط وهو في الشمال - أو بحر اليمن وهو في الجنوب وأنه يخرج منها ، وروى أحمد والحاكم أنه يخرج من خراسان . وقد حارل شراح الصحيحين وغيرهم الجمع بين الروايات المتعارضة في كل مسألة فجاءوا بأجوبة متكلفة ردّها المحققون كلها أو أكثرها ، وفيها من المشكلات غير ماأشرنا اليه ، ولا سيما الروايات في ابن صياد وما كان من حلف عمر بن الخطاب (رض) عند النبي ﷺ إنه هو الدجال وإقراره ﷺ بإياه على ذلك ومتابعة جابر ابن عبد الله بإياه على هذا الحلف كما في الصحيحين عنه .

وقد أجاب بعضهم عن الأخير بأن هذا التقرير قد نقضه النصر بج منه (ص) لعمر بخلافه حين قال له « دعني أضرب عنقه فقال إن يكن هو فلن تسلط عليه » الخ الحديث وهو في الصحيح ، وقد رد الحافظ ابن حجر بعض تأويلات الحافظ البيهقي في مولد ابن صياد وصفاته وفي إقرار النبي (ص) لعمر على حلفه ، وعدة قصة تميم الداري مرجحة لكونه غير ابن صياد ، وكون عمر كان يحلف حلفه قبل سماعه لهذه القصة — لهذا أخص هذا الحديث بشيء من التفصيل فاقول : إن فيه عدة مباحث (١) كان تميم الداري من عرب فلسطين (سورية) وقد وصف بأنه كان راهب زمانه وقد جاء هو وأخوه نعيم المدينة في آخر عهد النبي (ص) سنة تسع من الهجرة وأسماوا حدث هو النبي ﷺ بحكاية الجساسة الغربية ، وذكروا أنه كان

بعد إسلامه من العباد ومن القصاصين ولم يذكر لأحد شبهة فيه بل عدوا من مناقبه أن النبي ﷺ روى عنه ، وستعلم ما فيه ، فهذه مقدمة .

(٢) رواية الحديث عنه في صحيح مسلم بطوله ومشكلاته هي فاطمة بنت قيس من المهاجرات وقالت « إن النبي ﷺ جمع الناس في المسجد رجالاً ونساء وحدثهم على المنبر بما سمع من تميم من هذه الحكاية » وقد رواه عنها الشعبي وحده ، وهو على جلالته قد روى عن كثير من الصحابة الذين لم يروهم ولم يسمع منهم ، ولكن المحدثين أثبتوا على مراسيله على أنه صرح بالسماع منها ، وسيأتي من رواه غيرها وغيره (٣) من علل هذا الحديث إذ أنه من الأحاديث التي تتوفر الدواعي على نقلها بالتواتر

لغرابة موضوعه ولاهتمام النبي (ص) به وجمعه الناس له وتحدثه به على المنبر واستشهاده بقول تميم على ما كان حدثهم به قبل إسلامه ، ولسماع جمهور الصحابة له منه (ص) فمن غير المعقول أن لا يروى إلا أحاديثاً يؤيده امتناع البخاري عن إخراجها في صحيحه لشدة تجرعه ، وقد أجاب الحافظ في الفتح عند شرح حديث جابر في ابن صياد من كتاب الاعتصام عن هذا الاعلال بقوله : ولشدة التباس الأمر في ذلك - أي الاختلاف بينه وبين حديث ابن صياد - سلك البخاري مسلك الترجيح فاقصر على حديث جابر عن عمر في ابن صياد ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم ، وقد توهم بعضهم أنه غريب فرد وليس كذلك فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر - أما أبو هريرة فأخرجه أحمد من رواية عامر الشعبي عن الحرز بن أبي هريرة عن أبيه بطوله ، وأخرجه أبو داود مختصراً وابن ماجه عقب رواية الشعبي عن فاطمة قال الشعبي : فلقيت الحرز فذكره ، وأخرجه أبو يعلى من وجه آخر عن أبي هريرة .. وأما حديث عائشة فهو في الرواية المذكورة عن الشعبي قال : ثم لقيت القاسم بن محمد فقال أشهد على عائشة حدثتني كما حدثتك فاطمة بنت قيس ، وأما حديث جابر فأخرجه أبو داود بسند حسن من رواية أبي سلمة عن جابر وذكر لفظه .

أقول : إن ما ذكره الحافظ لا ينفى كون الحديث من الآحاد والمقام مقام التواتر لما ذكرناه من أسباب توفر الدواعي ، ولا ينفى أيضاً كونه غريباً أيضاً وإن لم يكن فرداً فقد انحصرت الإسانيد لروايته في الشعبي وفي فاطمة بنت قيس . وأما ما رواه

أبو داود من طريق الوليد بن عبد الله بن جميع عن ابن أبي سلمة عن جابر فوه على كونه ليس من الصحيح مختصروا وليس فيه اسناد الحكاية إلى تميم الداري بل لا يزيد لفظ المرفوع فيه عن هذه الجملة « بينا أناس يسرون في البحر فنقد طعامهم فرفقت لهم جزيرة فخرجوا يريدون الخبز فلقيتهم الجساسة » قال أبو الوليد بن عبد الله فقلت لأبي سلمة وما الجساسة ؟ قال امرأة تجر شعر جلدها ورأسها قالت في هذا القصر - فذكر الحديث - وسأل عن نخل بيسان وعن عين زغر ؟ قال هو المسيخ . فقال لي ابن أبي سلمة أن في هذا الحديث شيئاً ما حفظته ، قال شهد جابر أنه هو ابن صائد وفي نسخة - ابن صياد - فقلت أنه قد مات قال وإن مات . قلت فأنه قد أسلم قال وإن أسلم . قلت فأنه قد دخل المدينة قال وإن دخل المدينة أه سياق أبي داود بحروفه

أقول : وهو لا يقوى تلك الروايات وليس فيه شيء من مشكلاتها المعنوية وغرائبها بل قواه الحافظ بها فجعله حسناً لاجلها وهو يعلم أن الوليد بن عبد الله ابن جميع (بالنصفير) الزهري راويه عن أبي سلمة ضعيف وإن روى عنه مسلم فقد قال هو نفسه (أي الحافظ) في تهذيب التهذيب فيما زاده على أصله أن ابن حبان ذكره في الضعفاء وقال أنه ينفرد عن الاثبات بما لا يشبه حديث الثقات فلما فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به ، وذكر عن الحاكم أنه لو لم يخرج له مسلم لكان أولى . اهـ وفي رواية أبي داود عن فاطمة مخالفة لرواية مسلم من وجه آخر لا غرض لنا في ذكره إذ لا نريد استقصاء كل ما في هذه الأحاديث من التعارض والخلاف .

(٤٠٥) من الاشكال المعنوي في هذه الحكاية أن تميم وأصحابه الثلاثين كانوا من عرب الشام والنبادر أنهم ركبوا سفينتهم من بعض نفوزهم في البحر المتوسط وقد ذكرت فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ قال بعد أن سرد للناس الحكاية « فأنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم به عنه - أي الدجال - وعن المدينة ومكة . ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن - لا بل من قبل المشرق . ما هو من قبل المشرق ، ما هو من قبل المشرق ، ما هو ؟ وأروأ بيده إلى المشرق . قالت فحفظت هذا من حديث رسول الله ﷺ اهـ »

فان صح الحديث رواية فهذا التردد من النبي ﷺ في مكان الجزيرة التي ذكرها نعيم الداري في أى البحرين هي؟ ثم اضرا به عنهما وجزمه بأنه في جهة المشرق الخ إشكال آخر في متنه ينظر إلى اختلاف الروايات الأخرى في مكان الدجال بعين، وينظر إلى اختلاف الروايات في ابن صياد بالعين الأخرى، وينظر بالعينين كليهما إلى سبب هذا التردد ومنافاته لأن يكون كلامه صلوات الله وسلامه عليه في أمر الدجال عن وحي من الله تعالى وسأتكلم في سببه في هذا البحث على تقدير صحة الرواية ثم أين هذه الجزيرة التي رفا إليها نعيم وأصحابه في سفينتهم؟ إنها في بحر الشام أو بحر اليمن كما في اللفظ المرفوع - إن صح الحديث - أى الجهة المقابلة لسواحل سورية من البحر المتوسط، أو الجهة المجاورة لشواطئ اليمن من البحر الأحمر، وكل من البحرين قد مسح البحارة في هذه الأزمته مسحاً، ورجابوا سطوحهما طولا وعرضا، وقاسوا مياههما عمقا عمقا، وعرفوا جزائرهما فرداً فرداً، فلو كان في أحدهما جزيرة فيها دير أو قصر حبس فيه الدجال وله جساسة فيها تقابل الناس وتنقل إليه الأخبار، لعرف ذلك كله كل الناس، وما قاله شارح المشارق من تنقل الدجال في البحرين أو من الجانب الشامي إلى الجانب اليمني بناء على زعمه أن البحر واحد - وما قاله الحافظ من انتقاله إلى اصفهان ليخرج منها مع سبعين ألفاً من يهودها - كلاهما من الدعوى التي لا أصل لها من النقل، ولان المقبول في نظر العقل، وإنما يستنبطونها للجمع بين الروايات المتعارضة التي يعز عليهم أن يرجعوها إلى قاعدتهم، تعارضت فتساقطت « حتى إن الحافظ رضى لنفسه في هذا الجمع أن يقر قول من قال إن ابن صياد شيطان تبدى في صورة الدجال في تلك المدة إلى أن ذهب إلى اصفهان الخ وهو يحفظ تلك الروايات الكثيرة في ولادته بالمدينة ونشؤه فيها، ثم اسلامه وحججه ثم موته فيها، على انه يحفظ بعض الروايات المضعفة لهذا (٦) في الألفاظ المرفوعة من حكاية الجساسة أن النبي ﷺ لم يقر تماماً على كل ما حكاها، بل على بعضه وهو قوله « فانه أعجبني من حديث نعيم انه وافق الذي كنت أحدثكم به عنه (أى عن الدجال) وعن المدينة ومكة » أى أنه لا يدخلهما. وقوله بعده « ألا انه في بحر الشام أو اليمن، لا بل من قبل المشرق » الخ مانقدهم

آخفاً وترجيح جميع العلماء روايات جهة المشرق دليل على أنه ليس في بحر الشام ولا بحر اليمن لأن الشام في جهة الشمال من المدينة واليمن في جهة الجنوب منها فلا شيء منهما بمشرق . قال الطيبي : لما تيقن عليه السلام بالوحي أنه من قبل المشرق نفى الأولين ، وظاهر العبارة يدل على أن النبي ﷺ صدق نبيهما في أول الأمر ولذلك قال « ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن » بالتأكيـد بأن والبدء بأداة الاستفتاح « ألا » ثم كوشف في موقعه بأنه ليس في هذا ولا ذاك ، بل في جهة المشرق

(٧) ههنا يجيء إشكال آخر وهو أن نفى النبي ﷺ لبعض قول تميم يبعال الثمة به كاه ، ويحصر عجه ﷺ في شيء واحد منه لا يعرف بالرأى وهو موافقته لما سبق إخباره به ﷺ من ظهور الدجال وكونه لا يدخل مكة ولا المدينة . وإن بقي الإعجاب مما ذكر منه في محله ، وقد يتفصون من هذا بأن الدجال كان قبل اسلام تميم وحديثه قد خرج من تلك الجزيرة التي رآه فيها فذهب إلى اصبهان أو غيرها من المشرق ، ويرده أن ما نقله عنه تميم صريح فيما ينافي ذلك وهو أن وثاقه الشديد إنما يحل عند الاذن له في الخروج وأنه صار قريباً بعد ظهور العلامات التي ذكرها قال : أنى أنا المسيح وأنى أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان على الخ فمطغه الخروج على الاذن بالفاء والسير على الخروج بالفاء نص في أنهما على التعميق لافاصل بين هذه ولا تلك ، والأقرب إلى الخروج من كل هذه المشكلات أن تكون الرواية مصنوعة

(٨) ننقل من هذه المبحث إلى مبحث قوى الصلة به وهو إذا لم نعد ما فيه من نفى النبي ﷺ لما أثبتته تميم من وجود الدجال في أحد البحرين وفاقاً للعلامة الطيبي الشهير — فهل يجب أن تكون حكايته ﷺ لما حدثه به تميم تصديقاً له ؟ وهل كان ﷺ معصوماً من تصديق كل كاذب في خبر فيعتمد تصديقه لحكاية تميم دليلاً على صدقه فيها ؟ ويعد ما يرد عليها من إشكال وارداً على حديث له حكم المرفوع ؟ وفي منعه إقراره ﷺ لعمر على حلفه بأن ابن صياد هو الدجال كما تقدم إن ما قالوه في العصمة لا يدخل فيه هذا فالجمع عليه هو العصمة في التبليغ عن

الله تعالى وعن تعمد عصيانه بعد النبوة . قال السفاريني في شرح عقيدته . قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين : وأنهم معصومون فيما يؤدبون عن الله تعالى وليسوا معصومين في غير ذلك . وقال ابن عقيل في الارشاد : إنهم عليهم السلام لم يعصموا في الأفعال ، بل في نفس الاداء . قال ولا يجوز عليهم الكذب في الأقوال فيما يؤدونه عن الله تعالى . وقال الحافظ العراقي : النبي ﷺ معصوم من تعمد الذنب بعد النبوة بالاجماع ، ولا يعتمد بخلاف بعض الخوارج والحشوية الذين نقل عنهم تجوز ذلك إلخ اهـ ملخصاً وتصديق الكاذب لا يعد ذنباً . وقد ثبت أنه ﷺ كان يصدق بعض ما يفتره المنافقون حتى يخبره الله بما كان من المصلحة اخباراً به منه كما وقع في غزوة تبوك وغيرها وصدق بعض أزواجه في القصة المشار إليها في سورة التحريم حتى أخبره تعالى به وبأن من أمر إليها الحديث أفشنته وذلك قوله تعالى (قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأني المعلم الخبير) وتردد في حديث أهل الافك وضاق صدره به زمناً حتى نزلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور . فعلى هذا لا يكون ذكره ﷺ لقصة تميم في حكم المرفوع الذي يقوله هو ﷺ كما أن ما يقوله ﷺ برأيه وظنه لا يدخل في عموم ما هو معصوم منه وهو تعمد الكذب كما قال ﷺ في مسألة تلقيح النخل « إنما ظننت ظناً فلا تأخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فاني لن أكذب على الله » وقال فيها أيضاً « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فأنما أنا بشر » رواهما مسلم في صحيحه .

وقال المحقق ابن دقيق العيد في مسألة تقريره ﷺ من أوائل شرح الامام : إذا أخبر في حضرة النبي ﷺ عن أمر ليس فيه حكم شرعي فهل يكون سكوته ﷺ دليلاً على مطابقة ما في الواقع كما وقع لعمر في حلفه على أن ابن صياد هو الدجال فلم ينكر عليه ، فهل يدل عدم انكاره على أن ابن صياد هو الدجال كما فهمه جابر حتى صار يحلف عليه ويستند إلى حلف عمر ، أو لا يدل ؟ فيه نظر ، والاقرب عندي أنه لا يدل لأن مأخذ المسألة ومناطها هو العصمة من التقرير على

باطل وذلك يتوقف على تحقق البطالان ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة الخ . نقله عنه الحافظ في الفتح ملخصاً

(٩) إن في روايات هذه الحكاية اختلافات أخرى كقوله في أطولها عن تميم « أنه ركب سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من ظم وجذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر ثم أرفؤا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة » وقوله في رواية أخرى « حدثني تميم الداري أن أناساً من قومه كانوا في البحر في سفينة لهم فانكسرت بهم فركب بعضهم على لوح من ألواح السفينة فخرجوا إلى سفينة في البحر » وفي رواية « إن بني عم تميم الداري ركبوا في البحر » وفي رواية « أنه ركب البحر فتأهت به سفينة فسقط إلى جزيرة فخرج إليها يلتئم المساء فلقى أناساً يبحر شهره » وهذه الروايات كلها في صحيح مسلم والاختلافات فيها متعددة كما ترى ، وفي سائر الروايات ما يزيد على ذلك

وجملة القول في حديث الجساسة أن ما فيه من الملل والاختلاف والاشكال من عدة وجوه يدل على أنه مصنوع ، وأنه على تقدير صحته ليس له كاه حكم المرفوع ، وكذا يقال في سائر أحاديث الدجال المشكلة التي انتقدها الحافظ في الفتح من جهة صامحة علم أصول الحديث وتعارض المتن أو تخالفها للواقع ، وعد من علل بعضها احتمال كونها من الأسرائيليات . فقد ذكر ما أخرجه تميم بن حماد شيخ البخاري في كتاب الفتن من طريق جبير بن نفير وشريح بن عبيد وعمرو بن الأسود وكثير بن مرة قالوا جميعاً « الدجال ليس هو بإنسان وإنما هو شيطان الموتق بسبعين حلقة في بعض جزائر اليمن لا يعلم من أوثقه سليمان النبي أو غيره ؟ فإذا آن ظهره فك الله عنه كل عام حلقة ، فإذا برز أثنه أنان عرض ما بين أذنيها أربعون ذراعاً فيضع على ظهرها منبراً من نحاس ويقعد عليه ويتبعه قبائل الجن يخرجون له خزائن الأرض »

قال الحافظ بعد إيراد هذا : (قلت) ولا يمكن معه كون ابن صياد هو الدجال ولعل هؤلاء مع كونهم ثقات تلقوا ذلك من بعض كتب أهل الكتاب . وأخرج تميم أيضاً من طريق كتب الأخبار أن الدجال تله أمه بقوص من أرض « تفسير القرآن الحكيم » « ٣٢ » « الجزء التاسع »

مصر (قال) وبين مولده ومخرجه ثلاثون سنة (قال) ولم ينزل خبره في التوراة والانجيل وانما هو في بعض كتب الانبياء اه وأخلق بهذا الخبر أن يكون باطلا فان الحديث الصحيح أن كل نبي قبل نبينا أنذر قومه الدجال ، وكونه يراد قبل مخرجه بالمدة المذكورة مخالف لكونه ابن صياد ولكونه موثقاً في جزيرة من جزائر البحر اه المراد من قول الحافظ وهو في شرح كتاب الاعتصام من الفتح

ومنه يعلم أن الحافظ لم يسلم من ضرب بعض هذه الروايات المضطربة المتعارضة المتنافرة ببعض ، وبأنه يجد احتمال الأخذ عن أهل الكتاب على صحيحة لرد روايات الثقات ولو فيما لا مجال للعقل ولا للرأى فيه ، خلافا لما زعمه الزرقاني وتمسك به بعض أنصار الخرافات فمدود مماله حكم المرفوع .

ومنه يعلم أيضاً أن يد بطل هذه الاسرائيليات الاكبر كعب الاحبار قد لعبت
لعبها في مسألة الدجال (في كل واد أثر من ثعلبية) وقول كعب: إن ما ذكره من ولادة
الدجال بقوص في كتب بعض الانبياء كذب وافتراء

وهناك روايات أخرى عنه منها ما نقله الحافظ في شرح كتاب الفتن عن نعيم
ابن حماد في كتابه المذكور عنه قال (أى كعب) يتوجه الدجال فيتزل عند باب
دمشق الشرق، ثم يلتمس فلا يقدر عليه ، ثم يرى عند المياه التي عند نهر الكسوة
ثم يطلب فلا يدرى أين توجه، ثم يظهر بالشرق فيعطى الخلافة، ثم يظهر الساحر،
ثم يدعي النبوة فتتفرق الناس عنه فأتى النهر فيأمره أن يسيل فيسيل ثم يأمره أن
يرجع فيرجع، ثم يأمره أن يبس فيبس، ويأمر جبل طور وجبل زينا أن ينتحيا
فينتحيا، ويأمر الريح أن تثير سحابا من البحر فتطر الأرض ويخوض البحر في كل
يوم ثلاث خوصات فلا يبلغ حقويه، وإحدى يديه أطول من الأخرى فيمد الطويلة
في البحر فتبلغ قمره فيخرج من الحيتان ما يريد اهـ

بمثل هذه الخرافات كان كذب الاحبار يفسد عليهم دينهم
وسمعتهم ، وخذع به الناس لاطهاره النعوى ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم
وجملة اخبار الدجال قالوا انها متواترة يعنون التواتر المعنوى وهو ان لها اصلا

وان لم يتوارث شيء من رواياتها . وبطل القدر المشترك منها على ان النبي ﷺ

كشف له وتمثل له ظهور دجال في آخر الزمان يظهر للناس خوارق كثيرة وغرائب يفتن بها خلق كثير ، وأنه من اليهود ، وأن المسلمين يقاتلونه و يقاتلون اليهود في هذه البلاد المقدسة وينتصرون عليهم ، وقد كشف له ذلك بمجمل غير مفصل ولا يوحى به عن الله تعالى . - كما كشف له غير ذلك من الفتن - فذكره فتناقله الرواة بالمعنى فأخطأ كثير منهم ، وتعمد الذين كانوا يبنون الاسرائيليات الدس في رواياته . ولا يبعد أن يقوم طلاب الملك من اليهود الصهيونيين بتدبير فتنة في هذا المعنى يستعينون عليها بخوارق العلوم والفنون العصرية كالكهرباء والكيمياء وغير ذلك والله أعلم .

✽ التعارض والإشكالات في أحاديث المهدي ✽

وأما التعارض في أحاديث المهدي فهو أقوى وأظهر ، والجمع بين الروايات فيه أعسر ، والمنكرون لها أكثر ، والشبهة فيها أظهر ، ولذلك لم يعتد الشيخان بشيء من رواياتها في صحيحهما . وقد كانت أكبر مشارات الفساد والفتن في الشعوب الاسلامية إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان ، ومن أدعياء الولاية وأولياء الشيطان . لدعوى المهدوية في الشرق والغرب ، وتأييد دعواهم بالقتال والحرب ، وبالبدع والافساد في الارض ، حتى خرج ألوف الألوف عن هداية السنة النبوية ، وصرق بعضهم من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية

وقد كان من حق تصديق الجماهير من المتأخرين بخروج مهدي يجدد الإسلام وينشر العدل في جميع الانام ، أن يحملهم على الاستعداد لظهوره بتأليف عصابة قوية تتمهض بزعامته ، وتساعد على إقامة أركان إمامته ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل تركوا ما يجب لحاية البيضة ، وحفظ سلطان الله بجمع كلمة الامة ، و بإعداد ما استطاعوا من حول وقوة ، فاتكلموا وتواكلوا ، وتنازعوا وتخاذلوا ، ولم يعظم ما نزع من ملكهم ، وماسلب من مجدهم ، اتكالا على قرب ظهور المهدي ، كأنه هو المعيد المبدي ، فهو الذي سيرد إليهم ملكهم ، ويجدد لهم مجدهم ، ويعيد لهم عدل شرعهم ، وينتقم لهم من اعدائهم ولكنه يفعل ذلك بالكرامات وما يؤيد به من خوارق العادات لا بالبوراء أو البندقيات الصارخات ولا بالمداغ الصاخات . ولا بالمطبات المدمرات ، ولا بأساطيل البحار

السابحات والقواصات ، ولا أساطيل المناطيد والطيارات ، ولا بالغازات الخائفات .
وقد كانت الحرب بين خاتم النبيين والمشركون سجالا . وكان المؤمنون ينفرون معه
خفا ووثقا ، فهل يكون المهدي أهدى منه أعمالا ، وأحسن حالا وما لا ؟ كلا

وقد جاءهم النذير ، ابن خلدون الشهير ، فصاح فيهم إن الله تعالى سننا في الأمم
والدول والعمران ، مطردة في كل زمان ومكان ، كما ثبت في مصحف القرآن . ومصحف
الأكوان ؛ ومنها أن الدول لا تقوم إلا بعصبية ، وأن الأعاجم قد سلبوا العصبية من
من قریش والعتره النبوية ؛ فان صحت أخبار هذا المهدي فلن يظهر إلا بعد تجديد
عصبية هاشمية علوية ، ولو سمعوا وعقلوا ؛ تسعوا وعملوا ، ولكن استعصموا بظهور
المهدي بالاهتداء بسنن الله تعالى رحمة لهم ، تجاء ما كان في أخباره من الفتن والنقم
فيهم ، وربما أغناهم عن بعض ما يرجون من زعامته إن لم يغتهم عنه كما

كانت اليهود اغترت مثلنا بظواهر ما في كتب أنبيائهم من الأنبياء بظهور
مسيح فيهم بعيد لهم ما فقدوا من ملك داود وسليمان ، فاستكلوا على ما فهم أخبارهم
فتها بمحض التقليد الاصم الذي لا يسمع ، الأعلى الذي لا يبصر ، ومضت القرون في
إثر القرون وهم لا يزدادون إلا تفرقا وضعفا ، فلما عرفت أجيالهم الأخيرة سنن الله
تعالى في العمران طفقوا يستمدون لاستعادة ذلك الملك والسلطان ، بالسعي إلى
إنشاء وطن يهودي خاص بهم يقيمون فيه قواعد العمران ، بإرشاد العلوم والفنون
العصرية ، التي يتعلمونها بما يحبون من لغتهم العبرانية ، وقد أنشأوا لذلك مصرفا
ماليا خاصا ، وما زالوا يجمعون لأجله الإعانات بالآلاف وألوف الألوف من
الدنانير ، حتى أنهم استمالوا لمساعدتهم في هذا العهد ، أقوى دول الأرض

هذا — والمسلمون لا يزالون يتشكلون على ظهور المهدي ، ويزعم دهاؤهم
أنه سينقض لهم سنن الله تعالى أو يبدلها تبديلا ، وهم يتلون قوله تعالى (٣٥ : ٣)
فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله
تحويلا . فاذا كان من أشراط الساعة آيات ، وكان زمنها زمن خوارق عادات . فهل
يضرهم أن تأت بهم وهم على هدى من ربهم ، وإقامة لشريعهم ، وعزة وسلطان في أرضهم ؟

على أنهم أنشؤا في العصور الأولى عصبيات لأجل المهدي ولكنها جاهلية ، بل أنشؤا المهدي المنتظر (عج) نفسه لأجل تلك المصبيات الفارسية المجوسية ، التي كانت تسعى لإزالة ملك الأمة العربية ، وافساد دينهم الذي أعطاهم الملك والقوة ، ولأجل ذلك كثر الاختلاف في اسم المهدي ونسبه وصفاته وأعماله ، وكان لكعب الأحبار ، جولة واسعة في تلميق تلك الأخبار .
الاختلاف والاضطراب في أحاديث المهدي :

(منها) أن أشهر الروايات في اسمه واسم أبيه عند أهل السنة أنه محمد بن عبد الله وفي رواية : أحمد بن عبد الله ، والشيعية الإمامية متفقون على أنه محمد بن الحسن العسكري وهما الحادي عشر والثاني عشر من أئمتهم المعصومين ، ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر ، ويقولون : أنه دخل السرداب في دار أبيه في مدينة (مر من رأى) التي تسمى الآن « سامرا » سنة ٢٦٥ وله من العمر تسع سنين ، وأنه لا يزال في السرداب حياً ، وقد رفع إليه بعض علمائهم المتأخرون أسئلة شرعية في رقع كانوا يلقونها ، وزعموا أنهم كانوا يجدون فتاواه مدونة فيها ١١ ومسائل هذه الرقع عندهم أصح المسائل والأحكام ١١ : وهم كلما ذكروه يقرنون اسمه بحرفي العين والجيم هكذا (عج) وهما مقتطعتان من جملة : عجل الله خلاصه

وزعمت الكيسانية أن المهدي هو محمد بن الحنفية وأنه حي مقيم بجبل رضوى بين أسدين يحفظانه وعنده عينان نضاختان يفيضان ماء وعسلا ومعه أربعون من أصحابه . فقولهم فيه كقول الإمامية في المهدي ابن الحسن العسكري . ورضوى بفتح الراء جبل جهينة من أرض الحجاز على مسيرة يوم من ينبع وسبع مراحل من المدينة المنورة . ويقال إن السنوسية يعتقدون أن شيخهم المهدي السنوسي هو الإمام المنتظر . ومنهم من يقول إنه اختفى ، وقد بلغنا أنهم كانوا إذا سئلوا عن موته يقولون : الحى يموت . ولا يقولون أنه قد مات .

وروى عن كعب الأحبار أنه قال : إنما سمي بالمهدي لأنه يهدي إلى أمر خفي وسيخرج التوراة والإنجيل من أرض يقال لها انطاكية ، وفي رواية أخرى عنه إنما سمي بالمهدي لأنه يهدي إلى أسفار التوراة فيستخرجها من جبال الشام ويدعو

اليها اليهود فيسلم على تلك الكتب جماعة كثيرة. رواها أبو نعيم في كتاب الفتن وروى مثل ذلك عن أبي عمرو الداني ، وإنما هو مأخوذ من تضليلات كتب الأخبار والمشهور في نسبه : أنه علوي فاطمي من ولد الحسن ، وفي بعض الروايات من ولد الحسين ، وهو يوافق قول الشيعة الإمامية ، وهنالك عدة أحاديث مصرحة بأنه من ولد العباس (منها) ما رواه الرافعي عن ابن عباس أنه عليه السلام قال للعباس « ألا أبشرك يا عم ؟ إن من ذريتك الأصفياء ، ومن عترتك الخلفاء ، ومنك المهدي في آخر الزمان ، به ينشر الله الهدى ويطفيء نيران الضلالة ، إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك بختم » ومن حديث ابن عباس كرهته مرفوعاً أيضاً « اللهم انصر العباس وولد العباس (ثلاثاً) يا عم ، أما علمت أن المهدي من ولدك موقفاً مرضياً » قال ابن حجر : رجاله ثقات ، وفي معناه أحاديث أخرى لأبي هريرة وأم سلمة وعلى وفي حديثه التصريح بأن المراد بالمهدي ثالث خلفاء بني العباس .

وفي معناه حديث أبي هريرة المعروف عندهم بحديث الرايات وذكره ابن خلدون من حديث ابن مسعود مرفوعاً « إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتي سيقولون من بعدى بلاء وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود » الخ وهو من طريق يزيد بن أبي زياد وهو من شيعة الكوفة ضعيف الأكثرون وروى له مسلم مقروفاً بغيره وقال شعبة فيه : كان رفيعاً ، أي يرفع إلى النبي عليه السلام الأحاديث التي لا تعرف مرفوعة ، وصرحوا بضعف حديثه هذا . وهنالك أحاديث أخرى في نسبة المهدي إلى العباس . وعن ابن عباس عند البيهقي وأبي نعيم والخطيب البغدادي روايات في التصريح بأن المهدي المنتظر هو العباسي ، وذكر قبله السفاح والمنصور . وأهل الرواية يتكفون الجمع بين هذه الروايات وما يعارضها باحتمال أن يكون لكل من العباس والحسن والحسين فيه ولادة بعضها من جهة الأب وبعضها من جهة الأم ، قال ابن حجر في القول المختصر ، وتبعه الشوكاني وغيره ، ولكن ألفاظ الأحاديث لا تتفق مع هذا الجمع ، على أنه لم يرد في أم المهدي شيء من هذه الروايات على كثرتها .

وسبب هذا الاختلاف أن الشيعة كانوا يسعون لجعل الخلافة في آل الرسول عليه السلام

من ذرية علي رضوان الله عليهم ، ويضمون الأحاديث تمهيداً لذلك ، ففطن لهذا الأمر العباسيون فاستأوا بعضهم ، ورأى أبو مسلم الخراساني وعصبيته أن آل علي يغلب عليهم الزهد ، وأن بني العباس كبنى أمية في الطمع في الملك ، فعمل لهم توسلاً بهم إلى تحويل عصبية الخلافة إلى الغرس ، تمهيداً لاعادة الملك والمجوسية ، وحينئذ وضعت أحاديث المهدي مشيرة إلى العباسيين مصرحة بشارتهم (السواد) وأشهرها حديث ثوبان المرفوع في سنن ابن ماجه « يقتل عند كنزكم هذا ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم لاتصير إلى أحدهم ، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلاً لم يقتله قوم — ثم ذكر شيئاً لا أحفظه — فاذا رأيتهم فبايعوه ولو حبوا على الثلج فانه خليفة الله المهدي » قال السندي في حاشيته على ابن ماجه : وفي مجمع الزوائد هذا إسناد صحيح رجاله ثقات . رواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين اه فهو مثال لأصح ما روي في المهدي ولكن في إسناده عبد الرزاق ابن همام الصنعاني الشهير وهو معروف بالشيخ وعمره في آخر عمره فخلط وكان من مشايخه عمه وهب بن منبه وناهيك به — وفي سننه إلى ثوبان أبو قلابة وسفيان الثوري وهما مدلسان وقد عنعنا في هذا الحديث ولم يقلوا إنيهما سمعاه . فاذا أضفت إلى هذا طعن الطاعنين في عبد الرزاق ومنهم ابن عدى القائل : إنه حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد ، وما هو أعظم من ذلك من روى بعضهم إياه بالكذب على مكانته من هذا الفن — وإذا تذكرت مع هذا أن أحاديث الفتن والساعة عامة ، وأحاديث المهدي خاصة ، وأنها كانت مهب رياح الأهواء والبدع ، وميدان فرسان لأحزاب والشييع ، — تبين لك أين تضع هذه الرواية منها ولما انقضى أمر بني العباس وكانت الأحاديث قد دونت لم يسمع القائلين بظهور المهدي إلا أن يقولوا : إن الرايات السود المروية فيها غير رايات بني العباس على أن خصومهم كانوا قد رووا في معارضتها روايات ناطقة بأن رايات المهدي تكون صفراء ، وروايات في أن ظهوره من المغرب لا من المشرق قال محمد بن الصامت قلت للحسين بن علي رضي الله عنهما : أما من علامة بين يدي هذا الأمر ؟ — يعني ظهور المهدي — قال : بلى . قلت وما هي ؟ قال هلاك بني

العباس وخروج السفينائي والخلف بالبيداء . قلت جعلني الله فداك ، أخف أن يطول هذا الأمر . قيل : إنما هو كنظام سلك يتبع بعضه بعضاً . ورووا عن أمير المؤمنين على رضي الله عنه وكرم وجهه قال : تكون في الشام رجفة يهلك فيها أكثر من مئة ألف يجعلها الله رحمة للمؤمنين ، وعذاباً على المنافقين ، فان كان كذلك فانظروا إلى أصحاب البراذين الشهب والرايات الصفر تقبل من المغرب حتى تحمل بالشام ، وذلك عند الجوع الأكبر ، والموت الآخر ، فاذا كان ذلك فانظروا خسف قرية من قرى دمشق يقال لها (حرسنا) فاذا كان ذلك خرج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليابس حتى يستوى على منبر دمشق ، فاذا كان ذلك كله فانظروا خروج المهدي . انتهى الأمر المروي عن أمير المؤمنين ، ونحن نعلم أن ابن آكلة الأكباد لقب معاوية لأن أمه أخرجت قلب حمزة سيد الشهداء رضوان الله عليه يوم قتل في أحد فضفته ، وكانت هذه الرواية قد وضعت فيما يظهر بعد أمير المؤمنين للتبشير بانتقام المهدي من معاوية ثم حملوها على السفينائي الذي كثرت الروايات في خروجه قبل المهدي وقالوا إنه من ولد خالد بن يزيد بن أبي سفينان ، وأنه أحد الخوارج الذين يتقدمونه بل شرهم ، والآخرون هم الملقبون بالابقع والأصهب والأعرج والكندي والجرمي والقحطاني ، ولغارس ميدان الخرافات الامرائيلية كتب الأخبار تفصيلات لخروج هؤلاء ، هي كالتفسير للأثر العلوي الموضوع تراجع في فوائد الفكر للشيخ مرعي وعقائد السفارين وغيرها

فهذا نموذج من تعارض الروايات وتهافتها في المهدي ولو ذكرنا ما في كتب الشيعة والمتصوفة في ذلك لجئنا بالعجب العجيب ، ونحيط القول فيها لا يتم إلا بسفر مستغل .

خلاصة القول في أشراط الساعة

وجملة القول في أحاديث الفتن ، وأشراط الساعة ، وأماراتها وسبب الاختلاف والتعارض فيها يختصر في المسائل الآتية :

(١) إن النبي ﷺ لم يكن يعلم الغيب كما يأتي في الآية التالية بل هو معلوم من الدين بالضرورة ، وإنما أعلمه الله تعالى ببعض الغيوب بما أنزله عليه في كتابه وهو قسمان ، صريح كأخبار الملائكة والساعة والجنة والنار ، ومستنيط من بيان سنن الله تعالى المنصوصة فيه كقوله تعالى (وانتقوا فتنه لا تصيبن الذين ظلموا منكم

خاصة) وقوله (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) فكان يفهم منها ﷺ ما لا يفهم غيره من الصحابة فمن دونهم علماً وفهماً كما روى عن الزبير (رض) من عدة طرق في آية (واتقوا فتنة) انهم قرءوها على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يعلمون أنها تقع منهم حيث وقعت في فتنة قتل عثمان وفي يوم الجمل ، والروايات عن الزبير أوردتها الحافظ في أول شرح كتاب الفتن من البخاري

(٢) إن الله تعالى أعلمه ببعض ما يقع في المستقبل بغير القرآن من الوحي كسؤاله لربه أن لا يجعل بأس منه بينهم فلم يسطه ذلك وأعلمه أن سنته في خلقه لا تتبدل أى وأن هذا منها . راجع تفسيرنا لقوله تعالى (٦ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) إلخ ولم يكن ﷺ يعلم أن ذلك من سنته تعالى قبل إعلانه له .

(٣) انه كان يتمثل له بعض أمور المستقبل كأنه يراه كما تمثلت له الجنة والنار في عرض الحائط ، وكما تمثل له في أثناء حفر الخندق ما يفتح الله لأصحابه من الممالك ، وكما تمثلت له الفتن وهو مشرف على أطم من أطام المدينة فقال كافي الصيحين « هل ترون ما أرى ؟ قالوا لا ، قال : ظني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقم القطر » وظهر هذا في فتنة قتل عثمان (رض) ومثله حديث الفتن من قبل المشرق وكشفه هذا حق وهو ما يسميه أهل الكتاب : نبوءات ، وقد ظهر منه شيء كثير كالشمس

(٤) إنه ﷺ لم يكن يخبر أصحابه بكل ما يطلعه الله عليه من ذلك بل بما كان يرى المصلحة في إخبارهم به موعظة وتحذيراً ، وكان يخص بعض أصحابه ببعضها كما روى في مناقب حذيفة (رض) وما كان كل من سمع منه شيئاً منها يفهم مراده كله ، وإذا كانوا لم يفهموا تأويل بعض آيات القرآن في سنن الله العامة حق الفهم التفصيلي كما تقدم آنفاً عن الزبير (رض) وإذا كان منهم من لم يفهم بعض آيات الأحكام الظاهرة كقوله تعالى (حق) يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) فلأن يخفى عليهم تأويل ما يخص به بعض الأفراد وهو مما لم يؤمر بتبليغه للناس كافة - لأنه ليس من أصول الدين ولا من فروعه - أولى . وخفاء ذلك على من

بعدم أولى إلا من يقع تأويله في عهدهم كوصفه صلى الله عليه وسلم النساء المتهتكات في هذا العصر بالكاسيات العازيات الخ

(٥) لاشك في أن أكثر الأحاديث قد روى بالمعنى كما هو معلوم واتفق عليه العلماء ، ويدل عليه اختلاف رواة الصحاح في ألفاظ الحديث الواحد حتى اختصر منها ، وما دخل على بعض الأحاديث من المדרجات وهي ما يدرج في اللفظ المرفوع من كلام الرواة . فعلى هذا كان يروى كل أحد ما فهمه ، وربما وقع في فهمه خطأ لأن هذه أمور غيبية ، وربما فسر بعض ما فهمه بألفاظ يزيد بها ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلع الله تعالى على كل ما أطلع به عليه ، من هذه الغيبات بالتفصيل ، وكان يجتهد في بعضها ويقدر ويأخذ بالقرآن كما قال النووي وابن الجوزي في تجويزه صلى الله عليه وسلم أن يكون ابن صياد اليهودي المعاصر له هو الدجال المنتظر ، وكذا تجويزه أن يظهر في زمنه وهو حتى قبل من الغرابة أن يقع الخلط والتعارض فيما روى عنه بالمعنى بتدرفهم الرواة ؟

(٦) إن العاشرين بالاسلام ومحاولي افساد المسلمين وازالة ملكهم من زنادقة اليهود والفرس وغيرهم من أهل الابتداع وأهل العصبية العلوية والاموية والعباسية قد وضعوا أحاديث كثيرة افتروها ، وزادوا في بعض الآثار المروية دسائس دسوها ، وراج كثير منها باظهار روايتها للصلاح والتقوى ، ولم يعرف بعض الأحاديث الموضوعية إلا باعتراف من قاب إلى الله من واضعها ، ولقد كان الاستاذ الامام يقول إن الاسلام الصحيح هو ما كان عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الفتن ، ولم يكن يثق إلا بأقل القليل مما روى في الصحاح من أحاديث الفتن

(٧) إن بعض الصحابة والتابعين كانوا يروون عن كل مسلم ، وما كل مسلم مؤمن صادق ، وما كانوا يفرقون في الاداء بين ما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو من غيره وما بلغهم عنه بمثل : سمعت وحدثني وأخبرني ، ومثل : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فعل المحدثون من بعد عند وضع مصطلح الحديث ، وقد ثبت أن الصحابة (رض) كان يروى بعضهم عن بعض وعن التابعين حتى عن كعب الأخبار وأمثاله ، والقاعدة عند أهل السنة أن جميع الصحابة عدول فلا يخل جهل اسم راو منهم بصحة السند ، وهي قاعدة أغلبية لا مطردة فقد كان في عهد النبي

ﷺ مناققون قال تعالى فيهم (٩ : ١٠٢) ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق، لا تعلمهم نحن نعلمهم) مردوا عليه أحكموه وصدقوه أو صقلوا فيه حتى لم يعد يظهر في سيامهم ونحوى كلامهم كالذين قال الله فيهم منهم (٥٧ : ٣١) ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيامهم ولنعرقهم في الحن القول)

ولكن البلية في الرواية عن مثل كعب الأحبار . ومن روى عنه أبو هريرة وابن عباس ومعظم التفسير المأثور مأخوذ عنه وعن تلاميذه ، ومنهم المدلسون كفتادة ، وكذا غيره من كبار المفسرين كإبن جريج

نكل حديث مشكل المتن أو مضطرب الرواية، أو يخالف لسنن الله تعالى في الخلق ، أو لأصول الدين أو نصوصه القطعية ، أو للحسيات وأمثالها من القضايا اليقينية ، فهو مظنة لما ذكرنا في هذه التنبيهات ، وسبق لنا بيان أكثرها في الكلام على حديث طلوع الشمس من مغربها في تفسير (٦ : ١٨٥) من أواخر سورة الانعام (ص ٢٠٩ ج ٨ تفسير) فنصدق رواية مما ذكر ولم نجد فيها إشكالا فالأصل فيها الصدق ، ومن ارتاب في كل شيء منها أو أورد عليه بعض المرتابين أو المشككين إشكالا في متونها ، فليحمله على ما ذكرنا من عدم الثقة بالرواية لاحتمال كونها من دسائس الاسرائيليات ، أو خطأ الرواية بالمعنى ، أو غير ذلك مما أشرنا اليه ، وإذا لم يكن شيء منها ثابتا بالتواتر القطعي فلا يصح أن يجعل شبهة على صدق الرسول ﷺ المعلوم بالقطع ، ولا على غير ذلك من القطعيات . ولعل الله تعالى يبارك لنا في العمر ويوفقنا الصرف معظمه في خدمة الكتاب والسنة ، فنضع لأحدائهم الفتن وآيات الساعة مصنفنا خاصا بها ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير

(١٨٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ؛
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ ؛
إِنَّا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

هذه الآية من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده ببيانها الحقيقة الرسالة

والفصل بينها وبين الربوبية والالوهية ، وهدمها لقواعد الشرك ومبادئ الوثنية من أساسها . ومناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى أمر خاتم رسله فيما قبلها أن يجيب السائلين له عن الساعة بأن علمها عند الله تعالى وحده وأمرها بيده وحده — وأمره في هذه أن يبين للناس أن كل الأمور بيد الله تعالى وحده ، وأن علم الغيب كله عنده ، وأن نفى كلامهما عن نفسه ﷺ وذلك أن الذين كانوا يسألونه ﷺ عن الساعة من المسلمين كانوا يظنون أن منصب الرسالة قد يقتضى علم الساعة وغيرها من علم الغيب ، وربما كان يظن بعض حديثي العهد بالإسلام أن الرسول قد يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضرر عن نفسه وعن من يحب أو يشاء ، أو يمنع النفع وإحداث الضرر من يكره أو يمن بشاء . فأمره الله تعالى أن يبين للناس أن منصب الرسالة لا يقتضى ذلك ، وإنما وظيفة الرسول التعليم والإرشاد ، لا الخلق والإيجاد ، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك بماعلمه الله بوحيه ، وأنه فيما عدا تبليغ الوحي عن الله تعالى بشر كسائر الناس (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إليكم أمر الله) قال عز وجل :

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ﴾ أى قل أيها الرسول للناس فيما تبليغه من أمر دينهم : إننى لا أملك لنفسى — أى ولا لغيرى بالأولى — جلب نفع مافى وقت ما ، ولا دفع ضرر مافى وقت ما ، فوقع كلتى النفع والضرر نكرتين منفيتين يفيد العموم حسب القاعدة المعروفة ، ونفى عموم الفعل يقتضى نفى عموم الأوقات له . ولكن هذا العموم مشكل بما هو معلوم بالضرورة من تمكن كل إنسان سليم الأعضاء من نفع نفسه وغيره في بعض الأمور الكسبية ودفع بعض الضرر عنها ، ولذلك حرمت الشريعة الضرر والضرار

وبحاجب عن هذا الاشكال من وجهين (أحدهما) أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا مستقلا بقدرته وإنما يملك ما يملكه من ذلك بمليك الرب الخالق جلّت قدرته وهو المراد بالاستثناء أى لا أملك منهما ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ من نفع أقدرنى على جلبه ، أو ضرر أقدرنى على منعه ، يسخر لى أمياريهما ، أو الإوقت

مبشيتته سبحانه أن يمكنني من ذلك ، فالعنى المراد على هذا هو بيان عجز الخلق الذاتي وكون كل شئ أوتي به فهو بمشيئة الله تعالى لا يستقل العبد بشئ منه استقلالاً مطلقاً ، ولا هو يملكه بذاته لذاته ؛ بل بمشيئة الله تعالى ، فلاستثناء على هذا متصل بما قبله مخصص لعمومه مقيد لاطلاقه

(الثانى) أنه ﷺ لا يملك بمقتضى منصب الرسالة نفعا ولا ضرا لنفسه ينطوق الجملة ولا لغيره بمفهومها الأولى ، مما يعجز عنه غيره بمقتضى بشرية ما أقدره الله تعالى عليه بمقتضى سنته في عالم الأسباب والمسببات ، كما أنه لا يملك شيئا من علم الغيب الذى هو شأن الخالق دون الخلق كما يأتى بيانه في تفسير الجملة التالية والاستثناء على هذا منفصل عما قبله مؤكدا لعمومه ، أى لكن ما شاء الله تعالى من ذلك كان ، فهو كقولنا تعالى (سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله) وقوله حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام (ولا أخف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا) وقوله فى خطاب كليمه موسى عليه السلام (إني لا يخاف لى المرسلون * إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء) الآية .

وهذا الوجه هو المختار عندنا لأن الناس قد فتنوا منذ قوم نوح بمن اصطفاهم الله ووقفهم لطاعته وولايته من الأنبياء ومن دون الأنبياء من الصالحين فجعلهم شركاء الله تعالى فيما يرجوه عبادته من نفع يسوقه إليهم ، وما يحشونه من شر يمسهم فيدعونه ليكشفه عنهم ، وصاروا يدعونهم كما يدعونه لذلك إما مستقللا ، وإما إشراكا ، إذ منهم من يظن أنه تعالى قد أعطاهم القدرة على التصرف فى خلقه بما هو فوق الأسباب التى منحها الله تعالى لسائر الناس فصاروا يستقلون بالنفع والضرر منحا ومنعاً ، وإيجابا وسلباً ، ومنهم من يعتقد أن التصرف الغيبى الأعلى الذى هو فوق الأسباب الكسبية الممنوحة للبشر خاص بربهم لا يقدر عليه غيره ، ولكنهم يظنون مع هذا أن هؤلاء الأنبياء والأولياء عند الله تعالى كوزراء الملوك وحجابه وبطانته ، وسطاء بينهم وبين من لم يصل إلى رتبة بهم ، فالملك المستبد بسلطانه يعطى هذا ويعفو عن ذنب هذا بواسطة هؤلاء الوزراء والحجابه المقرين عنده ، وكذلك رب العالمين يعطى ويعفو ويغفر ويرحم ويقتسم بواسطة أنبيائه وأوليائه برزعمهم ، فهم شفعاء للناس عنده تعالى

يقربونهم اليه زلفى كما حكاه التنزيل عن المشركين ، وبيناه في مواضع من هذا التفسير (١)
 وفي مثل هذا التشبيه الوثقى وتمثيل تصرف الرب العظيم الغنى عن عباده
 بتصرف الملوك المستبدين الجاهلين الذين يحتاجون إلى وزراءهم و بطانتهم في حله
 على ما ينبغي له فيهم - قال الله تعالى (فلا تضربوا لله الأمثال) وبين في هذه
 الآية وأمثالها أن رسل الله تعالى وهم صفوة خلقه لا يشاركون الله تعالى في صفة
 من صفاته ، ولا تأثير لأحد منهم في علمه ولا في مشيئته ، لأنها كاملة أزلية
 لا يطرأ عليها تغير ، وأن الرسالة التي اختصهم الله تعالى بها لا يدخل في معناها
 إقذارهم على النفع والضرر بسلطان فوق الأسباب المسخرة لسائر البشر ولا منحهم
 علم الغيب ، وإنما هي تبليغ وحى الله تعالى وبيانه للناس بالقول والفعل والحكم
 ودليلنا على اختيار هذا الوجه : أن مدار اليهودية على توجه العباد إلى المعبود
 فيما يرجون من نفع ويخافون من ضرر ، فاستعمل اللفظان في التنزيل في بيان أن الرب
 المستحق للعبادة هو من يملك الضر والنفع غير خاضع ولا مقيد بالأسباب العادية
 كقوله تعالى (٥ : ٧٩ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً)
 وقوله في عجل بنى إسرائيل (٢٠ : ٨٩ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك
 لهم ضرراً ولا نفعاً ؟) وقوله (٤٨ : ١١ قل من يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم
 ضرراً أو أراد بكم نفعاً ؟) وقوله (١٣ : ١٧ قل من رب السموات والأرض ؟
 قل الله ، قل أفألتخذن من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ؟)
 وقوله (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون
 لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً) الآية

فلما كان ملك الضر والنفع بهذا الإطلاق خاصاً برب العباد وخالقهم ، وكان
 طلب النفع أو كشف الضر عبادة لا يجوز أن يوجه إلى غيره من عباده مهما يكن فضله
 تعالى عظيماً عليهم - أمر الله رسوله ﷺ أن يصرح بالبلاغ عنه أنه لا يملك لنفسه
 ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً ، وقد تكرر هذا الأمر له في القرآن مبالغة في تقريره وتوكيده
 فقال تعالى في سورة يونس (١٠ : ٤٩ قل لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً إلا ما شاء

الله) الآية ، وقال في سورة الجن (٢٠: ٧٢) قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) وهذه الآية أبلغ وأشمل مما في معناها بما فيها من إيجاز واحتباك بحذف ما يقابل الضر والرشد المذكورين ، وهما ضدهما بدلاتهما عليهما ، والتقدير : لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، ولا رشداً ولا غواية — فهذه الآيات بمعنى ما هنا تؤيد اختيارنا ثم أمره تعالى أن ينفي عن نفسه علم الغيب مستدلاً عليه بانتفاء أظهر منافعه القرينة فقال .

﴿ ولو كنتم أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ﴾ الخير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية كالمال والعلم ، والسوء ما يرغبون عنه مما يسوهم ويضرهم ، ويراد بهما هنا الجنس الذي يصدق ببعض أفراده وهو الخير الذي يمكن تداركه وتحصيله ، والسوء الذي يمكن الاستعداد لدفعه بعلم ما يأتي به الغد . والجملة استدلال على نفي علم النبي ﷺ الغيب ، كأنه يقول : لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا أعلم الغيب ، ولو كنتم أعلم الغيب — وأقر به ما يقع في مستقبل أيامي في الدنيا — لاستكثرت من الخير كالمال وأعمال البر التي تتوقف على معرفة ما يكون في المستقبل من عسرة وغلاء مثلاً وتغير الأحوال ، ولما مسنى السوء الذي يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب ، كشدة الحاجة مثلاً ، ومن أمثلته في العبادة قوله ﷺ في حجة الوداع « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معي الهدى لأحلت » رواه الشيخان وغيرهما — يعني لو أنه علم ﷺ ما يحصل من انفراده دون أصحابه بسوق الهدى إلى الحرم من مشقة فسحهم الحج إلى عرة دونه ، إذ لا يباح الفسخ والتحلل بالعمرة لمن معه الهدى لما سبق الهدى ليوافق الجمهور في تمتعهم بالعمرة إلى الحج . ومن أمثلته في الإدارة وسياسة الحرب ما عاتبه الله تعالى عليه من الأعراض عن الأعمى والتصدى للأغنياء ومن أخذ الفداء من أسرى بدر ، ومن الأذن بتخلف المنافقين في غزوة تبوك سنة العسرة ، ولم أر أحداً نبه على هذا النوع من المفسرين .

وفيه وجه آخر أنه مستأنف خير معطوف على ما قبله ، ومعناه : وما مسنى الجنون كما زعم الجاهلون ، فيكون حاصل معنى الآية نفي رفعه إلى رتبة الربوبية الذي انتفى بمثله الغلاة ، ونفي وضعه في أدنى مرتبة الدسرية الذي زعمته الغواة العنابة .

وبيان حقيقة أمره ، وما رفع الله تعالى من قدره ، بجمله فوق جميع البشر بوحيه ، ووساطته بينه وبين خلقه ، لكن في التبليغ والارشاد ، لا في الخلق والايجاد ، ولا في تدبير أمور العباد ، فان هذا شأن الربوبية ، وانما هو صلوات الله عليه وسلامه في أعلى مقام العبودية .

ومن ذكبت البلاغة في القرآن بتقديم اللفظ على ما يقابله في آية وتأخيرها في أخرى : تقديم النفع على الضر في هذه الآية وتأخيرها وتقديم الضر عليه في آية سورة يونس المذكورة آنفا . والفرق الحسن لذلك أن آية الاعراف جاءت بعد السؤال عن الساعة أيان مرساها ؟ وأكبر فوائد العلم بالساعة وعوم من علم الغيب الاستعداد لها بالعمل الصالح واتقاء أسباب العقاب فيها ، فتنقض ذلك البدء بتقبي ملك النفع لنفسه بمثل هذا الاستعداد وتأخير ملك الضر المراد به ملك دفعه واتقاء وقوعه ، وأن يستدل على ذلك بما ذكر من أنه لو كان يعلم الغيب حتى فيما دون الساعة زمتنا وعظم شأن لاستكثر من الخير الذي يتعلق بالاستعداد للمستقبل واتقى أسباب ما يمس من سوء فيه كالمثلة التي ذكرناها .

وأما آية سورة يونس فقد وردت في سياق تماري الكفار فيما أوعدهم الله من العقاب على التكذيب بما جاءهم به رسوله من البينات والهدى واستعجابهم إياه تهكما ومبالغة في الجحود ، فناسب أن يذكر في جوابهم أنه لا يملك لنفسه ولا لهم ضراً كتعجيل العذاب الذي يكذبون به ولا نفعاً ، كالنصر الذي يترتب على تعجيل العذاب لهم في الدنيا ، فقد أمره الله تعالى أن يعلمهم أن أمر عذابهم تعجيلاً أو تأخيراً لله تعالى وحده ، كما أمره أن يتقى عن نفسه القدرة على ما اقترحوه من الآيات ؛ ومن ذلك ما ذكره تعالى من مقترحاتهم في سورة الاسراء من تفجير ينبوع في مكة وإيجاد جنة تنفجر الأنهار خلالها فتجيراً — أو إسقاط السماء عليهم كسفاً — وهو من العذاب — الخ ومن أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يحییهم عن ذلك بقوله (قل سبحانه ربی ! هل كنت إلا بشرارسولا ؟) وقال تعالى في هذه السورة أيضاً (ربکم أعلم بکم إن یشاء یرحمکم أو إن یشاء یمذبکم ، وما أرسلناک علیهم وکیلاً) أى موکلاً بأمر نوابهم وعقابهم منفذاً له ، وقال تعالى في سورة الرعد (ولما نرینک بعض

الذى نعدم أو تتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب)

وهناك ما ورد فى التفسير المأثور فى الآية عن تفسير الحافظ بن كثير قال :

« أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شئ من ذلك إلا ما أطلعه الله عليه كما قال تعالى (علم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) الآية ، وقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال عبد الرزاق عن الثورى عن منصور عن مجاهد (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال لو كنت أعلم متى أموت لعمت عملا صالحا ، وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج ، وفيه نظر لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفى رواية كان إذا عمل عملا أثبتته لجميع عمله كان على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله عز وجل فى جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك والله أعلم »

« والأحسن فى هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) أى من المال ، وفى رواية لعلت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه فلا أبيع شيئا إلا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر . وقال ابن جرير وقال آخرون : معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدة من الخصب ، ولوقت الغلاء من الرخص . وقال عبيد الله بن زيد بن أسلم (وما مسنى السوء) قال لاجتنب ما يكون من الشر قبل أن يكون وأتقيه . « اه وما قلناه أعم وأصح »

هذا وإتنا قد بينا فى تفسير (٦ : ٥ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي) أن الغيب قيمان حقيقى لا يعلمه إلا الله وإضافى يعلمه بعض الخلق دين بعض ، وأن هذه الآية تنفى قدرة الرسول على التصرف فى خلق الله تعالى بما هو فوق كسب البشر ، وتنفى عنه علم الغيب بهذا المعنى ، إلا ما أعلمه الله تعالى به بوحىه لتعلقه بوظيفة الرسالة كاللائكة والحساب والثواب والعقاب — وأن ما يطلع الله عليه الرسل من ذلك لا يكون من علمهم الكسبى ، بل يدخل فى معنى الاجماع على أن النبوة غير مكتسبة

أوردنا هنالك قوله تعالى في ذلك من سورة الجن (٧٢ : ٢٧) عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول — إلى قوله — ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم (الآية) ، واستطردنا إلى تفهيم ما يدعيه بعض مشايخ طرق الصوفية أو يدعى لهم من علم الغيب والتصرف في ملك الله أحياءاً أو أمواتاً بما أغفى عن إعادته هنا ^(١) ثم أطلنا البحث في علم الغيب في تفسير (٥٩ : ٦) وعند مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو (الآية) ، وتكلمنا فيه عن الكشف وغير ذلك من معرفة بعض الأمور المستقبلية المتعلقة بمسألة الغيب الاضافي أو التي لا يصح أن تسمى غيباً لأن لها أسباباً فطرية ^(٢) . وفي الكلام على أشرار الساعة الذي مر بك قريباً بحث فيما أطلع الله عليه رسوله بمادون الوحي من بعض الحوادث المستقبلية كتتمثل الأشياء له تمثلاً متفاوتاً في الوضوح ، وهو لا يعارض هذه الآية كما علمت

﴿ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هذا بيان مستأنف لتعليل ما تقدم من نفى امتياز عليه السلام على البشر بملك النفع والضرر من غير طرق الأسباب وسنن الله في الخلق . ونفى امتياز عليهم بعلم الغيب ، عللها ببيان حصر امتياز عليهم بالتبليغ عن الله عز وجل . والتبليغ قسمان : قسم مقترن بالتخويف من العقاب على الكفر والمعاصي وهو الإنذار ، وقسم مقترن بالترغيب في الثواب على الإيمان والطاعة ، وهو البشارة أو التبشير ، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة على الإطلاق والآيات فيه كثيرة ، ويوجه أيضاً إلى من يؤمن وإلى من يصر على كفره وإجرامه مطلقاً ، وإذا ذكر الفريقان جميعاً في سياق واحد يخص الكافرون بالإنذار والمؤمنون الصالحون بالتبشير ، وقد ذكر في أول سورة الكهف الإنذار المطلق بالقرآن ثم تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات وإنذار متخذي الولد لله تعالى من الكافرين . ومن المقابلة بين الفريقين قوله تعالى في آخر سورة مريم (لتبشربه المنتفين وتنذر به قوماً لداً) وفي معناها آيات أخرى في المقابلة كما نرى في أوائل سورتي البقرة والامراء ، ولسكن بدون ذكر لفظ الإنذار . والتبشير لا يوجه إلى الكافرين والجرمين بلقبهم إلا بأسلوب التهم كقوله تعالى

(الأعراف . ص ٧) إنما الرسل عبيد مبلغون لا وزراء للرب تعالى ٥١٥

(فبشرهم بعذاب أليم) على القول المشهور الذى عليه الجمهور ، وأما الانذار فقد يوجه إلى المؤمنين المتقين على معنى أنهم هم الذين ينتفعون به كقوله فى سورة طاهر (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) وقوله فى سورة يس (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بغفرة وأجر كريم)

بناء على هذا قال بعض المفسرين إن قوله تعالى (لقوم يؤمنون) متعلق بالوصفين على معنى أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بانذاره فيزيدهم خشية الله واتقاء لما يستخطه ، وبقبشيره فيزدادون شكراً له بعبادته وإقامة سنته . وقال بعضهم إنه متعلق بالثاني المتصل به ، ويدل على حذف مقابله فيما قبله . والتقدير : ما أما إلا نذير للكافرين و بشير للمؤمنين ، ووجه أن المقام مقام التبليغ ، وهنالك وجه ثالث وهو أن البشارة للمؤمنين خاصة لاتصلها بهم ، والانذار عام لهم ولغيرهم ، وقد عرف وجهه مما فصلناه

وقد ورد فى مثل هذا من حصر وظيفة الرسول بالانذار والتبشير بلفظيهما معاً أو بأحدهما و بلفظ التبليغ الجامع لهما آيات كثيرة بعضها بالاثبات بعد النفى كما هنا وبعضها بانها ، والحصر بكل منهما أقوى النصوص القطعية الدلالة ، ومع هذا التكرار والتوكيد كله يأبى غلاة الإطراء للرسول ولمن دون الرسل من الصالحين حقيقة أو توهمها إلا أن يشركوهم مع الله سبحانه وتعالى فى صفات ربوبيته وأفعاله قال تعالى فى سورة سبأ (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال فى سورتي الاسراء والفرقان (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) وقال فى سورتي الانعام والكهف (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) وقال فى سورة النحل (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) وفى سورة يس حكاية عن الرسل (وما علينا إلا البلاغ المبين) وفى سورتي النور والعنكبوت (وما على الرسول إلا البلاغ المبين)

فان قيل : إن الحصر فى هذه الآيات وأمثالها إضافي فان من وظائف الرسل بيان الوحي والحكم بين الناس كما قال تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) وقال عز وجل (وأنزلنا إليك الذر لتبين للناس ما نزل إليهم) والبيان يكون بالأفعال كالأقوال بل الأفعال أقوى دلالة وأعصى على تأويل المحرفين . وكما قد

أمر تعالى بتحكيم رسوله ﷺ والخضوع لحكمه ، أمر بالتأسي به في هديه وسنته (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) قلنا : إن هذا لا ينافي الحصر الحقيقي لأن التبليغ لدين الله وشرعه لا يتم إلا بالعمل والحكم به وتنفيذ أحكامه فهو ، داخل في التبليغ وبيان الوحي .
وجملة القول : أن الرسل عليهم الصلاة والسلام عبيد لله تعالى مكرمون ، لا يشاركونه في صفاته ولا في أفعاله ، ولا سلطان لهم على التأثير في علمه ولا في تدبيره ، وهم بشر كسائر الناس لا يمتازون على البشر في خلقهم وصفاتهم وغرائزهم ، وإنما يمتازون باختصاص الله تعالى إليهم بوحيه واصطفائهم لتبليغ رسالاته لعباده ، وبما زكاهم وعصمهم فأهلهم لأن يكونوا أسوة حسنة وقدوة صالحة للناس في العمل بما جاءوا به عن الله تعالى من الصلاح والتقوى ومكارم الأخلاق .

(١٨٩) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَاحِبًا صَلِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٩٠) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩١) أَيْشِرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩٢) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٣) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُواكُمْ ؛ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ

افتتحت هذه السورة بدعوة القرآن إلى دين التوحيد والأمر باتباع ما أنزل الله . والنهي عن اتباع أولياء من دونه ، وتلاوة التذكير بنشأة الإنسان الأولى في الخلق والتكوين ، والعداوة بينه وبين الشيطان ، ثم اختتمت بهذه المعاني ، وهو التذكير بالنشأة الأولى والنهي عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان ، والأمر بالتوحيد واتباع القرآن ، قال تعالى

﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ أى خلقكم من جنس واحد أو حقيقة واحدة صورها بشرا سوريا ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ سكونا زوجيا، أى جعل لها زوجا من جنسها فكانا زوجين ذكرا وأنثى كما قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) كما أنه خلق من كل جنس وكل نوع من الأحياء زوجين اثنين قال عز وجل (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وإنا نشاهد أن كل خلية من الخلايا التى ينمى بها الجسم الحى تنطوى على نويتين ذكر وأنثى يقتربان فيولد بينهما خلية أخرى ، وهلم جرا ، ونعلم أيضا كيف يتكون فى الأرحام كل من الزوجين كما قال تعالى (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى) ولكننا لا ندري كيف ازدوجت النفس الأولى بعد وحدتها فكانت ذكرا وأنثى ، قال تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وفى التوراة التى عند أهل الكتاب أن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم وقد أمرنا نبينا ﷺ أن لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم وأى فيما لا نص فيه عندنا لاحتماله ، فنحن نعمل بأمره ﷺ فى هذا الخبر ، وإن حمل عليه بعض المفسرين وغيرهم حديث « استوصوا بالنساء فان المرأة خلقت من ضلع وإن اعوج شئ فى الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » رواه الشيخان من حديث أبى هريرة مرفوعا . فان المتبادر منه الذى اعتمد به الشراح فى تفسيره ان المراد بخلقها منه أنها ذات اعوجاج وشذوذ تخالف به الرجل كما يشير اليه ما رواه ابن حبان عن أبى هريرة « أن المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو على حد قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) وقال الحافظ فى شرحه من الفتوح : قيل فيه إشارة الى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر وقيل من ضلعه القصير أخرجه ابن اسحاق وزاد اليسرى من قبل أن يدخل الجنة وجعل مكانه لحم ، ومعنى خلقت أى أخرجت كما تخرج النخلة من النواة اه فتأمل جعل الحافظ المسألة من باب الإشارة وحكايته لها بصيغة التضعيف ، وما ذكره من تفسيرها الغريب بتشبيه خلق الإنسان بخلق النبات ، وظاهره أنه لم يطلع على سعة حفظه على قول لمن لم يعتد بأقوالهم من علماء السلف ومحققى الخلف فى المسألة ، ونذكر أن الله تعالى خاطب الناس فى عصر

التنزيل يمثل ما حكاه لهم في هذه الآية عن نشأة جنسهم في كونه تعالى خلق لهم أزواجا من أنفسهم فقال في بيان آياته من سورة الروم (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهذا المعنى عام لا خاص بالإنسان الأول .

عبر التنزيل عن ميل الزوج الجنسي إلى جنسه هنا وفي سورة الروم بالسكون وذلك أن المرء إذا بلغ سن الحياة الزوجية يجد في نفسه اضطرابا خاصا لا يسكن إلا إذا اقترن بزوج من جنسه واتحدا ذلك الاقتران والاتحاد الذى لا تكمل حياتهما الجنسية المنتجة إلا به ، ولذلك قال بعده ﴿ فلما تغشاها ﴾ الخ الغشاء غطاء الشيء الذى يستتره من فوقه ، والغاشية الظلة تظله من سحابة وغيرها (والليل إذا يغشى) أى يحجب الأشياء ويستترها بظلامه ، وتغشاها أظاها كغشيها ويريد ما تعطيه صيغة الفعل من جهد ، وهو كناية نزيهة عن أداء وظيفة الزوجية تشير إلى أن مقتضى الفطرة وأدب الشريعة فيها الستور لفظ النفس مؤنث فأنث في أول الآية ، ولفظ الزوج يطلق على الذكر والأنثى ولهذا ذكر هنا فاعل التغشى وأنث مفعوله . أى فلما تغشى الزوج الذى هو الذكر الزوج التى هى الأنثى ﴿ حملت حملا خفيفا ﴾ أى علقته منه وهو الحمل ، والحمل بالفتح يطلق على المصدر وعلى المحمول والمشهور أنه خاص بما كان في بطن أو على شجرة وأن ما حمل على ظهر ونحوه يسمى حملا بكسر الحاء . والحمل هاهنا يحتمل المعنيين ، وهو يكون في أول العهد خفيفا لا تكاد المرأة تشعر به . وقد تستبدل عليه بارتفاع حيضتها ﴿ فرت به ﴾ أى فضت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق كما قاله الزخشرى أو استمرت في أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استئصال ﴿ فلما أثقلت ﴾ أى حال وقت ثقل حملها وقرب وضعها ﴿ دعوا الله

رهبما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ﴾ أى توجهنا إلى الله تعالى رهبما يدعوانه فيما انحصر مهمما فيه بمد تمام الحمل على سلامة بأن يعطيهم ولدا صالحا أى سويا تام الخلق يصلح للقيام بالأعمال البشرية النافعة — ولا ينبغي أن يدعو العبد غير

ربه ، فيما لا يملك هو ولا غيره من العبيد أسبابه ، دعواه مخلصين مقسمين له على ما وطأ عليه أنفسهم من الشكر له على هذه النعمة فائدين لأن أعطيتنا ولدا صالحا لنكون من الغائمين لك بحق الشكر قولاً وعملاً واعتقاداً وإخلاصاً ، كما يدل عليه الوصف المعروف

﴿ فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء فيما آتاها ﴾ أى فلما أعطاهما ولدا صالحاً لا نقص في خلقه ، ولا فساد في تركيبه ، جعل له شركاء ، إعطائه أو فيما أعطاه بأن كان سبباً لوقوع الشرك منهما أو ظهور ما هو راسخ في أنفسهم آمنه ، وسنبين معناه قرأ نافع وأبو بكر (جعل له شركاء) أى شركة أو ذوى شرك ، فله معنى واحد

﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ أى تعالى شأنه عن شركهم ، فانه هو معطى النسل بما خلقه لكل من الزوجين من أعضاء ، وقدر لهما في العلوق والوضع من أسباب ، لا فعل لغيره في ذلك البته . وجمع الضمير هنا بعد تقييده الأفعال قبله لأن المراد فيه بالزوجين الجنس لا فردين معينين . وقال الزمخشري : أن الضمير في (آتيتنا) و (لنكون) لهما ولكل من يقتاسل من ذريتهما . والآية على كل من القولين بيان لحال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفى والجلي في هذا الشأن وأمثاله ، والجنس يصدق ببعض أنواعه وبعض أفراد

فمثال الشرك الخفى في انعام الله عليهم بالنسل ما يسندونه إلى الأسباب في سلامة الحامل من الأمراض في أثناء الحمل أو في حالة الوضع ، وفي سلامة الطفل عند الوضع وعقبه ، وفيما بعد ذلك من الموت أو التشويه أو الأمراض ، كقولهم : **اولا أن فعلنا كذا لكان كذا ، ولولا فلان أو فلانة من طيب أو مرشد أو قاتلة لهلك الولد أو لاجهضت أمه إجهاضاً ، أو جاءت بسقط لم يستهل ، أو مات عقب** اسقاطه لعدم استعداده للحياة . وينسبون في هذه الأحوال فضل الله تعالى عليهم بما من به من العافية والتوفيق وتسخير الأسباب من البشر وغيرهم ، وإن كانوا ممن يذكرونها ولا ينكرونها إذا ذكروا بها — ذلك شأن كثير من الناس في كل نعمة تمسهم ، أو نعمة يدفعها الله تعالى عنهم ، وهذا الشرك ليس خروجاً من الملة ، ولكنه نقص في شكر المنعم ، ويحتمل أن يكون المراد بالشرك هنا ترجيح حب الأولاد على حب الله تعالى وشغلهم للوالدين عن ذكره وشكره ، وإيثارهم لهم على

طاعته والتزام ما شرعه من أحكام الحلال والحرام ، وهو كسابقه نقص في التوحيد لا تقضى له ، وغفلة عنه لا جحد به .

ومثال الشرك الجلى : إسناد هذه النعم إلى غيره تعالى ممن يدعوهم من دونه أو معه من الأولياء والقديسين ، أو الأنبياء والمرسلين ، أو ما يذكر بهم أو يحلهم من القبور أو الأصنام والتماثيل ، يقولون : لولا سيدي فلان ولولا مولانا علان لما كان كذا مما نحب ، أو لكان كذا وكذا بما ذكره ، يعتقدون ان لهم فيما كان من نفع ومنع ضرر تأثيراً غيبياً يستقلون به هو فوق تأثير الأسباب المذكورة عن القسم الأول كما تقدم شرحه مراراً أقر بها ما في تفسير الآية السابقة

﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ أى وارتفع مجده ، وتعالى جده ، تنزهاً عن شرك هؤلاء الأغبياء أو عن شركائهم أن يكون لهم تصرف في خلقه ، أو تأثير في صفاته وأفعاله . كنت قرأت منذ سنين جل ما قال المفسرون في تفسير هذه الآيات من كتبهم التي بين أيدينا من مآثور وغيره ، وما أوردوه فيها من الاشكال ، وما لهم في الجواب عنه والتفصي منه من أقوال ، ولما أردت كتابة تفسيرها الآن لم أجد مما في ذهني منه شيئاً مرضياً يطمئن به قلبي ، فتوجهت إلى الله تعالى وفكرت في معناها الذي يعطيه الأسلوب العربي وينطبق على سنة الله في البشر ، وفي بيان كتابه الحقائق أحوالهم ، فكرت في ذلك قبل النوم وأنا في فراشي ، ثم كتبت ما تقدم في آخر النهار ، ثم بحثت فيما عندي من كتب التفسير لا كتب خلاصة ما قيل فيها ، وانظر فيما عساه يؤيده ، وأجيب عما ربما يفنده ، فاذا أنا بصاحب الانتصاف يقول بعد ذكر ما نقلناه آنفاً من كلمة الزمخشري في ضميري الجمع ما نصه : وأسلم من هذين التفسيرين أن يكون المراد جنس الذي ذكره والآتي لا يقصد فيه إلى معين ، وكان المعنى والله أعلم : خلقكم جنساً واحداً وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن ، فلما تمشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الآخر الذي هو الآتي جرى من هذين الجنسيتين كيت وكيت . وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون لأن المشركين منهم كقوله تعالى (ويقول الإنسان إذا ما مات لسوف أخرج حياً) (قتل الإنسان ما أكفره) (إن الإنسان لفي خسر) إله

وأما الاشكال الذي أشرنا اليه فهو ماروي عن بعض الصحابة والتابعين وفي حديث رافع أيضاً من أن الآية في آدم وحواء فقد أخرج احمد والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وغيرهم من حديث سمرة بن جندب مرفوعاً قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سمعي عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فماش ، فكان ذلك من وحى الشيطان » وهو على كثرة مخرجه غريب وضعيف كما سيأتي ، وقد جاءت الآثار في هذا المعنى مفصلة ومطولة وفيها زيادات خرافية ، تشهد عليها بأنها من الدسائس الإسرائيلية ، وهذه الآثار يعلها بعض العلماء من قبيل الأحاديث المرفوعة لأنها لا تنقل بالرأى ، والذي نعتقده وجربنا عليه في التفسير أن كل ما هو منها مظنة للاسرائيليات المتلقاة عن مثل كعب الاحبار وذهب بن منبه فهي لا يوثق بها ، فان كانت مع ذلك مشتملة على ما ينكره الدين أو العلم الصحيح قطعنا بطلانها وكونها دسيسة إسرائيلية ، ومنها ما نحن فيه لأن فيه طناً صريحاً في آدم وحواء عليها السلام ورمياً لها بالشرك ، ولذلك رفضها بعض المفسرين وتكلف آخرون في تأويلها بما تشكره اللغة . وقد اعتمد بعض المتأخرين كصاحب فتح البيان وصاحب روح المعاني الأخذ بحديث سمرة دون آثار الصحابة والتابعين التي فيها ما ليس فيه من رمي آدم بالشرك الصريح ، وظننا أنه حجة ووصفاء تبعاً للترمذي والحاكم بالحسن والصحيح ، وما هو بحسن ولا صحيح ، على أنه لم يرد تفسيراً للآية كذلك الآثار .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب في الآية لقريش وأن المراد فيها بالنفس الواحدة قصي جدكم ، وأن المراد بعمل زوجها منها أنها قرشية أو عربية لما روى أنها من خزاعة لامن قریش ، وأن المراد بشر كما تسمية أبنائهما الأربعة عبد مناف وعبد شمس وعبد العزى وعبد الدار — يعني دار الندوة — وفيه نظر من وجوه ذكرها بعض المفسرين لانهضيق الوقت بذكرها . وإنما الذي يصح أن يذكر ويبين بطلانه فهو الروايات التي اتخذ بها ولا يزال ينخدع بها الكثيرون وعمدنا في تمحيصها وبيان عللها الحافظ ابن كثير فقد قال في تفسيره مانصه :

« ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث ما أوردها وأبين ما فيها ثم نتبع ذلك

ببيان الصحيح في ذلك إن شاء الله وبه الثقة : قال الامام أحمد في مسنده : حدثنا
عبد الصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ
قال : لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يمشي لها ولد فقال سميه عبد الحارث
فماش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره . وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن
بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ، ورواه الترمذي في تفسيره
هذه الآية عن محمد بن المثني عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب
لا نعرفه إلا من حديث عمر بن ابراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه
ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال هذا حديث
صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ورواه الامام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن
أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن ابراهيم به مرفوعاً ، وكذا
رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن
ابراهيم به مرفوعاً (قلت) وشاذ هو هلال وشاذ لقبه ، والغرض أن هذا الحديث
معلول من ثلاثة أوجه (أحدها) أن عمر بن ابراهيم هذا هو المصري وقد وثقه
ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازي لا يحتج به ^(١) ولكن رواه ابن مردويه من
حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً فأنه أعلم (الثاني) أنه قد
روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى
حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبد الله عن سليمان التيمي عن عبد الأعلى بن
الشخير عن سمرة بن جندب قال : سمى آدم ابنه عبد الحارث (الثالث) أن
الحسن نفسه فسر : الآية بقبر هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل
عنه . قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن
(جعلاه شركاء فيما آتاهما) قال كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ،
وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن نور عن معمر قال : قال الحسن عني
بها خرية آدم ومن أشرك منهم بعد . يعني جعلاه شركاء فيما آتاهما ، وحدثنا

(١) وقال أحمد وابن عدي وابن حبان : إنه يروى عن قتادة أحاديث منكورة
لا يوافق عليها ، وقال الدارقطني : ويترك حديثه وقال البزار ليس بالحافظ

بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا . وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره لاسيما مع تقواه لله وروعه فهذا يدل على أنه وقوف على الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله ، ألا إننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم .

«فأما الآثار فقال محمد بن اسحاق بن يسار عن دأود بن الحصين عن عكرمة

عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدونهم ويسمونه عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاها إبليس فقال : إنكما لو سميتاه بغير الذي تسميانه به لعاش ، قال فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث ففيه أنزل الله يقول (هو الذي خلقكم من نفس واحدة — لم ي قوله — جعل له شركاء فيما آتاهما) إلى آخر الآية : وقال العوفي عن ابن عباس قوله في آدم (هو الذي خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — فمرت به) شكت أم لا ؟ (فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيناهما صالحاً لنكونن من الشاكرين) فأتاها الشيطان فقال: هل تدري أن ما يولد لك ، أم هل تدري أن ما يكون أبهية أم لا ؟ وزين لها الباطل إنه غوى مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فأتاها فقال لها الشيطان إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً ومات كما مات الأول فسميا ولهما عبد الحارث فذلك قول الله (فلما آتاهما صالحاً جعل له شركاء فيما آتاهما) الآية . وقال عبد الله ابن المبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد بن جبهر عن ابن عباس في قوله : (فلما آتاهما صالحاً جعل له شركاء فيما آتاهما) قال : قال الله تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها آدم (حملت) فأتاها إبليس لعنه الله فقال إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لا تجعلن له قرناً أيلاً فيخرج من بطنك فيشقه ولا فعلن ولا فعلن — يخوفهما — فسمياه عبد الحارث ، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ، ثم حملت الثانية فأتاها أيضاً فقال :

أنا صاحبكم الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لا تفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعا فخرج ميتاً ثم حملت الثالثة فأتاها أيضاً فذكر لها فأذكركما حب الولد فسماها عبد الحارث ، فذلك قوله تعالى (جعلناه شركاء فيما آتاهما) رواد ابن أبي حاتم . « وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كعجابه وسعيد بن جبير وعكرمة ، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة ، وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فان ابن عباس رواه عن أبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجاهر حدثنا سعيد يعني ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها : أطيعيني ويسلم لك ولدك سمى عبد الحارث ، فلم تفعل فولدت فأت ، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال : إن تطيعيني يسلم وإلا فانه يكون بهيمة . فمبيهما فأطاعا .

« وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقهم ولا تكذبهم » ثم أخبرهم على ثلاثة فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله « فلا تصدقهم ولا تكذبهم » وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث ؟ فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فانه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله (فدعنا إلى الله عما يشركون) ثم قال : فذكره آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله (واقعد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ، ومعلوم أن المصابيح هي النجوم التي زينت بها السماء

ليست هي التي يرمى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصاييح إلى جنسه ولهذا
نظائر في القرآن والله أعلم . اهـ سياق ابن كثير . وقد أصاب كنه الحقيقة في قوله
ان هذه الآثار مأخوذة من الاسرائيليات ؛ ولما كانت طعنا في عقيدة أبونا آدم
وحواء عليهما السلام بما تبطله عقائد الإسلام ، وجب الجزم بطلانها وتكذيبهم فيها .

ثم بين تعالى سخافة عقولهم وأفن آرائهم بهذا الشرك فقال ﴿ أيشركون
مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ﴾ الاستفهام للانسكار والتجھيل ، أى يشركون به
سبحانه وتعالى وهو الخالق لهم ولأولادهم ، ولكل شيء . مالا يخلق شيئا من الأشياء
مها يكن حقيراً ، كقوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا
ولو اجتمعوا له) وليس قصارى أمرهم أن الخلق لا يقع منهم ، بل هو يقع عليهم ،
فهم يخلقون أنا بعد أن ، ولا يليق بسليم العقل أن يجعل الخلق العاجز شريكاً
للخالق القادر ؟ والآية وما بعدها حكاية لشرك عباد الأصنام والتماثيل كافة ،
ومنهم مشركو مكة وأمثالهم ممن نزل القرآن في عهدهم ومن يجيء بعدهم ، فقوله
(مالا يخلق شيئا) يراد به أصنامهم لأن « ما » لما لا يعقل ولفظها مفرد وهو من
صيغ العموم فأفرد الضمير في « يخلق » مراعاة للفظ ثم جمع في « يخلقون » مراعاة
للمعنى ، وجعله ضمير العقلاء من قبيل الحكاية لاعتقادهم ، والتعبير بفعل المضارع
« يخلقون » لتصوير حدوث خلقهم ، وكون مثله مما يتجدد فيهم وفي أمثالهم من
المشركين ، وهذا أسوأ فضاائحهم في الشرك

﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أى وهم على كونهم
مخلوقين غير خالقين لشيء لا يستطيعون لمابديهم نصراً على أعدائهم ، ولا يستطيعون
لأنفسهم نصراً على من يعتدى عليها بإهانة لها ، أو أخذ شيء من طيبها أو حليها ، كما
قال (وإن يسلمهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) أى
فهم يحتاجون اليكم في تكريمهم ، وأنتم لا تحتاجون إليهم ، بل أنتم الذين تدفعون
عنهم وتنصرونهم بالنضال دونهم ﴿ وإن تدعوني إلى الهدى لا يتبعوكم ﴾
قرأ نافع « لا يتبعوكم » بالتخفيف والباقيون بالتشديد أى وإن تدعوني إلى

ما هو الهدى والرشاد في نفسه لا يتبعوكم ، فلا هم ينفعونكم ولا هم ينتفعون منكم
أو المعنى وان تدعوه إلى إفادتك لا يستجيبون لكم ﴿ سواء عليكم أَدعوتهم
أم أنتم صامتون ﴾ أى مستو عندكم دعاؤكم إليهم وبقاؤكم على صمتكم ، ولعله لم
يقُل : صمتهم ، أو تصمتون ، لأن إشراركم بهم كان قد وهن بحيث لم يكونوا
يدعونهم عند الاضطراب وكوارث الخطوب بل يدعون الله وحده ، وإنما كانوا
يتحدثون بتقاليدهم الوثنية فيهم والرجاء بشفاعتهم في أوقات الرخاء ، التي لا يشعر
فيها الإنسان بالحاجة إلى الدعاء (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين
فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ومنه الدعاء بأولاد الصالح عند قرب وضع
الحامل ، والشرك بعد وجود أولاد الصالح ، فالتعبير بالوصف « صامتون » لافادة
كون إحداث الدعاء واستصحاب الحال الثابتة قبله واستمرارها سواء ، وهى تصدق
بنفى شمولهم بالحاجة إلى دعائهم وعدم خطورهم بالبال عند الشدائد ، والشعور
بحاجة المخلوق إلى الرب الخالق ، ولو قال : « أم صمتهم » أو « أم أنتم تصمتون » لما كانت
المقابلة بين وجود وعدم ، وإيجاب وسلب ، لأنه يصدق بتكليف الصمت وكف النفس
عن دعائهم ولو للتجربة مع الشعور بالحاجة إلى الدعاء والأول أبغى في المراد من
كون وجود هذه الأصنام وعدمها سواء ، ومن كون دعائها مساويا لتلك الدعاء ،
ولو مع انصراف القلب عنها ، ولو كانت وسائل تشفع عند الله وتقرب إليه زلتى كما
كان يقول أولو الوثنية الكلاسية الحالية ، أو تنفع وتضر بنفسها أو بما أعطاه الله تعالى
من التصرف في الكون باستقلالها كما يعتقد أصحاب الوثنية العارضة العاطلة - لكان
الاعراض عن دعائها ضارا بهم ، أو مضيعا بعض المنافع عليهم

وقد يظن من أشرك بعض الأولياء مع الله تعالى هذا النوع من
الإشراك أن هذا التوبيخ لا يوجه إليهم ، وإن هذه الحجة لا تقوم عليهم ، لأن أولئك
كانوا يدعون جماداً أو شجراً لا يعقل ، وهم يدعون أولياء وصلاحاء ، لأمواتهم حكم
الشهداء في الحياة ، وهم قصدون قبورهم ويعظمونها ، لأن لأرواحهم اتصالاً بها ، وإنما
جاءت هذه التفوق من جهلهم بأن أكثر هذه الأصنام لم تنصب إلا للشكير بأناس
من الأولياء الصالحين ، كما رواه البخارى عن ابن عباس في أصنام قوم نوح التي انتقلت

إلى العرب وقد كانت اللات صخرة لرجل يلت عليها السويق ويطعمه الناس .
فالأنصام والتماتيل والقبور التي تعظم تعظيماً دينياً لم يأذن به الله كلها سواء في كونها
وضعت للتذكير بأناس عرفوا بالصلاح ، وكانوا هم المقصودين بالدعاء لما تحيلوا فيهم
من التأثير في إرادة الله ، أو التصرف الغيبي في ملك الله ، وهو أخش الشرك بالله ،
على أنه لا فرق في المسألة بين إشراك الصنم واللون ، وإشراك الولي أو النبي أو الملك فاقراً
الآيات في اتخاذ الولد لله من الملائكة والمسيح في سورة الأنبياء (٢٦: ٢٩ - ٢٩)

(١٩٤) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُواهُمْ
فَلَيْسَتْ جَبِيئُوا لَكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٥) أَلَمْ يَأْخُذْ أَرْجُلُ يَعْشُونَ
بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آَعَيْنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ
أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟ قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٦)
إِنَّ وَايِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٧) وَالَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٨)
وإن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ

عنه الآيات تنمى لما قبلها من آيات التوحيد مفررة ومؤكدة لمضمونها ، لأن
توحيد العبادة ونفي الشرك فيها هو أس الاسلام ، ولا يتقرر في الأذهان ، ويثبت
في الجنان ، ويكمل بالوجدان ، إلا بتكرار الآيات فيه نفيًا وإثباتًا لمضمون كلمة
(لا إله إلا الله) * إن الذين تدعون من دون الله عباد أَمْثَالِكُمْ * الدعاء مخ
العبادة وركنها الأعظم فلا يصح توحيد أحد لله إلا بعبادته وحده وعدم دعاء أحد معه
كما قال (فلا تدعوا مع الله أحداً) والمفسرون يقولون إن الدعاء في مثل هذه الآيات
معناه العبادة من باب تسمية الكل باسم الجزء ، فصاروا يفسرون « تدعون »
بتعبدون فضلاً بعض العوام من القارئین وغيرهم في هذا التعبير وظنوا أن المرء
لا يكون عابداً لغير الله تعالى إلا إذا كان يصلي له الصلاة المعروفة ويصوم لأجله ، وأنه

لا ينافي توحيد الله تعالى أن يدعى غيره معه أو يدعى من دونه بقصد التوسل إليه والاستشفاع لديه ، إذا كان لا يصلى ولا يصوم له ، وقال بعضهم : إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، فيكون الإنكار فيه خاصاً بتسميتهم لأصنامهم وغيرهم من معبوداتهم آلهة ، وكل من هذا وذلك ضرب من ضروب الاحتمالات اللفظية التي يتعلق بها من أشرك بالله جاهلاً بمعنى الشرك ، ممن يدعون الموتى من الصالحين لدفع الضر عنهم أو جلب الخير لهم ، من غير طريق الأسباب التي هي من تناول كسبهم وسعيهم ، ولكنهم لا يسمونهم آلهة ، وهذا هو الشرك الأكبر الذي نعى على المشركين من قبلهم لا بمجرد التسمية التي لا تكون بدونه صحيحة .

والحق الذي لا مبدل عنه أن الدعاء هنا هو النداء ندفع الضر أو جلب النفع ، الموجه إلى من يعتقد الداعي أن له سلطاناً يمكنه به أن يجيبه إلى ما طلبه بذاته أو بحمله للرب الخالق على ذلك بحيث يجيب دعاء الداعي لأجله

يقول تعالى : إن الذين تدعونهم من دون الله هم عباد الله أمثالكم في كونهم مخلوقين لله تعالى خاضعين لسننه في خلقه ، وإذا كانوا أمثالكم امتنع عقلاً أن تطلبوا منهم ما لا تستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم لكم فيما توقف على التعاون في اتخاذ الأسباب له . وإنما يدعى لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق الرب الخالق المسخر للأسباب الذي تخضع لإرادته الأسباب وهو لا يخضع لها ، ولا لإرادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها

وهذه المائلة إنما تظهر فيمن يدعى من دون الله تعالى من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحاء ، دون ما اتخذهم تذكيراً بهم من التماثيل أو القبور أو الأصنام ، وقد صار بعض هذه المذكرات يقصد لذاته ، جهلاً بما كانت أنفذت لأجله ، وفي هذه الحالة تدخل في المائلة بطريقة تنزيلها منزلة ما وضعت لأجله ، كأنه يقول : إن قصارى أمرها أن تكون من الأحياء العقلاء أمثالكم ، فكيف ترفعونها عن هذه المشلية ، إلى مقام الربوبية ؟

﴿ فادعوهم فليستجيبوا لكم ﴾ إن كنتم صادقين ﴿ أى إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم يقدرون على ما لا تقدرون عليه بقوا كم البشرية من نفع أو ضرر

بنفواتهم فادعومهم فليستجيبوا لكم بأنفسهم ، أو يحملوا الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون منهم ان كنتم صادقين في قولكم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقولكم (ما نعبدكم الا ليقربونا إلى الله زلفى) ثم بين لهم أنهم أحط رتبة منهم لا أمثالا لهم ، فقال :

﴿ ألم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها

أم لهم آذان يسمعون بها ؟ ﴾ هذا تقرير موجه إلى الوجدان ، في إثارة احتجاج وجه قبله إلى الجنان ، والاستفهام فيه للانكار ، وهو خاص بالاصنام والأوثان ، ومعناه أنهم لفقدهم لجوارح الكسب ، التي يناف بها في عالم الأسباب النفع والضرر ، قد هبطوا عن درجة مماثلتكم من كل وجه ، فليس لهم أرجل يسمعون بها إلى دفع ضرر أو جلب نفع ، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجون منهم من خير أو تخافون من شر ، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم ، وليس لهم آذان يسمعون بها أقوالكم ، ويعرفون بها مطالبكم ، فأنتم تفضلونهم في الصفات والقوى التي أودعها الله في الخلق ، فلماذا ترفعونهم عن مماثلتكم ، وهم بدليل المشاهدة والاختبار دونكم ؟ وها أنتم أولاء تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول وتعلمون ذلك بأنه بشر مثلكم ، فيقول بمضكم لبعض (ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم إذا غاسرون ﴾ أفنأبون قبول الحق والخير من مثلكم ، وقد فضله الله بالعلم والهدى عليكم ، وهو لا يستذلكم بادعاء أنه ربكم أو إلهكم ، ثم ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهية ، مع الخطاطة وتسفنه عن هذه المثلية ؟

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيّدون فلا تنظرون ﴾ أي قل أيها الرسول هؤلاء المرؤثين بمقوله ، الختقرين لنعم الله تعالى عليهم ، نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء ، وزعمتم أنهم فيكم شفعاء ، ثم تعاونوا على كيّد جميعاً ، وأجمعوا مكرهم الخفى لايقاع الضرر بي سريعا ، فلا تنظرون أي لا تؤخروني ساعة من نهار ، بعد إحكام المكر الكبار ، وحكمة مطالبهم بهذا ان العقائد والتقاليد الموروثة تتغلغل في أعماق الوجدان ، حتى يتضاهل دونهما كل برهان ، ويظل صاحبها مع ظهور الدليل على (تفسير القرآن الحكيم) (٣٤) (الجزء التاسع)

بطلانها يتوهم أنها تضر وتنفع ، وتقرب من الله وتشفع ، فطالبهم بأمر على يستل هذا الوهم من أعماق قلوبهم ، ويمتلخ الشعور به من خبايا صدورهم ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء نداء استغاثة واستنجاد لإبطال دعوة الداعي إلى الكفر بها ، وإثباته المعجز لها ، وبذل الجهد فيما ينسبون إليها من التأثير الباطن ، والتدبير الكامن ، الذي هو عندهم أمر غيبي ، يدخل في معنى الكيد الخفي . فإن كان لها شيء ما من السلطان الغيبي في أنفسها أو عند الله تعالى فهذا وقت ظهوره ، فإن لم يظهر لإبطال عبادتها وتعظيمها ، ونصر عابديها ومعظمي شأنها ، فمتى يظهر وينتفعون به ؟ وهم منكرون للبعث ، وكل ما يرجونه أو يخافونه منها فهو خاص بما يكون في هذه الأرض ؟

﴿ أن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ هذا تعميل جزؤه . **عليه السلام** بما ذكر من عجز هذه المعبودات وتحقير أمرها وأمر عابديها على ما كان من ضعفه بمكة عند نزول هذه السورة . يقول أن ناصري ومتولى أمري هو الله الذي نزل على هذا الكتاب الناطق بوحدانيته في ربو بيته ، وبما يجب من عبادته ودعائه في المهمات والمهمات وحده ، وبأن عبادة غيره باطلة ، وأن دعاء هذه الأوثان هرؤ باطل ، وسخف لا يرضاه لنفسه إلا جاهل سافل ، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده ، وهم الذين صاحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة السالمة من الخرافات والأوهام ، والأعمال التي تصلح بها الأفراد وشؤون الجماعات ، فينصرفون على الخرافيين الفاسدين والعقائد والمفسدين في الأعمال (فاما الزيد فيذهب جهنم وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال)

﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أي وأما الذين تدعونهم لنصركم والغير النصر من منافعكم ودفع الضر عنكم ، فهم عاجزون لا يستطيعون أن ينصروكم ، ولا أن ينصروا أنفسهم على من يحقر أمرهم ، أو يسلبهم شيئاً مما وضع من الطيب أو الحلى عليهم ، وقد كسر إبراهيم **عليه السلام** الأصنام فجعلهم جذاذاً فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أن

يَنْفَقُوا مِنْهُ لَهَا . وَرَوَى عَنْ مَعَاذِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْجَوْحِ وَمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رَضَ) وَكَانَا شَابِلَيْنِ مِنَ الْإِنصَارِ قَدْ أَسْلَمَا لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ «أَنِهَمَا كَانَا يَمْدُونِ فِي اللَّيْلِ عَلَى أَصْنَامِ الْمُشْرِكِينَ يَكْسِرَانَهَا وَيَتَخَذْنَانَهَا حَطَبًا لِلْأَرَامِلِ لِيَعْتَبِرَ قَوْمُهُمَا بِذَلِكَ ، وَكَانَ لِعَمْرٍو بْنِ الْجَوْحِ وَكَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ - صَمٌّ يَعْبِدُهُ فَكَانَا يَجِئَانِ فِي اللَّيْلِ فَيَنْكُسَانِهِ عَلَى رَأْسِهِ وَيُلَاحِظَانِهِ بِالْعَدْرَةِ فَيَجِيءُ فَيَرَى مَا صَنَعَ بِهِ فَيُغْسِلُهُ وَيَطْبِئُهُ وَيَضَعُ عِنْدَهُ سِيفًا وَيَقُولُ لَهُ : أَنْتَ صَرَحْتَ أَخَذَاهُ مَرَّةً فَقَرَأَاهُ مَعَ كَلْبٍ مَيِّتٍ وَدَلِيلَاهُ بِجَبَلٍ فِي بَثْرِ فَلَمَّا رَأَاهُ كَذَلِكَ عَلِمَ بَطْلَانَ عِبَادَتِهِ وَأَسْلَمَ وَفِيهِ يَقُولُ :

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِمْلَاءً مُسْتَدِنٌ لَمْ تَكِ وَالْكَلْبُ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ
وَبَعْدَ أَنْ نَفَى قَدَرَتَهُمْ عَلَى النَّصْرِ ، قَفَى عَلَيْهِ بَنَفَى قَدَرَتَهُمْ عَلَى الْإِشْرَادِ إِلَيْهِ فَقَالَ
﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ﴾ أَيُّ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَهْدُوهُمْ
إِلَى مَا تَقْتَضُونَ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ أَوْ جَلِيَّةٍ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ مُطْلَقًا ، فَكَيْفَ
يَسْتَجِيبُونَ لَكُمْ ؟ عَلَى أَنَّهُمْ لَوْ سَمِعُوا لَمَّا اسْتَجَابُوا لِعَمْرٍو عَنْ الْفَعْلِ ، كَقَدَّمِ السَّمْعَ ،
﴿ وَتَرَامُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ أَيُّ وَهُمْ فَاقْدُونَ لِحَاسَةَ الْبَصَرِ كَقَدَّمِ
لِحَاسَةَ السَّمْعِ ، وَتَرَامُ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِمَا وَضَعَهُمْ مِنَ الْأَعْيُنِ الصَّنَاعِيَّةِ ،
وَالْحَقِّقِ الزَّاجِجَةَ أَوْ الْجَوْهَرِيَّةَ ، وَجَعَلَهَا مَوْجِهَةً إِلَى الدَّخْلِ عَلَيْهَا كَأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ ،
وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ بِهَا لِأَنَّ الْإِبْصَارَ لَا يَحْصُلُ بِالصَّنَاعَةِ ، بَلْ هُوَ مِنْ خَوَاصِّ الْحَيَاةِ الَّتِي
اسْتَأْتَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا ، وَإِذَا كَانُوا لَا يَسْمَعُونَ دَعَاءَ وَلَا نِدَاءً مِنْ عَابِدِهِمْ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ ،
وَلَا يَبْصُرُونَ حَالَهُ وَحَالَ خَصْمِهِ ، قَاتَى يَرْجَى مِنْهُمْ نَصْرَهُ وَشَدَّ أَرْزَهُ ؟ .

وَفِي الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرُ ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَهُوَ أَنَّ الْخُطَابَ فِيهَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالرُّسُولِ
فِي مَقْدَمَتِهِمْ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ فِي الْأَصْنَامِ قَدْ تَمَّ فِيمَا قَبْلُهَا وَعَادَ الْكَلَامُ فِي عَابِدِيهَا ،
أَيُّ وَإِنْ تَدْعُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ هَؤُلَاءِ الْأَغْيَاءَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ لَمْ يَعْلَمُوا هَذِهِ الْحَقِيقَ
وَالْبَرَاهِينَ ، إِلَى هُدَى اللَّهِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِسْلَامُ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَتَكُمْ سَمَاعَ قَوْمٍ وَاعْتِبَارَ
وَتَرَامُ أَيُّهَا الرُّسُولُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ مَا أَوْتَيْتَ مِنْ مِمَّتِ الْجَلَالِ وَالْوَقَارِ ،
الَّذِي يُمَيِّزُهُ صَاحِبُ الْبَصِيرَةِ بَيْنَ أَوْلَى الْجَدِّ وَالْعَزْمِ ، وَالصَّدَقِ فِي الْقَوْلِ وَالْفَعْلِ ، وَبَيْنَ

أهل العيث والهزل . ولقد كان بعض ذوى الفطرة السليمة ينظر إلى النبي ﷺ فيعرف من شمائله وسياه في وجهه أنه حُرصادق ، غير مخادع ولا مُمادق ، فيقول والله ما هذا الوجه وجه كاذب .

وما زال من المعبود بين الناس أن أصحاب البصيرة والفضيلة من الناس يعرف بعضهم بعضاً بذلك من أول العهد بالطلاق بما يتوسمون من ملامح الوجوه ومعارفه ثم من موضوع الحديث وتأثيره في نفس المتكلم والسامع ثم بكل ذلك بالمعاشرة . كما يعرفون حال الاشرار والمنافقين بذلك (ولو نشاء لاربنا كهم فله عرفهم بسيماهم) لتعرفتهم في لحن القول) بهذه البصيرة النيرة عرفت السيدة خديجة فضلى حقائق قريش فضائل محمد بن عبد الله قبل بعثته ، فاستمالته وخطبته لنفسها على غداها وفقره ، بعد أن رفضت أناساً من كهراء قريش خطبوها بعد موت زوجها الأول ، ثم كانت أول من جزم برسالة عند ما حدثها بأول مارآه من بدء الوحي وخاف على نفسه منه ، وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول رجل دعاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الإسلام بحسن فراسته فيه فلم يتوقف ولم يتمكث ولم يتريث أن اجاب الدعوة مذكر ح الصدر قرير العين ، لأنه كان أجدر الناس بعرفة حقيقتها وحقيقة من دعا إليها . وامثلة هذا كثيرة في كل زمان . وكان أظهرها في قرننا هذا تعلق الشيخ محمد عبده بالسيد جمال الدين الأفغانى من أول ليلة رآه فيها ولزاه إلى أن فارق هذه الديار ، فلم يعرفه حق المعرفة غيره على كثرة المكبرين له والمعجبين به ، وقد كان الكثيرون من أهل الأزهر يعرفون منه ويصدون عنه ، فأين هم وأين آثارهم في العلم أو الدين ؟ فبأمثال هذه العبر الواقعة تفهم معنى قوله تعالى (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) على الوجه الأخير في تفسيرها ، لا بمجرد تسمية هذا التعبير استعارة شبه فيها كذا بكذا . ثم اقرأ في معناه قوله تعالى (١٠ : ٤٢) ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر إليك . أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون ؟)

(١٩٩) خُذِ الْعَقْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

هذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع ، وهي التي تلى في

المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد ، الذي تقرر فيما قبلها من الآيات بابلغ التوكيد ، فقوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ يأمر فيه بثلاثة أشياء هي أصول كلية للقواعد الشرعية والآداب النفسية والأحكام العملية (الأصل الأول) العفو وهو يطلق في اللغة على خالص الشيء وجيده ، وعلى الفضل الزائد فيه أو منه ، وعلى السهل الذي لا كلفة فيه ، وعلى ما يأتي بدون طلب أو بدون احفاء ومبالغة في الطلب ، وهذه المعاني متقاربة وهي وجودية ، ومن معانيه السلبية إزالة الشيء كعمت الرياح الديار والآثار ، أو إزالة أثره كالعفو عن الذنب وهو منع ما يترتب عليه من العقاب ، فعانى العفو الوجودية والعدمية أو الموجبة والسالبة كلها إحسان ورفق ، وقد ورد عن مفسري السلف في تفسير العفو هنا أقوال كلها ترجع إلى هذه المعاني ، فرواية العوفي عن ابن عباس في تفسير (خذ العفو) خذ ماعفالك من أموالهم أي مافضل وما أتوك به من شيء . وكان هذا قبل أن تنزل براءة بقرائن الصدقات وتفصيلها ، وبذلك قال السدي وزعم أنها نسخت بآية الزكاة . وفي رواية الضحاك عنه : أنفق الفضل ، ومثلها عن سعيد بن جبير . وفي عدة روايات عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عمه عبد الله بن الزبير أن معناه خذ العفو من أخلاق الناس ومثله وفي رواية لهشام عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين مثل ذلك ، وبه قال مجاهد ، وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن العفو هنا الصفح عن المشركين وكان عشر سنين ففسخ بآية السيف ، وهذا ضعيف لأن العفو بهذا المعنى لا يبر عنه بالأخذ لأنه أمر عديم هو بالاعطاء أشبه ، ولا بالقبول لأنه لم يطلب . وأحسن الزمخشري ما شاء في تصويره معنى العفو بما تعطيه اللغة فقل والعفو ضد الجهد أي خذ ماعفالك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ، ولا تدافعهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى يفروا كقوله ﷺ « يسروا ولا تعسروا » قال :

خذني العفو مني تستدبني مودتي ولا تنطقي في سورتى حين أغضب

وقيل خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل نزول آية الزكاة . فلما

نزلت أمر أن يأخذهم بما طوعوا ، كما هنا ، ونقيت الآية محكمة في صدقة التطوع

والاختار عندنا أن العرف يشمل هذا وذلك فالمراد به أن من أصول آداب هذا الدين وقواعد شرعه اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس وقد تقدم تفصيل القول في ذلك في تفسير آية الوضوء من سورة المائدة ^(١) وقد خالف هذه القاعدة الأساسية أهل الفقه المقلوب فجعلوا العسر والحرج من أهم قواعد الدين وأصول الشرع فلا لتسمية وقد صرح في الأحاديث «أن النبي ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما» وتروى هؤلاء لا يخير أحدهم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ولا سيما العسر على الأمة بأسرها ، وأما فتاوى الأفراد فقد قال بعض المصنفين منهم في المسألة فيها قولان مصححان : نحن مع الدرهم قلة وكثرة لا يعنى في الفتوى بأحدهما

(الأصل الثاني) الأمر بالعرف وهو ما تعارفه الناس من الخير وفسروه بالمعروف وفي اللسان المعروف ضد المنكر والعرف ضد النكر قال : والعرف والعارفة والمعروف واحد ضد النكر ، وهو كل ما تفرقه النفس من الخير وتبأساً به ^(٢) وتطامن إليه (قال) وقد تكرر ذكر المعروف في الحديث وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والاحسان إلى الناس وكل ما ندب إليه ونهى عنه من المحسنات والمقبحات وهو من الصفات الغالبة أي أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه ، والمعروف النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم ، والمنكر ضد ذلك جميعه اهـ

والقول الجامع أن العرب تطلق المعروف على ضد المنكر وعلى ضد الجهول ، والمنكر هو المستقيم عند الناس الذي ينفرون منه لقبحه أو ضرره ويذمونه ويذمون أهله . والأمر به في هذه السورة المكية التي نزلت في أصول الدين وكليات التشريع يثبت لنا أن العرف أو المعروف أحد هذه الأركان للآداب الدينية والتشريع الاسلامي وهو مبنى على اعتبار عادات الأمة الحسنة وما تتوافق عليه من الأمور النافعة في مصالحها حتى أن كتاب الله عز وجل قد قيد طاعة رسوله ﷺ بالمعروف في عقد مبايعته ﷺ للنساء قال عز وجل في سورة الممتحنة (٦٠ : ١٢) يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك

في معروف فبايعهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم (ومن المعلوم أن عقد المبايعة أعظم العقود في الأمم والدول ، فتقيد طاعة الرسول ﷺ فيه بالمعروف دليل على أن التزام المعروف من أعظم أركان هذا الدين وشرعه ومن المعلوم في السنة أن مبايعته ﷺ للرجال كانت مبغية على أصل مبايعته للنساء المنصوص في هذه الآية . وقال ﷺ « إنما الطاعة في المعروف » وهو في مواضع من الصحيح

وقد تقدم من هذه السورة (الأعراف) وصف النبي ﷺ في إشارة التوراة والإنجيل بأنه « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » وورد ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما حكاه تعالى من وصية لقمان في السورة المسماة باسمه وهي مكية كالأعراف ثم تكرر ذكر المعروف في السور المدنية وأكثرها في بيان الأحكام الشرعية العينية وذلك في عشرات من الآيات بعضها في صفة الأمة الإسلامية وحكومتها وأكثرها في الأحكام الزوجية والمالية . فمن النوع الأول قوله تعالى في تعليل الإذن لمسلمين بالقتال من سورة الحج فذكر من صفات المأذون لهم به أنهم ظهروا وأخرجوا من ديارهم بغير حق لأجل توحيد الله تعالى ثم قال (٢٢: ٤١) الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور) ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران (٣ : ١٠٣) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقوله بعدها (١٠٩) كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقوله عز وجل في سورة التوبة (٩ : ٧١) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية . ثم قوله في صفاتهم منها (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) فهذه الآيات أصول لا مندوحة للأمة عن التزامها في آدابها وتشريعيها

ومن النوع الثاني وهو ماورد في الأحكام الفرعية قوله تعالى في الحقوق الزوجية من سورة البقرة (٢ : ٢٢٨) ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) وهذه الآية ركن من أركان الحقوق الزوجية يفضل بها الإسلام جميع الشرائع والقوانين

في العدل والمصلحة ولم تنل النساء مثله في أمة من الأمم. ومنها قوله في أحكام الطلاق (٢٢٩) فإمسك بعروفي أو تسريح بإحسان) وقوله بعده (٢٣١) فأمسكوهن بعروفي أو سرحوهن بعروفي) - ومثلها في سورة الطلاق - وقوله بعدها في المطلقات الرجعيات (٢٣٢) فلا تغضوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف) وقوله بعدها فيهن إذا كن مرضعات (٢٣٣) وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف - إلى قوله فيهن إذا أراد الزوجان الفصال عن تراض منهما وتشاور - وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف) وقوله في الآية التي بعدها في معتدات الوفاة (٢٣٤) فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) وقوله بعد آية أخرى في المطلقات (٢٣٦) ومتعهوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقوله بعد أربع آيات أخرى (٢٤١) والمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وكقوله في معاشررة الأزواج من سورة النساء (٤: ١٩) وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) وهناك آيات أخرى في العفو عن القصاص وفي الوصية للوالدين والأقربين وفي أكل الوصي من مال اليتيم قيدت بالمعروف.

فأنت ترى أن المعروف في هذه الآيات معتبر في هذه الأحكام المهمة وأن المعروف فيها هو المعهود بين الناس في المعاملات والعادات، ومن المعلوم بالضرورة أنه يختلف باختلاف الشعوب والبيوت والبلاد والأوقات، فتجديده وتعيينه باجتهاد بعض الفقهاء بدون مراعاة عرف الناس يخالف لنص كتاب الله تعالى... والشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من فقهاء الحديث والحنابلة أقوال حكيمة في المعروف، منها أنه يجب على كل من الزوجين من أعمال البيت والأسرة ما جرى العرف به، وأنه إذا كان من المعروف عن بعض البيوت أنهم لا يزوجن بناتهم لمن يتزوج عليهن ويضارهن كان هذا كالشرط فلا يجوز للرجل أن يتزوج على المرأة منهم.

فإن قلت: إن بعض العلماء قالوا: إن المراد بالعرف والمعروف في الآيات هو المنصوص في الشرع، كقول صاحب لباب التأويل في قوله (وأمسك بالعروفي):

وأمسك بكل ما أمرك الله به وعرفته بالوحي، فالجواب أن مثل هذا القول يخالف لما

ذكرنا وما لم نذكر من أقوال السلف والخلف ولا يمكن أن يراد من كل آية ولا من مجموع الآيات المتقدمة وما يحتمله منها كآيات الأمر والنهي المدنية لا بد أن يكون اللفظ فيها عاماً يشمل المعروف في الشرع وفي العادات والمعاملات ولا يظهر هذا في آية الأعراف التي هي الأصل الأول لأنها الأولى في الموضوع ، ولم يكن قد نزل قبلها أحكام يفسر بها العرف ويحال عليها فيه — فاقاله صاحب لباب التأويل هو من قشره لا من لبابه، وأول ما يرد عليه أنه إذا كان المراد من العرف المعروف بالوحي يقال فيه أنه لم يكن قبل الأمر به معروفاً وبعد الأمر به صار من قبيل تحصيل الحاصل .

نعم إن ما يتقرر بنص الشرع يصير من جملة المعروف الذي هو ضد المجهول كما أنه يكون بالضرورة من المعروف الذي هو ضد المنكر . ويبقى تحكيم العرف والمعروف بالمعنى اللغوي العام معتبراً فيما لا نص فيه بخصوصه وللأمة فيه عرف غير معارض بنص ، ولا يستقيم نظام الأمة على أساس ثابت إذا كان أمر العرف والمعروف فيها فوضي وغير مقيد بأصول وأحكام وفضائل ثابتة ، فلا بد من شيء ثابت وهو ما لا يختلف فيه المصالح والمنافع باختلاف الزمان والمكان وأحوال المعيشة ، ولا بد من شيء يحكم فيه العرف وهو ما يقابله ، ولذلك جاء الشرع الحكيم بهما معاً ، ولا يضر مع هذا اختلاف الناس فيما يعرفون وينكرون فليكن المعروف كما قال الجصاص من أئمة الحنفية : ما يستحسن في العقل فعلة ولا تنكره العقول الصحيحة فيكفي المسلمين المحافظة على النصوص الثابتة إذ لا يمكن أن يستنكر المؤمن ما جاء عن الله ورسوله نصاً حتماً لا اجتهد فيه ، وليكن للجماعة بعده رأى فيما يعرفون وينكرون ، ويستحسنون ويستنكرون ، يكون عمدتهم فيه جمهور العقلاء والعلماء وأهل الأدب والفضيلة في كل عصر .

(الأمر الثالث) الاعراض عن الجاهلين وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم ، ولا علاج أوفق لا ذاهم من الاعراض عنهم ، وشرم في هذا العصر مرتزقة صحف الأخبار المنشرة ، فإن سفهاء هاهم شر من سفهاء الشعراء في العصور السابقة ، وقد قل سعة الشعراء في عصرنا هذا فلا أعرف لشاعر مشهور

من القذع والبذاء في الهجو شيئاً مما نعهد في الصحف التي يعبرون عنها بالساقطة ،
وكم من صحيفة قائمة فاهضة بالثروة ، شر من ساقطة بالقلّة . وانما يجب الاعراض عن
السفهاء لأنهم لا يطلبون الحق إذا فقدوه ، ولا يأخذون فيما يخالف أهواءهم إذا
وجدوه ، ولا يرعون عهداً ، ولا يحفظون وداً ، ولا يشكرون من النعمة إلا ما اتصل
مدده ، فإذا انقطع عاد الشكر كفرّاً ، واستحال المدح ذماً .

أكثر ما كتب المفسرون في هذه الآية ما دلت عليه من الآداب ، وأقله
ما اشتملت عليه من أصول الأحكام ، وروى عن جدنا الإمام جعفر الصادق
رضي الله عنه أنه قال : ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها ، ووجهوه
بأن الأخلاق ثلاثة بحسب القوى الانسانية ، عقلية وشهوية وغضبية ، فالعقلية
الحكمة ومنها الأمر بالمعروف ، والشهوية العفة ومنها أخذ العفو ، والغضبية الشجاعة
ومنها الإعراض عن الجاهلين . وروى الطبري مرسلًا وابن مردويه موصولًا من
حديث جابر وغيره لما نزلت (خذ العفو وأمر بالعرف) سأل النبي ﷺ جبريل
عنها فقال « لا أعلم حتى أسأل ثم رجع فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك ،
وتعطى من حرمك ، وتعفو عن ظلمك » اهـ من فتح الباري ومراد الامام أعلى
وأشمل من ذلك وفهمه أبعده وأوسع من فهم من علله أو فسره كما علمت من تفسيرها في الجملة
وذكر ابن كثير أن بعض الحكماء أخذ هذا المعنى فسبك في بيتين فيها جناس فقال :

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين

ولن في الكلام لكل الأنام فستحسن من ذوى الجاهل

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن : قال علماؤنا هذه الآية
من ثلاث كلمات ، قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات ، حتى لم
يبق فيها حسنة إلا أوعتها ، ولا فضيلة إلا شرحتها ، ولا أكرامة إلا افتتحتها ،
وأخلت الكلمات الثلاث أقسام الإسلام الثلاثة : فقوله (خذ العفو) تولى بالبيان
جانب الدين ، ونفى الحرج في الأخذ والاعطاء والتكليف ، وقوله (وأمر بالعرف)
تناول جميع المأمورات والمنهيات ، وأنها ما عرف حكمه ، واستقر في الشريعة
موضعه ، واتفقت القلوب على علمه ، وقوله (وأعرض عن الجاهلين) تناول

جانب الصفح بالصبر الذي يتأني للعبد به كل مراد في نفسه وغيره . ولو شرحنا ذلك على التفصيل لسكان أسفاراً . اه ومن مباحث البلاغة في الآية أن ما جمعت هذه الكلمات الثلاث من المعاني العالية هو من إعجاز إيجاز القرآن ، الذي لا مظهر في مثله لانس ولا جان . والله أعلم

(٢٠٠) وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ

بين الله تعالى في الآية التي قبل هذه الآيات أفضل ما يعامل البشر به بعضهم بعضاً من الوصايا الثلاث التي لا يمكن شرح التعامل بها تفصيلاً ، لا بسفر كبير ، ولو عمل الناس بهذه الوصايا لصلحت أحوالهم ولم يجد الفساد اليهم سبيلاً . ثم قفى عليها بهذه الثلاث الآيات في الوصية باتقاء إفساد الشيطان أي جنسه لجنس البشر ، والمراد هنا شياطين الجن المستترة ، فالتناسب القريب بينهما وبين ما قبلهن من المقابلة بين معاملة البشر ومعاملة الجن ، ومن فروع التناسب بين الجاهلين أي السفهاء الذين أمرت الآية السابقة بالاعراض عنهم اتقاء لشرمهم ، وبين الشياطين التي أمرت هذه الآيات بالاستعاذة بالله منهم اتقاء لشرمهم ، وبعبارة أخرى: اتقاء شر شياطين الانس وشياطين الجن ، فان الشيطان هو الشرير المفسد من الفريقين كما تقدم في سورة الأنعام ، ومن فسر آيات (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) الخ بما مر من أن شرك الابوين فيما آتاهما الله من الولد الصالح كان بإغواء الشيطان يرجعون اليه في التناسب بين الآيات ، ويقولون إن الآية بينت لنا أن وسوسة الشيطان لأبويننا كانت سبب ما وقع لهما من الشرك فيما آتاهما من الولد - والأولى إرجاع التناسب في هذه المسألة إلى ما بين في أوائل السورة من خلق آدم وحواء ، وسوسة الشيطان لهما - وما بين في خواتيمها من الارشاد إلى اتقاء نزغ الشيطان ومسه . هو ما أشرنا اليه في بدء سياق هذه الخاتمة

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ قال الراغب النزغ دخول في أمر لإفساده : واستشهد له بقول يوسف عليه السلام (من بعد أن نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) وفي الأساس : نزعه مثل نسفه إذا طعنه ونخسه . ومن المجاز : نزعه الشيطان - كأنه ينخسه ليحثه على المعاصي . ونزغ بين الناس - أفسد بينهم بالحث على الشر أهون من النفع كالنزع والنفس والنزغ والنزح والتكز والوكز والهمز ألقاظ متقاربة المعنى ، وأصله إصابة الجسد برأس شيء محدد كالابرة والمهراز والرمح أو ما يشبه المحدد كالاصبع ، والمراد من نزغ الشيطان إثارة داعية الشر والفساد في النفس بداعية غضب أو شهوة حيوانية أو همنوية بحيث تنقم صاحبها إلى العمل بتأثيرها كأن نخس الدابة بالمهماز لتسرع وغلب استعماله في الشر فقط ، وإن قال (ينزغك نزغ) والمراد أن نزغ لأن اسناد الفعل إلى المصدر أبلغ ، والشيطان تقدم الكلام فيه وفي الجن مراراً أو سمعها ماورد في تفسير قوله تعالى (٦ : ٦٨) وإما بنفسك الشيطان الآية ^(١) وتفسير قوله تعالى (٦ : ٧١) كالذي استهوته الشياطين في الأرض الآية ^(٢) وكلاهما من سورة الانعام وتفسير قصة آدم من هذه السورة والذي يناسب منها ما هنا وهو إغواء الناس بالوسوسة قوله تعالى حكاية عن الشيطان (١٥ : ٧) قال فما أغويتني ^(٣) وقوله تعالى (٧ : ٢٦) يا بني آدم لا يفتنك الشيطان ^(٤) الخ ^(٥) وملخص ما يجب اعتقاده انه ثبت في وحى الله تعالى إلى رسله أن في عالم الغيب خلقاً خفياً اسمه الشيطان لا تدركه حواسنا له أثر في أنفسنا فهو يتصل بها ويقوى داعية الشر فيها بما سماه الوحى وسواساً ونزغاً ومساءً ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره ، وقد شبهنا تأثير هذه الشياطين الخفية في الأرواح بتأثير النسم الخفية المادية المسماة بالمكتيريا والميكروبات في الأجساد ، فقد دمرت القرون التي لا يحصىها إلا رب العالمين والناس يجهلون هذه النسم الخفية ويجهلون فعلها لعجز الألبصار عن إدراكها بنفسها وعن رؤية فعلها لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر إلى أن اخترعت في هذا العصر المرايا والنظارات المكبرة التي ترى الجسم أضعاف

(١) راجع ص ٥٠٧ - ٥١٦ ج ٧ تفسير (٢) ص ٥٢٤ - ٥٢٩ منه

(٣) راجع ص ٣٣٧ - ٣٤٤ ج ٨ تفسير (٤) ص ٣٦١ - ٣٧٢ منه

أضعاف جرمه فيها رؤيت. وعلم ما يحدث بسببها في المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة من التحول والتغيير كالاختار والفساد وغيرها ومن الأمراض المعدية في الإنسان والحيوان كما فصلناه من قبل.

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على السنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبي المعادي لنا الضار بأرواحنا كضرر نسم الأمراض بأجسادنا أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نفعل عنها، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج، وخروج الصحة من الاعتدال، فنبادر إلى علاجه - فتى فطنا يميل من أنفسنا إلى الشر أو الباطل عاجلناه بما وصفه الله تعالى لنا من العلاج في هذه الآية وهو قوله عز وجل

﴿ فاستعذ بالله انه سميع عليم ﴾ أى فاجأ إلى الله وتوجه إليه ليعيذك من شر هذا النزغ، فلا يحملتك على ما يزعجك إليه من الشر، الجأ إلى الله بقلبك، وعبر عن ذلك بلسانك، فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه تعالى سميع لما تقول عليم بما تتوجه إليه، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر. ومن المحرب أن الانجاء إلى الله تعالى وذكره بالقلب واللسان، يصرف عن القلب وسوسة الشيطان، (١٦: ٩٨) فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ٩٩ انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (الح).

والخطاب في هذه الآية وأمثالها من آيات التشريع والتأديب موجه إلى كل مكلف يبلغه وأولم الرسول ﷺ، ومن المفسرين من يقول انه هنا للنبي ﷺ والمراد أمته. وقد تقدم الخلاف في ذلك في تفسير (٦: ٦٨) وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وإما ينسينك الشيطان الآية فقد اختلف مفسروها في ترجيح توجيه الخطاب فيها. وذكرنا هنالك آية الأعراف هذه وأن ظاهر السياق فيها أن الخطاب للنبي ﷺ وإن كان يأتي فيه الوجوه الأخرى في مثلها، ولكن نزغ الشيطان أقوى من انساؤه ومن مسه المبين في الآية التالية فالختر عندى الآن عصمته ﷺ منه وذكرت في الكلام هنالك حديث عائشة وابن مسعود في صحيح مسلم « ما منكم أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » وهو سياق طويل يراجع هنالك.

وقد ورد في سورة حم السجدة (فصلت) مثل هذه الآية بعد آية في معنى قوله (وأعرض عن الجاهلين) في آخر الآية التي قبلها ، ولكن بتعريف (السميع العليم) وقال صاحب المدة في الفرق بينهما مانصه :

قوله تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم) وقال في سورة حم السجدة (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع العليم) للسائل أن يسأل فيقول : لأي معنى جاء في الآية من سورة الاعراف سميع عليم على لفظ النكرة وفي سورة حم السجدة معرفتين بالالف واللام مؤكدتين بهو ؟ (والجواب) أن يقال : إن الأول وقع في فاصلة ما قبلها من الفواصل أفعال جماعة أو أسماء مأخوذة من الأفعال من نحو قوله (فتعالى الله عما يشركون) وبعبارة يخلقون ، ويصرون ، ويصرون ، والجاهلين ، فأخرجت هذه الفاصلة بأقرب ألفاظ الأسماء المؤدية معنى الفعل أعنى النكرة ، وكأن المعنى استعذ بالله انه سميع استعاذتك ويعلم استجارتك ، والتي في سورة حم السجدة قبلها فواصل يسلك به طريق الأسماء وهي ما في قوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) فقوله (ولي حميم) ليس من الأسماء التي يراد بها الأفعال وكذلك قوله (انه للذي حظ عظيم) ليس في الحظ معنى فعل ، فأخرج (سميع عليم) بعد الفواصل التي هي على سنن الأسماء على لفظ يبعد عن اللفظ الذي يؤدي معنى الفعل ، فكأنه قال انه هو الذي لا يخفى عليه مسموع ولا معلوم . فليس القصد الاخبار عن الفعل كما كان في الأولى أنه يسمع الدعاء ويعلم الاخلاص ، فهذا فرق ما بين المسكانيين اه فتأمل فانه دقيق جداً . ثم بين تعالى وجه سلامة من يستعبد من وصوسة الشيطان لازالة جهل من لم يعلمه أو من لم يفقهه فقال :

﴿ ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ الطوف والطواف والطيف بالشئ الاستدارة به أو حوله ، فهو واوي يأتي يقال طاف يطوف ويطيف بالشئ (كقوله وباع) وطاف الخيال يطيف طيفاً جاء في النوم ، ويطيف الخيال ما يرى في النوم من مثال الشخص وأصله طيف بالشئ يدفهو كبيت

وميت ، وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو والنكسائي ويعقوب هنا « إذا مسهم طيف »
والباقون « إذا مسهم طائف » والمعنى واحد ، وروحه في المصحف الامام (ط)
كرسم (ملك) في سورة الفاتحة فتؤدى قراءة وزن فاعل من الكلمتين بمد الحرف
الأول . والمس في أصل اللغة كاللمس وما يفترقان فيه أن المس يقال في كل
ما ينال الانسان من شر وأذى بخلاف اللس ، فقد ذكر في التنزيل مس الضر
والضرأ والبأساء والسوء والشر والعذاب والكبر والفرح والغوب والشيطان
وطائف الشيطان ، ولم يذكر فيه مس الخير والنفع إلا في قوله في سورة المعارج
(إن الانسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير مندهجاً *
إلا المصلين) فقد ذكر الخير هنا في مقابلة الشر ولكن المقام مقام منع الخير
لأفعله ، واستعمل المس والمسيس بمعنى الوقوع وهو مجاز مشهور كاستعماله في الجئون مجازاً
ومعنى الآية « إن الذين اتقوا » وهم خيار المؤمنين الذين وصفوا في أول
سورة البقرة « إذا مسهم » أى ألم أو اتصل بهم طيف أو « طائف من الشيطان »
ليحلمهم بسوسسته على المعصية ، أو يترغ بينهم لايقاع البغضاء والفرقة « تذكروا »
أن هذا من عذوبهم الشيطان وإخوانه ، وما أمر الله تعالى به في هذه الحال من
الاستعاذة به والالتجاء إليه في الحفظ منه ، وقال بعضهم : تذكروا ما أمر الله تعالى
به ونهى عنه ، وقال آخرون : تذكروا عقاب الله لمن أطاع الشيطان وعصى الرحمن ،
وجزى ثوابه لمن عصى الشيطان وأطاع الرحمن ، وقال بعضهم : تذكروا وعده
ووعيده . ومآل الأقوال كلها واحد ، وهو يفهمها . كما تفيد قاعدة حذف المفعول -
« فإذا هم مبصرون » أى فإذا هم أولو بصيرة وعلم ربياً بأنفسهم أن طيع الشيطان ،
فهو إيماناً تأخذ وسوسسته الغافلين عن أنفسهم لايحاسبونها على خواطرها . الغافلين عن
ربهم لايراقبونه في أهوائها وأعمالها ، ولا شئ أقوى على طرد الشيطان من ذكر الله تعالى
بالقلب ، ومراقبته في السر والجله ، فذكر الله تعالى بأى نوع من أنواعه يقوى في النفس
حب الحق ودواعى الخير ، ويضعف فيها الميل إلى الباطل والشر ، حتى لا يكون
للشيطان مدخل إليها ، فهو إيمان يزبن لها الباطل والشر بقدر استعدادها لأى نوع
منها . فان وجداً الغفلة مدخلاً إلى قلب المؤمن المتقى لايثبت أن يشعر به لأنه غريب

عن نفسه ، ومتى شعر ذكراً فأبصر فحنس الشيطان وابتعد عنه وإن أصاب منه غرة قبل تذكره تاب من قريب

فقل المؤمن المتقي في عدم تمكن الشيطان من إغوائه وإن تمكن من مسكه كمثل المرء الصحيح المزاج القوى الجسم النظيف الثوب والبدن والمسكان لا تجد جنة الأمراض المفسدة للصحة استعداداً لإفساد مزاجه وإصابته بالأمراض فهي تظل بعيدة عنه فإن مسه شيء منها بدخوله في معدته أو دمه فتكت بها نسم الصحة والعافية فحالت دون فتكها به - وهو ما يسمى في عرف الطب المناعة - وكذلك يكون قوى الروح بالإيمان والتقوى غير مستعد لتأثير الشيطان في نفسه ، فهو يطوف بها يراقب غفلتها وعروض بعض الأهواء النفسية لها من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، فتحي عرضت افترضها ، فلا يس النفس وقواها فيها ، كما تلايس الحشرات القذرة أو جنة الأمراض الخفية ما يعرض من القدر للتنظيف والضعف للقوى ، فإذا أهملها بالغفلة عنها فعلت فعلها ، وإذا تداركها نجح من ضررها ويحسن أن يعبر عن هذا بالحصانة ، فيقال : مناعة جسمية وحصانة نفسية أو روحية .

ذكرنا في الكلام على الشيطان من أوائل سورة البقرة أن الإنسان يشعر بفقد علمه بتنازع دواعي الخير والشر والحق والباطل في نفسه ، وأن الداعية الحق والخير ملكا يقويها ، والداعية الباطل والشر شيطاناً يقويها ، وأن النبي ﷺ بين هذا بقوله « إن للشيطان لمةً بآدم وللملك لمةً فأما لمة الشيطان فأبعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فأبعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك . ومن وجد الأخرى فليمتدح الشيطان » ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) رواه الترمذي والنسائي في الكبير وابن حبان عن ابن مسعود وعلم عليه السيوطي في الجامع الصغير بالصحة ؛ ولكن الترمذي قال حسن غريب لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص . وذكرنا هنالك بعض كلام الامام الغزالي في هذا المقام وله فيه تفصيل حسن طويل في كتاب شرح عجائب القلب وغيره من الأحياء والمحقق ابن القيم كتاب خاص في ذلك اسمه (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان) فمن قرأ أمثال هذه الكتب ، كان من وسوسة الشيطان على خدر

وما زال الصالحون المتقون يراقبون خواطرهم ويجاهدون الوسواس الذى
 يلهم بها ، ولم حكايات فى ذلك غريبة . حدثنى الشيخ عبد الغنى الرافى النقيه
 الصوفى أنه دخل فى أيام سلوكة وهو فى ميعه شبابه يستانا فى طرابلس يعمل فيه
 نساء من نصارى لبنان فاذا بشابة جميلة منهن فى مكان خلوفترغ الشيطان بينه
 وبينها حتى هم بمباشرتها فتذكر قوله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة
 وساء سبيلا) فتردد وانكش ثم ساودته ثورة الغلة تهون له الأمر ، ولج
 به الوسواس : هلم هلم ، فقوى سلطان الآية فى قلبه حتى صار قلبه يتلو بصوت
 يسمعه بأذنيه (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) قال فجعلت أقول
 بيدي فوق صدرى هكذا - يعنى يمسحه كمن ينحى عنه شيئا - أحاول أسكت قلبى
 فلم أستطع إسكاته ، فتوليت عن المرأة وحفظنى الله بذكر الآية من الفاحشة وله الحمد
 وأقول : تحمداً بنعمة الله تعالى ان الشيطان لم يبلغ منى غرة يدعونى فيها إلى
 الفاحشة قط ، فما ذكرته فى مقصورتى فى سياق حادثة امتحان امتحننى الله تعالى بهاء
 قد استمر بفضل الله تعالى من سن الشباب إلى سن الشيخوخة وأسأله بفضل حسن
 الخاتمة . وذلك قولى فى فتاة بارعة الجمال طلبت منى أن أضع يدي على صدرها أرقبه

ورب ملء خيصة الحشا بهنائه ترون بالحافظ اللأى

دقاقة شف زجاج وجهها عن ذوب ياقوت دراهم جرى

خاشعة اللعناظ والطرف أتت تلمس الدعاء منى والرثى

أواه يامولاي صدرى ضاق عن قلبى وما يفيض عنه من جوى

فضع عليه يدك التى بما بارك فيها الله تبرىء الضى

أنت فتى خاف مقام ربه ما زال ينهى نفسه عن الهوى

لم يقترب فاحشة قط ولم يعزم ولا هم بها ولا نوى

بغرة منها وحسن نية فى معزل تشبيه أقصى ما شتهى

مما يعنيه به شيطانه من حيث لا يطعم منه فى خنا

لكنه استعصم راويا لها ما أمر الله به وما نهى

(وما أبرىء نفسى) مما دون كبر الانم والفواحش وهو اللمم (إن النفس
لأماراة بالسوء إلا مارسم ربى إن ربى غفور رحيم) ولا أعد من اللمم حضور
المراقص النسائية وملاهيها ، فأحمد الله تعالى أن نفسى لم تطأ البنى بحضورها يوماماء
ولم يجد شيطان الجن من نفسى ميلا اليها فيزينها لى بوسوسته ، ولكن دعانى اليها
بعض شياطين الانس لأجل اختبارها . والنهى عنها على معرفة فأبيت وقلت للداعى
حبيبك من شر سماعه ، على أنى رأيت نموذجاً من أهونها عرضاً لا قصداً اليها ،
وذلك فى بعض ملاهى تمثيل القصص التاريخية أو الوصفية فى ليلة خيرية ، ولم
أكن أعلم باستحداث ذلك فيها ، وأحمد الله تعالى أنى مقبتها على غرابة الصنعة
والزينة فيها ، وخرجت من المكان وآليت أن لأعود اليه ، فقد صارت هذه الأماكن
بؤر فساد ، وكان فيها شئ من الأدب والعبرة وتعرين الموام على اللغة العربية
الصحيحة التى تقرب من الفصيحة فى الجملة ، ولم يكن يرى الناس فيها من منكرات الزى
أكثر مما يرى فى الأسواق والشوارع ، فأصبحت كالخمر إمامها أكبر من نهبها .
قد يقول من يظنون أن يوسف الصديق عليه السلام هم بالفاحشة : إنك قد
فضلت نفسك عليه بزعمك أنك لم تهم وهو قد هم ، وأقول : انه اختلفت الحال والداعية
فانه عليه السلام لم يهم بالفاحشة ، وإنما همّت امرأة العزيز وهو هو بالانتقام ، وهو
بطشها به بالقتل أو الضرب ، ودفاعه عن نفسه بالفعل ، وهذا هو المعتاد فى مثل
هذه الحال يقتضى الطبع البشرى وشواهدة تقع دائماً ، والعبارة تدل عليه دون
الأول ، فانه لا يقال هم بالشخص فى مقام الخلاف والمفاضلة إلا إذا أريد لهم
بالضرب أو ما هو مثله أو قوة من الإيذاء ، ولا يقال ان المرأة همّت بالرجل بالمعنى
الآخر لأن لهم يتعلق بالعمل دون الشخص ، وهى فى المباشرة موانية لأعمل لها
وما استبقا الباب إلا هو فار من ثورة غضبها وهى موانية له تريد البطش به لاهاته
إياها بمخالفتها وهو غلامها ، بعد أن ابتدلت نفسها ببذلها له . وما معنى قوله تعالى
(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) إلا عصمته من البطش بها دفاعاً عن
نفسه وهو السوء ، وعصمته مما دعتة اليه وهو الفحشاء ، ولولا الروايات
الاسرائيلية فى القصة لما خطر ببال المفسرين الراسخين فى ذوق اللغة العربية غير

هذا المعنى ، وكلفتهم تلك الروايات عما هو أوضح منها ، فتأملوا وتكلفوا لتصحیح حمل الكلام عليها ؟ وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه

الشيطان يزين لكل أحد من الناس ما هو مستعد له وقريب من أخلاقه وآرائه التى تربى عليها ، ومناسب لحاله وشعوره الذى يكون غالباً عليه ، فإذا أراد الصلاة فى الليل وهو فى حال نعاس أو فتور زين له النوم وترك الصلاة إلى وقت اليقظة والنشاط لأجل إقامتها كما يرضى الله تعالى ؟؟ فإذا خالفه وشرع فى الصلاة زين له يسوسه تمجلاً والاختصار ، وقراءة السور القصار ، أو قراءة السورة من متوسط المفصل فى ركعتين أو أكثر ، وإذا وجد منه جداً ونشاطاً فيها فقد زين له المبالغة فى التطويل ليسرع إليه الملل ، و«أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» كما رواه الشيخان فى صحيحيهما من حديث عائشة . وإذا كانت تربيته الدينية منفردة من الكبار ، أغراه بمقدماتها وسائلها من الصغائر ، وربما أفتاه بقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً) وليس المراد بهذا أن يحتقر الإنسان الصغائر وينعمدها ويواظب عليها كالمستحل لها ، فان مثل هذا قلما يسلم من التدرج منها إلى الكبائر . ولكن المراد به العلم وهو ما يلزم به المرء إذا ما عرض له ولا يتعمق فيه ولا يصر عليه ، بل يلوم نفسه عليه ويتوب منه ، (وقد بينت هذا المعنى فى الكلام على التوبة من تفسير سورة النساء - ج ٤) فإذا تاب تنتقل نفسه به من دركة (النفس الامارة بالسوء) إلى درجة (النفس اللوامة) ولا يزال يجاهدها فى مثله إلى أن يرتقى الى درجة (النفس المطمئنة) فإذا هو أطاع النفس الامارة بالسوء فأنها تهبط به الى دركة الفحش والفجور ، وربما تهوى به الى استحلال المعاصى وهو من الكفر ، كمن يدمن النظر بشهوة الى بعض الحسان فينتقل من النظر الى المغازلة ، ومن المغازلة الى المهارلة ، ومن المهارلة الى الملاعبة والمباعدة ، ومنها الى المفاعلة . قال الشاعر العربى :

فلما رأتى رأأت ثم أقبلت تهازلنى والهزل داعية العهر

وقال شاعر مصر فى التنقل من كل حالة الى ما بعدها :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فوعد فلقاء

وقد استفتاني شاب مصري افتتن بفتاة شغفته حباً فكان يخلو بها لما في مصر في هذا العهد من إباحة ذلك عند الكثيرين - فينداعبان حتى يخشى على نفسه الفضيحة الكبرى ، ثم يفارقان فيندم ويتوب ، ويعزم أن لا يعود ، حتى إذا ما زارته نقص العزم ، ثم يفارقها فيبرمه ويؤكد باليمين ، ثم تغلبه على أمره فينكث ما أبرم ، ويحنث بما أقسم ، حتى قال أخيراً : لئن عدت لا كونن بريئاً من دين الاسلام ، ولكنه عاد مغلوباً على أمره ، لا يملك تجاه سحر فائننه شيئاً من قوة ارادته ، فعظم هذا الحنث العظيم عليه ، وجاءني مستفتياً فيما رقع فيه وما يجب عليه ، فوعظته وأرشدته بما ألهمني الله تعالى ولم يعد إلى بعد ذلك ، فلا أدري كيف انتهت فتنته ، وقد حدث هذا منذ بضع عشرة سنة عبطت بها البلاد المصرية إلى الدركات السفلى من الإباحة الراجح أن هذا الشاب من أحد البيوت التي لا تزال فيها بقية من التربية الدينية ، وأخلاق العفة والحياء الموروثة ، وهذه التربية وهذه الأخلاق التي كان بها الشعب ذا وجود ممتاز مستقل في نفسه ، فطفق دعاة الاتحاد والزندقة وإباحة الشهوات يهدمونها باسم التجديد المدني ، والتقليد الأوربي ، ومنه وجوب السفر الذي يعنون به إباحة اختلاط النساء بالرجال ، ومعاشرة الفتيان للفتيات بحجة التمهيد للزواج عن تعارف وحب واختيار ... وقد تفاقمت استباحة التهنك والفجور في هذه السنين إلى حد ينذر بهلاك هذه الأمة ، فالنساء يرقصن مع الرجال كاسيات عاريات ، ويسبحن معهن في شواطئ البحار ، وقلما تماشر الفتاة العذراء شاباً ، ولو بقصد الزواج عن تعارف وحب واختيار ، إلا وينتهي هذا الاختيار بفضيحة الاقتراع ، ثم لا يكون الزواج مضموناً ، وإذا وقع لا يكون الوفاق غالباً ، ولا حب شهوة الصبا دائماً ، بل يصير الاختيار لسكل منهما عادة من العادات ، والتنقل من حبيب إلى آخر من أفتن اللذات ، وإن الله يبعث الدواقين والدوافات وقد استفتاني رجل في امرأة مسلمة متزوجة تختلف إلى بيت رجل غير مسلم ولا وطني تزوره بعد العصر في شهر رمضان ثلاثة أيام في الاسبوع ، فتمكث معه الى قرب المغرب : هل يجوز له أو يجب عليه ايذاف بعلمها بذلك ، وذكر ان صبيب افتتان هذه المرأة الخبيثة بهذا الرجل الخبيث انها عرفته عاملاً في صيدلية

قصدها مرة اشراء دواء منها فتصباها حتى صارت تختلف الى الصيدلية لادني حاجة ثم اغير حاجة الخ

فسدت العقائد والأخلاق وتركت العبادات ، وأبيحت الأعراض واستبيحت المحرمات ، وعبد الشيطان في معصية الرحمن ، وتوجد جمعيات من الرجال ومن النساء يزينون للناس كل هذه الفضائح والقبائح باسم التجديد والتمدن ، ولهم جرائد تنشر دعاية الإلحاد والزندقة ، والإباحة المطلقة ، لإلزام بعض قيود قانون العقوبات في الظاهر دون الباطن . وإذا أنذرهم منذر ، وحذرهم من طاعة الشيطان محذر ، قالوا : وما الشيطان ؟ وما الدليل على وجود الشيطان ؟ فان قلت لهم : إن أطباء الأرواح وأساة أمراض الاجتماع ، قد حذرونا بأمر الله خالق ما يرى وما لا يرى من نزغ الشيطان وتزيينه للفسوق والعصيان ، كما يحذرننا أطباء الأجساد من « ميكروبات » الأمراض فهل من مقتضى العقل أن نرد كلام هؤلاء الأطباء بحجة أننا لم نر تلك الميكروبات المرضية ، وأن لا نقبل كلامهم ولا نستعمل أدويتهم إلا بعد رؤية ما رأوا ، واختبار ما اختبروا ؟ ألم يرق الدليل على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام في التبليغ عن وحى الله عز وجل ؟ بلى وقد ثبت بالتجربة والاختبار أن من اتبعهم صحت عقائدهم واستقامت أخلاقهم ، وصلحت أعمالهم ، وحفظت صحتهم وأعراضهم وأموالهم ، فتجربة معالجتهم لأمراض الأنفس والأرواح ، أثبتت من تجربة معالجة الأطباء لأمراض الأجساد . وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار أيضاً أن هؤلاء الماديين المنكرين لوجود الشياطين هم أشد قسداً وإفساداً ومنهم : سكيرون ، مقامرون ، زناة ولوطيون ، كذابون منافقون ، مراثشون سراقون (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما قلوه فذروهم وما يفترون *) وانصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يرصوه وليقتروا ما هم مقتربون)

وفي مثل هؤلاء يقول الله تعالى في هذا السياق ﴿ وإخوانهم يعدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ الغي الفساد . والمد والإمداد الزيادة في الشيء من جنسه . وقد قرأناهم يعدونهم بضم الياء وكسر الميم من الإمداد والجمهور يفتح الياء وضمة

الميم من المدّ وقوىء في الشواذ يمدّونهم بصيغة المشاركة ، وأمد المستعمل في القرآن في الخلق والتكوين كقوله تعالى (وهو الذي مدّ الأرض) (ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل) (والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر) وفي مد الناس فيما ينم ويضرب كقوله (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) (وعنده من العذاب مداً) (ويهدم في طغيانهم يعمهين) وأما الأمداد فصيها يمدد وينفع كقوله تعالى (أمدكم بأنعام وبنين) (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) (كلاً عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) ومنه إمداد النبي ﷺ والمؤمنين بالملائكة يشبّون قلوبهم في غزوة بدر ، وحملت قراءة فافهم معنا على التمسك والإقصار التخصيص وأقصر عن الأمر تركه وكف عنه وهو قادر عليه

والمعنى مع سابقه : أن شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحلمهم على محاكاة الجاهلين والتمسك معهم وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد تدبروا تأمّنوا فحذروا وسلموا ، وإن زلوا فاجروا وقابضوا ، وأن إخوان الشياطين وهم الجاهلون غير المتقين يتمكن الشياطين من أعوانهم فيمدونهم في غيهم وفسادهم لأنهم لا يذكر الله تعالى إذا شعروا في أنفسهم بالتزويج إلى الشر والباطل والفساد في الأرض ولا يستعيذون به سبحانه . من نزع الشيطان ومسه فيصعدوا ويمتدوا - إنما لا يمدون بالله وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطاناً من الجن يوسوس اليه ويغريه بالشر - ثم لا يقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم ، فلذلك يصرون على الشرور والفساد لفقد الوازع النفسي والواعظ القلبي . وفي هذا التفسير حود الضمير إلى الشيطان بالجمع لأن المراد به الجنس لا الشخص كما تقدم ، وهو استعمال عربي معروف ، ومنه (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) وقيل أن الضمير يعود على الجاهلين ، أي وإخوان أولئك الجاهلين من الإنس وهم شياطينهم يمدونهم في غيهم وفسادهم . فيكونون أعواناً لشياطين الجن في ذلك كما بيناه في تفسير الآية التي قبل هذه

(٢٠٣) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ
إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَاطٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الاجتناب افعال واختصاص من الجبائية . يقال جبي المال يجبيه وجياه يجبوه ، إذا جمعه للسلطان القيم على بيت مال الأمة . و : احتباه إذا جمعه واصطفاه لنفسه أو احتازه لها ، وفي الكشف اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك اجتمع - أو جبي إليه فاجنباه أى أخذه ، كقولك جليت إليه العروس فاجتلبها . والآية هنا آية القرآن كما روى عن ابن عباس ، أو المعجزة المقترحة من قبل المشركين كما روى عن مجاهد وقتادة .

والمعنى وإذا لم تأت بهم أيها الرسول بآية قرآنية بأن تراخى نزول الوحي زمنا ما قالوا أولا اقتضت نظم وتأليفها واختراعها من تلقاء نفسك ؟ أو إذا لم تأت بهم بآية مما اقترحوا عليك قالوا : هلا جياها الله لك بأن مكنك منها فاجتبيتها وأبرزتها لنا ؟ ﴿ قل إنما

أتبع ما يوحى إلى من ربي ﴾ فما أنا بمبتدع ولا مجتنب لشيء من آيات القرآن يعطى وبلاغى ، بل أنا عاجز عن مثله كعجزكم وعجز سائر الانس والجن وفي معناه (١٠ : ١٥) وإذا قتل عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : انت بقرآن غير هذا أو بدله - قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى) - أو ما أنا بقادر على إيجاد الآية الكونية ولا بمغتات على الله فى طلبها وإنما أنا متبع

لما يوحى إلى فضلا من ربي على أن جعلنى المبلغ عنه - وما على إلا البلاغ المبين ، ﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ أى هذا القرآن الذى أوحاه إلى بصائر وحجج ناهضة من ربكم يعود من تأملها وعقلها بصير العقل بما تدل عليه من الحق إذ هى أدل عليه مما تطلبون من الآيات الكونية لأنها تدل عليه مباشرة ^(١) . وقد سبق فى سورة الانعام تفسير قوله تعالى (٦ : ١٠٤) قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فانه نفسه

ومن عمى فعمى وما أنا عليكم بحفيظ) فیراجع لزيادة البيان ^(٢) ﴿ وهدي ورحمة تقوم يؤمنون ﴾ أى وهو هدى كامل يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ورحمة فى الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به : كما قال تعالى فى سورة الانعام أيضاً (١٥٤ : ٦) وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لکم ترحمون (١٥٥) أن تقولوا إنما

أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين (١٥٦) أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة (١) الآية (١) قيل : أن قوله تعالى «لقوم يؤمنون» متعلق بالثلاثة وقيل بالهدى والرحمة لأن البصيرة قد يتأملها العاقل فيؤمن

(٢٠٤) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
(٢٠٥) وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ
بِالنُّدْوِ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٦) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ

هذه دلالة على الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن ، والخصاصة من نزغ الشيطان ، وهي الاستماع له إذا قرئ ، والانصات مدة القراءة . والاستماع أبلغ من السمع ولأنه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة إلى الكلام لادراكه ، والسمع ما يحصل ولو بغير قصد ، والانصات السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغلا عن الاحاطة بكل ما يقرأ . فمن استمع وانصت كان جديراً بأن يفهم وينتدبر ، وهو الذي يرجى أن يرحم . والآية تدل على وجوب الاستماع والانصات للقرآن إذا قرئ ، قيل مطلقاً سواء كانت القراءة في الصلاة أو خارجها ، وهو مروي عن الحسن البصري ، وعليه أهل الظاهر ، وخصه الجمهور بقراءة الرسول ﷺ في عهده وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده ، وزعم بعضهم أن الآية نزلت في خطبة الجمعة وهو غلط فإن الآية مكية وصلاة الجمعة شرعت بعد الهجرة ، وقال بعضهم إن الأمر للندب لا للوجوب ولكن روى أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فحرم بقرؤها الكلام فيها وحكى ابن المنذر الإجماع على عدم وجوب الاستماع والانصات في غير الصلاة والخطبة . وذلك أن إيجابهما على كل من يسمع أحداً يقرأ فيه حرج عظيم لأنه يقتضي أن يترك له المشتغل بالعلم علمه ، والمشتغل بالحكم حكمه ، والمبتاعان مساوئتهما وتعاقدهما

وكل ذى شغل شغله . فأما قراءة النبي ﷺ فكان بعضها تبليغاً للتزليل وبعضها وعظاً وإرشاداً فلا يسع أحداً من المسلمين يسمعه يقرأ أن يعرض عن الاستماع أو يتكلم بما يشغله أو يشغل غيره عنه ؛ وهذا شأن المصلى مع امامه وخطيبه ، إذ هو موضوع الصلاة والواجب فيها ، ولهذا استدلووا بالآية على امتناع القراءة خلف الإمام في الصلاة الجهرية ، واستثنى بعضهم الفاتحة لما ورد في الأحاديث الصحيحة من أن الصلاة لا تجزى بدونها جمعاً بين النصوص . وورد في السنة سكوت الإمام بقدر ما يقرأ المأموم الفاتحة . على أنه إذا قرأ الفاتحة مع الإمام أو بعده آية آية لا يعد غير مستمع للقرآن ولا غير منصت ، وقد بينا تحقيق الحق في قراءة الفاتحة للمأموم كغيره في متمات تفسيرها من الجزء الأول .

ومن فروع طلب الاستماع والانصات أن القارئ لا يطلب منه ترك قراءته للاستماع لقارئ آخر بل يختار لنفسه ما يراه خيراً لها من الأمرين ، فقد يخشع بعض الناس بقراءة نفسه ، ويخشع آخر بالاستماع من غيره ، أو من بعض القراء دون بعض ، وإذا تعدد القراء في مكان استمع كل حاضر لمن كان أقرب إليه أو لمن يرى قراءته أشد تأثيراً في نفسه . وما يفعله جماهير الناس في المحافل التي يقرأ فيها القرآن بمصر كاللآتم وغيرها من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة مكروه كراهة شديدة ، وتكون على أشدها لمن كانوا على مقربة من التالي وأما تعمد الاعراض عن السماع للقرآن فلا يكاد يفعله مؤمن به ، وكذلك رفع الصوت بالكلام على صوت القارئ عمداً ، فإذا كان الله تعالى قد أدب المؤمنين مع رسوله ﷺ بقوله (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) فرفع أصواتهم على صوت التالي لكلامه عز وجل أولى بأن ينهى عنه ، والأدب معه فوق الأدب مع كلام النبي ﷺ بالضرورة . وقد كان الصحابة وغيرهم من فصحاء العرب يعبرون عن سماع القرآن بقولهم : سمعت الله تعالى يقول كذا . ولا يجوز لقارئ أن يقرأ على قوم لا يستمعون له ، فإن كان في المجلس كثير من الناس يستمعون وينصتون ، فشذ بعضهم بتناجاة صاحبه بالجنب من غير تهويل

على القارئ . ولا على المستمعين كان الخطب . في هذا حيناً لا يقتضى ترك القراءة ولا ينافى الاستماع

ويجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته كما يحرص على تلاوته ، وأن يتأدب في مجلس التلاوة ، وملاك هذا الأدب للقارئ أن لا يكون منه ولا من غيره ولا من حال المسكان ما يعد في اعتقاده أو في عرف الناس منافياً للأدب ، وقد ذكر الفقهاء في المسألة آداباً وأحكاماً قد يختلف بعضها باختلاف الاعتقاد والعرف ، وصرحوا بقراءة القرآن في كل حال من قيام وقعود واضطجاع ومشى وركوب ، فلا تكره في الطريق نصاً ولا مع حدث أصغر ونجاسة بدن . وتوب ولكن يحسب عن القراءة في حال الحدث ، ويستحب الوضوء لها استحباباً ، ولا سيما للقارئ . في المصحف ، وتكره مع الجنابة جهراً لأنه بدعة ، وفي المواضع القذرة بأن يجلس فيها للقراءة ، وأما من مر بمكان منها وهو يقرأ فلا يطلب منه ترك القراءة وكذلك من عرض له الجلوس في بعض الملاهي غير المباحة لا يكره له التلاوة سراً وصرحوا بأنه لا يكره له أن يتلو في بيته إذا كانت زوجته غير مستورة عبدة الصلاة وتستحب القراءة بالترتيل والتغنى بالنغم المفيد للتأثير والخشوع من غير تكلف صناعى . وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً « ما أذن الله شئاً ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن — زاد غيره في رواية — يحجر به » رواه الشيخان وأذن هنا بمعنى استمع أو سمع . ومصدره بفتحين وروى أحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقى عن فضالة بن عبيد مرفوعاً « الله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القيمة إلى قيمته » والقيمة الأمة المغنية ، وروى البخارى عن أبي هريرة مرفوعاً : « ليس من آمن لم يتغن بالقرآن » ويستحب البكاء مع القراءة والخشوع وإلا فالتمها كي والنخس ، وأن يستعين بالله قبلها ويدعو الله في أثنائها بحسب معاني الآيات كسؤال الرحمة عند ذكرها والاستعاذة من العذاب عند ذكره . وكان أنس (رض) يجمع أهله وولده عند ختم القرآن فاستحبوا الاقتداء به .

واعلم أن قوة الدين وكال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثر قراءة القرآن

واسماعه مع التدبير بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيهِ . فالإيمان الإذعان
الصحيح يزاد ويقوى وينسج وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك
للمعاصي والفساد بقدر تدبير القرآن ، ويقضى ويضعف على هذه النسبة من ترك
تدبيره ، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه ، ولا فتحوا الأقطار ، ومضروا
الامصار ، واقسم عمرانهم ، وعظم سلطانهم ، إلا بتأثير هدايته ، وما كان الجاحدون
المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنه
من قراءة القرآن بنى الناس (وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم
تفلحون) وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر
تدبير القرآن ، وجعله كالرق والتماويل التي تتخذ للتبرك أو إشفاء أمراض الأبدان
وجعل قاعدة الصلاة وهى عماد الدين - بتلاوة القرآن مع التدبير والتخشع ، فاذال منها
هذا صارت عادة قديمة لا تتأثر - والآيات الدالة على ذلك فيه كثيرة تقدم بعضها
مع تفسيرها ، فمن التطويل في غير محله إبراد شيء منها هنا .

وإننى أختتم هذا البحث بأبل حديث عائشة (رض) الطويل في الهجرة
من رواية صحيح البخارى للاستشهاد به على ما كان من تأثير سماع القرآن عند
مشركي العرب قال : حدثنا يحيى بن بكير - حدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب أخبرني
عروة بن الزبير أن عائشة (رض) زوج النبي ﷺ قالت لم أعقل أبوى قط إلا وهما
يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة
ومشياً . فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك
الغمام لقيه ابن الدغنة ^(١) وهو سيد القارة . فقال أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر
أخرجني قومي فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبدا ربى ، قال ابن الدغنة إن مثلك
يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل
وتقرى السيف وتمين على نوابك الحق ، فأنا لك جاز . ارجع وأعبدا ربك ببلدك .

(١) قسنى بإتلاء المسلمين اضطهاد المشركين لهم ليرجعهم عن الاسلام بالقوة
والهزم ، ولفظ « الدغنة » يضبطه المحدثون بفتح الدال وتسار العين وتخفيف النون
وتشديد الهمزة والتعويون بضمهما وتشديد النون .

فرجع وأرتحل معه ابن الدغنة فطاق ابن الدغنة عشية في أشراف قریش فقال لهم إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أخرجون رجلاً يكسب المذموم ويصل الرحم ويحمل السكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قریش بمجواب ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فأنفختشى أن يقتل نساءنا وأبناءنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتقى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتنقذ ^(١) عليه نساء المشركين وأبنائهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفرغ ذلك أشراف قریش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجراً أبا بكر بمجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يقتل نساءنا وأبناءنا فأنه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فأننا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان . قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر ، فقال قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فأنما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتي فأنى لأحب أن تسمع العرب أنى أخفرت في رجل عقدت له ، فقال أبو بكر : فأنى أرد إليك جوارك وأرضى بمجوار الله عز وجل » اه المراد منه

بعد الأمر بالاستماع والاصغاء لتلاوة القرآن ، في سياق حصانة الأنفس من مس الشيطان ، أمرنا تعالى بالذكر العام الشامل للقرآن تلاوة وتدبراً ولغيره فإن كل نوع من أنواع ذكره تعالى حصن للنفس وتزكية لها فقال

(١) وفي رواية « يتقصف » والمراد يزدحون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض حتى كأن كل أحد يقذف غيره ، وتقاذف الركاب تراميها وقد أخطأ من قال إن هذه الرواية لا معنى لها فالتقذف هنا أظهر من التقصف وهو الكسر — وكأنما يقصف بعضهم بعضاً . وفي الأساس : وتقصف القوم : لجوا في خصومة أو وعيد

﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول ﴾ قال ابن جرير : إن الأمر بالذكر هنا موجه إلى مستمع القرآن أمر بأن يتدبر في نفسه ما يسمع . وقال عطية العوفي إن المراد بالذكر هنا الدعاء - والجهور على أنه أمر عام كما تقدم وأن الخطاب فيه للنبي ﷺ ومن اتبعه . والتضرع إظهار الضراعة . وهي الذلة والضعف والخضوع بكثرة وشدة عناية . والخيفة حالة الخوف والخشية - أي واذكر ربك الذي خلقك ورباك بنعمه في نفسك بأن تستحضر معني أسمائه وصفاته وآياته وآلائه وقضله عليك وحاجتك إليه متضرعا له خائفا منه ، راجيا نعمه - واذكره بلسانك مع ذكره في نفسك ذكرا دون الجهر يرفع الصوت من القول ، وفوق التخافت والسر ، بل ذكرا قصداً وسطاً . كما قال في آخر سورة الاسراء (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) ولا تحصل فائدة الذكر باللسان إلا مع ذكر القلب ، وهو ملاحظة معاني القول ، وكأي من ذى ورد يذكر الله ذكراً كثيراً يعد بالسبحة منه المئتين أو الألوف ثم لا يفيد به كل ذلك معرفة بالله ولا مراقبة له ، بل هو عادة تقارنها عادات أخرى منكورة شرعا . وما ذلك إلا أنه ذكر لسانى محض لاحظ فيه للقلب . ذكر النفس وحده ينفع دائماً وذكر اللسان وحده قلما ينفع وقد يكون في بعض الأحوال ذنباً . والأكل الجمع بين ذكر اللسان والقلب .

وبعد أن بين تعالى صفة الذكر والذاكر بين وقته فقال ﴿ بالغدو والآصال ﴾ الغدو مصدر غدا يغدون - كمالا يعملوا علوا - أي ذهب غدوة وهو أول النهار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، ثم توسع فيه حتى استعمل بمعنى الذهاب مطلقاً - ويقابله الرجوع وهو الرجوع - ومنه (غدوها شهر ورواحها شهر) والآصال جمع أصيل وهو العشي من وقت العصر إلى غروب الشمس ، فهو كقوله تعالى في سورة الأحزاب (٣٣ : ٣١) يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً) وقوله في سورة الدهر أو الانسان (٧٦ : ٢٥) واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً) وقوله في سورة آل عمران (٣ : ٦١) وسبح بالعشي والابكار) وخص هذان الوقتان بالذكر لانهما طرفا النهار ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديراً بأن يراقبه تعالى

ولا ينساه فيما بينهما ، وأهم الذكر فيهما صلاتا الفجر والعصر اللتين تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ويشهدان عند الله تعالى بما وجداه عليه العبد كما ورد في الصحيح ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ عن ذكره تعالى في سائر الأوقات وإنما يتسامح بقلة الذكر فيما بين البكرة والأصيل لأنه وقت العمل للمعاش فمن غفل عن ذكره تعالى مرض قلبه ، وضعف إيمانه ، واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسه ، ولقد راقبنا إذا مرضنا تدأبنا بذكركم ونترك الذكر أحيانا فننتكس

ثم عزز عز وجل هذا الأمر وهذا النهي بما يمد خير أسوة للإنسان ، وهو التشبه والمشاركة للملائكة الرحمن ، فقال ﴿ أن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي أن ملائكة الله المقربين الذين هم عنده كحمة عرشه والخافين به ومن شاء تقدس وتعالى بهذه العندية الشريفة التي لا يعلمها سواهم أعلى مقاماً من الموكلين بالخلقوات وتدبير نظامها كالسحاب والمطر والريح والجنة والنار - أن هؤلاء المقربين العالين عنده لا يستكبرون عن عبادته كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون الذين عد بعضهم السجود لله تعالى خطية وضعة لا تحتمل ﴿ ويسبحونه ﴾ أي يترهونه عن كل مالا يليق بعظمته وكبريائه وجلاله وجماله من اتخاذ الند والشريك والظهير والمساعد على الخلق والتدبير كما يفعل الذين اتخذوا من دونه شفعاء أنه إذا الله يحبهم كحب الله ويمجدهم بهم مع الله ﴿ وله يسجدون ﴾ أي وله وحده يصابون ويسجدون فلا يشركون معه أحداً ، فيجب أن يكون لكل مؤمن أسوة حسنة بخواص ملائكته وأقرب المقربين عنده تبارك اسمه وتعالى جده .

وقد شرع الله تعالى لنا السجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها إرغاماً للمشركين واقتداءً بالملائكة العالين ، ومثلها آيات أخرى بمعناها في الجملة ، وهذه هي الأولى في ترتيب المصحف . ونسأله تعالى أن يجعلنا من خير الذاكرين له ، الشاكرين لنعمة المسبحين بحمده ، الساجدين له دون سائر خلقه ، وأن يوفقنا لاتمام تفسير كتابه إنه على كل شيء قدير

خلاصة سورة الاعراف

وهي تدخل في ستة أبواب

- (أولها) توحيد الله تعالى إيماناً وعبادة وتصريفاً ، وصفاته وشؤون ربوبيته .
- (ثانيها) الوحي والكتب والرسالة والرسول .
- (ثالثها) الآخرة والبعث والجزاء .
- (رابعها) أصول التشريع وبعض قواعد الشرع العامة .
- (خامسها) آيات الله وسننه في الخلق والتكوين .
- (سادسها) سنن الله تعالى في الاجتماع وال عمران البشري وشؤون الأمم ، المعبر عنه في عرف عصرنا بعلم الاجتماع .

الباب الأول

توحيد الله تعالى إيماناً وعبادة وتصريفاً وصفاته وشؤون ربوبيته

﴿ وفيه ١٢ أصلاً ﴾

(١) دعاء الله وحده وإخلاص الدين له وتخصيصه بالعبادة وكون الإخلال بذلك شركاً وكفراً بالله تعالى . قال تعالى في الآية ٢٨ (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أي بأن لا تشبهه أدنى شائبة من التوجه إلى غيره في الدعاء ولا في غيره من دينكم ، كالتوجه إلى الأنبياء والصالحين أو ما يذكر بهم كقبورهم ، فذلك شرك ينافي خلوصه له ، قل أو أكثر ، مسمى شركاً أو سمي توسلاً وتبركاً (راجع ص ٣٧٥ ج ٨ تفسير) وقال تعالى في بيان حال المشركين عند موتهم من الآية ٣٧ (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عننا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) راجع ص ٤١٣ منه ، وأمرنا تعالى في الآية ٥٤ بأن ندعوه تضرعاً وخفية - ونهانا عن الاعتداء

٥٦٠. الشارع للدين هو الله وحظر الشرع على غيره وحسن كل ما يشرته (تفسير ج ٩)

في الدعاء وفي آية ٥٥ بأن ندعوه خوفاً وطمعا ، وفي الأول صفة دعاء الاخلاص اللسانية ، وفي الثاني صفته القلبية (راجع ص ٤٥٦ و ٤٦٢ منه)

ومن الامر بعبادة الله وحده وترك عبادة غيره ما حكاه عن تبليغ الرسل لأقوامهم ، فدل على أنه أصل دينه على السنة جميع رسله . قال تعالى (٤٨) ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ومثله عن رسوله هود عليه السلام في الآية ٦٤ مع حكاية قول قومه له (٦٩) قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟) ومثله ما حكاه عن رسوله صالح عليه السلام في الآية ٧٢ وما حكاه عن رسوله شعيب عليه السلام في الآية ٨٤ .

ومن بيان بطلان عبادة غير الله تعالى ونزغات الوثنية في اتخاذ الآلهة اتخذاً ما ورد في الآيات ١٣٨ — ١٤٠ من طلب بنى اسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهاً كالقوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم ورد موسى (ع . م) عليهم فيراجع تفسيرها (في ص ١٠٧ — ١١٥ ج ٩) وفيه بيان خطأ الرازي في فهم معنى الإله الجريه على اصطلاح المسلمين .

(٢) إنكار الشرك وإقامة الحجة على أهلها وإثبات التوحيد وكونه مقتضى الفطرة في الآيات ١٧٢ و ١٧٣ في أخذ الرب الميثاق من ذرية بنى آدم واشهادهم على أنفسهم أنه ربهم ، ويراجع تفسيرهما (من ص ٣٨٥ — ٤٠٤ ج ٩)

(٣) بيان أن شارع الدين هو الله رب العالمين فيجب اتباع ما أنزله ولا يجوز اتباع أولياء من دونه في العقائد ولا العبادات ، ولا التحليل والتحريم الديني ، وهو نص قوله تعالى في الآية الثانية (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) لا أولياء يتولون التشريع لكم بما ذكر كالذين (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) يحلون لهم ويحرمون عليهم فيتبعونهم كما فسره الحديث المرفوع . ولا أولياء يتولون أموركم فيما عدا ما سخره الله لكم من الأسباب وهذا عين توحيد الربوبية . واتباع رسوله ﷺ لا يدخل في عموم النهي هنا فإنه تعالى أمر باتباعه في الآية ١٥٨ من هذه السورة وفي غيرها وجعل طاعته فيما أرسله به وحياً وبياناً للوحي عين طاعته كما في سورة النساء فلا يكون ولياً من دونه بل من عنده كما بيناه

في تفسير الآية (يراجع ص ٣٠٦ - ٣١٠ ج ٨ تفسير)

(٤) حظر القول على الله بغير علم بتشريع أو غيره . وذلك قوله تعالى في الرد على المشركين من الآية ٢٧ (أتقولون على الله مالا تعلمون) وقوله تعالى في آخر أصول المحرمات في الآية ٣٣ (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون؟) وقد بينا في تفسيرها مقاصد هذه الجريئة الشريكة (ص ٣٩٨ - ٤٠١ ج ٨ تفسير) ومنه يعلم خطأ الذين أنكروا الحسن والقبح في الأشياء ، مطلقا والذين حكموا العقل في التشريع الديني (٥) كون جميع ما يشرعه الله تعالى حسناً في نفسه وتنزيهه عن الأمر بالقبح وهو نص قوله تعالى في الآية ٢٧ (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) وقوله في الآية ٢٣ (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الخ فإن الفواحش ما ظهر قبحه وعظمه ، والآنم ما يضر ، والبطن تجاوز حدود الحق والعدل ، والشرك بالله بغير سلطان ، أي برهان جهل ، والقول على الله بغير علم جهل وتمد على حقوق الرب تعالى ، وكل ذلك قبيح في نظر العقل ، وبعضه قبيح في الحس أيضاً ، فكل ما أمر الله تعالى به فهو حسن في نفسه ، وإن خفي حسن بعضه على بعض ضعفاء الناظرين ، وكل ما نهى عنه فهو قبيح في نفسه وإن جهل قبحه بعض الغاوين ، ولكن العقل على إدراكه لذلك لا يستقل بمعرفة كل حسن وكل قبيح بالاحاطة والتحديد ، بل تصده عن كثير من المحاسن والقبائح الثقايد والعادات وضعف النظر والبحث

(٦) استواء الرب على عرشه وعلوه على خلقه ، وهو في الآية ٤٣ وفي تفسيرها تحقيق الحق في مذهب السلف (وهو في ص ٤٥١ ج ٨ تفسير)

(٨٧) تكليم الرب لموسى عليه السلام ومسألة رؤيته سبحانه وتعالى وبيان ذلك في تفسير قوله تعالى (١٤٣) ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال : إن تراني (الخ وتفسيرها (في ص ١٢٢ - ١٩٢ ج ٩ تفسير) وفيه من التحقيق والحكم في مسائل الخلاف ما لا نجد له نظيراً في كتاب لا في أصل المسائلين ولا في متعلقاتهما ، كتجلى الرب سبحانه والحمد بينه وبين خلقه وتجليه

في الصور المختلفة ، ومسائل الأرواح والكشف والرؤيا والعمل النوني والتنويم .
المنطاطيسى وأنواع مدركات النفس ومادة الكون الأولى والنور والكهرباء وماء
يقال من أنها أصل هذه الكائنات ، والخلاف في إمكان معرفة كنه الخالق وأول
المخلوقات ، ومنها مسائل الكلام ومراتبه ومن ذكر الحرف والصوت في كلامه
تعالى . لتحقيق رجحان مذهب السلف على جميع مذاهب المتكلمين وفلسفتهم
في الكلام والرؤية وسائر صفات الرب سبحانه وتعالى وشؤونه

(٩) هداية الله وإضلاله في آية (١٧٨ من يهدي الله فهو المهتدى) الخ ،
وآية (١٨٦ من يضل الله فلا هادي له) الخ ، وفي تفسيرها تحقيق أن هذا
الاضلال لا يقتضى الاجبار ، وإنما هو مقتضى سنة الله تعالى في خلق الانسان ،
وارتباط المسببات من أعماله بالأسباب ، فليس حجة للمعتزلة ومن شايعهم ولا
للأشعرية والخبرية (راجع ٥٩٤ ج ٩) ومثله قوله تعالى (١٤٦) سأصرف عن آياتي الذين
يتكبرون في الأرض بغير الحق) وكذلك الطبع على القلوب في آتي ١٠٠ و ١٠١
كل ذلك بيان لسنن الله تعالى في طباع البشر وأعمالهم

(١٠) الكلام في رحمة الله تعالى ومغفرته ، ومنه قرب رحمة من المحسنين
في آية ٥٤ وكونه أرحم الراحمين في الآية ١٤١ ورحمته ومغفرته للتائبين في الآية
١٥٣ وكونه خير الغافرين ١٥٥ وسعة رحمة كل شيء ومن يكتبها أى بوجهها ١٥٦
(١١) أسماء الله الحسنى ودعاؤه بها والإلحاد فيها وهو نص الآية ١٨٠ وفي
تفسيرها تحقيق ماورد من هذه الأسماء في القرآن وحديث « إن لله تسعة وتسعين
اسما » الخ (ص ٤٣١ ج ٩)

(١٢) الأمر بذكر الله تضرعاً وخيفة سرّاً وجهرّاً وكونه غذاء الإيمان وعبادته -
وتسبيحه والسجود له وحده وهو في الآيتين اللتين ختم الله بهما السورة ٢٠٤ و ٢٠٥ -

الباب الثاني

الوحي والكتب والرسالة والرسول وفيه ٣ فصول فيها ٢٤ أصلاً أو مسألة

﴿ ماجاء فيها بشأن القرآن ﴾

- (١) إنزال القرآن على خاتم الرسل محمد ﷺ للانذار به وذكرى المؤمنين وهو في الآية الأولى من السورة ، وفيها نهي الرسول أن يكون في صدره حرج منه
- (٢) أمر المؤمنين باتباع المنزل إليهم من ربهم وهو القرآن وأن لا يتبعوا من دونه أولياء وهو الآية الثانية ، وبيان أنهم إذا لم يؤمنوا به فلا يرجى أن يؤمنوا بكتاب غيره ، كما قال في آخر الآية ١٨٥ (فبأي حديث بعده يؤمنون ؟)
- (٣) وصفه تعالى للقرآن بأنه فصله على علم هدى ورحمة ليوم يؤمنون ، وهو نص الآية ٥١

(٤) بيانه تعالى لما سيكون عند إتيان تأويل القرآن أى ظهور صدقه بوقوع ما أخبر بوقوعه من أمر الغيب ، وهو أن الذين نسوه فلم يؤمنوا به في الدنيا يؤمنون يومئذ ويشهدون لجميع الرسل بأنهم جاءوا بالحق ويتمنون الشفعاء أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير ما كانوا يعملون ، وعو في الآية ٥٢

(٥) ولاية الله لرسوله بانزال الكتاب عليه في الآية ١٩٦

(٦) الأمر بالاستماع لقراءة القرآن والانصات له رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به

﴿ ماجاء فيها فاصاً بنينا (ص) ﴾

(٧) قوله تعالى في الآية الأولى (فلا يكن في صدرك حرج منه) أى الكتاب هو نهي عن ضيق الصدر بمعظمة القرآن ، وجلال الأمر الذي أنزل لأجله ، وشدة وقع سلطانه في القلب ، أو عن ضيقه بمشقة الانذار به والتصدى لهداية جميع البشر ، وقد غلب عليهم الشرك والضلال ، أو بما يتوقع من شدة معارضة الكفار وعدوانهم - وقيل هو دعاء ، وقيل هو حكم منه تعالى بمضمونه (راجع ص ٣٠٣ ج ٨)

(٨) أمره تعالى له بأن يعتز بأنه هو وليه وناصره وبأنه تعالى يتولى الصالحين فلا خوف على أتباعه من اضطهاد الكفار لهم ، وهو في الآية ١٩٦ وقد ذكرت في مسألة أخرى .

(٩) قوله تعالى في الآية ١٨٤ (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) الآية وهي تفنيد لرمي بعض مشركي مكة إياه ﷺ بالجنون ، يعنى أن التفكير الصحيح في حاله ﷺ من أخلاقه وهديه وسيرته وفيما جاء به من العلم والهدى ينفي أن يكون به ﷺ أدنى مس من الجنون كما زعموا ، فما عليهم إلا أن يتفكروا (راجع تفسيرها في ص ٤٥٣ ج ٩)

(١٠) بيان أنه ﷺ لم يسط علم الساعة أيان مرساها ومتى تقوم ؟ بل هو من علم الغيب انخاص بالله تعالى وذلك نص الآية ١٨٧

(١١) بيان أنه صلوات الله وسلامه عليه لا يملك لنفسه - أى ولا لغيره بالأولى - نفعا ولا ضرا - إلا ما مكنه الله منه بتسخير الأسباب من الأعمال الاختيارية - وبيان أنه لا يعلم الغيب مؤيدا بالدليل الحسى والعقلى ، وذلك قوله تعالى (١٨٨) قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) راجع تفسيرها في صفحة ٥٠٧ - ٥١٦ ج ٩

(١٢) بيان عموم بعثته وشمول رسالته لجميع الأمم والشعوب ومنهم أهل الكتاب والشهادة له في كتبهم يدل عليه في الآية الأولى حذف مفعول (لتنفذ به) فهو يدل عن العموم ، وكذلك الخطاب العام بعده في الأمر باتباع الناس ما أنزل إليهم من ربه . وهو القرآن المذكور في الآية الأولى . والنص في إرساله إلى أهل الكتاب قوله تعالى فيمن يكتب لهم رحمته (١٥٧) الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) الخ وقد بينا في تفسيرها نصوص التوراة والانجيل المشار إليها فيها (ص ٢٣٠ - ٢٩٩ ج ٩ تفسير)

وأما النص الصريح في عموم الرسالة فهو قوله تعالى (١٥٨) قل يا أيها الناس أنى يسأل الله لكم حيا أو موتا أو عذابا أو ينصركم أو يغلبكم أو يفضلكم من هذا إن الله كان سميعا عابدا

٢٥ و ٢٦ و ٣١ وما بعدها من آيات التشريع العام ولكن هذا كله مشترك بين أمة ختم النبيين وأمم الأنبياء قبله ، وأصرح منه في الاشتراك المصم ما ترى في أول الكلام في الرسالة العامة

ما ورد في الرسالة العامة والرسل

(١٣) بعثة الرسل الى جميع بني آدم في قوله تعالى (٣٥) يا بني آدم إما بأعينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي) الخ ويدل على إرسالهم إلى الامم المختلفة قوله تعالى (٣) وكم من قرية أهلكناها) الى آخر الآية الخامسة. فالمراد بالقرى الكثيرة أمم الرسل بدليل ما بعده

(١٤) سؤاله الرسل يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الأمم عن الإجابة وهو نص الآية الخامسة

(١٥) جزاء بني آدم على اتباع الرسل وطاعتهم وعلى تكذيبهم إياهم واستكبارهم عن اتباعهم وهو في الآيتين ٣٥ و ٣٦

(١٦) وظيفة الرسل تبليغ رسالات ربهم : بشارة وإنذارا : قولاً وعملًا ، وهو صريح في الآيات : ١٨٨ و ٩٣ و ٦٢ و ١

(١٧) أول ما دعا اليه الرسل توحيد الألوهية بالأمر بعبادة الله وحده ونفي عبادة إله غيره ، كما هو صريح في الآيات ٥٩ و ٦٥ و ٧٠ و ٧٣ و ٨٥

(١٨) مجيء الرسل بالبينات من الله تعالى وهي تشمل الآيات الكونية والحجج العقلية كما ترى في الآيات ١٣ و ٨٥ و ١٠٣ و ١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٨

(١٩) الآيات الكونية التي أيد الله تعالى بها رسله هي حجة لهم على الأمم ، وهي غير مقتضية للإيمان اقتضاء عقليا ولا ملجئة اليه طبعيا ، ولو كانت مقتضية له قطعاً أو ملجئة اليه طبعاً لما تخلف عنها ، ولما كان خلاف مقتضى التكليف المبني على الاختيار ، والمملجأ لا يستحق جزاءً . ونحن نرى في قصة موسى مع فرعون وقومه من هذه السورة وغيرها أن السحرة قد آمنوا إيماناً يقينياً على علم ، وأن الجماهير من قومه ظلوا على كفرهم ، ولكن الله تعالى أخبرنا في سورة النمل أنه لما جاءتهم الآية

الكبرى قالوا إنها لسحر مبين (١٤: ٢٧) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً (أى عاندوا موسى عليه السلام عنادا بإظهار الكفر بها فى الظاهر مع استيقانها فى الباطل، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء فى الأرض وهذا وصف فرعون وملئه أى كبار رجال دولته، إذ من المعلوم أن سائر الشعب كان مستذلاً وهو مقلد للرؤساء لجهله، وقد صدقهم فى قولهم إن موسى ساحر وإن السحرة كانوا متواطئين معه، ولذلك أظهروا الإيمان به لأجل إخراج فرعون ورجال دولته من مصر والتمتع بكبرياء الملك بدلاً منهم. كما تدل عليه آيات أخرى ولو فهم جمهور الشعب من الآيات ما فهموا لآمن كما آمنوا، لأنه لم يكن لديه من عتو العلو والكبرياء ما يصرفه عن الإيمان، ولا شك أن السحرة كانوا أكرم منزلة فى الدولة من سائر الشعب ولكن كرامتهم لم تكن بالغة درجة العظمة والعلو المانعة لصاحبها من تركها لأجل الحق. وقد امتاز خاتم النبيين ﷺ بأن جعل الله آية نبوته الكبرى علمية لا صعوبة فى فهم دلالتها على عامى ولا خاصى على أنه أيده فى زمنه بعدة آيات كونية (٢٠) نصيحة الرسل للأمم وأمرهم بالحق والفضيلة ونهيهم عن ضدهما كما فى

الآيات ٦٢ و ٦٣ و ٦٨ و ٧٤ و ٧٩ و ٨٢ و ٨٥ و ٨٦ و ٩٣ .

(٢١) شبهة الأمم على الرسل التى أثارها نعيمهم واستنكارهم هى كون مدعى الرسالة رجلاً مثلهم كما فى الآية ٦٣ و ٦٩

(٢٢) اتهم الكفار رسل الله بالسحر كما فعل فرعون والملا من قومه باتهام موسى فى الآية ١٠٩ وما يليها من الآيات فى قصة سحرة المصريين مع موسى. وهى شبهة جميع أقوام الرسل على آياتهم من حيث إن كلا منهما أمر غريب لا يعرفون سببه، ومن خطأ المتكلمين التفرقة بين المعجزة والسحر باختلاف حال الأشخاص وقد عقدنا فى تفسير الآيات فصلاً فى حقيقة السحر وأنواعه لا يجد القارىء مثله فى شئ من تفاسيرنا وكتبنا الكلامية «وهو فى ص ٤٥ — ٦٠ ج ٩»

(٢٣) عقاب الأمم على تكذيب الرسل وهو فى الآيات ٦٤ و ٧٣ و ٧٨ و ٨٤

٩١ و ٩٢ و ١٣٣ و ١٣٦ و ١٣٧

(٢٤) قصصهم من قبلهم من آياتهم وآياتهم

قصة موسى مع فرعون وقومه وسحرته من آية ١٠٣ إلى ١٣٧ وقصته مع قومه وحدهم من ١٣٨ — ١٧١ وفيها من العبر والفوائد ما ذكر بعضه في أبواب من هذه الخلاصة وبقي ما سبب إنزالها وإنزال غيرها من المقاصد المصرح بها في غير هذه السورة ككونها من أخيار الغيب الماضية الدالة على كون القرآن وحياً من الله تعالى (١١ : ٤٩) تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وكونها تسلياً للنبي ﷺ عما يلاقى من اعراض المشركين وأذاهم وتثبيتاً لقلبه في التهوض بأعباء الرسالة ، كما قال تعالى (١١ : ١٢٠) وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) - وكونها موعظة وذكرى للمؤمنين ، كما قال تعالى في تنمة هذه الآية (وموعظة وذكرى للمؤمنين) وكونها عبرة عامة للعقلاء من المؤمنين والكافرين المستعدين للاعتبار كما قال تعالى (١٢ : ١١١) لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) وغير ذلك مما سنفضله إن شاء الله تعالى في تفسير سورة هود . فقد طال تفسير هذه السورة جداً .

الباب الثالث

عالم الآخرة والبعث والجزاء

(وفيه ١٢ أصلاً)

(الأصل الأول) البعث والاعادة في الآخرة وهو قوله تعالى في الآية ٢٥ (ز منها نخرجون) وفي ٢٩ (كما بدأكم تعودون) وفيه دليل على إمكان البعث لأنه كالبدء أو أهون على المبدىء بداهة فكيف وهو القادر على كل شيء بدءاً وإعادة على سواء - وفي الآية ٥٧ تشبيه اخراج الموتى باخراج النبات من الأرض الميتة بعد انزال المطر عليها . وهذا التشبيه يتضمن البرهان الواضح على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بعد فناء أجسادهم ، وقد أطننا في تفسيرها الكلام في المسئلة

من الجهة العلمية المتعلقة بالعلوم العقلية والكونية (فتراجع في ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨
(الأصل الثاني) وزن الأعمال يوم القيامة وترتيب الجزاء على ثقل الموازين
وخفتها وهو في الآيتين الثامنة والتاسعة

(الأصل الثالث) سؤال الرسل في الآخرة عن التبليغ وأثره وسؤال الأمم
عن إجابة الرسل وهو في الآية السادسة

(الأصل الرابع) كون الجزاء بالعمل وجزاء المكذبين المستكبرين والجحرمين
والظالمين ودخول الأمم من الانس والجن في النار ولعن بعضهم بعضاً ، وشكوى
بعضهم من اضلال بعض والدعاء عليهم بمضاعفة العذاب وتحاورهم في ذلك ، راجع
الآيات ٣٦ - ٤١ و ١٤٧ و ١٧٩

(الأصل الخامس) جزاء المتقين المصلحين في الآية ٣٥ وجزاء الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وإزائهم الجنة وحالم ومقالهم فيها وذلك في الآيتين ٤٢ و ٤٣ -
ومن ذلك نوله تعالى في الزينة والطيبات من الرزق من الآية ٣٢ (قل هي للذين
آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة)

(الأصل السادس) إقامة أهل الجنة الجنة على أهل النار في قوله تعالى (٤٣) وفادى
أصحاب الجنة أصحاب النار أن أن قد وجدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم
حقاً ؟ قالوا نعم) الخ وفي تفسيرها بيان لما في صناعات هذا المعص من إزالة الاستبعاد
والاستغراب من تحاور الناس مع بعد المسافات بينهم (راجع ص ٤٢٤ ج ٨ تفسير)

(الأصل السابع) الحجاب بين أهل الجنة وأهل النار بما يذكروهم بضلالهم)
وتسليمهم على أهل الجنة وخطابهم لأناس يعرفونهم بسيماهم في النار وهو الاعراف وأهل
في الدنيا وغرورهم بأموالهم الخ وهو في الآيات ٤٦ - ٤٩

(الأصل الثامن) نداء أصحاب النار أصحاب الجنة (أن أفيضوا علينا من
الماء أو مما رزقكم الله) وجواب أهل الجنة لهم في الآية ٤٨

(الأصل التاسع) اعتراف أهل النار في الآخرة بصدق الرسل وتمنيهم الشفعاء
ليشفعوا لهم ، أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير الذي كانوا يعملون ، وحكم الله تعالى
عليهم بأنهم خسروا أنفسهم وذل عنهم ما كانوا يفترون من القول بأن من كانوا

يدعوتهم في الدنيا فيشفعون ثم عند الله . وهو في الآية (٥٣)
(الأصل العاشر) الدعاء بخير الآخرة مع الدنيا وهو ما ورد في دعاء موسى عليه
السلام من قول الله تعالى حكاية عنه (١٥٦) واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة
وفي الآخرة) فهو موافق لما ورد في القرآن تشريعا لهذه الأمة ، فغاية دين الله على
ألسنة جميع سعادة الدارين كما ترى بيانه في السنة ٤ من الباب السادس
(الأصل الحادي عشر) صفة أهل جهنم (١٧٩) ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من
الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها) الخ ، رقى تفسيرنا لها من العلم والحكمة مالا
يحمد مثله في تفسير ولا في كتاب آخر — فراجع (ص ٤١٨ ج ٩)
(الأصل الثاني عشر) مسألة قيام الساعة وكونها تأتي بغتة وهي في الآية ٨٧
وفي تفسيرها مباحث مسائل مبتكرة في أشراطها (راجع ص ٤٦١ — ٥٠٧ ج ٩)

الباب الرابع

أصول التشريع وفيه ٩ أصول

(الأصل الأول) بيان أن شارع الدين هو الله تعالى كما في الآية الثانية من
السورة ، وتقدم في الباب الأول من هذه الخلاصة ، وهناك قد ذكر من حيث إنه
حق الرب سبحانه وتعالى ، ويذكر هنا من حيث إنه الأصل الأول من أصول
الأحكام التشريعية . والمراد بشرع الدين والتشريع الديني ما يجب اتباعه وجوبا
دينيا على أنه قربة يثاب فاعله ويعاقب تاركه في الآخرة . وأما التشريع الدنيوي
الذي يحتاج إليه الناس في مصالحهم الدنيوية فقد أذن الله تعالى به في الإسلام
لرسله ولأولو الأمر من المسلمين ، كما بيناه بالتفصيل لواسع في تفسير قوله تعالى
(٥٩ : ٥) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)
واشترط في هذا الأذن أن يرد ما تنازعوا فيه من شيء إلى الله ورسوله بالرجوع إلى
الكتاب وإلى الرسول في عهده ، وإلى سنته من بعده ، كما هو صريح بقية الآية
مع بيان علته (راجع تفسيرها في ص ١٨٠ — ٢٢٢ ج ٥ تفسير)

(الأصل الثاني) تحريم التقليد في الدين والآخذ فيه بآراء البشر، وهو نص النهي في الآية الثانية معطوفاً على الأمر باتباع ما أنزل إلى الناس من ربهم وهو (ولا تتبعوا من دونه أولياء) وقد صرح بذلك المفسرون. ومن النصوص في بطلانه الإنكار على احتجاج المشركين به في الآية (٢٨) وإذا فعلوا فحشة قالو وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) الآية (راجع تفسيرها في ص ٣٧٣ ج ٨) وفي الآية ١٧٣ (الأصل الثالث) تعظيم شأن النظر العقلي والتفكير لتحصيل العلم بما يجب الإيمان به ومعرفة آيات الله وسننه في خلقه وفضله على عباده، فمن ذلك قوله تعالى في آية ٣٣ (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) السلطان البرهان، فتقييد بتحريم الشرك بانتفاء تعظيم شأنه. ومنه قوله في آخر الآية ١٦٩ (أفلا تعقلون؟) وسيدكر في الأصل الرابع. ومنه قوله تعالى بعد ضرب المثل للمكذبين بآياته من آية ١٧٦ (فاقص القصص لهم ليفكروا) ومنه قوله في الآية ١٨٤ (أولم يتفكروا؟) ما بصاحبهم من جنة) وفي الآية ١٨٥ (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء؟) الخ — والآية الجامعة في هذا المعنى قوله تعالى (١٧٩) ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون) وهي شاملة للنظر العقلي المحض ولكل ما كان مصدره الرؤية والسماع وهما أعم وأكثر مصادر العلم (الأصل الرابع) تعظيم شأن العلم الشامل للعلم النقلي وهو ما أنزل الله من الكتاب والحكمة، وما بينه به رسول ﷺ من سنة، والعلم المستفاد من الحس والعقل، والمراد من العلم هنا متعلق المصدر وهو المعلومات، ففارق ما قبله. ومن الآيات في ذلك قوله في آخر الآية ٢٧ (أتقولون على الله مالا تعلمون) وقوله في آخر الآية ٣١ (كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون) وهي من النوع الثاني لأن موضوع الآية مسألة الأمر بالأكل من الطيبات والزينة والإنكار على من حرمها وهي من مسائل علم الاجتماع والمصالح البشرية كما فصلناه في تفسيرها (راجع ٣٠٣ ج ٨) وقوله تعالى في آخر آية ٣٣ التي بين فيها أنواع المحرمات العامة (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما تعلمون) السلطان البرهان — وقوله تعالى

في آخر آية ١٣٠ (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وهو في زعم آل فرعون وخرافاتهم أن ما ينالهم من الحسنات والخيرات فهو حق لهم وأن ما ينالهم من السيئات فهو بشؤم موسى وقومه وتطيرهم بهم والعلم المنق عنهم هنا هو العلم بسنن الله في طباع البشر والأسباب والمسببات في العالم - وقوله تعالى في حكاية توبيخ موسى (ع. م) لقومه على مطالبتهم إياه بأن يجعل لهم إلهاً كالآلهة الذين رأوه يعكفون على أصنام لهم من آخر الآية ١٣٨ (إنكم قوم تجهلون) وما علل به الحكم مجملهم في الآيتين بعدهما، فهذه جامعة لبيان فضل العلم الثقلي والعلم العقلي وذم الجهل بهما معاً، فإن موسى (ع. م) علل تجهيلهم أولاً بعملة عقلية وثانياً بعملة دنيوية عقلية. فراجع تفسيرهم في (ص ١٠٥ - ١١٥ ج ٩) وقوله تعالى في الآية ١٦٩ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه) وهو من العلم الثقلي ولكنه أيد بالعقلي في ختم الآية بقوله (أفلا تعقلون)

فهذه الشواهد على هذا الأصل وما قبله المؤيدة بأضعافها في السور الأخرى تثبت تعظيم القرآن لأن التفكير والنظر والاستدلال لتحصيل العلم بالله وشرائعه المتزلة وبسننه وآياته في خلقه ونعمه على عباده - وتعظيم شأن جميع العلوم النافعة من عقلية وعقلية وهي حجة على نقص أهل الجهل بها.

(الأصلان الخامس والسادس) أمر الناس بأخذ زينتهم عند كل مسجد وبالأكل والشرب من الطيبات المستلذات، والانسكار على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وبيان أنها حق للذين آمنوا في الحياة الدنيا أولاً وبالذات يقيد عدم الاعتداء والاسراف فيها، وإن شاركهم غيرهم فيها بعموم فضل الله لا باستحقاقهم، وأنها تكون خالصة لهم في الآخرة، وذلك نص الآيتين ٣١ و ٣٢ وهذان الأصلان هما الركبان اللذان يقوم عليهما بناء الحضارة بعلموها وفنونها وصناعاتها وإظهارها لما في هذا الكون من سنن الله تعالى وآياته وأسرار صنعه الدالة على توحيده وقدرته وحكمته وإحسانه على عباده - وهما المبتطان لأساس الديانة البرهمية من جعل مقصد الدين تعذيب النفس وحرمانها من الزينة واللذة، وقلم في ذلك النصارى وابتدعوا الرهبانية لأجله ولم يقفوا عند حد تقليد في الدنيا حتى

زعموا أن دار النعيم في الآخرة خالية من اللذات الجسدية وليس فيها إلا النعيم الروحاني ، خلافا لبعض تصريحات الأنجيل من شرب الخمر في الملكوت وكون الصائمين والجوع والعطاش من أجل البر يشبعون هنالك

ولما كان الغلو في الدين كغيره من أمور البشر يقوى الاستعداد له في بعض الناس من كل أمة بدأ بعض الصحابة المبالغين في العبادة بترك أكل اللحوم وهم بعضهم بالاختصاص ، فنهأهم النبي ﷺ عن ذلك وعن المبالغة في العبادة ونزل في شأنهم (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) الآيات من سورة المائدة وهي بمعنى ما هنا ، ولم يمنع ذلك كله بعض مسلمي المتصوفة من الغلو في ترك الزينة والطيبات ، وضار الجاهلون بكنهه الاسلام يعدون الغلو في ذلك هو السكال الدين ، وأهلهم من أولياء الله المقربين ، وإن كانوا جاهلين خرافيين . ويراجع في تفسيرنا للآيتين من الأحكام والحكم والفوائد ، ومنها ما لم يكن يخطر في بال أحد من مفسري المتقدمين .
رحمهم الله تعالى (ص ٣٦٩ - ٣٩٤ ج ٨)

(الأصل السابع) هداية الناس بالحق والعدل به وقد وصف الله تعالى بذلك خيار قوم موسى عليه السلام في آية ١٥٩ وخيار أمة محمد ﷺ في الآية ١٨١ فهذا من أصول دين الله العامة في جميع شرائعه . والحق هو الأمر الثابت المتحقق في الشرع إن كان شرعياً ، وفي الواقع ونفس الأمر إن كان أمراً وجودياً ، والعدل ما تجرى به الحق من غير ميل إلى طرف من الطرفين أو الأطراف المتنازعة فيه أو المتعلقة به . ويدخل في هذا الأصل الدعوة إلى الحق والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتوضيح العامة والخاصة والإصلاح بين الناس

ومنه الأمر بالعدل المطلق في الأحكام والأعمال بقوله (١٨ قل أمر ربى بالقسط) وهذا هو الأصل العام لجميع الأحكام بين الناس كما قال تعالى في سورة النساء المدنية إذ صار للأمة حكم ودولة (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وفي سورة النساء والمائدة آيات أخرى في وجوب عموم العدل والمساواة فيه بين المؤمن والكافر والبر والفاجر والغني والعقير والقريب والبعيد ، وقد تقدمت مع تفسيرها . فمن تجرى العدل بغير محاباة وعرف مكانه فحكم به كان حاكماً بحكم الله تعالى من غير حاجة إلى

نص خاص في الشريعة به ، فإن وجد النص كانت الثقة بالعدل أتم بل لا حاجة مع النص إلى الاجتهاد كما أن الاجتهاد المخالف للنص الخاص أو للعدل العام باطل .
(الأصل الثامن) حصر أنواع المحرمات الدينية العامة في قوله تعالى (٣٣)
قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق ، وأن
تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون (راجع بيان
وجه الحصر في تفسيرها (ص ٣٩٤ — ٤٠١ ج ٨)

(الأصل التاسع) بيان أصول الفضائل الأدبية والتشريعية الجامعة بأوجز
عبارة معجزة في قوله تعالى (١٩٩) خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین)
فراجع تفسيرها من آخر ص ٥٣٣ — ٥٣٩ ج ٩

الباب الخامس

في آيات الله وسننه في الخلق والتكوين

(وفيه ١٤ أصلا)

(١) خلق الله السموات والأرض في ستة أيام واستواؤه على عرشه ونظام
الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره ، وكون الخلق والأمر له
وحده ، وذلك في الآية ٥٤ وهي تتضمن الترغيب في علمي الفلك والجغرافية
الطبيعية دون علم التنجيم الخرافي ، وقد بلغ أهل الغرب من العلم بذلك ما لو ذكر
أبسطه وأبعده عن الغرابة في غير هذا العصر لقال فيه أذكي العقلاء إنه من هذيان
المجانين ، أو تحيل الحشاشين ، ولا يوجد علم أدل على عظمة الخالق وقدرته وسعة
علمه ودقة حكمته من علم الفلك ، وقد كان قومنا العرب في عهد حضارتهم الاسلامية
أعلم البشر به ، فصاروا أجملهم به

(٢) خلق الله الرياح والمطر واحياؤه الأرض به واخراج الثروات والخصب
وضده وذلك في الآيتين ٥٧ و ٥٨ وذلك يتضمن الترغيب في العلم بسنن الله تعالى
في هذه المخلوقات ، كما قلناه فيما قبله ، لأن في العلم بذلك كله من معرفة آيات الله
وكمال صفاته ما يعطى متأمله اليقين في الإيمان إذا قصد به يصدق عليه نعمه التي من

عليه بها ويعده لشكرها فتجتمع له بذلك سعادة الدارين ، وقد اتسعت علوم بعض البشر بذلك فاستحوذوا على أكثر خيرات الأرض في بلادهم وبلاد الجاهلين بها الذين أضاع الجاهل عليهم دنياهم ودينهم بالتبع لها

(٣) خلق الله الناس من نفس واحدة وخلق زوجها منها ليسكن إليها وإعداد الزوجين الذكر والأنثى للتناسل كما في الآية ١٨٩ وفي قصة جنة آدم ومعصيته وتوبته من الآيات ١٩-٢٥ بعض صفات النشأة البشرية واستعدادها وحالها في سكنى الأرض (٤) تفضيل الله تعالى للإنسان على من في الأرض جميعاً كما أفاده قوله تعالى

(١٠) ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) وبيان هذه المسألة بالتفصيل في تفسير سورة البقرة لأنها أوسع تفصيلاً لما تقتضيه قصة آدم المطولة فيها والتصریح فيها بعمل آدم خليفة في الأرض ، وفي باب التأويل هناك سبيح طويل للاستاذ الامام رحمه الله تعالى لم يسبقه إليه أحد فيما نعلم فيراجع في الجزء الأول من هذا التفسير

(٥) خلق بني آدم مستعدين لمعرفة الله تعالى وإشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنه ربهم ، وشهادتهم بذلك بمقتضى فطرتهن ، وما منحوه من العقل والفكر ، وحجته تعالى عليهم بذلك كما في الآيتين ١٧٢ و ١٧٣ فيراجع تفسيرهما (في ص ٣٨٦ - ٤٠٤ ج ٩) وكذا خلقهم مستعدين للشر لا وما يقيمه من الخرافات كما في الآية الثانية منهما والآية ١٩٠ (٦) ضرب المثل لاختلاف استعداد البشر لكل من الخير والشر والبر والإثم وعلامة

كل منهما فيهم وكونهم يعرفون ثمارهم ، وذلك قوله تعالى (٥٧) والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي أخبث لا يخرج إلا نكدا ، وفيه إرشاد إلى طلب معرفة الشيء بأثره ، ومعرفة الأثر بمصدره ، وفيه دليل على أن في الأشياء خبيثاً وطيباً ، وجيداً ووردياً . ويؤيده حديث « الناس معادن كعادن الذهب والفضة » الخ وهو في الصحاح وغيرها (٧) الكلام في إبليس وهو الشيطان وعداوته لآدم وامتناعه من السجود له ووسوسته له ولزوجته بالاغراء بالمعصية بالأكل من الشجرة وعاقبة ذلك . وهو

في الآيات ٢٠ - ٢٣ وكونه من المنتظرين إلى يوم القيامة

(٨) عداوة إبليس والشياطين من نسله لبني آدم وتزيينهم لهم الشر والباطل

واغرائهم بالفساد والمعاصي وحكمة ذلك ، وهي في الآيات ١٦ و ١٨ و ٢٠ و ٢٢ و ٢٧ وتحذيرهم منه في الآية ٢٦ مع بيان أنه يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم ،
(٩) ترغ الشيطان للانسان ومقاومته بالاستعاذة بالله تعالى وكون المتقين إذا
مسهم طائف منه تذكروا فإذا هم مبصرون لا تطول غفلتهم فيغرم وسواسه ، وذلك
في الآيتين ٢٠٠ — ٢٠٢ .

(١٠) بيان أن الشياطين أولياء للمجرمين الذين لا يؤمنون من بنى آدم وهوفي
فاصلة الآية ٢٧ وبيان أن اخوان الشياطين من بنى آدم يمكنون الشياطين من أنفسهم
بعدم تقوam فهم يدونهم في الفى ولا يقصرون فيه ، وذلك نص الآية ٢٠٢ .
قد سبق الكلام في تفسيرنا هذا على مباحث الشياطين والجن في عدة مواضع
قد أحلنا عليها في تفسير آيات الاعراف وزدنا على ذلك عقد فصل استطرادى في
حكمة خلق الله تعالى الخلق ، واستعداد الشيطان والبشر للشر . فيراجع في (ص
٣٤٠ — ٣٤٤ ج ٨) .

(١١) منة الله على البشر بتمكينهم في الأرض وتسهيل أسباب المعاش لهم كافي الآية ٩
ومن الشكر الواجب له تعالى على ذلك طلب سعة العلم باستعمار الأرض ووسائل المعاش
(١٢) منة الله على البشر بالقياس والزينة كما في الآية ٢٦ وراجع في ذلك
الأصلين ٥ و ٦ من الباب الرابع من هذه الخلاصة .

(١٣) صفات شرار البشر المستحقين لجهنم وهم الذين أهملوا استعمال عقولهم
وحواسهم فيما خلقت لأجله من اقتباس من العلم والحكمة . وذلك نص الآية ١٧٩
وذكرت في أصل الجزاء في الآخرة (وهو ١١ من الباب الثالث) وفي تعظيم شأن
النظر والتفكير لتحصيل العلم (وهو الأصل ٣ من الباب ٤) .

(١٤) آياته تعالى ونعمه على بنى إسرائيل ، وتراجع في قصة موسى معهم .



الباب السادس

في سنن الله تعالى في الاجتماع والعمران البشري

(وفيه ٧ أصول)

(١) إهلاك الله الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها ، كما في الآيتين ٣ و ٤ ومصادقه في خلق آدم الذي هو عنوان البشرية وجعله تعالى المعصية بالأكل من الشجرة ظلاماً للنفس في الآية ١٩ واعتراف آدم وحواء في دعاء توبتهما بذلك في قولها (ربنا ظلمنا أنفسنا) وبأن شأن المعصية من الأفراد أن تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وأما خسارة خسran النفس كما في قولها (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وأما خسارة الأمم فهي إضاعة استقلالها وسلطان أمة أخرى عليها تستذلها . وجملة ذلك أن العقوبة أثر طبيعي لازم للعمل ، وأن ذنوب الأمم لا بد من العقاب عليها في الدنيا قبل الآخرة ، وأما ظلم الأفراد وعقابهم عليه في الآخرة فيراجع في الأصل ٤ من الباب الثالث (٢) بيان أن للأمم آجالاً لا تتقدم ولا تتأخر عن أسبابها التي اقتضتها السنن الإلهية العامة ، وهو نص الآية ٣٤ وكونها إذا كانت جاهلة بهذه السنن تؤخذ بغتة وعلى غفلة ليلاً أو نهاراً كما يؤخذ من الآيات ٩٤ - ١٠٠ وهذه الآيات وردت في عقاب الأمم التي عانت الرسل وكان عقابها وضعياً لا اجتماعياً - وقد سبق لنا في هذا التفسير أن العقاب الإلهي للأفراد وللأمم نوعان (أحدهما) العقاب بما توعده تعالى به على مخالفة رسله ومعانديهم ، وهو من قبيل عقاب الحكام لرعاياهم على مخالفة شرائع أمتهم وقوانينها ونظمها (وثانيهما) العقاب الذي هو أثر طبيعي للجرائم ، وهو من قبيل ما يماقب به المريض على مخالفة أمر طبيبه في معالجته من الحمية والاقترار على كذا من الغذاء . والتزام كذا من الدواء (راجع ص ٣٠٨ ج ٧ تفسير) .

(٣) ابتلاء الله الأمم بالبأساء والضراء تارة وبضدها من الرخاء والنعماء تارة أخرى ، فلما أن تمير بذلك فيكون تربية لها وإما أن تغبي وتقتل فيكون مهلكة لها كما في الآيات ٩٤ وما بعدها مما تقدم الكلام عليه في السنة الثانية من وجه آخر

(٤) بيان أن الإيمان بما دعا الله اليه والتقوى في العمل بشرعه فعلا وترك ما سبب اجتماعي طبيعي لسعة بركات السماء والأرض وخيراتها على الأمة كما في قوله تعالى (٩٦) ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وهو موافق لآيات أخرى في سور أخرى (منها) الآية ٥٢ من سورة هود (١١) والآيات ١٢٣-١٢٧ من سياق بيان سنته تعالى في النشأة البشرية من سورة طه ومثله في الآيات ١٠-١٢ من سورة نوح والآيتين ١٦ و١٧ من سورة الجن بعدها وغيرها ، وقد بينا وجه ذلك في التفسير والمنار ومنه تحقيق معنى التقوى واختلافها باختلاف مواضعها من أمور الدين والدنيا في مقالة عنوانها (عاقبة الحرب المدنية) نشرت في (ج ٧ ص ٢١ من المنار)

(٥) استدراجه تعالى المكذبين والمجرمين واملأوه لهم كما في الآيتين ١٨٢ و١٨٣ وهو في معنى ما سبقه من سنة أخذ الله للأمم بذنوبها ومن سنة ابتلائها بالحسنات والسيئات ، فإن من لا يعتبر بذلك ولا يترقب يصر على ذنبه ولا يرجع عنه وذنوب الأمم لا بد من العقاب عليها - راجع تفسير الآيتين في ص ٤٥١ و٤٤٩ ج ٩ فقيه بيان هذه السنة موضعاً

(٦) سنة الله في أرض الأرض واستخلاف الأمم فيها والاستيلاء والسيادة على الأمم والشعوب . فقد بين الله تعالى لنا في قصة موسى مع قومه أن وطأة فرعون وقومه اشتدت على بني إسرائيل ، وصرح بوجوب الاستمرار على تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم لأجل أن تنقرض الأمة بعد استدلال من يبق من النساء إلى أن ينقرض الرجال وما ازدادوا إلا ذلاً وخنوعاً - ومع مئات الألوف - كما هو شأن الشعوب الجاهلة المستضعفة ، ولكن الله تعالى أمر رسوله موسى أن يمتلخ ذلك اليأس من قلوبهم بقوة الإيمان بما حكاه عنه بقوله (١١٨) قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أي بين لهم أن الأرض ليست رهن تصرف الملوك والدول بقدرتهم الذاتية فتدوم لهم وإنما هي لله ، وله سبحانه وتعالى سنة في سلبها من قوم وجعلها إرثاً لقوم آخرين يحض مشيئته وسلطانه ، ومدار هذه السنة على أن العاقبة في التنارع بين الأمم على الأرض التي تعيش فيها أو تستعمرها المتقين ، أي الذين يتقون أسباب

(تفسير القرآن الحكيم) (٣٧) (الجزء التاسع)

الضعف وانحلالان والهلاك كاليأس من روح الله والتخاذل والتنازع والفساد في الأرض والظلم والفسق ، ويتلبسون بفسدها وبسائر ما تقوى به الأمم من الاخلاق والاعمال ، وأعمالها الاستهانة بالله الذي بيده ملكوت كل شيء والصبر على المكروه معها عظمت ، وهذان الأمران هما أعظم ما تتفاضل به الأمم من القوى المعنوية باتفاق الملاحدة والمؤمنين من علماء الاجتماع وقواد الحروب

وقد تذكرت هذه القائمة في القرآن الحكيم وفي معناها قوله تعالى من سورة الأنبياء (٣١ : ١٠٠) وقد كتبنا في الزبور من بعد الذكور أن الأرض برزها عبادي الصالحين (و) أما النصارى ، الذين يصلحون لإقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله وسننه في العصور ، وهم يعنى ما يسميه علماء الاجتماع «بقاء الأنصالح أو الأمثل في كل تنازع» ويدل عليه المثل المشهور في سورة الزمر (١٣ : ١٧) أنزل من السماء ماء - إلى قوله - فأتاه الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ومن العجيب أن ترى بعض الشعوب الإسلامية المستضعفة في هذا العصر بسيادة الاجانب عليها يأخذة من استقلالها وعزتها بل من حياتها المالية والقومية بما ترى من خفة موازينها ووجهان موازين السائدين عليها في القوى المادية والآلية واستغلال هؤلاء السائدين عليها لها ، جهلا منها بسنة الله تعالى التي بينها في هذه الآية ونفحاتها من كونه ربيحان قري فزحزون وقومه على بني إسرائيل وقهره لهم كفا فوق ربحان قري سائدين عليها وقهرهم إياها ، وفي هذا العصر من العبر التاريخية بسقوط بعض الدول القوية مالا يقل عن العبرة بأحداث التاريخ القديم ثم بين لنا تعالى في الآية التالية لتلك الآية (١٢٩) أن موسى عليه السلام شكاه قومه إيداء فرعون وقومه لهم قبل مجيئه وبمده على سواء فذكر لهم ما عنده من الرجاء باهلاك ربههم لعدوهم واستخلافهم في الأرض الموعدون بها ليختبرهم فينظر كيف يعملون ، ويكون ثبات ملكهم وسلطانهم على حسب عملهم الذي تصلح به الأرض وأهلها أو تفسد ، وهو ما فصله تعالى لنا بعد ذلك في آيات أخرى منها في إفسادهم قوله تعالى (١٧ : ٤) وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض) إلى تمة الآية الثامنة

ثم بين لنا تعالى في الآية ١٧ من هذا السياق أنه أوردتم الأرض المباركة
 ونعت كلمة المستحق عليهم بما صبروا ، أي لا يجردهم أيان الله ليس به العجز
 به ، تعلم منه بالفعل أن الأمة التي ضمتها لها وكان عارضا للظلم التاريخي لها
 أن تياس من الحياة . وهو تحقق لرجاء موسى هذا ولوجه الله أن يرضى
 في قوله من سورة القصص (٢٨ : ٥) وريد أن تمن على الذين استضعفوا في الأرض
 وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين من نعم في الأرض) الآية

تري شعوب المسلمين يجهلون حواء الدين الحقيقية وما ضاع ملكهم من نعم الله عليهم
 انما كان سبباً لعدم الاعتدال بها في العمل ، وما كان سبباً في انزالهم الاعراف
 عن القرآن ودعوى الاستغناء عن هذا الدين بما كتبه لهم الملك امير المؤمنين
 المينية على الفوائد الكلامية التي كانت تروى كتبه انقضاء من أحكام الدين والامارات
 الخيرية والفقهاء والطوب وما يتبعها بهاء وهذه الضرورة الحقيقية للعبودية والقرآن
 (الاعراف) سألنا من عند الله كلام كتابه ومن نظرياته المتكلمين من ان الله قد وهدى
 لها ، وكذا لك غيرنا من السور الكريمة . هل أنزل الله تعالى ملكه ليعلم بها ما يستفيد
 بجوارده ، فافظها بسننهم . أو لا تخافهم . أو لا تخافهم . أو لا تخافهم . أو لا تخافهم .

والتيب من هذا كله أن نزل بسعيرهم بعد ذلك أن النبي لهم تزيين فاسم
 لهذا التزيين المثلد الحافظ على كتب التزيين الوسطى دون مدنى السلف ، خصم
 يقول إن دين الإسلام هو السيف في جبل السنين وضعتهم ولا سيما لما لا ياتون
 علم الاجتماع وسنن العمران ، من الأمم غير الاسلام التي مدتها في العالم وما يريدها
 من الفنون والصناعات وهؤلاء أجهل بالأمم من أولئك ، وكتب النبي ان هو المرشد
 الأول لسنن الاجتماع والعمران ، ولكن المسلمين قصرُوا في طور حياتهم المعاصرة عن
 تفصيل ذلك بالتدوين لعدم شعورهم بالخاصة إليه ، وكان حقهم في هذا العصر أن
 يكونوا أوسع الناس به علماً لأن كتاب الله مؤيد للحاجة بل الضرورة التي تدنو إليه
 (٧) إن سنة الله في الأمم التي نزلت الأرض من يوم أعملها الاسلام على سنة

تعالى في أعماها ، فإذا كان هؤلاء قد ضلوا عما فيها بسبب ذلك ، فسادت فيهم
 وعمي قلوبهم ، فكذلك تكرر شأن الأرض في سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ذلك ، وذلك قوله تعالى (١٠٠) أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) وكنا نرى الذين ورثوا ممالك المسلمين متعظين بمعنى هذه الآية من بعض الوجوه فهم على كثرة ذنوبهم بالظلم وفساد العقائد والأخلاق وسلب الأموال يتحرون أن يكون ظلمهم دون ظلم حكام أهل البلاد الذين أضاعوها ، وعقولهم تبعث دائماً في الأسباب التي يخشى أن تكون سبباً لسلبها منهم لأجل اتقائها ، وآذانهم مرهفة مصيخة لاستماع كل خبر يتعلق بأمرها وأمر أهلها وشؤون الظالمين فيها حظراً منهم أن يسلبهم إياها وقد قلنا في تفسير هذه الآية : قد كان ينبغي للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من كان قبلهم ، وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم - إلخ ما تراه في ص ٣٠ و ٣١ ج ٩

هذا ما ففتح الله به علينا من أصول وأمّهات هداية هذه السورة الجليلة بمراجعتها المرة بعد المرة ، مروراً على الآيات بالنظر ، ولو أعدنا قراءتها مع قراءة تفسيرها بالتدبر لظهر لنا أكثر من ذلك ، وإنما أردنا التلخيص ، ونسأله تعالى أن يجعلها هي وسائر كتابه المجيد حجة لنا لأعلينا ، ويوفق أمتنا للرجوع إلى الاهتداء به بالتوبة إليه كما تاب أبوم وأمهم عليهما السلام

❦ تنبيه ❦

قد وقع خطأ في عدد آيات هذه السورة بالنسبة إلى عدد المصحف الجديد الذي طبعته الحكومة المصرية والفرق بينهما آية واحدة من أول السورة إذ عدت فيه (المص) آية ولم نعدّها آية ، ثم وافقنا عدده من الآية ١٦٧ إلى آخر السورة . وقد اعتمدنا في شواهد خلاصة السورة على عدد المصحف لا التفسير لأننا استنبطناها من مراجعة المصحف نفسه غالباً ، فليعلم هذا ويتذكر عند مراجعة شواهد التفسير

سورة الأنفال

- ٨ -

(وهي السورة الثامنة في العدد ووضعت موضع السابعة من السبع الطول مع أنها من اثنتاني وهي دون المثني التي تلي الطول، لما سيأتى . وعدد آياتها ٧٥ آية في عدد السكوفي ٧٦ في الحجازي و ٧٧ في الشامي)

سورة الأنفال مدنية كلها كما روى عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت . وقال ابن عباس : إنها نزلت في بدر، وفي لفظ تلك سورة بدر، وقيل إنها مدنية إلا آية (٦٤ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) فقد روى البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب (رض) فعلى هذا وضعت في سورة الأنفال وقرئت مع آياتها التي نزلت في التحريض على القتال في غزوة بدر مناسبتها للمقام . وروى عن مقاتل استثناء قوله تعالى (٣٠) وإذ يكره لك الذين كفروا) الآية لأن موضوعها ائثار قريش بالنبي ﷺ قبيل الهجرة، بل في الليلة التي خرج فيها رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه بقصد الهجرة وباتا في الغار ؛ وهذا استنباط من المعنى وقد صح عن ابن عباس أن الآية نفسها نزلت في المدينة . وزاد بعضهم عنه استثناء خمس آيات أخرى بعد هذه الآية أى إلى الآية ٣٥ للمعنى الذي ذكرناه آنفاً وهو أن موضوعها حال كفار قريش في مكة وهذا لا يقتضى نزولها في مكة ، بل ذكر الله بهارسوله بعد الهجرة . وكل ما نزل بعد خروج النبي ﷺ مهاجراً فهو مدني ووجه مناسبتها لسورة الأعراف : أنها في بيان حال خاتم المرسلين ﷺ مع قومه وسورة الأعراف مبينة لأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم ، هذا هو العمدة وهناك تناسب خاص بين عدة آيات من السورتين يقوى هذا التناسب ، ولكنه لا يصح أن يكون شيء منه سبباً للمقارنة بينهما لأن مثل هذا الاتفاق في بعض

السبع فانظر الى هذه الدققة التي فتح الله تعالى بها ولا يغوص عليها إلا غواص
 (الراجح) أنه لو أخرهما وقدم يونس وأتى بعد براءة يهود كما في مصحف أبي
 لمراعاة مناسبة السبع وإيلاء بعضها بعضاً لكانت مع ما أشرنا إليه أمر آخر أكد
 في المناسبة، فإن الأولى بسورة يونس أن يؤتى بالسور الخمس التي بها هالما اشتركت
 فيه من المناسبات من القصص، والافتتاح بالآية ويذكر التكاليف، وبن كونها مكيات
 ومن تناسب ما عدا الحجر في المقارن من التسمية باسم نبي، والرهبة، أمر ملك وهو
 مناسب لأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهذه عدة مناسبات للاتصال بين
 يونس وما بعدها، وهي أكد من هذا الوجه الواحد في تقديم يونس بعد الأعراف
 ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر على النحل مع كونها أقصر من الأولى أخرت
 مرة عن هذه السور لكانت المناسبة جيداً لطلوعها بعد عدة سور أقصر منها
 بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر، فإنها ليست كبيرة في الطول

ويشهد لمراعاة الفوائج في مناسبة الوضع ما ذكرناه من تقديم الحجر على النحل
 لمناسبة (الآية) قبلها وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء وإن كانت أقصر منها
 لمناسبتها البقرة في الافتتاح بالآية، وتوالي الطواشين والحواميم، وتوالي العنكبوت
 والروم والقيمان والسجدة لافتتاح كل بآية، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التي
 هي أطول منها . هذا ما فتح الله به على

د ثم ذكر أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قدم في مصحفه البقرة والنساء
 وآل عمران والأعراف، التوبة والمائدة ويونس، وأعراف النحل، الطول، تقدم الأطول
 منها فالأطول، ثم ثني بالمئين، تقدم ياف ثم النحل ثم يهود ثم يوسف ثم الأنبياء،
 وهكذا الأطول فالأطول وجعل الأنفال بعد التوبة، ووجه المناسبة أن كلا مدينة
 ومستقلة على أحكام، وأن في النور (بعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
 ليستخلفنهم في الأرض) الآية، وفي الأنفال (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون
 في الأرض) الخ ولا يخفى ما بين آيتين من المناسبة فالأولى مستقلة على الوعد

ما حصل ذكر به في الثانية فتأمل اه كلام السيوطي

(الآلوسي) «وأقول قد من الله تعالى على هذا العبد الحثيث ، بما لم ين به على هذا المولى الجليل ، والحمد لله تعالى على ذلك حيث أوقفني سبحانه على وجه مناسبة هذه السورة لما قبلها وهو لم يبين ذلك ، ثم ما ذكره من عدم التوقيف في هذا الوضع في غاية البعد كما يفهم مما قدمناه في المقدمات ، وسؤال الخبر وجواب عثمان رضي الله تعالى عنهما ليسانصا في ذلك ، وما ذكره عليه الرحمة في أول الأمور التي فتح الله تعالى بها عليه غير ملائم بظاهره ظاهر سؤال الخبر رضي الله تعالى عنه حيث أفاد أن إسقاط السبعة من براءة اجتهدى أيضا ، ويستفاد مما ذكره خلافه ، وما ادعاه من أن يونس سابعة السبع الطول ليس أمراً مجمعا عليه ، بل هو قول مجاهد وابن جبير ورواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وفي رواية عند الحاكم أنها الكهف ، وذهب جماعة - كما قال في إتيانه - إلى أن السبع مطول أولها البقرة وآخرها براءة ، واقتصر ابن الأثير في النهاية على هذا

وعن بعضهم أن السابعة الأنفال وبراءة بناء على القول بأنهما سورة واحدة وقد ذكر ذلك الفيروز آبادي في قاموسه ، وما ذكره من الأمر الثاني يغني عنه ما علل به عثمان رضي الله تعالى عنه ، فقد أخرج النحاس في ناسخه عنه أنه قال : كانت الأنفال وبراءة يدعيان في زمن رسول الله ﷺ القرينتين فلذلك جعلتهما في السبع الطول ، وما ذكره من مراعاة الفواخ في المناسبة غير مطرد فان الجن والكافرون والإخلاص مفتحات بقل مع الفصل بعدة سور بين الأولى والثانية والنصل بسورتين بين الثانية والثالثة ، وبعد هذا كله لا يخلو ما ذكره عن نظر كما لا يخفى على المتأمل فتأمل . اه ما ذكره الآلوسي رحمه الله تعالى

وأقول : إن جواب عثمان لابن عباس رضي الله عنهما هو كما رواه أحمد وأصحاب السنن الثلاثة ، وابن حبان والحاكم « كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا من كان يكتب يقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها . فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله (ص) ولم يبين لنا أنها منها . فن أجل ذلك قرئت

بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما في السبع الطول، اه
ولأجل هذه الرواية ذهب البيهقي الى أن ترتيب جميع السور توقيني
عن النبي ﷺ إلا الانفال وبراءة، ووافقه السيوطي . ويرد عليه انه
لا يعقل أن يرتب النبي ﷺ جميع السور إلا الانفال وبراءة ، وقد صح انه
ﷺ كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة من
كل عام، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين، فأين كان يضع هاتين
السورتين في قرأته ؟ التحقن ان وضعهما في موضعهما توقيني وإن فات عثمان
أو نسيه ، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن كما روى
عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره في الاقطار

وهذا الحديث قال الترمذي حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف (بن أبي جميلة)
عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، ويزيد الفارسي هذا غير مشهور اختلفوا فيه هل
هو يزيد بن هر مزاويه؟ والصحيح انه غيره، روي عن ابن عباس وحكي عن
عند الله بن زياد وكان كاتبه وعن الحجاج بن يوسف في أمر المصاحف. وسئل عنه يحيى
ابن معين فلم يعرفه ، وقال أبو حاتم لا بأس به . اه ملخصا من تهذيب التذيب
فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في
ترتيب القرآن المتواتر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ؟ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ أَلْوَابُهُمْ وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٤) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَبَعَثْنَا رِزْقًا كَرِيمًا

روى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « من قتل قتيلًا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيرًا فله كذا وكذا . » فأنما المشيخة (أي المشايخ) فثبتوا تحت الرايات . وأما الشبان فصاروا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : « إذا كنا لكم ردةً ولو كان منكم شيء ، لا جأتم إلينا ، فاختصموا إلى النبي ﷺ فثبت (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) وذلك في غزوة بدر ، وروى أحمد ، وأبو داود ، والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه واستوهبه النبي ﷺ فندعه إياه ، وأن الآية نزلت في ذلك فأعطاه إياه ، لأن الأمر وكل إليه ﷺ . وعن ابن جرير : أنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس فنزلت هذه الآية . وجملة القول : أنها نزلت في غنائم غزوة بدر تنازع فيها حائزوها من الشبان وسائر المقاتلة . وقيل المهاجرون والأنصاف

قال تعالى (يسألونك عن الأنفال) الأنفال جمع نفل بالمعريك وهو ف

أصل النعمة من النفل - بفتح وسكون - أي الزيادة عن الواجب ومنه صلاة النفل .
قال الراغب : النفل هو الغنيمة بمعنى : السكن اختلفت العبارة عنه لاختلاف
الاعتبار . فإنه إذا اعتبر بكونه مغفوراً به يقال غنيمة ، وإذا اعتبر بكونه منحة من
الله ابتداء من غير وجوب يقال له نفل ، ومنهم من فرق بينهما من حيث العموم والخصوص
فقال الغنيمة كل ما حصل مستغنياً بتعب كان أو بغير تعب ، وباستحقاق أو بغير استحقاق
وقبل الظفر كان أو بعده ، والنفل ما يحصل للإنسان قبل القسمة من جملة الغنيمة ، وقيل
هو ما يحصل للمسلمين بغير قتال وهو الفداء ، وقيل ما يحصل من المتاع قبل أن
تقسم الغنائم . وعلى هذا حملوا قوله (يسألونك عن الأنفال) الآية

والمعنى يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هي ؟ المشركان أم للمشركة ؟
أم للمهاجرين أم للأَنْصار ؟ قل الأنفال لله والرسول أي قل لهم الأنفال لله بحكم
فيها بحكمه والرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى . وقد قسمها ﷺ بالسواء .
وهذا الایمانی التخصیص الذي سمي في قوله تعالى (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن
الله حصه) الخ فيكون التخصيص هنا لأجل حال كمال جهل هذوكم مرة والسدي ، فالصواب
قول ابن زيد : إن الآية محكمة وقد بين الله ما روي في آية الخمس واللامام أن نفل
من شاء من الجيش ماشاء قبل التخصيس ﴿ فاتقوا الله ﴾ في المشاجرة والخلاف
والتنازع ، وسيأتي في السورة مضار ذلك ولا سيما في حال الحرب ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾
أي أصلحوا نفس ما بينكم وهي المال والصلة التي بينكم تربط بعضكم
ببعض وهي رابطة الإسلام وإصلاحها يكون بالوافق والتعاون والمواساة وترك
الأثرة والتفريق ، والایثار أيضاً ، والبين في أصل اللبنة يطلق على الاتصال
ولاقتراق وكل ما بين طرفين كما قال (لقد تقطع بينكم) ويعبر عن هذه الرابطة
بذات البين . وأمرنا في الكتاب والسنة بإصلاح ذات البين فهو واجب شرعا

وتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها ﴿ وأطيعوا الله واطيعوا رسوله ﴾
في الغنائم وفي كل أمر ونهي وقضاء وحكم ، والله تعالى يطاع لذاته لأنه رب العالمين
ومالك أمرهم ، والرسول يطاع في أمر الدين لأنه مبلغ له عن الله تعالى ومبين لوجيه
فيه بالتول والنقل والخطب وهذه الطاعة له تعبدية لا رأى لأحد فيها وتوقف عليها

البصاة في الآخرة والفوز بنواياها ، ويطاع في اجتهاده في أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة ولا سيما الحرب من حيث إنه الامام القائد العام ، فخالفته اخلال بالنظام العام وإفضاء إلى الفوضى التي لا تقوم معها الامة قائمة . فهذه الطاعة واجبة شرعا كالأولى إلا أنها معقولة المعنى ، فقد أمره الله تعالى في تنفيذ أحكامه وإدارته بمشاورة الامة كما تقدم في سورة آل عمران ، وأشرك معه في هذه الطاعة أولى الأمر كما تقدم في سورة النساء ، وسيأتي كيف راجعه بعضهم في هذه الغزوة المفصلة أحكامها في هذه السورة ورجع عن رأيه ﷺ إلى الرأي الذي ظهر صوابه ، ولكن الأمر الأخير لا بد أن يكون لهم كما شاورهم في غزوة أحد في الخروج من المدينة أو البقاء فيها . فلما انتهت المشاورة وعزم على تنفيذ رأى الجمهور راجعوه فلم يقبل مراجعة ، وقد بينا هذا مع حكمته في تفسير (وشاورهم في الأمر فاذا عزمتم فتوكل على الله) وترى في تلك السورة كيف كانت مخالفة الرماة له ﷺ سبباً في ظهور العدو على المسلمين ، فراجع تفسير (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) في ص ٢٢٤ الجزء الرابع

ولائمة المسلمين منهم من حق الطاعة في تنفيذ الشرع وإدارة الأمور العامة وقيادة الجند ما كان له ﷺ منه مقيداً بعدم معصية الله تعالى ، وبمشاورة أولى الأمر كما تقدم تفصيله في تفسير (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) الآية ثم قال تعالى ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى فامتثلوا الأوامر الثلاثة فان الإيمان يقتضى ذلك كله ، لأن الله تعالى أوجبه والمؤمن بالله غير المرتاب بوعده ووعيده يكون له سائق من نفسه إلى طاعته إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحياناً ثم ثورة شهوة أو سورة غضب ، ثم لا يلبث أن ينيء إلى أمر الله ويتوب اليه مما عرض له كما تقدم في تفسير (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) الخ ، ثم وصف الله المؤمنين بما يدل على هذا ويثبتته فقال :

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ هذه جملة مستنفدة لبيان حال المؤمنين الذين بين في شرطية الآية قبلها شأنهم من التقوى وإصلاح ذات الين في الامة وطاعة الله ، ورسوله على قاعدة أن الشكوة إذا أعيد ذكرها مرة تكون عين الأولى

أو بيان حال المؤمنين السكامل إلى الإيمان مطلقا ليعلم منه أن تلك الأمور الثلاثة هي بعض شأنهم ، وقد بين صفاتهم بصيغة الحصر التي يخاطب بها من يعلم ذلك أو ينزل منزلة العالم به الذي لا ينكره وهي « إنما » كما حققه إمام الفن الشيخ عبد القاهر وصفهم بخمس صفات

(الصفة الأولى) قوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال الراغب : الوجل استشمار الخوف . بمعنى ما يجعل القلب يشعر به بالفعل ، وغير غيره عنه بالفزع والخوف (وبابه فرح وتعب) وذلك أن الخوف توقع أمر مؤلم في المستقبل قد يصبح شعور الألم والفزع ، وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاده بعد آجله ، فالوجل والفزع أخص منه . وفي سورة الحجر من حوار إبراهيم عليه السلام مع ضيفه المنكرين (١٥ : ٥٢) قال إنا منكم وجلون ٥٣ قالوا لا توجل (الخ ، وفي سورة المؤمنين في صفة المؤمنين المشفقين من خشية ربهم (٢٣ : ٦١) والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون) فالوجل هنا مقترن بالعمل الصالح وهو البذل والعطاء وفي سورة الحج (٢٢ : ٣٤) وبشر الخبيثين ٣٥ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمين الصلاة وما رزقناهم ينفقون) وهي بمعنى آية الأنفال ، وليس للوجل ذكر في غير هذه الآيات ، ويتفق معنى الوجل فيها بأنه الفزع وشعور الخوف بآلام القلب ، وقد يكون هذا الخوف من العاقبة المجهولة ، وقد يكون من الإجلال والمهابة ، وقد روى عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، يا شهر بن حوشب ، أما تجد له تشريفة ؟ قلت بلى ، قالت فادع الله فإن الدعاء يستجاب عند ذلك . وعن ثابت البناني : قال قال فلان إني لأعلم متى يستجاب لي ، قالوا ومن أين لك ذلك ؟ قال : إذا أقشعر جلدى ، ووجل قلبي ، وفاضت عيني ، فذلك حين يستجاب لي . وعن عائشة (رض) قالت « ما الوجل في القلب إلا كضربة السعفة ، فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك » السعفة بالتحريك واحدة السعف وهو جريد النخل إذا احترق يسمع له نسيش ، شبهت به أم المؤمنين وأم الدرداء شعور الوجل بآلام القلب من ذكر الله فيخلق له

والمراد بذكر الله ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله أو لوعيده ووعده ،

ومحاسبته تعلقه وإدانتهم ، وغير ذلك من صفاته وأفعاله سمراء صحبه ذكر اللسان أم لا ، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبر ، وقد يقول المؤمن في صلاة التهجيد في الطلوة : « الله أكبر » مستحضراً لمعنى كبريائه عز وجل فيلتهفص ويقشعر جلده ، فن خص الذكر هنا بانوعيد عقل عن كل هذا وظن أن الوجيل لا يكون إلا من خوف العذاب ، وكأنه لم يدق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه وغير ذلك من معاني اسمائه وصفاته ، ولم يقرأ قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ولم يعلم أن من عباد الله من يخشع قلبه ويفض صمعه من ذكر أسماء الله في آخر سورة الحشر (٥٩ : ٢) لم أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشعاً متصدعاً من خشية الله . وتلك الآية مثال نفسياً للناس لعلمهم يشكرون ٢٢ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم (الخ ولا يجد مثل هذا الوجيل عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء . وإنما يأخذ مثل هذا من معاني القرآن من فهمه بظواهر بعض الألفاظ بدون شعور بما لها من التأثير في القلوب فيقابل بين هذه الآية وما في معناها وبين قوله تعالى في سورة الرعد (١٣ : ٢٩) الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فيظن أن بينهما تمازجاً فيحاول التفحص منه بحمل هذا على ذكر الوعد والآخرة على ذكر الوعيد ، ولا تعارض في الحقيقة ولا تنافي ففي كل من الوعد والوعيد وصفات السكينة وذكر آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق مطمئنان للقلوب بالإيمان بالله تعالى والثقة بما عنده من ، وغير ذلك مما يأتي بسطه في محله إن شاء الله تعالى . ولا ذكر يضرم سعة الوجيل في القلب كتلاوة كلام الرب عز وجل (٣٩ : ٢٢) الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تليين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فإله من هاد) (الصفة الثانية) قوله تعالى ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ أي إذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ زادتهم إيماناً أي يقينا في الإذعان وقوة في الاطمئنان ، وسعة في العرنان ، ونشاطا في الأعمال ، ويطلق الإيمان في عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه وعلى كل منهما والقرائن

تعين المراد ، وفيما رواه البخارى ومسلم فى كتاب الايمان من صحيحيهما شواهد صريحة فذلك ، ومن أهمها أحاديث أقل الايمان المنحى فى الآخرة وحديث «الايمان بضعة وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » ولهذا حل بعض الناس زيادة الايمان على زيادة العمل اللازم له ، وبعضهم على زيادة ما يتعلق به الايمان الذى فسره بالتصديق القطعى ، والحق أن الايمان القلبى نفسه يزيد وينقص أيضا . فان ابراهيم عليه السلام كان مؤمنا بإحياء الله للوفى لما دعاه أن يريه كيف يبعث فيها (قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليعلمن قلبى) فقام الظلمة فى الايمان بزيده على ما دونه من الايمان المطلق قوة وكالا ، ويروى عن على المرتضى كرم الله وجهه : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا . وهذا أقوى من الايمان بالبرهان وهو أقوى من إيمان التقليد الذى قال به الأكثرون إذا وافق الحق وكان يقينا ، والعلم التفصيلى فى الايمان أقوى وأكمل من العلم الاجمالى ، مثال ذلك أن الايمان بتوحيد الله تعالى لا يمكن إلا بعرفة أنواع الشرك الظاهر والباطن التى تنافيه أو تنافى كماله ومنها ما هو أخفى من ديبس الخلق ، وقته ورد فى الدعاء المأثور « اللهم إني أعوذ بك أن أؤثر بك شيئا وأنا أعلم ، وأستغفر لك لما لا أعلم » . ورواه ابن حبان والحاكم الترمذى فى تواتر الأصول وأبو يعلى وغيرهم من حديث أبى بكر (ض) وضعفه ابن حبان والبيهقى وحسنه غيرهما وكم من مدح لتوحيد الله ونطق بكلمة الاخلاص وهو يعبد غير الله بدعائه مع الله أو من دون الله و«الدعاء هو العبادة» رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم من حديث النعمان بن بشير مرفوعا ومثل آخر : من آمن بأمر الله تعالى علما محيطا بالملئومات ، وحكمة قائم بانظام الأرض والسموات ، ورحمة وسعت جميع الخلوقات ، وكان علمه بين إجماليا لوسائله أن يبين لك شواهد فى الخلق لمجز عنها — لا يوزن إيمانه بإيمان ذى العلم التفصيلى بسنن الله فى الكائنات ومعجائب صنعه فيها على النحو الذى جرى عليه العلامة المحقق ابن القيم فى كتابه تفصيل النشأتين والامام أبو حامد فى كتاب التفكير من الاحياء ، وقد اتسعت معارف البشر بهذه السنن والأسرار فى كل نوع من أنواع الخلوقات فعرفوا منها ما لم يكن يخطر على مشاهد لأحد من علماء

القرون الخالية ، ومن كلام العلماء في ذلك قول الواحدني عن عامة أهل العلم : إن من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد . وقال الكرخي إن نفس التصديق يقبل القوة ، وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الأمة . وضرب الفوز إلى مثلاً لتفاوت قوة الايمان وسائر أنواع العلم بمن يرى شمع إنسان في السدفة ثم يراه بعد وضوح الاسفار على بعد فلا يميز صفاته ثم يراه في نور الشمس بجانبه ، فهل يكون علمه به في كل هذه الأحوال واحداً ؟

وجملة القول : أن زيادة الايمان ثابتة بنص هذه الآية وآيات أخرى كقوله تعالى في سورة آل عمران في وصف الذين استجابوا لله والرسول إذ دعاهم إلى القتال بعد ما أصابهم القرح في غزوة أحد (٣ : ١٢٣) الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وفي معناه قوله تعالى في سورة الأحزاب (٣٣ : ٢٢) ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله . وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) وعطف التسليم على الايمان هنا يؤيد كون المراد به إيمان القلب لا العمل ، وفي معناه قوله تعالى في أول سورة الفتح (٤٨ : ٤) هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) فهو في إيمان القلب كما هو المتبادر . وأما آيتنا وأآخر التوبة (٩ : ١٢٥ و ١٢٦) وآية سورة المدثر (٧٤ : ٣١) فما يحتمل أن تكون زيادة الايمان فيها زيادة متعلقة بما نزل من القرآن على أن البخاري استدلل بآتي التوبة وأمثالها على زيادة الايمان في القلوب ، وعليه جمهور السلف . بل حكى الاجماع عليه الشافعي وأحمد وأبو عبيد كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره . فنال المعجب بعد هذا أن تنقل هفوة لبعض العلماء أنكروا فيها زيادة الايمان بالمعنى المصدري لشبهة نظرية ، ويحمل مذهباً قلده صاحبه فيه تقليداً ، وتؤول الآيات والاحاديث لأجله تأويلاً

(الصفة الثالثة) قوله تعالى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي يتوكلون على ربهم وحده ، لا يتوكلون على غيره ولا يفوضون أمورهم إلى سواه عز وجل كما أفاده تركيب الجملة . وعن ابن عباس قال : لا يرجون غيره . والتوكل أعلى مقامات التوحيد ، فإن من كان موقناً بأن ربه هو المدير لأُمُوره وأمور العالم كلها لا يمكن

أن يكل شيئاً منها إلى غيره ، وإن كان من المعلوم من الشرع والطبع والعقل بالضرورة أن الانسان كسباً اختصارياً كلفه الله العمل به وأن يؤمن بأنه يجازى على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وجب على الانسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما علمه من سنن الله تعالى في نظام الاسباب وارتباطها بالمسيبات معتقداً أن الاسباب ما يعقل منها بالانسان وما لا يعقل لم تكن أسباباً إلا بتسخير الله تعالى ، وإن ما بذله يستعملها فهو من فضل ربه الذي سخرها وجعلها أسباباً وعلمه ذلك . وأما ما لا يعرف له سبب يطلب به قائلون يتوكل فيه على الله وحده وإليه يتوجه وإياه يدعو فيما يطلبه منه ، وأما ترك الأسباب وتنكب سنن الله تعالى في الخلق ونسيه ذلك توكلًا فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التي أخبرنا بأنها لا تتبدل ولا تتحول . ومثله فيه كمثل من أمره ملكه أو ماله أن يعول في طعامه وشرابه وسائر حاجته عليه ولا يطلب من غيره شيئاً ، وكان ذلك الملك أو المالك قد أعد له ولأمثاله كل يوم مائة ل طعامهم وشرابهم فتنقطع هو وامتنع عن الاختلاف إلى المائدة مع أمثاله زاعماً أن هذا عصيان لأمر الملك في التعويل عليه وانتظر أن يرسل إليه طعاماً خاصاً — أي أنه يطلب من ربه أن يفعل سنته في خدمته لأجله — فما أعظم جهوه وغروره به ؟

وقد تقدم تحقيق معنى التوكل مع بسط القول فيه وكونه يستلزم الأخذ بالاسباب في تفسير (٣ : ١٦٠ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) من سورة آل عمران فیراجع فی ص ٢٠٧ - ٢١٤ وسيأتي التذكير ببعضه في الكلام على توكل النبي ﷺ من تفسير هذه السورة (الانفال)

(الصفة الرابعة) قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يقيمون الصلاة ﴾ تقدم في تفسير هذه الجملة في آل سورة البقرة وفي تفسير (واستمعينوا بالصبر والصلاة) منها ، وفي تفسير آيات أخرى في معناها ، ومملخصها ان إقامة الصلاة عبارة عن أدائها مقومة كاملة في صورتها وأركانها الظاهرة ، من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر ، وفي معناها وروحها الباطنة من خشوع وحضور في مناجاة الرحمن ، وتدبر وانعاط بتلاوة القرآن ، وتقدم أن

هذه الإقامة هي التي يستفيد صاحبها بها ما جعله الله تعالى ثمرة للصلاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وغير ذلك مما يراجع في مواضعه .

(الصفة الخامسة) قوله تعالى ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ أى وينفقون بعض ما رزقهم الله في وجوه البر من زكاة مفروضة لإقامة دولة الاسلام وغير ذلك من النفقات الواجبة والمندوبة للأقربين والمعوذين ومصالح الأمة . وتقدم تفسيرها في أول سورة البقرة وفي مواضع أخرى مع التنبيه إلى كثرة ما ورد في الكتاب العزيز من جعل الزكاة أو النفقة مقارنة للصلاة لأنهما العبادتان اللتان عليهما مدار الإصلاح الروحي والاجتماعي في الملة ، والتعبير بالاتفاق أعم من التعبير بالزكاة كما علمت .

﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات كلها هم دون سواهم ممن لم يتصف بها : المؤمنون إيماناً حقا أو حق الإيمان الذي لا نقص فيه . أو حق ذلك حقا أو حقيقته حقا ، ذلك بأن الإيمان حق الإيمان هو ما أعقب التصديق الاذعان في أثره من أعمال القلوب والجوارح وبذل المال في سبيل الله عز وجل . وقد جمعت الصفات التي وصفوا بها كل ذلك بحيث تقبعا سائر شعب الإيمان ، تقول العرب فلان شاعر حقا أو فارس حقا لمن نبغ في الشعر ولمن كملت فيه صفات الفروسية . روى الطبراني بسند ضعيف يؤثر للعبارة عن الحارث بن مالك الأنصاري (رض) أنه مر برسول الله (ص) فقال له « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقا . قال : انظر ماذا تقول فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظلمات نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : يا حارثة عرفت فالزم ثلاثاً » وروى عن الحسن أن رجلاً سأله « أمؤمن أنت ؟ قال الإيمان إيماناً فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا مؤمن وإن كنت تسألني عن قوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ) . فوالله لأدري أنا منهم أم لا » ثم بين تعالى جزاء هؤلاء المؤمنين المكلة فقال ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ الدرجات منازل الرفعة ومراقي السكرامة وكونها عند الرب تعالى .

وذكره مضافاً إلى ضميرهم تنبيه إلى عظم قدر هذه الدرجات وتكريم لأهلها ، فإن الله تعالى فضل بعض الناس ورفعهم على بعض درجة أو درجات في الدنيا وفي الآخرة وعند الرب عز وجل وهذا الأخير وإن كان يكون في الآخرة فإن وصفه بكونه عند الرب وبإضافة اسم الرب إلى أصحاب الدرجات يدل على مزيد رفعة واختصاص وإذا أردت أن تفقه معنى الدرجات في التفاضل بين الناس فتأمل قوله تعالى بعد بيان تساوي الرجال والنساء في الحقوق (وللرجال عليهن درجة) وهي درجة الولاية العامة والخاصة . وقوله تعالى في فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين (٤ : ٩٤) لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله بالحسن . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً) وهنا جمع بين الدرجة والدرجات فقيل : الدرجة تفضيلهم في الدنيا وقيل منزلتهم عند الله تعالى والدرجات منازلهم في الجنة . وفي معناه قوله تعالى في تفضيل الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله على سقاية الحاج من سورة التوبة (٩ : ٢٠) الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) الخ الآيتين بعدها . وقال تعالى في بيان التفاوت والبعيد بين متبعي رضوانه ومتبعي سخطه من سورة آل عمران (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) والظاهر أن العندية هنا عندية الحكم أو الجزاء ، لا المكانة لأنها محمولة على الفريقين . وقال تعالى في الرسل (٢ : ٢٥٣) تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات (الآية ، قالوا هذه لنبينا ﷺ ، وقال تعالى في إبراهيم عقب ذكر حاجته لقومه (٦ : ٨٤) وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) وقال في سياق قصة يوسف مع إخوته عقب ذكر أخذه لأخيه الشقيق منهم بوجه شرعي (١٢ : ٧٦) كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) .

وقال في درجات الدنيا وحدها وهي آخر آية من سورة الانعام (٦ : ١٦٧) وهو

الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلابوكم فيما آتاكم ،
 إن ربك سريع العقاب وأنه لغفور رحيم) وقال في درجات الدار الآخرة بعد بيان
 التفاضل في الرزق بين الكفار مريدى الدنيا وحدها والمؤمنين مريدى الآخرة
 (١٧ : ٢١) أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً
 وجملة القول : أن الله خلق البشر متفاضلين في الاستعداد والعقول والأعمال
 واقتضى ذلك بنظام سننه في خلقه تفضيل بعضهم على بعض درجات في الدنياء وفي
 الآخرة وفي المسكنة عند ربهم وهذه الأخيرة عليها الدرجات وأفضلها .

وقوله تعالى ﴿ ومغفرة ورزق كريم ﴾ معناه ولهم مغفرة من الله لدنوبهم الحقيقية
 التى سبقت وصولهم إلى درجة الكمال إن كانت كبيرة وما كان من قبيل العلم ، ولدتوبهم
 الإضافية التى يحاسبون بها أنفسهم بعد بلوغ الكمال كالغفلة عن ذكر الله حيناً ،
 وترك الأفضل إلى مادونه حيناً آخر ، وفوت بعض أعمال البر الممكنة أحياناً ، وأمثال
 ذلك مما يعبر عنه بحسنات الأبرار سيئات المقربين ، ورزق كريم في الجنة ، والكريم
 يصف به العرب كل شيء حسن في بابه لا يفتح فيه ولا شكوى منه .

(٥) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 لَكَرِهُونَ (٦) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى
 الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٧) وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا
 لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ
 أَنْ يَحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٨) لِيَحَقِّقَ الْحَقَّ
 وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

تقدم في تفسير قصة البقرة من سورتها أن سنة القرآن في ذكر القصص
 والوقائع مخالفة للمعهود في أساليب الكلام من سردها مرتبة كما وقعت ، وأن

سبب هذه المخالفة أنه لا يقص قصة ولا يسرد أخبار واقعة لأجل أن تكون تاريخاً محفوظاً ، وإنما يذكر ما يذكر من ذلك لأجل العبرة والموعظة ، وبيان الآيات والحكم الإلهية والأحكام العملية . بدأت قصة البقرة بأمر موسى لقومه بذبح بقرة وذكر في آخرها سبب ذلك خلافاً للترتيب المألوف من تقديم السبب على مسببه كتقديم العلة على معلولها والمقدمات على نتيجتها . ولكن أسلوب القرآن البديع أبلغ في بابه كما بسط هنالك وظهرنا بدأت قصة غزوة بدر الكبرى التي كانت أول مظهر لوعده الله تعالى بفسر رسوله والمؤمنين ، والأدالة لهم من أكابر مجرمي المشركين ، بذكر حكم الغنائم التي غنمها المسلمون منهم ... وإياها من براعة مطعم - مقروناً ببيان صفات المؤمنين الكاملين الذين وعدمهم الفاسق كـ وعد النبيين ، وهم الذين يقبلون حكم الله وقسمه رسوله في الغنائم وإياها من مقدمات للفرز في الحرب وغيرها - ثم قفى على ذلك بذكر أول القصة وهو خروج النبي ﷺ من بيته في المدينة وكراهة فريق من المؤمنين لخروجه ، خلافاً لما يقتضيه الإيمان من الأذعان لطاعته ، والرضا بما يفعله بأمر ربه ، وما يحكمه أو يأمر به ، كما علم من الشرط في الآية الأولى (إن كنتم مؤمنين) ولعل بيان هذا الشرط وما يليه من بيان صفات المؤمنين حق الإيمان هو أهم ما في هذه السورة على كثرة أحكامها وحكمها وفوائدها الروحية والاجتماعية والسياسية والحربية والمالية

قال تعالى ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لسكرهون ﴾

أى إن الانفال لله يحكم فيها بالحق ورسوله يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسرية ، وإن كره ذلك بعض المنافقين فيها ، والذين كانوا يرون أنهم أحق بها وأهلها ، فهي كخراج ربك إياك من بيتك بالحق لقاء إحدى الطائفتين من المشركين في الظاهر ، وكون تلك الطائفة هي المقاتلة في الواقع ، والحال أن كثيراً من المؤمنين لسكرهون لذلك لعدم استعدادهم للقتال ، أوله ولغيره من الأسباب التي تعلم مما يأتي . هذا ما أراه المتبادر من هذا التشبيه ، وقد راجعت بعض كتب التفسير فرأيت المفسرين فيها بضعة عشر وجهاً أكثرها متكافؤ بعضها قريب ولكن هذا أقرب وقد بسطه الامام أبو جعفر بن جرير الطبري باعتبار غاية وما كان من المصلحة فيه وهو حق في نفسه ولكن اللفظ لا يدل عليه ، وذكره الزمخشري مبنياً على قواعد الاعراب

ولا يظهر المعنى تمام الظهور في الآيات إلا بيذان ما وقع من ذلك وأجمعه رواية محمد بن إسحاق قال : حدثني محمد بن مسلم الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ، وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس - كل قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فياسقت من حديث بدر « قالوا - لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم وقال هذه عير قریش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكوهما فانتدب الناس خفف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حربا وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنان الحجاز من يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفا على أموال الناس حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم ابن عمرو التماري فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قریشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لما في أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران ، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قریش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قریش فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد يعني مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله ﷺ : أشيروا علي أيها الناس ، وإنا نريد الانصار ، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وذلك أنهم حين يابعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الانصار ترى عليها نصرته إلا ممن دمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن

يسير بهم إلى عدو من غير بلادهم . فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ : والله لكأنت تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله به ، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ^(١) ولعل الله بربك منا ماتقراً به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

﴿ يجادلونك في الحق بعد ماتبين ﴾ قال بعض العلماء إن هذه الآية نزلت في مجادلة المشركين للنبي ﷺ في أمر الدين والتوحيد . وهي بهم أليق ، ولكن ما قبلها وما بعدها في بيان حال المؤمنين وما كان من هفوات بعضهم التي محصم الله بعدها يعين كونها فيهم وفاقاً لأبي جعفر بن جرير فيه وفي رد ذلك القول ومشايعة ابن كثير له ، وذكر أن مجاهداً فسر الحق هنا بالقتال وكذا ابن اسحق وعلل الجدل فيه بقوله : كراهية للقاء المشركين وإنكاراً لمسير قریش حين ذكروا لهم ، وبيان ذلك أن المسلمين كانوا في حال ضعف فكان من حكمة الله تعالى أن وعدم الله أولاً إحدى طائفتي قریش تكون على الإيهام فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام لأنها كسب عظيم لامشقة في إحرازه لضعف حاميته ، فلما ظهر أنها فاتتهم وأن طائفة العير خرجت من مكة بكل ما كان عند قریش من قوة وقربت منهم وتعين عليهم قتالها إذ تبين أنها هي الطائفة التي وعدم الله تعالى إذ لم يبق غيرها ، صعب على بعضهم لقاءها على قلتهم وكثرتها ، وضعفهم وقوتها ، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وطفقوا يعتذرون للنبي ﷺ باعتذارات جدلية بأنهم لم يخرجوا إلا للعير ، لأنهم لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له ، كأنهم يحاولون إثبات أن مراد الله تعالى بإحدى الطائفتين العير ، بدليل عدم أمرهم بالاستعداد للقتال ،

ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدال فيه وجه مالا بأن يقال إن طائفة العير مراد الله تعالى فانها نجت وذهبت من طريق سيف البحر ولو كانت هي المرادة لما نجت ، ولا بأن يقال اننا لم نعد للقتال عدته فلا يمكننا طلب الطائفة الأخرى - فانه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعده الله تعالى فلم يبق جدالهم وجه إلا الجبن والخوف من القتال ، ولذلك قال ﴿ كَأَنَّمَا يَسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى كأنهم من فرط جزعهم ورعبهم يساقون إلى الموت سوفا لا مهرب منه لظهور أسبابه حتى كأنهم ينظرون إليه بأعينهم ، وهي ماذ كرنا من التفاوت بين حالهم وحال المشركين في العدد والعدد والخليل والزاد ، ولكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين الظفر بهم ، وهذا دليل قطعى لا يتخلف عند المؤمن الموقن ، ومثلك إلا أسباب عادية كثيرة التخلف ، (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) وهكذا أنجز الله وعده وكان الظفر التام للمؤمنين ، وقد بين تعالى ذلك كله بقوله :

﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ تولى الله تعالى إقامة الحجة عليهم بالحق فيما جادلوا فيه رسوله بالباطل ووجه الخطاب إليهم بعد أن كان الخطاب له ﷺ فقال واذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين - العير أو النفير - أنها لكم ، وهذا التعبير أكد في الوعد من مثل : وإذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم

لأن هذا إثبات بعد إثبات ، أثبات للشيء في نفسه ، وإثبات له في بدله ﴿ وتودون

أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أى وتحبون وتتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير تكون لكم ، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا ، والشوكة الحدة والقوة ، وأصلها واحدة الشوك شبهوا بها أسنة الرماح ، ثم أطلقوها تجوزاً على كل حديد من السلاح ، فقالوا شائك السلاح وشاكي السلاح . وإنما

عبر عنها بهذا التعبير للتعريض بكرهتهم للقتال ، وطمعهم في المال ، ﴿ ويريد

الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أى ويريد الله بوعده غير مأرودهم ، يريد أن يحق

الحق الذى أرادته بكلماته المنزلة على رسوله أى وعده لكم إحدى الطائفتين

مبهمة وبيانها له معينة مع ضمان النصر له ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ المعاندين له من مشركي مكة وأعدائهم باستئصال شأقتهم وبحق قوتهم ، فان دابر القوم آخرهم الذي يأتي في دبرهم ويكون من دبرائهم ، ولن يصل إليه الهلاك إلا بهلاك من قبله من الجيش ، وهكذا كان الظفر بيد فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة ، وما تخلل ذلك من نيلهم من المؤمنين في أحد وحنين فانما كان تربية على ذنوب لهم اقتروها كما قال تعالى في الأولى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أي هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) - إلى أن قال - ولنجح الله الذين آمنوا ويحق الكافرين) وقال في الثانية (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا - إلى قوله - ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الخ قال في الكشف : يعنى أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم والله عز وجل يريد لكم معالي الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين ، وشتان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلنتكم ، وأعزكم ، وأذلهم ، وحصل لكم ما لا تعارض أدناه العير وما فيها .

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ أى وعد بما وعد وأراد باحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق أى يقره ويثبتته لأنه الحق - وهو الإسلام - ويبطل الباطل أى يزيله ويمحقه - وهو الشرك - ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أولو الاعتداء والظفیان من المشركين . وإحقاق الحق وإبطال الباطل لا يكون باستيلائهم على العير بل بقتل أئمة الكفر والطاغوت من صناديد قریش المعاندين الذين خرجوا اليكم من مكة ليستأصلوكم . وقد علم مما فسرنا به الحق في الآيتين أنه لا تكرر فيه ، فالحق الأول هو القتال لطائفة النفير مع ضمان النصر للمؤمنين ، وبحق الكافرين ، والثاني هو الإسلام ، وهو المقصد الأول وسبيله له . وهذا أظهر مما قاله الزمخشري وابن المنير

(٩) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (١٠) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١١) إِذْ يَعْشِقُكُمْ الْفَعَّاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١٢) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٤) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ

روى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن عبد الله بن عباس (رض) قال حدثني عمر بن الخطاب (رض) قال « لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً ، ونظر إلى المشركين فاذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل نبي الله القبلة ثم مديده وجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض . فما زال يهتف بربه ما دأ يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر (رض) فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فلما كان يومئذ والنقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسروا سبعون » الخ

وأما البخاري فروى عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد . فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك ، فخرج وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدار) وروى سعيد بن منصور عن طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال « لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثروهم وإلى المسلمين فاستقلهم فرمى ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه فقال رسول الله ﷺ وهو في صلاته : اللهم لا تؤدع مني ، اللهم لا تأخذني ، اللهم لا تترني ^(١) اللهم أنشدك ما وعدتني » وروى ابن إسحاق في سيرته أنه ﷺ قال « اللهم هذه قریش أنت بخيلائها وفخرها تحاذك وتكذب رسولاك ، اللهم فدنصرک الذي وعدتني »

وقد استشكل مظهر من خوف النبي ﷺ مع وعد الله له بالنصر عاما وخصا ومن طائفة أبي بكر (رض) على خلاف ما كان ليلة الغار إذ كان النبي ﷺ آت مطمئنا متوكلا على ربه ، وكان أبو بكر خائفا وجلا كما يدل عليه قوله عز وجل (٩ : ٤٠) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْهَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّغْلَى وَكَلَّمَ اللَّهُ هِيَ الْعَلِيَّا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) قال الحافظ في الفتح قال الخطابي : لا يجوز أن يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحال ، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقتة على أصحابه وتقوية قلوبهم لأنه كان أول مشهد شهده وقبال في التوجه والدعاء والابتهاال لتسكن نفوسهم عند ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة فلما قال له أبو بكر ما قال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطائفة فلماذا عقب بقوله (سيهزم الجمع) انتهى ملخصاً

(١) هو من وتره يتره (من باب وعد) وله معان متقاربة منها جملته وترأيق قطع أهله أو أنصاره ومنها مبه بالآذى ومنها نقصه حقه وظلمه ومنه (وإن يتركم أعمالكم) أى لن ينقصكم من جزائها شيئا ، وقوله بعده « أنشدك ما وعدتني » من نشده ينشده من باب قتل ، ومعناه أستنجزك وعدك إياي بالنصر والغلب.

« وقال غيره : وكان النبي ﷺ في تلك الحالة في مقام الخوف وهو أكل حالات الصلاة ، وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ لأن وعد النصر لم يكن معيناً لتلك الواقعة وإنما كان مجحلاً . هذا الذي يظهر ، ومن من لا علم عنده ممن ينسب إلى الصوفية في هذا الموضع زللاً شديداً فلا يلتفت إليه وبما الخطابي أشار إليه . أما ما أورده الحافظ في الفتح فهو لم يطلع على أحسن منه عن سعة اطلاعه وأقول يصحح أن يكون من مقاصده ﷺ من الدعاء يومئذ تقوية قلوب أصحابه وهو ما يعبر عنه في عرف هذا العصر بالقوة المعنوية ولا خلاف بين العقلاء حتى اليوم في أنها أحد أسباب النصر والظفر ، ولكن لا يصحح أن يكون علم باستجابة الله له لما وجد أبو بكر في نفسه القوة والطاقة فبنته فعلمه ﷺ بربه بدت استجابته له أقوى وأعلى من أن يستنبطه استنباطاً من حال أبي بكر (رض)

وأما قول بعضهم : إن النبي ﷺ كان يومئذ في مقام الخوف فهو ظاهر ولكنه لم يبين معه سببه ولا كونه لا ينافي كمال توكله على ربه ، وكونه فيه أعلى وأكمل من صاحبه بدرجات لا يعلموها شيء ، وقد بينا ذلك بالتفصيل في تفسير (٣ : ١١٠) إن ينصرفكم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصرفكم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهي في سياق غزوة أحد^(١) ولعمري البحث مع زيادة فائدة فنقول : إنه ﷺ أعطى كل مقام حقه بحسب الجمال التي كان فيها ، فلما كان عند الخروج إلى الهجرة قد عمل مع صاحبه كل ما أمكنها من الأسباب لها وهو إعداد الزاد والراحلتين والدليل والاستحقاق في الغار لم يبق عليهما إلا التوكل على الله تعالى والثقة بمعونه وتحديد أعدائه ﷺ لسكال توكله آمناً مطمئناً بما أنزل الله عليه من السكينة وأيده به من أرواح الملائكة ، وأبو بكر (رض) لم يرتق إلى هذه الدرجة ، فكان خائفاً حزيناً محتاجاً إلى تسليمة الرسول ﷺ له

وأما يوم بدر فكان المقام فيه مقام الخوف لا مقام التوكل الخوض ، وذلك أن التوكل الشرعي بالاستسلام لعناية الرب تعالى وحده إنما يصح في كل حال بعد اتخاذ الأسباب المألومة من شرع الله ومن سننه في خلقه كما بيناد في تفسير قوله

تعالى (١٥٩:٣) فَعَفَ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (من ذلك السياق ، ومن المعلوم بالقطع أن أسباب النصر والغلب في الحرب لم تكن قائمة عند المسلمين في ذلك الوقت ، لامن الجهة المادية كالعدد والعدد والغذاء والعناد والحيل والإيل ، بل لم يكن من هذه الجهة إلا شيئاً ضعيفاً ، ولا من الجهة المعنوية لما تقدم من كراهة بعضهم للقتال وجدال النبي ﷺ فيه . لهذا خشى ﷺ أن يصيب أصحابه تهللكة على قديهم ، لتقصيرهم في بعض الأسباب المعنوية فوق التفسير غير الاختياري في الأسباب المادية ، وكان يدعو بأن لا يؤاخذهم الله تعالى بتفسير بعضهم في إقامة سنته عقاباً لهم كما عاقبهم بعد ذلك في غزوة أحد ذلك المقاب المشار إليه بقوله تعالى (١٦٥:١) أَوْ لِمَا أَصَابَكُمْ مِنْهُم مِّنْهُم مَّنْ يَمُوتُ فَمِنْهُمْ قَوْمٌ لَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِمْ قَوْلٌ مِّنْهُمْ أَقْبَلُ مِنْهُ أَوْ أَدْبَرُ مِنْهُ أَوْ يَسْتَفِئُونَ فِيهِمْ أَوْ يَسْتَفِئُونَ فِيهِمْ أَوْ يَسْتَفِئُونَ فِيهِمْ)

وأما أبو بكر (رض) فلم يكن يعلم من ذلك كل ما يعلمه الرسول ﷺ وقد رآه نزحاً خائفاً فكان عنه تسليته ﷺ وتذكيره بوعده ربه لشدة حبه له ، وفي الغار كان خائفاً ، سلبه ، ولكنه رآه مطمئناً فلم يحتج إلى تسليته بل كان ﷺ هو المسلي له لما رأى من خوفه أن يمرض له ألم أو أذى .

فالرسول ﷺ هو الذي أعطى كل مقام حقه : مقام التوكل الحض بعد استيفاء أسباب انقضاء أذى المشركين عند الهجرة ، ومقام الخوف على جماعة المؤمنين لما ذكرنا آتفاً من كراهة بعضهم للقتال ومحاذتهم له فيه بعد ما تبين لهم أنه الحق الذي يريده الله تعالى بوعده إياهم إحدى الطائفتين . أجل ، كان ﷺ يعلم أن شئون الاجتماع البشري كسائر أطوار العالم ، لله تعالى فيها سنن مطردة لا تتغير ولا تقبيل كما تكرر ذلك في السور المكية بوجه عام ، ثم ذكر بشأن القتال خاصة في الكلام على غزوة أحد من سورة آل عمران المكية (٣:١٧) قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا) ثم في سورة الأحزاب المدنية التي نزلت في غزوتها التي تسمى غزوة الخندق أيضاً . وكان ﷺ يعلم أن سنته تعالى في القتال كسائر سنته في أنها لا تبدل لها ولا تحويل من قبل نزول ما أشرنا إليه في هاتين السورتين المدنيتين لاثنين نزلتا بعد غزوة بدر ، فلذلك كان خوفه على المؤمنين عظيماً

فان قيل : كيف يصح هذا وقد وعده الله تعالى إحدى الطائفتين أنها تكون للمؤمنين، وكشف له عن مصارع صناديد المشركين ؟ فاذا كان قد جوز أن يكون وعده العام بالنصر له وللمؤمنين - وهو مكرر في السور المكية والمدنية، ووضح في بعضها بأنه من سننه في رسله والمؤمنين بهم - غير معين أن يكون في هذه الغزوة كما قال بعض العلماء، فلا يأتي مثل هذا الجواز في وعدم إحدى الطائفتين فيها ولا سيما بعد أن نجت طائفة المير، وانحصر الوعد في طائفة النفير، و بعد أن كشف تعالى له عن مصارع القوم ؟

قلنا: أما كشف مصارع القوم له فالظاهر المتعين أنه كان عقب دعائه واستغاثته ربه، ولذلك تمثل بعده بقوله تعالى في سورة القمر (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وزال خوفه وصار يعين أمكنة تلك المصارع. وأما الوعد فسيأتي فيه أنه كان في زمن الاستغاثة والاستجابة فإن كان قبله فأمثل ما يقال فيه وأقواه، ما قاله العلماء في كثير من وعود الكتاب والسنة المطلقة بالجزاء على بعض الأعمال بأنه مقيد بما تدل عليه النصوص الأخرى من الإيمان الصحيح واجتناب الكبائر، ومن ذلك أن الوعد المطلق بالنصر للرسول والمؤمنين في عدة آيات مقيد بما اشترط له في آيات أخرى، مثال الأول قوله تعالى في سورة المؤمن المكية (٤٠ : ٥١) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وقوله في سورة الروم المكية أيضاً (٣٠ : ٤٥) وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ومثال ذلك الثاني قوله تعالى في الآيات التي أذن الله فيها للمؤمنين بالقتال دفاعا عن أنفسهم أول مرة، وذلك في سورة الحج المدنية (٢٢ : ٤٠) ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وقوله بعد ذلك في سورة القتال أو عمد (٤٦ : ٨) يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقد سبق لنا بيان هذا المعنى في التفسير وإقامة الحججة به على المسلمين الجاهلين المغرورين والخرافيين الذين يتكلمون في أمورهم على الصلحاء الميتين في قضاء حوائجهم بخوارق العادات، وتبديل سنن الله في الأسباب والمسببات، حتى كأن قبورهم معامل للكرامات، يتهافت عليها الأفراد والجماعات، يدعون أصحابها خاشعين، مالا يدعو به الموحدون إلا الله رب العالمين، كما فعل رسول الله ﷺ وجماعة المؤمنين

وجملة القول في هذا المقام : أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم بأعلام القرآن أن النصر في القتال أسبابا حسية ومعنوية ، وأن الله تعالى فيها سننًا مطردة ، وأن وعد الله تعالى وآياته منها المطلق ومنها المقيد ، وأن المقيد يفسر المطلق ولا يعارضه ، ولا اختلاف ولا تعارض في كلام الله تعالى ، وكان يعلم مع ذلك أن الله تعالى عناية وتوفيقاً يمنحه من شاء من خلقه فينصر به الضعفاء على الأقوياء والفتنة القليلة على الفتنة الكثيرة بما لا ينقض به سنته ، وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسوله ، فلما عرف من ضعف المؤمنين وقتلهم ما عرف استغاث الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية ، ويحفهم بالعناية الربانية ، التي تكون بها القوة الروحانية ، أجدر بالنصر من القوة المادية ، وكان كل من علم بدعائه يؤمن عليه ، وكانوا يتأسون به في هذا الدعاء ، فيستغيثون ربهم كما استغاثه وقد أسند الله إليهم ذلك وأجابهم إلى ما سألوا بقوله :

﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ الآية ، قيل إن هذا بدل من قوله تعالى (وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) وظاهر هذا أن زمن الوعد والاستغاثة والاستجابة واحد على اتساع فيه وحينئذ يرتفع الاشكال الذي أجبنا عنه آنفاً من أصله ، وظاهر الروايات وكلام المفسرين أن الاستغاثة وقعت بعد الوعد وقد وجهوا ذلك بما ليس من موضوعنا ببياننا مع القطع بأنه عربي فصيح ، وقيل إنه متعلق بقوله (ليحق الحق ويبطل الباطل) أو محذوف علم من السياق ، ومن نظائره في آيات أخرى تقديره « اذكر » أو « اذكروا » إذ تستغيثون ربكم . والاستغاثة طلب العوث والانقاذ من الملوك

﴿ فاستجاب لكم أنى ممدكم ﴾ هو في قراءة الجمهور بفتح الهمزة أى بأتى ممدكم ،

وقرأها أبو عمرو بكسرها أى قائلا إني ممدكم أى ناصركم ومغيثكم ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾ قرأ الجمهور مردفين بكسر الدال من أردفه إذا أركبه وراه وذلك أن الذي يركب وراء غيره يركب على ردف الدابة غالباً وقرأها نافع ويعقوب بفتحها ، وفي كل منهما احتمالات لا يختلف بها المراد . أى يردفونكم أو يردف بعضهم بعضاً ويتبعه ، أو يردفهم ويتبعهم غيرهم . وتقدم في تفسير مثل

هذه الآية من سورة آل عمران وتفسير قوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم في النفي) من الأعراف معنى المدد والامداد في اللغة .

ثم بين تعالى أن هذا الامداد أمر روحاني يؤثر في القلوب فيزيد في قوتها المعنوية فقال ﴿ وما جعله الله إلا بشري لكم ﴾ أي وما جعل عز شأنه هذا الامداد إلا بشري لكم بأنه ينصركم كما وعدكم ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ أي تسكن بعد ذلك الزوال والخوف الذي عرض لكم في جملتكم فكان من مجادلتكم للرسول في أمر القتال ما كان . فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر ، وسيأتي في مقابلة هذا إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾

دون غيره من الملائكة أو غيرهم كالأسباب الحسية ، فهو عز وجل الفاعل للنصر كغيره مما تكن أسبابه المادية أو المعنوية إذ هو المسخر لها ونافهيك بما لا كسب للبشر فيه كفسخ الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ عزيز غالب على أمره ، حكيم لا يضع شيئاً في غير موضعه وفي التفسير المأثور عن ابن عباس رضي الله عنه أنه فسر « مردفين » بالمدد

وبقوله « ملك وراء ملك » وعن الشعبي قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين ، فكانوا أربعة آلاف وهم مدد المسلمين في غورهم . وعن قتادة متتابعين ، أمدم الله تعالى بألف ، ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف (وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم) قال يعني نزول الملائكة عليهم السلام (قال) وذكر لنا أن عمر (رض) قال : أما يوم بدر فلا يشك أن الملائكة عليهم السلام كانوا معنا ، وأما بعد ذلك فآله أعلم . وعن ابن زيد : مردفين قال : بعضهم على أثر بعض . وعن مجاهد في قوله (وما جعله إلا بشري) قال إنما جعلهم الله يستبشرونهم . هذا جملة ما جمعه في الدر المنثور من المأثور في الآيتين . وظاهر نص القرآن أن إنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم قائمته معنوية كما تقدم وأنهم لم يكونوا محاربين . وهناك روايات أخرى في أنهم قاتلوا وسيأتي بحثها . وما قاله الشعبي وقادة من العدد لا يقبل إلا بنص من الشارع قطعي الرواية والدلالة لأنه خبر عن الغيب

وقد خلطت بعض الروايات بين الملائكة المردفين الذين أيد الله بهم المؤمنين في غزوة بدر، وبين الملائكة المنزلين والمُسومين الذين ذكر خبرهم في سياق غزوة أحد من سورة آل عمران، وقد حققنا هذا المبحث في تفسير تلك الآيات فيها واعتمدنا في جله على تحقيق ابن جرير وذكرنا فيه ما جاء هنا، وجملة أن الله تعالى أمد المؤمنين يوم بدر بألف من الملائكة كان قوة معنوية لهم، وأما يوم أحد فقد حدثهم الرسول ﷺ بالامداد ووعدهم به وعدا معلقا على الصبر والتقوى ولكن انتفى الشرط فانتهى المشروط. ويراجع تفصيل ذلك في (ص ١١٠-١١٦ ج ٤ تفسير) فانه مفيد في تحقيق ما هنا. ولذلك لم نطل الكلام فيه

﴿إذ يفشيم النعاس أمنة منه﴾ هذهمنة أخرى من مننه تعالى على المؤمنين، التي كانت من أسباب ظهورهم على المشركين وهي إلقاءه تعالى النعاس عليهم حتى غشيتهم أي غلب عليهم فكان كالغاشية تستر الشيء وتغطيه تأمينا لهم من الخوف الذي كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم وبين عدوهم في العدد والعدد وغير ذلك. روى أبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن عبي كرم الله وجهه قال «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح» وذلك أن من غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف، كما أن الخائف لا ينام، ولكن قد ينعس، والنعاس فتور في الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم فهو يضعف الإدراك ولا يزيله كانه في زال كان نوماً ولذلك قال بعضهم هو أول النوم. وفي المصباح: وأول النوم النعاس وهو أن يحتاج الإنسان إلى النوم، ثم الوسن وهو ثقل النعاس، ثم الترنيق وهو مخالطة النعاس للعين، ثم الكرى والنمض، وهو أن يكون الإنسان بين النائم واليقظان، ثم العمق وهو النوم وأنت تسمع كلام النوم، ثم الهجود والهجوم اه. وهو يفيد أن الوسن والترنيق درجتان من درجات النعاس وأن الكرى مرتبة فاصلة بين النعاس والنوم، وفي المصباح أيضا أن النعاس اسم مصدر لنعس من باب قتل، والجهور على أنه من باب فتح فهو من البابين، وضعوا اسمه بوزن فعال بالضم، كأنهم عدوه من الأمراض كالسعال والقواق والكبداد وقال على (رض) أنهم ناموا يومئذ، وظاهر عبارته أنهم ناموا في الليل والمنتباد

ان نعاسهم كان في أثناء القتال ، وقد ذكرنا الخلاف في ذلك وتحقيق الحق فيه في تفسير قوله تعالى (٣ : ١٥٤) ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) وهو في سياق غزوة أحد . وقلت هنالك : قد تقدم في ملخص القصة ذكر هذا النعاس وأنه كان في أثناء القتال ، وإنما كان مانعا من الخوف لأنه ضرب من الدهول والغفلة عن الخطر ، ولكن روى أن السيوف كانت تسقط من أيديهم واختار الأستاذ الامام أنه كان بعد القتال الخ فيحسن مراجعته فقيه الكلام على النعاس يوم بدر أيضا وهو في (ص ١٨٥ ، ١٨٦ ج ٤ تفسير)

قرأ الأكثرون (يفشيكم) بالتشديد من التفتيشية وهو إما للتدرج وإما للمبالغة في التغطية ، وقرأه نافع بالتخفيف من الاغشاء ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو (يفشاكم) من الثلاثي ورفع النعاس على أنه فاعله ، وهذا لا يخالف القراءتين قبله ، بل هو كالمطاوع لهما ، ومعنى الثلاثة أن الله تعالى جعل النعاس يفشاكم ففشيكم ، وأما صيغ الفعل ودلالة قراءة التشديد على التدرج أو المبالغة دون قراءة التخفيف فيحمل اختلافهما على اختلاف حال من غشيهم النعاس ، فهو لا يكون عادة إلا بالتدرج ويكون أشد على بعض الناس من بعض ، وقد ذكرنا بحث صيغة (غ . ش . ي) في اللغة في تفسير سورة الأعراف .

﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويزهبن عنكم الشيطان ، ولا يربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام ﴾ وهذهمنة ثالثة منه عز وجل على المؤمنين كان لها شأن عظيم في انتصارهم على المشركين ، روى ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جرير عن ابن عباس (رض) أن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء فظمى المسلمون وصلوا مجنبيين محدثين ، وكان بينهم رمال قالق الشيطان في قلوبهم الحزن ، وقال أنزعون أن فيكم نبيا وانكم أولياء الله وتصلون مجنبيين محدثين ؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم (أي على الدهاس أو الرمل اللين لتلبده بالمطر) وذهبت وسوسته . هذا أثبت وأوضح وأبسط ماورد في المأثور عن هذا المطر في بدر . وعن مجاهد أنه كان قبل النعاس خلافا لظاهر الترتيب في الآية والواو لاتوجيه .

ولولا هذا المطر لما أمكن المسلمين القتال لأنهم كانوا رجلة ليس فيهم إلا فارس واحد هو القداد كما تقدم ، وكانت الأرض دهاسا تسيخ فيها الأقدام ولا تثبت عليها . قال المحقق ابن القيم في الهدى النبوى : وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرا واحداً فكان على المشركين وإبلا شديداً منهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلا طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض وصلب الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهد به المنزل ، وربط على قلوبهم . فسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض ، ثم غوروا ماعداها من المياه ، ونزل رسول الله وأصحابه على الحياض وبني رسول الله عريش يكون فيها على تل مشرف على المعركة ، ومشى في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ان شاء الله تعالى » فما تعدى أحد منهم موضع إشارته اهـ

وقد ذكر ابن هشام مسألة المطر بنحو مما قال ابن القيم ، ثم قال : قال ابن اسحاق : فحدثت عن رجال من بنى سلمة أنهم ذكروا ان الحباب بن المنذر ابن الجوح قال « يا رسول الله أرايت هذا المنزل أمترلا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الحرب والرأى والمكيدة . » قال يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى أدنى ماء من القوم فنزلته ثم غور ماوراءه من القلب - بضمين جمع قليب ، وهى البئر غير المطوية أى غير المبنية بالحجارة - ثم بنى عليه حوضاً فمأؤه ماء ثم تقابل القوم فتشرب ولا يشربون . فقال رسول الله : لقد أشرت بالرأى وذكر أنهم فعلوا ذلك » ذكر تعالى لذلك المنظر أربع منافع (الأولى) تطهيرهم به أى تطهيراً حسياً بالنظافة التى تشرح الصدر وتنشط الأعضاء فى كل عمل - وشرعياً بالنفس من الجنبابة والوضوء من الحدث الأصغر (الثانية) اذهاب رجس الشيطان عنهم . والرجز والرجس والركس كلها بمعنى الشئ المستقدر حساً أو معنى والمراد هنا وسوسته كما تقدم فى المأثور (الثالثة) الربط على القلوب ، ويعبر به عن تثبيتها وتوطئتها على الصبر ، كما قال تعالى (٢٨ : ٩) وأصبح فؤاد أم موسى فارحاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا

على قلبها . وتأثير المطر في القلوب تفسره المنفعة (الرابعة) وهو تثبيت الأقدام به فان من كان يعلم أنه يقاتل في أرض تسوخ فيها قدمه كلما تحرك وهو قد يقاتل فارسا لا راجلا لا يكون إلا وجلا مضطرب القلب .

﴿ إذ يوحى ربك الى الملائكة أتي معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ الظرف هنا غير يدل من « إذ » في الآيات التي قبله ولا متعلق بما تعلقت به بل هو متعلق بثبتت والمعنى أنه ثبتت الأقدام بالمطر في وقت الكفاح الذي يوحى أربك فيه إلى الملائكة أمراً لهم أن يثبتوا به الأنفس بلا يستهم لها واتصلهم بها وإلهامها تذكر وعد الله لرسوله وكونه لا يخلف الميعاد ، والمعنى في قوله (إني معكم) معية الإعانة كقوله (إن الله مع الصابرين)

﴿ سألتني في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ الرعب بوزن قفل اسم مصدر من رعبه (وتضم عينه) وبه قرأ ابن عامر والكسائي ، ومعناه الخوف الذي يعلأ القلب . ولما فيه من معنى الملء يقال رعبت الحوض أو الاناء أي ملأته ، ورعب السيل الوادى . وقيل أصل معناه القطع إذ يقال رعبت السنام ورعبته ترعبيا إذا قطعتة طولا ، وفسره الراغب بما يجمع بين المعنيين فقال : الرعب الانقطاع من امتلاء الخوف اه . ويقال : رعبته (من باب فتح) وأرعبته ، وأبلغ منه تعبير التنزيل بإلقاء الرعب وبقذف بالرعب في القلب لما فيه من الإشعار بأنه يصب في القلوب دفعة واحدة ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ أي فاضربوا الهام وأفلقوا الرؤوس — أو اضربوا على الأعناق — وقطعوا الأيدي ذات البنان التي هي أداة التصرف في الضرب وغيره ، وهو متعين في حال هجوم الفارس من الكفار على الراجل من المسلمين ، فاذا لم يسبق هذا الى قطع يده قطع ذاك رأسه . والبنان جمع بنانة وهو أطراف الأصابع

وفي تفسير ابن كثير عن بعض المغازي أن النبي ﷺ جعل يمر بين القتلى ببدر — أي بعد انتهاء المعركة — ويقول « نفلق هاما » فيتم البيت أبو بكر (رض) وهو نفلق هاما من رجال أعزة علينا ، وهم كانوا أعق وأظلاما

وهو يدل على أله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من الضرورة التي اضطرتهم الى قتل صناديد قومه . واسم التفضيل في « أعق وأظلم » هنا على غير نابه مراعاة للظاهر

فان المشركين وحدهم هم الذين عقوه ﷺ وظلموه هو ومن آمن به حتى أخرجهم من وطنهم بغيا وعدوانا ثم تبعوهم إلى دار هجرتهم يقاتلونهم فيها ، وروى أنه أوصى بنصر من بنى هاشم آل خرجوا مع المشركين كرها أن لا يقتلوا ، كان منهم عمه العباس (رض) ولم يكن أسلم

مقتضى السياق أن وحى الله للملائكة قد تم بأمره إياهم بتثبيت المؤمنين كما يدل عليه الحصر في قوله عن امداد الملائكة (وما جعله الله إلا بشرى) الخ وقوله تعالى (سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب) الخ بدء كلام خطيب به النبي ﷺ والمؤمنون تمة للبشرى ، فيكون الأمر بالضرب موجها إلى المؤمنين قطعاً ، وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر تبعاً لما قبله من الآيات ، وقيل ان هذا مما أوحى إلى الملائكة ، وتأوله هؤلاء بأنه تعالى أمرهم بأن ياتوا هذا المعنى في قلوب المؤمنين بالالهام كما كان الشيطان يخوفهم ويلقى في قلوبهم ضمه بلوشواس . ولا يرد على الأول ما قيل من أنه لا يصح الا إذا كان الخطاب قد وجه إلى المؤمنين قبل القتال والسورة قد نزلت بعده لأن نزول السورة بنظمها وترتيبها بعده لا ينافي حصول معانيها قبله وفي أثباته ، فان البشارة بالامداد بالملائكة وما وليه قد حصل قبل القتال ، واخبر به النبي ﷺ اصحابه ، ثم ذكرهم الله تعالى به بانزال السورة برمتها تذكيراً بمننه ، ولولا هذا لم تكن للبشارة تلك الفائدة ، والخطاب في السياق كله موجه إلى المؤمنين وإنما ذكر فيها وحيه تعالى للملائكة بما ذكر عرضاً . وقد غفل عن هذا المعنى الألوسى تبعاً لغيره وادعى ان الآية ظاهرة في قتال الملائكة ، وقد وردت روايات ضعيفة تدل على قتال الملائكة لم يعيا الإمام ابن جرير بشيء منها ولم يجعلها حقيقة أن ذكره ولو اترجى غير ما عليها وما أدري أين يضع بعض العلماء عقولهم عندما يغترون ببعض الظواهر وبعض الروايات الغريبة التي يردها العقل ، ولا يقبها ماله قيمة من النقل فاذا كان تأييد الله للمؤمنين بالتأييدات الروحانية التي تضاعف القوة المعنوية ، وتسهل لهم الأسباب الحسية كاتزال المطر وما كان له من الفوائد لم يكن كافياً لنصره إياهم على المشركين بقتل سبعين وأسر سبعين حتى كان ألف — وقيل آلاف — من

الملائكة يقاتلونهم معهم فيقاتلون منهم الهام ، ويقطعون من أيديهم كل بنان ، فأى مزية لأهل بدر فضلوا بها على سائر المؤمنين من غزوا بعدهم وأذلوا المشركين وقتلوا منهم الألوف ؟ وبماذا استحقوا قول الرسول ﷺ (رض) «وما يدريك لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ » رواه البخارى ومسلم وغيرهما . وفى كتب السير وصف المعركة علم منه القاتلون والأسرون لأشد المشركين بأساً - فهل تعارض هذه البيئات العقلية والعقلية بروايات لم يرها شيخ المفسرين ابن جرير حرية بأن تنقل . ولم يذكر ابن كثير منها الا قول الربيع بن أنس «كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمرة الذار قد أحرق به » ومن أين جاء الربيع بهذه الدعوى ؟ ومن ذا الذى روى من القتل بهذه الصفة ؟ ولم عدد من قتل الملائكة من السبعين وعدد من قتل أهل بدر غير من سموا ويقالوا قتلهم فلان وفلان ؟ كفانا الله شر هذه الروايات الباطلة التى شوهدت التفسير وقلبت الحقائق حتى أنها خالفت نص القرآن نفسه ، فالحق تعالى يقول فى إمداد الملائكة (وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) وهذه الروايات تقول بل جعلها مقاتلة ، وان هؤلاء السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم الا باجتماع الف أو ألوف من الملائكة عليهم مع المسلمين الذين خصهم الله بما ذكر من أسباب النصر المتعددة !

ألا ان فى هذا من شأن تعظيم المشركين ورفع شأنهم وتكبير شجاعتهم وتضمير شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم مالا يصدر عن عاقل الا وقد سلب عقله لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ولم يرفع منها الا حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الآلوسى وغيره بغير سند وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيراً ، فرواياته عنها حتى فى الصحيح مرسله وقد روى عن غير الصحابة حتى عن كتب الاحبار وأمثاله

﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أى ذلك الذى ذكره كله من تأييده تعالى المؤمنين وخذلانه للمشركين بسبب انهم شاقوا الله ورسوله أى عادوهما فكان

كل منهما في شق غير الذي فيه الآخرة فالله هو الحق والداعي إلى الحق ورسوله هو المبلغ عنه الحق ، والمشركون على الباطل وما يترتب عليه من الشرور والخرافات ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ أي فإن عقاب الله شديد ، وأحق الناس به المشاققون له بإيثار الشرك وعبادة الطاغوت على توحيدة وعبادته ، وبالاغتناء على أوليائه أولاً بمحاولة ردّهم عن دينهم بالقوة والقهر وإخراجهم من ديارهم ثم اتّباعهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه .

﴿ ذلكم فذوقوه ﴾ الخطاب للمشركين المنكسرين في غزوة بدر أي لمن بقى منهم من الأسرى والمهزومين على طريق الالتفات عن الغيبة في قوله تعالى قبله (بأنهم شاقوا الله ورسوله) والمعنى الأمر ذلكم أي أن الأمر المبين آنفاً وهو أن الله تعالى شديد العقاب لمن يشاققه ورسوله — فذوقوا هذا العقاب الشديد وهو الانكسار والانهزام مع الخزي والذل أمام فئة قليلة العدد والعدد من المسلمين ﴿ وإن للكافرين عذاب النار ﴾ هذا عطف على ما قبله أي والأمر المقرر مع هذا العقاب الديني أن للكافرين عذاب النار في الآخرة ، فمن أصرّ منكم على كفره عذب هنالك فيها وهو شر العذابين وأدومهما ، وفي الجمع بين عذاب الدنيا والآخرة للكفار آيات متفرقة في عدة سور .

(١٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ (١٦) وَمَنْ يُولُوهُمْ يُؤْمِدْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ قَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٧) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨) ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٩) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

نبدأ بتفسير الألفاظ الغريبة في الآيات فنقول (الزحف) مصدر زحف إذا مشى على بطنه كالحية ، أو دب على مقلعه كالصبي ، أو على ركبتيه ، قال امرؤ القيس : فأقبلت زحفا على الركبة . ين ، فثوب لبست وثوب أجر والمشى بثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو كزحف الدباب (صغار الجراد قبل طيرانها) قال في الأساس : وزحف البعير وأزحف : أعيا حتى جرد فرسه . وزحف الشيء جره جرا ضعيفا ، وزحف العسكر إلى العدو : مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم ، ولقوم زحفا ، وتزاحف القوم وزاحفتهم ، وأزحف لنا بنو فلان صاروا زحفا لقتالنا . اهـ ملخصا والزحف الجيش . ويجمع على زحوف لخروجه عن معنى المصدرية (والأدبار) جمع دبر (بضمين) وهو الخلف ومقابل القبل بوزنه وهو القدم ، ولذلك يكنى بهما عن السوأيتين ، وتولية الدبر والأدبار عبارة عن الهزيمة لأن المنهزم يجعل خصمه متوليا ومتوجها إلى دبره ومؤخره ، وذلك أعون له على قتله إذا أدركه (والمنحرف) للقتال أو غيره هو المنحرف عن جانب إلى آخر ، وأصله من الحرف وهو الطرف ، وصيغة التفعيل تعطيه معنى التكلف أو معاناة الفعل المرة بعد المرة أو بالتدرج ، وفي معناه (المتحيز) وهو المنتقل من حيز إلى آخر ، والحيز المسكان ، ومادته الواو ، فالحوز المكان يبني حوله حائط ، قال في الأساس : انحاز عن القوم : اعتزلهم ، وانحاز إليهم وتحيز انضم . وذكر جملة الآية (والفتنة) الطائفة من الناس (والمأوى) الملجأ الذي يأوي إليه الانسان وينضم (موهنا) الشيء مضعفا ، اسم فاعل من أوهنه أى أضعفه ، ومثله وهنه وهنا ووهنه توهينا . و (الكيد) التدبير الذي يقصد به غير ظاهره فتسوء غايته المكيد به كما تقدم في تفسير الآية ١٨٣ من سورة الاعراف . و «الاستفتاح» طلب الفتح والفصل في الأمر ، كالنصر في الحرب .

والمعنى * يا أيها الذين آمنوا إذا قاتلتمو الذين كفروا زحفا * أى إذا لقيتموهم حال كونهم زاحفين زحفا لقتالكم كما كانت الحال في غزوة بدر فان الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فتقوم في بدر * فلا تولوهم الأدبار *

أى فلا تولوهم ظهوركم وأنقيتكم منهزمين منهم ، وإن كانوا أكثر منكم عدداً وعدداً ، وإذا كان التزاحف من الفريقين أو كان الزحف من المؤمنين فتحريم الفرار والهزيمة أولى ولفظ «لقيتموهم زحفاً» يصلح الاحوال الثلاثة ورجح الأول هنا بقرينة الحال التى نزلت فيها الآية وكون النهى عن التولى والفرار إنما يلحق بالزحوف عليه لأنه مظنة له ، ويليه ما إذا كان التزاحف من الفريقين ، وأما الزحف المهاجم فليس مظنة للتولى والانهمزام فيبدأ بالنهى عنه وهو منه أقيح * ومن يؤلم يومئذ دبره * عبر بلفظ تولية الدبر فى وعيد كل فرد كما عبر به فى نهى الجماعة لتأكيد حرمة جريرة الفرار من الزحف وكون الفرد فيها كالجماعة وآثر هذا اللفظ مفرداً وجمعاً على أفظ الظهور والظاهر أو القفا والأقفية زيادة فى تشنيعها لأنه لفظ يكفى به عن السوأة أى وكل من يؤلم يوم إذ تلقونهم دبره * إلا متحرفاً للقتال * أى إلا متحرفاً لمكان من أمكنة القتال رآه أحوج إلى القتال فيه - أو متحرفاً لضرب من ضروبه رآه أبلغ فى النكابة بالعدو كان يوم خصمه أنه منهزم منه ليفريه باتباعه فينفرد عن أشياعه فيكرّ عليه فيقتله * أو متحيزاً إلى فئة * أى متنفلاً إلى فئة من المؤمنين فى حيز غير الذى كان فيه لينصرف على عدو تكاثر جمعه عليهم ، فصاروا أحوج إليه من كان فى حيزهم * فقد باء بغضب من الله * أى فقد رجع متلبساً بغضب عظيم من الله عليه * وما أواه جهنم وبئس المصير * وما أواه الذى يلجأ إليه فى الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير جهنم . كأن المنهزم أراد أن يأوى إلى مكان يأمن فيه من الهلاك فموجب على ذلك بجعل عاقبته التى يصير إليها دار الهلاك والعذاب الدائم ، أى جوزى بضد غرضه من معصية الفرار ، وقد تكررت التنزيل التعبير عن جهنم والنار بالماوى وهو إما من قبيل ما هنا وإما لاتهمك المحض ، فانك إذا راجعت استعمال هذا الحرف فى غير هذا المقام من التنزيل تجده لا يذكر إلا فى مقام النجاة من خوف أو شدة كقوله تعالى (إذ أوى الفتية إلى الكهف) وقوله (أو أوى إلى ركن شديد) وقوله (سآوى إلى جبل يعصمى من الماء) وقوله (والذين آووا ونصروا) الخ والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصى وقد جاء النصريح

بذلك في أحاديث أصحها عن أبي هريرة مرفوعاً عند الشيخين «اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات والمؤمنات» وقد قيد بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يريدون على ضعف المؤمنين، وعند بعضهم الآية منسوخة بقوله تعالى من هذه السورة (٦٦) الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً (الآية وسنتأني . وهذا ظاهر على قول من يسمى التخصيص نسخاً كالمقدمين . قال الشافعي رحمه الله تعالى : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة . وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ولا يستوجبون السخط عندى من الله لوولوا عنهم على غير تحرف للقتال أو التحيز إلى فئة ، وروى هو وابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : من فر من ثلاثة فلم يفر، ومن فر اثنين فقد فر وقد روى عن عمر وابنه وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي بصرة . وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبي حبيب والضحاك أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية خاص بيوم بدر - قيل إنه بناء على أن قوله تعالى (يومئذ) يراد به يوم بدر ، ولكن هذا خلاف قاعدة العبرة بمعوم واللفظ لا بخصوص السبب ، ويؤيده نزول الآية بعد انتهاء الغزوة فإنه ليس فيها ذكر «يوم بدر» وإنما المراد بتكوين يومئذ ما فهم من أول الآية أى يوم لقائهم زحفاً كما تقدم فاليوم فيه بمعنى الوقت . وإنما قد يتجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال - خلافاً للجمهور - مع ما لغزوة بدر من الخصائص ككونها أول غزوة في الإسلام . لو انهزم فيها المسلمون والنبي ﷺ فيهم لكانت الفتنة كبيرة، وتأينيد المسلمين فيها . الملائكة يثبتونهم، ووعده تعالى بنصرهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم - فإذا نظرنا إلى مجموع الخصائص وقرينة الحال في النهي اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذى في الآية خاصاً بها ، أضف إلى ذلك أن الله تعالى امتحن الصحابة (رض) بالتولى والادبار في القتال مرتين مع وجوده ﷺ معهم : يوم أحد، وفيه يقول الله تعالى (٣: ١٥٥) إن الذين تولوا منكم يوم التقي الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض

ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلِيم) و يوم حنين وفيه يقول الله تعالى (٢٥:٩) لقد نصركم الله في مواطن كثيرة و يوم حنين إذ أعجبتكم كثيرا فلو أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين (الخ وهذا لا ينافي كون التولي حراما ومن المكابرة ، ولا يقتضي أن يكون كل تول لغير السبيين المستثنين في آية الانفال نبوء صاحبه بغضب عظيم من الله و أهواء جهنم و بئس المصير ، بل قد يكون دون ذلك و يتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة و بالنهاي عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها كما تقدم في سورة البقرة و سيأتي تفصيلا قريبا

وقد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال « كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فخاص الناس حيصة ^(١) وكنت فيمن حاص : فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف و بؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة قبضنا ، ثم قلنا لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ﷺ فإن كان لنا توبة وإلا ذهبن . فأتيناه قبل صلاة الغداة ^(٢) فخرج فقال : من الفرارون ؟ . فقلنا نحن الفرارون . قال : بل أنتم الكارون ^(٣) أنا فقتكم وفئة المسلمين . قال : فأتيناه حتى قبلنا يده « ولفظ أبي داود » قلنا ندخل المدينة فقتبنا فيها لنذهب ولا يرانا أحد ، فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبن ، فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا نحن الفرارون الخ » تأول بعضهم هذا الحديث بتوسع في معنى التحيز إلى فئة لا يبقى معه لا وعيد معني ولا لغة حكم ، وقد قال الترمذي فيه : حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد أقول : وهو مختلف فيه ، ضعفه الكثيرون . قال ابن حبان كان صدوقا إلا أنه لما كبر سوء حفظه وتغير فوقعت المناكير في حديثه فمن سمع منه قبل التغيير فسماعه صحيح ، وجملة القول أن هذا الحديث لا وزن له في هذه المسألة لا متنا ولا سنداً ، وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع في ميزان هذه المسألة

وأما قوله ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ فهو وصل للنهي عن التولى بما هو حجة على جدارتهم بالانتهاء ، فان كانت الآية التي قبله قد نزلت بعد انتهاء القتال في غزوة بدر كسائر السورة ، كما عليه الجمهور فوجه الوصل بالفاء ظاهر جلي ، كأنه يقول يا أيها المؤمنون لا تولوا الكفار ظهوركم في القتال أبدا . فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم ينصر الله تعالى ، فيها أنتم أولاء . قد انتصرت عليهم على قلة عددكم وعددكم وكثرتهم واستعدادهم ، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى لكم ، وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذريع بحض قوتكم واستعدادكم المادي ولكن الله قتلهم بأيديكم بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملاستها لأرواحكم ، وبالقائه الرعب في قلوبهم ، فهو معنى قوله عز وجل (٩ : ٤١) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية ، والمؤمن أجدر بالصبر الذي هو الركن الأعظم للنصر من الكافر ، لأنه أقل حرصاً على متاع الدنيا ، وأعظم رجاء بالله والدار الآخرة كما قال تعالى (ولا تمهتوا في ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) وقال حكاية لرد المؤمنين بهذا الرجاء ، على الخائفين من كثرة الأعداء (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

ثم التفت عن خطاب المؤمنين المقاتلين بأيديهم ، والمجندلين لصناديد المشركين يسبوقهم إلى خطاب قائدهم وهو الرسول ﷺ المؤيد منه تعالى بالآيات ومنها أنه رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب قائلاً « شاعت الوجوه » فأعقبت زميته هزيمتهم ، وروى عن أبي جعفر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القورظي بالعمري : وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما قال في استغاثته يوم بدر « يارب إن تهلك هذه العصابة فلن أعبد في الأرض أبداً » قال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم . ففعل فقام أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخره وفه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين » وروى السدي أنه ﷺ طلب من علي أن يعطيه حصبا من الأرض فتناوله حصبا عليه تراب فرماه به الخ . وعن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة أيضا أن الآية في رميه ﷺ في فاذلم تكن رواية من هذه الروايات وصلت إلى دزجة الصحيح فجاء بها

مع القرينة حجة على ذلك . وروى مثل هذه الرمية في غزوة حنين فحمل الآية بعضهم على ذلك وهو شاذ وحملها بعضهم على رميه ﷺ لامية بن خلف بالحرية يوم أحد وهو مقنع بالحديد فقتله وهو شاذ أيضاً فالآية بل السورة نزلت في غزوة بدر . والمعنى **وما رميت إذ رميت** الخ رميت أيها الرسول أحداً من أولئك المشركين في الوقت الذي رميت فيه تلك القبضة من التراب باللقائها في الهواء فأصابت وجوههم فان ما أوثقته كأمثالك من البشر من استطاعة على الرمي لا يبلغ هذا التأثير الذي هو فوق الأسباب الممنوحة لهم **ولكن الله رمى** وجوههم كلهم بما أوصل التراب الذي ألقيته في الهواء إليها مع قلته ، أو بعد تكثيره بمحض قدرته ، وحذف مفعول الرمي للدلالة على عمومته في كل من الاثبات والنفي ، كما قدرنا فيهما وفاقا لما تقرّر في علم المعاني - وقد علم من هذا التفسير المتبادر من اللفظ بغير تكلف وجه الفرق بين قتل المؤمنين للكفار الذي هو فعل من أفعالهم المقدورة لهم بحسب سنن الله في الأسباب الدنيوية ، وبين رمي النبي ﷺ بإمام بالتراب الذي ليس بسبب لشكاية أعينهم وشوّهة وجوههم لقلته وبعدهم عن راميهِ وكونهم غير مستقبلين كلهم له ، ولأجل هذا الفرق ذكر مفعول القتل مثبتاً ومنفياً - وهو ضمير المشركين - فنفي القتل المحسوس مطلقاً وأثبت المفعول مطلقاً لعدم تعارضهما فالمراد من كل منهما ظاهر بغير شبهة ، ولو أثبت لهم القتل مع نفيه عنهم بأن قال : إذ قتلتموهم - لكان تناقضاً ظاهراً يخفى وجه جعل المثبت منه غير المنفي . وقتلهم لم مشاهد لا يحتاج إلى إثبات من حيث كان سبباً ناقصاً ، وإنما الحاجة إلى بيان نقصه وعدم استقلاله بالسببية ، ثم بيان ما لولاء لم يكن وهو إغاثة الله ونصره .

وأما رمي النبي ﷺ لوجوه القوم فلم يكن سبباً عادياً لاصابتهم وهزيمتهم لا مشاهداً كضرب أصحابه لأعناق المشركين ، ولا غير مشاهد ، والجمع بين نفيه وإثباته لا يوهم التناقض للعالم بعدم السببية . ولم يذكر مفعول الرمي بأن يقال « وما رميت وجوههم » إذ لا شبهة هنا في عدم استطاعة النبي ﷺ لهذا استقلالاً بكسبه العادى ، وأما هنالك فالظاهر أن القتل من كسبهم الاستقلالى . الحقيقة أنه لولا تأييد الله تعالى ونصره بما تقدم بيانه لما وصل كسبهم الخوض إلى

هذا القتل ، وقد علمنا ما كان من خوفهم وكرهاتهم للقتال ومجادلة النبي ﷺ فيه (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) فلو ظلوا على هذه الحالة المعنوية مع قتلهم وضعفهم لكان مقتضى الأسباب أن يتممهم المشركون محقا .

وأما الفرق بين فعله تعالى في القتل وفعله في الرمي . فالأول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل التي تقدم بيانها ، كما هو الشأن في جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل في حصول غاياتها إلا بفعل الله وتسخيره لهم وللأسباب التي لا يصل إليها كسبهم عادة ، كقوله تعالى (أفأرأيتم ما تحرثون * أم أنتم تزعمونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما) الخ فالإنسان يحرق الأرض ويلقى فيها البذر ولكنه لا يملك انزال المطر ولا إنبات الحب وتغذيته بالتراب المختلف العناصر ، ولا دفع الجوائح عنه . ولا يستقل إيجاد الزرع وبلوغ نموه صلاحها بكسبه وحده . وأما الثاني فهو من فعله تعالى وحده بدون كسب عادي للنبي ﷺ في تأثيره فالرمي منه كان صوريا تظهر الآية على يده صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فنله في ذلك كمثل أخيه موسى عليه السلام في إلقاء العصا (فإذا هي حية تسعى) تخاف منها أولا كما ورد في سورتي طه والنمل

هذا ما يدل عليه نظم الكلام بلا تكلف ولا حمل على المذاهب والآراء الحادثة من كلامية وتصوفية وغيرها ، فالجبري يحتاج بها على سلب الاختيار وكون الإنسان كالرشة في الهواء ، والاتحادي يحتاج بها على وحدة الوجود ، وكون العبد هو الرب المعبود ، والأشعري يحتاج بها على الجمع بين كسب العبد وخلق الرب باسناد الرمي إلى النبي ﷺ وإلى الخالق عز وجل . وهو يغني عن إسناد القتل إلى المؤمنين بالآولى ، والقرآن فوق المذاهب وقبائلها ، غنى بفصاحته وبلاغته عن هذه التأويلات كلها (كل حزب بما لديهم فرحون) وكلام الله فوق ما يظنون .

وأما موقع الفاء في أول الآية على القول بأن الآية السابقة عليها نزلت قبل القتال تحريضا عليه فمقتضى أنها واقعة في جواب شرط مقدر ، واختلفوا في تقديره وقال بعضهم بل هي مجرد ربط الجمل بعضها ببعض ، وقد يقال : إنه لا مانع من نزولها بعد المعركة ووصلها بما قبلها للدلالة على ما ذكرنا من التعليل والاحتجاج

(الأنفال . س ٨) بلاء الله الحسن للمؤمنين وإضعافه لكيد الكافرين ٦٢٣

على مشروعية النهي عن الهزيمة ، وأولى منه أن يستدل بها على نزول ما قبلها في ضمن السورة بعد المعركة .

وأما قوله تعالى ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ فهو معطوف على تعليل مستفاد مما قبله ، أى أنه فعل ماذكر لاقامة حجته وتأييد رسوله (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً) بالنصر والغنيمة وحسن السمعة . والبلاء الاختبار بالحسن أو بالسوء . كما قال تعالى في بني إسرائيل (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) وتقدم بيانه بالتفصيل . وختم الآية بقوله ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ وهو تعليل مستأنف للبلاء الحسن والمراد أنه تعالى سميع لما كان من استغاثة المؤمنين مع الرسول ربهم ودعائهم إليه وحده ، عليم بصدقهم وإخلاصهم ، وبما يترتب على استجابته لهم من تأييد الحق الذي هم عليه وخذلان الشرك ، كما أنه سميع لكل نداء وكلام ، عليم بالنيات الباعثة عليه ، والعواقب التي تنشأ عنه ، وبكل شيء .

ولما كان من سنة القرآن المقابلة بين الإيمان والكفر وبين أهل كل منهما

وجزائهما عليهما قال ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ أى الأشرار المؤمنين وفأندتهم مما تقدم هو ذلكم الذى سمعتم ، ويضاف إليه تعليل آخر وهو أن الله تعالى موهن كيد الكافرين ، أى مضعف كيدهم ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والاصلاح قبل أن تقوى وتشتد ، قرأ ابن كثير وناقم وأبو بكر (موهن) بتشديد الهاء والتنوين ونصب (كيد) والتشديد المبالغة فى الوهن . وقرأ حفص عن عاصم بالتخفيف والاضافة والباقون بالتخفيف والنصب .

وقد صرح التنزيل بجزء الفريقين فى تعليل آخر فى عاقبة الحرب ، قال فى سياق غزوة أحد من سورة آل عمران (٣ : ١٤٠) إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ١٤١ ولم يخص الله الذين آمنوا ويحق للكافرين)

﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ قيل إن الخطاب للكفار ذكر خذلانهم وإضعاف كيدهم ثم انفتحت عنه إلى تذكيرهم وتوبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله ﷺ ذكر محمد بن اسحق وعروة عن الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صمير « أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينما كان أقطع للرحم وأنى بما لا يعرف فأحنه الغداة . فكان ذلك استفتاحاً منه » رواه عنه أحمد ورواه النسائي في التفسير والحاكم في المستدرک عن الزهري . وروى مثله عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال السدي كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أعلی الجندين ، وأكرم الفتتين ، وخير القبيلتين ، فقال الله (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) يقول قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ . وفي رواية « أن أبا جهل قال حين التقى الجمعان : اللهم رب ديننا القديم ودين محمد الحديث فأى الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم . فالفتح هو نصر النبي ودينه وأتباعه . وهذا يدل على أن أبا جهل كان مغروراً بشركه واثقاً بدينه ولم يكن أكثر أكابر مجرمي مكة كذلك بل كان كفرهم عن كبر وعلو وحسد للنبي ﷺ .

﴿ وإن قتلتموا فهو خير لكم ﴾ أى وإن قتلتموها عن عداوة النبي ﷺ وقته فلا انتهاء خير لكم ، لأنكم لا تكونون إلا مغلوبين مخذولين كقوله (قل للذين كفروا ستعذبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) والخيرية في هذه الحالة بالإضافة إلى الاستمرار على العدوان والقتال ، ويحتمل أن يراد به الانتهاء عن الشرك فتكون الخيرية على حقيقتها وكالها ﴿ وإن تعودوا نعد ﴾ أى وإن تعودوا إلى مقاتلته نعد للمارئين من الفتح له عليكم حتى يجيء الفتح الأعظم الذى يذل فيه شرككم ، وتدول الدولة للمؤمنين عليكم ﴿ ولن تغنى عنكم شيتا ولو كثرت ﴾ أى ولن تدفع عنكم جماعتكم من المشركين شيتاً من بأس الله وبطشه ولو كثرت عدداً فالكثرة لا تكون سبباً للنصر ، إلا إذا تساوت مع القوة في الثبات والصبر ، والثقة بالله عز وجل ﴿ وإن الله مع المؤمنين ﴾ بالمعونة والولاية والتوفيق فلا تضرهم قتلهم . قرأ نافع وابن عامر (وأن) وحفص بفتح الهمزة بتقدير اللام أى ولأن الله مع المؤمنين

كان الأمر مذكروه ، وقرأها الباقون بالسكسر على الاستئناف
وقبل ان الخطاب في الآية للمؤمنين كسابقه ولاحقه والمعنى : ان تستنصروا
ربكم وتستغيثوه عند شعوركم بالضعف والقلة فقد جاءكم النصر وإن تنتموا عن
التكاسل في القتال والرغبة عما يأمر به الرسول وبجاداته في الحق بدمائين فهو
خير لكم . وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالانكار أو تهيبج العدو ، ولن تغني عنكم
كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر ، فيها نحن أولاً وقد نصرناكم على قتلكم وضعتكم .
هذا أقوى من كل ما رأيناه في تصوير المعنى فأكثر ما قالوه ظاهر التكلف ، ولولا
السياق لسكان المعنى الأول أرجح لأنه أظهر .

(٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ
(٢٢) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٣) وَلَوْ
عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ

كانت السورة من أولها إلى هنا في قصة غزوة بدر الكبرى إلا أنها افتتحت
بعد براعة المطلق — وهو السؤال عن الغنائم — بالمقصد من الدين وهو الايمان
وطاعة الله ورسوله ووصف الايمان السكامل ، وانتقل منها إلى مقدمات الغزوة
وما كان من عناية الله فيها بالمؤمنين ، ثم انتقل هنا أوفياً قبله إلى نداء المؤمنين المرة بعد
المرة وتوجيه الأوامر والنواهي إليهم في مقاصد الاسلام والايمان والاحسان — وينتهي
هذا بالآية ٢٩ ثم ينتقل من ذلك إلى شؤون الكفار مع المؤمنين وعداوتهم لهم وللارسول
ﷺ وكيدهم له وعداوتهم عليه ، وفتنة المؤمنين به — ومنه إلى الأمر بقتالهم وحكمتهم
ثم يعود الكلام إلى غزوة بدر وما كان فيها من حكم وسنن وأحكام وتشريع ،
وهذا يدخل في أول الجزء العاشر وهو آية (٤١) وأعلموا انما غنمتم من شيء الخ
قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ذكرت هذه الطاعة في
(تفسير القرآن الحكيم) (٤٠) (الجزء التاسع)

الآية الأولى من هذه السورة وأعيدت هنا ليعطف عليها قوله ﴿ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾ أى ولا تتولوا وتعرضوا عن الرسول ﷺ والحال أنكم تسمعون منه كلام الله المصريح بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصره ، والمراد بالسماع هنا سماع الفهم والتصديق والاذعان الذى هو شأن المؤمنين الذين دأبهم أن يقولوا (سمعنا وأطعنا غفرنا لك ربنا وإليك المصير) والموصوفين بقوله عز وجل (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)

ثم قرر هذا المعنى وبين مقابله بقوله ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ وهم فريقان (الأول) الكفار المعاندون (٤ : ٤٥) من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا - لئلا بالسنتهم وطعننا فى الدين - ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) وأمثالهم من الكفار المعاندین والمقلدين ، وورد فيهم آيات سيد كر بعضها هنا (الثانى) المنافقون الذين قال تعالى فى بعضهم (٤٧ : ١٧) ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ؟) وتقدم فى سورة الأعراف من صفات أهل النار فى الدنيا (ولهم آذان لا يسمعون بها) مع آيات أخرى والمراد فى هذا كله أنهم لا يسمعون سماع تفقه واعتبار يتبعه الاتتفاع والعمل

ثم علل الأمر والنهى بقوله ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ الدواب جمع دابة وهى كل ما يدب على الأرض قال فى سورة النور (٢٤ : ٤٣) والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) الآية وقلما يستعمل هذا اللفظ فى الإنسان وحده وإنما يغلب فى الحشرات ودواب الركوب ، فان كان قديما فهو هنا يشعر بالاحتقار والمعنى ان شر ما يدب على الأرض فى حكم الله الحق هم الأشرار من البشر «الصم» الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة فكانوا بقصد

منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته « البكم » الذين لا يقولون الحق ، كأنهم فقدوا قوة النطق « الذين لا يعقلون » أي فقدوا فضيلة العقل الذي يميز بين الحق والباطل .
ويفرق بين الخير والشر ، إذ لو عقلوا لطلبوا ، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا ، ولو سمعوا لنطقوا وبينوا ، وتذكروا وذكروا ، كما قال تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له أو ألقى السمع وهو شهيد) فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق كالفانادين لهذه المشاعر والقوى ، بأن خلقوا خداجاً أو طرأت عليهم آفات ذهبت بشاعرهم الظاهرة والباطنة ، بل هم شر من هؤلاء . لأن هذه المشاعر والقوى خلقت لهم فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله تعالى لأجله في سن التمييز ثم التكليف .
فهم كما قال الشاعر :

خلقوا ، وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا

رزقوا ، وما رزقوا سباح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

وإذا أردت فهم الآية فهما تفصيلياً فارجع الى تفسيرنا لقوله تعالى (١٧٩: ٧)
ولقد زرأنا لهم كثيراً من الجن والإنس لم يلقوا بها ولم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (ولم يصنفهم هنا بالعمى كما وصفهم في آية الأعراف وآيتي البقرة لأن المقام هنا مقام التعريض بالذين زدوا دعوة الاسلام ، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن .

﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ﴾ أي ولو علم الله فيهم استعداداً للإيمان

والهدى ببقية من نور الفطرة ، لم تطفئها مفاصد التريسة وسوء القدوة ، لاسمعهم بتوفيقه وعنايته الكتاب والحكمة سمع تفقه وتدبر ، ولكنه علم أنه لا خير فيهم

لأنهم ممن أحاطت بهم خطاياهم وختم على قلوبهم ﴿ ولو أسمعهم ﴾ وقد علم أن

لا خير فيهم ﴿ لتولوا ﴾ عن القبول والإذعان لما فهموا ﴿ وهم معرضون ﴾ والحال أنهم

معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به - كما هو مدلول الجملة الحالية -

كراهة وعناداً للداعي اليه ولأهله ، لا تولياً عارضاً مؤقتاً ، وفرق عظيم بين التولي

العارض لصارف موقت وتولي الأعراض والكراهة الذي فقد صاحبه الاستعداد

للحق وقبول الخير فقدماً تاماً . ومن اضطرب في فهم الجمع بين التولي والإعراض

فقد جهل معنى الجملة الحالية الفارق بينها وبين الحال المفردة كما بينه الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، والآية نص في أنه تعالى لم يسمعهم أى لم يوقعهم للسمع النافع لأن الباعث عليه هو ما في الفطرة من نور الحق المحجب للنفس في الخير ، وقد قدموا ذلك بإفسادهم لفطرتهم ، وإطفائهم لنور الاستعداد للحق والخير الذي يذكيه سماع الحكمة والموعظة الحسنة ، فصاروا ممن وصفهم في سورة المطففين المكية بقوله (٨٣: ١٤) كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (وقوله في سورة البقرة (٢ : ٨١) بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ووصفهم فيها بقوله (١٨ صم بكم عى فهم لا يرجعون) وضرب المثل لسماعهم بقوله في الآية الأخرى منها (٢ : ١٧١) ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عى فهم لا يعقلون) يعنى أنهم كسارحة النعم تسمع الصراخ الناعق فترفع رهوسها ، ولكنها لا تفهمه معنى فاذا سككت عادت الى رعيها كما قال ابن دريد في مقصورته :

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلى فارتعى
إذا أحس نبأ ربيع وإن تطامنت عنه تمادى ولها
وفي الآيتين ٤٢ و ٤٣ من سورة يونس (١٠) إيئاس النبي ﷺ من إسماع هؤلاء
العمى وهداية هؤلاء العمى وقفى على ذلك بقوله تعالى (٤٤) إن الله لا يظلم الناس شيئا
ولكن الناس أنفسهم يظلمون) فأما هذه الآيات تحثو التراب في في من يزعم أن
الاية تدل على الجبر وعدم اختيار العبد في كفره وإيمانه ، كما أنها تسجل الجمل
بالغة على من يزعم أن فيها إشكالا في النظم بجواز تقدير : ولو أسمعهم لعلهم بأن فيهم
خيرا لتولوا وهم معرضون عن الإيمان والهدى ، ونقول إن تقديره هذا هو الباطل لأنه
نقيض ما أفادته « لو » من أنه علم أنه لاخير فيهم فهو لا ينتج إلا باطلا ، وعفا الله
عن صوروا هذا الإشكال الوهمي بالاصطلاح المنطقي الفلسفي وأطالوا في الرد عليه
من تلك الطرق اصطلاحية الشاغلة عن كتاب الله تعالى

ألم يك خيرا لهم من هذه الحذقة اللفظية الصارفة عن القرآن توجيه قلب سامعه
لحاسبة نفسه على هذا السماع ودرجة حفظه منه ؟ فان للسمع درجات باعتبار ما يطالبه الله
تعالى به من الاهتمام بكتاباه : أسفلها أن يعتمد من يتلى عليه القرآن أن لا يسمعه

مبارزة له بالعداوة من أول وهلة خوفاً من سلطانه على القلوب أن يطلبهم عليها كالذين قال الله فيهم (٤١: ٢٦) وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ويلبها من يستمع وهو لا ينوى أن يفهم ويعلم كالمناقضين المشار إليهم في آية سورة القتال (٤٧: ١٧) وذكرت في هذا السياق - ويلبها من يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض ، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب ، وكما يفعل في كل وقت مرتبة دعاة النصرانية وغيرهم إذا استمعوا للقرآن أو نظروا فيه - ويلبها أن يسمع ليفهم ، يعلم ثم يحكم للكلام أو عليه .

وهذه الدرجات كلها لغير المؤمنين به ، والمتصف منهم الغريق الأخير وكما آمن منهم من تأمل وفهم . نظر طبيب إفرنسي معاصر في ترجمة القرآن فرأى أن كل ما يتعلق بالطب والمحافظة على الصحة منه - كإطهارة والاعتدال وعدم الاسراف - موافق لأحدث المسائل التي استقر عليها رأى الأطباء في هذا العصر ، فرغبه ذلك في تأمله كله فأسلم ونظر (مستر براون) وهو رنان بارح من الانكاي في ترجمة مستر سايل الانكاي به فاستقصى فيه الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبي ﷺ كان من أكبر بانى الملاحين فسأل عنه فقبل له لأنه لم ير البحر قط وكان مع ذلك أمياً لم يقرأ كتاباً ، ولا تلقى عن أحد درساً ، (قال) فعلمت أن هذا كان يوحى من الله لأنه حقائق لم يعلمها من اختباره بنفسه ، ولا بتلقيه عن غيره من المختبرين ، وقد أسلم وتعلم العربية رحمه الله تعالى وأما المسلمون في هذه البلاد فأكثرهم اليوم يسمعون القارىء يتلو القرآن فلا يستمعون له ولا يشعرون بأنهم في حاجة إلى سماعه ، وأكثر الذين يستمعون له وينصتون يقصدون بذلك التلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغمات ومنهم من يقصد بسماعه التبرك فقط ، ومنهم من يحضر الحفاظ لتلاوته عنده في ليالى رمضان لأن ذلك من شعائر أكبر الوجاهة ، وإنما تكون التلاوة في حجرة البواب أو غيره من الخدم وإذا سمعت بعض السامعين للتلاوة يقول : الله الله ، أو غير ذلك من كلمة مفردة أو مركبة أو صوت لا معنى له فأنما ينطق به إعجاباً بنغمة التالى ، حتى أنهم لينطقون عند سماعه ببعض الأصوات التي تخرج من أفواههم عند سماع الغناء دعيت مرة إلى حفلة عرس فاذا أنا بقارىء يتلو بالنغم والنظريب وبعض

الحاضرين يهتز وينطق بتلك الحروف المعنادة في مجالس الغناء ويستعيدون بعض الجمل أو الآيات كما يستعيدون المغنى على سواء ، وكان القارئ يتلو تلك الرصايا الصاعدة من سورة الاسراء وما يتلوها من وصف القرآن وهذا يتهووا عظمه وتو يبيع المعرضين عنه كقوله تعالى (١٧ : ٤١) ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدكروا وما ين يدعهم إلا نفورا - إلى قوله - ٥٥ : وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ٤٦ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ٤٧ نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون اليك وإذا هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)

فلما سمعت مكاء أولئك السفهاء وأصواتهم المنكرة عند سماع هذه الحكم الروائع والمواعظ الصواع لم أملك نفسي أن سمحت فيهم صيحة مزعجة ووقفت على الكرسي الذي كنت جالسا عليه ووبختهم توبيخا شديدا مبينا لم ما يجب من الأدب والخشوع والخشية عند سماع القرآن ، ولا سيما أمثال هذه الآيات ، وتلوت عليهم قوله تعالى (٥٩ : ٢١) لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) فسكتوا وسكتوا إلا واحدا منهم أخذته العزة بالإثم ، ولكنه صار يتظاهر بأنه يهتز متخسعا ، ويهمهم معتبرا متديرا .

وليعلم القارئ أن لفهم الكلام نفسه درجات فن الناس من لا يفهم من الكلام إلا مدلولات الألفاظ على ما فيها من إجمال وإيهام بحسب ما تفسر به المفردات في معاجم اللغة ، أو مع المركبات بحسب قواعد النحو والبيان ، ككون لفظي الصم والبكم هنا من مجاز الاستعارة مثلا ، وهذا الفهم قاصر لا يتسع عقل صاحبه للتدبر والتذكر المطلوب ، ومنهم من يكون فهمه تفصيليا ينتقل من الكليات إلى الجزئيات ، ويمدو المفهومات الذهنية إلى المصادقات ، ولكنه يجعلها بمنزل عن نفسه وينصور أن الكلام كله لغيره وفي غيره ، بأن يقول هذه الآية نزلت في الكافرين أو المنافقين ، لا في أمثالي من المؤمنين ، وإن كان متصفا بما تنهى عنه وتوعد عليه من صفاتهم وأعمالهم ، فصاحبها يصدق عليه بوجه ما أنه من الذين قالوا سمعنا وأطعنا لا يسمعون

وإنما الدرجة العليا للسمع أن نسمع فتقته ونعقل وتقدر فتعتبر ونعمل حتى لا نقول يوم القيامة (٦٧ : ١٠) لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير

(٢٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ
(٢٥) وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٦) وَاذْكُرُوا إِذْ أَتَمْتُمْ قَلِيلًا مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَضِيرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

يقال دعاه فأجابه واستجابه واستجاب له، وأكثر المتعدى في التزويل ويقول
الراغب: إن أصل الاستجابة التهيؤ والاستعداد للاجابة فخل محلها، أقول: والاقرب
الى الفهم قلب هذا وعكسه وهو ان الاستجابة هي الاجابة بعناية واستعداد فتكون
زيادة السمع والتاء العبالغة، وهو يقرب مما قالوه في معانيهما من التكلف والتحرى
أو هو بعينه إلا أنه لا يعبر به فيما يسند إلى الله تعالى كقوله (فاستجاب لهم ربهم)
فقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ معناه
إذا علمتم ما فرضنا عليكم من الطاعة، وشأن سماع التقية من الهداية، وقد دعاكم
الرسول بالنبيلغ عن الله تعالى لما يحييكم، فاجيبوا الدعوة بعناية وهممة، وعزيمة
وقوة، فهو كقوله تعالى (خذوا ما آتيناكم بقوة) والمراد بالحياة هنا حياة العلم
بالله تعالى وسننه في خلقه، وأحكام شرعه والحكمة والفضيلة والأعمال الصالحة
التي تكمل بها الفطرة الإنسانية في الدنيا وتسند للحياة الأبدية في الآخرة، وقيل
المراد بالحياة هنا الجهاد في سبيل الله لأنه سبب القوة والعزة والسلطان والصواب
أن الجهاد يدخل فيما ذكرنا وليس هو الحياة المطلوبة بل هو وسيلة لتحقيقها وسياج

لها بعد حصولها ، وقيل هي الايمان والاسلام ، وانما يصح باعتبار ما كان يتجدد من الاحكام ، وثمرته في القلوب والاعمال ، وبما في الاستجابة من معنى المبالغة في الاجابة ، وإلا فالخطاب للمؤمنين . وقيل هي القرآن ولاشك انه يدعوها الاعظم ، الهادي الى سبيلهم الاقوم ، مع بيانه من سنة الرسول وهدية النبي . ثم انما بان يكون لنا فيه أسوة حسنة ، ويدل عليه اقتران طاعته بطاعة الله تعالى ، بل قال بعض العلماء انه كان اذا دعا شخصاً وهو يصلي يجب عليه أن يترك الصلاة استجابة له ، وان الصلاة لا تبطل باجابته . بل له أن يني على ما كان صلى ويتم ، واستدلوا على ذلك بحديث رواه البخاري عن سعيد بن المولى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه . أو قال فلم آته حتى صليت ثم أتيتهم . فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي ، فقال : « ألم يقل الله (استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم) ؟ الحديث . وروى الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة « أنه ﷺ دعا أبا بن كعب وهو في الصلاة » وذكر نحواً مما رواه البخاري عن أبي سعيد وصححه . وقال الحافظ في باب فضائل الفاتحة من الفتح عند ذكره الحديث : وفيه ان الامر يقتضي الفور لانه ﷺ عاتب الصحابي على تأخير اجابته ، وفيه استعمال صيغة العموم في الاحوال كلها . قال الخطابي : فيه ان حكم لفظ العموم أن يجري على جميع مقتضاه وان الخاص والعام اذا تقابلا كان العام منزلاً على الخاص ، لان الشارع حرم الكلام في الصلاة على العموم ثم استثنى منها اجابة دعاء النبي ﷺ في الصلاة (وفيه) ان اجابة دعاء النبي ﷺ لا تفسد الصلاة . هكذا صرح به جماعة من الشافعية وغيرهم وفيه بحث لاحتمال أن تكون اجابته واجبة مطلقاً سواء كان مخاطب مصلياً أو غير مصل ، اما كونه يخرج لاجابته من الصلاة أو لا يخرج فليس في الحديث ما يستلزمه ، فيحتمل أن تجب الاجابة ولو خرج المجيب من الصلاة ، وإلى ذلك جنح بعض الشافعية الخ ما أورده ولا تعرض فيه لما يدعوا المرء إليه وهل يشترط لما ذكر أن يكون من أمر الدين أم لا ؟ وقد كان ﷺ دعا سعيداً هذا ليعلمه فضل سورة الفاتحة وانها السبع المثاني ، وفي متن الحديث شيء من الاضطراب على أنه لا يتعلق به بعده ﷺ عمل .

وأحق من هذا بالبيان ان طاعته ﷺ واجبة في حياته وبعد مماته فيما علم

انه دعا إليه دعوة عامة من أمر الدين الذي بعثه الله تعالى به كياناً لصفة الصلوات وعددها والمناسك ولو بالفعل مع قوله « صلوا كما رأيتموني أصلي » وقوله « خذوا عني مناسككم » ومقادير الزكاة وغير ذلك من السنن العملية الدينية المتواترة وكذا أقواله المتواترة التي أمر بتبليغها فيما تدل عليه دلالة قطعية - وأما غير القطعي رواية ودلالة من سننه فهو محل الاجتهاد ، فكل من ثبت عنده شيء منها يبحثه أو يبحث العلماء الذين يفتق بهم على أنه من أمر الدين فينبغي له الاهتمام به فيما دل عليه من الأحكام الخمسة بحسبها - الوجوب والتدب والحرم والكراهة والإباحة - لأن الأمور العملية الاجتهادية يكفى فيها بالظن الراجح في الدليل وفي دلالته ، ولكن لا يملك أحد من المسلمين أن يجعل اجتهاده تشريعاً عاماً يلزمه غيره أو ينكر عليه مخالفته أو مخالفته من قلده هو فيه ، إلا الأئمة أولى الأمر فتجب طاعتهم في اجتهادهم في أحكام المعاملات القضائية والسياسية إذا حكموا بها لإقامة الشرع وصيانة النظام العام - وعلى هذا كله جرى السلف الصالح وجميع أئمة الامصار ، ومن كلامهم : ان المجتهد لا يقلد مجتهداً ، وأنه لا يجب على أحد أن يقلد أحداً معيناً دينه ، ولكن من عرض له أمر يستفتى فيه من يطعن قلبه لعلمه بالكتاب والسنة يأخذ بفتواه إذا اطأن لها . وقد امتنع الإمام مالك من إجابة المنتصرون ثم الرشيد إلى ما عرضه عليه من الزام الناس العمل بكتبه حتى الموطأ الذي هو سنن وإطاءه جل علماء المدينة عليها

أما من يقولون إن النبي ﷺ إنما كانت تجب طاعته في عهده ولا يجب العمل بعلمه إلا بانقرآن وحده فهم زنادقة ضالون مضلون يريدون هدم الإسلام بدعوى الإسلام ، بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها الله تعالى ويجب التأسي به في كل زمان إلى يوم القيامة ، بل نقول : اننا نهتدى بخلفائه الراشدين ، وأئمة أهل بيته الطاهرين وعلماء أصحابه العالمين ، وعلماء السلف من التابعين وأئمة الامصار من أهل البيت والفقهاء والمحدثين ، نهتدى بهم في آدابهم واجتهاداتهم القضائية والسياسية مع مراعاة القواعد الشرعية والمصالح العامة ، ولا نسمى شيئاً منها ديناً ندين الله به الا

ما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على الوجه المتقدم ، وأما السنن والارشادات النبوية في أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم فلم يعبدها أحد من السلف ولا علماء الخلف من أمور الدين فتسمية شيء منها ديناً بدعة منكرة لانه تشريع لم يأذن به تعالى ، وقد فصلنا هذه المسألة من قبل في هذا التفسير وفي غيره من مقالات المنار

﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ هذا تنبيه لأمرين عظيمين أمرنا الله أن نعلمهما علماً يقيناً إذ عانياً لما لهما من الشأن في مقام الوصية بالاستجابة لدعوة الحياة الانسانية العليا التي فيها سعادة الدنيا والآخرة (الأول) ان من سنة الله في البشر الحيلولة بين المرء وبين قلبه ، الذي هو مركز الوجدان والادراك ، ذي السلطان على ارادته وعمله ، وهذا أخوف ما يخافه المتقى على نفسه ، إذا غفل عنها وفرط في جنب ربه ، كما انه أرجى ما يبرجوه المسرف عليها إذا لم يئأس من روح الله فيها ، فهذه الجملة أعجب جل القرآن ولعلمها أبلغها في التعبير ، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية ، وعلم الصفات الربانية ، وعلم التربية الدينية ، التي تعرف دقائقها بما تشره من الخوف والرجاء ، فبينما زيد يسير على سبيل الهدى ، ويتقى بفتيات طرق الضلالة الموصلة إلى مهاري الردى ، إذا بقلبه قد تقلب بمصوف هوى جديد ، يميل به عن الصراط المستقيم ، من شبهة تزعم الاعتقاد ، أو شهوة يغلب بها الغي على الرشاد . فيطبع هواه ، ويتخذ له من دون الله ، (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفانت تكون عليه وكلاء ؟) على أنه فيه مختار ، فلا جبر ولا اضطرار .

ويقابل هذا من الحيلولة ما حكى بعضهم عن نفسه ، انه كان منهمكاً في شهواته وهواه ، تاركاً لهداه وطاعة ربه ، فنزل يوماً في زورق مع خلان له في نهر دجلة للتنزه معهم التبيذ والمعاذف ، فبينما هم يمزفون ويشربون ، إذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة (إذا الشمس كورت) فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة ، فاستمع له وأنصت ، حتى إذا بلغ قوله تعالى (وإذا الصحف نشرت) امتلأ قلبه خشية من الله ، وتندبراً لاطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه ، فأخذ العود من العازف

فكسره وألقاه في دجلة ، وثني بنيد قناني النبيذ وكؤوسه فيها ، وصار يرد الآية ،
وعاد إلى منزله تائباً من كل معصية ، مجتهداً في كل ما يستطيع من طاعة
فقد كبر الله تعالى إيانا بهذا الشأن من شؤون الإنسان ، وهذه السنة القلبية
من سنن الله تعالى في الإرادات والأعمال ، وأمره إيانا بأن نعلمها علم إيقان
وإذعان ، يفيدنا فائدتين لا يكمل بدونهما الإيمان ، وهما أن لا يأمن الطائم المشمر
من مكر الله فيغير بطاعته ويعجب بنفسه ، وأن لا ييأس العاصي والمقصر في
الطاعة من روح الله ، فيسترسل في اتباع هواه ، حتى تحيط به خطاياهم . ومن لم يأمن
عقاب الله ، ولم ييأس من رحمة الله ، يكون جديراً بأن يراقب قلبه ، ويحاسب
نفسه على خواطره ، ويعاقب نفسه على هفواته ، لتظل على صراط العدل المستقيم ،
متجنباً الإفراط والتفریط ، ويتحرى أن يكون دائماً بين خوف يحجزه عن المعاصي
ورجاء يحمله على الطاعات ، ويساعدنا على ذلك (الأمر الثاني) وهو أن تذكر
حشرنا إليه عز وجل ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية ، ومجازاته إيانا عليها
إما بالعذاب الأليم ، وإما بالنعيم المقيم ، وهذا منه مقتضى الفضل ، وذلك أثر العدل ،
وما يؤيد ما فهمناه في هذا المقام مقام حرمان الراسخين في الكفر من سماع
الفرقة والهدى ، والحيولة بين المرء وقابه أن يعصى الهوى (٢٣ : ٤٥) أفرايت من
اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ،
فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون) فهي صريحة في أن من هذا حاله ليس مجبوراً
عليه ، وأن الله لم يحرمه الهدى بإعجازه عنه وهو يؤثره ويفضله ، أو باكرهه على
اتباع الهوى وهو كاره له ، فانه أسند إليه اتخاذ هواه إلهه ، وقد قال تعالى لنبيه
داود عليه السلام (٣٨ : ٢٦) يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين
الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية

فهذا نص في أن اتباع الهوى سبب للضلال عن سبيل الله ، وقوله في آية
الجماعية (وأضله الله على علم) ليس معناه أنه تعالى خلق فيه الضلال استقلالاً كما
يدعى بعض المتكلمين بل هو داخل في سنته تعالى في الأسباب والمسببات ويؤيده

إثبات كون ضلّاله على علم وهو أنه متعمد لا تباع الهوى ، مؤثراً له على الهدى ، والله تعالى يسند الأمور إلى أسبابها قارة وإليه تعالى تارة من حيث إنه خالق كل شيء وواضع سنن الأسباب والمسببات . ومن الأسباب ما جعله من أفعال المخلوقات الاختيارية على علم ، وما جعله بأسباب لا يعلم لخلق اختيار فيها ولا علم ، وكل من القسمين يسند إلى سببه تارة وإلى رب الأسباب تارة والجهة مختلفة معروفة ، ويختار هذا أو ذاك في البيان بحسب سياق الكلام ، كقوله تعالى في الحشر (أفأنتم مانحون * أنتم تزرعونه ، أم نحن الزارعون ؟) فهل يقول عاقل إن الفلاح لا فضل له ولا اختيار في زرعه ، وأن الله يخلقه له بدون إرادته ولا فعله ، أو أن فعله وتركه في أرضه سواء ، وتلقيحه لتخله وعدمه بيان ؟

وجملة القول : أن من سننه تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله ويستمر على ذلك ويسمى الزمن الطويل تضعف إرادته في هواه حتى تذوب وتفتى فيه ، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية ، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة ، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والربن والطبع على القلب ، والصمم والعمى والبكم كما تقدم آنفاً وسبق مثله في تفسير سورة البقرة وغيرها ،

وأمثال هذه الأمثال المضروبة لهذه الحالة قد ضل بها الجبرية غافلين عن كونها عاقبة طبيعية لا دمان تلك الأعمال الاختيارية ، كالخمر الذي يعتري مدمن الخمر ، فيشعر بفتور وألم حصبي لا يسكن إلا بالعودة إلى الشرب ، على أن هذه الآية علمتنا عدم اليأس

ومن تفسير القرآن بالقرآن في قلب القلوب والحيولة بينهما وبين إرادة الإنسان المتصرف في قدرته ومشاعره قوله تعالى من سورة الأنعام (١٠٩ : ٦) وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، وتدمرهم في طغيانهم يعمهون) فراجع معناها في آخر تفسير الجزء السابع ، وقال الراغب : قلب الله القلوب صرفها من رأى إلى رأى . وذكر آية الأنعام هذه

ومن تفسير الآية المأثور في السنة مارواه ابن مردويه في تفسيره عن ابن عباس مرفوعاً « يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الهدى » وسنده ضعيف

كما قال الحافظ في الفتح وله وإفاده آثار في هذا المعنى . وروى البخارى وأصحاب السنن إلا أبا داود من حديث عبد الله بن عمر قال « كانت بين النبي ﷺ لا ومقاب القلوب » وفي رواية له عنه « أكبر ما كان النبي ﷺ يحلف : لا ومقاب القلوب » وفي معناه أحاديث أخرى عند ابن ماجه وغيره وللمفسرين وشراح الأحاديث أغلاط لفظية ومعنوية في تفسير لفظ القلب وفي قلب الله تعالى له . وقد تقدم تفسيره اللفظي من قبل ، ومعنى قلبه آفأ ، وقوله ان الله خالق القلوب ومقلبها حق ، وكذا أعدل العباد كلها ، وليس بحق ما عير به بعضهم عن ذلك بأن الله تعالى يمنع الكافر بمحض قدرته عن الإيمان وغيره من أفعال الخير مباشرة ، ويخلق في قلبه ولسانه الكفر اعتقاداً ونطقاً خلقاً أنفأ لا فعل له فيه ، فالجمع بين الآيات التي أوردناها وما في معناها يبطله ويثبت الاسباب الاختيارية ، والقائلون بما ذكر يثبتون قول القدرية ويحتجون به على قول الجبرية ، فهم يؤيدون الفاسد بالفاسد ولا يشعرون ، ويمدحهم إخوانهم الصوفية في الغي ثم لا يقصرون .

بعد هذه الأوامر والنواهي الخاصة بأعمال الناس الاختيارية الشخصية ، وما يخشى أن تؤدي إليه مما يجرهم من الهداية الخصوصية ، بانتهاء الاختيار منها إلى ما يكاد يخرج عن الاختيار ، بأضعاف الإرادة واستعبادها للاهواء ، - - - أمرهم باتقاء نوع من أنواع الفتن الاجتماعية التي تكون تبعة عقوبتها مشتركة بين المصطفى بنساره فعلاً ، وبين المتواخذ به لتقصيره في درته ، وإقراره على فعله ، فقال

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ أي واتقوا وقوع الفتن القومية والمالية العامة التي من شأنها أن تقع بين الأمم في التنازع على مصالحها العامة من الملك والسيادة أو التفرق في الدين والشرعية ، والانقسام إلى الأحزاب الدينية كالمذاهب ، والسياسية كالحكم ، فان العقاب على ذنوب الأمم أثر لازم لها في الدنيا قبل الآخرة كما تقدم مراراً ، ولهذا عبر هنا بالفتنة ، دون الذنب والمعصية ، والفتنة البلاء والاختبار كما تقدم بيانه مراراً .

روى أحمد والبخارى وابن المنذر وابن مردويه عن مطرف قال : قلنا لازير « يا أبا عبد الله ضعيتم الخليفة حتى قتل ثم جثتم تطلبون بدمه ؟ فقال إنا قرأنا

على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ولم تكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت . وروى عنه جمهور مخرجى التفسير المأثور : لقد قرأناها زمانا وما نرى أننا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها . وأخرج ابن جرير من طريق الحسن عنه قال : لقد خوفنا بهذه الآية ونحن مع رسول الله ﷺ وما ظننا أننا خصصنا بها . قال الحافظ في الفتح وأخرجه النسائي من هذا الوجه نحوه ، وله طرق أخرى عن الزبير عند الطبري وغيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر في الآية قال : نزلت في علي وعثمان وطاحه والزبير — وعبد بن حميد عنه قال : أما والله لقد علم أقوام حين نزلت أن يستنصص بها قوم . وهو وأبو الشيخ عن قتادة قال : علم والله ذوو الأبواب من أصحاب محمد ﷺ حين نزلت هذه الآية أن سيكون قتل . وابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : نزلت في أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل فافتتلوا فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر . وآخرون عنه قال : أخبرت أنهم أهل الجمل . وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : نصيب الظالم والصالح عامة . وأبو الشيخ عن مجاهد قال : هي (يحول بين المرء وقلبه) حتى يتركه لا يعقل . وروى جمهورهم عن ابن عباس قال : أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعذبهم الله بالعذاب .

قال الحافظ ولهذا الأمر شاهد من حديث عدى بن عميرة سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانهم وهم قادرون على أن ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » أخرجه أحمد بسند حسن وهو عند أبي داود من حديث العرس بن عميرة وهو أخو عدى وله شواهد من حديث حذيفة وجريز وغيرهما عند أحمد وغيره .

وهذه الروايات متفقة صحيحة المعاني إلا قول من قال بالتخصيص فهي عامة إلى يوم القيامة لأنها بيان لسنة من سنن الله تعالى في الأمم والملل كإبينا . وأما فتنة عثمان فكانت أول هذه الفتن التي اختلفت فيها الآراء اختلفت الأعمال من أهل الحل والعقد فخلا الجولامفسدين من السبئيين واعوانهم من زنادقة اليهود

والمجوس وغيرهم ، وأعقبت فتنة الجمل وصفين ، ثم فتنة ابن الزبير مع بنى أمية
ثم قتلهم الحسين عليه السلام الخ. ولو تداركوها كما تدارك أبو بكر (رض) فتنة الردة
لما كانت فتنة تبعثها فتن كثيرة لا يزال المسلمون مصابين بها ومعذبين بهذابها
وأكبرها فتن الخلافة والملك وفتن افتراق المذاهب

﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن خالف سننه في الأمم والأفراد التي
لا تبدل لها ولا تحوّل ، ولمن خالف هداية دينه المزكية للأفئدة وقطعيات
شرعه المبينة على درء المناسد والمضار وحفظ المصالح والمنافع . وهذا العقاب
منه ما يقع في الدنيا والآخرة ، ومنه ما يقع في إحداها فقط ، سواء كان للأفراد
أو للأمم ، وعقاب الأمم المذكور في هذه الآية مطرد في الدنيا ، وأول من أصابه
من أمتنا الإسلامية أهل القرن الأول الذي كانوا خيرها بل خير الأمم كلها
ولكنهم لما قصرُوا في درء الفتنة الأولى عاقبهم الله عليها عقاباً شديداً كما تقدم
آثنا ، وهكذا تسلسل العقاب في كل جيل وقع فيه ذلك ، ثم امتزجت الفتن
المذهبية بالفتن السياسية الخاصة بالخلافة والسلطان ، ولهذا كانت فتنة الخلاف بين
أهل السنة والشيعة أشد مصائب هذه الأمة وأدومها ، فزالَت الخلافة التي تنازعوا
عليها ، وتنافسوا فيها ، وتقاتلوا لأجلها ، ولم تزل هي ، بل تزداد قوة وشباباً ، وقد
شرحنا هذا الموضوع في مواضع من مجلة المنار

﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ قيل إن الخطاب للمهاجرين
يذكركم بما كان من ضعفهم وقتلهم بمكة — وقيل إنه المؤمنين كافة في عهد نزول
السورة يذكركم بما كان من ضعف أمتهم العربية في جزيرتهم بين الدول القوية من
الروم والفرس ، ولا مانع فيه من إرادة هذا وذاك معاً . فقله تعالى ﴿تخافون أن
يتخطفكم الناس﴾ أي تخافون من أول الاسلام إلى وقت الهجرة أن يتخطفكم
مشركو قومكم من قريش وغيرها من العرب ، أي أن يفترواكم بسرعة فيفتكوا
بكم — كما كان يتخطف بعضهم بعضاً خارج الحرم وتخطفهم الأمم من أطراف
جزيرتهم . قال تعالى في أهل الحرم (أو لم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس

من حولهم ؟ ﴿ فَأَرَأَيْتُمْ ﴾ يامعشر المهاجرين إلى الانصار ﴿ وأيدكم ﴾ وإياهم ﴿ بنصره ﴾ في هذه الغزوة ، وسيؤيدكم على الروم وفارس وغيرهم كما وعدكم في كتابه بالاجمال وبينه لكم الرسول ﷺ بالتصريح ﴿ ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ هذه الثلاث وغيرها من نعمه ، فيزيدكم من فضله كما وعدكم بقوله (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)

وقد جاء في الدر المنثور من تفسير هذه الآية بالمأثور باختصار قليل مانصه :

أخرج ابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضى الله عنه في قوله (واذكروا إذ أنتم قليل) الآية ، قال « كان هذا الحى أذل الناس ذلاً وأشقاه عيشاً وأجوعه بطوناً ، وأعراة جلوداً وأبيده ضلالة ، معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم لا والله ما فى بلادهم ما يحسدون عليه ، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، لا والله ما نعلم قبيلة من حاضرا الأرض يومئذ كان أشمر منزلاً منهم ، حتى جاء الله بالاسلام فمكّن به فى البلاد ووسع به فى الرزق ، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالاسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا لله نعمه فان ربكم منعم بحسب الشكر وأهل الشكر فى مزيدهم الله عز وجل »

وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير فى قوله (يتخطفكم الناس) : فى الجاهلية بمكة (فأوأمكم) إلى الاسلام ، وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فى قوله (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفكم الناس) قيل يا رسول الله : ومن الناس ؟ قال « أهل فارس » وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (فأوأمكم) قال إلى الانصار بالمدينة (وأيدكم بنصره) قال يوم بدر اهـ

ومن العبرة فى الآيات أنها حجج تاريخية اجتماعية على كون الاسلام إصلاحاً أوزث ويورث من اهتدى به سعادة الدنيا والسيادة والسلطان فيها قبل الآخرة ، ولكن أعداء الجاحدين لهذا على علم قد شوهوا تاريخه ، وصدوا الناس عنه بالباطل - وإن أهله قد هجروا كتابه وتركوا هدايته وجهلوا تاريخه ، ثم صاروا

يَقْلُدُونَ أُولَئِكَ الْأَعْدَاءَ فِي الْحَكْمِ عَلَيْهِ حَقٌّ زَعَمُوا أَنَّهُ هُوَ سَبَبُ جَهْلِهِمْ وَضَعْفِهِمْ
وَزَوَالِ مِلْكِهِمْ الَّذِي كَانَ عَقُوبَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَخَلْفِهِمُ الطَّالِحَ عَلَى تَرْكِهِ ، بَعْدَ تِلْكَ
الْعَقُوبَةِ لِسُلْفِهِمُ الصَّالِحَ عَلَى الْفِتْنَةِ بِالتَّنَازُعِ عَلَى مِلْكِهِ . قَالَى مَقَى إِلَى مَقَى أَيُّهَا
الْمُسْلِمُونَ ؟ إِنْ أَلَّ اللَّهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

(٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا
أَمْثَلَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨) وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ
فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

قد بينا وجه التناسب بين هذه التسميات الإلهية للمؤمنين وما قبلها وما
بعدها إلى آخر هذا الجزء . وورد في سبب نزول هذا النداء بالنهي عن الخيانتين
هنا من حديث جابر « أن أبا سفيان خرج من مكة — وكان لا يخرج إلا في عداوة
الرسول (ص) — فاعلم الله رسوله بمكانه ، فكتب رجل من المنافقين
إلى أبي سفيان : إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم . فأنزل الله (لا تخونوا الله والرسول)
الآية » والمراد أن فيها تعريضاً بفعله المناق الذي يدعى الإيذان بأن عمله خيانة
تنافيه . والخيانة للناس وحدهم من أركان النفاق كما ثبت في الحديث الصحيح
— وسيأتي — فكيف يمثل هذه الخيانة لله والرسول والمؤمنين ؟

وفي عدة روايات عن عبد الله بن قتادة والزهرى والسكابي والسدى وشكرمة
أنها نزلت في أبي لبابة (رض) فإنه كان حليفاً لبني قريظة من اليهود ، فلما خرج
اليهم النبي (ص) بعد إجلاء إخوانهم من بني النضير أرادوا بعد طول الحصار
أن ينزلوا من حصنهم على حكم سعد بن معاذ — وكان من حلفائهم من قبل
خدرم ونقضهم لعهد النبي (ص) فأشار اليهم أبو لبابة بأن لا يفلحوا وأشار إلى
حلفه يعني أن سعداً يحكم بينهم ، فنزلت الآية . قال أبو لبابة « ما زالت قدماي
حتى علمت أنني خنت الله ورسوله » وفي رواية عبد بن حميد عن السكابي أن
(تفسير القرآن الحكيم) (٤٩) (الجزء التاسع)

رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة الى بنى قريظة وكان حليفا لهم ، بل روى أنه كان وضع ماله وولده عندهم ، فأوماً بيده الى الذبح ، فأنزل الله الآية - وذكرها ثم قال - قال رسول الله ﷺ لامرأة أبى لبابة « أيصوم ويصلى ويفتسل من الجنابة ؟ » فقالت : إنه ليصوم ويصلى ويفتسل من الجنابة ويحب الله ورسوله » والمراد أن النبى ﷺ شك فى إيمانه حتى إنه سأل امرأته : هل يقوم فى بيته بواجبات الإسلام ؟ فأجابه بصيغة التأكيد التى يجاب بها من أظهر شكه ، وفيه عبرة لمنافق هذا الزمان الذين يخلصون الخدمة ويسدون النصيحة الى أعداء ملتهم وأوطانهم فيما يمكن لهم السلطان فى بلادهم والسيادة على أمتهم

ولينظر المعتبر كيف عاقب أبو لبابة نفسه توبة الى الله تعالى « شد نفسه على سارية من المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على - فكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له : قد تيب عليك فقال والله لأأحل نفسى حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى ، فجاءه فحله بيده » وغزوة بنى قريظة كانت بعد غزوة بدر التى نزلت فيها سورة الأنفال بسنتين فيحتمل أن يكون المراد بنزول الآية فى أبى لبابة أنها تنزول فعلته - وهذا التعبير يكثر مثله عنهم فيما يسمونه أسباب النزول ، كما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره . ومن ذلك قول المغيرة بن شعبه : نزلت هذه الآية فى قتل عثمان (رض) ويحتمل أن تكون الآية نزلت بعد نزول السورة فألحقت بها بأمر الله لرسوله ﷺ

ومهما يكن سبب النزول فالآية عامة تشتمل كل خيانة ولذلك فسر ابن عباس خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته ، والأمانة بكل ما ائتمن الله عليه العباد بأن لا ينقضها . رواه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

والخيانة فى أصل اللغة تدل على معنى الاختلاف والخفية بنقض ما كان يرجى ويؤمل من الخائن أو نقص شئ منه ينافى حصوله وتحققه . ومنه : خانه سيفه ، إذا نبا عن الضريبة . وخانته رجلاه إذا لم يقدر على المشى ، وخان الرشاء الدلو إذا انقطع . ومن معنى النقص أو الانتقاص فى المادة قوله تعالى (علم الله أنكم تخانون .

أنفسكم) أى تنقصونها بعض ما أحل لها من اللذات، ومثله النخون، ويفترقان في معنى الصفة، قال الزمخشري في الأساس : ونخون فلان حتى إذا تنقصه كأنه خان شيئاً فشيئاً، وكل ما غيرك عن حالك فقد تخونك، قال لمبيد * تخونها نزولي وأرتحلي * اه وقال في تفسير الآية من الكشاف وتبعه غيره : معنى النخون النقص كما أن معنى الوفاء التمام، ومنه تخونه إذا تنقصه، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه اه وما قلناه أولاً أعم من هذا وأشمل لما ورد من الاستعمال في كلام الله وكلام العرب. وقال الراغب : الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تفعل اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين، ثم يتداولان الخ ما قاله وهو يدخل في عموم ما قلناه، ولا يصح كونه حدّاً تاماً والمعنى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ تعالى بتعطيل فرائضه أو تعدي حدوده وإتھاك محارمه التي بينها لكم في كتابه ﴿والرسول﴾ بالرغبة عن بيانه لكتاب الله تعالى إلى أهوائكم، أو آراء مشيائكم أو آبائكم، أو المخالفة عن أمره إلى أوامر أمرائكم وترك سنته إلى سنة أوليائكم، بناء على زعمكم أنهم أعلم بما رآه الله ورسوله منكم ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتَكُمْ﴾ أى بـلاتخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشؤون السياسية ولا سيما الحربية، وفيما بينكم وبعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الاجتماعية والأدبية، فقد ورد في الحديث «المجالس بالأمانة» رواه الخطيب من حديث علي وحسنه وأبو داود عن جابر بزيادة «إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام أو فرج حرام أو اقتطاع مال بغير حق» وهو حسن أيضاً، وروى أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والضياء من حديث جابر أيضاً «إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة» ورواه أبو يعلى عن أنس، وأشار في الجامع الصغير إلى صحته. فافشاء السر خيانة محرمة ويكفي العلم بكونه سرّاً القرينة القولية كقول محمد بن كمال : هل يسمعون أحد؟ أو الفعلية كالالتفات لرؤية من عساه ينجس. وآكد أمانات السر وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين الخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين، وقال أنس بن مالك «قلما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال : لا إيمان لمن لا عهد له، ولا دين

لمن لا عهد له « رواه أحمد وابن حبان في صحيحه . وروى الشيخان وغيرهما عن
أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد
أخلف ، وإذا أئتمن خان » زاد مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وقد
ورد في الأحاديث إطلاق الأمانة على الطاعة والعبادة والودعة والثقة والأمان ،
وليس المراد بهذا الحصر ، بل كل ما يجب حفظه فهو أمانة ، وكل حق مادي
أو معنوي يجب عليك أدائه إلى أهله فهو أمانة . قال الله تعالى في سورة البقرة
(٢ : ٢٨٣) فان آمن بعضكم ببعض فليؤد الذي أؤتمن أمانته ، وليتق الله (ربه) وقل في
سورة النساء (٤ : ٧٥) إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)

وقد أوردنا في تفسير آية النساء هذه مباحث نفيسة في الأمانات والعدل
منها (المسألة الثالثة) في أنواع الأمانة (والمسألة السادسة) في حكمة تأكيد الأمر
بالأمانة . وأوردنا في هذه مآله حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغاني في بيان
كون الأمانة من الصفات الدينية التي قام عليها بناء المدنية وبها حفظ العمران
ولاصلاح الحال أمة ولا بقاء لدولة بدونها لأن عليها مدار الثقة في جميع المعاملات ^(١)
وتأهيككم بماعظم الله من أمر الأمانة في قوله (٣٣ : ٧١) إنا عرضنا الأمانة على السموات
والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا
وأما قوله ﴿ وأتمتعوا بهم ﴾ فمعناه والحال أنكم تعلمون مفسد الخيانة وتحريم
الله تعالى إيها وسوء عاقبة تلك المفسد في الدنيا والآخرة ، أو تعلمون أن
مباغتة موه خيانة لظهوره ، وأما ما خفي عنكم حكمه فالجهل له عذر إذا لم يكن بماعلم من
الدين بالضرورة أو بما يعلم ببداهة العقل ، أو استفتاء القلب ، كفعلة أبي لبابة التي
كانت هفوة سببها الحرص على المال والولد ، ولذلك قطن لها قبل أن يبرح موقعه
(رض) . لما كان حب الأموال والأولاد مزاولة في الخيانة أعلنها به عقب الدهى عنها فقال
﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ الفتنة هي الاختبار والامتحان بما
يشق على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره ، فتكون في الاعتقاد والأقوال
والأفعال والأشياء . يمتحن الله المؤمنين والكافرين ، والصادقين والمنافقين ، وبخاصة بهم

ويجزئهم بما يترتب على فتنهم من اتباع الحق أو الباطل ، وعمل الخير أو الشر ، وقد تقدم الكلام في الفتنة مراراً من وجوه . وفتنة الأموال والأولاد عظيمة لا تحصى على ذي فهم إلا أن الافهام تتفاوت في وجوهها وطرقها ، فأموال الانسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائبه وشهواته ودفع كثير من المسكاره عنه ، فهو يتكلف في كسبها المشاق ويركب الصماب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه في القصد والاعتدال ، ثم انه يتكلف الغناء في حفظها ، وتتنازعه الأهواء المتناوذة في انفاقها ، فالشرع يفرض عليه فيها حقوقاً مقدرة وغير مقدرة ، ومعينة وغير معينة ، ومحصورة وغير محصورة ، كالزكاة ونفقات الأزواج والأولاد وغيرهم ، وكفارات بعض الذنوب المعينة ، من عتق وصدقة ونسك وغير ذلك . ويندب له نفقات أخرى المصالح العامة والخاصة تكفر الذنوب غير المعينة ، ويترتب عليه شيء عظيم من الأجر والثواب . والضابط لجميع أنواع البذل من صفات النفس السامحة والسخاء من أركان الفضائل ، ولجميع أنواع الامساك البخل وهو من أمهات الرذائل ، ولكل منهما درجات ودركات

وأما الأولاد فهم كما يقول الادباء : ثمرة الفؤاد وأفلاذ الالكاد ، وجبههم كما قال الأستاذ الإمام : ضرب من الجنون يلقبه الفاطر الحكيم في قلوب الأمهات والآباء ، يحملهما على بذل كل ما يستطيع بذله في سبيلهم من مال وصحة وراحة وغير ذلك ، بل روى أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً إلى سيد الحكماء وخاتم الأنبياء ﷺ « الولد ثمرة القلب وإنه مجبنة مبخلة محزنة » فإن كان سنه ضيقاً كما قالوا فتنته صحيح ، فحب الولد قد يحمل الوالدین على اقتراف الآثام في سبيل تربيتهم والانفاق عليهم وتأثيل الثروة لهم : يحملهم ما ذلك على الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق أو الحقيقة ، أو الملة والأمة ، وعلى البخل بالزكاة والنفقات المفروضة ، والحقوق الثابتة ، دح صدقات التطوع والضيافة ، كما يحملهم الحزن على من يموت منهم على السخط على الرب تعالى والاعراض عليه وغير ذلك من المعاصي كنوح الامهات وتمزق ثيابهن ولطم وجوههن ، وفتنة الاولاد لها جهات كثيرة فهي أكبر من فتنة الأموال وأكثر تكاليف مالية ونفسية وبدنية ، فالرجل يكسب الحرام

ويأكل أموال الناس بالباطل لأجل أولاده كما يفعل ذلك لسكباتر شهواته ، فإذا قلت شهواته في السكبر فصار يكفيه القليل من المال يقوى في نفسه الحرص على شهوات أولاده ، وما يكفي الواحد لا يكفي الأحاد ، وفتنة الأموال قد تكون جزءاً من فتنة الأولاد ، فتقدم أو تأخير فتنة الأولاد من باب الانتقال من الأدنى إلى الأعلى فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الأولى بكسب المال من الحلال ، واتقائه

في سبيل الله من البر والاحسان واتقاء الحرام من الكسب والافتقار ، واتقاء خطر الفتنة الثانية من جهة ما يتعلق منها بالمال وغيره مما يشير إليه الحديث ، وبالأوجب الله على الوالدين من حسن تربية الأولاد على الدين والفصائل ، وتجنبيهم أسباب المعاصي والردائل ، قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)

وقد عطف على هذا التحذير قوله ﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ لتذكير المؤمنين بما يعينهم على ما يجب عليهم من اتقاء الفتنتين وهو إشاراً ما عند الله عز وجل من الأجر العظيم لمن راعى أحكام دينه وشرعه في الأموال والأولاد ووقف عند حدوده وتفضيله على كل ما عساه يقوته في الدنيا من التمتع بهما ، لعلمهم يتقون مثل هفوة أبي لبابة حين حذر أعداء الله ورسوله من فتح حصنهم والنزول على حكم سعد بن معاذ ، لما كان له من الاعتماد عليهم في حفظ ماله وولده ، على أن للمؤمن الصادق حسن قدوة بأبي لبابة في تويته النصوح ، وإذا ألم بضعف فوقع في مثل هفوته أو ما دونها من خيانة ، وأين مثل أبي لبابة رضى الله عنه في ذلك ؟ ولئن نرى كثيراً ممن يدعون الإيمان يخونون الله ورسوله في انتهاك حرمات دينهم ويخونون أمتهم ودولتهم بشمن قليل أو كثير من المال يرجونه أو ينالونه من عدوهم - وقد يكون من مال أمتهم وغنائم وطنهم - أو خوفاً على مالههم وولدهم من سلطانه قبل أن يستقر له السلطان ، وقد أسقطت الحياة دولة كانت أعظم دول الأرض قوة وبأساً بارتكاب رجالها الرشوة من أهلها ومن الأجانب حتى مسخت نصارت دولة صغيرة فقيرة ، ولكن الخلف المغرور لذلك السلف المحرب يدعون أنها إنما أسقطها تعاليم الإسلام القوية ، لأنها صارت قديمة ، ولو أنهم أقاموا واجبا واحداً أو أدبا واحداً من آداب القرآن ، لكان كافياً لوقايتها من الزوال .

(٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا
وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

هذه الآية آخر وصايا المؤمنين في هذا السياق وهى أعمها ، والأصل الجامع لها لغيرها ، وكلمة «الفرقان» فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى فى مجيئها هنا مطلقة ، فالتقوى هى الشجرة ، والفرقان هو الثمرة ، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق ومعناها فى أصل اللغة : الفصل بين الشيئين أو الأشياء والمراد بالفرقان هنا العلم الصحيح والحكم الحق فيها ، ولذلك فسروه بالدور ، وذلك أن الفصل والتفريق بين الأشياء والأمور فى العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الاجمال إلى حيز التفصيل ، وانما العلم الصحيح هو العلم التفصيلى الذى يعزى بين الاجناس والانواع والاصناف والاشخاص ، وإن شئت قلت بين الكلليات والجزئيات ، والبسائط والمركبات ، والنسب بين أجزاء المركبات ، من الحسيات والمعنويات ، وبين كل شئ من ذلك وبين طبعه حقه الذى يكون به ممتازاً من غيره . وإيراد الأمثلة على ذلك يطول فيشغل عن القدر المحتاج اليه فى تفسير لفظ «الفرقان» إلا أن نترك عوالم المادة وقواها ونأتى بمثال من اللغة لأن لفظ الفرقان من مفرداتها ، فنقول إن العامى يعلم من اللغة أمراً إجمالياً وهو أنها ألفاظ يعبر بها الانسان عما يحتاج إلى بيانه من علمه ، ومن العلم التفصيلى فيها ما هو مبين فى علم النحو والصرف وفى علوم المعانى والبيان والبديع والوضع والاشتقاق وأصول الفقه - كالعلم والخاص والمطلق والمقيد من الأخير مثلا - وأنت ترى أنك بهذا البيان الوجيز لمعنى الفرقان قد اتضح لك من دلالة على العلم الصحيح والحكم الرجيح ما كان خفياً ، وفصل منها ما كان مجعلاً ، ولذلك نعد من تفسير اللفظ لا استطراداً أجنبياً ، ولا سبلاً أتبياً ، كأكثر الذى يأتية أكثر المفسرين من مباحث النحو وفنون البلاغة وغيرها .

وكما يكون الفرقان فى مسائل المعلوم وموادها من طبيعية وعقلية واغوية ، وفى الموجودات التى استنبطت المعلوم منها يكون فى الاحكام والشرائع والاديين ، وفى الحكم بين الناس فى المظالم والحقوق وفى الحروب ، وقد اطلق للفرقان على

أشهر الكتب الالهية وهي التوراة والانجيل والقرآن وغلب على القرآن (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) لأن كلام الله تعالى يفرق في العلم والاعتقاد بين الايمان والكفر والحق والباطل ، وفي الاحكام بين العدل والجور ، وفي الاعمال بين الصحيح والفاسد والخير والشر . وأطلق هذا اللفظ على يوم بدر كما سيأتى في هذه السورة مع بيان وجهه ومتملق فصله وتفرقة

فقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ معناه إن تَتَّقُوا اللَّهَ في كل ما يجب أن يتقى بمقتضى دينه وشرعه ، وبمقتضى سننه في نظام خلقه ، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل ، وتفصلون بين الضار والنافع ، وتميزون بين النور والظلمة ، وتزيلون بين الخجة والشبهة . وقد روى عن بعض مفسرى السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذى يفرق بين الحق والباطل وهو عين ما فصلناه من الفرقان العلمى الحكيم ، وعن بعضهم بالنصر يفرق بين الحق والمبطل ، بما يعز المؤمن ويذل الكافر . وبالتجاة من الشدائد في الدنيا ومن العذاب في الآخرة . وهذا من الفرقان العلمى الذى هو نعمة العلمى ذكر كل مارآه مناسباً لحال وقته أو حال من لقته ذلك ، ولم يقصد تحديد المدلول للتقوى ، ولا المعنى الكلى الذى هو نعمة التقوى بأنواعها . وهذا النور فى العلم الذى لا يصل اليه طالبه الا بالتقوى هو الحكمة التى قال الله فيها (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد آتوا خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الالباب) فهو كعهد الله في إمامة الناس بالحق لا ينال الظالمين لأنفسهم بالتقليد لغيرهم لا حتقارها في جنب إطرائهم لتقليدهم ، بل هم لا يطلبونه ولا يقصدون الوصول اليه لأنهم ضدقوا بعض الجاهلين في ادعائهم افضال بابيه ، وكشافة حجابيه بل أصحابه هم الأئمة المجتهدون في الشرع والدين والواضعون للمعالم التى تنفع الناس . وكان لشيخنا الاستاذ الامام حظ عظيم منه

أمر الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه باتقائه وباتقاء النار وباتقاء الشرك والمعاصي وباتقاء الفتن العامة في الدول والأمم وتقدم في وصايا هذا السياق - و باتقاء الفشل والخذلان في الحرب ، و باتقاء ظلم النساء ، وبين ان العاقبة في إرث الأرض

للمتقين، كما أن الجنة في الآخرة للمتقين، وقال (٦٥: ٢-٤) ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب * ومن يتوكل على الله فهو حسبه - ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) وأمثال ذلك في التقوى العامة والخاصة وأجرها وعاقبتها كثير، فمعنى التقوى العامة اتقاء كل ما يضر الإنسان في نفسه وفي جسده الإنساني القريب والبعيد وما يحول بينه وبين المفاصل الشريفة والغايات الحسنة والكمال الممكن ولذلك قال العلماء: إنها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي وفعل ما يستطاع من الطاعات وزدنا على ذلك اتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى في الكون كالنصر على الأعداء وجمل كلمة الله هي العمليا في الأرض كما هي في الواقع ونفس الأمر ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى كذلك. وكال ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة - وكال هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى في الإنسان مجتمعا ومنفردا كما أرشد إليه في آيات من كتابه ، ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التي يفرق صاحبها بنوره بين الأشياء التي تعرض له من علم وحكم وعمل ، فيفصل فيها بين ما يجب قبوله وما يجب رفضه ، وبين ما ينبغي فعله وما يجب تركه ، وتنكير الفرقان للتنويع التابع لأنواع التقوى كالفتن في السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم ، فكل متق لله في شيء يؤته فرقانا فيه وبذلك كان الخلفاء والحكام من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من خلفاء العرب أعدل حكم الأمم في الأرض حتى في عهد الفتح . قال بعض حكماء الإفرنج : ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب، ولكنهم لم ينقوا فن السياسة والرياسة لقلّة اختبارهم فعوقبوا عليها بتفريقهم فضعفهم فزوال ملكهم ، وكان من بعدهم من أعاجم المسلمين دونهم لجهلهم بكل نوع من أنواع التقوى الواجبة ، وحرمانهم من فرقانها فهم يزعمون أنهم يجددون مجددم مع جهل هذا الفرقان المبين ، وعدم الاعتصام بالتقوى المزيكة للنفس، المؤهلة لها المصالح في الأرض ، بل مع انغماسهم في السكر والفواحش ، لظنهم أن الإفرنج قد ترقوا في دنياهم بفساقهم وفسادهم ، وإنما ترقوا بحكمتهم وأبرارهم الذين وقفوا حياتهم على العلم والعمل النافع * ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم * هذا عطف على (يجعل

لكم فرقانا) أى ويمحو بسبب هذا الفرقان وتأثيره ما كان من تدنيس سيناتكم
لأنفسكم فنزول منها داعية العود إليها المؤدى الى الاصرار المهلك ، ويفقرها لكم
بسترها وترك المقاب عليها ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ ومن أعظم فضله أن
جعل هذا الجزاء العظيم بقسميه السلبى والايجابى جزاء للتقوى وأنرا لها

(٣٠) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ
يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (٣١) وَإِذَا
تَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدَّ سَمِعْنَا ، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا
إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ

هاتان الآيتان وما بعدها تذكير للنبي ﷺ بما كان من حاله وحال قومه معه
في مكة كما سبقت الإشارة الى ذلك وقد حسن هذا التذكير بذلك في أول العهد
بنصره تعالى له على أولئك الجاحدين المعاندين ، الغافلين المفتونين ، الصادين عن
سبيل الله تعالى وعن اتباع رسوله بالقوة القاهرة

قال عز وجل ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى واذا ذكر أيها الرسول في
نفسك ، ما نقصه في الكتاب على المؤمنين والكافرين في عهدك ومن بعدك ، لانه
حجة لك على صدق دعوتك ، ووعد ربك بنصرك - اذكر ذلك الزمن القريب الذى
يمكر بك فيه الذين كفروا من قومك في وطنك - بما يدبرون فيما بينهم بالسرى
وسائل الايقاع بك ﴿ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ فأما الإثبات فالمراد به الشد
بالوثاق والارهاق بالقيد والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم الى الاسلام
وأما القتل فالمراد فيه طريقته وصفته الممكنة التى لا يكون ضررها فيهم عظيما وهو
ما يفتته الرواية الآتية عنهم ، وأما الاخراج فهو النفي من الوطن ، وقد روى كبار
مصنفى التفسير المأثور أن أبا طالب قال للنبي ﷺ : ما يأتى به قومك ؟ قال :

يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني . قال من حدثك بهذا ؟ قال ربي . قال نعم الرب ربك ، فاستوص به خيراً . قال : أنا أستوصي به ؟ بل هو يستوصي بي . « فنزلت (وإذ يكر بك الذين كفروا) ولهذا قال ابن جريج : إن الآية مكية ، وهو قول ضعيف كما تقدم في الكلام على نزول السورة في أول تفسيرها والصحيح أن التشاور في الأمور الثلاثة بدار الندوة كان عقب موت أبي طالب وخديجة رضي الله عنها ، وكان الخروج للهجرة في الليلة التي أجمعوا فيها أمرهم على قتله ﷺ كما يأتي بيانه ، ويجوز أن يكونوا قد تحدثوا به قبل إجماعه وإرادة الشرع فيه الذي وقع بعد موت أبي طالب فبلغه فسأل النبي ﷺ عنه .

وأما قوله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ فهو بيان لحالهم العامة الدائمة في معاملته ﷺ هو ومن اتبعه من المؤمنين بعد التذكير بشر ما كان منها في مكة ، ولذلك لم يقل «وَيَمْكُرُونَ بِكَ» أي وهكذا دأبهم معك ومع من اتبعك من المؤمنين يَمْكُرُونَ بِكَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ لَكُمْ بِهِمْ كما فعل من قبل إذ أحبط مكرهم ، وأخرج رسوله من بينهم ، إلى حيث مهد له في دار الهجرة ، ووطن السلطان والقوة ، والله خير الماكرين ، لأن مكره نصر الحق وأعزاز لأهله ، وخذل للباطل وإذلال لأهله ، وإقامة للسنن ، وإتمام للحكم ، وقدينا حقيقة المكر في اللغة في تفسير قوله تعالى (٣: ٥٤) ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وفي تفسير (٧: ٩٨) أفأمنوا مكر الله) الآية وخلاصته أن المكر هو التدبير الخفي لا يصلح المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب . ووقاية الممكور له من المكروه كذلك . والغالب في عادات البشر أن يكون المكر فيما يسوء وينم من الكذب والحيل ، ولذلك تأول المفسرون ما أسند إلى الله تعالى منه ، فقالوا في مثل هاتين الآيتين — آية الأنفال وآية آل عمران — إنه أسند إلى الله تعالى من باب المشاكلة بتسمية تخيير سبعهم في مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه ، والحق أن المكر منه الخير والشر والحسن والسيئ . كما قال تعالى (٣٥: ٤٣) استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا ينبغي المكر السيئ إلا بأهله) ومن الدعاء المرفوع «وامكر لي ولا تمكر علي» رواه أبو داود ويراجع تفسير آية آل عمران من الجزء الثالث وتفسير آية الأعراف من الجزء التاسع .

وأما قصة مكرهم الذي تروى عليه هجرة المصطفى ﷺ وظهور الاسلام وخذلان
الشرك ففيها روايات أوفاهما رواية ابن اسحاق في سيرته وابن جرير وابن المنذر وابن
أبي حاتم في تفسيرهم وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس (رض)
بألفاظ متقاربة ، نقل ما أورد السيوطي في الدر المنثور منها عنه قال :

« إن نفرا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة واعترضهم
إبليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت
بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم مني رأي ونصح ، قالوا أجل
فادخل ، فدخل معهم فقال : انظروا في شأن هذا الرجل فوالله ليوشكن أن يؤاتيك
في أمركم بأمره ، فقال قائل : احبسوه في وثاق ثم ربصوا به المنون حتى يهلك كاهلك
من كان قبله من الشعراء ، زهير وابفة ، فانما هو كأحدهم فقال عدو الله الشيخ النجدي
لا والله ما هذا لكم برأي ، والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه فليوشكن أن
يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، ثم يمنعوهم منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من
بلادكم فانظروا في غير هذا الرأي ، فقال قائل : فاخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا
منه فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وأين وقع ، وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه
فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وكان أمره في غيركم ، فقال الشيخ النجدي : لا والله
ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذته للثوب بما تسمع من
حديثه ، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن إليه ثم ليسيرن اليكم حتى
يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم ، قالوا صدق والله فانظروا رأيا غير هذا ، فقال
أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأي لا رأي غيره ، قالوا : وما هذا ؟ قل : نأخذ من
كل قبيلة غلاما وسطا شابا ثم نعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه به
ضربة رجل واحد ، فإذا قتلتموه نفرق دمه في القبائل كلها ، فلا أظن هذا الخي من
بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم ، وأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل
واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه ، فقال الشيخ النجدي : هذا والله هو الرأي القول ما قال
الفتي لا أرى غيره وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام النبي
ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم

فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك في الخروج وأمرهم بالهجرة واقتض عليهم القتال فأنزل الله (أذن للذين يقاتلون - الآية) فكانت هاتان الآيتان أول ما أنزل في الحرب وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه (وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآية اه وسائر خبر الهجرة معروف ثم ذكر تعالى مكابرة من مكابرات هؤلاء المشركين المعاندين الماكرين قالها بعضهم فأعجبت أمثاله منهم فرددوها فمزيت إليهم على الإطلاق وهي ﴿ وإذا تلى عليهم آياتنا ﴾ المنزلة في القرآن ، الذي يعجز عن مثله النقلان ، فيما أودع من علم وحكمة وتشرية وقصص وبيان ، وماله من التأثير في نفس كل إنسان ، بقدر ما أوتي من بلاغة وعقل وقلب ووجدان ﴿ قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ نقل هذا القول جمهور رواة التفسير المأثور عن النضر بن الحارث من بنى عبدالدار وعمل هذه الدعوى الكاذبة بما هو أكذب منها وقوله ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى قصصهم وأحاديثهم التي سطرت في الكتب على علائها ، وما هو بوحى من عند الله تعالى . قال المبرد في أساطير : هي جمع أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأثنية وأثافي وأحدثة وأحاديث وفي القاموس : الأساطير الأحاديث لا نظام لها جمع أسطار وأساطير وأسطور وبالهاء في الكل . وأصل السطر الصف من الشيء . كالكتاب والشجر اه . قال المفسرون . وكان النضر هذا يختلف إلى أرض فارس فيسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وكبار المعجم ويمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل ، كأنهم يعنون أن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم اشتبهت عليه بقصص أولئك الأمم فقال انه يستطيع أن يأتي بمثلها فما هي من خبر الغيب الدال على أنه وحى من الله : ولعله أول من قال هذه الكلمة فقلده فيها غيره ، ولم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلفة ، وإن هذا ﷺ هو الذي اقتراها ، فانهم لم يكونوا يتهمون به بالكذب كما نقل عن كبار طواغيتهم ، ومنهم النضر بن الحارث ، وقد قال تعالى في ذلك (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) بل كانوا يوهمون عامة العرب أنه اكتتبها وجمعها كما في آية الفرقان (٢٥ : ٥) وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تلى عليه بكرة وأصيلا) أى يحفظها ولم يكن كبراء بحرمة قریش ولا أهل مكة يعتقدون هذا أيضاً

فانهم كلهم كانوا يعلمون أنه أمي لم يتعلم شيئاً ، بل تشاوروا في شيء يقولونه ليصدوا به العرب عن القرآن فكان هذا القول منه ، وقد كذبهم الله تعالى فيه فما استطاعوا له اثباتاً وكان النضر بن الحارث من أشدم كفراً وعناداً ، وحرصاً على صد الناس عن القرآن ، وقد روى عنه أنه هو الذي نزل فيه قوله تعالى (٣١ : ٦) ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً) إذ اشترى قينة جميلة كانت تقفئ الناس بأخبار الأمم وغير ذلك لصرفهم عن سماع القرآن إليها وهو الذي زلت فيه الآية التي بعد هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها وهي الدالة على منتهى الجحود والعناد على قول بعض الرواة

وهذا القول الذي قاله النضر لا يدل على أنه كان يرى من نفسه القدرة على معارضة القرآن في أسلوبه أو بلاغته وتأثيره ، وهو من بلغاء قريش إذ لو قدر لفعل لانه كان من أحرصهم على تكذيبه ، بل هو طعن في أخبار القرآن عن الرسل لتشكك العرب فيه وصرفها عنه ، وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا « افتراء » وقد يكون بعضهم اعتقد ذلك إذا كان نفي الله لتكذيبهم إياه خاصاً ببعضهم كالوليد بن المغيرة الذي قال لأبي جهل والخنس وغيرهما حين دعوه لتكذيبه : إن عمداً لم يكن يكذب على أحد من الناس ، أفيكذب على الله ؟ وقد شمل التحدى بالقرآن هؤلاء المفتريين عن اعتقاد أو غير اعتقاد إذ قال في سورة بولس (١٠ : ٣٨) أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أي بسورة مثله مفتراة كما صرح بالوصف في سورة هود فقال (١١ : ١٣) أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) الخ وبيننا الفرق بين هاتين الآيتين وآية سورة البقرة في التحدى عند تفسير هذه الأخيرة (راجع ص ١٩٢ و ١٩٣ من الجزء الأول تفسير) ولقد كان زعماء طواغيت قريش كالنضر بن الحارث هذا وأبي جهل والوليد بن المغيرة يتواصون بالأغراض عن سماع القرآن ، كما ينعون الناس منه ثم يختلقون أفراداً إلى بيت النبي ﷺ ليلا يستمعون إليه ويعجبون منه ومن تأثيره وسلطانه على العقول والقلوب ، وكان يلتقي بعضهم ببعض أحياناً فينلأومون ويؤكد بعضهم لبعض القول بعدم العود إلى ذلك ، ومما كان من تأثير استماعهم أن قال الوليد بن المغيرة

فيه كلته المشهورة في وصفه ومنها «أف. يملو ولا يعلم، وأنه يحطم منحنه» فخافوا أن تسميها العرب فما زالوا يلحون عليه في قول كلمة منفرة تؤثر عنه حتى إذا ما أقنعوه بوجوب ذلك أطال التفكير والتقدير والنظر والتأمل والعبوس والنقطيب حتى اعتدى إلى الكلمة الماثورة عن جميع مكذبي الأنبياء في تسمية آياتهم سحراً فقال : سحر يؤثر - وقد تقدم بيان هذا في بحث الإعجاز من تفسير آية البقرة في التحدى .

(٣٢) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّكَ فَهَرَبْنَا مِنْهُمْ خِيفًا (٣٣) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٤) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٥) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

بعد أن بين تعالى مكر قریش بالنبي ﷺ بين ما يدل على أن سببه الجحود والعناد فقال

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّكَ فَهَرَبْنَا مِنْهُمْ خِيفًا ﴾ في صحيح البخارى أن قائل هذا أبو جهل . قال الحافظ في شرحه من الفتح : الظاهر أنه أبو جهل وإن كان هذا القول سب إلى جماعة فلم يبدأ به . ورضى الباقون فنسب إليهم ، وقد روى الطبرانى من طريق ابن عباس أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث ، قال فأنزل الله (سأل سائل بعذاب واقع) وكذا قال مجاهد وعطاء والسدى ، ولا ينافي ذلك ما في الصحيح لاحتمال أن يكونا قتلاء ولكن نسبته إلى أبي جهل أولى ، وعن قتادة قال : قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلها . اهـ وقال القسطلانى في شرحه له : وروى أن النضر بن الحارث لعنه الله لما قال (إن هذا إلا أساطير الأولين) قال النبي ﷺ «ولك، إنه كلام الله» فقال هو وأبو جهل .

(اللهم إن كان هذا) الخ وإسناده إلى الجمع إسناد مافله رئيس القوم إليهم اه والمعنى : اللهم إن كان هذا القرآن وما يدعو إليه هو الحق منزلاً من عندك ليدين به عبادك كما يدعى محمد ﷺ فاقبل بنا كذا وكذا - أى أنهم لا يتبعونه وإن كان هو الحق المنزل من عند الله ، لأنه نزل على محمد بن عبد الله الذى يلقبونه بابن أبى كبشة ، بل يفضلون الهلاك بحجارة يرمجون بها من السماء أو بعذاب أليم آخر يأخذهم على اتباعه ، ومن هذا الدعاء علم أن كفرهم عناد وكبرياء وعتوً وعلو في الأرض ، لا لأن ما يدعوهم إليه باطل أو قبيح أو ضار ، وروى أن معاوية قال لرجل من سبأ ما أجمل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ؟ فقال : أجمل من قومي قومك حين قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) ولم يقولوا فاهدنا له « اه وما يحكيه القرآن من أقوال المشركين وغيرهم قد يكون بالمعنى دون نص اللفظ ، كما هو المعتاد بين الناس ، وقد يكون نظمه مع أدائه للمعنى بدون إخلال مما يميز الحكي عنهم عن مثله ، وقد يتعين هذا في الكلام الطويل الذى يتحقق بمثله الاعجاز .

قال تعالى رداعليهم ﴿ وما كان الله لمعذبهم وأنت فيهم ﴾ أى وما كان من شأن الله تعالى وسنته ، ولا من مقتضى رحمته ولا حكمته ، أن يعذبهم وأنت أيها الرسول فيهم ، وهو إنما أرسلك رحمة للعالمين ونعمة لا عذاباً ونقمة ، بل لم يكن من سنته أيضاً أن يعذب أمثالهم من مكذبي الرسل وهم فيهم بل كان يخرجهم منهم أولاً كما قال ابن عباس ﴿ وما كان الله لمعذبهم ﴾ هذا النوع من العذاب السماوى الذى عذب بمثله الأمم فاستأصلهم أو مطلقاً ﴿ وهم يستغفرون ﴾ أى فى حال هم يتلبسون فيها باستغفارهم تعالى بالاستمرار روى الشيخان من حديث أنس قال أبوجهل (اللهم إن كان هذا هو الحق) - الآية - فنزلت (وما كان الله لمعذبهم) إلى قوله (وما لهم أن لا يعذبهم الله) الآية قال الحافظ فى شرح الحديث من الفتح روى ابن جرير من طريق زيد بن رومان أنهم قالوا ذلك ثم لما أمسوا ندموا فقالوا غفرانك اللهم فانزل الله (وما كان الله لمعذبهم وهم يستغفرون) وروى ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن معنى قوله (وهم يستغفرون) أى من سبق له من الله أنه يؤمن . وقيل المراد من كان بين أظهرهم حينئذ

من المؤمنين ، قاله الضحاك وأبو مالك ويؤيده ما أخرجه الطبري من طريق ابن أبيزى قال « كان رسول الله ﷺ بمكة فأنزل الله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم خرج إلى المدينة فأنزل الله (وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون) وكان من بقي من المسلمين بمكة يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله (وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) الآية . فأذن الله في فتح مكة ، فهو العذاب الذي توعدهم الله تعالى » وروى الترمذي من حديث أبي موسى رفعه قال « أنزل الله على أمي أمانين » فذكر هذه الآية قال « فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار » وهو يقوى القول الأول والحل عليه أولى وإن العذاب حل بهم لما تركوا الندم على ما وقع منهم وبالغوا في معاندة المسلمين ومحاربتهم وصدّهم عن المسجد الحرام والله أعلم اهـ ما أورده الحافظ ، ويرد عليه أن الله عذبهم بالتحط لما دعا به عليهم النبي ﷺ كما ثبت في الصحيح حتى أكلوا الميتة والعظام ولم يرتفع إلا بدعائه ﷺ ولا يندفع إلا بتفسير العذاب الممتنع مع وجود الرسول والاستغفار بعذاب الاستئصال . ويؤيده أن ما عذب الله به قوم فرعون كان مع وجود موسى عليه السلام فيهم كما تقدم في سورة الأعراف والآيات نزلت مع السورة بالمدينة

وأما قوله تعالى ﴿ وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ أي وماذا ثبت لهم مما يمنع تعذيبهم بعادون عذاب الاستئصال عند زوال الأمانين منه بعد وإحلال انهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو للفسك ، قيل المراد به صدم النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية سنة ست والآية نزلت عقب غزوة بدر سنة اثنتين ، والمنع كان واقعاً منذ الهجرة ، ما كان يقدر مسلم أن يدخل المسجد الحرام فإن دخل مكة عذبه إذا لم يكن فيها من يجيره . والمراد بالعذاب هنا عذاب بدر إذ قتل صناديدهم وروس الكفر فيهم ، ومنهم أبو جهل ، وأسر سرايتهم . لا أفتح مكة كما قال الحافظ — بل لم تكن الهجرة نفسها إلا بصد المؤمنين عنه فقد كانوا يؤذون من طاف أو صلى فيه منهم إذا لم يكن له منهم أو من غيرهم من الأقوياء من يمنعه ويحميه ، وقد وضعوا على ظهر الرسول ﷺ فرث الجزور وهو ساجد فلم يتجرأ أحد على رميه عنه إلا بنته فاطمة عليها السلام — ومنعوا أبا بكر من

الصلاة وقراءة القرآن فيه فبنى لنفسه مسجداً كان يصلى فيه ويجهر بالقرآن فصدوه عن الصلاة فيه أيضاً لأن النساء والأولاد كانوا يجتمعون لسماع قراءته المؤثرة فخافوا عليهم أن يهتدوا إلى الاسلام . وقد تقدم خبره في ذلك وإجارة ابن الدغنة له ثم اضطراه إلى رد جوارده وهو من حديث الهجرة في البخارى (راجع ص ٥٥٥)

﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ أى مستحقين الولاية عليه لشركهم ومفسدتهم فيه كطوائفهم فيه عراة الأجسام رجالاً ونساءً ، ولما أجاب الله دعاء أبيهم ابراهيم بأن يجعل للناس أئمة من ذريته كما جعله إماماً لهم ، أجابه الله تعالى بأن عهده بالإمامة لا ينال الظالمين ، وأى ظلم أعظم شناعة وفساداً من الشرك ؟ (إن الشرك لظلم عظيم) وكانوا يقولون : نحن ولاية

البيت والحرم فنصدم من نشاء وندخل من نشاء ^(١) فقال تعالى ﴿ إن أولياءؤه إلا المتقون ﴾ للشرك وسائر الفساد والظلم وهم المسلمون الصادقون وقد وجدوا . وهذا غاية التأكيد فانه بعد أن نفى ولاية المشركين عن بيت الله تعالى نفى كل ولاية على الإطلاق واستثنى منها ولاية المتقين من المسلمين وهم عدوهم وخيارهم لا من لا فضل لهم في أنفسهم ، وانما يدعون حق الولاية بأنسابهم . وقيل ان الضمير في الموضعين لله تعالى أى ولم لا يعذب الله هؤلاء المشركين بعد انتفاء سببى منع العذاب والحال انهم ليسوا أولياءه وأنصار دينه الذين لا يعذبهم ؟ وكأن سائلاً يسأل : من أولياءؤه تعالى إذا ؟ فأجيب بصيغة الحصر بالاثبات بعد النفي : ما أولياءؤه إلا المتقون أى الذين صارت التقوى العامة صفة راسخة فيهم ، وتقدم ما يدل عليه هذا الإطلاق فيها من التفصيل في تفسير آية (إن تنقوا الله يجعل لكم فرقانا) وما هى بيعة . والقول الأول أقرب في هذا

(١) من العبر أن بعض شرفاء مكة الذين كانوا يتولون الحكم فيها إلى عهد قريب قال هذا القول الشركى الجاهلى بعينه فى الاسكندرية معبراً عن عقيدة أهل بيته بمناسبة ذكر ما كان من منعهم لأهل نجد من أداء فريضة الحج ، ونقل قوله مراسل بعض جزائى القاهرة من الاسكندرية فى حديث له معه ، فكان اقتراع الله منهم الولاية على البيت بأيدى من كانوا يصدونهم عنه وهم أهل نجد كما سبق للنبي ﷺ والمؤمنين مع طغاة قريش الأولين . وقد آن المتعالمين بالإنساب أن يفتهموا أن غرورهم بها مخالف للقرآن والوجدان والجنان وطبع هذا الزمان .

السياق والثاني أخص ويؤيده في حد ذاته قوله تعالى (١٠: ٦٢) ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٦٣ الذين آمنوا وكانوا يتقون () ويجوز الجمع بينهما **«ولكن أكثرهم لا يعلمون»** أنه لاحق لهم في الولاية على هذا البيت ولا سيما بعد ظهور الاسلام ووجود أولياء الله الموحدين الصالحين ، وكانوا يدعون هذا الحق بنفسهم الابراهيمى وقد أبطله الظلم ، وبقوتهم في قومهم وإن كانت إلى ضعف ، أو لا يعلمون أنهم ليسوا أولياء الله عز وجل ، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين فهم الآمنون من عذابه ، بمقتضى عدله في خلقه ، والحقيقون بالولاية على بيته ، على ما أعد لهم من الثواب والنعيم بفضل ، كما صرح به آياته في كتابه ، وقد أسند هذا الجمل إلى أكثرهم إذ كان فيهم من لا يجهل سوء حالهم في جاهليتهم وضلالهم في شركهم ، وكونه لا يرضى الله تعالى ، فإن امتنع رؤسائهم من الاسلام كبرا وعنادا ، فقد كان فيهم من يكتم إيمانه خوفا من الفتنة ، ويتربص الفرصة لإظهاره بالاستعداد للهجرة ، ومنهم المستعدون له بإسلامة الفطرة ، وللتفاوت في الاستعداد كان يظهر المرة بعد المرة والناس يطلقون الحكم في مثل الحال التي كانوا عليها على الجميع ويقولون إن القليل لاحكم له إن وجد فكيف ونحن لا نعلم بوجوده؟ ولكن الله تعالى لا يخفى عليه شيء ولا يقول إلا الحق ، ومثل هذا الحكم على أكثر الأمم والشعوب أو استثناء القليل منهم بعد إطلاق الحكم عليهم ، هو من دقائق القرآن في تحرير الحق ، وهو مكرر في مواضع من عدة سور ، وسبق تفصيلنا لهذا في تفسير ما تقدم منها .

هذا وإن جماهير المسلمين في أكثر بلادهم صاروا في هذا العصر أجهل من مشركي فريش في ذلك العصر . بمعنى ولاية الله وأوليائه . سواء في ذلك ولاية الحكم والسلاطان وهي الامامة العامة ، وولاية التقوى والصلاح ، وهي الامامة الشخصية الخاصة ، وجهلهم بهذه أعم وأعمق ، فالولاية عندهم تشمل المجانين والمجانين الذين ترتع الحشرات في أجسادهم النجسة ، وثيابهم القذرة . ويسيل اللعاب من أشداقهم الشرهة ، وتشمل أصحاب الدجل والخرافات ، والدعاوى الباطلة للكرامات ، والشرك بالله بدعاء الأموات ، ومن أدلتهم عليها ما يخيّلون من رؤى الأنبياء والاقطاب في المنام وما يزعمون من تلقيهم عنهم ما تنبذه شريعة المصطفى عليه السلام ، حتى صار ما هم

عليه دين شرك منافيا لدين الاسلام، فعليك بمطالعة كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لشيوخ الاسلام ابن تيمية ومن أولى منه بمثل هذا الفرقان؟ ثم عطف على الحكم عليهم ما هو حجة على صحتة وهو بيان حالهم في أفضل ما بنى البيت لأجله وهو الصلاة، إذ كان سوء حالهم في الطواف عرارة معروفا لا يجهله أحد، أو في العبادة الجامعة للطواف والصلاة فقل ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ من المعلوم أن البيت إذا أطلق معروفا انصرف عندهم إلى بيت الله المعروف بالكعبة والبيت الحرام على القاعدة اللغوية في انصراف مثله إلى الأكمل في جنسه كالنجم للثريا وهي أعظم النجوم عداية. روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت قریش تطوف بالبيت عرارة تصفر وتصق. وقال المكاء: الصفر والتصدية التصفيق، وقال: كان أحدهم يضع يده على الأخرى ويصفر. وروى عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عرارة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وروى الطسقي فيما روى من أسئلة نافع بن الأزرق أنه قال له أخبرني عن قوله عز وجل (إلا مكاء وتصدية) قال المكاء صوت القنبرة والتصدية صوت المصافير وهو التصفيق، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي بين الحجر (الأسود) والركن اليماني - يعني أنه يتوجه إلى الشمال ليجمع بين الكعبة وبيت المقدس في الاستقبال - فيجىء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء والآخر يصفق بيديه تصدية المصافير ليفسدا عليه صلاته. قال (نافع) وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت حسان بن ثابت يقول:

تقوم إلى الصلاة إذا دعينا وهمتك التصدى والمكاء

وفي بعض كتب اللغة أن المكاء طائر أبيض، وعن سعيد بن جبیر: كانت قریش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستمزنون ويصفرون فنزلت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) وقال الراغب: مكاء الطير يكمو مكاء: صفر. وذكر أن المكاء في الآية جار مجرى مكاء الطير في قلة الغناء. قال والمكاء (بالضم والتشديد) طائر، ومكأت استه صوتت له. ويحتمل أن هذه الفعل القبيحة كانت تقع منهم

عمداً أيضاً فذكر اللفظ المشترك ليدل عليها ولم يذكر اللفظ الذي وضع لها وحدها .
نראה ، وقال في التصديّة : كل صوت يجري مجرى الصدى في أن لا غناء فيه اه
وجملة القول أن صلاتهم وطوافهم كان من قبيل اللهو واللعب سواء عارضوا بذلك
الرسول ﷺ في طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته أم لا

قال تعالى ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ فسر الضحاك العذاب هنا
بما كان من قتل المؤمنين لبعض كبرائهم وأسرهم لآخرين منهم يوم بدو أي
وانتهزام الباقيين مكسورين مدحورين . وفيه إشارة إلى قولهم (أو ائتنا بعذاب
أليم) كأنه يقول : فذوقوا العذاب الذي طلبتموه ، وما كان لكم أن تستعجلوه .

(٣٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى
جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ (٣٧) لِمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ
بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

نزل هذا في استمداد قريش لفزوة بدر وما سيكون من استعدادهم لغيرها
بعدها . ويشمل اللفظ بعمومه ما سيكون مثل ذلك من الكافرين في كل زمن . ذكر
رواة التفسير عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم أن هذه الآية الأولى نزلت
في أبي سفيان وما كان من انفاقه على المشركين في بدر ومن اعانته على ذلك
في غزوة أحد وغيرها ، ففي بعض الروايات أنه لما نجا بالعبير بطريق البحر إلى مكة
مشى ومعه نفر من المشركين يستنفرون الناس للقتال ، فجاءوا كل من كان لهم
تجارة فقالوا يامعشر قريش ان محمداً قد وركم وقتل رجالكم فأعينونا بهذا المال
على حربه ففعلنا ندرك منه ثاراً — ففعلوا . وقال سعيد بن جبير : إنه استأجر
يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة يقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من

وجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع
 ثلاثة آلاف ونحن عصاة ثلاث مئين ان كفرنا فأربع
 وقال الحكم بن عتيبة في الآية : نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين
 يوم أحد أربعين أوقية من ذهب ، وكانت الأوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالا ، هذا
 على ما كان معروفا من بخل أبي سفيان كما قالت زوجته يوم المبيعة لرسول الله ﷺ
 ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ أى عن الاسلام
 واتباع خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ﴿ فسيففقونها ﴾ في سبيل الشيطان صدأ
 وفتنة وقتالا ﴿ ثم تكون عليهم حسرة ﴾ ونداما وأسفاء لذهابها سدى ، وخسرانها عبث ،
 إذ لا يطيعهم ممن أراد الله هدايتهم أحد ﴿ ثم يغلبون ﴾ المرة بعد المرة ، وينكسرون
 الكرة بعد الكرة ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ أى يساقون يوم القيامة إليها
 دون غيرها كما أفاده تقديم الظرف على متعلقه . هذا إذا أصروا على كفرهم حتى ماتوا
 عليه ، فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما . ومن العبرة في هذا للمؤمنين أنهم أولى
 من الكفار ببذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله لأن لهم بهامن حيث جعلتهم سعادة
 الدارين ، ومن حيث أفرادهم الفوز باحدى الحسنين ^(١) هكذا كان في كل زمان
 قام المسلمون فيه بحقوق الاسلام والايمان ، وهكذا سيكون ، إذا عادوا إلى ما كان
 عليه سلفهم الصالحون . والكفار في هذا الزمان ينفقون القناطر المقتطعة من
 الأموال للصد عن الاسلام ، وفتنة الضعفاء من العوام ، بجهاد سعى ، أعم من الجهاد
 الحربى ، وهو الدعوة إلى أديانهم ، والتوسل إلى نشرها بتعليم أولاد المسلمين في
 مدارسهم ، ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم . والمسلمون مواتون ، يرسلون
 أولادهم إليهم ولا يباليون ما يعملون (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)

﴿ تمييز الله الخبيث من الطيب ﴾ يعنى أن الله تعالى كتب النصر والغلب
 والفوز لعباده المؤمنين المتقين ، والخذلان والخسران لعباده الكافرين
 للصد عن سبيل الله الذى استقاموا عليه ، وجعل هذا جزاء كل من الفريقين .

ماداما على حالها ، فاذا غيرا ما بانفسهما غير الله ما بهما . جعل هذا جزاء هما في الدنيا وجعل جهنم مأوى للكفار وحدهم في الآخرة ، لأجل أن يميز الكفر من الايمان ، والحق والعدل من الجور والظفیان ، فلن يجتمع في حكمته سبحانه الضدان ، ولا يستوى في جزائه النقيضان (١٠٣ : ٥) قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب (الخبيث والطيب المعنويان في حكم العقلاء والفضلاء ، كالخبيث والطيب الحسين في حكم سليمى الخواص ولا سيما الشم . وقد سبق لنا تحقيق هذا المعنى في تفسير هذه الآية من سورة المائدة ^(١) وفي تفسير (٣ : ١٦٩) ما كان الله ليعز المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ^(٢)) قرأ حمزة والكسائي (يميز) بالتشديد من التمييز وقرأها الجمهور بالتخفيف . والمراد بالمميز والتمييز ما كان بالفعل والجزاء كما قلنا لا بالعلم فهو بكل شيء عليم ، وهذا التمييز الألهى بين الأمرين في الاجتماع البشرى يوافق ما يسمى في عرف هذا العصر بسنة الانتخاب الطبيعي وبقاء أمثل الأمرين المتقابلين وأصلحهما . وسنن الله في الدنيا والآخرة واحدة كما قال أبو حامد الغزالي (رح) وإن جهل ذلك الخبيثون المتكلمون على الشفاعات والمفترون بالألقاب الدينية من كل ملّة وأمة . فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة لا ينفعه شيء ، ولذلك قال ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركه جميعا ﴾ أى ويجعل سبحانه الخبيث بعضه منضمّا متراكبا على بعض بحسب سنة تعالى في اجتماع المشاكلات ، وانضمام المناسبات ، وائتلاف المتعارفات ، واختلاف المتناكرات ، يقال ركه : إذا جمع بعضه إلى بعض ومنه (سحاب مركوم) ﴿ فيجعل في جهنم ﴾ يجعل أصحابه فيها يوم القيامة ﴿ أو أهلكم الخاسرون ﴾ التامو الخسران وحدهم ، لأنهم خسروا أموالهم وأنفسهم

جاء مصر القاهرة من عهد قريب صاحب صحيفة سورية دورية من دعاة الاتحاد المنفرجين ، فأقام فيها أياما قلائل استحكمت فيها له مودة أشهر ملاحدة مصر ودعاة الزندقة والاباحة فيها ، فعاد ينوّه بهم ، وينشر دعايتهم ، ويزعم أنهم

دعامة الترقى والعمران ، بالدعاية إلى تجديد ثقافة لمصر - فلف ما كان لها من ثقافة العرب والاسلام ، والحق أن هؤلاء كلهم هدامون للمعائد والفضائل وجميع مقومات الأمة ومشخصاتهم ، وليسوا بأهل لبناء شيء لها ، إلا إذا سميت الزندقة وإباحة الأعراض وتمهيد السبيل لاستعباد الأجانب لأمتهم بناء مجد لها . وقد ذكرني ذلك رجلا من قرية صالحة مر به رجل من معارفه كان في إحدى المدن فطفق يسأله عن المساجد ومدارس العلم فيها وعن الصالحين من أهلها . فأجابه الرجل : أعن هذا تسأل مثلي ؟ سألني عن أهل الحانات والمواخير ، فأنى بها وبهم علم خبير (وكذلك نولى بعض الظالمين بما كانوا يكسبون)

(٣٨) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعِمَ الْمَوْلَى وَنَعِمَ النَّصِيرُ

لما بين الله تعالى حال الكفار الذين يصرون على كفرهم وصددهم عن سبيل الله وقتل رسوله والمؤمنين وما لهم في الدنيا والآخرة قبي عليه ببيان حكم الذين يرجعون عنه ويدخلون في الاسلام ، لأن الأنفس صارت تنشوف إلى هذا البيان وتنسأل عنه بلسان الحال أو المقال ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا ﴾ أى قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار أى لأجلهم وفى شأنهم ، فاللام للتبليغ . إن ينتهوا عما هم عليه من عداوتك وعنادك بالصد عن سبيل الله والقتال لأوليائه المؤمنين بالدخول في الإسلام ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ منهم من ذلك ومن غيره من الذنوب ، يغفر الله لهم ذلك في الآخرة فلا يعاقبهم على شيء منه ، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون ما يخصهم من إجرامهم فلا يطالبون قاتلا منهم بدم ، ولا ساليا أو غائما بسلب أو غنم ،

« قال فلما اجعل الله الاسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يدك أبايك ، فبسط يمينه فقبضت يدي قال : مالك ؟ قلت أردت أن أشرط قال : تشرط بماذا ؟ قلت : أن يغفر لي ، قال : أمانعت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ » (« وإن يعودوا ») إلى انعدام والصد والقتال (« فقد مضت سنة الأولين ») أي تجرى عليهم سنته المطردة في أمثالهم من الأولين الذين عادوا الرسل وقتلهم ، وقال نجاهد : في فريش وغيرها يوم يروا لأمم قبل ذلك ، أقول وهي السنة التي عد عنها بمثل قوله (٥٨ : ٢٠) أن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الآذلين ٢١ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) وقوله (٤٠ : ٥١) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) فإضافة السنة إلى الأولين للإستبها لهم وجر ياتها عليهم

(« وقتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ») أي وقتلهم حينئذ أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب وضروب الإبداء لأجل تركه ، كما فعلوا فيكم عند ما كانت لهم القوة والسلطان في مكة حتى أخرجوكم منها لأجل دينكم ثم صاروا يأتون لقتالكم في دار الهجرة ، وحتى يكون الدين كله لله لا يستطيع أحد أن يفتن أحداً عن دينه ليكرهه على تركه إلى دين المسكره فيستقدم تقيته ونفاقه - ونقول إن المعنى بتعبير هذا العصر : ويكون الدين حراً ، أي يكون الناس أحراراً في الدين لا يكره أحد على تركه أو إكراهه ، ولا يؤذى ويمذب لأجله تعذيباً ، ويدل على العموم قوله تعالى (٢ : ٢٥٦) لا إكراه في الدين قد تبين لرشد من الغي) وسبب نزول هذه الآية أن بعض الانصار كان لهم أولاد يهودوا وتنصروا منذ الصغر فأرادوا إكراههم على الاسلام فنزلت فأمرهم النبي (ص) بتخييرهم ، ولكن المسلمين اتعاقبوا لولون حرية دينهم ، إن لم يكرهوا عليه أحداً من دونهم ، مما رضى الله ورسوله في معاهدة الحديبية بتلك الشروط الثقيلة التي اشترطها المشركون إلا ما فيها من الصلح المنع من الفتنة في الدين المبيح لاختلاط المؤمنين بالمشركين وإسماهم القرآن إذ كان هذا إباحة للدعوة إلى الاسلام بالحكمة والمنوعظة الحسنة ولرؤية المشركين حال المؤمنين ومشاهدتهم أنها خير من حالهم ، ولذلك كثر دخولهم في

الاسلام بعدها . وسعى الله هذا الصلح فتحامبيننا . وأما ورود الحديث بقتل المرتد
فله وجه آخر من منع الميث بالاسلام كان له سبب سياهي اجتماعي بيناه في موضعه
هذا هو التفسير المتبادر من اللفظ بحسب اللغة العربية وقاريخ ظهور الاسلام .
وروى عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك قال ابن كثير وكذا قال أبو العالية
ومجاهد والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم . أقول : عليه جمهور مؤلفي التفاسير المشهورة
من الخلف قالوا وقتلهم حتى لا يبقى شرك وتزول الاديان الباطلة فلا يبقى إلا
الاسلام ولذلك قال بعضهم : لم يحجى تأويل هذه الآية بعد وسيتحقق مضمونها إذا
ظهر المهدى ، فانه لا يبقى على ظهر الأرض مشرك أصلاً على ما روى عن أبي عبد الله
(رض) كتب هذا الأوسى وهو لا يصح أصلاً ولا فرعاً ، ويؤيد الأول ما روى البخاري
عن عبد الله بن عمر « أن رجلاً جاءه فقال يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه
(وان طائفتان من المؤمنين اقاتلوا) إلى آخر الآية ، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر
الله في كتابه ؟ فقال يا ابن أخي أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلى من أن أعير
بهذه الآية التي يقول الله تعالى فيها (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) إلى آخرها . قال فان الله
يقول (وقاتلهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ
إذ كان الاسلام قليلاً فكان الرجل يفتن في دينه ، اما يقتلوه وإما يوثقوه حتى كثر
الاسلام فلم تكن فتنة » الخ فابن عمر رضى الله عنهما يفسر الفتنة في آية الانفال
هذه بما قلنا إنه المتبادر منهما ويقول : إنها قد زالت بكثرة المسلمين وقوتهم فلا يقدر
المشركون على اضطهادهم وتعذيبهم ولو كانت بمعنى الشرك لما قال هذا فان الشرك لم يكن
قد زال من الأرض ولن يزول (ولو شاء ربك لجلد الناس أمة واحدة) الآية
وقد ذكر هذه الرواية ابن كثير في تفسير الآية وزاد عليها روايات عنه أخرى .
بمعناها منها أنه جاءه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا إن الناس قد صدقوا ما ترى وانت
ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله (ص) فما يمنعك أن تخرج ؟ قال يمنعني
أن الله حرم على دم أخى المسلم . قالوا أولم يقل الله (وقاتلهم حتى لا تكونوا فتنة ويكون
الدين كله لله ؟) قال قد فعلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا
حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله » وفي رواية زيادة « وذهب الشرك » وذكر

(الانفال . س ٨) سلف المسلمين وغيرهم مع الشعوب الاخرى في الفتح والنصر ٦٦٧

أيضاً أن رجلاً أورد الآية على أسامة بن زيد وسعد بن مالك (رض) فقالا قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله . وهذا وما قبله من رواية ابن مردويه في تفسيره وقال محمد بن اسحق : بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا (حتى لا تكون فتنة) حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

﴿فان انتهوا﴾ أي فان انتهوا عن الكفر وعن قتالكم ﴿فان الله بما يعملون بصير﴾ فيجازيهم عليه بحسب عمله . وقرأ يعقوب (تعملون) بالتاء الفوقية بالخطاب . وفي سورة البقرة (٢ : ١٩٣) وقاتلوم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴿وان تولوا﴾ وأعرضوا عن سماع تبليغكم ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقتالهم لكم ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ أي فأيقنوا أن الله تعالى هو ناصركم ومتولى أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخافوا فهو ﴿نعم المولى﴾ ونعم النصير ﴿هو﴾ فلا يضيع من تولاه ولا يغلب من نصره .

فان قيل : إن انتصار المسلمين في القرون الأولى كان لأسباب اجتماعية فلما تغيرت هذه الأسباب خاتهم النصر حتى فقدوا أكثر ممالكهم ، وإتنا نرى الأمم ينتصر بعضها على بعض بالاستعداد المادى من سلاح وعناد بالنظام الحرى الذى جهله المسلمون بغيرورهم بدينهم واتكالم على خوارق العادات ، وقراءة الأحاديث والدعوات ، ولذلك تركه سياسة الترك وأمسوا لأنفسهم حكومة مدنية لحادية تناهض الإسلام ، ويوشك أن يقبهم سياسة المصريين والافغان .

قلنا : إن ما ذكره المعارض - وهو واقع لا مفروض - حجة على المسلمين المتأخرين لاعلى الإسلام ، فالإسلام يأمر باعداد القوى المادية ويضيف إليها القوى المعنوية ، ومنها بل أعظمها الإيمان بالله ودعاؤه والانكال عليه باتفاق العقلاء حتى الماديين منهم ، ولم يشرع للناس الانكال على خوارق العادات ، حتى في أيام الرسول المؤيد بالآيات البينات ، ولما غلب المسلمون في وقعة أحد لنتصيرهم في الأسباب وتعجبوا من ذلك أنزل الله تعالى (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) وقد وفينا هذا البحث حقه في تفسير هذه الآية وأمثالها من الآيات التى نزلت في تلك الغزوة من سورة آل عمران وسنعود إليه في تفسير آية (وأعدوا لهم ما استطعتم

من قوة) وغيرها من هذه السورة قريباً إن شاء الله تعالى .

وما أضعف الترك والمصريين وغيرهم من شعوب المسلمين إلا تركهم هداية القرآن في مثل هذا وغيره من إقامة العدل والفضائل وسنن الله في الاجتماع التي انتصر بها السلف الصالح ، واستبداد حكامهم فيهم ، وانفاق أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الاسراف في شهواتهم ، وقد اتبع الأفرنج تعاليم الإسلام في الاستعداد للحرب وفي غير ذلك من سنن الله في العمران ، فرجحت بهم كفة الميزان ، وسيتبعونها في الأمور الروحية ، بعد أن تبرح بهم التعاليم المادية والبلشفية ، ويتفاقم فسادها في أممهم ، حتى تخرب بيوتهم بأيديهم ، من حيث فقد المسلمون الجغرافيون النوعين كليهما من تعاليمه ، وقام الجاهلون منهم يحنثون عليه ، بما أفسدوا وابتدعوا فيه ونسبوه إليه ، وهو حجة عليهم وعلى جميع الخلق .

وأما الأمور الاجتماعية التي مكنت سلف المسلمين من فتح بلاد كسرى ، وقيصر وغيرها من الشعوب فهي أكبر حجة للإسلام أيضاً ، إذ ليست تلك الأمور إلا ما كان أصاب تلك الشعوب من الشرك وفساد العقائد والآداب ، ومسارىء الاخلاق والمعادات ، من فشو الفواحش والمنكرات ، وسلطان البدع والخرافات ، التي جاء الإسلام لازالتها ، واستبدال التوحيد والفضائل بها ، ولهذا وحده نصرهم الله على الأمم كلها ، إذ لاختلاف بين أهل العلم والتاريخ في أن العرب كانوا دون تلك الشعوب كلها في الاستعداد الحربي المادى ، فلم يبق لهم ما يمتازون به بالإصلاح الإسلام المعنوى . ولما أضاع جماهير المسلمين هذه العقائد والفضائل ، واتبعوا سنن تلك الأمم من البدع والذائل — وهو ما خذروهم الإسلام منه — ثم قصروا في الاستعداد المادى للنصر في الحرب ففقدوا النوعين منه ، عاد الغلب لغيرهم عليهم .

فنسأله تعالى هداية هذه الأمة ، وكشف ما هم فيه من غمة ، لتستحق نصره باتباع شرعه ، ومراعاة سننه في خلقه ، وبتقواه المنيرة للفرقان في العلوم والأحكام والأعمال ، فيعود لها ما فقدت من الملك والسلطان اللهم آمين .

✽ تم تفسير الجزء التاسع كتابةً ونحويراً بفضل الله وحوله وقوته ✽

(في أواخر شهر شعبان سنة ١٣٤٦ ونسأله الاعانة والتوفيق لانتمام ما بعده)

والله الحمد والشكر أولاً وآخراً

فهرس عام للجزء التاسع من تفسير المنار

صفحة	صفحة
٥٦٥	(١)
الآيات السكونية للرسول	الآخرة . كونها خير المقتنين من الدنيا ٣٨٣
٥٤٢	» والدنيا . الفرق بينهما ١٥٥
» المتشابهة والفروق بينهما	» آداب قراءة القرآن والاستماع له ٥٥٣
» الناطقة بأن القرآن عربي	آدم . روايات إسناد الشريك اليه وإلى حواء
ولسان عربي وحكم عربي ٣١٤	وتسمية أولادها برأى الشيطان ٥٢١
» لا تقتضى إيمان مقترحها ٣٣	الآل . معناه واستعماله وآل فرعون ٨٥
آيات القرآن وأمثاله في صفات أهل النار ٤٢٧	آل فرعون : أخذهم بالسنين وما كان من
» الله في خلقه ٥٧٣	تطهيرهم موسى في الشر واعتقادهم استحقاق
» » » » هي ميثاقه على	الخير لذواتهم ٨٤ إرسال الطوفان والجراد
ربوبيته ٣٩٩ — ٤٠٢	والقمل الخ عليهم ٨٩ استغاثتهم موسى أن
آية أخذ الميثاق على ذرية نبي آدم ٣٨٦	يدعوه ربه يكشف الرجز عنهم وإقسامهم
» أصول الآداب والشرائع ٥٣٢	ليؤمنن به ونكتهنم والانتقام منهم باغراقهم
» (هو الذي خلقكم من نفس واحدة)	٩٣ إصرارهم على كفرهم بمد رؤية
واضطراب المفسرين فيها ٥٢٠	الآيات ٨٨
» (وإنه لفي زبر الأولين) وخمطاً من زعم	آلهة فرعون ٧٩
أن معضاهها إن معاني القرآن في تلك	الآيات الالهية ، التفكير فيها ٤٠٩
الكتب بلغتها فهي فيه باللسان العربي	» اتسع التي أيد بها موسى ٩٢
وفي التوراة مثلاً باللسان العبراني ٣٣٩	» التي استدلوأ بها على رؤية الرب وعلى
» (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن	ففيها وعجال التأويل فيها ١٣٤ — ١٣٧
والانس) تفسيرها بما لا نظير له في	» في الاحتجاج على المشركين ٥٦٠
الكتب ٤١٨	» في الرسالة والرسول ٥٦٥
ابتلاء الله الأمم تربية لها ٣٨٢	» في عموم بشة خاتم النبيين ٣١٦
إبليس . عداوته للبشر وأبيهم ٥٧٤	» في كون الدين سبيلاً للسعادة الدنيا ٢٤
ابن جريج . كونه شر المدلسين ٣٦٥	» في نيز اليكفار الرسول بالجنون ٤٥٣
ابن عباس . روايته عن كتب الأخبار ٥٠٦	
ابن عربي . قوله في رؤية الرب ١٦٧	

رضيات

دار النصار
١٤/١٤

فهرس

الجزء الثاني

تفسير القرآن الحكيم

الشرح بتفسير المنار

يراعى في هذا الفهرس :-

- ١ - أنه قد روعي الترتيب الهجائى فى الكلمة الثانية والثالثة وقدم المعروف وأهمل اعتبار واو العطف وحرف الجر
- ٢ - أن الأصفار التى عن يسار الأرقام تشير إلى إتمام أو إعادة المعنى فى الصفحة التالية أو ما بعدها
- ٣ - أن الترتيب على حسب النطق لا المادة

(تنبيه) أرقام عدد الآيات فى الشواهد تختلف باختلاف عدد المصاحف
فن لم نجد الآية موافقة لمصحفه وجدها بالقرب من عدده

الطبعة الثانية : أصدرتها دار المنار ١٣٦٧ هـ *

صفحة	صفحة
أحمد، تكفيره لبعض منكري الرؤية ١٣٥	ابن القيم تحقيقه تفسير آية الميثاق ٣٩٥-٤٠٤
الاختيار والانتخاب وما في معناه ٢١٥	« كلامه في نور الكشف والنور الالهي
الأخذ، استعماله بمعنى التعذيب والعقاب ٨٥	والحجب والتجلى ونور الذكر ١٦٨
الأخلاق، تأثيرها في الأمم ١٠٨ و ٣٠٩	ابن الام، النداء به ٢٠٨
« شدة فسادها في هذا الزمان ٥٤٨	أبو بكر تأثير قراءته في المشركين
الادراك والمدارك والمدركات ١٦٥	واضطهاده لأجلها ٥٥٥
الاديان، ألقابها الاقيمة لها عند الله تعالى ٣١	« حاله مع الرسول في الفار وبدر ٦٠٣
الاذنان، كسر نعمتهما ٤٢٦	ابو جاد، الاستدلال به على عمر الدنيا ٤٢٤
الأرض المباركة ميراث بني إسرائيل	أبو هريرة، روايته عن كتب الأخبار ٥٠٦
فالعرب ٩٨-١١٣	الاثبات المفيد للنفي وعكسه ١٣٦
الاسباب، طلب المنافع ودرء المضار من	الاجماع على وجوب تعلم العربية على
طريقها دون الأوهام والحواري	المسلمين ٣١٠
المجهولة والخرافات ٤٢٢	الأحاديث، وضع زنادقة اليهود والفرس
أسباط بني إسرائيل ٣٦٥	وغيرهم لها ٥٠٦
الاستثناء لما شاء الله ٥٠٨	« الإدراج فيها واشتباء المدرج بالمسند
استثناء ما شاء الله من نفي الحال عادة أو شرطا ٦	٥٠٦
الاستدراج الالهي بالسفن والاسباب ٥٠١	« رواية أكثرها بالمعنى وكونها من
الاسترقاء، منافاته للتوكل ودخول الجنة	أسباب التعارض فيها ٥٠٦
بغير حساب ٤٢٢	« رواية الضحابة والتابعين لها وعدم
الاستعاذة بالله من الشيطان ٥٤١	تفرقهم بين المسموع وغيره في التعبير
استواء الرب على عرشه وعلوه على خلقه	كما فعل المحدثون بعدهم ٥٠٦
٥٦١	« الصحيحة في أسرار الساعة ٤٨٣
الاسرائيات الخرافية في ألواح موسى ١٩٠	« في أخذ ذرية آدم من صلبه وجعاهم
« في عمر الدنيا (راجع الدنيا)	فريقين ٣٨٩-٣٩٤
« في قصة بلعام ٤١٤	أحاديث الفتن وأسرار الساعة، قواعد في
« فيمن اختارهم موسى للميعات ٢١٦	التقصي من تعارضها ومشكلاتها ٥٠٤-٥٠٧
الاسف، حقيقة معناه ٢٠٦	إحقاق الحق وإبطال الباطل في بدر ٦٠١

صفحة	صفحة
٣٠٨ و ٣٠٢	الاسلام . إبطال الترك له من حكومتهم
الاسلام يجب ما قبله من ذنوب الكفر	وتركهم لتسريته تعليميا وعملا وحكما
٦٦٤	واستبدال قوانين أوربة بها ٣١٧
أسماء الله الحسنى . أخذها من القرآن ٤٣٤	» إحلاله الطيبات لبني إسرائيل
» الاتحاد فيها وأنواعه ٤٤٠	وتحريره الجبائث عليهم ٢٢٨
» توفيقية ٤٤٣	» إرشاده لأسباب ارتقاء الأمم في
» حصرها في ٤٣٣: ٩٩ و ٤٣٧	الحضارة والملك وإضاعة مسلمي
» دعاؤه بها ٤٣١	القرون الأخيرة لذلك علما وعملا
الاشعرية . رد الجويني من انتمهم على شيوخه	حتى ظنوا ضده ١٨
وغيرهم . منهم في تأويل الصفات وإثباته	» أعظم قوة معنوية في الأرض ٢٢
لحقية مذهب السلف ١٨٠	» أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ٢٢٧
الأصنام . كونها لا تنفع عابديها بل هي دونهم	» التعليم الفاسد الذي أضاعه ١٩
٥٢٨ - ٥٢٥	» تعظيمه لشأن العلم والعقل ٥٧٠
إصلاح ذات البين . الأمر به ٥٨٧	» توحيدده للشعوب بالعقائد والعبادات
الإصلاح العملي . منجاة للأمة من الهلاك	والآداب والشرع واللغة ليكونوا
الدينوي ولو مشركه ٢١	إخوانا لا يفرقهم شيء ٢١٧
أطباء الأرواح والأخلاق ٥٤٩	» توقف إقامته بالعلم والعمل والوحدة
أطوار الخلق ١٤١	على العلم بلغته العربية ٣١٠ و ٣١٧
أعاجم المسلمين وعناية قدمائهم بالعربية ٤١٧	» توقف السكّال البشري في الأمم عليه
الأعراض عن الجاهلين ٥٣٧	٢٢ و ٢٦٧
الأفرنج . تعاديهم وسعة علومهم العمرانية	» تحقيق باحياء مدينة الشرق وإنقاذ
وعظمتهم ملكهم بها وسوء استمالة وحرهم	مدينة الغرب ٢٢
الأخيرة وما يتهددهم من خطر المادية	» الدعوة اليه بترجمة القرآن ٣٤٤
والشهوات التي لا متجاة منها إلا بدين	» سبب انتشاره في العرب وفي العجم ٣٤٥
القرآن ٢٠	» المصلح للبشر ٦٤٩
الاتحاد بأشر الكغير الله بما هو خاص به من	» هو الدين الذي يتفق مع العلم والمدينة ٢٣
أسمائه الحسنى ٤٤٧	» وجوب الدعوة اليه وما توقف عليه

صفحة	صفحة
الامة المحمدية إنذارها بتاريخ الامم قبلها ٢٦١	الاحاد باشرالك غير الله في الكمال الذي
الامة المحمدية . وصفها ٤٤٩	كانت به أسماؤه هي الحسنى ٤٤٨
أمة الدعوة وأمة الاجابة ٤٥٠	» باشرالك غير الله في معاني الخاص به
الامن من مكر الله تعالى ٢٧	منها ٤٤٨
الانبياء المرسلون عبيد لله لا وزراء له ٥١٥	الاحاد بتحريرها كتحريف صفاته ٤٤٦
أنبياء بنى إسرائيل . إخبارهم عن المستقبل ٢٣١	الاحاد بترك تسميته بماسمى به نفسه ٤٤٥
» انتظارهم بعثة محمد منذ القرون	الاحاد بتسميته بما لم يسم به نفسه ٤٤٢
الاولى ٢٨٠	الاحاد . معناه واشتقاقه ٤٤١
الاناجيل ، تبديل أسماء الاعلام فيها ٢٤٧	الاله . حقيقة معناه وغلط الرازي فيه
» المروكة والمفقودة ٢٩٩	١١٣—١١١
الانجيل ، إخباره عن محيى النبي معرقا	الالوسى . تأويله لكعب الاحبار
باللام ٢٣٥	كبرى مقترياته على التوراة ١٩٠
» أصله والاناجيل الحاضرة ٣٠٩	الله هو الولي الذي يتولى الصالحين ٥٣٠
الانسان ، تفضيله على عوالم الارض ٥٧٤	إمامة الاعجمي والحقان في الصلاة ٣٤١
» وحتى ملكي لا يكمل إلا بالاسلام ٢٢	الامانات . أنواعها وخياناتها ٦٤٣
الانعام ، كون بعض الناس أضل منها ٤٢٨	الامر بالبطل أو المنكر تمهيداً لأبطاله ٦٥
الاتفاق فى سبيل الله ٥٩٤	الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٢٧
الاتقال ولمن هي ٥٨٦	الامر بمعنى الادلاء بالرأى ٦١
الانوار المغنوبة ١٧٠	الامر . آجالها ٥٧٦
أهل السنة ، حججهم فى مسألة الروية ١٥١	الامر . ابتلاؤها بالحسنات والسيئات
أهل الكتاب ، تأويلهم للبشارة بالمسيح	تربية لها ٥٧٦ و ٣٨٢
وبمحمد ٢٣٨	الامر . اعتبارها بما حل بغيرها ٢٦
» ترجمتهم لاسماء الاعلام ٢٤٥	الامر ، إهلاكها بظلمها ٥٧٦
» تعودهم تحريف كتب الانبياء عهد ٢٤٩	الامر . بقيتها الصالحة الناهية عن الفساد
» تساقطهم خربعة نبينا ٢٣٠ و ٢٨٠	هي حفاظها من الهلاك ٢٠
» زيادتهم فى كتب الانبياء بالتفسير ٢٤٥	الامر . عقابها بذنوبها ٣٧٥ و ٥٧٩
	٣٧٧ و ٣٨١ و ٦٣٨

صفحة

(ب)

بابل، سحر أهلها وعلومهم وعبادتهم ٥٠
الباطنية، تركهم الاسلام بالتأويل ١٣١
البدع، مجازاة الحكومات للامم عليها ٩٦
البدع، ذل أصحابها وغضب الله عليهم ٢١٢
برهان التمانع ١١٧
بسمارك (البرنس) كلمته في تأثير الدين في
شجاعة الحرب وكونه ضروريا للبشر ٧٨
البشارة الاولى ببنيان من التوراة وبيانها
من عشرة أوجه ٢٥٩-٢٥١
» الثانية به منها - الخامسة ٢٦٤-٢٥٩
» السادسة به من الزبور ٢٦٥
» ١٣-١٨ من الانجيل ٢٧٧-٢٧٠
بشارة انجيل برنابا به ٢٩١
بشارة النبي حجي به ٢٩٨
بشارات الكتب الالهية ببينا صلواته ٢٣٠
البشارة بالمسيح وبالنبي مهمة ٢٣٤
البشر استعداد أبدانهم وأرواحهم
لفتح جنة الفساد بها ومناعة كل منهما
وحصاته منها ٥٤٤ و٥٤٧
البشر، تصرفهم في مادة السكون ١٦٦
البشر، تفضيل بعضهم على بعض ٥٩٥
البشر، تنافسهم في أعلى العالم ١٥٠
البشر، خلقهم من نفس واحدة واستعدادهم
لمعرفة الله وتفضيلهم على عوالم الأرض
وعداوة الشيطان لهم ٥٧٤ خيارهم
الناهون عن الفساد في الأرض ٢٠

صفحة

أهل الكتاب، سريان الوثنية اليهم ٣٠٨
أهل النار، آيات وأمثال في صفاتهم ٤٢٧
» الصفات المعدة لهم للعذاب فيها من
عقلية وحسية ونفسية، وجملة الجمل
وعدم استعمال نعم الله من العقل
والحواس فيما يرقهم بالعلم والعمل
وغلبة الصفات البهيمية واستحواذ
العقلية عليهم ٤٢١-٤٣١
أوربة، كلة سينسر في فسادها وتوقع هلاكها
بالفسكار المادية والتنازع على سلطان
العالم وكلة سيامى سويسرى في ذلك ٢١
الاولياء، كون عبادتهم بدنائهم واستغاثتهم
كعبادة الأصنام ٥٢٦
الايان، أصوله الثلاثة ٣٠١
» بجميع الصفات بلا تشبيه ولا تعطيل ١٨٣
» بالقرآن ٤٥٨
» تركه مع رؤية الآيات المثبتة له ١٩٧
» زيادته بتلاوة القرآن ٥٩٠
» سبب لنعم الأرض وبركاتها ٥٧٧
» فقد الاستعداد له ٣٣
» معنى امتناعه من المطبوع على قلوبهم ٣٣
» المستلزم للطاعة وصفة أهله ٥٨٨
» والتقوى مفتاح لبركات الدنيا ٢٤
» وكاله بصفة الصبر واقتضاؤه الثبات
في الحرب ٧٧
الايان الميقنى تعذر الرجوع عنه ٦

صفحة

البشر ، شؤونهم العامة ٤٤٩
البشر ، ضلالهم وعصيتهم في طفولتهم ٤٥٩
البشر يحجزهم عن معرفة حقائق الكون ١٧٣
البشر ، منة الله عليهم بتعمه ٥٧٥
البصر ، الخطأ في إدراكه ٥٢
بعث الرسل وإرسالهم (الفرق بينهما) ٣٨
البعث والاعادة ٥٦٧
بلعام بن باعورا ، قصته واختلاف الروايات والامرائيليات فيها ٤١٦-٤٠٩
بولس ، طعن علماء المسلمين فيه ٢٥٠
بنو آدم ، أخذ الرب ذريتهم من ظهورهم وإشهادهم على أنفسهم أنه ربهم ٣٨٦
بنو إسرائيل ، أسباب طهم الانفتى عشرة ٣٦٥
الاسر والاعلال التي رفعها الاسلام عنهم ٢٢٨
أمرهم بأخذ أحسن التوراة ١٩٢
إنجاؤهم من آل فرعون ١٥
إيرتهم الارض المباركة ٩٧
تجبل موسى لهم ١١٠
تخويقهم بوقوع الجبل ١٩٤
تسخير القهام والمن والسلاوى لهم ٣٦٨
تفضيلهم على العالمين ١١٥
تمردهم على موسى ١٠٥ ، ١١٠
رفع الجبل فوقهم ٣٨٥
ظلمهم لأنفسهم ٣٧٠
عظمة ملكهم باقامة شريعتهم وضده ١٩٥
عقاب الله لهم ٣٧٧
قصة اتخاذهم للجل ٢٠٠
ما أحله الاسلام لهم وما حره عليهم ٢٢٨
المبالغة في عددهم في التيه ٣٦٧
مجاوزه البحر بهم وطلبهم من موسى أن تجبل لهم

صفحة

إلهاء ١٠٥
استخدمهم قردة ٣٧٩
وجود طائفة تهذى بالحق والعدل منهم ٣٦٣
وعدهم بإرائهم دار الفاسقين ١٩٣
وعيد فرعون لهم بالابادة ٧٩
وعيدهم بمن يسومونهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ٣٨٠
ت

تاريخ اليهود ، العبرة به ١٩٤
تأويل أهل السنة كغيرهم ١٤٦ و ١٥٢
تأويل تجلى الرب في الصور ١٤٥
تأويل المتكلمين للصفات ١٧٩
التأويل والتشبيه والتعطيل ١٣١ و ١٨١
« المتقضى للكفر والمانع منه ١٣٥
تجلى الرب للجبل وجعله به دكا ١٢٣
التحليل والتحريم الدينى لله وحده ٥٦٠
ترجمة القرآن ، الحام تركى ادعى امكانها ٣٤٨
« بالانكليزية لبعض الهندود ، وإفتاء شيخ الأزهر بعدم جواز إدخال المصحف المطبوعة معه في القطر المصرى وإفتاء مفتى بيروت بمنى ذلك ومنع حكومة مصر وحكومة سورية من إدخاله في القطرين ٣٣٧
« ودشبهات من أباحها ٣٣٨-٣٤٦
« مباحث مهمة في حكم الترجمة وتعذرها ومقاسدها وغرض ملاحدة الترك من الاقدام عليها في هذا العصر وهو الارتداد عن الاسلام ٣١٤-٣٣٦

صفحة

ترجمة القرآن وقراءته وكتابته بغير العربية وأقوال فقهاء المذاهب فيها ٣٣١
الترف والفسق مهلكة للأمم ٢٠-٢٣

﴿الترك الكمالون﴾

إجبار حكومتهم الناس على لبس البرنيطة وقتل المعماريين لذلك تديناً ٣٦٩ إحياءهم
للمصيبة الجنسية الجاهلية معارضة للجامعة الإسلامية وعداءها ٣٢٠ استنكار رئيسهم مصطفى كمال باشا للقسم بالتين والزيتون لجهله والرد عليه بتفسيره ٣٥٨ اقتراحهم كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية واستعدادهم لتنقيده ٣١٨ إلغاؤهم لخلافتهم وتأليفهم جمهورية لادينية أوربية العادات والتشريع وإبطالهم شريعة الإسلام تعليماً وعملاً وحكماً وابطاحتهم للردة عن الإسلام واستحلال محرّماته ٣١٧ أمر حكومتهم بحمل خطبتي الجمعة والعيد بالتركية تمهيداً لخلع ربة الإسلام ٣١٣ أول من ترجمهم لهم نصراني سوري وتبعه حسين كاتلم بك وآخرون وانتقاد مجلة سبيل الرشاد التركية لهم ٣٥٥ تصديدهم لترجمة القرآن وتأثيره السيء في مصر ٣١٩ ترجمتهم للقرآن بالتركية تمهيداً للمروق من الإسلام ومحجوه من قلوب شعبيهم ٣١٨ حقدهم على الإسلام وآدابه ولغته ٣١٨ نشرهم كتاب (قوم جديد) المراد به إنشاء شعب تركي غير إسلامي وما فيه من الكفر والفساد ٣٢٢ نموذج من

صفحة

ترجمتهم للقرآن بالتركية وما فيها من الخطأ والغلط ٣٥٣

الترك العثمانيون ، صدعهم لوحدة الإسلام بجعل لغتهم لغة الدولة الإسلامية دون لغة

الإسلام العربية ٣١٧

الترك : نصيحتهما لهم بما فيه سيادة الدنيا وسعادة الآخرة (وما هم لها بأهل) ٢٢

التشريع الديني والديني وكون هذا حق الله وحده ٥٦١ و٥٦٩

« العام إنما ثبت بما كان قطعي الرواية والدلالة ١٥٧

« وغيره من أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم ٣٠٣

تشكل الملائكة والجن ١٦٢

تعارض النصوص في رؤية الرب ودقائق اللغة والاحتمال فيها ١٣٦

التعاليم المادية، مفسدها وشرورها ٣٠٩

التعزير ، أصل معناه واستعماله ٢٢٩

تفسير (إلى ربها ناظرة) ١٣٦

« (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم) ١٥٥

« (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم

وما رميت إذ دميت) ٦٢٠

« (لاتدركه الابصار) لنا ولا بن تيمية ١٣٦

« (يوم يكشف عن ساق) ١٤٤

التفكير الامر به وكونه يقتضى العلم بأن

الرسول ليس بمجنون ٤٥٥

« في الآيات والعبر فيها ٤١٦، ٤٠٩

« معناه وفوائده ٤٦٠

صفحة

صفحة

﴿ ح ﴾

- حجاب الله (النور) المانع من رؤيته ١٣٩
الحجب بين العبد والرب ١٤١
حجر الزاوية محمد ﷺ ٢٧٥
حجر موسى الذي انبجس منه الماء ٣٦٧
حجة الله على جملة الأمة فيما كلفها ١٥٧
حديث أعددت لعبادي الصالحين ١٥٥
« أتم أعلم بأمر دنياكم ٣٠٤
« الجساسة في الدجال ومشكلاته ٤٩١
« رأيت نوراً ١٤٠
« عائشة: ثلاث من تكلم بواحدة منهن
فقد أعظم على الله القرية ١٣٩
« « في الهجرة ٥٥٥
« « لله دون العرش ٧٠ حجاباً ١٤٢
« نور أتى أراء ١٤٠
حرب المدنية الكبرى مفاسدها ٣٠٩
الحروف المقطعة في أوائل السور ،
الاستدلال بها على عماله نيا ٤٧٤
الحق والباطل في غزوة بدر ٦٠١
الحق تغلب له على الباطل ٤٠
حقيق على كذا بدل حقيق به ٤٢
حكمة عدم النص على رؤية الرب ١٥٨
الحكومة المصرية ، مجاراتها للعوام على
البدع والخرافات كالموالد ٩٦
الحلاج ، دجله وحيله ومخاريقه التي أوم
الناس أنها كرامات ٥٤

- التقليد ، إفساده للفطرة وإزالة الاستعداد
للعلم والایمان لمن أصر عليه ٠٣٢
« بطلان بانه على عظمة الشيوخ ٠١٧٩
« تحريره ٥٧٠
« التقوى ، الأمر بها ٥٨٧
« العامة ، أنواعها في القرآن وتحقيق
القول في الدينوي والدينوي منها ٦٤٨
« التكبر بغير الحق وغوائله ١٩٧
« تكليم الرب لموسى ٥٦١

﴿ ج ﴾

- الجاهلون بالنعم والسنن ، عقابهم ١٦
« الجبر ، بطلانه بنصوص الكتاب والسنة ٦٣٥
« جبريل ، رؤية النبي له في صورته ١٦٣
« الجرائد السقيمة في هذا العصر ٥٣٧
« الجزاء في الآخرة بالعمل والميزان ٥٦٨
« الجزاء في الآخرة عين العمل ١٩٩
« جزاء كلمة المؤمنين عند ربهم ٥٩٤
« « المفتقرين على الله في الدنيا كالمبتدعة ٢١٢
« الجن ٤١٨
« « الجنة : أعلى نعيمها لقاء الله ١٥١
« « دخولها بالعمل رحمة من الله ٢٠٥
« « الجهل بسنن الله في الامم ١٨
« جهنم ، صفات أهلها من الجهل بالحقائق
وتعطيل الحواس والمشاعر وكونهم
أضل من الانعام وكونهم هم الفاعلين
عن أسباب سعادة الانسان ٤٢١

صفحة

الدجالون المضلون : اتجارهم بالدين ٣١
درجات سماع القرآن للمؤمن والكافر ٦٢٨
« الفهم والعلم ٦٣٠
« التفاضل بين الناس ٥٩٤
الدعاء أعظم أركان العبادة ٥٢٧
دعاء الله وحده ٥٥٩
دعاء غير الله : معناه وبطلانه ولا سيما
الأصنام ٥٢٥ و ٥٣٢ و ٥٥٩
دعاء موسى لنفسه ولأخيه بالمغفرة ٢٠٩
دعاء موسى لنفسه ولقومه بالمغفرة ٢١٩
دعاء موسى بطلب حسنات الدنيا والآخرة
٢٢١
الدعوة إلى الإيمان والاسلام ٣١٢
الدك والخروار والصعق ١٢٤
الدنيا : سعتها بالإيمان والتقوى ٢٤
الدنيا ما قيل في تحديد عمرها وردده ٤٧٠
الدين : إخلاصه لله وحده ٥٥٩
« ذم الغلو فيه ٥٧٢
« قوام المدنية وحفاظها ٢٣
« القول فيه بغير وحى الله كفر ٥٦١
« ما يجب منه على الأمة بثبوتها قطعاً ٦٣٢
« ما يؤخذ من اجتهاد السلف وأئمة
العلم منه ٦٣٣
« موجب لسعادة الدارين لأنه مكمل
للقطرة روحاً وجسداً ٢٤
« والوطن : مكاتهما من النفس و ١٠
دين الاسلام : توقف إقامته على اللغة
العربية ٣١٣

صفحة

حواء، حديث حمل الشيطان لها على تسمية
ولدها عبد الحارث ليعيش ٥٢١
الحواس والدماغ آلات الازدراك ٦٣١
الحياة التي دعانا إليها الرسول ٦٣١

﴿ خ ﴾

الحجائب، تحريمها على بنى إسرائيل ٢٢٨
الحديث والطيب، تمييز أحدهما من الآخر
من أصول التشريع ٦٦٣
الحتم على القلوب ٣٠
الحزاقات الاسرائيلية في حجر موسى ٣٦٧
خرافة إسرائيل في التفسير ٣٦٥
الخرافيون والمتفرنجون المفسدان ٢٠
خضب الشعر مستحب ولو بالسواد ٣٠٤
الخلاف في رؤية نبينا لربه ١٤٧
الخلفاء والحكام من الصحابة أعدل
حكام أمة الأرض ٦٤٩
الخلق والتكوين مبدؤه وأطواره ١٤١
خلق الناس من نفس واحدة وجعل
زوجها منها ٥١٧
الحياة، نهى الله عنها وسببه ومعناها لغة ٦٤١
حيانة الله والرسول وحيانة الأمانات ٦٤٣

﴿ د ﴾

دار الفاسقين ١٩٣
دار الندوة بمكة : الاعتبار بالنبي فيها ٦٥٢
الدجال : الاشكال والاشتباه والتعارض
في الروايات فيه ٤٨٩

صفحة

الرسول ، جزمهم بامتناع وقوع الشرك
والكفر منهم إلا ما شاء الله ٥٦
وظيقتهم في التبليغ ٥١٤ حكمة إرسالهم في
القرى دون البداية ١٤ رمى أقوامهم بإيهم
بالجنون وأسبابه ٤٥٣ سؤلهم عن الأمم
وسؤل الأمم عنهم ٥٦٥، ٥٦٨ شبهة الأمم
عليهم ٥٦٦ عقاب الأمم على تكذيبهم
٥٦٦ قصصهم مع أقوامهم ٥٦٦ معنى
اتهامهم إلى ملك أقوامهم قبل بعثهم
وامتناع عودتهم إليها بعدها ٥
وهدايتهم للأمم ٥٦٦
الرسول : معنى اتباعه وما يمتدح بذلك ٣٠٣
الرسول النبي الأسمى الذي بشر به موسى
وعيسى ٢٢٤
» نفيه عن نفسه علم الغيب ٥١١ نفيه عن
نفسه ملك النفع والضرر ٥٠٨
» والنبي : معناه ٢٢٥
الرشد واللغات فيه وضده النفي ١٩٧
الرقص ومفاسد المراقص ٥٤٦
الرقى وتأثيرها بالوهم والاعتقاد ٤٢٢
الروح هو المدرك والحواس آلات له ١٦٣
الرؤيا والأحلام ١٦١
رؤية الرب : آيات الاثبات والنفي فيها وتفسير
المتخلفين فيها لمن ١٣٤ آيات الاثبات
لها ليست نصوصاً قطعية ١٣٨ الاحاديث
الصحيحة صريحة فيها ولكن يأتي فيها
مذهبها التأويل والتفويض ١٣٨

صفحة

﴿ ذ ﴾

ذات أنواط التي طلبوها من النبي ﷺ ١٠٩
الذرة في اللغة ٤١٨
ذر - فعل أمر : معناه وتصريفه ٤٤٠
ذكر الله في النفس وبالناسان وصفته
ووقته ومضار الغفلة عنه ٥٥٧
» وجل القلوب عنده ٥٨٨
ذنوب الأمم لا تغفر ٣٠ و ٢٩

﴿ ر ﴾

الرجز الذي أنزل على بني إسرائيل ٣٧٤
» على آل فرعون ٩٣
الرجفة التي أخذت شيوخ بني إسرائيل ٢١٥
» والصيحة التي أخذت قوم شعيب ١٠
الرحمة الالهية : سمعها لكل شيء ٢٢٢
» كتابهم للذين يتقون ويؤتون زكاة
والذين يؤمنون بآيات الله ، ووصف
هؤلاء بأنهم الذين يتبعون الرسول النبي
الأسمى ٢٢٣
رحمة الله ومغفرته ٢٠٩ و ٢١٩ و ٥٦٣
الرخاء سبب كثرة النسل ١٦
الرسالة العامة والرسول ٥٦٥
الرسول : آياتهم ٥٦٥ ، نهمهم بالسحر ٥٦٦
أخذ أقوامهم باليأس ، والصراء ١٤
أول ما دعوا اليه ٥٦٥ بعثهم في جميع
الأمم ٥٦٥ تصاليمهم ٤٥٤ جزاء
الايان والكفر بهم ٥٦٥

صفحة	صفحة
الساعة : تعني فيها لغة وشرعا ٤٦١ تكرر	رؤية الرب ، إختلاف العلماء فيها ١٣٤
الحصر يكون عليها عند الله ٤٦٩ سؤال	تأويل بعض أهل السنة لها ١٥٢
الذي ﷺ أبا ن مرساها ومن السائلون	التحقيق فيها ١٤٩ تقريرا من العقل
وجوابه بمحصن أمرها في علم الله والحكمة	١٥٤ الحجب المانعة دونها ١٤٠ حديث
في إبهام أمرها على الناس ٤٦٥ ما ورد	عائشة في نفي وقوعه للنبي ١٣٩ حصولها
في قربها وأشراطها وما قيل في عمر	ييجلي الصور ١٤٢-١٤٦ الخلاف في
الدنيا وتقدروا روايات فيها ٤٧٠	حصولها للنبي ١٤٧ طلب موسى لها ثم
الساعة : معنى ثقلها في السموات والأرض	توحيته منها ١٢٢ عدم إطاعة هذا الخلق
وكونها لا تأتي إلا بقتة ٤٦٧	لها ١٢٣ الكلمة الجامعة فيها ١٧٧ كون
الساعة : والقيامة وكون كل منهما ٣	حجاب الكبرياء يمكن منها لا مانع ١٤٢
أقسام : قيامة الفرد أو ساعته ، وقيامة	ليست من أصول الإيمان القطعية ١٥٧
الامة أو الدولة وقيامة العالم كله ١٦٣	ليست من المحالات العقلية ١٣٨ مذاهب
السامري وما قيل في صنعه للعجل ٢٠١	الصوفية فيها ١٦٦ نفيه ﷺ لها ١٣٩
السبت . اعتداء اليهود فيه ٣٧٦	رؤية الرب سبحانه أيضاً ٥٦١
السحر ، أسرع الناس تصديقاً له	الملائكة والجن في حال التشكل ١٦٢
الحشوية والغامة ٥٧	
» بالتخيلات التي تظهر الأشياء على	✽ ز ✽
خلاف حقيقتها ٥١	الزبور : بشارته بنبينا ٢٦٥-٢٧٠ و٢٧٥
» بالحيل والمواطن بين أشخاص	الزنادقة : وضعهم للأحاديث ٥٠٦
على خداع غيرهم ٥٤	الزينة إنكار تحريمها ٥٧١
» بالصور التي تظن أنها أحياء ٥٣	الزواج : خلق زوجها منها ٥١٧
» بما يدعون من حديث الجن	الزوجة . وظيفتها وغايتها ٥١٨
واستخدامهم ٥٥ و ٥٣	
السحر : تعريفه وما أخذه من اللغة ٤٧	✽ س ✽
» حقيقته وأنواعه ٤٦	الساعة : الاستدلال عليها بعدد أبي جاد
» الدليل على كونه خيالا وتخاريق أن	للحروف المقطعة في أوائل السور ٤٧٤
منتحليه لو كانوا ممن يعلم بالفيب وخوارق	أشراطها وأماراتها ٤٨٣ إطلاقاتها هي
العادات لكأن جالهم أرقى من حال	والقيامة في الاستعمال والفرق بينهما ٤٩٢

صفحة	صفحة
سنن الله في التمييز بين الحبيث والطيب ٦٦٣	الملوك عزة وثروة ولكنهم أسوأ
« » الحيلولة بين المرء وقلبه ٦٣٤	الناس حالا في الغالب ٥٧
« » وحكمه في قصص الأنبياء ١٤	السحر : الروايات المختلفة فيه كالساحرة
« » ومشيته ٤٠٩	مع عائشة وساحرة ابن هبيرة ٥٧
سنة الله تعالى في أخذ أقوام الرسل بالشدائد	« » عند أهل بابل ٤٩
ثم في تبديلها رخاء وحسنات ١٤-١٦	« » الفرق بينه وبين المعجزات ٥٩
« » في استخلاف الأمم في الأرض ٥٧٧	« » كلام الجصاص المفسر فيه ٤٨
سنة الله في بقاء الأمم بخيارها الناهين عن	« » وجوه تكفير المصدق به ٥١
الفساد في الأرض ٠٢٠	سحر النيمة والافساد وسحر الادوية
« » حفظ الأمم من الهلاك	المجهولة المبلدة والخيلة للعقل ٥٦
بالاصلاح في الأرض ٢١	سحرة فرعون . إتهامه إياهم بالمسكر
« » خلق البشر وشؤونهم ٥٧٦	وانتواط مع موسى لقلب ملكه وجوابهم
« » صرف المتكبرين عن آياته ١٩٦	له ٧٧ اجتماعهم لمغالبة موسى ٦٣ دعاؤهم
« » ضياع الممالك ٥٧٩	بكمال الصبر والوفاء على الاسلام ٧٧ غلب
« » طباع البشر في الايمان والكفر	موسى عليهم وإيمانهم ٧٦ و٦٩
إمكانا وامتناعا ٣٣	سعادة الدنيا والآخرة باتبعاع الرسل
« » عقاب الأمم ٣٧٧-٣٨٠	لا بالانتماء اليهم ولا بجاههم ٣١
« » فبمن اتبع هواء وأخسده إلى	سكوت الغضب ٢١٣
الأرض ٤٠٦	السلف ، مذهبهم المحقق لو حدة الدين ١٣٢
السنون . أخذ فرعون وقومه بها ٨٦	« » رجوع الامام الجويني اليه ١٨٠
« » سورة الأعراف ، خلاصتها في ١٦ أبواب	سماع القرآن ، فوائده وتأثيره في طاعة
(١) توحيد الله تعالى إيمانا وعبادة وتشريعا	الله ورسوله وسوء حال المعرضين عنه
وصفاته وشؤون ربوبيته وفيه ١٢ أصلا ٥٥٩	وتشبيهم بشر الدواب ودرجات سماعه
(٢) الوحي والكتب والرسالة وفيه ٢٤	للكافر به وللمؤمنين وحال عامة مسلمي
أصلا في ٣ فصول ٥٦٣	بلادنا فيه ٦٢٦-٦٣٠
(٣) عالم الآخرة والبعث والجزاء وفيه ١٢	سنن الله في أفعال العباد وخلقهم وقدر ٦٣٥
أصلا ٥٦٧	« » الأمم ١٨-٢٣
(٤) أصول التشريع وفيه ٩ أصول ٥٦٩	

صفحة		صفحة	
٥١٨	الشرك الحفى والجلى	١٤	(٥) آيات الله وسننه فى خلقه وفيه
٥٠٩	» شبهته العامة فى الامم	٥٧٣	أصلا
٣١٧	الشريعة الاسلامية لإبطال دولة الترك لها	(٦) سبى الله فى الاجتماع والعمران	
٢٢٩	» المحمدية ، يسرها	٥٧٦	البشرى وفيه ٧ أصول
٥٧٨	الشعوب ، حالها مع مستعمري أرضها	٥٨٣	السورة ، مباحث ترتبها
٥٢	الشعوذة وحيلها	٥٨١	سورة الأنفال ، ومناسبتها لما قبلها
١١	شعيب ، إرساله إلى أصحاب الأيكة	» وضمها بعد الاعراف توقفي	٥٨٢
» إنذار قومه بإياه باخراجه ومن آمن		السيوطى ، خلطه وخبطه فى عمر الدنيا	
معه أو يعودوا فى ملتهم وجوابه عليه		ورسلاته » الكشف فى عدم مجاوزة	
السلام لهم بامتناع ذلك عقلا بأبلغ		هذه الامة الألف *	٤٧٧
المؤكدات	٩-٢	(ش)	
» دعاؤه بالفتح بينه وبين قومه	٨	الشافعى الامام حجة على وجوب تعلم اللغة	
» عقاب قومه باضرارهم على تكذيبه	١١	العربية على جميع المسلمين	٣١٠
» غش الملا من قومه لهم فى صدمه عنه	١٠	» تخطيطه من زعم أنه أباح ترجمة القرآن	
الشفاعة ، طلب أهل الموقف لها من كبار		٣٤٠	
الرسول ومدافعهم إياها ما عدا محمدا <small>صلوات الله عليه</small>		٣٠٩	شبهات كفار عصرنا على الدين
فله الشفاعة العظمى يوم القيامة	٣٠١	الشذائد ، تمحيص وتربية للمؤمنين	
الشفق من لا يعتبر بالنعم ولا بالنقم بل يزيد		ونقمة على غيرهم	١٧ و ١٤
كل منهما شراً وضراً	١٦	الشرع الإلهى كله حسن فى نفسه	٥٦١
شمسنا والشموس الأخرى	١٤٠	شرفاء مكة فى عصرنا وغرورهم ونزع	
شهادة العالمية فى الأزهر والتوسل إليها		ولاية الحرم منهم	٦٥٨
برشوة العلماء	١٩	الشرق والغرب ، مستقبلهما ونصيحة	
الشهوات . استدراجها للانسان من المم		سياسى أوربى لنا	٢٢
إلى كبائر الاثم والفواحش	٥٤٧	الشرك ، إبطاله بالحجج الحسية والعقلية	٥٢٥
الشياطين تقوتها الداعية الشر فى النفس	٥٤٤	» الآيات فى الاحتجاج على أهله	٥٦٠
» فعلها فى الأنفس كعمل ميكروبات		» بدعاء غير الله تعالى (راجع دعاء)	
الامراض فى الاجساد	٥٤٠ و ٥٤٤	» عبادة الوثن وعبادة النبي والملك	
		سواء	٥٢٦

صفحة

صفحة

﴿ ط -- ظ ﴾

طاعة الله ورسوله الأمر بها ٥٨٧
الطبع على القلوب ٣٣ و ٢٩
الطلاسم ونحوها من الخرافات ٤٢٢
الطوفان الذي عذب به آل فرعون ٨٩
الطيبات ، إحلالها لبنى إسرائيل ٢٢٨
الظلمة ، استعانتهم بعلاء الدين ١٥٩

﴿ ع ﴾

عائشة ، انكارها رؤبة النبي به ١٣٩ و ١٥٣
عبادة الله وحده وصفة أهلها كمالهامة
والترفع عن قبول الذل والطهارة من
الخرافات ٤٢١
العبادة : حقيقتها ١٠٥ و ١١٣
عبادة غير الله بدعائه أبلغ من عبادته
بالصلاة له ٥٢٧
عباد الاهواء وما ينالهم من الاعياء ٤٠٧
العبرة العامة في قصة موسى ١٠١
﴿ في الأمر بأخذ الكتاب بقوة ١٩٣
عجل بنى إسرائيل ومباحثه ٢٠٠
العدل : تعظيم شأنه ٥٧٢
العذاب ، تقييده بالمشيئة ٢٢٢
العرب ، استضعافهم قبل الاسلام وعزتهم
به ٦٣٩ ، إيمانهم وعمرانهم وقوتهم
بفهم القرآن ٥٥٥
العربة لدى الأعاجم سلفاً وخلفاً ٣٣٠
العرف وكونه من أصول التشريع ٥٣٤

الشياطين . مدد إخوانهم لهم في الغي ٥٥٠
الشيبة . استحباب خضابه ٣٠٤
الشیطان تذكر المتقين إذا مسهم طائف منه
٥٤٢
﴿ نزغ للإنسان والاستعانة بها ٥٣٩
﴿ يزين لكل أحد الشر على قدر
استعدادهم له ٥٤٧
الفيوخ . ترك تقليدهم وإن جلوا ١٧٩ - ١٨١

﴿ ص -- ض ﴾

الصالحون التقرب إليهم ودعائهم لما
لا يطلب إلا من الله ٥٤٢٢
﴿ العلوي تعظيمهم منشأ للشرك ٥٠٩
الصباح والمساء ذكر الله فيهما ٥٥٧
الصبر طلب كماله ومعناه وفائده ٧٧
الصحابة مراجمتهم للرسول في رأيه ٣٠٤
﴿ روايتهم عن كل مسلم مستور ٥٠٩
الصفات الايمان بها بالاشبه ولا تعطيل ١٨٣
﴿ لا يجوز ترجمتها شرعاً ولا تمسك ٣٢٧
صفة الكلام . تقرئها من الافهام ١٨٤
الصلاة إقامتها من صفات المؤمنين ٥٩٣
الصنم والتمثال والفرق بينهما ١٠٥
الصور والتمثال المعبودة عند النصارى ٣٠٩
الصوفية : ارتداد بعضهم بالتأويل ١٣١
﴿ ومذاهبهم في الرؤية ١٦٦
الضحى معناه ٢٧
الضفادع والدم الذي عذب به آل فرعون ٩٢

صفحة	صفحة
الذين بل زادت وما اجتمع أهله على	الغرائب والتبخرات من السحر ٤٢٢
أصول معقولة بل ازدادت به تفرقا ولا	عصا موسى وفعلها ٦٦ و ٤٤
يمكن أن يكلفه الله عباده لفهم دينه لأنه	عصبية الاقوام والأوطان ١٠
نظريات فلسفية لا يحذقها إلا الذين	عصرنا ، وملاحدة ، وعلومه ومذاهب
ينقطعون السنين الطوال لفهمها ودين	المعيشة وفوضى الآداب وفساد الأخلاق
الله سهل كان يفهمه البدو كالحضر	فيه ٥٤٨ و ٣٠٩
ومذهب السلف في فهمه أقرب إلى العقل	عصمة الأنبياء من تصديق الكاذب ٤٩٥
منه ١٣٢	عفو الله عن بعض الذنوب ٣٧٧
علم الله تعالى . سعته ٦	العقوبة لغتها وشرعا وكون أخذها من الناس
العلماء . إعانتهم للظلمة ١٥٩	أصول الشرائع والآداب ٥٣٣
علماء الدنيا انساخهم من آيات الله تعالى	العقائد المجمعة عليها المعلومات من الدين
واتباع أهوائهم وإخلاصهم إلى الأرض	بالضرورة ١٥٧
وكونهم فتنة تصد عن الاسلام ٤١٦	فسادها في هذا الزمان ٥٤٩
علوم التكوين العصرية مؤيدة لمذهب	عقائد الاسلام . اختلاف الأفهام الضار
السلف ١٧٢	فيها وغير الضار ١٣١
« السكون وما فيه من سنن ونظام ومنافع	العقاب الالهى . سرعته ٣٨١
تسكون حجابا بين المشتغلين بها وبين	عقاب الأفراد خاص وعقاب الامم عام ٣٧٧
الخالق تعالى وشاغلة لهم عن ذكره	للعقول . عجزها عن إدراك حقيقة النور ١٧٣
وشكوه وعبادته إذا كان نظرهم فيها	« وجوب مراعاة استعدادها في
لذاتها ومنافعها — وتكون أعظم	التحديث والتعليم ١٥٨
الآيات والدلائل الموضلة لهم إلى كمال	العقيدة الفاسدة التي أضاعت دين
معرفته وما يتبعه من شكوه وعبادته	المسلمين ودنياهم ٣١
وهو ما سينتهى اليه سير الارتقاء العلمى	العلم أعلاء معرفة الله تعالى ١٥٠
عند جمهور أهله ١٧٤	العلم بمعناه العام . تعظيم شأنه ٥٧٠
علو الرب على خلقه ٥٦١	علم العقل وعلوم التجارب الآلية ١٦٥
علو الرب على خلقه بائنا منهم هو الذى	علم الغيب نقيه عن الرسول ٥١١
تقتضيه هيئة العالم ١٨٠-١٨٣	علم الكلام بدعته مازالت بها الشبهات عن

صفحة

الفتنة بين المسلمين واتقاء القتال فيها ٦٦٦
 » تحقيق معناها وتخطيط من ادعى أن
 قول موسى عليه السلام (إن هي إلا
 فتنةك) جراءة على الله تعالى أو إبطال ٢٢٠
 فتوى المنار في سفر ترجمة القرآن ٣٢٤
 » مسألة الرؤية ١٤٩

القرار من الزحف تحريمه الوعيد عليه ٦١٦
 الفرقان الذي هو ثمرة التقوى وتحقيق
 القول فيه وهو أنواع : فرقان في العلوم
 بأنواعها ، و فرقان الحكم الصحيح في
 الأشياء وبين الناس وفي العقائد حقها
 وباطلها ، وفي الأعمال صحيحها وفاسدها
 وخيرها وشرها وإطلاقة على الكتب
 الالهية وعلى غزوة بدر ٦٤٧
 فرعون . إتهامه لموسى بطلب الملك ٦٠

» مجازاة حكومتهم للعوام على خرافاتهم ٩٦
 » وآلهته ومكانه منها ٧٩

» وملؤه إخراجهم من مصر ٧١

» وملؤه ظلمهما بتكذيب رسالة

موسى وعاقبة المفسدين مثلهم ٣٩

الفرق التي خرجت من الملة بالتأويل ١٣١

الفروق بين آيات متشابهات وغير

متشابهات في القرآن ٥٤٢

فروق دقيقة بين الجمل الحالية الاسمية

والفعلية المقترنة بقدر وغيرها ١٥

الفسق وصف أكثر أقوام الرسل به ٣٥

فساد الأخلاق والأعراس في هذا الزمان

٥٤٨

صفحة

العمل التومني وغرائب ١٦٠

عهد الله الفطري وعهده الشرعي ٣٤

العهد ومفني نفيه عن أكثر الكفار ٣٣

العينان كفر نعمتهما بعدم استعمالهما النافع ٤٢٦

✽ غ ✽

الغافلون ، أقسامهم وكونهم أهل النار ٤٢٩

الغزالي ، إنباته عدم جواز ترجمة أسماء

الله وصفاته ٣٢٧

الغزالي ، كلفه النايغة في صفة القدرة

التي تصدق على سائر الصفات ١٨٤

غزوة بدر ، أسلوب القرآن فيها ٥٩٧

غزوة بدر ، خبر المير والنقيير فيها ٥٩٨

الغضب والذلة على متخذى العجل ٢١١

الغضب والاسف ٢٠٦

الغفبة عن الله . النهى عنها ٥٥٨

غلام أحمد القادياني الدجال ١٣٥

✽ ف ✽

الفار قليط (محمد ﷺ) ٢٧٧-٢٩١

الفاسقون : عقابهم في الدنيا ٣٧٧

الفتح : تحقيق معناه ووقوعه بين الناس ٨

الفن الاجتماعية والسياسية ، الأمر باتخاذها

وعقاب الأمم عليها في الدنيا وكونه

عاماً لا خاصاً ٦٢٧

فتنة الأموال والأولاد ٦٤٤

الفتنة التي أصيبت بها المسلمون من عهد

خلافة عثمان ٦٣٨

صفحة

القدر واختيار العباد في أفعالهم ٦٣٥
 القرآن . آياته وأمثاله في صفات الخلقين
 للنار ٤٢١ و ٤٢٧ أحكامه القطعية وغير
 القطعية ١٥٧ اختلاف التعبير فيه عن
 المتشابهات في الموضوع ٣٧١ إرشاده
 إلى سنن الاجتماع ٥٧٩ أسباب الخطأ
 في فهمه ١٢٨ إسلام الأمة العربية
 بنأثيره ٣٤٥ أسلوب قصصه البديع ٥٩٦
 أسماء يوم القيامة فيه وماتشير اليه من
 الحقائق القلبيكية وصفة خراب العالم
 ٣٤٩ إعراض المسلمين عنه ٣١ أعجب
 جملة وأبلغها وأخوفها ٦٣٤ أكل الكتب
 الالهية بياناً وبرهاناً وسلطاناً ٥٩٩ أمر
 المؤمنين باتباعه دون غيره ٥٦٣ إنزاله
 على خاتم الرسل للانذار به ١٣٥ إيجازه
 في القراءات ١١٦ بصائر وهدى
 ورحمة للمؤمنين ٥٥١ بلاغة آية قصيرة
 منه بحجمها لقواعد التشرع ٥٣٨ بلاغة
 مفرداته وجملة ٣٤٨-٣٥٢ بلاغته ١٤
 بلاغته في اختلاف التعبير عن الأمرين
 المتشابهين ٣٨ و ٦٢ و ٦٤ و ٦٧ بلاغته
 في الاستئناف البياني ١٢ بلاغته في استعمال
 لفظ الارساء لقيام الساعة وما فيه من
 الإشارة إلى حركة الأرض ودورانها
 ٤٦٤ بلاغته في الالجاز ٣٧٦ بلاغته في
 البراهين العقلية ١١٧ بلاغته في التأكيد
 ٦٣ بلاغته في التضمنين ٤٠ بلاغته في

صفحة

* فصل *

في اختلاف المسلمين في رؤية الرب
 وكلامه وتحقيق الحق فيهما ، وفيها من
 الحقائق الالهية والحديثية والكونية
 والعلمية والبلاغية وتأيد السنة والتقريب
 بين مذهب السلف وعلوم هذا العصر
 ما لا يوجد له نظير في كتاب ١٢٨-١٨٩
 فصل في بشارات الكتب الالهية ببينا ٢٣٠
 * فصل فيما ورد في قرب الساعة
 وأشراتها وما قيل في عمر الدنيا *
 وفيه من التحقيق ما لا يوجد في كتاب ٤٧٠
 الفطرة وآيات الكون هي ميثاق الله
 على ربوبيته ٣٩٧
 الفقهاء تشديدهم في الدين ٣٤٠
 الفقه تحقيق معناه واستعماله في القرآن ٤٢٠
 الفقه المنفي عن الخلقين للنار وأنواعه
 السلكية ٤٢١-٤٢٦
 الفكر لغة واصطلاحاً ٤٦٠
 الفيلسوف سبتمبر كنهه للأستاذ الامام
 في سوء حال أوربة ومستقبلها ٢١

* ق *

انقاديانية ملتهم الجديدة ١٣٥
 القبور ابتداء تشييدها وتزيينها واتخاذها
 مساجد ومعابد ١٠٩
 القتال الأمر به حتى لا تكون فتنة ٥٦٥
 القتال مجادلة كارهيه للرسول فيه ٥٩٩

صفحة

التكرار ١٣ بلاغته في الجمل الحالية
والفرق بينها وبين المفردة ٣٥١٠١٥
بلاغته في حروف العطف ٤١-٣٧
و٧٤ بلاغته في حروف المعاني ٧٣ بلاغته
في الحذف والاكتفاء ٢١٨ بلاغته في
الفصل والوصل ١١٧ و٤١ بلاغته في
مرعاة القواصل ٦٤ بلاغته في الوصف
والكتاية والاسلوب ٣٥٢ بيانه لسنن الله
في تطور الأمم وإعراض المسلمين عنها
وضعفهم بذلك ١٨ تأثير أسلوبه حتى في
نفس غير المؤمن به ٣٢٨ تأثيره في الايمان
وكون من لا يؤمن به لا يؤمن بغيره ٤٥٨
تأثيره في الجذب إلى الاسلام وفي قوته
٥٥٥ تبرئته لهارون عليه السلام من
إسناد اتخاذ العجل اليه كما في توراتهم
٢٠٩ تخفيفه عقاب الأمم على ذنوبها وغفلة
المسلمين عن ذلك بجرهم له وجهلهم بإياه
٣٠ تحقيق ضرور من نكت البلاغة
الآتوجد في تفسير آخر ٤٠ ترتيب سور
توقيفي ٥٨٢ ترتيبه والتغني به ٥٥٤
ترجمته . مباحثها وتصدي الترك لها
وغرضهم منها إبطال الاسلام من أمتهم
٣١٤ - ٣٦٣ ترجمته الحديث الهندية
باللغة الانكليزية وإفتاء شيخ الأزهر
ومفتي بيروت بمعها ٣٣٧
تسميته نوراً ٣٠٣ تصديق أنارة
تاريخية له ٩٩ تعذر ترجمته ٣٤٧ تفاسيره

صفحة

الشاغلة لنورها بالقائمه عن هدايته
وتدبره ٣١ تفسير بعضه ببعض ٦٣٦
تفصيله على علم هدى ورحمة ٥٦٣ تقصير
المسلمين في بيان سنن الاجتماع فيه ٥٧٩
التناسب بين بعض آياته ومواعظه ٦٢٥
تناسب آيه ٤٤٩ جهل أهله بما فيه من
أسباب سعادة المعاش والمعاد ٤٢٨
حاجة الأفرنج إلى هديته كالمسلمين
لانتقادهم من خطر شرور المادية
وطغيان الشهوات ٢٠ حثه على النظر
العقلي ٤٦١ حكمة وجود الأحكام غير
القطعية الدلالة فيه وحكمها ١٥٧ دعوته
إيانا لما يحيننا ٦٣٩ دقائق مفرداته وجملة
في التعبير ٣٤٨ دقته في تحديد الحقائق
وعدله في الحكم على الأمم ٣٦٣، ٣٥
زيادة الايمان بتلاوته ٥٨٩ سماعه مع
فقه واعتبار ووعيد فاقدى هذا السماع
بفقدان الاستعداد للايمان ودرجات
سماعه للكافرين وللمؤمنين وحال عوام
بلادنا ومقاصدهم من سماعه ٦٢٦ سننه
في الجمع بين ذكر العقاب والمغفرة
والرحمة ٣٨١ شبهات من أباح ترجمته
٣٣٨ شواهد على عجز البشر عن ترجمته
٧٥ ضياع ملك المسلمين بجهله ٥٧٩
فائدة قراءاته وبلاغتها ١١٦ و٦٢
الفروق الدقيقة بين عباراته المعجزة
٦٢٢ الفروق في التعبير فيه عن المعاني

صفحة

الحرام ٦٥٧ تفصيلهم الهلاك بالرجم
والعذاب الأليم على الايمان باقرآن
إن كان حقاً ٦٥٥ تكبر رؤسائهم عن
اتباع النبي ١٩٦ غرورهم بالكثرة
والثروة ٤٥١ نفى ولاية البيت عنهم
وحصره في المؤمنين ٦٥٨ قصة اتخاذ
بنى إسرائيل للعجل ٢٠٠

قصة الذي آتاه الله آياته فانسأخ منها ٤٠٤
قصة موسى مع بنى إسرائيل ١٠٤
قصص الرسل . المقارنة بينها في اختلاف
البده وغيره لتسكت التلاغة ٤٠
» وأخبارهم في القرآن ليست

ترجمة لتألفها من كتبهم ٣٣٩
القلب . قلبه والحيولة بينه وبين صاحبه
ومعالمه ٦٣٤ معناه وأنواع استعماله ٤١٩
قلوب الخلقين للنار : نفى الفقاها عنها ١١
تتركى به الأنفس من أقدار الجهل
والخرافات ، ولقرات هذه التركية في
الدارين . ولعن الحياة الروحية والعقلية
ولعن الآيات الالهية ، من منزلة وكونية
ولأسباب النصر على الأعداء من مادية
ومعنوية ، أو حسية وروحية . ولعن الله
في الاجتماع كغاب الحق للباطل الخ
٤٢١ - ٤٢٦

﴿ ك ﴾

الكتاب الالهى ، أجزئه بقوة ١٩٣
كتاب قوم جديد التركى ومفسده ٣٢٣
كتبان بعض العلم أو التصووس ١٥٨ و ١٦٠

صفحة

للتشابهة بالعبارات المختلفة الدلالة ٣٨
و ٤٠٠ ، ٦٢٤ ، ٦٤٤ قرأته وكتابه بغير
العربية ٣٣١ قوة الدين وكاله لا يحصلان
إلا بكثرة قراءته مع التدبر والعمل
٥٥٤ القيم في سورة التين منه وتفسيره
٣٥٨ كونه كلام الله ١٧٨ كونه لسانا
عربيا وحكما عربيا ٣١١ ، ٣١٤

القرآن : ما يوجد فيه من كتب الرسل
السابقين وخطأ من زعم أنه مترجم منها
بالعربية ٣٣٩ محسنات البديع فيه ٣٦
مسألة الجرف والضوء فيه ١٧٩ ،
١٨٣ - ١٨٩ من زعم أنه لو شاء لقال
مثله وأنه أساطير الأولين ٦٥٣ منه
التقليد ٣٢٦ موافقته ومخالفته للتوراة
٨٣ نصوصه في كون الدين سبباً لخيرات
الدنيا وملكيها إذا أقيم على وجهه ٢٤٠
نموذج من ترجمة تركية له ٣٥٣ هو
الآية الكبرى على نبوة محمد ﷺ ٣٢٩
هو الدين كله . والسنة مبنية له ٣٢٦
وأحكام الاستماع والانصات له ٥٥٢
ولايته تعالى لرسوله بآزاله عليه ٥٦٣
ينبوع المعارف الالهية والهداية لخلق
جده ولا تقناً تتجدد هدايته وعلومه
حتى الكونية ٣٢٧

القرية . استعمالها بمعنى العاصمة اليوم ١٤
قريش : اثنار مشركهم بالرسول ﷺ ٦٥٢
استحقاقهم العذاب بالصد عن المسجد

صفحة	صفحة
الكهرواء . كونها أول مخلوق وآخر	الكنزات . عدم الاعتماد عليها في
حجاب دون الخالق ١٧٦	المنافع والمضار ٢١٢
« مصدر مادة الكون وأطوارها ١٧٥ »	كسب العبد الحقيقي ونفي المشاعد منه
« مصدر النور ومبدأ التكوين ١٧٢ »	عنه وإسناده إلى الله ، وكسبه الصوري
الكون مادته وأطوارها في الكثافة	الذي لا تأثير له فيه ، والجمع بين نفيه
واللطاقة ١٦٥ تقدير مساحتها ١٧٥	وإثباته لمع إسناده إلى الله تعالى ١٦٠
مصدره وسننه ونظامه ١٧٤	التكشف وكون الإدراك للنفس ١٦٣
الكيد والمكر والاستدراج من الله تعالى ٤٥٢	كعب الاجبار . خرافاته في عمر الدنيا ٤٧٢
(ل)	٤٧٦ ، ٤٩٨ رواية بعض الصحابة
اللعب . معناه ٢٧	والتابعين عنه ٥٠٦ زعمه أنه ما من شبر
اللغة العربية . لغة الاسلام ووجوب تعلمها	في الارض إلا وفي التوراة خبره وما
على المسلمين لتوقف عبادتهم والعلم	يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة
بشريعتهم ووجدتهم عليها ٣١٠-٣١٣	وذكر منه صفيين وما يهراق من الدماء
أقف العصا للآلاف ٦٧	فيها ١٩٠ مازعمه في سبب تسمية المهدي
أمة الملك ومة الشيطان في القلب ٥٤٤	٥٠١ وإسرائيلياته ٤١٤ ، ٤٧٦ -
(م)	٥٢١ و٤٨٠
مادة التكون من بسائط ومركبات ١٦٥	الكفار المكذبون . استدراجهم ٤٥١
المتشابه . من قال إنه لا يذكر للعامة ١٥٨	الكتاب : ضرب المثل به في لهته ٤٠٧
المتقون . شأنهم في دفع طائف الشيطان	الكلام الإلهي : خلاصة القول فيه ١٧٨
٥٤٣-٥٥٠	كلام الله والحرف والصوت فيه ١٨٤-١٨٩
المتكبرون بغير الحق ، عدم استدلالهم	الكلام البشري : كونه صفة أو ملكة ١٨٦
بآيات الله الكونية وعدم إيمانهم بآياته	الكلام : حقيقته وصوره والفرق بين كلام
المنزلة وعدم اتباعهم سبيل الرش	المرء نفسه وما يحكيه عن غيره ١٨٨
وإتباعهم سبيل الفى ١٩٦-١٩٨	الكلام : درجات الناس في فهمه ٦٣٠
المعتزلة والأشاعرة ١٣٠	الكلام النفسى . الطرق البشرية للتعبير
« وأهل السنة . خلافهم في الرؤية ١٥١ »	عنه من نطق وكتابة بالقلم والمقتراف
	والفونوغراف والتلقون ١٨٥

صفحة

المسيح: أمثاله في البشارة بمحمد ﷺ ٢٧٤
الأنبياء والمسحاء الكذبة في عصره
٢٣٧ بحث في البشارات به ٢٣٩-٢٤٤
بطلان ادعاء كونه خاتم النبيين ٢٣٦
زيادة النصارى في كلامه ٢٤٨
المسيحية القاديانية الهندية ١٣٥، ٣٣٧
المشركون: تجهيلهم بأشراكهم مالا يخلق
شيئاً وهم مخلوقون ولا يستطيعون نصراً
لعبادهم ولا لأنفسهم ، ولا يتبعون
الداعى إلى الهدى فدعائهم وعدمه
سواء ٥٢٥ ويكون من يدعونهم عباداً
أمثالهم بل أعجز منهم ٥٢٧-٥٣٢
مسيئة الله . الاستثناء لمتعلقها ٥٠٩
« تجرى بحسب سنه ٤٠٩
مسيئته تعالى تجرى بحسب علمه وحكمته
وتعليل ماخى منها بالعلم ٩
مصر . مجارة حكوماتها القديمة والحديثة
العوام على خرافاتهم ٩٦
مصر . ما نقل من استيلاء موسى عليها ٩٨
المعروف له إطلاقاً وكون الأمر به من
صفات المسلمين والعمل به من أصول
التشريع عندهم ٥٣٤
مغفرة الله ورحمته لمن تاب وأصلح ٣٨١
المغفرة والرحمة . الجمع بينهما ٢٠٩ و ٢١٩
المقابلة والتظهير بين التشابهات في التعبير
في القرآن ٣٧١
المقلد كالمعاندا لقيمة الدليل عنده ٣٢
المقلدون الجاهلون التجارهم بافساد الدين ٣١

صفحة

مثل الذى آتاه الله آياته فانسلك منها ٤٠٤
المحرمات الدينية : حصر أنواعها ٥٧٣
محمد عبيد الله التركى المبعوث أحد دعاة
التفريق بين الترك والعرب ٣٢١
المدنية بقاؤها بالفضيلة وإنما الفضيلة
بالدين ٢٣
المذاهب ضرر الخلاف فيها وما يتيق به ١٣٣
المذاهب مفسدة الاختلاف فيها وهدمها
الدين بجعلها أصولاً له ١٢٩
مذهب السلف: تأييد علوم الكون ولا سيما
الكهر بآية له ١٧٢
« رجوع كبار التطار اليه ١٧٩ و ١٨٨
« فى الرؤيه أقرب إلى حقائق العلوم
الكونية من مذاهب
المتكلمين ١٧٧
مرسم أم المسيح . عبادتهم لها ٣٠٩
مسألة الحرف والصوت فى القرآن ١٧٩
مسخ عترة بنى إسرائيل صورى أو
معنوى ؟ ٣٧٩
المسلمون: اتباعهم لليهود فى فسادهم ٣٨٤
التفريق بينهم بالوطن والجنس ١٠
جهلهم بما فى القرآن من أسباب السعادة
٤٢٨ حاتم اليوم وما وصف الله به أهل
النار وأهل الجنة ٤٣٠ سلفهم الصالح
وخلفهم الطالح ٦٤٩ سلفهم وخلفهم مع
الشعوب الأخرى فى الفتح والنصر ٦٦٧
ضياح ملكهم بجهلهم ٥٧٩ من صفاتهم
الامر بالمعروف الخ ٥٣٥

صفحة	صفحة
٢٠٩ و ٢١٩ رجوعه إلى قومه غضبان	المسكر . معناه وإسناده إلى الله ٦٥١، ٢٧
لاتخاذهم العجل ومؤاخذه لهارون	ملكوت السموات كناية عن مجد <small>صلى الله عليه وسلم</small> ٢٧٠
والقاؤه الألواح ٢٠٦ سكوت الغضب	الملائكة . إمدادهم للمؤمنين يبدر ٦١٢
عنه وأخذه الألواح ١١٣ الفرق بين	الملائكة . تشبيهم للمؤمنين يبدر ٦٠٧
رسالته ورسالته من قبله ٣٧ قصته واسمه	الملائكة . تقويهم لداعية الحق والخير
واسم والده ومعنى اسمه وسبب كثرة	في النفس ٥٤٤
ذكره وتكرار قصته في القرآن ٣٦	الملائكة . لم تقا تل يوم بدر ٦١٣
قوله (إن هي إلا فتنك) ٢١٨	الملائكة المقر بون . عبادتهم وتسبيحهم
مراتب إنكاره لطلب قومه أن يجعل	وسجودهم ٥٥٨
لهم إلهاً ١١٤ مواعدة الرب له وميقاته	الملائكة والجن . تشكلم في الصور ١٦٢
له ١١٩ موضوع رسالته لفرعون	ملاحظة زماناً ومعطلته ٣٠٩
تخليته له عن بني إسرائيل ٤٣ وجود	المن والسلوى لبني إسرائيل في التيه ٣٦٨
أمة من قومه تهدي بالحق والعدل	المسكر . فاعلموا والناهون لهم والساكتون
٣٦٣ وصيته لقومه بالاستعانة بالله	وجزاء كل منهم ودرجات النهي عنه
والصبر ووعدهم بآرث الأرض ٨٠	وتغييره ومتى يسقط ؟ ٣٧٦-٣٧٨
المهدي . الاختلاف والتعارض والاشكالات	موسى عليه السلام . آيته في عصاه وفي يده
في الأحاديث الواردة فيه ٤٩٩، ٤٥١	٤٤ اختياره ٧٠ رجلا للميقات وما
« الاختلاف في نسبه وسببه ٥٠٢ »	حل بهم ٢١٥ استخلافه لهارون وأمره
« انتظاره وما كان ينبغي لانتظاره ٤٩٩ »	بالاصلاح ١٢١ اصطفاؤه بالرسالة
موافق الله المأخوذة بالفطرة ٤٠٠	وبالكلام ١٢٧ ألواحه وكتابتها وما
المؤمنون حق الايمان ٤٩٤	كتب فيها ١٨٩ أمره بأخذ الشريعة
المؤمنون الكاملون . صفهم وجزاؤهم	بقوة ١٩٢ انبجاس الماء له من الحجر
٥٨٨-٥٩٦	٣٦٦ تلقيه كلمات الشريعة في ٤٠ يوماً
المؤمن . شأنه العلم والاعتبار والاستفادة	١٢٠ توبته وكونه أول المؤمنين ١٢٦
من الحوادث والأقدار ١٨	حبته على فرعون بعصمته في التبليغ
ميقات الرب لموسى ١١٩	خروجه صعباً من التجلي ١٢٥ تكليم
الميثاق الالهي . أخذه على بني آدم واشهادهم	الرب له وطلبه الرؤية ومنعه منها ١٢٢
على أنفسهم برؤيته ٣٨٦	دعاؤه له ولأخيه بالمغفرة والرحمة

صفحة

ن

النار. أشد عذابها الحجاب عن الله ١٥١
النار. صفات المخلوقين لها في عقولهم
ونفوسهم وحواسهم وضلالهم وغفلتهم
وتفصيل الأنعام عليهم ٤٣١-٤٣١
النار. (راجع أهل النار)

النبي والرسول معناها ٢٢٥
النبي المعروف بلام العهد في الانجيل ٢٣٥
نبينا. اتباعه في العادات ٣٠٧. إجهاده
ورأيه في أمور الدنيا ٣٠٤. إجهاده
وأخذه بالقرائن فيما يتعلق له من المغيبات
٥٠٦. احلاله الطيبات وتحريمه الحباث
ووضعه الاضر والأغلال التي كانت
على أهل الكتاب ٢٢٨. إخباره بالغيب
وظهور صدقه فيه ٢٥٥. إرساله
باللسان الغربي إلى جميع البشر يقتضى
وجوب توحيد لغتهم لئلا يتحد بينهم
٣١٠. استخراج اسمه من التوراة
بحساب الجمل ٢٦١. استدلاله على عدم
علمه الغيب ٥١١. أصول الإيمان
التي دعا اليها ٣٠٠. إعلام الله إياه
ببعض ما سيقع لامته ٥٠٥. الأمر
بالتمسك في حاله وتربيته وما كان
عليه وما جاء به ٥٦٤ و٥٦٤. أمره بأن
ينفى عن نفسه ملك الترفع والضر
بغير طريق الاسباب وعلم الغيب ٥٠٧
و ٥٦٤. أمره بالمعروف ونهيته عن

صفحة

المسكر ٢٢٧. اثمار قریش به الذي
تقدم الهجرة ٦٥٠ و ٦٥٢. بشارات
التوراة والانجيل وغيرها به ٢٣٠-
٣٠٠. (راجع بشاره) بشاره داود
به بصفاته ٢٦٥. تسميته بمحمد في
انجيل يرنابا وبأحمد في غيره ٢٩١
- ٢٩٧. تسمية المسيح إياه بالفارقليط
٢٧٧- ٢٩١. التشريع وغيره من أقواله
وأفعاله ٣٠٣. تنفيذ الجصاص الرواية
في كونه مسحور ٥٨. تمثيل بعض المغيبات
له ٦٠٦. توكاه يوم الغار وخوفه يوم
بدر وحال الصديق فيهما ٦٠٤. تكمية
المسيح له بملكوته السموات ٢٧٠. تكمية
المسيح له بالحجر رأس الزاوية ٢٧٤
حصر القلاح في الذين آمنوا به وعزروه
وانصروه واتبعوا النور الذي أنزل
معه ٢٢٩. حصر وظيفة رسالته في
التبليغ عن الله إنذاراً وتبشيراً ٥١٤
حكمة التعبير عنه بكونه صاحياً لقومه
٤٥٦. الخمس التي أعطاها دون سائر
الأنبياء ٣٠٠. خوفه ودعاؤه يوم بدر
٦٠٢. دعوته أهل الكتاب إلى الاسلام
وحججه عليهم والفرق بينهما وبين
دعوة المشركين ٣٠٩. رجوعه عن
رأيه إلى رأى الحباب بن المنذر سيدنا ٦١١
نبينا الرحمة الخاصة المكتوبة لاتباعه ٢٢٤
رؤيته لجبريل بصورته ١٤٠، ١٧٣
رؤيته للجن الملائكة ١٧٣. رؤيته

صفحة	صفحة
وصفه بالامية في الكتب الالهية ٢٢٤	المشركين بالتراب بيدر ونفيه عنه
وصف المسيح أمته بالاولين	مع إتيانه وإسناده إلى الله تعالى ٦٢١
والآخرين وضرب المثل لهم ولبن	رعى المشركين له بالجنون وكون
قبلهم ٢٢٣. وصفه بالنبي الأمي ٢٢٤	التفكر الصحيح يبطل هذا ٤٥٣
و ٣٠٠ وصف أمته في القرآن ٤٩٤	شفاعته العظيمي ٣٠١ شهادة علماء
النساء . الافتتان بين بالتدريج ٥٤٧	اليهود من أسلم منهم له ٢٥٦ علمه
تهتكين وغورهن في هذا الزمان ٥٤٨	بسنن الاجتماع والتصرف في القتال
سلامة المتقين من فتنين ٥٤٥	٦٠٦ عموم رسالته وما دعا البشر اليه
شبهة من يزعمون المصلحة في معاشرتهم	٣٠٧، ٣٠٠ عموم رسالته الآيات فيها
لاختيار الأزواج وشواهد على معاسد	٥٦٤، ٣١٦ علو درجته على الصديق
ذلك ٥٤٨	في التوكل والخوف ٦٠٣ كشف
النشرة للمريض وما يحرم منها ٤٢٢	مصارع الكفار له بيدر ٦٠٦ كونه
النصارى . تأويلهم للبشارات بنينا ٢٣٨	ليس إلا نذيراً مبيناً ٤٥٥ كونه
النصارى . عبادتهم لمريم والصالحين	مكتوباً في التوراة والإنجيل وصفاته
وصورهم وتماثيلهم ٣٠٩	فيهما ٢٢٦ لم يكن يخبر أصحابه بكل
النصر . وعد الله به للمؤمنين حجة على	ما أطلعه الله عليه ٥٠٥ لم يكن يعلم
متأخري المسلمين لاهم ولا للكفار على	الغيب ٥٠٤ و ٥٦٤ مراجعة الصحابة
المؤمنين الصادقين ٦٦٧	له في رأيه ٣٠٤ معجزة تاريخية له
النصوص المحرفون لها من اليهود والجوس	١٠٠ مقامه أعلى العبودية ودون
لافساد الاسلام ودولته ٢٣٥	الربوبية ٥١١ من قال لا تحب طاعته
النصوص في رؤية الرب . تعارضها	بعد وفاته فهو زنديق ٦٣٣ نفي خبر
والاحتمال فيها ١٣٧	رؤيته لربه ليلة المعراج ١٤٧ و ١٤٠
النظر بعينيه الحسى والعقلى ٤٦٠	نفيه عن ضيق الصدر بجلال القرآن
« العقلى . تعظيم شأنه ٥٧٠	٥٦٣ وجوب اتباعه ولو ازمه ٣٠٢
« « في المكوت . الحث عليه ٤٥٧	نبينا ، وجوب الاستجابة له على من دعاء
النعيم بركة للمؤمنين وفقته للكافرين ٢٤	حتى بعد مماته وما يسلق به الوجوب
النفس . درجاتها ٣ أمانة بالسوء لو امتد	من أمر الدين القطعى مع مقابله ٦٣٢

صفحة	صفحة
الوحدة الاسلامية باللغة العربية ٣١٣	مطمئنة ٥٤٧
الوحدة الاسلامية وجوب السعى لاعادتها	التفيع والضرب بغير الكسب لله وحده ٥٠٨
كما كانت في عصر السلف ٣٣٠	نكت البلاغة في الجمل الحالية ١٥
وحدة الوجود ووحدة الشهود ١٦٦	النور . الحسى والمنوى ١٧٢
وزن الاعمال يوم القيامة ٥٦٨	« العالمى والنور الالهى والكهرباء ١٧٣
الوطن والدين التعارض بينهما ١٠٤	« ماورد في الكتاب والسنة من اسناده
وقائع كشفية للمؤلف وغيره ١٦٤	أو اضافته إلى الله وإلى وجهه واطلاقة
الوهابية ١٠٩	على كتابه ورسوله ١٧٢
وهب بن منبه، خرافاته في عمر الدنيا ٤٧٢	النور مبدأ التكوين ومصدر التطور ١٤١
« اسرأيليته ٤١٤-٤٧٦-٤٨٠	النور والحجب والتجلى الالهى ١٦٨
الولاية الروحانية عند الجبهة والدجالين ٦٥٩	نور التجلى والحجاب ونور الرب ١٧١
الولاية العامة والخاصة وجهل الجمهور	نور الذكر في الدنيا والقبر والحشر
بهما وبأهلها ٦٥٨	والصراط ١٧٠
ولاية الله وأصره للمؤمنين بشرطه ٦٦٧	نور الكشف مبدأ الشهود ١٦٨
❖ ي ❖	النوم المغناطيسى والعمل في حال النوم ١٦٠
اليقين في الايمان وغيره لا يستطيع	❖ ه ❖
صاحبه تركه ٦	هارون، استخلاف موسى له ووصيته ١٢١
اليهود ابتلاؤهم بالحسنات والسيئات ٣٨٢	هارون، تعنيف موسى له وجوابه ٢٠٧
« تأويلهم للبشارة بالمسيح وبمحمد ٢٣٨	الهجرة من الوطن لأجل الدين ٤
« تقطيعهم أئماً منهم الصالح والطالح ٣٨٢	هداية الله وإضلاله ٤١٧
اليهود عقابهم بسلب الملك ٣٨٠ فسادهم	هداية الله وإضلاله بمقتضى سننه ٥٦٢ و ٤٥٩
بالطمع في الدنيا وتمنى المغفرة ٣٨٣	هداية الناس بالحق والعدل ٥٧٢
يوحنا لم يعرف نفسه ولا المسيح ٢٣٣	الهوى ، اتباعه والاخلاد إلى الأرض
يوسف عليه السلام ، معنى هم امرأة	٤٠٦
العزير به وهم بها ٥٤٦	❖ و ❖
يوم القيامة ، أسماؤه في القرآن ٣٤٨	الوثنية في الجاهلية وبعد الاسلام ١١٠
(تم الفهرس)	وجل القلوب لذكر الله ٥٨٩